المجلد الرابع 4



إيمانويل فليكوفسكى

عصور فى فوضى

ترجمة: أحمد عمر شاهين
رفعت السيد على
فاروق فريد
محمد جلال عباس



المحرر: رضا الطويل

تهويد التاريخ
(٤)

عصور فى فوضى

إيمانويل فليكوفسكى

ترجمة

أحمد عمر شاهين
رفعت السيد
فاروق فريد
محمد جلال عباس

جماعة حور الثقافية 
القاهرة ت : ٠٢/٢٥٠٠٠٠٥٥
الكتاب : عصور فى فوضى Ages in Chaos
الكاتب : إيمانويل فليكوفسكى
الترجمة : أحمد عمر شاهين - رفعت السيد على - فاروق فريد - محمد جلال عباس
الغلاف : حسين جبيل
خطوط غ : حامد العويضى
رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٣٥٢٤
الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-305-292-1
الجمع : الحضارة للنشر
التنفيذ : شركة الأمل للطباعة والنشر
الترجمة العربية الكاملة
الطبعة الأولى : ٢٠٠٢

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
العروبة للدراسات والأبحاث
(تحت التأسيس)



تهويد التاريخ

عصور في فوضى

التحرير

عصور فى فوضى

السفر الخامس

شعوب البحر

ترجمة:

محمد جلال عباس

مقدمة

يمكن قراءة هذا الكتاب الذي يمثل جزءاً من سلسلة عصور في فوضى التي تتناول إعادة بنيان التاريخ القديم قراءة منفصلة عن الأجزاء الأخرى من السلسلة. فإن الفترة الكلية لإعادة بنيان التاريخ تغطي إثنى عشر قرناً تبدأ من نهاية الدولة الوسطى في مصر، وهي ما أرى أنها متزامنة مع خروج بني إسرائيل من مصر حتى مجيء الاسكندر الأكبر المقدوني وما أعقبها حتى العصر البطلمي الأول، والحكم الهليني لمصر ويغطي هذا الجزء من السلسلة فترة تزيد عن قرنين من الزمان تمتد في نهاية تلك الفترة الكلية التي نتناولها.

تضمن الجزء الأول من عصور في فوضى الفترة من الخروج حتى الملك اخناتون ونشر عام ١٩٥٥، وهو إعادة تشكيل للتاريخ الذي يغطي ستة قرون تنتهي بالملك يهوذا في أورشليم واهاب ملك سومر وعصر تل العمارنة في مصر قرب نهاية حكم الأسرة الثامنة عشرة التي أحدد لها القرن التاسع (ق.م). ولقد كانت لدى نية صادقة لتوفية وعدى بأن أضع بين يدى القارىء خلال فترة زمنية وجيزة بقية إعادة تشكيل التاريخ وهو المجلد الثاني والأخير من عصور في فوضى، إلا أن القرار الذي اتخذته بعد ذلك بإطالة المجلد الثاني بحيث يشتمل على جزئين أو ثلاثة قد أدى إلى تأخير تنفيذ الخطة الموضوعة. (كانت الأحداث النهائية التي ختمت عصر الأسرة الثامنة عشرة هي موضوع الجزء الخاص عن أوديبوس واخناتون الذي نشر عام ١٩٦٠).

ويغطي كتاب شعوب البحر كما سبق أن ذكرت فترة قرنين من السيادة الفارسية واستمرارها حتى غزو الاسكندر الأكبر لمصر ثم عهود

البطالمة الأولى. وفى خلال هذه الفترة الزمنية حيث الأسرة العشرين (أسرة رمسيس الثالث) والأسرة الحادية والعشرين موضوعتان عادة فى زمن مبكر بنحو ثمانية قرون، أجد نفسى ملزماً ألا أضعهما فى أى مكان آخر من التاريخ المعاد بنيانه بنيانه خلاف ذلك، حيث توجد فجوة عظيمة بين هذا البنيان وبين البناء المتفق عليه فى سلسلة الأحداث.

ومع تحريك الأسرة الثامنة عشرة فى مسلسل السجل التاريخى أكثر من خمسة قرون فإن الجزء الأول من سلسلة «عصور فى فوضى» استبعد جزءاً من التاريخ التقليدى، وأقام مكانه جزءاً آخر لإعادة بنيان التاريخ.

ومع نقل الأسرتين العشرين والحادية والعشرين إلى زمن الحكم الفارسى لمصر وإبعادهما عن التاريخ الذى كانتا موضوعتين فيه عادة فإن هذا المجلد الذى بين أيدينا يقيم تعديلاً آخر مماثلاً وتقوم الفترة الزمنية للتاريخ القديم على أساس هذين التعديلين، ولا يمكن للتاريخ القديم المعتاد الذى يبدو أن وضعه قد تغير، لا يمكن أن يلتمس تعديلاً فى أجزائه المتوسطة.

ويتناول الجزء الأوسط من سلسلة كتاب «عوالم فى فوضى» (وهو كتاب «رمسيس الثانى وعصره») الجزء الأوسط من التاريخ الذى يمتد من القرن التاسع إلى القرن السادس قبل الميلاد.

ولعل المجلد الثانى من كتاب عصور فى فوضى والذى تم تخطيطه بحيث يشمل العصر الاغريقى المظلم، والغزو الأشورى، ورمسيس الثانى وعصره، وشعوب البحر، يفسر بامتداده هذا السبب فى أننى لم اصدر أى كتب فى الفترة من عام ١٩٦١ إلى عام ١٩٧٧، وإننى إذ اعتذر عن ذلك لألفت النظر إلى أن النص الجديد لكتاب التاريخ القديم الذى تصدره كمبريدج قد استغرق سنوات عديدة واشتغل فيه عدد كبير من العلماء، كتب كل منهم فصلاً من فصوله، وكان له تمويل جيد، بينما قمت بمثل هذا العمل وحدى وبتمويل ذاتى، ولم يستطع كتاب التاريخ القديم الذى نشرته كمبريدج بما حشد له من سكرتارية وجيش من العلماء لإعادة كتابته أن يجدد أو يغير من التاريخ تغييرا فى حين أننى فعلت ذلك. فمثل هذه المقارنة تعفينى من ذنب التأخير. ولئن كان ذلك جزءاً من الإعتذار فإن الحقيقة تكمن أيضاً فى أن الدخول إلى عصر الفضاء الذى بدأ فى اكتوبر

سنة ١٩٥٧ بإطلاق أول صاروخ إلى الفضاء وهو سبوتنيك والذى أعقبه فى السنة التالية إطلاق مارينر وأبوللو قد غير من اهتماماتى ووجهتُها نحو المشاكل الفلكية. ففى مجال الكونيات ظهرت آراء عن أن افراد النظام الشمسى لا تسير فى مداراتها المعروفة منذ الأزل تتكرر بنفس النمط منذ بداية الزمان. وأن محور الأرض قد غير اتجاهه وتغير طول الليل والنهار ومن ثم لم يعد هناك بد من تغيير النظرة فى آلية الحركة السماوية، فإلى جانب قوة الجاذبية والقصور الذاتى أصبحت المجالات والقوى الكهرومغناطيسية تلعب دورها الكبير فى الحسابات. ولقد أدى هذا التغير فى المفاهيم الخاصة بالظواهر الطبيعية إلى أن مفاهيمى التى لقيت من السخرية خلال العقود السابقة الكثير، قد وجدت ما يدعمها مما انعكس على نفسى بالرضى. فليس من الصعب أن نفهم أن اكتشاف حالة التوهج فى كوكب الزهرة ووجود سحب كثيفة تغلفه ومناخه الذى يؤدى إلى بلوغ الضغط الجوى درجة ٩٠ عن سطح الأرض، أو السفر إلى القمر وارتياده مع اكتشاف مخلفات مغناطيسية فى صخوره، ووجود إشعاع قوى فى أجزاءمعينة منه مثل فوهة اريستارشوس، والهبوط المفاجىء فى درجات حرارته تحت السطح، ووجود آثار هيدروكربونية، وفراغات من غازات النيون والأرجون فى الصخور، أو ثراء تربة المريخ وتربة القمر بالعناصر المشعة وكلها من الظواهر التى افترضت وجودها فى كتبى ومذكراتى. كل ذلك أبعدنى زمناً طويلاً عن ملوك الفراعنة والأشوريين والفرس.

وقد تكون هناك أيضاً عوامل نفسية تتمثل فى التكاسل والمماطلة. ألم تتح الفرصة لمزيد من علماء الآثار أن يقرأوا الجزء الأول من كتابى «عصور فى فوضى»؟ ألم نجد أن الذين رفضوا هذا الجهد العقلى هم الذين واجهوا التناقضات وقابلوا المزيد من الطرق المسدودة وألفوا العديد من الكتب التى أرادوا سحبها؟ أو ربما كنت أستمتع بعد التجربة المريرة التى مررت بها بأننى الوحيد الذى أمتلك المعارف التى شاركنى فيها عدد قليل من المرتبطين بى فى سنوات تالية عن كيف كانت مسيرة التاريخ؟

لو أن هذه الاتهامات النابعة من ذاتى لم تتولد فربما، انتهى إليها اهتمامى بمشكلة رد فعل المجتمع البشرى إلى الهذيان الذى مر بى فى

الماضى وتركنى حتماً فى حالة يقظة خلال الفترة التى زعم فيها قرائى بأننى لم أوف بوعدى فى إصدار الجزء الثانى من كتاب «عصور فى فوضى»

لكن هناك شىء واحد وددت لو أنه حدث قبل أن ينشر كتاب عصور فى فوضى ويوازن ما استنتج من بحوث الاشعاع الكربونى ذلك أن مسألة الكربون ١٤ وامكان تطبيقها على التسلسل الزمنى للتاريخ القديم أصبحت أكثر صلة بالموضوع وذلك بسبب الظاهرة التى تؤكد لنا حتمية اختلال توازن النسبة بين الكربون ١٢ والكربون ١٤ فى كل من الغلاف المائى والغلاف الحيوى حينما وقعت أحداث الكوارث الكونية. لقد ناقشت هذه الفكرة فى مكان آخر (١)، ولكن باستطاعتى أن أصرح هنا بأنه بعد إثنى عشر عاما من نشر ليبى عن موضوع التأريخ بالإشعاع الكربونى الذى ظهر فى نفس السنة التى ظهر فيها الجزء الأول من كتابى «عصور فى فوضى»(١٩٥٢)، حاولت بكل طريقة، أن أجرى الاختبارات الكونية على عينات مناسبة من الدولة الحديثة فى مصر وبخاصة من عصر الأسرة الثامنة عشرة، دون أى جدوى.(٢) وظل الأمر كذلك حتى عام ١٩٦٣ حينما نجحت فى أن أجعل المتحف المصرى بالقاهرة يفرج عن ثلاث قطع خشبية صغيرة من بعض الأدوات الجنائزية لتوت عنخ آمون لاختبارها فى معمل متحف جامعة بنسلفانيا. فبينما كان المتعارف عليه أن الملك الشاب توفى فى عام ١٣٥٠ ق.م(٣)، وأن تقديرى لسنة وفاته فى إعادة بناء التاريخ كان عام ٨٣٥ ق.م، فإن التحليل الكربونى دل على أن هذه الوفاة كانت فى عام ١٠٣٠ ق.م (أو حسب تواريخ ليبى ١١٢٠ ق.م)، ثم حدث بعد ذلك (فى ٢ مارس ١٩٦٤) أن كتبت إلى الدكتورة اليزابيث ك رالف فى متحف جامعة فيلادلفيا أستفسر عما إذا كان عمر كربون الخشب يدل على زمن تكوين الحلقات والتأكد من أنه إذا كان الأمر كذلك فإن القطعة الأكبر من القطع الخشبية الثلاث التى اختبرت كلها معاً (حيث إن الاختبار الوحيد يحتاج إلى ٣٠ جرام)، لو أنها كانت من خشب الأرز اللبنانى المعمر فقد تكون النتيجة وجود بعض الانحراف ولو أنها كانت من خشب قصير العمر مثل البوص أو البردى لأشارت إلى ما قبل عام ٨٤٠. أكدت الدكتورة رالف أن العمر بالإشعاع الكربونى يعكس الزمن الذى تكونت فيه الحلقات وليس

التاريخ الذى قطعت فيه الشجرة.

لكن اقتضى الأمر سبع سنين أخرى، ففى ربيع عام ١٩٧١ قام معمل المتحف البريطانى بتحليل بعض القش والحبوب التى أخذت من مقبرة توت عنخ أمون وبخاصة قش حصيره وبذرة نخيل. وقد تبين من الأخيرة أن عمرها يرجع إلى عام ٨٩٩ والثانية إلى عام ٨٤٦. وقد عرفت هذه الأرقام من خطاب أرسله دكتور ادواردز أمين المصريات فى المتحف البريطانى إلى دكتور ميشيل بمتحف جامعة بنسلفانيا فى ٦ ابريل سنة ١٩٧١.(٤) لم ينشر المتحف البريطانى هذه النتائج التى توصل إليها كما هى أصلاً، على أساس ما قد تثيره فى المستقبل فى ضوء عدم اتفاقها مع التواريخ المأخوذ بها، من شكوك فى أن القش والبذور كانت ملوثة، رغم أن الكهف المدفون به توت عنخ أمون ظل مغلقاً منذ الدفن حتى اكتشفه هوارد كارتر سنة ١٩٢٢، وحفظت كل حاجياته فى متحف القاهرة، كما أن المياه لم تتسرب إلى الكهف.

ولقد كان من الطبيعى، فى ضوء مثل هذه النتائج، التى تنبأت بها منذ وقت مبكر جداً من أن الاختبارات ستتكرر على الأدوات الجنائزية لتوت عنخ أمون، ولكن إذا ما أجريت هذه، الاختبارات فإن نتائجها سوف تعلن.

وربما كان من الأهمية بمكان أن نقارن العمر الكربونى للعاج الذى وجد فى مقبرة توت عنخ أمون مع العاج الذى وجد فى قلعة شالمانصر الثالث قرب النمرود. وإذا ما كانت الواقعات التى حدثت خلال القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد قد أثرت على نتائج التأريخ الكربونى فإننى أعتبر أن لوحتى العاج كانتا متعاصرتين تقريباً، ولابد أنهما يعطيان نتائج متشابهه. ولم يدهشنى وجود رسالة أو أكثر من رسائل تل العمارنة فى أسفل اللوحة العاجية الكبرى التى عثر عليها فى قلعة شالمانصر العسكرية هذا، ولا يحتاج عمل «إعادة البناء التاريخى إلى مزيد من التأكيدات بطريقة التأريخ الكربونى، وإن كنت أشعر بشدة أنها قد تخدم كوسيلة لضبط المنهج وليس العكس، ولكنها قد تثير لدى الكثير من المشتغلين بالتوثيق فى مجالات التاريخ والآثار الرغبة فى بحث إعادة بنائى للتاريخ، أولاً بقراءة كتاب عصور فى فوضى وربما يؤدى إلى

استثارة الدافع للتحقق من صحة الكثير من التأريخات الكربونية التى لم تنشر، لأن هذه النتائج فيها انحراف يصل إلى نصف ألف أو أكثر عن التواريخ المتفق عليها.

وبمرور الزمن، ظهرت طرق أخرى لتحديد عمر الأشياء (مثل طريقة الإشعاع الضوئى الحرارى للمواد غير العضوية مثل البلاط والزجاج والفخار) مما قد يحمل شهادة لصالح إعادة بناء النص التاريخى المقدس. وعلى ذلك فإن البلاط المأخوذ من قصر رمسيس الثالث (والذى نتناوله فى الفصل الأول) قد يزودنا بمادة قيمة من فحصها بالإشعاع الضوئى الحرارى لعصرها.

وسوف يجد قراء هذا الكتاب العديد من المفاجآت، فلم تكن شعوب البحر الذين حاربوا فى مصر متجولين فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد بل كانوا قراصنة فى القرن الرابع قبل الميلاد، وأغلبهم من آسيا الصغرى واليونان من عصر أفلاطون. ولقد زار الاسكندر الأكبر معبد آمون فى الصحراء الليبية، ويقول المؤرخون إننا لن نعرف أبداً ما الذى دفعه إلى ذلك حيث إن الاسكندر لم يذكر شيئاً عن ذلك، بيد أن قارىء هذا الكتاب سوف يعرف فى الحقيقة ما دفعه إلى ذلك، حيث إن ما سجله المصريون عما حدث مما كتبه كاهن المعبد وقدمناه فى هذا الكتاب. وهناك كاهن آخر من الأمراء اسمه سى آمون يؤرخ له عادة فى القرن العاشر (ق.م) جاء ذكره فى بعض الأحيان على أنه حمو الملك سليمان، ويذكر أنه عاش فى عهد بطليموس الثانى فى القرن الثالث قبل الميلاد.

هوامش المقدمة

1- Immanuel Velikovsky, "The Pitfalls of Radiocarbon Dating" pensée IVR IV, Spring 1973, pp 12 ff.

٢- أنظر مجموعة الرسائل المسماة "ASH" فى مجلة Pensée, IVR VI, Winter 1973-74, pp 5 ff

٣- طبقا لما ذكره W. Christopher Hayes بمتحف العاصمة للفنون.

٤- أعطى الدكتور ادوارد نسخة من هذا الخطاب للمستر بروس ماينوارنج فى كلية المدينة فى بنسلفانيا بمناسبة زيارته للندن بقصد التأثير على المتحف البريطانى كى يقوم باختبارات لمراجعة عملى فى إعادة بناء التاريخ.



الباب الأول

الفصل الأول

القرن الثانى عشر
أم القرن الرابع

نظام الأشياء

إن نظام الأشياء الذى ورد فى كل كتاب عن التاريخ القديم، يقدم لنا القرن الثانى عشر قبل الميلاد باعتباره عصر اضطرابات كبرى فى حياة الشعوب التى كانت تعيش فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وهى المنطقة التى يطلق عليها عادة اسم الشرق القديم ويتضمن هذا النظام أن موجات الشعوب قد أتت من المجاهل الشمالية وزحفت على أراضى الحضارات القديمة وتركت كل شيء فى كل من تلك الحضارات أطلالاً بعد أن كانت مناطق ثراء مزدهرة، وأن الحال قد تحول إلى فوضى، وتحول الغنى إلى فقر وعوز، وأصبحت الشعوب هائمة على وجوهها مخلفة وراءها أمجاد ماضيها، واتجهت هجراتها على امتداد شكل هلالى معتدية على حدود شعوب أخرى.

وانتهت الحضارة المسينية التى تمركزت حول مدينة مسنا فى بلاد الاغريق وكانت تضم أيضاً جزر بحر إيجه، وتعتبر حرب تراجان، حسب ما يرى الكثير من العلماء واحدة من الآثار النهائية لهذا التشتت السكانى الذى حدث نتيجة لإزاحة الشعوب عن كل الأراضى.

وبناء على هذا النظام للأشياء أيضاً أنه حدث بعد حروب تراجان مباشرة فى خلال سنوات قليلة أن فلولا مسلحة كان لها تنظيم كفيل بأن يطلق عليها اسم جيوش، وصلت إلى مصر التى كان يحكمها أنذاك الملك رمسيس الثالث.

ويعتبر رمسيس الثالث بصفة عامة آخر ملوك الفراعنة الذين ينتمون للعصر الإمبراطورى فى مصر. ومرت الدولة الحديثة التى تتكون

من الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين فى مرحلة اضمحلال، ونظراً لأن تحتمس الثالث كان أعظم الملوك الغزاة من الأسرة الثامنة عشرة، وأن امنحوتب الثالث كان أوسع الملوك ملكاً، وأن سيتى الأول ورمسيس الثانى كانا محاربين عظيمين فى الأسرة التاسعة عشرة، وعلى ذلك يكون رمسيس الثالث وحده هو البطل بين ملوك الأسرة العشرين. وبنهاية هذه الأسرة يأتى العصر الذى يسمى العهد المتأخر أو المملكة الأخيرة للتمييز بينه وبين عصر المملكة الحديثة. وفى نظام التاريخ الشائع يمتد العهد المتأخر أو المملكة الأخيرة فيما بين عهد الأسرة العشرين والسنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر (ق.م)، ويرجع القضاء على آخر الملوك الوطنيين وهى الأسرة الثلاثين إلى عشر سنوات قبل غزو الاسكندر المقدونى لمصر.

وطبقاً لحسابات المؤرخين المحدثين يبدأ عصر رمسيس الثالث فى عام ١٢٠٠ ق.م أو بعده بقليل (١). ولقد كان الحدث الرئيسى فى فترة حكمه هو المواجهة الناجحة للجيوش التى أتت من الشمال، إذ إن فلول الشماليين قد وصلت فى زحفها إلى أبواب مصر التى كانت أعظم وأقوى الممالك. وكانت مصر فى كل العصور هى مقصد الجميع، من ايشرهادون واشوربانيبال الأشوريان، وقمبيز الفارسى، والاسكندر المقدونى، وبومبى الرومانى، وعمرو العربى، وسليم التركى، ونابليون، ومن قبلهم وبعدهم من قادوا الحملات العسكرية كى يشربوا من ماء النيل. ولكن رمسيس الثالث واجه الغزو وحارب الغزاة فى البر والبحر، ثم عاد لكى يقضى على ما يهدد مصر من الجهة الأخرى.

ولقد عرفت هذه الحرب بالحرب ضد شعوب البحر أو شعوب الجزر وهو الإسم الذى أطلقه رمسيس الثالث عليهم.(٢) ولقد حفظت لنا النصوص التاريخية، والرسوم المنحوتة على الحجارة أخبار هذه الحرب، وانتصارات الفرعون، ولكن لا يعرف شيء عن زحف القوات الغازية قبل أن تصل إلى حدود مصر، ولا نجد لها أثراً فى المصادر التاريخية سواء المكتوبة أو الأثرية. وأمكننا فقط بواسطة قياس الأمور أن نعرف أن، الإغريق المسينيين وإمبراطورية الحيثيين، والعديد من الممالك الأخرى الأصغر قد تعرضت للغزو من جانب شعوب البحر الزاحفة. وهى نتيجة توصلنا إليها

على أساس الحقائق التى تدلنا على أن هذه الممالك والإمبراطوريات قد انتهت قرابة عام ١٢٠٠. وعلى مدى الأربع أو خمس قرون التالية لم نجد أى أثر يدل على وجود شعوب تلك الممالك فى تلك الأراضى.

فما الذى تدل عليه بلاد الاغريق والجزر بما فيها كريت فى الفترة الممتدة من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ٧٥٠ أو ٧٠٠؟ بعد انتهاء العصر المسينى وسقوط طرواده ساد الظلام الكامل تاريخ تلك المناطق وبدأ شعاع النور يظهر فيكشف المنطقة مع بداية العصر الإغريقى أو الأيونى نحو عام ٧٠٠ (ق.م) ففجأة تأتى أشعار هوميروس منبثقة من لا شىء، وتظهر من خلال تلك الأشعار الحميمية الشائعة كل صغيرة وكبيرة عن الحياة التى كانت سائدة فى العصر المسينى الذى مضى عليه نحو عشرة قرون، مما سبب الدهشة فى أوساط العلماء وأصبح موضوعاً لجدل لا ينتهى.

يطلق على القرون الممتدة من سنة ١٢٠٠ إلى ٧٥٠ اسم عصور الظلام. لم تكن مظلمة بالمعنى الذى تستخدم فيه الكلمة عن عصور الظلام التى امتدت فى أوربا من نهاية الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٥ ميلادية إلى نهاية الحروب الصليبية فى الشرق، فإن هذه القرون التى امتدت من نهاية القرن الخامس إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى تمثل تأخراً فى المعارف وفى التجارة وفى الإدارة وفى القوانين، إذا ما قورنت بعصر الإمبراطورية الرومانية، وهى تختلف بذلك عن عصور الظلام التى امتدت من ١٢٠٠إلى ٧٥٠ ق.م والتى أطلق عليها هذا الإسم لعدم وجود أى وثيقة عنها سواء فى بلاد الاغريق أو كريت أو حوض بحر ايجه أو آسيا الصغرى.

لم يسبق أن نوقش هذا النظام للأشياء، بيد أن قبوله هكذا يضع أمامنا مشكلات صعبة إما أننا نقف أمامها دون أن نجد لها حلولاً، أو أن يكون حلها على حساب خلق مشكلات أخرى ذات صعوبة. وعلى كل فسوف نتناول بعض هذه المشكلات فى هذا الكتاب.

يزعم العلماء الذين تناولوا هذه المشكلة أن شعوب البحر قد أتوا من منطقة بحر ايجه، ونظراً لأن الأحداث كانت فى بداية القرن الثانى عشر فلابد أنهم كانوا من الإغريق المسينيين وحلفائهم ممن تركوا أوطانهم الأصلية. ويعدد رمسيس الثالث القبائل التى تكونت منها شعوب البحر،

وبذلت الجهود المضنية للتعرف على هويتهم على أنهم من قبائل الآخيين القدماء.

كان من آثار حرب طرواده أن اتسع نطاق هجرات الاوديسيين من معسكر الآخيين والآينيين ممن بقى من اتباع تروجان. ورغم أن الأوديسيين زاروا مصر فى عهد لم تكن فيه فى حالة حرب فيغلب الظن أن موجة كبيرة من الآخيين المهاجرين قد حملتهم عن طريق البر والبحر إلى مملكة النيل.

وإلى جانب شعوب البحر فإن الآخرين الذين شاركوا فى حرب مصر كانوا من المحاربين الأشداء الذين عرفوا باسم البيريسيت. يذكرون بهذا الإسم لأنهم كانوا قادة الحملات، وكان المحاربون من شعوب البحر المرتزقة فى جيوشهم.

ويفترض أن الفلسطينيين الذين لم يذكروا كمساهمين فى حروب طروادة، قد شاركوا فى الهجرات التى أعقبت الحرب، وينبنى هذا الافتراض على وجود التشابه اللفظى بين اسم الفلسطينيين والبيريست، وأن حروبهم مع مصر فى عهد رمسيس الثالث. قد أتت فى وقت وصول الفلسطينيين إلى الساحل، وأن وصولهم هذا كان قبل الغزو الإسرائيلى للمناطق الجبلية من البلاد بقليل، ويغلب الظن بأنهم يذكرون فى نفس الأحداث. هذه وجهة نظر تحتاج تأخيراً فى تاريخ دخول الإسرائيليين إلى بلاد كنعان إلى وقت بعد عام ١٢٠٠، وهى وجهة نظر لا نجد من يؤيدها فى تأخير عهد القضاة فى النسق التاريخى بأكثر من مائة عام بقليل، بدلاً من الزمن التقليدى الذى يؤخرهم أربعمائة عام.

ولاستكشاف العلاقة الحقيقية بين تتابع الأحداث التى مرت بالمسينيين وأهل التوراة والمصريين القدماء، يحتاج الأمر إلى إعادة فحص المادة التاريخية التى خلفها رمسيس الثالث. وسوف نبدأ أولاً بتناول قصر تل اليهودية الواقع عند رأس الدلتا فى الشمال، ثم بعد ذلك بمعبده الجنائزى فى مدينة هابو على البر الغربى للنيل المقابل للأقصر والكرنك.

حروف يونانية على بلاطات رمسيس الثالث

تل اليهودية قرية عربية شرق الدلتا على بعد عشرين ميلاً شمال شرق القاهرة، على الطريق إلى الاسماعيلية. قام عالم المصريات السويسرى ادوارد نافيل منذ أكثر من تسعين عاماً بعمل حفائر هناك فى أطلال قصر رمسيس الثالث الذى كانت تزين حوائطه فى يوم من الأيام بلاطات ملونة مصقولة لامعة. ولقد عثر عليها العلماء المارون بأعداد كبيرة، كما عثر عليها اميل بروجش الذى كان يعمل فى مصلحة الآثار المصرية قبل أن يأتى نافيل ويحفر فى المنطقة بمساعدة ف.ك. جريفيث. وتميزت تلك البلاطات بالزخارف الفنية أغلبها من الزهور، وبعضها يحمل اسم رمسيس الثالث بالهيروغليفية. ووجد على ظهر تلك البلاطات علامات محفورة هى كما يبدو أسماء الفنانين الذين أنتجوها حفرت قبل أن تدخل تلك البلاطات إلى النار.

وليس من شك فى أن العلامات المحفورة على الكثير من تلك البلاطات التى عثر عليها فى تل اليهودية كانت بالحروف الإغريقية. ولقد كتب لويس، المستشرق، والخبير الفنى الذى سلمت له البلاطات ليحكم عليها، يقول(١) «من الظواهر الملحوظة أن العديد من الزخارف الوردية كانت تحمل حروفاً إغريقية على ظهرها، ومن الواضح أن هذه الحروف قد طبعت أثناء تشغيل البلاطات».

والسؤال هنا هو: كيف استخدمت الحروف اليونانية فى أيام رمسيس الثالث، فى وقت مبكر فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد؟ إن الأبجدية اليونانية مشتقة من الفينيقية أو العبرية فيما بعد، ولم يعثر على أى آثار لحروف يونانية مشتقة عن الفينيقية لم يرجع أصلها إلى القرن السابع أو الثامن أو التاسع بل إلى عدة قرون قبل ذلك. والمهم هنا حقاً هو أن الحروف الإغريقية على هذه البلاطات المصرية لا تبدو شبيهة بالحروف اليونانية القديمة التى ترجع إلى القرن السابع، ولكنها تشبه الحروف اليونانية الكلاسيكية التى ترجع إلى عهد أفلاطون.

وبالحكم على هذه الحروف، لابد وأن تلك البلاطات قد صنعت فى وقت

متأخر عن ذلك بقرون عديدة قبل الميلاد. ولعل الشكل المتميز لحرف «ألفا» قد ظهر فى ذلك الوقت، كما أن شكل بعض الحروف الأخرى يدل على أنها ترجع إلى قرن متأخر.(٢) وكان حرف «سيجما» مصمما على شكل C وليس على شكل Σ. وبناء على هذه الحقائق الواضحة تأكد للعلماء من الوهلة الأولى أن البلاطات قد صنعت فى القرن الأخير من عصر المملكة المتأخرة (وهو القرن الرابع قبل الميلاد) وربما كان ذلك أثناء حكم الإغريق بعد الاسكندر الأكبر فى عهد البطالسة.

كتب اميل بروجش يقول: «إن الحروف اليونانية وبخاصة حرف «ألفا» التى وجدت فى المخلفات وفى الأقراص، لا تترك مجالا للشك فى أن هذه المشغولات نفذت خلال القرون الأخيره من الإمبراطورية المصرية وربما كان ذلك فى العصر البطلمى، ولكن الأمر يصبح أكثر صعوبة إذا ما تساءلنا عن أصحاب هذه المشغولات.»(٣)

إذاً، فمن هم أصحاب هذه الأشغال؟ هناك خلاف أساسى فالحكم عليها على أساس التصميمات الموجودة على أوجهها فإن تلك البلاطات مصنوعة فى عهد رمسيس الثالث؛ ولكن بالحكم عليها من وجود حروف إغريقية على ظهرها فهى ترجع على أكثر تقدير إلى القرن الرابع.

وكتب نافيل يقول: «هناك حقيقة مدهشة عن الأقراص التى عثر عليها بأعداد كبيرة، فبعضها ممهور فى ظهرها بحروف يونانية والبعض الآخر مختوم بعلامات مصرية. وتدل الحروف اليونانية على أن الأجانب كانوا يستخدمون فى الأعمال فى وقت من الأوقات... فلا يعتقد أن الملوك المتأخرين من أسرات سيتى والبطالسة قد بنوا مثل تلك الحجرات الجميلة لسلفهم رمسيس الثالث، وزينوا جدرانها بزخارف تمثل النباتات والحيوانات بل وسجلوا أيضاً انتصارات رمسيس فى حروبه.»(٤)

المسألة واضحة ولكن ليس لها إجابة، فلا يمكن أن تكون الحروف الإغريقية قد كتبت فى وقت رمسيس الثالث فى وقت مبكر فى القرن الثانى عشر، فربما يرجع أصلها إلى العهود الأخيرة من الممالك المصرية أو أثناء العصور البطلمية التالية. ولكن لابد وأن عمال رمسيس الثالث قد صنعوا البلاطات وأن اسم الفرعون يزين أوجهها، فهل بالإمكان أن نقسم البلاطات وننسب جزءاً منها إلى رمسيس الثالث والجزء الآخر إلى عهد متأخر؟

علق جريفيث رفيق نافيل فى حفائره معلقاً على ذلك بقوله:-

«سؤال إجابته صعبة. إن العلامات التى رسمها صانع الفخار تشتمل إلى جانب الحروف الرمزية على العديد من الحروف الهيروغليفية على المجموعة التالية من الحروف A E I Λ M O C T X التى يمكن تفسيرها بأنها حروف إغريقية رئيسية. ولقد وجدت حرف T موضوعاً فوق رأس أحد الأسرى، وفى أحد المجموعات المشابهة المطوقة لاسم رمسيس الثالث... لست أدرى كيف أن الأمور تتميز من حيث التواريخ.»(٥) فالهيروغليفية والأشكال الموجودة على البلاطات تنسبها إلى رمسيس الثالث بينما الأشكال على البلاطات تحمل حروفاً يونانية.

هناك علامات مشابهة لتلك التى وجدت فى تل اليهودية فى القوالب الطينية التى عثر عليها فى قنطير وهى أحد المقامات الملكية للرعامسة فى الدلتا. ويقدر علماء الآثار عمر هذه القوالب إلى عهد سابق لقصر رمسيس الثالث فى تل اليهودية بما يتراوح بين خمسين ومائة سنة، وبذلك لابد من اسقاط فكرة رجوعها إلى عصر البطالسة. وفى ذلك كتب الأثرى المصرى محمود حمزة يقول: «إن مسألة أصل الأقراص الخزفية التى عثر عليها فى تل اليهودية قد أصبحت محلولة الآن... فليس من شك فى أنها ترجع إلى عصر رمسيس الثالث، فهى بدون أى علامات تدل على الأثر البطلمى.»(٦) ولكن صرامة هذه العبارة لم تغير من حقيقة وجود اشكال من الحروف اليونانية التى تميز القرن الرابع قبل الميلاد.

هناك تفسيران لسبب حفر حروف يونانية على ظهر بلاطات ترجع إلى القرن الثانى عشر (ق.م) أثناء عملية تصنيعها.

حول هذا كتب السير فلندرز باترى يقول « يعتبر حفر حروف إغريقية على ظهر كثير من البلاطات مسألة صعبة الحل فى سجلات العهود القديمة.»(٧) وطبقاً لتفسير قدمه السير باترى كان للحروف الإغريقية وجود سابق فى مصر.(٨) وهذا يعنى افتراض أن المصريين القدماء الذين استخدموا الهيروغليفية كانت لديهم أبجديةأخرى كانوا يستخدمونها فى مناسبات نادرة عند صناعة الأوانى الفخارية أو البلاط أو قوالب الطوب. وربما كانت هذه الكتابة معروفة فى مصر قبل ذلك بألف أو آلاف السنين، ولم تكن تستخدم أبداً فى كتابة النصوص. وفيما بعد تلقى الفينيقيون

واليونانيون هذه الحروف من المصريين واستخدموها.

ضاعت هذه النظرية فى طى النسيان زمناً طويلاً، فلم تجد من الدراسات الأثرية أو دراسات الكتابات المنقوشة مايؤيدها، بل كانت كل الأدلة ضدها. ولقد درس تطور الكتابة الفينيقية العبرية واقتباسها من جانب اليونان، وكذلك تطور الكتابة حتى وصلت إلى تكوين شكلها اللاتينى الذى لا يختلف عن الحروف اللاتينية المستخدمة اليوم كثيراً، ولم نجد خلال كل هذه الدراسات أى شىء يدل على صحة رأى باترى.

قد نجد المخرج من هذا الموقف الصعب، كما يبدو لنا، إذا ما دخلنا فى تحد حول أصالة تلك الحروف كحروف يونانية. فبعد مضى خمسين عاماً قرأ خلالها العلماء تلك الحروف الموجودة على ظهر البلاطات على أنها حروف يونانية، تولدت فكرة جديدة ومحاولةلتفسير هذه الحروف على أنها علامات هيراطيقية.(٩) وكان الكهنة يستخدمون الكتابة الهيراطيقية كوسيلة مبسطة للكتابة، وذلك بتجريد الهيروغليفيةمن تصميماتها الزخرفية وزيناتها. ومن بين نحو عشرة آلاف علامة من الكتابات الهيراطيقية القديمة،(١٠) والتى تتضمن أكثر أشكال الخط اليدوى التى استخدمت فى الكتابة على مدى أجيال عديدة من الكتاب، ولم يعثر إلا على القليل الذى قد يشبه بالصدفة المجردة الحروف اليونانية، وعلى الرغم من تقليب تلك العلامات فى جميع الاتجاهات لتسهيل مقارنتها بالحروف اليونانية، فمازال هناك اختلاف بينهما. ولتوضيح ذلك أورد هنا مقابلات محمود حمزة:

A E Λ M O C T X

حرف الفا مقلوب بقاعدته إلى أعلى فسر على أنه العلامة الهيروغليفية الجديدة لشكل اللوتس، رغم أنه لم يعثر عليه اطلاقاً فى البرديات أو على الحجارة وبالطبع لم يكن ضمن السجل الكامل للعلامات الهيراطيقية. وعلينا أيضاً أن نأخذ فى اعتبارنا أنه وجدت على ظهور البلاطات الكثير من الحروف والعلامات المختلفة، وفى هذا التجميع وجدت حروف يونانية واضحة الشكل: فكيف حدث أن كل تلك العلامات

الهيراطيقية قد أغفلت وأن تلك التى تشبه الحروف اليونانية هى التى تكرر استخدامها؟

ولقد وجدت الحروف اليونانية على أشياء فى مصر ترجع إلى عصر يسبق عصر هومير بأربعمائة أو خمسمائة عام، ويفترض أنها تنتمى إلى عصر يسبق عصر هزيمة طروادة شبه الأسطورى أو يعاصره، وهذا الأمر لم يتوقف اطلاقاً عن إثارة التساؤلات، فهل استخدم أخيل وأوديسيوس الابجدية اليونانية كما نعرفها الآن، وكما عرفتها الطبقات العاملة؟ لماذا لم يعثر على كتابات اغريقية مشتقة من الفينيقية فى اليونان وآسيا الصغرى فى القرنين الثالث عشر والثانى عشر (ق.م)؟ والأهم من ذلك كله. كيف استطاع العمال اليونانيون فى مصر خلال القرن الثانى عشر قبل الميلاد أن يكتبوا حروفاً صممت بعد ذلك بثمانمائة أو تسعمائة عام؟

لم تحل مسألة وجود حروف يونانية كلاسيكية على بلاطات قصر رمسيس الثالث من القرن الثانى عشر، كما لم تحل مسألة تحديد التاريخ بقرن سابق، ويتم تناولها كما لو أنها ظاهرة نفسية خارقة للعادة، وحينما أدرك أحد العلماء ضخامة المسألة فقال: «فى يوم من الأيام سيلقى الضوء على المسألة»(١١) ولكن ظل العلماء على مدى ثلاثة أجيال يبتعدون عن الموضوع دون أن يكون هناك أمل فى حل المشكلة.

كان كل تناولنا السابق لظهر البلاطات، فلنقلبها على وجهها ونتأمل فى ملامح تصميماتها المرسومة فوق قاعدة زرقاء من الطلاء اللامع الذى يغطى كل الرسوم والقاعدة برقة واتساق.

وفى هذا الصدد يقول نافيل: «يذكرنا مثل هذا العمل بشكل واضح بالفن الفارسى سواء القديم منه أو الحديث. فقد كانت مثل هذه البلاطات تعمل فى بلاد فارس على نطاق أوسع بكثير منه فى مصر»(١٢) وتضيف هذه الملاحظة إلى المشكلة اليونانية مشكلة فارسية، تتمثل فى أن هذا البلاط قد صنع قبل أن يستولى قمبيز على مصر بستة قرون، فالإغريق أتوا أولاً إلى مصر، واستوطنوا فيها فى عهد بسماتيك فى القرن السابع، وذلك طبقاً لما ذكره هيرودوتس الذى زار مصر بنفسه فى القرن الخامس، ثم وصل الفرس إلى مصر فى النصف الأخير من القرن السادس، وظلوا بها، عدا فترات انقطاع قصيرة، حتى سنة ٣٣٢ حينما طردهم الاسكندر الأكبر.

إذا ما حفرت فى منطقة ما، وعثرت فى الأرض على قطعة من درع قديم، عليها شعار ملك قديم مات منذ ثمانية قرون، ولكنك وجدت على ظهر الدرع علامة تجارية لأحد مصانع شفيلد فى العصر الفيكتورى، وإذا كنت متأكداً أنك لست ضحية مزاح فعلى، وأكد لك أحسن الخبراء أن الدرع كان مصنوعاً لريتشارد قلب الأسد، وأكد لك خبراء آخرون فى هذا المجال أن العلامة التجارية صحيحة، وأن ذلك المصنع لم يكن موجوداً فى شفيلد قبل أيام هانوفر فى بريطانيا، إذاً فسوف تقول مثلما قال جريفث الشهير فى علم المصريات: «إن المسألة تحتوى على صعوبات جمة.» ولكن مع ذلك فإن هناك فرصة متاحة تجعلك تميل إلى الرأى الذى قال به الخبراء عن صحة العلامة التجارية لمصنع شفيلد.

نيكروبوليس فى القرن الثانى عشر أم القرن الرابع

على بعد ميل واحد من تل اليهودية اكتشف نافيل وجريفث منطقة نيكروبوليس الجبانة القديمة للمنطقة، وبها العديد من التلول الصناعية الصغيرة، أو المصاطب المبنية بكتل البازلت والرمال. ولقد نهبت كل هذه المقابر فى الماضى على يد الباحثين عن الأدوات والجعارين والخواتم والحلى التى كانت تدفن مع الموتى. وكانت هذه المقابر كلها تتكون من تكسية خارجية من قوالب الطوب مسندة على بعضها وفى داخلها تابوت من الطين المحروق على شكل مومياء مجدولة بالقش مصنوعة من قطعة واحدة ولها فتحة عند الرأس تدخل منها الجثة، ويبدو أنها كانت توضع داخل هذه التوابيت دون تحنيط. «بعد ذلك تغطى فتحة الرأس بقطعة مشكلة على شكل وجه الميت بها ملامحه وأحياناً شكل شعره ويديه. وكانت هذه الملامح تنفذ بصورة غير دقيقة فى التوابيت التى عثر عليها فى الجبانات الأحدث فى أرمنت والاسكندرية.»(١) وهناك بعض من المقابر لم تجرد تماماً من محتوياتها لأن المستكشفين وجدوا فيها بعض الصحون البرونزية وكذلك بعض الأوانى الصغيرة ذات الآذان أو الأيدى المزدوجة فى أعلاها، «وبعض عينات جيدة مما يسمى زجاجات الحج.» وأحد هذه المقابر، وهو قبر طفل،

كان سليماً، فوجد فيه عقد مصنوع من حبات البورسلين والزجاج ومجموعة خواتم بخصوص من الجعارين. وعلى عظام صدر الطفل وضعت مزهرية قبرصية على قلب الطفل أثناء دفنه.

وكانت معظم التوابيت مطلية، بألوان كما قال عنها نافيل «كانت فى وقت من الأوقات زاهية، ولكن سرعان ما بهتت لتعرضها للهواء، وكان الدهان خشناً جداً مثل الذى نجده فى التوابيت التى ترجع إلى العصر اليونانى والرومانى.» وهى تمثل موميات مغلفة فى صناديق (غير محنطة، ولكن شكل المومياء مرسوم بالطلاء على التوابيت من الخارج)، وكانت هناك رسوم على شكل خطوط من كتابات هيروغليفية وأشكال شياطين الموت ذات الرؤوس التى تشبه رؤوس التماسيح. ووجد أن الكتابات الهيروغليفية على الأكفان غير صحيحة، «هى تلفت النظر لأول وهلة كما لو أنها ترجع إلى عصر متأخر.» وفى كثير من الأحيان بدت تلك الكتابات الهيروغليفية كما لو أنها رسمت لمجرد الزخرفة، ولم يقصد بها أن تقرأ أو أن يكون لها معنى.

يذكر نافيل أن « الكتابات تظهر بوضوح أن تلك التوابيت ترجع إلى عصر متأخر، الأمر الذى يؤكده عدم وجود أى أثر للتحنيط» وهناك اسم مكتوب بالهيروغليفية على أحد التوابيت مازال مقروءاً ويظهر فى آخره حرفان يونانيان. «والهيروغليفية الموجودة على تلك الأكفان مكتوبة بإهمال مما يصعب معه تحديد تاريخ معين للمقابر، وإن كان طراز العهد اليونانى والرومانى ظاهراً بوضوح فى شكلها العام.» ويتابع نافيل كلامه قائلاً: «وإنى على استعداد للاعتقاد بأنها معاصرة لبعض المدافن اليهودية التى يبدو من الكتابات الموجودة على شواهدها أنها ترجع إلى العصر البطلمى المتأخر أو العصر الرومانى المبكر.» وهو يشير بذلك إلى جبانة أخرى بالقرب من تل اليهودية حيث حفرت المقابر فى الصخور على شكل كوات للدفن، ووجدت بعض الشواهد مكتوبة باليونانية فيها، عليها نقوش جنائزية تحمل أسماء الموتى مثل جلوكياس واجاثوكلس و اونيسيموس وتريفانيا وايراس وكلها أسماء يونانية أصيلة «قد نعثر عليها فى أى بلد تتكلم اللغة اليونانية»، ولكن إلى جانب ذلك هناك أسماء عبرية خالصة، وأسماء عبرية ذات تحريفات يونانية». واعتقد نافيل فى إمكانية تعاصر

كلتا الجبانتين، أو على الأقل أنهما ترجعان فى الأصل إلى زمن لا يسبق العصر اليونانى فى مصر، فالجبانة اليهودية لا يمكن أن تكون سابقة للعصر البطلمى.

ولقد جاء فى المقدمة المختصرة للكتاب الذى ألفه نافيل بالاشتراك مع جريفيث متضمناً تقريرهما عن الحفريات ما يلى:-

«سوف يلاحظ القارىء أن رأينا غير متفق بالنسبة للعصر الذى ترجع إليه الأشياء التى اكتشفت فى نيكروبوليس أو مدينة تل اليهودية. وكل منا مسئول عن رأيه الذى يقوله ويقدمه للقارىء عن هذه النقطة. وللقارىء أن يحكم.

هكذا ختم مقدمته.

كان حقاً اختلافاً فى الرأى، فبعد عشرين صفحة من هذا النص الذى أوردناه يصف جريفيث نفس المدينة على أنها فى الصحراء فيقول:-

«هنا نجد الأجداث الملفوفة فى توابيت مغطاة بالطين ملقاة على سطح أرض مكونة من أكوام طبيعية أو صناعية من البازلت، أو نجدها فوق رمال الصحراء. ونجد حول كل تابوت من تلك التوابيت التى تحميها قباب أو مقرنصات من قوالب الطوب بعض الأدوات المصنوعة من الفخار والبرونز وغيره، ثم يبدو كما لو أن الجبانة كلها قد غطيت بالحجارة والرمال إلى عمق يصل إلى قدمين » من هذه الأكوام المتفرقة من كتل البازلت تتكون معظم تلك المجموعات الصغيرة من المقابر.

«كانت التوابيت متعددة ومسجاة فى صفوف متوازنة. ولقد وجدنا أن أعمال النهب فى العصور القديمة كانت على أشدها، حتى أن جميع توابيت الكبار فتحت ونهبت محتوياتها. وفى نفس الوقت كانت مقابر الأطفال سليمة لأن اللصوص كانوا يعرفون أنها لا تحتوى على أشياء ثمينة. عثر فى إحدى هذه المقابر على جعلين من الفخار يحملان اسم رمسيس الثالث، مما يقدم لنا دليلاً واضحاً على تاريخ تلك المساطب.»

وعثر فى إحدى المقابر على جُعلين مركبين فى ذهب وفضة، «وكان اسم ست ناخت أبو رمسيس الثالث محفوراً على أحدهما بطريقة غير متقنة.» وكان الثانى يحمل اسم رمسيس الرابع الذى تولى الملك بعد رمسيس الثالث بزمن قصير. وصف جريفيث محتويات القبور المفردة وما عثر

فيها من مزهريات وجرار وزجاجات تحتوى على مختلف الأشكال فضلاً عن الأوانى البرونزية، وكانت مقابر الأطفال تحتوى إلى جانب الجُعلان على العقود الزجاجية الحبات والفخار المطلى. وفى قبرين وصفهما جريفيث فيما بعد، عثر على علامات تشبه حرفى C,M محفورة على المزهريات الفخارية قبل حرقها، ولكن لم يستنتج أى شىء من العثور على هذه الحروف وحول ذلك يقول جريفيث «لابد أن البقايا التى عثر عليها فى كل من هذين القبرين ترجع إلى تاريخ واحد هو عهد الأسرة العشرين.» وكانت الخلاصة التى توصل إليها:-

«إن النتيجة العامة للحفائر التى تمت فى هذه المساطب تدل على أنها ترجع إلى عهد الأسرة العشرين،» فى الواقع إلى الفترة الوسطى من تاريخ الأسرة. «فليس من بين المساطب السبع الأولى ما يدل بصفة مؤكدة على أنها تسبق هذا التاريخ، بينما تتفق اكتشافات جعلان رمسيس الثالث والرابع مع الحقيقة بأن أكثر أنواع الفخار تميزاً وهى القوارير ضيقة العنق وجدت فى رسوم مقبرة رمسيس الثالث مثبتاً تاريخها.»

فلقد عثر فى مقبرة رمسيس الثالث التى توجد على بعد ثلاثمائة ميل فى وادى الملوك بطيبة على رسوم حائطية لقوارير مشابهة (ذات أذنين وعنق ضيق). ولكن نافيل زعم بأن الزجاجات القبرصية التى وجدت فى مساطب مقابر صحراء نيكروبوليس تدل بالتحديد على أن هذه المقابر ترجع إلى تاريخ متأخر، والتمس تأييد رأيه بأن فلندرز باترى قد وجد عينات منها بالفعل فى «نبيشه» القاعدة العسكرية اليونانية الواقعة فى الدلتا التى تبعد مسيرة يوم إلى الغرب من دِفنة أولى المستوطنات اليونانية التى أقيمت فى مصر فى القرن السابع.

كذلك كتب جريفيث يقول «فى ذلك الوقت الذى بنيت فيه القاعة الملكية (لرمسيس الثالث) فى موقع تل اليهودية... لابد أن المدينة كانت تضم سكاناً أغنياء قادرين على أن يقيموا لأنفسهم مساطب محترمة ليدفنوا فيها»، وكانت القاعة المزينة بالأقراص الخزفية التى سبق وصفها معاصرة لهذه الجبانة.

تقابلنا هنا نفس المشكلة مرة أخرى، بالنسبة للجبانة والقاعة الملكية، فهل ترجع تلك المقابر إلى عهد رمسيس الثالث، وهو القرن الثانى عشر

قبل الميلاد كما يزعم جريفيث بكثير من الثقة؟ أم أنها مقابر ترجع إلى العصر اليونانى أو حتى إلى العصر الرومانى كما يزعم نافيل بشىء من التردد؟

يفصل بين عصر رمسيس الثالث وأوائل عصر المستوطنات اليونانية فى مصر أكثر من خمسة قرون، ولكن نافيل وهو يقارن بين الرسوم الموجودة على التوابيت التى عثر عليها فى المساطب وبين تلك التى عثر عليها فى العصرين اليونانى والرومانى، كان فى ذهنه العصر الذى كان فيه التأثير اليونانى على مصر متزايداً باضطراد خلال القرن الرابع أو حتى تحت حكم البطالسة الذى بدأ بعد موت الاسكندر الأكبر عام ٣٢٣، واستمر حتى القرن الأول قبل الميلاد حينما حل الرومان محل البطالسة فى عهد بومبى وكليوباترا.

ليس من شك فى أننا نواجه هنا أيضاً نفس المشكلة مرة أخرى. فلابد أن أصحاب تلك القبور إما قد عاشوا فى ظل رمسيس الثالث فى النصف الأول من القرن الثانى عشر كما تدل على ذلك جعلان هذا الفرعون وأبيه، وكذلك الزجاجات التى عثر عليها، أو أنهم عاشوا فى القرن الرابع أو بعده المتأخر عن ذلك العصر بنحو ثمانية قرون أو أكثر.

والغريب أن علماء الآثار قد واجهوا الآن للمرة الثانية نفس المشكلة الصعبة. لم يكن هؤلاء الأثريون هواة أو غير مدربين أو يعمدون إلى الاختلاف فيما بينهم. ففى حوليات الآثار الفرنسية السويسرية نجد أن اسم ادوارد نافيل من الأسماء المعروفة. كما أن اسم فرانسيس ليويلين جريفيث كان من الأسماء التى تلمع فى بريطانيا كعالم فى المصريات. وقد وضعا مشكلة تاريخ المساطب بين يدى القراء، ولكن على أى أساس يمكن للقارىء أن يحكم على الأمر فى حين أن كل الدلائل الواضحة كانت تحت يد علماء الآثار الذين قاموا بالحفائر والذين درسوا الموقع ووصفوا نتائج اكتشافاتهم؟ من الواضح أن هناك أدلة على أن رمسيس الثالث يرجع إلى القرن الثانى عشر، ومن الواضح أن هناك أدلة على رجوعه إلى العصر اليونانى.(٢)

المشكلة لم تحل بعد. فبدلاً من العثور على حل في نيكروبوليس للحروف اليونانية المحفورة على بلاطات رمسيس الثالث، فقد قابلنا فيها

مفاجأة مشابهة وهى عالمان أثريان يكتبان فى كتاب واحد رأيين مختلفين ويضعان رأيهما تحت نظر القراء.

تبعية مصر للأجنبى آرسا

بعد العرض الذى قدمناه لهذين التناقضين الواضحين والمتشابهين فى تقديرات العلماء، وأولهما ما يتعلق بتاريخ البلاطات الخزفية التى وجدت بقصر رمسيس الثالث فى تل اليهودية وثانيهما ما يتعلق بمساطب المقابر فى الجبانة المجاورة، تصبح الخطوة التالية الصحيحة هى التوصل إلى النصوص الباقية من عصر ذلك الفرعون. فلقد خلف كمية كبيرة من الكتابات المحفورة على الصخور مصحوبة بصور نحت غائر على جدران معبده الجنائزى فى مدينة هابو على البر الغربى المقابل لمدينة طيبة، وهى تتناول أساساً حملاته العسكرية. وخلف هذا الفرعون أيضاً نصوصاً على البرديات، وأكبر النصوص هو بردية هاريس العظمى التى توجد فى المتحف البريطانى، وهى أطول هذه النصوص الموجودة حالياً. وتعتبر هذه البردية وثيقة رائعة، ليست منسوخة ولكنها أصلية، طولها ١٣٣ قدماً وعرضها ١٦,٥ بوصة وتحتوى على ١١٧ عمودا من الكتابات الهيراطيقية أو الكتابات البليغة باللغة التى كانت تستخدم فى النصوص الدينية(١). وفيها يتحدث الملك بصيغة المتكلم، ولكن فيها كلام عنه فى صيغة الغائب على أنه الإله، وهى صيغة تستخدم عادة فى الكلام عن ملك ميت، وإن كنا نعلم عن حالات كان يذكر فيها الملك الجالس على العرش على أنه إله. وتحكى البردية عن الهبات والقرابين التى قدمها رمسيس الثالث لمعابد آمون رع وموت وخنوس وعن ثلاثى الآلهة فى طيبة، وكذلك عن معبد تحوت فى هيرموبوليس، ومعبد أوزوريس فى أبيدوس، ومعبد سوتخ فى امبوس ومعبد بتاح فى ممفيس، ومعبد حورس فى اثريبيس، ومعبد رع فى هليوبوليس، وعن الكثير من الأماكن المقدسة التى بنى بعضها بأمر منه، وفيها ذكر كثير عن سخائه وعطائه بشىء من التفصيل، وكذلك عن طيبة الآلهة وعن قوة عشيرة الكهنة المؤكدة. كتب البردية العديد من الكتاب، وتنتهى بحصر شامل عن التاريخ الماضى الذى سبق رمسيس

الثالث وست ناخت الذى اختاره كخليفة له، وتؤكد كثيراً عن الأمن الذى حققه الملك للبلاد، وعن المحاربين من الرماة وركاب العجلات الحربية، وعن الجنود المرتزقة الخاضعين له مما يدل على انتصار الملك على أعدائه وتحقيق السلام فى أنحاء البلاد، وغرس الأشجار فى كل أنحاء وادى النيل، وعن استيراد المر من «البحر العظيم ذو المياه المحصورة» (سوف نوضح فيما بعد أنه البحر الميت) واستيراد النحاس من «اتيكا» على سفن تلك البلاد (سوف نناقش هذا الموقع غير المعروف فيما بعد أيضاً)، وجعل مصر بلاداً سعيدة حيث يقول «جعلت المرأة المصرية تسير حرة فى كل مكان دون أن يعاكسها أحد فى الطريق. وتنتهى لفة البردى هذه بأمر ونداء لكل الموظفين المدنيين ولكل العسكريين فى البلاد بأن يكونوا مخلصين لابنه وخلفه رمسيس الرابع.

يعتبر سجل الأزمنة السابقة لحكم رمسيس وسابقه ست ناخت هو أهم جزء فى البردية من الناحية التاريخية.

«خلع الملوك عن العرش وظلت مصر بلا ملوك، وجرد كل إنسان من حقه ولم يكن لديهم رئيس يتحدث باسمهم مدى سنين طويلة حتى جاء زمن آخر، وظلت مصر فى أيدى زعماء المدن وحكامها، يذبح كل جاره صغيراً كان أو عظيماً».

وخضعت البلاد لحكم الأجانب (خلع الملوك عن العرش ظلت مصر بلا ملوك)، وتفكك الناس، وعبارة «لم يكن لديهم رئيس يتحدث باسمهم» تعنى أنه لم يكن هناك ملك ولا حكومة مركزية، وأصبح القانون فى أيدى الأقوياء أو العمد.

«وجاءت أزمنة أخرى بعد ذلك كانت فيها السنون خاوية على عروشها وتزعم فيها أرسا وهو سورى عبرانى(٣)، أخضع كل البلاد لسلطته وضم إليه ممتلكات رفاقه، وصنعوا آلهة تشبه الرجال، ولم تعد القرابين تقدم فى المعابد».

حدث بعد ذلك الوقت العصيب أن استطاع اسخاورى ميرامونسبنرى ست ناخت – ميريرى – ميرامون «أن يعيد النظام إلى كل البلاد الثائرة، وقتل الثوار الذين كانوا فى أرض مصر، واستأثر بالعرش لنفسه». استعادت الملكية سلطتها، وعاد النظام إلى الدولة بعد سنين طويلة من

القهر والاستغلال. ونجح رمسيس الثالث (أو سيماري - ميرامون رمسيس هيكاوون له الحياة الرخاء والصحة!) في تحسين أوضاع البلاد ونشر الرخاء فيها والدفاع عنها.

ولم تكن الإنجازات العظيمة التي حققها رمسيس الثالث وسابقه ست ناخت موضع دهشة للعلماء الذين درسوا هذه الوثيقة، ولكن الدهشة جاءت من الإشارة إلى لغز محاولة الانقلاب في البلاد التي بدونها، ورغم اتباع النص التاريخي المعترف به، لم نكن لنعرف شيئاً عن سقوط مصر في يد قوة أجنبية في السنوات السابقة للأسرة الملكية العشرين، وهي أسرة رمسيس الثالث. ومن المؤكد أنه لا توجد أي وثيقة أخرى سواء مصرية أو أجنبية تؤيد وثيقة رمسيس الثالث هذه، «لم يعثر على أي إشارة ولو بسيطة» يمكن أن تؤيد كلمات رمسيس التي تشير إلى خضوع مصر للسيطرة الأجنبية تحت إمرة آرسا(٤). وفوق ذلك فإن النص العادي للتاريخ يترك فقط بضع سنوات قليلة فيما بين نهاية الأسرة التاسعة عشرة وبداية الأسرة العشرين، وإن كان نص البردية يتحدث عن فترة طويلة مرت دون أن تكون هناك سلطة ملكية وخضعت مصر في أوج تلك الفترة لسيطرة آرسا وأصبحت البلاد ملكاً له ولرفاقه. ولا يوجد في معرض التسلسل التاريخي وقت لمثل هذه الأحداث، أو أحداث تتناسب مع الزمان، ومع أن شخصية آرسا شخصية تغلب عليها الأسطورية إلا أنه من المؤكد قيام حكم تحت سيطرة مغتصب أجنبي غير معروف،(٥) ويرجع هذا التاكيد إلى ما ظهر من العبارات الواردة في البردية.

على ذلك يشار إليها على أنها «الفقرة الغريبة» التي اجتذبت اهتمام المؤرخين. ولتحديد شخصية آرسا ووصف شخصيته وتحديد مميزاته، كان هناك العديد من الأفكار العويصة، فكتب أحد العلماء يقول «من المحتمل أن يكون ايرسو زعيماً عصامياً من أواخر حكام الأسرة التاسعة عشرة من أم سورية أو واحداً من المستشارين السوريين الذين استطاعوا أن يكتسبوا المكانة والأهمية في عهد الرعامسة».(٦)

ولكن ظهر اسم آرسا في الأزمنة التي يجري الحديث عنها على أنها كانت أزمنة بلا حكومة شرعية متبوعاً بعلامة تدل على أنه أجنبي، ولم يتبعه اسم فرعوني يدل على أن أمه فقط كانت سورية.

ويتساءل جاردنر عما إذا كان ذلك من بقايا عصور مبكرة ترجع إلى عهد احتلال الهكسوس للبلاد قبل الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ثم يقدم لنا تفسيراً غير سليم بقوله:

«يلاحظ فى هذه الفقرة الغريبة أن الإنجازات العظيمة للأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة مهملة تماماً، ونجد أنفسنا وقد عدنا إلى الوراء إلى الأوضاع فى العهد السابق للهكسوس. والحقيقة الوحيدة المعينة التى سجلت فى هذا النص هى ظهور قائد المرتزقة السوريين الذى بسط سيطرته على كل الأرض، وإن كانت هوية هذا القائد غير مؤكدة ومازالت موضع جدال...»(٧)

ومن الأمور المحيرة أن رمسيس الثالث يشير إلى غزو لمصر «من جهة ما» أو على يد قوة أجنبية فى العصر السابق لعصر أبيه، ولا يعرف أى شىء عن مثل هذه الأحداث الهامة فى تاريخ العصر الإمبراطورى فى مصر؛ ومن الواضح أن مصر لابد وقد خضعت لزعيم أجنبى، ولكن لا يوجد أى مصدر أو تسلسل أحداث يضعها لنا فى جدول زمنى مقبول يتمشى مع وضع دولة مستقلة بزعامة أجنبية وبخاصة زعامة سورية. فكيف يمكننا تفهم هذه المعلومات المحيرة ذات الأهمية الكبيرة التى خلفها لنا رمسيس الثالث؟

أرساميس

تُوجِّه موضوعات الرسوم الموجودة على بلاطات رمسيس الثالث أنظارنا إلى البحث عن العصر الفارسى فى التاريخ المصرى.

يبدأ العصر الفارسى فى تاريخ الشرق الأدنى بانتصار سيروس على كريوسوس الليدى (٥٤٦ ق م)، والاستيلاء على بابل (٥٣٩ ق م)، ووراثته لإمبراطورية بابل. وقام قمبيز ابن سيروس بإخضاع مصر فى عام ٥٢٥ ق م. وقام داريوس أو دارا (من ٥٢١ ق م إلى ٤٨٦ ق م) بتحويل ثراس ومقدونيا إلى ولايتين فارسيتين، وغزا اليونان مرتين. وهزم جيشه فى الحملة الثانية عند موقع ماراثون (٤٩٠ ق م)، فنظم التجارة البحرية، وحفر قناة من النيل إلى خليج السويس فى البحر الأحمر.

وقاد ابنه زيركسيس (من ٤٨٦ ق م إلى ٤٦٥ ق م) حملة ضد اليونان فى عام ٤٨٠ ق م وهزمهم فى موقعة ثيرموبيلاى، ولكن اليونانيين انتصروا عليه فى البحر فى معركة سالاميس. وعندما ضرب مرة أخرى فى موقعة بلاتايا أحجم زيركسيس عن مهاجمة اليونانيين مرة أخرى، «وامتد ملكه من الهند حتى أثيوبيا وشمل أكثر من مائة وسبعة وعشرين ولاية»، وذلك وفقاً لما ورد فى كتاب عشتار التى يحتمل أنها كانت واحدة من ملكاته. ولم يقم بزيارة مصر أبداً. وحينما قتل زيركسيس خلفه ابنه أرتاكسيركسيس الأول (من ٤٦٥ ق م إلى ٤٢٥ ق م) على العرش. وبعد سنوات قليلة قامت فى مصر ثورة بقيادة ايناروس الزعيم المحلى، ودخل أسطول اثينى مكون من مائتى قارب وأبحر مصعداً فى النيل لمساعدة المصريين فى حربهم ضد الملك الأعظم. وهزمت الحامية الفارسية فى أول الأمر وحوصر رجالها إلى قلعة ممفيس. ولكن قام جيش فارسى جديد بعد سنوات قليلة بفك الحصار وأنزل الهزيمة بالأسطول اليونانى بأن تركه على شواطىء جافة بتحويل المياه عن مجراها إلى القناة، فأحرق اليونانيون سفنهم وتراجعوا إلى برقة، وظلت مصر خاضعة للحكم الفارسى.

أتى بعد ذلك على أثينا عهد بريكليس المفعم بالعظمة والرخاء، أما فى فلسطين فقد قام نحيميا بإذن من ارتاكسيركسيس الأول بإعادة بناء أسوار أورشليم التى ظلت أطلالاً منذ أن هدمها البابليون قبل ذلك بمائتى عام.

وبمجرد أن أخمدت ثورة ايناروس قام ارتاكسيركسيس بتعيين أحد أفراد البيت الملكى والياً على مصر باعتبارها واحدة من توابع فارس.

ولقد وجدت سجلات باقية عنه وعن أعماله فى شكل كتابات مسمارية على ألواح من الطين، وكتابات آرامية على برديات وعلى رقائق من الجلد واسمه على هذه أرشام، أما فى الكتابات اليونانية والبوليانية والمشطية فإن اسمه أرساميس. وترجع أولى اللوحات الطينية التى جاء ذكره فيها إلى ما قبل ثورة ايناروس، والحقيقة أن ذلك كان فى السنوات الأولى لحكم أرتاكسيركسيس (٤٦٣ ق م أو ٤٦٢ ق م).(١) وقبل أن يعين والياً على مصر، وكذلك كما يبدو على كل المنطقة الممتدة من الفرات إلى مصر، كان

أرساميس قد شغل وظائف أخرى مرموقة فى الإمبراطورية الفارسية الواسعة الامتداد.

بوفاة ارتاكسيركسيس استولى على عرش فارس ابن يحمل اسم اكسيركسيس الثانى، ثم جلس عليه أخ غير شقيق بعد أن قتل أخاه الجالس على العرش، وقتل هو الآخر بدوره. وقام أرساميس بدور فعال فى جلوس أوخوس على العرش وكان حريصاً على ذلك. وأوخوس هذا هو الذى غير اسمه إلى دارا أو داريوس الثانى، ويسميه رجال السلاسل التاريخية نوتوس، ويذكر أنه كان أفاقاً لأنه كان إبناً غير شرعى للملك الراحل. كان قاسياً وفاسداً، وكانت مساعدة أرساميس هى الفيصل فى اعتلاء أوخوس السلطة العليا، ولذا فقد أغدق على أرساميس ألقاب الشرف وهبات الثروة فى شكل أرض يمتلكها فى كل من بابل ومصر.

وتبلغ الفترة التى انقضت منذ أول إشارة عن أرساميس (تحت إمرة ارتاكسركيس الأول)، إلى نهايتها (تحت إمرة داريوس الأول) خمسة وثلاثين عاما لم ينازعه أحد السلطان، وقد فرض نفسه على كل المنطقة الممتدة فيما وراء النهر أى إلى غرب وجنوب الفرات. وفرض على المزارعين والرعاة الذين يكدحون فى المساحات الكبيرة من الأرض التى منحت له إتاوات باهظة، وأصبح حكام المرزبانات (الولايات الفارسية) وجباتها يعملون كموظفين عنده، ولم يقتصر أمرهم على جمع العوائد لهم بل ولبعض ذوى الحظوة من أفراد أسرته الملكية المقيمين فى بابل وسوسا وبرسيبوليس.

كانت مصر على رأس المرزبانات التى تجبى منها العوائد، فكان عليها أن تدفع جزية للتاج الفارسى يجمعها الحاكم الذى كان يعمل أيضاً ككبير للجباة، ويحمل بنفسه ما يجبيه إلى أرساميس فى بابليون.

ومنذ عهد دارا الأول فرضت إتاوة محددة على كل من المرزبانات، وطبقاً لرواية هيرودوتس وتقديرات أحد العلماء المحدثين «كانت مصر هى أكبر مورد لثروات التاج الفارسى إذ بلغت نحو ٧٠٠ طالين، وهو ما يبلغ نحو ضعفى كل ما كانت تقدمه فلسطين وسوريا مجتمعتين».(٢) وبالإضافة إلى ذلك كان على مصر أن تزود جيوش فارس والحاميات الملحقة بها وأغلبها من إقليم الأناضول بمقدار ١٢٠ ألف جراية (كيس

أطعمة).(٣) وزادت هذه الإتاوات القمعية فى عهد الملك دارا الثانى أكثر من ذلك بكثير.

ويعتبر أرساميس من الشخصيات المعروفة للمؤرخين المحدثين حتى من قبل أن تقع النصوص المكتوبة على رقائق الجلد التى سوف نناقشها هنا فى أيدى العلماء، فإن حجم أعماله فى بابل حيث كانت له مزارع ضخمة للماشية أمكن تقديرها من لوحات الكتابة المسمارية التى تذكر أنه: فى السنة الحادية عشرة من حكم الملك دارا الثانى (حوالى ٤١٣ أو ٤١٢ ق.م) بلغ مقدار التعامل فى يوم واحد ١٨٠٩ رأس من الماشية فى مدينة تيبور فى بابل، وفى اليومين التاليين تم بيع ٥٨٢ رأساً أخرى. وكانت الماشية تؤجر فيصبح من استأجرها مسئولاً عن رعايتها وتوليدها.(٤)

ولقد حدث فى عام ١٩٣٢، حينما كان ل. بركهارت، الذى كان اهتمامه الرئيسى بالدراسات المصرية، موجوداً بالقاهرة أن اتصل به أحد تجار العاديات وعرض عليه للبيع حقيبة مملوءة بالرسائل الجلدية الملفوفة المكتوبة باللغة الآرامية ولم يستطع هذا التاجر أن يخبر عن المكان الذى عثر فيه على هذه الرسائل أو خشى أن يخبر عنه، ولكن أمكن التعرف، من النصوص المكتوبة على تلك الرقائق الجلدية، أنها قد جاءت من مكتب كاتم أسرار أرساميس، فى مرزبانية بابل، التى احتفظ فيها بمقر إقامته الرئيسية، وكان يظهر فى مصر من وقت لآخر ليتفقد أملاكه فيها ويعطى الأوامر لرجاله، وكان ممثله فى الإدارة المصرية، وهو الحاكم وكبير الجباة رجل يدعى بسماتيك ثم خلفه آخر يدعى نخت حور، وكلاهما من المصريين.

ولابد لنا هنا من أن نذكر هذين الرجلين واسميهما لأننا سوف نتناولهما فى مكان آخر من الكتاب على حدة.

كان هناك إلى جانب المقتطفات العديدة، أربع عشرة رسالة على رقائق جلدية فى تلك الحقيبة تمزقت إحداها أثناء محاولة فتحها. وهذا يدل على صحة المعلومات التى وجدت عند اكتيسياس الطبيب الإغريقى الذى كان يعمل فى خدمة البلاط الفارسى فى أوائل القرن الرابع (ق م)، ومؤلف كتاب «بلاد الفرس» عن أن الكثير من الرسائل الهامة التى كانت ترسل من الإمبراطورية الفارسية كانت تكتب على رقائق من الجلد الملكى.

ومما أثار الدهشة أن اللغة الآرامية كانت لغة المراسلات الرسمية بين المرزبان الفارسي وأتباعه في مصر. ولقد قرأ ميتووش (E. Mittwoch) العالم العبراني في اللغة الفارسية هذه الرقائق الجلدية.

وكلمة أرام في اللغة العبرية تعني «سوريا والآرامية لهجة سريانية، بدأ استخدامها في القرن التاسع قبل الميلاد كواحدة من المخلفات التي تدل، في عصر السبي البابلي لليهود كما يبدو، على أنها واحدة من اللغات العديدة التي كانت تستخدم في البلاط الملكي البابلي (سفر دانيال الإصحاح الثاني الآية ٤) وفي القرن الخامس حينما كانت بابل تحت إمرة الفرس كانت الآرامية مستخدمة في المراسلات الرسمية، وكذلك حلت محل اللغة الأكادية (السريانية البابلية) في بابليون، وذلك وفقاً لما جاء في هذه الرسائل الملكية على رقائق الجلد.(٥) وفي القرن الميلادي (المسيحي) الأول أصبحت اللغة الآرامية لغة الحديث لسكان فلسطين، ويشهد على ذلك بعض العبارات التي وردت في الأناجيل التي كتبت باللغة اليونانية. وكل نصوص التلمود التي حررت في أرشليم (القدس) وفي بابل ابتداء من القرن الخامس الميلادي مكتوبة باللغة الآرامية.

كانت كل هذه الرسائل التي ذكرناها والمرسلة من كاتم أسرار أرساميس في بابل، والمحفوظة في أرشيف ممثله في مصر، موجهة إلى العديد من الناس: فعلى الوجه الخارجي للرقيقة الجلدية كتب الاسم والعنوان مع ذكر للموضوع الذي يتناوله الخطاب أو الرسالة. وكل رسائل هذه المجموعة لا تحمل تاريخاً، ولكن أمكن من دراسة محتواها استنتاج أنها كتبت في عهد دارا الثاني نوتوس فيما بين ٤٢٤ ق م إلى ٤١٠ ق م.

تبين أن عشراً من تلك الرسائل مرسلة من أرساميس (وكانت في معظم الأحيان موقعة بخط يده)، والأربعة الأخرى موجهة إلى نخت حور ولكن من مرسلين مختلفين، بيد أن أرساميس مذكور فيها جميعاً. على ذلك تلاحظ أن اسمه متواجد في كل من هذه الرسائل المحفوظة في هذه المجموعة. وتدلنا الرسائل المبكرة منها على أن بسماتيك سبق نخت حور في المنصب، وتحتوي إحداها على تأنيب قاس لأحد قادة الحامية العسكرية لعدم إطاعته لبسماتيك. هذا، ولم تتضمن رسائل أرساميس إلى نخت حور أي تقديم بالتحية مما يدل على التعالي من جانب المرزبان على أتباعه

الذين يرجعون إلى أصول مصرية.

وتتناول الخطابات بصفة أساسية موضوع ضبط إيرادات أراضى مصر، وتهتم أكثر بالأرض وعبيد الأرض ما يملكه أرساميس شخصياً وإثنان أو ثلاثة من المقربين إليه الذين كانوا على مثاله من أقارب البيت الملكى.

وفيما يلى نص نموذجى لما تضمنه أحد هذه الخطابات:

«من أرشام إلى نخت حور (نختحور): والآن، وقد استطاع بسماتيك، البكتا (أى الحاكم) السابق من قبلنا، أن يحافظ على رجالنا وممتلكاتنا الموجودة فى مصر من ثورة المصريين حينما ثاروا، وبذا لم تتعرض أبعدياتنا لأى نوع من الخسارة، بل إنه أيضاً استطاع أن يجلب كثيراً من الحرفيين من أجناس مختلفة ويحصل على ممتلكات أخرى ويضيفها إلى أرضنا...»

وفى هذا الخطاب لوم من أرساميس لنخت حور، الذى كان على رأس الحكم آنذاك، وكذا لوم لمساعديه على تراخيهم، وأصدر له الأمر «عليك بمزيد من النشاط والعناية بالرجال والممتلكات حتى لا تتعرض أرض أبعاديتنا لأى نوع من الخسارة، وعليك بالبحث عن حرفيين بأعداد كافية من مختلف الأجناس ومن مختلف الأماكن، لضمهم إلى بلاطنا، والعمل على وشمهم بعلامتنا وضمهم إلى عمال أبعاديتنا مثلما كان يفعل البكيت السابق.

«ولتعلم أنه لو تعرض أى من عبيد أرضنا أو أى من ممتلكاتنا لأية خسارة، ولا تبحثون عن تعويضها من أماكن أخرى، وتضيفون المزيد إلى أبعاديتنا فسوف تحاسب حساباً عسيراً وتتعرض للوم الشديد». ووضع أرساميس فى هذا الخطاب أمام نخت حور أمثلة من أتباعه فى منطقة مصر الدنيا (الشمالية) «كانوا نشطين، ويرعون أرض سيدهم ورجاله وممتلكاته، ويبحثون عما يضيفونه إليها وإلى رجالها، وأنت لا تفعل مثلهم». وأعقب ذلك بأمر له أن يفعل مثلهم.

نستطيع من مثل هذه الرسائل الموجهة من المرزبانات إلى الحكام التابعين لهم أن نستنتج أن تملك الأرض المنزوعة من أصحابها وضمها إلى ممتلكات الحكام الخاصة كان يحدث فى مصر العليا ومصر السفلى على حد

سواء، كما يفهم منها أن الناس من أى مكان (أو من جهات أخرى على حد تعبير أرساميس) كانوا يؤسرون، ويوشمون بعلامته الخاصة ويصبحون بذلك من ممتلكاته.

ولم تنج من سياسة المصادرة والاغتصاب حتى المساحات الصغيرة من ممتلكات الناس أو حتى الأراضى الخربة الميئوس من إصلاحها. وعلى ذلك فقد قام الجابى التابع لأرساميس بإبلاغ الحاكم بأن رجلاً يدعى بيتوسيرى كتب إلى المرزبان يطلب منه الإذن فى أن يسترد ملكية مزرعة أبيه الذى يسمى پامون والذى قتل هو وزجته أثناء الاضطرابات التى كانت قد وقعت فى مصر. وجاءه الرد من الكاتب باسم أرساميس بأن «الأرض لم تدخل ضمن ممتلكاتى». وصدر الأمر إلى الحاكم أن يمكّن الابن من شغل مزرعة أبيه وعليه «أن يدفع ضريبة الأرض إلى أبعاديتى...» وكان الخطاب موقعاً من الكاتب.

ولم يحاول أرساميس من منطلق جشعه ونهمه أن يعالج الأوضاع التى أدت إلى الاضطرابات، بل على العكس من ذلك ظل كل همه موجهاً إلى أن يزيد من ممتلكاته ودخله، فأخذ يضم الخرائب والمزارع المحترقة إلى ممتلكاته.

ومن هذه الرسائل الملكية المكتوبة على رقائق الجلد باللغة السريانية يمكننا أن نستنتج ما كانت عليه حالة مصر من اغتصاب ونهب على يد أرساميس وعصابته.

ويمكننا أن نقول إن أرساميس هو آرسا الأجنبى الذى ذكره رمسيس الثالث، إنه جاء من الخارج بعد سنوات عديدة من سقوط مصر بلا عاهل، وجاء بعد فترة لم يكن للبلاد حاكم، «وجاء معهم كرئيس لهم». إن كل شيء يشير إلى أنه أرساميس المرزبان، كاتب الرسائل باللغة الآرامية الذى استغل مصر وأساء استخدام مركزه، هو هو آرسا الذى جاء ذكره فى برديات هاريس على أنه «جعل الأرض كلها ملكاً له» و«استولى على ممتلكاتهم».

من السهل أن يتحول اسم أرساميس (أرشام حسب النطق الآرامى أو السريانى) إلى آرسا فى اللغة المصرية، ليس فقط لأن العادة المصرية الشائعة هى اختصار الأسماء الخاصة (وأسماء الملوك)(٦)، ولكن أيضاً

لوجود المقطع «ميس» فى الأسماء المصرية بمعنى ابن كما هو الحال فى اسم تحتمس (أى ابن تحوت).

ونظراً لأن أرساميس كان يكتب رسائله بالآرامية فقد يعتبر سريانياً، هذا فضلاً عن أن اصطلاح سرياني وآشورى (بلاد ما بين النهرين)، كما نعلم مما ذكره هيرودوتس، كان لا يختلف عن الاصطلاح المستخدم للإثنين معاً(٧).

كان الاسم الذى عرف به أرتاكسركس الثانى قبل أن يعتلى العرش خلفاً للملك دارا الثانى بعد وفاته عام ٤٠٤ ق م هو أرساتيس، وهو حسب النطق الفارسى يسمى أرشو. وربما كان أيضاً آرسا (أو آرسو) الذى اشتهر بأنه المستغل لمصر. ولكنه فقد مصر فى السنة الخامسة من حكمه (٣٩٩ ق م) حينما قامت ثورة نفريتس وحررت البلاد من السيطرة الفارسية، وشن عليه المصريون حرباً فى عام ٣٧٤ ق م.

ويشار إلى أرشو، فى النصوص الفلكية البابلية التى ترجع إلى عام ٣٨٧ ق م، على أنه أرشو: «أرشو الذى أصبح يسمى ارتاكشاتشو [ارتاكسركس الثانى] الملك...» (كوجلر). وكان ذلك قبل الأحداث التى نذكرها بوقت قصير. فلقد كانت حياة ارتاكسركس الثانى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ببابل، فهو ولى العهد الذى شب فى أرض بابل وكان موطنه الثانى هناك، وكانت بابل فى ذلك الوقت هى مركز الثقافة الآرامية، الأمر الذى يفسر الإشارة إلى أرشو فى برديات هاريس على أنه سريانى (آرامى)، وربما كانت أمه سريانية.

وسواء كانت إشارات البرديات إلى أرشام (أرساميس) أو إلى آرشو (ارساكس)، فإن كليهما استحق أن يوصف بأنه مغتصب لأهل مصر قبيل الأحداث التى سوف نصفها فيما يلى. بيد أن أرساميس، الذى مات قبل أن يعتلى ارساكسركس العرش، كان هو المسئول عن مصر. ولم يقم ارتاكسركس الثانى بأى زيارة لمصر، ولذا فقد رأيت أن من الأقوى أن اعتبر أرساميس (ارشام) هو آرسا.(٨)

بهذا التحديد للأمور نكون قد أكملنا الحلقة تقريباً، فيبدو أن حل كل المسائل التى ناقشناها يتأتى لو حركنا عصر رمسيس الثالث ومعه الأسرة العشرون كلها إلى القرن الرابع قبل الميلاد، ولكن تبقى مسألة واحدة: ماذا عن حروبه وعن مذكراته حولها؟

هوامش الفصل الأول

نظام الأشياء

١- يضع ادوارد ماير حكم رمسيس الثالث فى سنة ١٢٠٠، ويضعه ألان جاردنر (فى كتابه مصر الفرعونيه ١٩٦١) فى عام ١١٨٢، ويضعه روتون Rowton (مجلة الآثار المصرية العدد ٣٤) فى عام ١١٧٠.

٢- حينما يتكلم رمسيس الثالث عن شعوب البحر فهو يقصد بالتحديد: الچيكار والشكليش، والتريش، والواشيش، والشردان والسردينيون) ويعنى بشعوب الجزر: الديونيون

حروف يونانية على بلاطات رمسيس الثالث

1- T. H. Lewis, "Tel-el-Yahoudeh," Transactions of the Society of Biblical Archaeology, VII, 1881 (1882), 182

٢- المرجع السابق ص ١٨٩.

3- E Brugsch "On et Onion", Recueil de travaux relatifs á la philologie et á l'archéologie égyptiennes, VIII (1886) 5.

4- E. Naville, The Mound of the Jew and the City of Onias, Egyptian Exploration Fund, 1887 (1890) pp 6-7.

5- F. L. Griffith, "The Antiquities of Tell-el-Yahudiyeh" in the Naville, The Mound of the Jew. p. 41

6- Mahmud Hamza, "Excavations of the Deptartment of Antiquities at Qantir,

1928 Annales du Service des Antiquités de l'Egypte, XXX (Cairo) 1930.

7- W. M. Flinders Petrie, A History of Egypt from XIXth to the XXXth Dynasties (1905) p. 166. Cf. G. A. Wainwright in F. petrie, ed Ancient Egypt (1917), P. iii.

8- Petrie, The Formation of the Alphabet (London, 1912).

9- M. Hamza, Annals du Service des Antiquités de l' Egypt, XXX (Cairo 1930) p 58.

١٠- يتضمن كتاب G Moller, Hiertatische paläographie (2 nd ed; 1927-36). ٢١٤٥ علامة هيروغليفية ونحو عشرة آلاف شكل هيراطيقى مرتبطة بتلك العلامات.

11- Griffith in Naville The Mound of the Jew, P. 41.

١٢- أنظر: Naville, the Mound of the Jew, p. 6. His authority is T. H. Lewis Transactions of the Society of Biblical Archaeology, VII, 1881 (1882), 188 حيث كتب لويس عن "الزخارف العجيبة على الأسمنت التى عثر عليها اميل بروجش مشابهة لزخارف الزنابق فى مدن فارس.

نيكروبوليس فى القرن الثانى عشر أم القرن الرابع؟

١- راجع نافيل ص ١٦ E. Naville, The Mound of the Jew, p. 16.

٢- اتخذ البرايت W. F. Albright موقفا حاسما فى صف رأى جريفيث فى مقاله بعنوان "An Antropoid Clay Coffin from Sahâb" in Transjordan" المنشور فى American Journal of Archaeology (1932), pp. 302-4.

تبعية مصر للأجنبى آرسا

١- نشر بيرش S. Birch نسختها عام ١٨٧٦، وترجمها إلى الانجليزية چون بريستد فى كتابه تقارير من مصر القديمة الذى نشر عام ١٩٠٦-٧ الجزء الرابع الفقرات من ١٨٢-٤١٢.

٣- بسبب صعوبة نطق الحركات الهيروغليفية فإن الإسم يقرأ أحيانا أرسا› أو كما زعم بريستد: يارزو أو أريز، أو أرزو، وينطق ايرسو طبقا لما ذكره هايس وويلسون W. Hayes and J. Wilson وأرسو طبقا لما ذكره جاردنر . A. Gardiner وفى اللغة العبرانية يقصد بها فلسطيني أو سورى أو حورانى راجع كتابه A.H. Gardiner, Ancient Egyptian onomästica, Vol 1 (1947).

4- H. Junker, "Die Aegypter", in Junker and Delaporte H. Die Völker des antiken Orients (Freiburg 1933) p. 153.

5- J. Wilson, in J. B. Pritchard, ed., Ancient Near Eastern Texts (Princetion 1950). p. 260. n. 6.

6- W. C. Hayes, the Scepter of Egypt (1953-59), 1, 363.

٧- A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, pp. 281-82, وهناك زعم أخر ذكره Cerny. لبأن أرسا ربما كان هو هو ذاته الرجل الذى عرف باسم باى Bey وهو صانع ملك فى عهد سيتى الثانى وفى المجلد الذى تناول الغزو الأشورى لمصر سوف يتبين لنا أن سيثوس الثانى وباى يرجعان إلى بداية العصر المعروف بعصر الأسرة التاسعة عشرة فى مضمون إعادة، البناء التاريخى، وهي فى الربع الأول من القرن السابع قبل الميلاد.

أرساميس

1- G. R. Driver Aramaic Documents of the Fifth Century B. C. (Oxford. 1954).

2- E. G. Kraeling, The Brooklyn Museum Aramaic Papyri (New Haven, 1953) p. 32.

٣- يذكر هيرودوس فى الجزء الثالث ص ٩١ أن مائة وعشرين ألف جراية تعنى إطعام جيش قوامه عشرة آلاف إلى إثنى عشر ألف رجل أنظر Kraeling السابق الإشارة إليه.

4- Driver, Aramaic Documents, P. 44.

5- A. T. Olmstead History of the Persian Empire (Chicago, 1948, pp. 116-17.

ووردت أيضا فى سفر عزرا الاصحاح الرابع الآية ٧ ونصها: وفى أيام أرتخششتا كتبت رسائل من.... و... إلى أرتخششتا ملك فارس وكتابة الرسائل بالأرامية.

٦- أنظر كتاب عصور فى فوضى الجزء الأول.

٧- أنظر هيرودوتس الجزء السابع ص ٦٣ وأنظر أيضا سترابو الجزء الثانى ص ١، ٣١ والجزء السابع عشر ص ١-٣.

٨- فى أول شغلى بهذا الكتاب وقبل أن أصل إلى هذه المشكلة، كنت أعتبر أن كاتم الأسرار عزرا هو أرسا أو آيرزو والذى جاء ذكره فى برديات هاريس، إذ إنه تلقى من الملك الفارسى تفويضا بأن يجمع الضرائب من صرافى المزربانات "فيما وراء (هذا الجانب) من نهر الفرات" من أجل معبد أورشليم ولم تستبعد مصر من المرزبانات أو الولايات التى فرض عليها أداء الضريبة والعوائد واشتمل تشريعه على توقيع عقوبة الاعدام على المخالفين. ولقد وصل إلى أورشليم فى السنة السابعة من حكم دارا الثانى (٤١٧ ق.م) أو السنة السابعة من حكم الملك أرتاكسركيس الثانى ٣٩٧ ق.م أنظر مناقشة هذه النقطة فى الصفحات التالية.

الفصل الثانى

غزو الفرس والأغريق لمصر

فرضية مسبقة: فلسطينيون أم فرس؟

على الضفة الغربية للنيل، فى قبالة مدينة طيبة التى تقع على بعد نحو ثلاثمائة ميل من رأس الدلتا، بنى رمسيس الثالث معبداً جنائزياً فاخراً لنفسه، وتخليداً لذكراه صور على جدرانه وأعمدته قصص انتصاراته الحربية، وسجلا بأعماله بالحفر الغائر العميق. ويطلق على هذا الموقع الذى بنى فيه رمسيس الثالث معبده اسم مدينة هابو الواقعة أمام الأقصر على البر الغربى تحت جرف مرتفع يخفى وراءه وادى الملوك الذى يضم جباناتهم. ولقد كان لرمسيس الثالث «أو سيمارى ميرأمون رمسيس هيكاوون» الفضل فى حماية البلاد وإنقاذها مما وقعت فيه من غزو الجيوش الجرارة وشراذم المهاجرين.

تجمعت أمام رمسيس الثالث جيوش جرارة من الكنعانيين الفلسطينيين تحت قيادة من شعب يسمى بيرست، يساندهم أسطول ضخم لغزو مصر. ووفقاً للسلسلة الزمنية المعتادة، كان ذلك بعد عام ١٢٠٠ ق.م، وهى السنة التى اعتلى فيها رمسيس الثالث العرش، ووفقاً لما ورد فيه يعتبر اسم شعب بيرسيت بديلاً لاسم الفلسطينيين، ففى الأبجدية المصرية القديمة لا يوجد حرف اللام وربما حل حرف الراء محله، وعلى ذلك، ففى معظم الأحوال التى يظهر فيها حرف اللام ينطق راء ولذا وجدنا اسم رمسيس يقرأ لامسيس.

وبصرف النظر عن ذكر الفلسطينيين فى حوليات رمسيس الثالث، فإن التوراة أو العهد القديم تعتبر المصدر الرئيسى للمعلومات الخاصة بهم. وطبقاً لسفر التثنية (الاصحاح الثانى الآية ٢٣) وسفر أموس

الاصحاح التاسع الآية ٧) وسفر جيريميا (الاصحاح ٤٧ الآية ٤) أتى الفلسطينيون من جزيرة كافتور إلى بلاد كنعان. ويتكلم جيريميا عن الفلسطينيين على أنهم «بقايا من سكان كافتور». والغالب أن كافتور يقصد بها جزيرة كريت، وإن كان هناك اعتقاد قوى فى أنها هى قبرص.(١) ولقد وصل الفلسطينيون إلى ساحل بلاد كنعان ونزلوا إليه بالقوة قبيل قبائل الإسرائيليين بوقت قصير قد لا يزيد عن بضع عشرات من السنين أو بعض السنين، وهم الذين أتوا من شرق الأردن وسكنوا المنطقة الجبلية من أرض كنعان.(٢) لم يذكر رمسيس الثالث شيئاً عن الفلسطينيين أو عن الاثنى عشر سبطاً فى حولياته عن الحرب، كما أنه لم يرد ذكر أى حرب شنها المصريون على بلاد كنعان. وكان البيرست هم الشرائم الغازية من الفلسطينيين، وهناك زعم بأن الإسرائيليين كما يبدو، لم يكونوا قد وصلوا إلى كنعان. وربما كان هذا الزعم تفسيراً للحقيقة الغريبة الواردة فى حوليات رمسيس عن أنه أحرز انتصاراً على الفلسطينيين وحلفائهم وأن جزءاً من هذا الانتصار كان على أرض فلسطين، دون أن تتورط فيها القبائل أو الأسباط الإسرائيلية. ومن المعتاد أن يفسر هذا بالطريقة التالية: إن وصول الإسرائيليين فى وقت متأخر يفسر ما ذكره المصريون فى حولياتهم عن الحرب فى أرض كنعان. وبالمثل، قد يكون ذلك تفسيراً لعدم ورود أى ذكر لما احتوته تلك الحوليات عن أحداث هذه الحروب.

إن ذكر حرب كنعان فى إصحاح يشوع بعد عام ١١٨٠ ق.م أمر ليس فيه صعوبة كبيرة، فبدلاً من السنوات الأربعمائة التى حدثت خلالها تحركات الشعوب فى الصحراء، يأتى غزو كنعان وعصر القضاة، ولا يتبقى إلا مائة وبضع سنين. وبحلول عام ١٠٠٠ ق.م كان قد مر على حكم داود أربعون عاماً وكان شاول أول ملوك إسرائيل قد حكم بضعة عقود من الزمان قبل أن يعتلى داود العرش، وتعتبر مائة عام قليلة جداً على فترة القضاة.

ويعتبر تحديد زمن الغزو بقيادة يشوع إلى ما بعد حروب رمسيس الثالث فى فلسطين متعارضاً أيضاً مع النظريات المفضلة عن وقوع الغزو خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة (أى عصر تل العمارنة) أو أثناء حكم ملوك الأسرة التاسعة عشرة. ولكن من قرأ كتاب «عصور فى فوضى» يعلم تمام العلم أن الخروج حدث فى نهاية عهد الدولة الوسطى قبل رمسيس الثالث

الذى ينتمى للأسرة العشرين وقبل مرنبتاح الذى ينتمى إلى الأسرة التاسعة عشرة أو أمنحتب الثالث أو الرابع (إخناتون) من الأسرة الثامنة عشرة. ويبقى اللغز قائماً: كيف أن رمسيس الثالث لم يتلاق مع القبائل الإسرائيلية أثناء حروبه التى شنها ضد شعوب البحر الذين أتوا لغزو مصر، وحربه فى فلسطين؟ وكيف أن الحوليات العبرية لم تحفظ لنا أى ذكر لتلك الحملات؟

هناك زعم بأن ما حدث لم يكن هجرات واسعة للشعوب كتلك التى شهدتها المنطقة فى عصور سابقة: «فلقد تجمعت منذ عام ١٢٠٠ اضطرابات كثيرة فى الحياة السياسية للشرق القديم... وتغيرات كانت لها آثار لم يسبق لها مثيل إلا غزوات الاسكندر» كما ورد فى تعليق أحد أعضاء البعثات الأثرية التى كانت تبحث فى مدينة هابو(٣)

ولما لم تكن هناك أى شعوب ظهرت بعد سنة ١٢٠٠ مباشرة، فقد أصبح شعب بيرست هم الفلسطينيون، ووجدت فى كتب التاريخ صور للفلسطينيين، شعب جوليا، والذى كان ظاهراً فى أيام القضاة: وكانت هذه الصور منقولة عن الحفر الغائر الموجود على جدران المعبد الجنائزى للملك رمسيس الثالث.

فمن السهل تمييز شعب بيرست وحلفائهم من شعوب البحر من مظهرهم فى رسوم جدران معبد مدينة هابو، فشعب البيرست يلبسون خوذات تشبه التيجان وثيابهم فاخرة، أما شعوب البحر فيلبسون خوذات ذات قرون وبها كرات أو أسطوانات فيما بين القرنين.

هذا ويدلنا المظهر المنمق لشعب بيرست على أنهم شعب ثرى مثقف، ومن المؤكد أن القوات العسكرية النظامية المسلحة لم تكن تشبه الشراذم المتدفقة فى هجرات متتابعة التى تذكر أحياناً على أنها تمثل موجات من هجرات القبائل المطرودة من أرضها المتجهة إلى مصر. وصاحبة هذا الرأى هى الباحثة ستيلا التى كان مبررها فى ذلك هو أن تلك الجيوش كانت قوات لدولة منظمة وأنها ليست مجرد شراذم من المهاجرين الذين أبعدوا عن أوطانهم الأصلية،(٤) كما أن شعوب البحر أيضاً لم يكونوا يشبهون شراذم المهاجرين بل كانوا شبه ما يكونون بالجيوش المنظمة.

ولا يوجد لدينا أى شعوب قديمة مماثلة نقارن بها الفلسطينيين، بيد

أننا لو تفحصنا سجلات الصفائر التي تمت في أقطار عديدة، والصور الفوتوغرافية الملتقطة للفنون القديمة لوجدنا أن الخوذات التي تشبه التيجان التي رأيناها في الرسوم المحفورة في معبد رمسيس الثالث نجدها أيضاً فوق رؤوس جنود الفرس.

وتوجد في مدينة بيرسوبوليس التي تبعد نحو ثلاثين ميلاً شمال شيراز، أطلال قصور الملوك الفرس القدامى ودرجات سلالمها الضخمة مازالت قائمة، وعلى جدران أبهاء السلالم رسوم كثيرة لأشكال الجنود الفرس مازالت محفوظة حتى يومنا هذا، وعلى رؤوسهم الخوذات التي تشبه التيجان، وتتكون هذه الخوذات من عدة وجوه أو فصوص مركبة على حلقةمزينة حول الرأس ويتدلى منها فص خلفي لحماية مؤخرة الرأس. وتتكون الخوذات التي ترى في الرسوم على جدران المعابد المصرية أيضاً من فصوص مركبة على حزام محيط بالرأس وفص خلفي لحماية مؤخرة الرأس أيضاً.

وفي ناخسن أي رستم قرب بيرسوبوليس توجد قبور عظماء ملوك فارس، وهي على أضرحة على شكل غرف من الصخور عليها حفر غائر يصور الحرس الملكي الفارسي، ومن السهل في هذه الرسوم أيضاً أن نميز خوذات البيرست.(٥)

وإلى جانب الحرس الملكي الذين يلبسون أنواعاً متعددة من الخوذات ذات الفصوص، فإن النقوش الغائرة في كل من بيرسوبوليس وناخسن أي رستم فيها أحزمة محيطة بالرأس، والملك ذاته متوج بعمامة عادية. وعلى نقوش الجدران في معبد رمسيس الثالث نجد أيضاً أن الأسرى يلبسون عمامات عادية، وهم غير مرسومين في المعركة، بل يظهرون بين الأسرى الذين يسيرون في موكب النصر الفرعوني، ومن الواضح أن هؤلاء الأسرى كانوا يمثلون كبار الضباط.

هذه الخوذات المتميزة التي ترى فوق رؤوس الحرس الملكي والفرسان الفرس، وكذلك العمامات التي ترى فوق رؤوس الملك المعظم ومرزباناته أو حكامه، وترى أيضاً فوق رؤوس الموظفين تعتبر بمثابة دليل قوى لتمييز الفرس والبيرست. بيد أن اتصالات الفرس وحروبهم مع مصر كانت محددة وقاصرة على الفترة الممتدة من سنة ٥٢٥ ق.م حينما غزا

تمييز مصر وعام ٣٣٢ ق.م وهى السنة التى وصل فيها الاسكندر الأكبر إلى مصر وأنهى بذلك السيطرة الفارسية عليها.

وإذا ما كان حكمنا مبنياً على حقيقة أن جنود البيرست كانوا غير ملتحين بينما كان ضباطهم فقط هم الملتحين، بينما كان ضباط وجنود الحرس الملكى الفارسى الذين ظهروا على الرسوم المحفورة التى وجدت على آثار دارا التى ترجع إلى نحو سنة ٥٠٠ ق.م كانوا جميعاً ملتحين. إذا حكمنا بهذه الحقيقة نكون بذلك متجهين نحو القرن الرابع، ونجد أن هناك نحو مائة عام تفصل بين عصر دارا والقرن الرابع قبل الميلاد. وفى نفس الوقت لابد وأنه قد حدث تعديل اقتضى أن يحلق الجنود لحاهم وذلك لكى يميزهم العامة.(٦) ولكن الضباط ذوى الرتب العالية احتفظوا بلحاهم. وفى النقوش المصرية نجد أن اللحى تزين وجوه الضباط ذوى الرتب العالية من شعب بيرست.

وتتميز الفصوص الموجودة فى الخوذات بأنها مزينة برسوم الريش، وأن الأشخاص يلبسون سترات طويلة. وأما أن هذه الرسوم قد تمت فى عهد أواخر الملوك الأشوريين الذين عرف من حولياتهم المدونة أنهم دخلوا فى سلسلة حروب مع عيلام، وهى منطقة المرتفعات الفارسية وأخذوا منهم أسرى أو رسمت فى عهد الغزو الفارسى لبلاد آشور التى خضعت لهم هى وبابل فى النصف الثانى من القرن السادس قبل الميلاد. وفى نقش بالحفر الغائر فى منطقة ناخسن آى رستم يرجع تاريخه إلى عصر الأسرة الساسانية، وفيما بين القرن الثالث والسابع الميلادى وجدت خوذات مماثلة على رأس ايزيس وهى تقوم بتمريض رمسيس الثالث.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: أليست ملابس شعب بيرست الفاخرة التى أدهشت العلماء المحدثين، (٧) هى هى ملابس الفرس التى أعجبت اليونانيين المعاصرين لهم؟

كان الفرس فى عهد هيرودوتس فى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد« يلبسون قلنسوات واسعة تسمى عمامات، وعلى أجسامهم سترات ذات أكمام مزخرفة وذات ألوان متعددة وبها تطريز بخيوط مذهبة أو أصداف الاسماك ». وكان السريانيون فى جيش اكسركسيس يلبسون « خوذات مصنوعة من النحاس وبها طيات وضفائر يصعب وصفها »(٨)

ويخبرنا أميانوس مارسللينوس في وصفه لتسليح الفرس أنهم كانوا يلبسون من رؤوسهم حتى أقدامهم ملابس مكونة من صفائح حديدية تتخذ شكل الريش.(٩)

وفي بعض الأحيان كانت الفصوص المركبة على الخوذات التي يضعها جنود بيرست على رؤوسهم محفورة على شكل ريش، مما جعل المؤرخين يسمون الخوذات التي كان يلبسها الفلسطينيون باسم تيجان الريش لأنها كانت شبيهه بغطاء الرأس عند الهنود الحمر، ولكننا عرفنا من أمونيانوس أن الصفائح الحديدية في ملابس الفرس كانت مصنوعة بشكل خاص كي تشبه الريش.

إن مناخ مصر يمنع في معظم أوقات السنة من استخدام الملابس المدرعة، ويلبس جنود بيرست أردية من أزر خفيفة معلق بها قليل من الصفائح المدرعة، ويلبسون على رؤوسهم خوذات مصنوعة من الصفائح. وفي الحفائر التي جرت في المستوطنة العسكرية اليونانية بمصر في دفنة استخرجت صفائح حديدية كثيرة. «ويعتبر الدرع المصفح أغرب ما وجد في هذه الحفائر»(١٠)، ولكن الدرع المعروف فعلاً «والمكون من قميص مصنوع من الصفائح يظهر في مقبرة رمسيس الثالث» كما شاهده فلندرز باتري دون أن يدهشه الأمر.(١١)

إن حقيقة العثور على صفائح حديدية في حفريات باتري في منطقة دفنة التي أنشئت في القرن السابع قبل الميلاد للجنود الأغريق المرتزقة الذين كانوا يخدمون في مصر وكذلك القميص المصفح المصنوع من صفائح مماثلة والمرسوم في مقبرة رمسيس الثالث، تنطوي على مقارنة تاريخية أخذت تبدو واضحة لتميز عصر هذا الفرعون.

من الواضح أن شعب بيرست لم يكونوا فلسطينيين بل كانوا من الفرس. وهذا التفسير قابل للضبط. فقد ظلت مصر لدى مائتي عام تحت السيادة الفارسية. أو كانت تحاربها، ولا يصعب علينا أن نجد في النصوص المصرية التي ترجع إلى العصرين الفارسي والبطلمي الإسم الذي استخدم للدلالة على فارس وعلى الفرس.

ففي النصوص الهيروغليفية التي ترجع إلى العصر الفارسي من ٥٢٥ ق.م إلى ٣٩٠ ق.م، حينما كسبت مصر استقلالاً مؤقتاً، توجد إشارات

متعددة لفارس، فكانت دائماً تسمى برس (وفارس تسمى في العبرية برس أو باراس)، وهذا الإسم كان مزوداً بعلامة «الأرض الغريبة» كما هى العادة فى الكتابة المصرية القديمة.

وفى العهد البطلمى الثالث عام ٢٣٨ ق.م أصدر اجتماع المجمع الدينى مرسوماً وتقرر حفره على حجارة، وهو المعروف باسم مرسوم كانوباس، نسبة إلى المكان الذى انعقد فيه اجتماع المجمع. وهو يتضمن اصلاح التقويم الزمنى، وسوف نتناول هذا المرسوم بالدراسة فى صفحات تالية من هذا الكتاب. فى هذا المرسوم وجدت إشارات إلى مرسوم صادر إلى الفرس باعتبارهم أمة، وهو مكتوب بما ينطق برست.(١٢)

ولقد كتب مرسوم كانوبس على لوح حجرى بثلاث لغات هى اليونانية والديمقوطيقية المصرية والهيروغليفية (حجر رشيد). ويقرأ فى النص اليونانى ما يلى: «أما الصور المقدسة التى أخرجها الفرس من البلاد، قام الملك بحملها إلى خارج مصر وأحضرها ثانية فى أمان إلى مصر، وأعادها إلى المعابد التى كانت قد أخذت منها...»(١٣)

ولئن كان هناك شك فى معنى بيرست، فإن النص اليونانى قد أزاله، وبذلك لن تكون هناك أية مشكلة فى أن نعرف كلمة بيرست التى وردت فى النقوش المكتوبة فى معبد مدينة هابو بأنها مرادف لكلمة فرس.

ضخامة المشكلة

قبل أن ندخل فى التفاصيل، لنتوقف قليلاً لنتأمل ضخامة المشكلة، فلقد وجهتنا طبيعة الأشياء فى عدة مرات نحو فترة حكم الفرس، أولها حينما ناقشنا البلاطات من مخلفات رمسيس الثالث والتى تحمل أحرفاً يونانية وملامح تشكيلية فارسية، ثم حينما قرأنا أن المقابر التى بنيت خلال حكم رمسيس الثالث تظهر بوضوح ملامح القرن الرابع قبل الميلاد أو ما بعده. وكانت المرة الثالثة حينما لاحظنا أن من غير المتصور أن تكون مصر قد خضعت لحكم الأجنبى أرسا خلال القرن الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد، ولكن بدا بوضوح أن ذلك كان خلال النصف الثانى من القرن الخامس. وأخيراً حينما أخذنا نتحقق من أن رمسيس

الثالث حارب الفرس وإن كان الفرس قد بدأوا الحرب على مصر فى عام ٥٢٥ ق.م، ثم حاربوها مرة أخرى فى القرن الرابع حيث أعلن المصريون استقلالهم تحت حكم ملوك وطنيين.

يمكننا أن نتوقف هنا، متراجعين بسبب الفكرة التى لا يعترف بها من أن هناك خطأ فى ثمانمائة عام، أو قد يرهبنا ما قد يحدثه ذلك من تشويش. ولكن أليس علينا أن نقرر التعمق قليلاً فى المحاولة، وأليس لنا ألا نستسلم للشعور بأن الدلائل الجديدة قد تؤدى إلى إلغاء مفهوم التاريخ القديم الذى مضت عليه القرون؟ لهذا لابد أن نفهم بوضوح أنه من الصعب أن نترك رمسيس الثالث يحارب الفرس بينما نستبقى كل ما يتعلق بتاريخ العالم فى شكله السابق. ما أشد السقطة وما أشد الإنهيار الذى لابد أن يصاحب مثل هذا الكشف: ممالك تتزحزح عن زمانها وإمبراطوريات تتقدم وتتأخر على مدى قرون، وأحفاد وأسلاف يتبادلون مواقعهم التاريخية؟ بالإضافة إلى ذلك، كم من الكتب ستلغى، وكم من المتتابعات العلمية سوف تبدأ من جديد، وكم من الأشياء السائرة سوف توقف؟ إنها ليست مجرد سقطة أو انهيار، ولكنه إنقلاب كامل رأساً على عقب لأشياء كانت راسخة فى الأذهان لأزمان طويلة.

والآن وقد استطاع القارىء أن يدرك التتابع الذى يقتضيه تعريف شعب بيرست بأنهم الفرس، فليتابع معنا عن قرب المزيد من الأدلة والبراهين كى يقتنع بما لم يكن قد ثبتت صحته بعد، أو ليتجه إلى ما كان مجرد صورة غائمة عن الماضى .

هل نحن بصدد وصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد أم القرن الرابع قبل الميلاد؟ منذ بداية القرن الرابع لم تكن هناك آثار فيها غموض، فكل الحروب التى شارك فيها الأغريق ولو كجنود مرتزقة غالباً ما نجد لها وصفاً دقيقاً فى كتابات أحد المؤلفين اليونانيين، وأصبح نظام التاريخ عندنا موضوعاً تحت الاختبار الدقيق، فلابد أن نجد لكل جزء من أجزاء الحكاية ذكراً فى كتب اليونانيين، وإذا لم نستطع ذلك، فتكون الفرصة مواتية لأن نقدم مزاعم لا يمكن الدفاع عنها، ولكن إذا لم يأت ذكر الأحداث التى رواها الفراعنة لدى المؤرخين اليونانيين متتابعة حادثة وراء الأخرى بكل من فيها من أشخاص كان لهم دورهم فى الأحداث التى وردت فى

نقوش الجدران المصرية القديمة، وما صحبها من نصوص، إذاً فإن النظام التاريخي الذى نقدمه هنا لا يستحق أن يخضع للتحكيم.

(أيها الحب ألا تستطيع معى ومعه أن نتضافر
لنغير هذا النظام العظيم للأشياء كلها.
ألا نستطيع تمزيقه إرباً ثم نعيده وفق ما يهواه الفؤاد)

ولو أن النظام المعدل للتاريخ قبل هذا التحدى، فيجب أن يعترف بإحراز كسب أساسى فى ميدان المنافسة على الخط الصحيح للتاريخ الحقيقى ليس بمقدورنا ونحن نراجع ونعدل هذا الجزء من التاريخ أن نتجاهل مساعدة الكتاب المقدس أو المصادر البابلية والأشورية لنا، وذلك لسبب بسيط، هو أن آخر أسفار العهد القديم وهى عشتار ونحيميا وعزرا كانت قد تمت أو كادت تتم فى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، وهى تتناول فترة سابقة لعصر رمسيس الثالث، ولم تكن بابل وأشور موجودتين فى صورة دول، ومع ذلك فربما وجدنا فيها المادة الضرورية لإجراء المقارنة فى كتابات اليونانيين.

كان القرن الرابع عشر وقد مضى قرن ينقص ست سنوات على بداية الصراع بين سوفوكليس وأخيل، وكان قد مضى على موت بركليس الذى وصف عهده بأنه العهد الذهبى لأثينا، كما كان سقراط قد قضى نحبه وكانت ملحمة الضفادع لارستوفان تمثل وتقرأ منذ عشرات السنين.

سوف لا نبحث فى كتاب المؤرخ ثيوكيديدس عن سجلات رمسيس الثالث، فإن هذا المؤرخ مات بعد سنة ٤٠٠ ق.م بقليل، كما لن نلتفت إلى ما كتبه، هيرودوتس حينما زار مصر، لأن رمسيس الثالث لم يكن قد ولد آنذاك.

وحينما تتوقف مصادر الكتاب المقدس عن تقديم أى معلومات نلجأ عادة إلى الحوليات التى سجلها اليونانيون المعاصرون، فنجد فيها أسماء مألوفة لملوك مصريين مثل نفريتس واكوريس ونكتانيبو الأول وتاشوس ونكتانيبو الثانى، وكلها أسماء لملوك حكموا فى جيل بعد جيل هيرودوتس وثيوكيديدس، ويأتى مكان الفرعون الأخير نكتانيبو الثانى فى دراسة المصريات فى الأسرة التى يطلق عليها الأسرة التاسعة والعشرون أو

الأسرة الثلاثون من سلاسل الأسر الملكية (وهى الأسرة الأخيرة التى حكمت قبل غزو الفرس لمصر بقليل، وذلك قبل غزو الاسكندر بعقدين من الزمان. وكان نكتانيبو الأول الذى حكم فى الفترة من ٣٧٩ ق.م إلى ٣٦١ ق.م هو أشهر الملوك المصريين الأواخر. ولكن، إذا ما تمسكنا هنا بأن عصر رمسيس الثالث لم يكن فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد وأنه كان فى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، فمن إذاً يكون نيكتانيبو الأول هذا الذى عاش فى نفس الوقت؟

سوف نتبين أن الفرعون الذى اختار المؤرخون المحدثون من بين أسمائه العديده اسم رمسيس الثالث هو هو نيكتانيبو الأول الذى ورد ذكره عند المؤرخين اليونانيين. فنظراً لأنهم كانوا معاصرين له ولم تفصلهم عنه ثمانمائة عام من الزمان، ونظراً لأن كلا الإسمين لفرعون مصرى، فليس هناك بد من أن نعتبرهما شخصاً واحداً. وسوف نرى حينما نقارن سجلات حوليات رمسيس الثالث، بكتابات اليونانيين عن نيكتانيبو الأول، أن هناك تشابهاً كبيراً فى تفاصيل شخصيتيهما وحياتهما وحكمهما وحروبهما، ويبلغ هذا التشابه حداً يفرض أن نعتبرهما شخصاً واحداً، هذا فضلاً عن أن رمسيس الثالث استخدم اسم نخت آى نيب كأحد أسمائه الملكية أو المسماة أسماء حورس أى الأسماء الإلهية.

لقد خلف لنا رمسيس الثالث حوليات عن حربه مع شعب بيرست وشعوب البحر، كما أن ديودور المؤرخ الصقلى الذي كتب باللغة اليونانية فى القرن الأول قبل الميلاد روى بالتفصيل حروب نيكتانيبو الأول ضد الفرس والمرتزقة اليونانيين. وليس من شك فى أن ديودور هذا الذى قضى فى مصر فترة من الزمن فيما بين سنة ٦٠ق.م و٥٧ ق.م قد اطلع على كثير من الوثائق والمصادر حينما كان يكتب عن ملوك مصر الأواخر. ولسوف نخضع هذين السجلين للفحص المقارن الدقيق، فلابد أن كلا منهما يقدم رواية لنفس الحرب التى يرويها الآخر، إلا إذا كنا قد خرجنا عن مسارنا فى محاولة الكشف عن التاريخ الحقيقى لتلك الأزمان.

عدم الاستقرار فى الجزر

بموت دارا الثانى (نوثوس) اعتلى ابنه ارساكيس العرش، واتخذ اسم ارتاكسركيس الثانى (ارتاخركس). وسمى منيمون لذاكرته القوية، وظل على العرش من عام ٤٠٤ ق.م إلى ٣٥٨ ق.م، وهى فترة شهدت أحداثاً تاريخية جسيمة. وفى أوائل حكمه قام شقيقه الأصغر مرزبان الأناضول واسمه سيروس بثورة ضده وسار بجيش ليحارب الملك. وشارك فى هذه الحملة ما يتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف جندى يونانى من المرتزقة ووصف أحد قادة هؤلاء المرتزقة هذه الحملة كما وصف التراجع إلى اناباسيس. تقدم سيروس حتى بلغ بابل ومات فى معركة نشبت بجوارها سنة ٤١٠ ق.م، وتراجع الجيش اليونانى ووصل إلى البحر الأسود بعد عناء شديد.

وفى خلال السنوات القليلة التالية عانى الحاكم الفارسى فى آسيا الصغرى من ثورات الأتباع، ومن محاولات أسبارطة لتحرير الايونيين الذين يسكنون ساحل آسيا الخاضع للسيطرة الفارسية. واتخذت الجهود لمواجهة ذلك شكلاً عدوانياً حينما انتصر اجسيلاوس ملك اسبارطة عام ٣٩٦/٣٩٥ ق.م فى محاولاته التى بذلها فى غرب ووسط آسيا الصغرى(١)

ولقد استبق العاملون مع اجسيلاوس أحداث الاسكندر، وكتب كورنيليوس نيبوس فى سيرته المختصره عن اجسيلاوس يقول:-

«استولى اجسيلاوس على أماكن كثيرة، وأمن البلاد ضد الكثير من الخارجين عن طوعه... وبينما كان يفكر فى مسيرة لغزو بلاد فارس والهجوم على ملكها، جاءه رسول من وطنه مبعوث من ايفورى ليخبره أن الاثينيين والبوطيين قد أعلنوا الحرب ضد اللاكيدايمونيين (الاسبرطيين) وأن ذلك يفرض عليه ألا يؤخر الرجوع. ورغم أنه كان على رأس الجيش المنتصر ويتطلع إلى أن يسيطر على ملك فارس، إلا أنه أطاع الأوامر... وفضل اجيسلاوس أن يحصل على لقب التشريف من أعظم إمبراطور، واعتقد أن من الأشرف له أن يطيع قانون بلاده عن أن يخضع آسيا الصغرى لنفوذه»(٢)

وبدأت حرب كورينثا التى دامت ثمانى سنوات، وقدم فيها ملك

فارس العون للأثينيين، بل وكان له فى واقع الأمر أثر فعال فى استثارة العداوة، وكان ذلك دافعاً أدى باجسيلاوس إلى العودة إلى اليونان ويثير فى اليونانيين العداوة التى استمرت زمناً طويلاً. وفى عام ٣٩٤ ق.م انتصر الاسبارطيون فى معركتى نيميا وكورونيا، ولكن أساطيلهم بقيادة أمير البحر كونون هزمت أمام الأسطول الفارسى فى سنيدوس، وثار الايونيون فى ساحل الأناضول وأعلنوا استقلالهم عن اسبارطة، واستعادت أثينا جزر ديلوس، وشيروس وامبروس وليمنوس، وعقدوا حلفاً مع شيوس وميتلين، ورودس وكوس وسنيدوس.

ووقعت أحداث أخرى شهيرة أثناء حرب كورينثا (من ٣٩٥ إلى ٣٨٧ ق.م) وشارك فيها الكثير من الجزر، فتحرك ايفاجوراس ملك سلاميس فى قبرص لمساعدة الاثينيين، وبذلك قدم خدمة كبيرة لملك الفرس، ولكنه ثار بعد ذلك بسنوات قليلة (٣٩٠ ق.م) ضد ارتاكسركيس مسلطاً من جانب الملك الأكبر الذى أنكر شجاعة ايفاجوراس ورفض منحه الاستقلال. وكان ارتاكسركيس أيضاً فى حاجة إلى ملك تابع له فى الجزيرة استعداداً لشن غزوة على مصر. بيد أن الحرب ضد ايفاجوراس استمرت عشر سنوات تحملت فيها فارس نفقات باهظة، وفى فترة من الفترات عبر ايفاجوراس إلى آسيا الصغرى، واستحث السيليكيين على الثورة، واستولى على العديد من المدن.

ومن الجهة الأخرى من شرق البحر المتوسط كانت الحرب قائمة أيضاً في صقلية بجنوب ايطالياً، فقد غزا القرطاجنيون ايطاليا. وقام ديونيس طاغية سرافورزا بشن حرب ضد كروتون المستوطنة اليونانية الواقعة فى جنوب إيطاليا، وشارك أسطول الاثينيين فى الحرب أيضاً، ودخلت الجزر الغربية فى مرحلة من الصراع العنيف.

كان الأسبرطيون هم المتفوقين فى حرب كورينثا، ولكن كان انتصار الجنرال ابقراط الاثينى فى الحرب نقطة تحول رئيسية، ففى عام ٣٩١ ق.م قضى قضاء تاماً على قوات أسبرطية ثقيلة التسليح تتحرك ببطء دون قتال شديد وبمناورات بسيطة من جانب الحاميات الاثينية التى كان قد أعاد تسليحها وعدل من نظام دفاعها وهجومها مما سهل لها عملية الكر والفر.

أما فى مصر فقد أدت سياسة القهر التى اتبعها الفرس قبيل موت دارا الثانى أن يبسط اميرتيوس نفوذه على جزء من مصر، وكان هو الممثل الوحيد للأسرة الثامنة والعشرين التى حكمت لفترة قصيرة جداً. ومن بعده قام الزعيم المدنى بثورة أحرز نتيجة لها بعض الاستقلال الذى لم تشهده مصر على مدى المائة والثلاثين عاماً السابقة. وحينما مات بعد سنوات قليلة من إحرازه لهذا الاستقلال النسبى لم يخلفه أى من أبنائه، ولكن استولى رجل يدعى اكوريس على العرش. وكان الفرس من وراء ذلك، واعترف اكوريس فى بداية الأمر بالسيطرة الفارسية على البلاد، ولكنه قام بعد قليل بثورة: وحينما ثار ايفاجوراس بمساعدة الاثينيين بالثورة ضد ملك فارس، اختار اكوريس أن يقوم هو بالثورة أيضاً. هزمت أساطيل ايفاجوراس أمام الفرس فى عام ٣٨١ ق.م، ومات اكوريس عام ٢٧٩ أو ٢٧٨ ق.م واستولى نيكتانابو الأول على العرش، وادعى أنه ابن نفريتس، ولكنه كان فى حقيقة الأمر ضابطاً وابنا لأحد العسكريين. ويبدو أنه كان يخدم فى الجبهة الليبية حيث أحرز بعض النجاح قبل أن يعلن نفسه ملكاً .

كان لهزيمة ايفاجوراس فى قبرص وتحسن العلاقات بين أثينا وفارس والمساعدات التى قدمها الفرس للاثينيين، كان لكل ذلك أثره على الأحداث فى مصر. فقد اعترف نيكتانيبو فى أول الأمر بسيطرة الفرس على البلاد وولائه لهم، ولكنه سرعان ما كون جيشاً وأسطولاً ليشن هجوماً على الجيش والأسطول الفارسى. ولم تطل المدة التى كان يتظاهر فيها بالولاء للفرس.

كتب ديودور (عام ٣٧٤/٣٧٥ ق.م) يقول «حاول ارتاكسركيس ملك الفرس الذى كان ينوى شن حرب على مصر، ونتيجة لانشغاله بتجنيد جيش كبير من المرتزقة حاول أن يسوى الأمور مع اليونان تسوية سلمية» وبتحقيق السلام على الجبهة الغربية (اليونان)، كان يأمل أيضاً «أن يكون اليونانيون الذين سبق لهم أن رفعوا عن كاهله عبء الحروب الداخلية، أنهم سيكونون على استعداد لقبول الخدمة فى جيشه كجنود مرتزقة.» ولكن النتيجة لهذا الذى سمى «السلام الملكى»، والذى أعطى لكل مدينة يونانية استقلالها الذاتى، أن ظهرت مشاكل جديدة، حيث أن

الطيبيين بقيادة ايبامينونداس لم يوافقوا على هذه الإجراءات فضلاً عن عدم موافقتهم على الحصول على الحكم الذاتى، «وشاعت الاضطرابات، والصراعات الداخلية فى المدن وبخاصة فى البلوبونيز.»(٣)

انتهت محاولة التوصل إلى تسوية شاملة. إلى نشأة عداوات جديدة بين اسبرطة وأثينا؛ وأدى حصار اسبارطة لمعبر هليس إلى اضطرار الاثينيين لقبول السلام مع الفرس، واحتلت اسبارطة قلعة كادميا فى طيبة عاصمة بويطيا، واستعاد الطيبيون المنفيون كادميا فى انقلاب. وتحالفت أثينا مع طيبة. وفى عام ٣٧٦ ق.م دمر أمير البحر اليونانى تشابرياس أسطول اسبارطة عند ناكسوس حيث وقعت معركة فاصلة.

«وارسل الملك ارتاكسركيس فى السنة التالية حملة ضد مصر التى كانت قد ثارت ضد فارس»(٤). وصف ديودور هذه الحملة ونهايتها المأساوية التى سنأتى على ذكرها فى صفحات تالية، وعاد فى وصفه هذا إلى ذكر الأحوال السياسية فى الدولة اليونانية فى قوله: «يوجد حالياً فى جميع دول اليونان حالة من الاضطراب بسبب رفض أشكال الحكومة القائمة... فهناك الكثير من الثورات القائمة وسط تلك الفوضوية السائدة.»(٥)

هكذا تظهر بلاد اليونان فى غليان، فما كادت حرب كورينثا تنتهى إلا وبدأت حرب جديدة بين دويلات المدن اليونانية والجزر.

كتب رمسيس الثالث على البوابة االثانية لمعبده الجنائزى فى مدينة هابو أن الجزر كانت غير مستقرة ومنقسمة على نفسها فى العبارات:

«البلاد كلها... الشماليون فى جزرهم منقسمون. ومنشغلون بالصراعات التى سادت بينهم فى وقت واحد، ولم يستطع أحد أن يقف فى وجه أسلحتهم، سواء الحيثيين والكودى [الذين يحيطون بالسواحل السورية حول خليج الاسكندرونة] أو الكارشاميش والآفاد [الذين يعيشون شمال سوريا، أو الألاسا (فى قبرص)، فجميعهم سحقوا، وأقام الشماليون معسكراتهم فى مكان واحد فى عامور بسوريا.(٦)

Quid Pro Quo?
ماذا يعنى ذلك

إن دراسة الحفر الغائر فى معبد رمسيس يكشف لنا عن تحالفات وعلاقات معقدة قائمة بين الفصائل التى اشتركت فى الحرب. فلقد اتخذت العلاقات بين المصريين من جهة وبين كل من البيرسيت وشعوب البحر من جهة أخرى التى سجلها رمسيس الثالث عن تلك السنوات أشكالا مختلفة مع تغيير شعوب البحر لموقفهم رغم أن البيرسيت أيضاً غيروا موقفهم من رمسيس فكانوا حلفاء فى بعض الأوقات وأعداء فى أوقات أخرى.

ولقد كان هناك شيء غريب فى العلاقات بين كل من شعوب البحر والمصريين والبيرسيت. فحينما بدأ الفرعون حروبه ضد الدخلاء الليبيين لقى هو وجيوشه مساعدة من شعوب البحر بخوذاتهم ذات القرون والبيرسيت بعمائمهم ونراه فى الصورة وهو يعمل القتل في الليبيين. وهكذا لم يظهروا لأول مرة إلا فى شكل حلفاء لمصر.

ويظهر البيرسيت فيما بعد فى المشهد الثانى على أنهم الأعداء الرئيسيون للمصريين، ويظهر شعوب البحر فى هذه الحرب ضد البيرسيت وهم فى جانب المصريين ببطولات فائقة حيث يبدو الواحد منهم وهو يقاتل الكثيرين. وتظهر صورهم فى هذا النحت الغائر أيضاً ضمن استعراض الجيش الفرعونى المنتصر بكامل زيهم العسكرى ودروعهم وحرابهم وخوذاتهم وسيوفهم فى أشكال مرسومة بدقة بالغة بخطوات تتابع دقات الطبول، وفى صورة أخرى يشاهدون وهم يتقدمون بسرعة فى أعداد كبيرة.

ولكن شعوب البحر بخوذاتهم المقرّنة، يظهرون هذه المرة فى معركة قرب مصب النيل، بدون أقراص بين قرنى الخوذة، على متن سفن الأعداء وتظهر سفن الأسطول المصرى وهى تغرق سفن البيرسيت وسفن شعوب البحر على حد سواء. ويرى عدد من المحاربين من البيرسيت وشعوب البحر كأسرى فوق السفن المصرية.

وبعد المعركة يظهر موكب الأسرى بأسلحتهم ورؤوسهم منكسة ورقابهم مربوطة بالحبال ومن بينهم جنود من البيرسيت وجنود من شعوب

البحر.

فما هى دلالات هذا التغير فى الأدوار؟ كان البيرسيت وشعوب البحر فى أول الأمر فى صف الفرعون، ثم أصبح جيش شعوب البحر مع المصريين وأصبح البيرسيت أعداء لهم، وأخيراً أصبح كلاهما من الأعداء الذين يحاولون غزو البلاد.

كان البيرسيت محاربين مهرة، ساعدوا الفرعون ولكن سرعان ما تحولوا فأصبحوا أشد أعدائه، فلماذا؟

وكانت جيوش شعوب البحر قراصنة، كانوا محاربين بواسل، وغيروا إنتماءاتهم، فلماذا؟

إن النصوص المصاحبة للرسوم الحائطية لا تفسر الأسباب التى أدت إلى هذا الانقلاب الغريب حيث تبادل الحلفاء والأعداء مواقفهم فى تلك المعارك وغيروا وجهاتهم.

فى محاولتنا لتحديد عصر رمسيس الثالث على أنه فى القرن الرابع قبل الميلاد، واعتباره شخصية بديلة لأحد الملوك الأواخر الذين اعتلوا عرش مصر، نضع هذا المشروع تحت الاختبار. ففى بداية القرن الرابع قبل الميلاد، وبعد انقضاء فترة قصيرة على قيام ارساميس بممارسة سلطاته لضبط الجباية من مصر، وإعمال القوانين فيها، حدثت تطورات سياسية وعسكرية فى مصر التى كانت مقسمة آنذاك بين الفرس واليونانيين. فإذا كان خط تفكيرنا سليماً، فإن ترتيب الحوادث يقتضى أولا أن يكون كل من الفرس واليونانيين فى صف الفرعون فى جهوده التى كان يبذلها للمحافظة على الأمن والنظام على حدوده الغربية، ثم يحافظ اليونانيون على تحالفهم معه ولكن يتحول الفرس إلى أعداء له، وفى المرحلة الثالثة يصبح اليونانيون والفرس أعداء له، وربما تكون المعارك البحرية قد وقعت عند أحد مصبات النيل وكان المصريون فيها يحاربون بمفردهم ضد الفرس واليونانيين.

القراصنة اليونانيون يغيرون موقفهم

فى الوقت الذى اعتلى فيه نكتانيبو الأول العرش كانت العلاقات طيبة بينه وبين الفرس، وربما تولى العرش كواحد من عملاء الفرس، إذ إنه لم

يكن ابن اكوريس الذى ساءت علاقاته مع الملك الأعظم. ولقد كان على الملك نكتانيبو فى أوائل حكمه أن يحمى الحدود الغربيةلملكته حيث كانت برقة وليبيا فى اضطراب وكان ذلك الأمر يهم الفرس منذ عهد دارا، إذ كان لابد من حماية الاطراف الغربية لمصر وبذلك تحجم قرطاجنة التى كانت تزداد قوة آنذاك، عن أن تتحرك نحو هذا الإتجاه. كانت سياسة ملوك الفرس هى مساعدة الاثينيين فى حروبهم ضد أسبارطة رغم أن هؤلاء الاثينيين لم يحجموا عن شن الحرب ضدهم. وفعلوا نفس الشىء فى مساعدة ملك مصر، الذى كان لديه بعض الاستقلال، وكانت له صراعات على الحدود مع الليبيين.

بيد أن الفرعون قام بعد ذلك بسنوات قليلة بشن الحروب ضد الفرس، ووصف ديودور هذا الصراع على أنه بدأ فى عهد اكوريس، ولكن بعض ثقاة المؤرخين لا يوافقون على ذلك ويرون أن الصراع قد بدأ فى عهد نكتانيبو خليفة اكوريس.(١) ولقد جاء فى كلمات ديودور أن الأحداث بدأت فى مصر فى نفس الوقت الذى تكون فيه الحلف الاثينى البحرى الثانى الذى كان يهدف للقضاء على نفوذ أسبارطة على اليونان، وكان ذلك فى عام ٣٧٧/٣٧٦ ق.م، أى قبل أن يتولى نكتانيبو العرش بعد اكوريس بسنتين.

وأورد ديودور فى سرده للأحداث ما يلى:

«بينما كانت هذه الأحداث تدور فى اليونان، قام اكوريس ملك مصر قبيل أن يدخل فى خلاف مع الملك الفارسى، بتكوين جيش من المرتزقة الأجانب جمعهم من كل مكان، ولأنه كان يعطى رواتب عالية وميزات جيدة استطاع أن يجتذب عدداً كبيراً من اليونانيين للانضمام إلى قوائم الذين يعرضون خدماتهم، ولكنه لكى يحصل على قائد ماهر، أرسل إلى شابرياس القائد الاثينى الكفء الذى كان له احترامه البالغ، فقبل الوظيفة، ولكن دون موافقة أهل أثينا، ولذلك، وبذلك استعد اكوريس بكل مهارة لخوض الحرب ضد الفرس.(٢)

قام شابرياس والمرتزقة الذين كان يقودهم بدور هام فى المناوشات التى وقعت بين جيش نكتانابو والحاميات الفارسية، وطرد الفرس من مصر.

ولكن فارنا بازوس الذى عينه ملك الفرس قائدا للجيش استعد

استعداداً مالياً جيداً للحرب، وأرسل الرسل إلى أثينا لتقديم الشكوى ضد شابرياس، وليخبروا أهل أثينا إنضمام شابرياس للخدمة كقائد لجيش ملك مصر قد أدى إلى خلق العداوة بين ملك الفرس والاثينيين.(٣) وبعد ذلك طلب أن يرسلوا ابيقراط لمساعدته فى قيادة الجيش، وعندئذ سارع الاثينيون (الذين كانوا يحرصون على إبقاء سمعتهم الطيبة لدى ملك الفرس، ولكى يسترضوا فارنا بازوس) باستدعاء القائد شابرياس من مصر، وأرسلوا ابيقراط لمساعدة الفرس.(٤)

من هنا نرى أن للتغير المذهل فى التحالفات الذى شهدناه على حوائط معبد رمسيس الثالث فى مدينة هابو، تفسيراً صحيحاً.فأولاً ساعد كل من الفرس واليونانيين الفرعون، وعلى يد شابرياس كان الاغريق فى خدمة الفرعون فى حربه ضد الفرس، ثم استدعى شابرياس ليعود إلى أثينا، ووصل ابيقراط على رأس المرتزقة اليونانية لمساعدة الفرس وحارب معهم ضد المصريين.

وذكر ديودور أيضاً أنه حينما كان سقراط كبير الحكام فى أثينا وكان كل من كويناس كراسوس (سرفيليوس) وسيرفيوس كورنيليوس وسبوربوس يابيريوس قواداً عسكريين فى روما، فى ذلك الوقت سار ملك الفرس لمحاربة مصر التى كانت قد ثارت ضده من قبل. وتلك السنة معروفه هى سنة ٣٧٣/٣٧٤ قبل الميلاد.

«كان الجيش بقيادة فارنا بازوس وابيقراط الاثينى، وكان البرابرة تحت قيادة فارنا بازوس والمرتزقة تحت قيادة ابيقراط الذى كان على علاقة ممتازة بالملك لحسن درايته بالاستراتيجية التى وجهه إليها. وأمضى فارنا بازوس سنين طويلة يستعد للحرب»(٥)

كان لابيقراط بُعد نظر وحكمة تختلف عن نظرة فرنا بازوس، فكانت هجماته سريعة وفورية. ولعلمه بسرعة البديهة عند فارنابازوس قال له يوماً متهكماً عليه «إن من يمتاز بالبراعة فى الكلام لابد أن يكون بطىء التصرف» فأجابه فرنا بازوس بقوله «إنه سيد فى الكلمة ولكنه ملك فى الفعل»

قام المرزبان الفارسى مع الاستراتيجى اليونانى بحشد جيوشهما فى آكو بشمال فلسطين وفى ذلك ذكر ديودور:

«حينما وصلت قوات الملك إلى آكو فى سوريا واحتشدت هناك كان هناك نحو مائتى الف من البرابرة تحت قيادة فرنا بازوس وعشرين الف يونانى تحت قيادة ابيقراط»(٦)

ويبدو أن رمسيس الثالث كان يقصد هذا المعسكر حينما كتب يقول: «أقاموا معسكرهم فى مكان واحد فى عامور بسوريا»

الغزو البحرى للدلتا

لم يكن الجيش الضخم الذى احتشد وعسكر فى اباكو هو الذى لعب الدور الرئيسى بل إن القوات البحرية هى التى لعبت الدور الرئيسى بما قامت به من مناورات خادعة، وإن لم تكن ناجحة تماماً.

«وفى بداية الربيع كان جميع الضباط وقواتهم البرية والبحرية متجهين إلى مصر، وحينما اقتربوا من نهر النيل وجدوا المصريين متأهبين ومستعدين للمعركة.»(١)

وفى معرض السنوات المتتالية حينما كان مرزبانات الفرس يقومون باستعداداتهم للهجوم على مصر، توافر لدى الفرعون الوقت للاستعدادات الدفاعية، وكانت خطة المهاجمين هى أن يشقوا ثغرة ليندفعوا إلى مصبات النيل بالأسطول.

ويمكننا هنا أن نقارن بين ما كتبه رمسيس الثالث عن هذه الاستعدادات، وعن مجريات الحرب وبين ما رواه ديودور عن استعدادات الفرعون نكتانيبو الأول ومجريات الحرب. كتب ديودور يقول:

«كان لدى ملك مصر فى ذات الوقت علم أكيد بقوة الجيوش الفارسية، ولكنه وضع كل ثقته فى قوة بلاده، إذ كانت مداخل مصر من جميع الجهات صعبة على الغزاة، وكانت الطرق جميعها مقطوعة إما بالبحر أو بمصبات النيل السبعة، فعند كل مصب فى البحر بنيت مدينة ذات قلاع وحصون ضخمة تمتد على جانبى النهر...

... أقوى هذه المدن مدينة رفح عند مصب الفرع البيلوزى لأنها كانت أقرب المدن إلى سوريا، وكانوا يتوقعون أن تكون أول ما سيغزو العدو، ولذا حفروا حولها خندقاً، وفى الأماكن التى يمكن أن تدخل منها أى سفينة

أقاموا حوائط لتعوق الإبحار. وحيث وجدت نتوءات أرضية يمكن استخدامها للوصول إلى داخل مصر أغرقت بالمياه، وحيث وجدت أماكن تمر منها السفن ردمت بالرتش والحجارة، وبهذه الطريقة أصبح من الصعب جداً بل ومن المستحيل للسفن أن تبحر وللخيول والجيوش أن تسير».(٢)

وكتب رمسيس الثالث يقول:-

«كانوا آتين مباشرة إلى مصر بالشعلة تسبقهم. كانوا حلفاً يتكون من البليست والثيكر والشكليش والدنيان والوشيش، وهى البلاد المتحدة التى وضعت أيديها على أراضى تحيط بالمعمورة، وكانت قلوبهم قوية واثقين فى أنفسهم: «لكن خططنا سوف تنتصر.»

... لقد نظمت حدودى عند زاهى... جعلت مصب النيل مستعداً للقائهم كالحائط القوى المكون من السفن الحربية والفرقاطات والحراس والتجهيزات.»(٣)

ويخبرنا كل من رمسيس الثالث وديودور فى وصفيهما لإقامة التحصينات على مصبات النيل عن الكيفية التى بها أقيمت الحواجز لمنع اقتحام تلك المصبات، فقد أقام الفرعون الحوائط فيها، وهى عملية هندسية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مصر قبل ذلك وبعده.

وروى ديودور أنه حينما علمت أساطيل الغزاة باستحالة اقتحام مصب الفرع البيلوزى إتجهت إلى مصب آخر هو مصب المنديسي. وهناك فتحت السفن ثغرة، وبعد معركة مريرة مع القوات المصرية استطاعت أن ترسو وتحتل القلعة الواقعة على مصب النهر، ويواصل ديودور وصفه فى ذلك قائلاً:

«شقوا لهم مدخلاً إلى المنديسى وهو مصب آخر من مصبات النيل حيث يمتد المجرى لمسافة كبيرة من الأرض إلى داخل مياه البحر. ونزل ثلاثة آلاف رجل، واستطاع فرنا بازوس وابيقراط أن يستولوا على قلعة مبنية عند رأس المصب ولكن المصريين أتوا بقوة قوامها ثلاثة آلاف فارس ومحارب لتحرير الموقع، ودارت معركة فاصلة(٤)

ويصور لنا أحد الرسوم الغائرة فى جدران معبد رمسيس الثالث

معركة بحرية عند أحد مصبات النيل، وتظهر فيها سبع من سفن الأسطول الغازى مشتبكة مع أربع سفن مصرية، وكان أعداء المصريين فى هذه الصورة من المحاربين الذين يلبسون على رؤوسهم خوذات مقرنة وعمامات تشبه التيجان، وتنص الكتابة المصاحبة لهذا المنظر على ما يلى:

«الآن توغل أهل البلدان الشمالية فى مجارى مصبات النيل.. واندفع جلالة الملك نحوهم كالعاصفة المدمرة...»

هكذا اتفق رمسيس الثالث مع ديودور فى تسجيل دخول الأعداء إلى مجارى مصبات النيل، وهو التوغل فى مصب الفرع المنديسى وكان احتلال القلعة الشاطئية الواقعة عند المصب أمرا غير واضح النجاح. وفى ذلك كتب رمسيس الثالث:

«هزم كل الذين أتوا وذبحوا... هؤلاء الذين دخلوا مصبات النيل وقعوا كالطيور فى الشباك...»(٥)

وشرح لنا ديودور السبب فى أن احتلال القلعة التى أصبحت شبه محطمة أصبح مصيدة وقع فيها الغزاة. فلقد اختلف ابيقراط القائد اليونانى مع فرنا بازوس القائد الفارسى على الاستراتيجية، فقد كان ابيقراط يريد محاولة التوغل فى النيل حتى ممفيس ليحتل المدينة قبل أن يجمع المصريون حامية كبيرة هناك، وكان ابيقراط واحداً من أشهر عباقرة الاستراتيجية الذين عرفتهم اليونان.

«كانت نصيحة (ابيقراط) ضرورة الإبحار مع الأسطول قبل أن يتجمع بقية الجيش المصرى، ولكن فرنا بازوس وكل قواته كانوا يفضلون البقاء حتى تنزل جميع قوات الفرس إلى الأرض، وهكذا يقل تعرض الحملة للخطر، ولكن ابيقراط عرض بعد ذلك أن يستولى بمن معه من المرتزقة على المدينة إذا سمح لهم بذلك. فملأت الغيرة والحسد نفس فرنا بازوس من ثقة ابيقراط فى نفسه وفى رجاله وبدأ الخوف يملأه من أن تتم هزيمة المصريين على يد ابيقراط وجيوشه، وبذلك استنكر عملية الغزو، عندئذ أبدى ابيقراط احتجاجاً صامتاً ضده، وأعلن أن كل هذه الحملة ستبوء بالفشل إذا ضاعت هذه الفرصة من أيديهم. ولكن ازداد حقد فرنا بازوس عليه وخاطبه بأسلوب غامض»(٦)

ودافع المرزبان الفارسى العجوز عن فكرته فى ضرورة الانتظار حتى

وصول القوات الرئيسية عن طريق البر.

ويبدو أن رمسيس الثالث قد اشار إلى رفض الفرس لخطة القائد الذى دعاه الفرس أنفسهم للمساعدة فى إدارة الحرب ضد مصر، حيث قال:-

«طلبوا قائداً بألسنتهم وليس بقلوبهم»

وقال ديودور:

«وضع المصريون الآن حملة قوية فى ممفيس، وساروا بكل قوتهم إلى المدينة الصغيرة قبل تدميرها.

وبمواصلة المناوشات مع الفرس لم يمكنوهم من الاستقرار بل وبعد أن نمت قوتهم يوماً بعد يوم انقضوا عليهم يذبحونهم»

وكتب رمسيس الثالث قائلاً:-

«وبينما هم أتون تجاه مصر، وقلوبهم معتمدة على أيديهم كانت الشباك منصوبة لصيدهم.

فمن دخل منهم إلى مصب النيل أصبح محصوراً فى وسطه لا يستطيع حراكاً من مكانه، ذبيحاً مشتت الأشلاء.(٧)

هكذا وصف كل من رمسيس الثالث وديودور المذابح التى وقعت للغزاة من البيرست وشعوب البحر، أو الفرس واليونانيين بأسلوب شديد التشابه.

ويظهر رمسيس الثالث فى نقوش الحفر الغائر التى تحمل هذه النصوص واقفاً على منصة أمام القلعة المبنية عند مصب النيل ورجاله يقدمون له الأسرى، ورمسيس يقول لهم:

«هذا ما أمرت به، ولقد تحقق حدسى ونجحت خططى» وعلى القلعة مكتوب كلمة «مجدل» وكلمة مجدل بالعبرية تعنى البرج. ولابد أنها القلعة التى ذكر ديودور أنها بنيت عند مصب النيل، واحتلها الغزاة، ووقعوا فى الحصار. وفى الواقع أن كلمة Pyrgos التى جاءت فى نص كلام ديودور تعنى البرج العالى وهى الكلمة التى استخدمها رمسيس الثالث. وهى تترجم هكذا فى النص الحديث لكتاب ديودور.(٨)

وجدير بالذكر هنا أن استخدام رمسيس الثالث لكلمة «برج» العبرية يدل على تطعيم اللغة المصرية بمصطلحات عبرانية فى أيام هذا الفرعون

مما سوف نذكر المزيد عنه فيما بعد.

كانت هذه الحملة حملة فاشلة، فقد احتل الجيش الفارسى القلعة لعدة شهور، ولكن حينما بدأ فيضان النيل «قرر القادة الانسحاب من مصر» كما ذكر ديودور.

وفى ذلك كتب رمسيس:

٢٩«توقفت أقدامهم عن أن تطأ حدود مصر»

وكتب ديودور ما يتفق مع ذلك قائلاً:

«وهكذا لم تأت كل تلك الترتيبات بأية نتيجة»

وهناك عبارة مأساوية عبر بها رمسيس عن تراجعهم السريع:

«فر قوادهم... مرتعدين من الرعب.»

ولقد أكد ديودور أن ابيقراط قد هرب سراً من المرزبان الفارسى خشية أن يلومه على الحظ العاثر الذى لقيته حملته فقال:

«بمجرد أن عادوا إلى آسيا، تشاجر فرنا بازوس مع ابيقراط من جديد، ومن هذه المشاجرة رأى ابيقراط أن ينسحب بشخصه من المعسكر. وعند هذا الحد (كان قد أعد سفينة لهذا الغرض) فصعد إليها فى ظلمة الليل، وهكذا أبحر إلى أثينا. ولكن فرنا بازوس أرسل فى أعقابه الرسل؛ وكأنها فرصة ليلصق به أنه سبب فشل خطة الاستيلاء على مصر واخضاعها. ولكن الاثينيين ردوا على ذلك: فلو أنه كان مذنباً لحاكموه على تركه للجيش. ولكنهم عينوه بعد ذلك بقليل قائداً لكل أسطول أثينا.(٩)

كان رمسيس الثالث فخوراً بانتصاره ليس فقط على عدو قوى بل وعلى قواد معروفين بانتصاراتهم يحملون أكاليل الغار. كان يعرف روح اليونانيين، فهم لا يخلصون أبداً لملك فارسى.

إن غزوات وحروب رمسيس الثالث فى البر والبحر ضد الغزاة الآتين من سوريا، والتى انتهت بطردهم قد وصفها بنفسه، أما المؤرخون اليونانيون الذين رويت عنهم قصة رمسيس الثالث فقد كانوا يسمونه نكتانابو الأول.

«لم نعلم من النصوص المصرية المنقوشة شيئاً عن تاريخ مصر فى عهد

ملك يسمى نكتانابو الأول، وعلينا أن نرجع إلى الثقاة من العصور القديمة وبخاصة ديودور لنبحث عن معلومات تتعلق بسير الحرب بين اليونانيين والفرس، وعن الدور الذى لعبته مصر فى هذه الحروب »(١٠)

ولا يوجد أى نص مصرى مسجل عن حروب نكتانابو لأن التقرير موجود فعلاً فى سجلات الفرعون الذى اختاره المؤرخون فى العصر الحاضر ليطلقوا عليه اسم رمسيس الثالث. وعن حروب رمسيس الثالث لا توجد أى نصوص أو معلومات فى التاريخ العبرى أو التاريخ اليونانى لأن سجلها موجود فى تاريخ نكتانابو الأول.

وهناك شخص يسمى «دينيان» أو «ثينيان» ذكره رمسيس على أنه الأول من بين أعدائه، ويبدو أن ذلك العدو هو الاثينيون، (وليس الدنعان» كما يظن أحياناً).

هوامش الفصل الثانى

فرضية مسبقة: فلسطينيون أم فرس؟

١- أنظر كتابى: عصور فى فوضى الجزء الأول فى فصل عن "تروجولوديت أو كاريان".

٢- "لايعقل أنهم كانوا نسل الفلسطينيين الذين عقدوا المعاهدة مع الملك اسحق" [كما ورد فى سفر التكوين الاصحاح ٢١، ٢٦] ولكنهم هاجروا من قبرص فى تاريخ متأخر عن ذلك، راجع

L. Ginzberg. The Legends of the Jews, IV (1913) 94.

3- H. H. Nelson, Medinet Habu, The Epigraphic Survey of the Oriental Institute (University of Chicago, 1929) p. 1

4- L. A Stella, Rivista di Anthropologia, 39 1951-52, 3-17

٥- شكل هذه الخوذات متميز، وقد ظلت مميزة للشعب الفارسى مدى قرون عديدة ففى قصر كويونجوك الذى بنى فى وقت متأخر من عصر حكم الملوك الأشوريين وجد حفر غائر يصور أشخاصا يلبسون الخوذات ولكنها خوذات تختلف عن خوذات شعب بيرست، أنظر A. H. Layard, Nineveh and Babylon (London 1882), pp. 76-77. De Clercq, Catalogue des antiquites assyriennes (paris, 1883) p. 139 (palais de Koyaundjok ففى كلا الكتابين كلام عن "تاج من الريش"

٦- يذكر بلوتارك فى كتابه الحياة الجزء الخامس بعنوان تيزيوس أم الاسكندر قد أدخل عادة حلق ذقون الجنود، وكان بذلك مقلدا للعادات العسكرية الشرقية.

٧- أنظر G. Maspero (The Struggle of the Nations, 1896 p. 463) الذى يتكلم عن "الذوق الرفيع والمهذب لشعب البيرست

٨- هيرودوتس الجزء السابع ص ٦١، ٦٣ Herodotus, VII, 61, 63

9- Ammianus XXIV, iv, 15.

10- Petrie, Tanis, Pt 11, "Nebeshel and Defenneh (Tahpanhes)", p 78.

١١- المرجع السابق

١٢- تفضل الدكتور ميليت N. B. Millet من متحف أونتاريو الملكى بأن قام بناء على طلبى بتجميع ما ذكر عن كلمة فارس والفرس فى النصوص المصرية، وزعم بأن ورود حرف ت مزدوجا فى أخر الكلمة كان مستخدما للأغراض الجمالية فى الكتابة الهيروغليفية، وهو أمر ليس بالغريب فى هذا النص، ويشير إيدى تشور Eddie Schorr إلى أن هناك مواقع جغرافية أخرى فى مرسوم كانوباس بها تكرار لحرف ت، وعلى ذلك فإن كفيتو (أى قبرص) وردت كفتت، وجاءت ريتانو (أى فلسطين) مكتوبة بكلمة تنطق ريتانوتت.

13- E. A. Wallis Budge, The Rosetta Stone in the British Museum (London 1929) Appendix, "The Decree of Canopus" pp. 256. 283. وردت فى مقالة D. Lorton, "The supposed expedition of Ptolemy III to persia" Journal of Egyptian Archaeology, 57 (1971) pp. 160 FF.

عدم الاستقرار فى الجزر

١- كرر محاولاته العسكرية ولكنه قام باتصالات دبلوماسية مع الحاكم الفارسى الوارث للحكم فارنابازوس الذى كانت منطقته (المرزبانة التى يحكمها) تعرف لدى الفرس باسم "تيايدراهايا" ومعناها "شعوب البحر هناك" وقد ذكرنا هذا الرجل هنا لأننا سوف نقابل اسمه مرة أخرى بعد سنوات قليلة وسيأتى ذكر مرزبانة أو ولاية أسيا الصغرى الاسم المشهورة به.

2- Cornelius Nepos, Agsilaus, (3, 4), trans, J. S. Watson (London 1910) والايفورى هم خمسة مستشارون يسيطرون على حكم أسبارطة.

3- Diodorus, The Historical Library, trans, Charles L. Sherman (Loeb Classical Library) XV, 40.

٤- المرجع السابق الجزء ١٥ ص ٤١

٥- المرجع السابق الجزء ١٥ ص ٤٥

٦- أنظر كتاب بريستد سجلات مصر القديمة الجزء الرابع (الطبعة الثانية) ص ٦٤

القراصنة اليونانيون يغيرون موقفهم

1- H. R. Hall, "Egypt to the coming of Alexander" Cambridge Ancient History Ist ed. (1927) VI 148.

2- The Historical Library of Diodorus the Sicilian, trans G. Booth (London, 181 4), XV, 3, P. 21.

٣- يضع Hall فى Cambridge Ancient History VI, 148 مغامرة شابرياس هذه فى عام ٣٧٧ ق.م، وهذا يتعارض مع تاريخ الأحداث، (أنظر المرجع السابق ص ١٤٦)، أنظر أيضا الهوامش التى أوردها Charles L.. Sherman فى ترجمته لكتاب ديودور (Loeb Classical Library, 1952) Vol. VII p. 24-25

٤- ديودورس الجزء الخامس عشر /٣

٥- ديودور الجزء الخامس عشر /٥

٦- المرجع السابق

الغزو البحرى للدلتا

١- ديودور الجزء ١٥/٥

٢- المرجع السابق.

3- Edgerton and Wilson, eds, Historical Records of Ramses III (1936) p. 5

٤- ديودور الجزء ١٥/٥

5- Edgerton and Wilson, eds, Historical Records of Ramses III.

٦- ديودور الجزء ١٥/٥

7- Edgerton and Wilson, eds., Historical Records of Ramses III P. 42.

8- Diodorus trans. Charles L. Sherman (Loeb Classical Library), Xv, 42.

٩- ديودور الجزء ١٥/٥.

10- E. A. Wallis Budge, A History of Egypt (New York 1902) VII.

الفصل الثالث

فـــن الحـــــــرب

المحاربون من شعوب البحر

كان معظم جنود شعوب البحر من جماعات الجيكر والشكليش والتتريش والواشيش والساردان، وهم جميعاً من منطقة آسيا الصغرى. غير أن الدانيين كانوا يذكرون عند رمسيس الثالث على أنهم «شعوب الجزر» ولقد توصل الدارسون الذين قاموا بتفسير الأحداث المروية وتلك التى شوهدت فى رسوم نقوش رمسيس الثالث على أن هؤلاء الجنود الدانيين ينتمون إلى الإغريق أو اليونانيين القدماء، نظراً لأن الغزو اليونانى لمصر حدث فى أعقاب سقوط طروادة مما يدل بصورة أصح على أن هؤلاء المحاربين بالذات ربما كانوا من اليونانيين المسينيين، وقد يفضل البعض أن يسمى اتحادهم أو يصنفهم على أنهم يونانيون هوميريون، حيث أن حرب تراجان قد شنها الجيل الأخير من الهلينيين الذين كانوا تحت قيادة أجاممنون ابن أتريوس الذى كان يعتلى عرش مسينا.

ولتأكيد نسبة الدانيين إلى اليونانيين المسينيين هناك زعم بأن الدانيين أو دان هم أنفسهم الدنعان (وهى كلمة هومرية تعنى الإغريق القدماء). بيد أن هناك بعض النصوص تربطهم بالساحل السورى، بعض النصوص الأخرى ترجعهم إلى قبرص. ومع ذلك فإننى أميل إلى أن أربط بين الدانيين أو شعوب الجزر وبين الأثينيين حيث أن حرفى «د» وحرف «ث» فى اللغة المصرية القديمة يعتبران حرفاً واحداً.

أما عبارة «شعوب الجزر» فإنها أيضاً تشير إلى منطقة بحر إيجة، وبصورة تقريبية تشتمل على قبرص وكريت وصقلية وجزر البلوبونيز، وذلك لأن الجزء الجنوبى من بلاد اليونان كان منذ القدم يعرف بأنه المنطقة

الواقعة فيما وراء بوغاز كورينث (اوالبلوبونيز) وكان يشار إليه على أنه جزيرة، وكانت سهول أرجوس (أرجوليس) واسبارطة واركاديا وآخيا تعتبر كأجزاء من جزيرة، وفي الواقع أن بوغاز كوينث الضيق لا يخرج عن كونه معبراً بين أرض اليونان القارية وجزر البلوبونيز، أي جزر الشعب (People).

ولقد اعتاد الأنبياء العبرانيون أشعيا الثاني وأرميا، وحزقيال أن يطلقوا على أرخبيل بحر إيجة والعالم الهليني بصفة عامة اسم «الجزر» كما تدل على ذلك النصوص التالية:

«اسمعي لي أيتها الجزائر واصغوا أيها الأمم من بعيد». (إشعياء الإصحاح ٤٩ الآية ١)(١) «كل ملوك صور وكل ملوك صيدون وملوك الجزائر التي عبر البحر» (أرميا - الإصحاح ٢٥ الآية ٢٢).(٢)

و«شعوب الجزر» أو الجزائر اسم عام يطلق على تجمع من القبائل أو اتحاد من شعوب، يذكره رمسيس الثالث تحت أسماء عديدة تنتمي إلى الاسم الأصلي، هي شعوب جيكر وتريس وشكليش وواشيش ساردان. وللتعرف على هذه القبائل بذلت جهود كثيرة، فربما كان شعب جيكر هم التيوكريون، أو اليونانيون الذين استوطنوا مدينة دور أو مستوطنة الجيكر في القرن الخامس قبل الميلاد. وربما كان الشكليش هم الساجالاسو الذين سكنوا آسيا الصغرى. وربما كان التريس هم الطرسوس أو أهل صور، وربما كان الويشيش من آسوس أو اياسوس أو أوسوس في آسيا الصغرى وكان الساردان معروفين للفراعنة خلال عهد الأسرة التاسعة عشرة على أنهم جنود مرتزقة وبخاصة في عهد سيتي ورمسيس الثاني. وأدى نطق هذا الاسم بأحد الدارسين على أن ينسبهم إلى جزيرة سردينيا، وآخر إلى اعتبارهم سكان ساردیس وهي عاصمة ليديا في آسيا الصغرى، وإن كانت مملكة ليديا ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد وما بعده.(٣)

في مناقشتي لأبناء شعب ساردان الذين كانوا في خدمة فراعنة الأسرة التاسعة عشرة، أمكنني أن أكشف من مصادر مستقلة أن هؤلاء الناس لابد وأن لهم صلة بسكان ساردیس.

ومن المهم للغاية أن نذكر أن مقاطعة فارنابازوس كانت تسمى «تيابى درایاها» ومعناها «شعوب البحر هؤلاء». وكانت هذه المقاطعة موجودة في

آسيا الصغرى ومن الواضح أنها كانت هى المنطقة التى ذكرها رمسيس الثالث كموطن لشعوب البحر.

وهناك كتابة منقوشة إلى جوار أحد رسوم الحفر الغائر فى مدينة هابو لمجموعة من الأسرى فى ملابس البيرست تطلق عليهم جيكار، هناك مجموعة أخرى من الأسرى تصحب كتابات هيروغليفية تعرفهم بأنهم دينونيون ومجموعة ثالثة كبيرة من الأسرى هى أكبر المجموعات تدل ملابسهم المميزة ولباس رأسهم يذكر أنهم بيرست.(٤) من هذا نتبين أن جنود المرزبانات الفرس وبحارتهم الذين كانوا ضمن الجيش الإمبراطورى لارتاكسركيس كانوا يلبسون نفس الزى الذى يلبسه الجنود الفرس. هؤلاء كانوا هم المجندين، أما المرتزقة فقد كانوا يلبسون خوذات مقرنة.

ويبدو وقت زيارة هيرودوتس مصر فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد أن التيوكرى كان اسماً شائعاً يطلق على أبناء الشعوب التى تسكن الساحل الغربى لآسيا الصغرى بصفة عامة، أو ربما كان يطلق على أحد تلك الشعوب. ويبدو أيضاً أن الجيكار كان هو الاسم الذى أطلق على البحارة فى قصة ويناموت، وهو موضوع سنناقشه فى مكان آخر من هذا الكتاب.

هذا ويلاحظ وجه شبه كبير بين ملامح وجوه الجنود الذين يلبسون على رؤوسهم خوذات مقرنة والمرسومين بالحفر الغائر فى معبد رمسيس الثالث، ووجوه اليونانيين فى عهد بيركليس، وهى ملاحظة واضحة أيضاً. «فالأوربيون أو فى الحقيقة اليونانيون لهم ملامح مميزة قريبة الشبه بالملامح التى تشاهد فى وجه تمثال الشاب الذى يرجع إلى القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد، والمحفوظ حالياً بمتحف أكروبولس فى أثينا».(٥) فالخبير الفنى الذى قدم وصف المحارب من نقوش مدينة هابو التى ترجع إلى ١١٩٠ ق م لم يقصد أن يقوم بأى استدلال على زمن رمسيس الثالث، بل إنه قبل التاريخ المحدد بالفعل والذى على أساسه يفصل بين هذين العملين الفنيين المتشابهين نحو سبعمائة عام.

بيد أن هناك اختلافاً فى الملامح بين نماذج وجوه اليونانيين التى ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد وبين ملامح وجوههم فى أى قرن سابق لذلك من جهة، وبينها وبين ملامح وجوه شعوب البحر من جهة أخرى. فشعوب البحر مثلهم مثل البيرست بلا لحى. ويبين لنا الفن اليونانى الباقى حتى

يومنا هذا من أزمان لم تكن هناك رسائل لتذكر بالوجوه أو حفظها، فقد كان الإغريق يطلقون لحاهم، ولم يبدأوا حلق لحاهم إلا فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد، هناك المزهريات المسينية التى كانت غالباً مزينة بأشكال إنسانية منقوشة فى الطين، فيها الرجال عادة بلحى طويلة. كذلك كان كل الأبطال الهومريين باستثناء أخيل فقط ملتحين فى الصور التى رسمها الفنانون الإغريق فى القرن السابع قبل الميلاد والقرون التالية، ولكن أخيل ذاته، فلكى يتجنب الاشتراك فى حرب تراجان، تخفى فى صورة فتاة، ومر مع عذارى بلاط ليكوميدس ملك اسكيروس وعاش بينهن، وقد صوره أوديسيوس وهو محاط بذراع الملك، فأساء أخيل إلى نفسه بالظهور أمامهم بهذا الشكل. واعتاد اليونانيون فى عهد بركليس أن يطلقوا لحاهم. وينطبق هذا على الرجال الكبار فقط، أما الشباب والمراهقون الأثينيون، فكما هو واضح من الرسوم الموجودة على افريز البارثينون (هيكل الآلهة أثينا) فقد كانوا بدون لحى. ولم يكن بين جنود شعوب البحر من المراهقين والشباب الصغار من التحق بالجيش، فجميعهم من الرجال الناضجين الذين اعتادوا حلق ذقونهم.

ولقد قلد الاسكندر عادة المحاربين الشرقيين فى حلق ذقونهم كما سبق أن ذكرنا، فحلق المقدونيون لحاهم حينما كانوا يسيرون عبر آسيا الصغرى، ولذا كان من المتوقع أن نستنتج أن المحاربين من اليونانيين ومن أبناء الشعوب الأخرى فى آسيا الصغرى كانوا مستمسكين بعادة حلق الأذقان أو اللحى، ولذا فإن ظهور الجنود اليونانيين بدون لحى فى صور الحفر الغائر بمعبد مدينة هابو. الذى ينسب إلى أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد فيما يقابل نهاية العصر المسينى فى اليونان، وفيما يبدو زمن تجوال أو هجرات الأوديسيين، يمثل مفارقة تاريخية واضحة. وهى ظاهرة تكفى وحدها لكى تلقى ظلال الشك على الرأى الشائع بأن شعوب البحر كانوا من الإغريق المسينيين.

ويعتبر تسليح شعوب البحر أيضاً من المؤشرات الهامة هنا. فالخوذات والدروع والصديريات والسيوف والحراب كلها مثل تسليحات المرتزقة اليونانيين الذين كانوا يعملون فى خدمة بلاد فارس خلال القرن الرابع قبل الميلاد. فهناك، صورة لمحارب يونانى يضع خوذة ذات قرنين مرسوم

على إحدى المزهريات التى وجدت فى أثينا.(٦) ولكن الخوذة ذات القرنين التى تضم هلالا فقد كانت أصلاً هى العمامة التى كان يلبسها رجال حامية ليديا فى جيش اكسركسيس.(٧) وبعد عهد اكسركسيس بمائة عام سادت الخوذات ذات القرنين ولكن بدون آذان وأصبحت جزءاً من زى اليونانيين الذين يعملون فى الجيش الفارسى بصفة خاصة، والذين يخدمون فيما وراء البحار بصفة عامة(٨).

وكان الجنود الأثينيون المرتزقة الذين عملوا فى خدمة المصريين أولاً ثم الفرس خلال القرن الرابع قبل الميلاد يلبسون الخوذات المقرنة. وهناك فرق بين الخوذات الأثينية التى كان يلبسها من هم فى خدمة شابرياس (فيها قرص بين القرنين) وتلك التى كان يلبسها أفراد القوات التى قادها ابيقراط (وليس فيها قرص). ويدلنا هذا التغير فى شكل الخوذة على اختفاء أبناء شعوب البحر كحلفاء للمصريين وظهورهم وسط القوات التى تهاجم مصر فى تحالف مع البيرست، غير أن هذا لا يعتبر تغير قوات من جانب إلى جانب آخر، فلم يترك الأثينيون المصريين ويتجهوا إلى صفوف البيرست بل استدعى جنود شابرياس من مصر وأمرت قوات أخرى بقيادة ابيقراط بالإبحار لمساعدة الفرس.

بعد ذلك بأربعين عاماً ظهر الاسكندر أثناء حملته على آسيا الصغرى ومصر وهو يلبس خوذة ذات قرنين، وهو لذلك يعرف بذى القرنين، ولكن قرنى الإسكندر كانا أشبه بقرون الكباش.

وربما كانت هناك طريقة أنسب لوضع شعوب البحر فى موقعهم الزمنى الصحيح هى ما يدلنا عليه تسليحهم الهجومى والدفاعى ممثلاً فى السيف والدرع، فنراهم بسيوف عادية ثم يغيرون سيوفهم ويستبدلون السيوف الطويلة بالسيوف القصيرة. وكان شعوب البحر يغيرون من حرابهم فيستبدلون الطويلة بالقصيرة، وكذلك الدروع، حيث كان لديهم شكلان منها أحدهما مستطيل الشكل يغطى معظم الجسم وآخر مستدير يسددونه كهدف لتلقى الضربات. وسوف تقرأ فيما بعد تغيير تسليح الجنود الأثينيين خلال القرن الرابع قبل الميلاد.

إصلاحات أبيقراط
كما صورها رمسيس الثالث

اكتسب أبيقراط في عام ٣٩٠ قبل الميلاد، كما ذكرنا، شهرة كبيرة نتيجة انتصاره مع حاميته المكونة من جنود أثينيين على الاسبرطيين المسلحين بأسلحة ثقيلة في الموقعة التي دارت بجوار أسوار كورنث. كانت فكرته أن يزود الجنود طاقة هجومية كبيرة على حساب تسليحهم. فكساهم بالسترات الخفيفة بدلاً من الحلل المدرعة، غير شكل الدروع، واستخدم حراباً في نصف طول الحراب التي كانت مستخدمة فيما قبل. أما السيوط فقد زيد في طولها إلى أكثر من الضعف وربما بلغت ثلاثة أمثال طول السيوف القديمة. هزم حملة الأسلحة الثقيلة في أول لقاء بينهم وبين حملة الأسلحة الخفيفة، وأمكن للأثينيين القضاء على الاسبارطيين نتيجة لحركتهم البطيئة. ولقد ابتكر أبيقراط العديد من الاستراتيجيات الجديدة في الأعمال الحربية.

ولقد واتتنا الفرصة لمشاهدة التغيرات التي طرأت على الجيش اليوناني من صور معبد مدينة هابو. كانت ملابس شعوب البحر من الأزر الإغريقية ومعها في بعض الأحيان صديريات خفيفة ولم يكن هناك أي دروع ثقيلة. ويمكن أيضاً ملاحظة تطور السيوف والحراب والدروع، فنرى سيوفاً قصيرة جنباً إلى جنب مع السيوف الطويلة، ونرى كذلك شكلين مختلفين من الدروع أحدهما مستطيل يغطي الجسم كله والآخر مستدير وأصغر.

وربما أدخلت هذه الأسلحة الأثينية الجديدة إلى مصر على يد شابرياس الذي ساعد الفرعون في حملاته المبكرة.

وخلال الفترة التي امتدت بين عام ٣٩٠ ق م حينما بدأ حاملو الأسلحة الخفيفة عملهم، وعام ٣٧٥ قبل الميلاد حينما اصطدم المصريون في عهد نكتنابو مع الفرس، طبق العديد من القواد اليونانيين تلك التعديلات التي أدخلها أبيقراط على الأسلحة، ولكن الأسلحة التقليدية القديمة ظلت مستخدمة إلى حد ما. رغم أن جيوش المرتزقة لم تكن تستخدم السترات الثقيلة كما هو واضح في الرسوم الغائرة التي خلفها رمسيس الثالث،

ورغم أن الأسلحة الجديدة قد أدخلت -السيوف الطويلة والدروع المستديرة- فقد بقى بعض الجنود يحملون السيوف القصيرة المعتادة والدروع الثقيلة المدببة فى أطرافها السفلى والمستديرة فى أطرافها العليا. هكذا يُرى الإصلاح هنا فى بدايته.

كتب لوريمر يقول: «كان جنود شعوب البحر الذين حاربوا فى كل من البحر والبر تحت قيادة رمسيس الثالث يحملون سيوفاً ضخمة»(١) وكان هذا ما توقعنا أن يكون الحال بالنسبة للمرتزقة اليونانيين فى العهد الذى أدخل فيه أبيقراط إصلاحاته، بالنسبة للقوات التى قادها.

وصف رمسيس الثالث بنفسه السيوف غير العادية التى استخدمها الليبيون فى حملاتهم وبلغ طولها نحو خمسة أذرع.(٢)

وبانضمام أبيقراط إلى فرنابازوس عام ٣٧٤ ق م بجيش قوامه عشرون ألف مقاتل لمحاربة مصر، يمكننا أن نقارن مرة أخرى ونتعرف بدقة على آخر ابتكاراته. ولقد أورد ديودور الصقلى فقرات قليلة عن إصلاحات أبيقراط وبخاصة فى سجل الحرب بين نكتانابو والفرس التى اشترك فيها الأثينيون، فيذكر أنه كرس نفسه بصفة خاصة لعمل أنواع جديدة من الأسلحة، وصنع سيوفاً طولها نحو ثلاثة أمثال السيوف المعتادة. «وكان المعتاد عند الإغريق أن يحملوا دروعاً ثقيلة، ولكن نظراً لأن هذه الدروع كان تعوق حركة الجنود وتقدمهم غير أبيقراط شكلها، وأمر بصناعة دروع مستديرة تحمل باليد ذات حجم معقول...

«كذلك غير نمط الحراب والسيوف، فهو الذى أدى إلى تقصير الحراب إلى نصف طولها نتيجة التجربة والاستخدام، وكانت سمعة هذا القائد طيبة نتيجة للاستفادة من عبقريته وابتكاراته. وأخيراً غير أحذية الجنود التى ظهروا وهم يلبسونها بعد فترة وجيزة لتسهل عليهم المسير وتيسر لهم الفرار ولذا كان يطلق عليهم فى تلك الأيام الأبيقراطيون. وابتكر أبيقراط أشياء أخرى كثيرة تتعلق بالشئون المادية التى يصعب تفصيلها هنا، ولكن كل تلك الاستعدادات لغزو مصر لم تأت بأى نتيجة».(٣) وتقدم لنا نقوش معبد مدينة هابو تصويراً لوصف ديودور.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا، هل كان هناك تنبؤ بالإصلاحات التى أدخلها أبيقراط قبل مولده بثمانية قرون؟

عربات تحمل الرفيقات

صحب البيرست فى غزوتهم العسكرية لمصر عربات فيها مجموعات من النساء. ويصور لنا أحد النقوش الغائرة بمعبد مدينة هابو منظراً لمعركة ويظهر فى الصفوف العليا من المنظر عدد من العربات بها نسوة مقبوض عليهن فى وسط الزحام، ثلاث منهن رافعات أذرعهن دفاعاً عن النفس أو التماساً للنجدة، وترى فتاة صغيرة كأنها تهرب من إحدى العربات أو تسقط منها. (الشكل رقم ٥)

روى هيرودوت عن العادات الحربية للفرس فقال إنهم حينما يخرجون فى حملة عسكرية «تخرج خلفهم عربات تحمل نساءهم».(١) وهى عربات مكعبة الشكل تجرها الثيران. وترى صورة العربة الملكية على وجه العملات التى صكت فى سيدون فى نفس العام الذى جرد فيه فرنابازوس حملته على مصر.(٢) وكانت سيدون آنذاك تحت حكم الفرس. وتظهر الخيول تجر هذه العربة ولكن من الطريف أن شكل هذه العربة الملكية مكعب أيضاً، وهو مختلف تماماً عن شكل العربات التى كان يستخدمها الأشوريون والحيثيون والمصريون والمسينيون أو الإغريق الأيونيون أو الاتروسكان أو المينويون.

أما فى المعركة البحرية كما رسمت على جدران معبد هابو، فقد كانت من أسلحة البيرست الحراب، ولكن المصريين كانوا يستخدمون القسى والسهام الطويلة التى تناسب القتال البحرى عن قرب. ويرى فى الرسوم أحد المصريين وقد غادر سفينته ونزل إلى سفينة من سفن الأعداء يقاتل بالحربة الطويلة.

ويقول هيرودوتس (الجزء السابع / ٨٩) إن المصريين الذين كانوا يعملون فى جيش اكسركيس «كانوا مسلحين بالحراب المناسبة للقتال البحرى والبلط الضخمة الثقيلة».

سفن النيران

هناك تفسير جديد لتعبير معين ورد فى النصوص التى خلفها

رمسيس الثالث. فيقال عن أساطيل العدو المقتربة من الساحل «إنها جاءت بنيران تتقدمها».(١) وكذلك قيل في وصف المعركة التي وقعت عند مصب النيل، «أما الذين تقدموا معاً على البحر فقد كانت الشعلة كاملة أمامهم عند مصبات النيل».(٢) لم تكن قاذفات اللهب معروفة خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد كسلاح هجومي أو كسلاح دفاعي يستخدم في القلاع والحصون. ولكن فسرت هذه العبارات بأنها من قبيل التشبيهات البلاغية التي تدل على المدى الذي وصل إليه القتال. «فحينما يذكر النص عبارة الشعلة الكاملة فمن يستطيع أن يجزم بأنها لا تعني الأساطيل المصرية، أو حينما يشار إلى عبارة «إنها موجهة مباشرة إلى الأجسام»، فمن ذا الذي يجزم بأن القصد هو الجيش المصري؟(٣) علينا أن نعترف بأنه في ضوء العبارات المزوقة التي اعتاد رمسيس الثالث استخدامها، فإن مثل هذه التفسيرات غير مقبولة. ومع ذلك فإن الخاصية الروائية التي تميز بها النص في ذكره للنار المعدة أمام الأسطول والشعلة الكاملة التي تلقي في المعركة تؤدي بنا إلى التساؤل عما إذا كانت هذه العبارات حقيقية أو مجازية.

لقد أدخل الفرس النار في الحروب مستخدمين كتلاً محترقة، وقدور حارقة كما يدل على ذلك ما رأيناه في نقوشهم الغائرة.(٤) وينسب هيرودوت إلى الفرس استخدام السهام ذات الرؤوس النارية في حربهم حينما استولى اكسركيس على أثينا عام ٤٨٠ ق م. وطبقاً لما ذكره ثيوكديدس(٥) شاركت سفن النيران، كما ألقيت القذائف المضيئة والحارقة.

ويصف أينياس (٣٦٠ ق م) إنتاج قذائف اللهب باستخدام قدور فخارية مليئة بمزيج من النفط والكبريت والحشائش الجافة والراتنج، ويقول عن هذا المزيج:... إن هذا القدر (الإناء الفخاري) المليء بالمزيج يثبت في ذراع كبير من الخشب مثبت بخطاطيف حديدية في جانبيه ثم يلقي بعيداً نحو سطوح السفن الخشبية أو نحو الأستار الخشبية التي يحتمي فيها العدو المهاجم.(٦)

وحينما هاجم الاسكندر الأكبر في عام ٣٣٢ ق م مدينة صور على الصخرة المجاورة للساحل الفينيقي، استخدم أهل صور سفن اللهب،

وأقاموا أيضاً أبراجاً على حوائط الحصون هاجموا منها السفن بقذائف اللهب.(٧)

والتاريخ الحقيقى لمقابلة رمسيس الثالث مع أساطيل العدو عند مصب الفرع المنديسى للنيل كان فى عام ٣٧٤ ق م، حيث استخدمت سفن النيران وقذائف اللهب بعد حصار سراقوزه بتسعة وثلاثين عاماً خلال حرب البلوبونيز، وبعد حصار الإسكندر لصور بنحو اثنين وأربعين عاماً، وهو أمر لا يحتمل أن يكون محض خيال.

ماريانو

يبقى أمامنا شريك آخر فى حرب رمسيس - نيكتانابو ضد الفرس واليونانيين ذو شخصية يشوبها الغموض. فلقد كتب رمسيس الثالث أنه، أثناء جهوده لتقوية دفاعاته عن الأراضى الحدية، قام بتقوية مكان يسمى زاهى على الحدود المصرية فى سيناء، يتفق هذا مع رواية ذكرها ديودور عن أعمال الدفاع التى قام بها نيكتانابو الأول على الحدود الشرقية للبلاد. وأشار رمسيس الثالث إلى تنظيم حملة قائلاً:

«أرسلت إلى حدودنا فى زاهى حملة أعددناها أمامهم لتأديب الأمراء وقواد الحاميات والماريانو».(١)

فمن هؤلاء الماريانو، هل هم أكثر الحلفاء إخلاصاً لمصر؟ من اللحظة الأولى قيل إن الماريانو كلمة آرامية الأصل معناها النبلاء. لكن من يا ترى كان هؤلاء الماريانو، أكانوا محاربين أجانب فى مصر خلال القرن الثانى عشر سماهم الآراميون بذلك الاسم؟ إن الآرامية لغة سامية حلت محل العبرانية فى فلسطين بعد السبى البابلى التى كتب بها كل من اصحاح عزرا ودانيال والتلمود فيما بعد، وكان ذلك فى بداية العصر الميلادى، حيث كانت هى لغة التخاطب العامة ليهود فلسطين آنذاك. وترجع أقدم النقوش المكتوبة بالآرامية إلى القرن التاسع والثامن قبل الميلاد.

ويعتبر وجود نبلاء ساميين يحملون لقباً آرامياً فى مصر خلال القرن الثانى عشر مسألة تحتاج إلى تمحيص. ولقد رفضت الفكرة تماماً على أنها لا تناسب الزمان ولا المكان، ووضعت نظريات عديدة ترجع أصل كلمة

ماريانو إلى اللغة السنسكريتية.(٢) وبتحويل النظرة التاريخية ربما نطرح مرة أخرى السؤال: أليس الماريانو الذين ذكرهم رمسيس الثالث كلمة آرامية تعنى النبلاء؟

عثر فى عام ١٩٠٦ على برديات مكتوبة باللغة الآرامية بين حطام المبانى فى الجزء الجنوبى من جزيرة الفنتين أو فيلة الواقعة فى النيل أمام أسوان ذلك على عمق نصف متر فقط من سطح الأرض، وكانت غير محمية وسط الرمال والديال. وثبت أن هذه الوثائق ترجع أصلاً إلى القرن الخامس قبل الميلاد خلال السيطرة الفارسية على مصر، ويرجع أقدمها إلى عام ٤٩٤ ق.م (أو ٤٨٣ ق.م)، ويرجع أحدثها إلى عام ٤٠٧ ق.م وجاء ذكر أسماء ملوك الفرس فى العديد منها مصحوباً بذكر سنى حكمهم التى كتبت فيها تلك الوثائق مما يجعل هذه التواريخ مضبوطة إلى حد كبير:

وتثبت هذه الوثائق وجود مستوطنة عسكرية يهودية فى هيب الفنتين حيث كان هذا الموقع أحد المواقع على الحدود الجنوبية لمصر، وكانت المهمة الرئيسية لهذه المستوطنة هى تأمين البلاد ضد الغزوات الآتية من النوبة. وكان بهذه المستوطنة معبد تقام فيه الشعائر لعبادة يهوه بصورة مختلفة مع شعائر عبادة الإله اناث أو فينوس ولقد كان هذا المعبد وتلك المستوطنة متواجدين حينما غزا قمبيز مصر، وحينما دمر المعابد المصرية لم يدمر هذا المعبد المتواجد فى فيلة كما ورد فى إحدى تلك البرديات.

كان الوضع الإجتماعى لبعض أفراد تلك المستوطنات وضعاً متميزاً، فكان لهم عبيد وكانوا يلقون احتراماً خاصاً باعتبارهم جنوداً محترفين مقيمين إقامة دائمة فى البلاد.

ولكن حدث فى عام ٤١٠ ق.م أن انتهز كهنة معابد الإله خنوم المجاورة فرصة تغيب الحاكم الفارسى واستطاعوا أن يسيطروا على الحاكم الإقليمى ليسمح بتخريب معبد هيب الفنتين. ولئن كان نبلاء تلك الفئة من العسكريين قد شهدوا العقاب ينزل بمن خربوا المعبد إلا أن المعبد لم يقام مرة أخرى ولذلك كتبوا إلى المرزبان الفارسى المقيم فى باجواس بالقدس، ولاثنين من أبناء سانبالات مرزبان بلاد سومر. وكان بوجاس هو الرجل الذى خلف نحميا(٣) كما أن سانبالات ذكر فى سفر نحميا عدة مرات على

أنه حاول بإرادته الطيبة أن يستحثه على إعادة بناء حائط أورشليم.

كتب هذا الخطاب عام ٤٠٧ ق.م وكان هو أخر ما استخرج من الآثار المدفونة. وحدث بعد ذلك بقليل أن ثار المصريون ثورة مسلحة ضد الحكم الفارسى ولا يعرف بالتحديد ما حدث للمستوطنة اليهودية، هل استطاعت أن تقاوم هذه الصحوة وأن تبقى؟ هل شاركت فى حرب التحرير لحماية مصر ضد القوات الفارسية الغازية؟

يكفى هنا أن نفتح صفحات برديات فيلة(٤) لنجد فيها إجابة على التساؤل: عن كنه الماريانو الذين ذكرهم رمسيس الثالث؛ وبالربط بين الأمور يمكننا أن نتعرف على المصير الذى انتهت إليه المستوطنة اليهودية فى مصر بعد سنة ٤٠٧ ق.م.

جاء فى الكلمات الأولى المكتوبة على البردية كلمة «ال ماران» التى تعنى: «إلى السيد»، وتتكرر كلمة ماران مرات ومرات فى هذه البردية وغيرها من برديات فيلة. ووضعت كلمة ماران أو مارينو (سيدنا) قبل اسم مرزبان أورشليم القدس فى خطابات رؤساء المستوطنة اليه، وكانوا هم أيضاً يلقبون مارينو (أى اسيادنا) حينما يكتب لهم الأفراد العاديون فى المستوطنة. وكان المفرد لكلمة مارينو أو جمعها مارينو يحل أحدهما مكان الاخر فى برديات فيلة.

وهنا نجد بين أيدينا إثبات من رمسيس الثالث نفسه يؤكد وجود المستوطنة العسكرية اليهودية فى مصر ويثبت أن أعضاءها كانوا مخلصين للمصالح المصرية، وأنهم نقلوا فى وقت الطوارىء من الجنوب إلى الحدود الشرقية المهددة.

نشر خلال عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ المزيد من الوثائق الآرامية التى عثر عليها فى مصر، وكانت محفوظة لعشرات السنين دون أن تنشر ضمن المقتنيات الأمريكية، ولم تكن معروفة على نطاق واسع فى الأوساط العلمية العالمية. وبعض هذه الوثائق مكتوب على رقائق من الجلد ويرجع تاريخها إلى الفترة بين ٤١١ و ٤٠٨ ق.م، وسطرها المرزبان الفارسى أرشام(٥)، ومجموعة أخرى من الخطابات كتبها بعض افراد المستوطنة اليهودية فى فيلة ترجع إلى الفترة من ٤٩٩ ق.م إلى ٣٩٩ ق.م.(٦)

ويرى فى هذه المجموعة الأخيرة أن ارتاكسركيس الثانى كان يعرف فى

جزيرة فيلة كملك فى عام ٤٠١ ق.م. وبالإضافة إلى ذلك استنتج منها أيضاً بأن لقب مارينو كان موجوداً فيها كما كان موجوداً فى الوثائق التى طبعت قبل ذلك بكثير فى نفس هذا القرن العشرين.

خامات المعادن من بلاد أتيكا

كانت المواصلات فيما بين مصر واليونان فى عهد رمسيس الثالث (نيكتانابو الأول) تسير منتظمة بصورة لم يسبق لها مثيل، ففى عهد الملوك الأوائل منذ النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد، كان المرتزقة والتجار اليونانيون يقيمون فى مصر. ونشط التبادل الفكرى مع الفلاسفة اليونان الذين كانوا يزورون مصر خلال القرن السادس، فى عهد أمازيس حيث كانت مصر تغريهم بالحضور رغبة فى دراسة حكمة القدماء وتاريخهم. ولكن أصبحت الصلات أقوى فى عهد رمسيس الثالث وأصبح الاثينيون من أتيكا يؤدون دوراً هاماً فى الحياة العسكرية والسياسية والاقتصادية فى مصر. وكان الجنود المرتزقة يذهبون ويجيئون ويرجعون وكانت السفن تبحر من البلاد حاملة محاصيل الحقل وتعود حاملة البضائع.

وكانت تلك العلاقات قد انقطعت خلال القرن الخامس قبل الميلاد أثناء الحكم الفارسى لمصر ثم حينما دخل اليونانيون مرحلة حروب البلوبونيز وكورينثيا، وعادت إلى الازدهار حينما اعتلى رمسيس الثالث السلطة حتى من قبل أن تحدث القطيعة من الفرس.

ويقول رمسيس الثالث فى بردية هاريس:

«أرسلت رسلى إلى بلاد أتيكا... إلى مناجم النحاس العظمى الموجودة هناك. حملتهم سفنهم الكبيرة إلى هناك، وذهب البعض عن طريق البر فوق حميرهم. ولم يكن يسمع عن ذلك من قبل منذ أن اعتلى الملوك عروشهم. وكانت مناجمهم مليئة بالنحاس الذى حملوا منه عشرات الآلاف على سفنهم الكبيرة»(١)

أين كانت بلاد أتيكا تلك التى ورد ذكرها فى النص؟ يقول برستيد إنها اسم يدل على «منطقة غير محددة يمكن الوصول إليها من مصر براً أو

بحراً، وعلى ذلك ربما كانت شبه جزيرة سيناء»

وربما لا تكون هى سيناء - لولا أن رمسيس الثالث لم يقل عنها «إنه قد سمع بها من قبل منذ اعتلى الملوك الأوائل العرش» أو منذ بداية الحكم الملكى فى مصر الذى يرجع إلى عدة آلاف من السنين. كان تعدين النحاس يجرى فى سيناء خلال عهد الدولة الوسطى وربما كان ذلك فى عهد الدولة القديمة كذلك، ذلك أن زعماء أو حكام سيناء لم يكونوا فى عهد رمسيس الثالث أو فى أى وقت سابق لذلك قادرين على إرسال الخام بالسفن بمعرفتهم، وكذلك لم تذكر أتيكا فى النصوص الهيروغليفية التى ترجع إلى تلك العصور المبكرة، بينما كانت سينا هى بوابة مصر.

كانت منتجات المناجم تحمل فى «سفنهم الكبيرة» وهذا يعنى أنها لم تكن سفن المصريين ولكنها سفن من البلاد التى يقوم بها نشاط التعدين ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن هم القبارصة أو الليديون أو اليونانيون وجميعهم من الذين يحترفون الملاحة، ولعلها كانت جزيرة قبرص التى اشتق اسمها من اسم النحاس (باللاتينية Copper) تحتوى على النحاس حتى يومنا هذا، ولعلها هى التى أعطت إسمها للمعدن. ولكن وصف أتيكا كمكان يمكن الوصول إليه بالبر أو البحر تستبعد احتمال كون تلك الأرض هى قبرص. ولقد أبقت الحرب الطويلة واسعة النطاق التى شنها الملك ايوجوراس لمدى عشرات السنين على الفرس قد أبعدت قبرص عن مجال التجارة واتجه البحث عن مصادر أخرى للمعدن فى بلاد أخرى ربما كانت تستورده من قبرص. وكان الفينيقيون أيضاً يعتمدون على النحاس الذى يجلبونه من قبرص.

ولو أن مسألة تحديد موقع أتيكا كان معتمداً على اشتراط أن يكون بلوغ المكان بالبر والبحر على حد سواء كما فهم برستيد إذاً يمكن أن تكون بلاد اليونان هى أتيكا وهى الدولة التى كانت أثينا عاصمة لها، الأمر الذى يتفق مع ذلك الشرط. وكان عبور جسر هلّيس أو الدردنيل أمراً يتم بصورة منتظمة فى السلم والحرب سواء بالسفن أو الطوافات أو الكبارى المؤقتة العائمة التى تقام على قوارب أو عوامات، وهى عملية نفذها اكسركيس عام ٤٨١ ق.م فى طريقه لغزو بلاد اليونان وكررها الاسكندر الأكبر فى طريقه إلى الشرق بعد ذلك بنحو مائة وخمسين عاماً.

غير أن النص لا يعتمد على مثل هذا الشرط، ولكنه فى الواقع يتحدث عن خام المعدن الذى ينقل من المناجم إلى السفن على « حميرهم » (أى حمير أهل أتيكا) وعن نقله بالسفن من هناك إلى مصر حيث يذكر أيضاً على سفنهم (أى سفن أهل أتيكا).

وتتضاءل مسألة هوية الأرض المسماه أتيكا المشار إليها فى البرديات وكونها أتيكا التى عاصمتها أثينا إلى مشكلة بسيطة تتمثل فى وجود المعدن أو خاماته فى أتيكا من عدمه. إن المعدن الذى يأتى من مناجم أتيكا قد ورد ذكره فى بردية هاريس الهامة على أنه «هِمْت» (Hmt) التى يترجمها برستيد إلى نحاس، ومع بعض التحفظ لم يكن اصطلاح همت هو الاسم المعتاد للمعدن. وفى نص آخر استعملت كلمة «همت» لتدل على ثلاثة أنواع أخرى من الخامات المعدنية أو السبائك كلها غير معروفة ولكن صلابتها مذكورة بوضوح.(٢) على ذلك فإن هذه الكلمة مستخدمة للدلالة العامة على أى معدن. واليوم لا تعتبر اليونان من الدول المنتجة للنحاس، وإن كانت كمية الخامات المعدنية فى قائمة صادراتها كبيرة وتعتبر من الدول الكبرى المصدرة لخامات البيريت والكروميت.

وللبيريت شكل يشبه النحاس، فهو معدن أصفر فاتح، ومثله ثانى سلفيد الحديد وبعض المعادن الأخرى التى تحل أحياناً محل الحديد مثل الكوبالت والنيكل والنحاس. وهناك تسمية أخرى للبيريت هى «الذهب المغشوش» وإن كان يحتوى فى بعض الأحيان على الذهب.

ويتكون الكروميت من الحديد والكروميوم الذى لا يتفوق عليه فى الصلابة إلا البورون والماس، وإذا ما خلط الكروميت مع الرصاص فإنه يصبح أصفر اللون. أما الكروميوم المعدنى فإنه يصنع بتخفيض نسبة الأكسيد فيه بواسطة الكربون، ويستخدم فى طلاء المعادن بسبب صلابته وخاصية عدم الخدش. ويستخدم الكروميوم فى صناعة الصلب بشكل واسع لاكساب السبائك الصلابة الخاصة.

ولقد أدى اكتشاف أن اكساب الحديد صلابة قريبة من صلابة الكروميوم فى خام الكروميت تجعله مطلوباً لتصنيع الاسلحة والأدوات التى تستخدم فى قطع الحجارة. وتبقى أمامنا مسألة تحتاج إلى حل:- بأى أنواع الأدوات استطاع المصريون فى عصر البرونز المبكر أن ينحتوا الكتابات

الهيروغليفية على الجرانيت الصلب الذى هو أصلب حتى من البازلت؛ وعلى الديوريت الذى هو أصلب الجميع (البرونز وهو سبيكة من الحديد المخلوط ينثنى بعد ضربات قليلة)، وكيف قطعوا التماثيل بالازميل فى الحجارة فأخرجوا خطوطاً دقيقة للغاية تمثل العيون والشفاه والآذان ؟ يمكن الإجابة على هذا السؤال بأن خام الكروميت كان يستخدم فى صناعة الآلات أو على الأقل كمسحوق للتنعيم. ولقد كان الكروميت يستجلب من روديسيا الغنية برواسبه منذ عهود مبكرة للغاية أو حتى منذ عصر بناء الأهرامات.

يبدو أن رمسيس الثالث ربما ذكر أن الكروميت وكذلك البيريت موجودان بكثرة فى اليونان حينما كتب عن خام المعدن الذى يستجلب بالسفن الكبيرة من أتيكا إلى مصر استعداداً لحرب الفرس. فإذا كان هذا هو الوضع فإن الخام الموجود فى اليونان ربما كان أفضل من خام النحاس الموجود فى قبرص أو سيناء.

هوامش الفصل الثالث

المحاربون من شعوب البحر

١- أنظر أيضا سفر اشعياء ١٨/٥٩، ١٠/٦٠، ٩/٦٦، ١٩/٦٦

٢- أنظر أيضا سفر أرميا ١٠/٣١، وسفر حزقيال ٣٥/٢٧ وسفر صفنيا ١١/٢

٣- كما ذكر هانفمان Hanfmann الذى عثر أثناء حفائره فى ساريس على حائط يشبه حوائط طراودة السادسة وزعم أن آثار ساريس ترجع إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ألا يكون زعمه فى الواقع نحو الاتجاه العكسى! أى نحو القرون التالية.

4- Trude Dothan, The Philistines and their Material Culture (in Hebrew) (Jerusalem 1967)

5- Cambridge Ancient History, volume of plates, C. T. Seltman, ed (1927) p. 152.

٦- W. Reichel, Homerische Waffen (2nd ed; 1901) Fig. 47. يبين الشكل رقم ٤٧ فى هذا الكتاب المحاربين من أبناء شعوب البحر كما صوروا فى الحفر الغائر بمعبد مدينة هابو، وكان هذا الرسم هو السبب فى أن ينسب رسوم الأشخاص التى وجدت على مزهرية أكروبوليس إلى عصر هومير

٧- بعد أن تناول هيرودوت وصف ملابس التراشيين أو البيثيونيين الأسيويين كتب عن رجال الحامية اليونانية التى لم يظهر اسمها فى النسخ الأصلية الجزء ٧٦/٧ يقول: "كانوا يلبسون خوذات من البرونز لها آذان وقرون مثل قرون الثيران مكسوة بقشرة من البرونز أيضاً كانت

هذه الحامية فى أغلب الظن مكونة من أبناء ساريس وهى مكان يتبع بيثينيا.
٨- كانت الخوذة المقرنة ذات القرص تستخدم أحيانا فى بلاد الفرس فى فترات تالية كما هو الحال عند الملك خسرو الأول من الأسرة الساسانية (المعاصرة للامبراطورية الرومانية) فقد رسم وهو يلبس مثل هذه الخوذة أثناء رحلة صيد. أنظر كتاب A. U. Pope, Survey of Persian Art, Vol. IV (1939) Plate 213.

إصلاحات أبيقراط

1- H. L. Lorimer, Homer and the Monuments (1950) p. 267.
2- F. W. von Bissing Studi Etruschi (1932), IV, 75 Breasted reads "five feet".
٣- أنظر ديودور ١٥/٥

عربات تحمل الرفيقات

١- هيرودوت ٨٣/٧
2- Sir George F. Hill, Catalogue of the Greek Coins of Phoenicia (London, 1910) Plates XIX, 5, and others.

سفن النيران

1- Edgerton and Wilson, eds, Historical Records of Ramses III p. 55.
٢- المرجع السابق.
3- Breasted, Ancient Records, Vol. IV, sec, 21.
٤- هيرودوت الجزء الثامن /٥٢
٥- ثيوكديدس الجزء ٣٥/٧، أنظر أيضا الجزء ١٠٠/٤
6- J. R. Partington, A History of Greek Fire and Gunpowder (1960), p. 1.

ماريانو

1- Edgerton and Wilson, eds., Historical Records of Ramses III. Wilson refers

to Zahi as a point on the border. Some other authorities consider Zahi as desiganting a larg part of Palestine.

٢- A. Gustava Zeitschrift für Assyrologie, XXXVI Neue Folge, 11 (1925) يصر جوستاف على أن لغة الموريان وهى لغة مارجانو لم تكن لغة آرية (سنسكريتية) 297 ff. كما أن وينكلر فى كتابه Orientalistische Literaturzeitung XIII (1910), 291 قد حلت محل لغة شبه آرية (لغة الميتانى) أنظر المكتوب فى كتاب Albright, From the Stone Age to Christianity (Baltimore, 1940) p. 153. وردت الاشارة إليه فى كتاب: Sidney Smith, Early History of Assyria (London 1928) pp. 237-38 والذى أشار إليه أيضا R. T. O'Callaghan, "New light on the Mariannu as Chariot Warrior" in Jahrbuch für Kleinasiatische Forschung, 1 (1950-51) 309-24.

3- Josephus, Jewish Antiquities, XI 297 FF.

4- E, Sachau, Aramäische Papyri und Ostraka aus einer jüdischen Militär-Kolomic zu Elephantine (Leipzig 1911) وكانت الطبعة الأولى تحت عنوان Drei Armäische papyrusurkunden aus Elephentine (Berlin 1908) وقد وجدت هذه البرديات فى جزيرة فيلة خلال العقود الأخيرة من القرن الماضى.

٥- اشتراها بوكهارت L. Borchardt خلال العقد الرابع من هذا القرن ونشرها درايفر G. R. Driver تحت عنوان Aramaic Documents of the Fifth Century B.C (Oxford 1954)

٦- اشتراها ويلبور C. E. Wilbour من أسوان عام ١٨٩٣ ونشرها E. G. Kraeling تحت عنوان The Brooklyn Museum Aramaic Papyri (New Haven 1953).

خامات المعادن من بلاد أتيكا

1- Breasted, Ancient Records, IV, 408.

2- Alan Gardiner, "The Tomb of a Much Travelled Theban Official" Journal of Egyptian Archaeology, IV (1917) pp 28 ff.

الفصل الرابع

عن اللغة والفن والديـن

تأثير الثقافة السامية على لغة مصر وديانتها

بعد أكثر من مائتى عام من سقوط القدس كانت هناك مستوطنة يهودية فى مصر. ولابد أن تأثير اللغة العبرانية السريانية كان قد أصبح واضحاً بلا شك خلال عصر رمسيس الثالث. وكانت تلك هى الحال فعلاً، ففى كثير من الحالات كانت الكلمات السابقة تحل محل الكلمات المصرية، «وكثيراً ما كانت كتابات رمسيس الثالث تتغاضى عن كلمات مصرية صحيحة جيدة المعنى» لتحل محلها كلمة عبرية مقابلة لها. ولنأخذ مثلاً من معبد مدينة هابو: الكلمة السامية بارك أو يبارك قد استخدمت مكان الكلمة المصرية(١)

«كانت نصوص معبد مدينة هابو صارخة فى اختيارها للكلمات، فهى تكشف لنا وجود نبرات أو شدات بعد الكلمات أو العبارات غير العادية. ... وبها تفضيل لاستخدام بعض الكلمات الأجنبية المستعارة عادة من اللغات السامية. وهذا يظهر لنا عن تأثير واضح ربما كان تأثيراً ساذجاً للتظاهر بالمعرفة الواسعة، واتساع نطاق الدولة. ويشير وجود مثل هذه الكلمات السابقة فى مدينة هابو إلى وجود علامات ثقافيةواسعة النطاق شملت كل الشرق الأدنى»(٢)

تصبح هذه الصفة واضحة للأفهام إذا أخذنا فى الاعتبار وجود المستوطنة اليهودية فى مصر، وتصبح مع ذلك أمراً محيراً إذا ما كان رمسيس الثالث معاصراً لقضاة جيديون وجيباتاه أو شمشون Jephthah Gideon Jndges وبخاصة أن سفر القضاة يخلو تماماً من ذكر وجود أى صلة

مع مصر.

كتب رمسيس الثالث يقول: « أنا فى مفترق الطرق... للإله الكلى بجلالى، الأب المقدس إله الآلهة.»(٣) فلابد أن وجود المستوطنة اليهودية فى مصر كان له أيضاً تأثيره على الفكر الدينى.

وكثيراً ما جاء عند رمسيس الثالث ذكر «بعل» أيضاً، وقد سبق أن ذكرنا عقيدة بعل، ولكنها لم تكن معروفة معرفة جيدة من قبل فى مصر، ولكنها أصبحت ظاهرة فى تلك الأيام. ليس من شك فى أن ازدهار هذا الاعتقاد فى مصر يؤكد وجود مؤثرات غير يهودية أتت بعد سبى السكان من فلسطين وقيام الاحتكاك مع مصر.

ومن الواضح أنه لم يكن للديانة العبرانية أثر دائم أو عميق فى مفهوم الديانة المصرية عن الكائن العلوى، فجدران معبد هابو مليئة بصور الآلهة ذات الأجسام البشرية ورؤوس الطيور والوحوش يقدم لها الملك القرابين. ويبدو أيضاً وهو واقف أمام آمون الذى صور فى حالة دهشة تبدو على ملامحه. والأكثر من ذلك أن رمسيس الثالث كان يبجّل ذاته. وقد بنى معبد مدينة هابو لكى يكون مقراً لتبجيل ذاته الكائنة، وقد يمل الإنسان من قراءة عبارات تمجيد الذات على جدران المعبد ولعل أبسط تلك العبارات وأكثرها اعتدالاً قوله «إن شخصيتى فخمة»

هنا سؤال يطرح نفسه. هل كان الأسلوب الأدبى السائد فى ذلك الوقت – أى خلال عهد الأسرة العشرين – موضع جدل ليظهر العلاقة الوثيقة مع الأسرتين السابقة والتالية لها فى السجل التاريخى المعتاد؟ قد تستخدم إجابة هذا السؤال كوسيلة للدفاع عن إعادة البنيان التاريخى الذى نقدمه هنا أو ضد السجل التاريخى المعتاد الذى يضع رمسيس الثالث فى الترتيب التاريخى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر قبل الميلاد.

«ربما أدى الأمر بأى كاتب مصرى مثقف من القرن الثانى عشر قبل الميلاد من الذين يجيدون معرفة الآداب القديمة لبلاده، ربما أدى الأمر به إلى الحزن العميق بسبب ما وصلت إليه النصوص المنقوشة على جدران المعبد فى عهده من انخفاض فى الأسلوب، فإذا تذكر ما كانت عليه حوليات حملات تحتمس الثالث من وضوح بالغ سوف يدهشه الكلام المنمق الذى ملأ به رمسيس الثالث حولياته... وسوف يودى به ما يراه من تصنع

واضح فى إقحام ألفاظ أجنبية والتزام بالبحث عن تشبيهات واستعارات. وربما يتذكر التمسك بالقواعد النحوية التى التزمت بها الكتابات القديمة فجعلت لغتها نقية فيشعر بالأسى لهذه النصوص التى عمد كاتبها إلى محاولة استخدام القواعد النحوية ولكن جهوده فشلت نتيجة لجهله بها ولطغيان لغة الخطاب العامية على كتابته»(٤)

ولكن، هل كانت هناك كتابات مصرية «رفيعة المستوى الثقافى» فى عهد رمسيس الثالث؟ لو أنها وجدت لما ترك الفرصة لإجتهاده وتذوقه للمجد. فمن الحكم على نصوص مدينة هابو «كانت أساليب الكتابة فى المعابد فى أيامه ركيكة يبدو فيها الاستهتار وعدم الالتزام بالقواعد النحوية.» وكانت بالإضافة إلى ذلك «طنانة لحد الإخلال» واحتوت النصوص الطويلة على «مقارنات مليئة بالمديح وبكل ما يستطيع الكاتب أن يذكره من ألفاظ التمجيد» وكانت الكتابات المختصرة التى تصحب الأشكال المصورة «تتكون إلى حد كبير من مقاطع مديح الملك والأحاديث التى تجرى بين الملوك والإله وتمتلىء بالتقريظ للملك أو أغانى الثناء والاستعطاف التى تغنيها الجوقات اليونانية والمجموعات من أبناء الشعوب المغلوبة»(٥) (لم يقصد المؤلف اليونانيين بالذات فى هذه الفقرة لكى يدل بها على العصر الذى كتبت فيه النصوص أو جنسية وبلد الأسرى، ولكنها استخدمت فقط لوصف الانطباع الذى تتركه مثل تلك الأصوات الجماعية.)

وقد يعنى «الإصرار على تكرار عظمة الفرعون وجلاله أن يرفع أى حاكم حتى لو كان تافهاً إلى مستوى الحاكم السابق عليه أو حتى إلى أعلى من مستوى سابقه، إن الأمر يحتاج إلى أن يملأ الحلق المفتوح لشعبه بما يجعله يلهج بالثناء.» ويصبح الصياح العالى بالتمجيد مثل قرع النحاس أو دق الطبول».

أما بالنسبة لاستخدام القواعد النحوية فإن رمسيس الثالث كان «يتلمس الأسلوب الذى يتجاوز كل الاستعمالات النحوية» واستخدم لذلك كل الوسائل القديمة المزيفة حتى ليبدو وكأنه لم يترك عبارة من عبارات الماضى إلا وقد استخدمها. ويدلنا الغموض فى استخدام أصول بعض الالفاظ «أن لغة الحديث الجارية آنذاك كانت أيضاً غامضة أو أنها كانت

متأثرة بإضافات نهائية عامة مقحمة عليها »

أما من ناحية طريقة الكتابة فإن «حفر العلامات كانت فيه خشونة وإهمال... مما يدل على السرعة فيه جميعاً ». وكان من الواضح أن من خططوا أعمال الحفر على الحجارة كانوا يستخدمون غالباً الرموز الهيراطيقية التى تستخدم فى الكتابة على البرديات وليس على الحجارة وكانت هذه الكتابة الهيراطيقية غالبة على الكتابة الهيروغليفية مما أدى إلى تشويه ما كتب بالهيروغليفية حتى أنها فقدت تماماً خاصيتها الأصلية التى تميزت بها كل علامة من علاماتها. »(٦)

وأخيراً تدلنا نقوش مدينة هابو على «وجود انقطاع واضح عن الماضى» و «فى ذلك فقدان للفخامة والأصالة مما أخل بالتوازن بين اكتساب القوة والتنوع.

وقبل أن ننتقل إلى الطراز المعمارى لابد أن نذكر أن اللغة فى أيام رمسيس الثالث وقواعدها النحوية وتعبيراتها وفن كتابتها على الحجر خاصة كانت بعيدة كل البعد عن الأصالة التى تميزت بها الكتابات التى خلفتها الأجيال السابقة.

فن مناظر الصيد

أمر رمسيس الثالث فنانيه أن يزينوا الصرح الضخم الذى بناه فى مدينة هابو بمناظر الصيد إلى جانب المناظر الحربية. وتكشف لنا مناظر الصيد هذه عن الكثير من الصفات المشتركة بينها وبين المناظر المرسومة بالحفر الغائر عند الأشوريين والتى تصور خروج الملك للصيد كما نفذها فنانو عصر أشور بانيبال وأشور ناسيبرال من قبله. «والمعتقد الشائع أن مناظر الصيد الأشورية التى ترجع إلى الفترة من القرن التاسع إلى القرن السابع ق.م. مستوحاة من المناظر المصرية التى تعتبر أصلاً لها. بيد أنه لا يوجد إثبات يدل على ذلك، وتحتاج المسألة إلى إعادة فحص دقيق مثل الذى قام به سبليرز. فلقد فحص مناظر الصيد المصرية الأشورية من حيث واقعيتها فى تمثيل المناظر والأسلحة المستخدمة والشكل العام لحيوانات الصيد والمضمار الذى تجرى فيه.

ورأى سبليرز بوضوح أن المناظر الأشورية كانت أكثر واقعية وفيها أشكال الحيوانات أفضل فى أوضاعها المختلفة، وأن أسلوب التصوير عند الأشوريين أسلوب أصيل، ولا ينطبق ذلك على المناظر التى وجدت فى مدينة هابو، وإن كانت لهذه المناظر معالمها الخاصة التى يمكن تتبع أصولها فى نماذج قديمة من الرسوم المصرية التى ترجع إلى عهد الدولة الوسطى، ويبدو فيها أن الكثير من الإضافات ترجع إلى أصول آسيوية.

ويبدو من أول وهلة أن هناك صعوبة فى موازنة نتائج التحليل مع التتابع التاريخى «ولابد لكى نمسك بزمام المشكلة جيداً أن نتذكر أن مناظر الصيد عند الأشوريين رسمت أو حفرت بعد تلك المناظر المصرية التى ترجع إلى عهد رمسيس الثالث بقرون عديدة.» وكان على الكاتب أن يكرر تحذير نفسه لأن كل الظواهر تشير إلى أن رمسيس الثالث قد نقل من أشور بانيبال.

والمعروف أن أشور بانيبال غزا مصر فى عام ٦٦٣ ق.م بينما هناك إصرار على أن رمسيس الثالث يرجع إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد. ولكن أشور بانيبال لم ينقل عن رمسيس الثالث كما هو واضح من تحليل المناظر الذى يذكر أن «من الصعب العثور فى المناظر الأشورية على أى أسلوب فنى يدل على النقل من مصر.» والأكثر من ذلك «فبعيداً عن الادعاء بأن الأشوريين قد نقلوا عن المصريين، فيجب أن نتساءل عما إذا كان المصريون قد نقلوا الأساليب الفنية عن الأشوريين، (٢) وذلك لأنه لا يمكن إنكار أن المناظر الأشورية لم تكن منقولة عن المناظر المصرية. إن الأساليب الفنية قد نشأت أصلاً عند الأشوريين، ولو كان هناك أى نوع من التعديلات التى أدخلت عليها، فقد كانت الماتية (فارسية قديمة) ولم تكن أساليب مصرية.

بناء على الدراسات الفاحصة من المؤكد أن مناظر الصيد عند رمسيس الثالث قد اعتمدت على الاساليب الأشورية، بيد أننا بمجرد أن نترك الزعم بأن رمسيس الثالث يرجع إلى القرن الثانى عشر فلن تواجهنا أى صعوبة فى إيجاد تفسير لكيفية استعارة أساليب فنية ترجع إلى القرن السابع ق.م خلال القرن الثانى عشر ق.م. (أى قبلها بخمسة قرون)

ولقد دهش سبليرز كذلك بالشبه الكثير بين مناظر بعض الحيوانات

وبخاصة الأسود التى رسمها فنانو رمسيس الثالث وبين الأسود التى رسمها الفنانون فى العهد البطلمى المتأخر، وهى ظاهرة واضحة فى الرسوم الموجودة فى كوم أمبو.(٣)

وهذه الحقيقة أيضاً لا تتعارض مع التسلسل التاريخى الذى يضع رمسيس الثالث سابقاً بنصف قرن للعصر البطلمى، فربما كان من الطبيعى أن الأشكال الفنية التى كانت مستخدمة فى مصر خلال القرن الرابع قبل الميلاد قد نقلت فى عهد ملوك البطالمة الذين أتوا بعد ذلك.

عمارة المعابد والفنون الدينية

بعد أن انتصر رمسيس الثالث فى حروبه ضد فارنا بازوس وابيقراط قضى بقية حكمه فى سلام، فشيد العديد من المبانى الضخمة التى ورد ذكرها فى بردية هاريس. ولقد بقيت بعض تلك المبانى فى صورة أفضل من غيرها من الآثار المصرية مثل معبد مدينة هابو.

كيف بقى معبد رمسيس الثالث بينما تحولت معابد كثيرة من عهود تالية إلى أطلال؟ «يعتبر معبد مدينة هابو أكمل معبد محفوظ فى مصر من قبل العصر البطلمى، ولذا فإنه أثر متميز لا مثيل له»(١)

تخبرنا إحدى برديات جزيرة فيلة عن ذلك: «حينما أتى قمبيز إلى مصر وجد المعبد اليهودى فى فيلة مشيداً بالفعل. وكانت معابد الآلهة المصرية قد هدمت جميعاً سوى هذا المعبد.»(٢) بيد أن نفس البردية تخبرنا بأن معبد فيلة الواقع على الحدود الجنوبية لمصر الذى تركه قمبيز كما هو قد أصابه الدمار على يد بعض الدهماء.

ولعل الحقيقة القائلة بأن البناء الذى شيده رمسيس الثالث فى القرن الثانى عشر قد حافظ على كيانه فى حالة جيدة، أمر يتعارض مع المعلومات التى وردت فى البردية المؤرخة سنة ٤٠٧ ق.م والتى تنص على أن جميع المعابد التى كانت قائمة حينما دخل قمبيز إلى مصر (سنة ٥٢٥ ق.م) دمرت جميعها على يد هذا الملك. ويعتبر المعبد الجنائزى الذى بناه رمسيس الثالث فى مدينة هابو، ومعبد خنسو الذى أقامه فى الكرنك من أكثر أبنية المعابد التى حافظت على كيانها. ويبدو أن المبانى المشيدة منذ

القرن الثانى عشر قد نجت من التخريب الذى وقع خلال القرن السابع قبل الميلاد على يد أشور بانيبال. ولو أن بعض المعابد والقصور قد نجت من أيدى الأشوريين لما أمكن أن تنجو من الغزو الفارسى أيضاً والذى أتى بعد الغزو الأشورى بنحو مائة واربعين عاماً، ولقد أنكرت بقاءها الوثائق التى كتبت فى مصر خلال العهد الفارسى.

ويختلف الأمر لو روجع التاريخ الذى تواجد فيه رمسيس الثالث. فلكى نحكم على العصر الذى يرجع إليه مبانى رمسيس الثالث التى بقيت دون أن تدمر على أساس من مميزاتها، فلابد أن نقارنها بالمبانى التى أقيمت خلال العهد الهلينى فى مصر.

توجد بعض الصور لواجهة مدخل معبد رمسيس الثالث الجنائزى فى مدينة هابو، وهو واقع فى سهل على الجانب الغربى من النيل عند الأقصر، وتوجد أيضاً صورة لواجهة مدخل معبد خنسو فى الكرنك والذى أقامه حريحور الذى يرجع إلى الأسرة الحادية والعشرين بعد رمسيس الثالث بنحو مائة عام (وفقاً للسجل التاريخى المعتاد).

لا يسع الناظر إلى هاتين الواجهتين إلا أن يدهش من التشابه الكبير بينهما وبين المعابد البطلمية فى أدفو وكوم أمبو وغيرهما من الأماكن. ولكى نقارن بين هذه الواجهات التى يزعم أنها ترجع إلى القرن الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد، وتلك التى ترجع إلى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد فقد صورت بالتتابع، حيث يبدو التشابه بينها من النظرة الأولى إليها. ومع الفحص الدقيق لهذه الصور يتأكد التشابه بصورة أكثر لدرجة الظن بانها جميعاً ترجع إلى عصر واحد أو تفصل بينها فقط أعمار أجيال، ولكن هذه الأجيال لا تصل إطلاقاً إلى ثمانمائة عام أو الف عام. وأترك الحكم على ذلك للقارىء كى يرى الكثير من التفاصيل فى تلك الصور معبد رمسيس ومعبد حريحور (الذى سوف نعود إلى مناقشته فيما بعد) وصورة المعبد الذى يرجع إلى العصر الهلينى. فبدءاً من الشكل العام ومروراً بالكثير من التفاصيل نجد أن المقارنة تؤدى بنا إلى نتائج تدل على تشابه عظيم من ناحية الطراز المعمارى تجعل انتماء بعضها إلى القرنين الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد والأخرى إلى القرن الثالث أمراً غير مقبول.

ولقد عبر أحد الكتاب المحدثين عن دهشته للتشابه الكبير بين واجهة معبد فيله (الذى يزعم البعض أنه يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد ولكنه فى الحقيقة يرجع إلى القرن الخامس) وبين حوائط مدخل معبد مدينة هابو، وكذلك تشابه المناظر المنحوتة على تلك الحوائط معبرة عن الحياة اليومية للحريم والتضحية بالأسرى.(٣) ومنذ بضع عشرات مضت من السنين كتب عالم المصريات أدولف ايرمان يقول «إذا لم نقرأ الكتابات المنقوشة على الحوائط لم نكن لندرك أن معابد إسنا أو أدفو أو دندرة أو فيلة ترجع إلى عصر اللاجيدس (اشتقاق من كلمة لاجوس والد بطليموس الأول) والقياصرة والانطونيوس.(٤)

ونرى أنه من الطبيعى أن تكون هذه الرسوم الموجودة على جدران المعابد مشابهة للنصوص الموجودة على جدران معابد رمسيس الثالث. ولقد دهش جيان يويوت الذى قام بفحص معبد بطليموس فى ادفو حينما اكتشف على جدران المعبد الذى أكمل إنشاءه بطليموس الثامن (سوتر الثانى) نصاً يتحدث عن الملك الذى دحر أعداءه: «قطع الميشواش أربا وذبح الشاسو وسبى الجيكر.» ودهش يويوت لاستخدام أسماء شعوب كان المصريون يعرفونها منذ أكثر من ألف سنة مضت، وهى شعوب يُفترض أنها لم تكن موجودة على الساحة التاريخية منذ زمن طويل قبل مجىء الاسكندر.(٥) وهناك أيضاً نقش فى معبد كوم أمبو يتحدث عن الميشواش والشاسو والجيكر، وهم أعداء معروفون منذ حروب رمسيس الثالث وفى ذلك يقول يويوت «تدل الوثائق التاريخية الراهنة على أن الهجوم الضخم الوحيد الذى حدث آنذاك هو هجوم الجيكر، وهم أحد شعوب البحر على مصر فى عهد رمسيس الثالث». إذاً فلماذا كان يشار إلى شعوب البحر بأسمائها وإلى أنها أعداء فى أحد المعابد التى أقامها البطالسة الأواخر؟

الإجابة على هذا السؤال هو أن الحرب التى شنتها شعوب البحر وقعت قبل أن يعتلى بطليموس الأول نجل واحد من قواد الاسكندر يدعى لاجوس عرش مصر ويؤسس أسرة حاكمة جديدة.

أما عن مسألة كيفية نجاة معبد مدينة هابو من الدمار الذى حدث فى عام ٦٦٣ ق.م وعام ٥٢٥ .م فإن الإجابة عليها هى أن المعبد لم ينشأ فى حوالى عام ١١٨٠ ق.م ولكن بالأحرى فى عام ٣٧٠ ق.م، ولذلك لم يتعرض كغيره من

المعابد التى بنيت فى أزمنة مبكرة للدمار على يد أشور بانيبال أو قمبيز. أما المسألة الأخرى التى تتمثل فى وجود تشابه بين الأبنية التى أقامها رمسيس الثالث وبين أبنية البطالسة فيمكن تفسيرها بنفس الحقيقة وأما الإشارة إلى الشعوب فى سجل الغزاة من شعوب البحر فى معابد البطالسة تصبح بذلك قضية غير محيرة.

التأثير المتبادل
بين الفنون والديانات الفارسية والمصرية

مازال الدرج الضخم فى برسوبوليس (مدينة الفرس) باقياً، ولكن لم يبق من القصور والمعابد فوق السهل الممتد سوى غابات من الأعمدة القائمة منفصلة عن بعضها وبعض الواجهات التى ترتفع فوق سطح الأرض؛ فلقد تحولت الجدران إلى تراب وحصى. وعادة ما نجد على عتبات الواجهات تصميمات مازدا أو أورموزد (رمز الخير والشر فى الديانة الفارسية القديمة التى دعا إليها مازداك) مرسوماً كرأس إنسان فوق قرص يمثل كوكب المشترى، ولهذا القرص جناحان طويلان ممتدان يرى مثله فى كثير من عتبات الواجهات فى مصر فى عهد الأسرة العشرين (رمسيس الثالث ومن خلفه من الرعامسة) وفى عهد الأسرة الحادية والعشرين (حريحور)، ويُرى هذا القرص أيضاً على واجهات معابد البطالسة. ولا يقتصر الأمر على التشابه فى تصميم عتبات المداخل فقط بل فى الواجهات بصفة عامة. وهنا يمكننا أن نلاحظ وجود تأثيرات متبادله وذلك لأن التصميم المعمارى للقرص الذى يمد جناحيه يرجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة أو حتى لعصر الدولة القديمة فى مصر. كانت برسوبوليس قد أنشئت منذ عهد الملك دارا واستمر إنشاؤها فى عهد اكسركيس، ولكن مصر قد خضعت بالفعل لمدى سنين عديدة للفرس قبل أن يعتلى دارا العرش، وأن الملك الفارسى دارا قضى فترة طويلة فى مصر.

أراد رمسيس الثالث أن يخلع عليه شرف القدسية الذى يستحقه الفرعون ونظراً لأنه لم يكن من نسل ملكى، ورغم تكراره التأكيد على وجود مثل هذا النسب، إلا أنه كان فى حاجة أيضاً إلى التأكيد على نشأته

القدسية. ففى أحد مناظر الحفر الغائر يظهر الملك وهو صبى فى الرابعة أو الخامسة عشر من عمره يقف إلى جوار ايزيس التى تقدم له ثديها ليرضع من لبنها.

ومن الأمور الجديدة وذات الأهمية الكبيرة فى هذه النقوش لباس رأس الإلهة ايزيس. كان لباسها المعتاد به قرنان بينهما قرص يمثل أحد الكواكب وهو معروف هكذا منذ أزمان سحيقة كما يظهر فى النقوش والتماثيل، بيد أن الفنان الذى استخدمه رمسيس الثالث خرج عن التقاليد بأن وضع على رأس الإلهة لباس رأس يشبه الخوذات ذات الأصداف أو الصفائح المتعددة التى كان يلبسها البيرست، ولكنها أطول بقليل وذات تصميم أكثر إتقاناً ودقة مع حافة تحيط بالصفائح وتحزمها.

ويمكننا أن نرى أغطية رؤوس شبيهة بهذه ولكن أقصر بقليل، على رؤوس الفرس المرسومين بالحفر الغائر على الصخور فى معبد ناخشى رستم فى منطقة جبانة الملوك القريبة من برسوبوليس (مدينة الفرس)، وترجع هذه النقوش إلى عصر الأسرة الساسانية فى بلاد فارس التى حكمت البلاد من القرن الثانى إلى القرن الخامس بعد الميلاد. وتزين أغطية رؤوس الفرسان ببعض الريش المعلق، وهو بلا شك إتجاه فنى متأصل فى التقليد القومى للخوذات متعددة الصفائح.

لم يتبع فنانو رمسيس الثالث التقاليد الراسخة فى الطريقة التى تصور بها الإلهة ايزيس، واستخدموا أساليب مبتكرة. ويمكن مقارنة ذلك بما قد يفعله الفنان المعاصر حينما يصور المادونا تلبس ثياباً حديثة وتسير فى شوارع العصر الحاضر.

ولكى يحدث مثل هذا الخروج الصارخ عن التقاليد لابد وأن يكون الفنان المصرى قد تأثر تأثراً شديداً بالفن الإيرانى الذى لا يقاوم، أو ربما وهو احتمال قائم، أن تكون العملية كلها قد تمت على يد فنان فارسى كان آنذاك فى خدمة رمسيس الثالث فنحن نعلم عن تبادل الفنانين بين مصر وفارس خلال الحكم الفارسى الأمر الذى نجده مسجلاً فى الرسائل المتبادلة مع المرزبانات. وهنا نطرح سؤالاً: ألا يعتبر وجود قلنسوة فارسية على رأس ايزيس دليلاً على تأثير فارسى قوى على الفنون المصرية المرتبطة بالمفاهيم الدينية التى سادت فى القرن الرابع قبل الميلاد، وأنها قد نقلت خطأ لمدى ثمانية قرون مضت قبل ذلك التاريخ؟

هوامش الفصل الرابع

تأثير الثقافة السامية على لغة مصر وديانتها

1- See J. H. Bondi Dem hebräisch-phönizischen Sprachzweige angehörige Lehnwörter in hierolglyphischen und hieratischen Texten (Leipzig 1886)

2- J. A Wilson, "The Language of the Historical Texts Commemorating Ramses III, "Medinet Habu Studies, 1928-29 (Chicago, 1930) A 32

٣- الإله الكلي تعبير موجود فى نصوص التوابيت التى ترجع إلى عهد الدولة الوسطى. Erman-Grapow, Wörterbuch der ägyptischen, Sprache II (1928), 230

4- Wilson, Medinet Habu Studies, 1928-29, pp 24 FF.

٥- المرجع السابق ص ٢٦. وكل الفقرات المقتبسة فيما يلى مأخوذة عن نفس المقال

٦- يقدم ويلسون أمثلة كثيرة على ذلك.

فن مناظر الصيد

1- Louis Speleers, "Les Scénes de chasse assyriennes et égyptiennes, "Recueil de travaux relatifs á la philologie et l'archéologie égyptiennes et assyriennes, Vol. 40 (1923) 158-76.

٢- المرجع السابق ص ١٧٣

٣- المرجع السابق ص ١٧٠

عمارة المعابد والفنون الدينية

1- Breasted, Ancient Records, Vol Iv sec. 1.

2- Sachau Aramäische Papyri und Ostraka p. 21.

3- Philippe Derchain Bibliotheca Orientalis, January-March 1961, p. 48 book review of H. Junker's Der Grosse Pylon des Tempels der Isis philä

٤- تعتبر كلمة الأنطونيوس اسما مجمعا يطلق على سبعة من الأباطرة الرومان حكموا فى القرن الثانى قبل الميلاد (من نيرفا إلى كومودوس) وهذه العبارة منقولة عن كتاب The Historians, History, M.S. Williams, ed., I (1907) 195.

5- J. Yoyotte, "Un souvemir des campagnes de Ramses III au Temple d' Edfou in "Trois notes pour servir á l'histoire d' Edfou," in Kêmi XII (1952).

الفصل الخامس

من رمسيس الثالث
إلى دارا الثالث

الرعامسة الأواخر

واجهتنا فى الصفحات السابقة مادة تاريخية من مصادر يونانية ومصرية، وانتهينا منها إلى أن نيكتانابو الأول الذى ذكره الكُتَّاب اليونانيون هو شخصيه أخرى أو ذات أخرى لرمسيس الثالث كما هو وارد لدى المؤرخين المحدثين أو هو أوسيمارى ميرامون رمسيس هيكاوون (الذى له الحياة والرخاء والصحة) الذى يظهر فى الآثار الملكية ويرد ذكره فى البرديات الرسمية. وكان معروفاً فى عهده وبخاصة فى أوساط اليونانيين باسم نيكتانابو، وهو الاسم الذى ربما كان يستخدمه فى المواقف الرسمية. وسواء كان الأمر كذلك أو كان اسم رمسيس الثالث كما هو معروف قد تواجد مع فراعنة آخرين، هم أكثر من مجموعة من الأسماء الملكية أو أسماء متعددة لملوك من مصر العليا والسفلى، فإن نيكتانابو هو الاسم الذى عرفه به الكتاب اليونانيون. وبهذا التعريف كنا نتوقع أن تنحل بعض المسائل الصعبة فى تاريخ الرعامسة الأواخر. «فلو صح أن أى شعب بلا تاريخ يعتبر شعباً سعيداً إذاً لحسبنا أن مصر أكثر حظاً فى عهد الرعامسة ذوى التاريخ الملفق عنها فى أى عهد سابق من عصور الفراعنة العظام المشاهير».(١) يفترض أن الفترة التى شملت كل من اعتلى العرش من الرعامسة لا تزيد عن فترة جيلين من ١١٧٠ ق.م إلى ١١٠٠ ق.م) رغم أن عدد الملوك الذين اعتلوا العرش بعد رمسيس الثالث يبلغ ثمانية كلهم يلقبون برمسيس، ويأخذون الترتيب من الرابع إلى الحادى عشر. ثم يعتقد بأن هذه الأسرة انتهت فى ظروف غير معروفة.

يمكننا أن يكون تحديدنا بأن رمسيس الثالث هو نيكتانابو الأول الذى ورد فى كتابات الأغريق تحديداً نهائياً، ولكن محاولتنا لإعادة بناء تاريخ وشخصيات الرعامسة الأواخر يجب أن تبقى فرضية نظراً لقلة المعلومات المتعلقة بهم.

وسوف نحاول ولو محاولة فاشلة، أن نصل إلى درجة من الوضوح فيما يتعلق بوراثة الملك وتتابع الملوك، ويساعدنا فى هذه المحاولة ما نعرفه عن خلفاء نيكتانابو الأول، وكذلك بعض السابقين عليه، ومن جهة أخرى هناك بعض التفاصيل المعينة التى لم تتضح فى النص اليونانى عن تاريخ مصر تتضح أكثر حينما تتكامل بعض المعلومات عن الرعامسة.

مثال ذلك، لم تعرف الظروف التى خلف فيها تاخوس الملك بعد نكتانابو الأول، كما لا يعرف على أى أساس طالب أحد أبناء عم تاخوس بالعرش، وثار ضده ويعرف باسم نيكتانابو الثانى. هل يمكن للآثار أن تنبئنا عن الأساس الذى بنى عليه نيكتانابو الثانى إدعاءه فى أحقيته للعرش؟

قبل أن يموت رمسيس الثالث كانت هناك مؤامرات وخلافات بين زوجاته وبعض العاملين، ورجال البلاط، وضباط الحرس الملكى. وبعد موت الفرعون اتهم أحد الأمراء ربما كان هو الوريث الشرعى ، ووالدته وعدد من الأشخاص الآخرين بالتآمر ضد الفرعون الراحل واستولى على العرش أمير آخر من غير شجرة النسب الملكية، وقبض على قائد الجيش وبعض رجال البلاط، وحرص على إجراء محاكمة لأخيه (غير الشرعى) وبطانته فى محاولة لإثبات التهمة الملصقة بهم بالتآمر على أبيه، وهناك وثيقة مطولة خاصة بهذه المحاكمة(٢)، التى حكم فيها على العديد من مؤيدى الأمير بالإعدام وعلى آخرين بالتعذيب حتى الموت، وأرغم الأمير على الانتحار بشرب السم، وهو حكم معروف عند اليونانيين فى القرن الرابع قبل الميلاد حيث نص الحكم الذى اصدره الاثينيون على سقراط عام ٣٩٩ ق.م أن يعدم بأن يشرب السم بيده.

ويعرف الملك الذى اعتلى العرش برمسيس الرابع، الذى نجده مقابلاً لشخصية الملك تاشوس عند الكتاب اليونانيين. ولقد ادعى رمسيس الرابع حسب ما ذكره أحد الكتاب المحدثين «أنه هو الملك الشرعى وليس

مغتصباً، ولكن ربما كان كثير الاحتجاج.» ويقال إنه لم توجد أى كتابات منقوشة من تاشوس، ولكن إذا كان رمسيس الرابع هو تاشوس فإن الأمر يختلف فهناك نقوش كثيرة، وبذلك يزول الغموض عن الموضوع.

كان الملوك الذين خلفوا رمسيس الثالث يضيفون اسم رمسيس إلى أسمائهم الملكية وألقابهم، وكان هناك تقليد رومانى مماثل بإضافة قيصر أو أغسطس ضمن الألقاب الإمبراطورية. وفى الواقع كان رمسيس الثانى قبل رمسيس الثالث هو الإسم الذى كان يضاف إلى ألقاب من يعتلون العرش من الملوك أو من يطالبون بالعرش.

ظل رمسيس الرابع على العرش ستة أعوام خلع بعدها فى ظروف ورد ذكرها فى النصوص الهيروغليفية التى كانت مصدراً للمعلومات عن هذه الظروف. أما عن رمسيس الخامس فلا يعرف شيء، وربما لأنه كان شابا يشارك أباه رمسيس الرابع فى الحكم، وقد مات بالجدرى. أما رمسيس السادس فقد كان إبناً للأمير المتهم، وحفيداً لرمسيس الثالث، وبمجرد أن اعتلى العرش أخذ ينتقم لأبيه بأن محا اسم رمسيس الرابع من جميع الآثار وحفر اسمه مكانه، وأتم المقبره التى كان قد بدأها رمسيس الخامس لتكون مدفناً له. وبعد أن ضمن العرش لنفسه فى حياته، وضمن مقبرة يدفن فيها بعد مماته بدأ يمد نشاطه فى بعض أنحاء البلاد. وهذا هو الملك الذى يعرف عند الكتاب اليونانيين باسم نيكتانابو الثانى. وكما سنعرف بعد، قام رمسيس السادس بثورة ضد عمه وخلفه على العرش.

أما رمسيس السابع ورمسيس الثامن فقد كانا مجرد مطالبيْن بالعرش ولم يخلفا أى آثار تدل على حكمهما سوى ادعائهما الحق الشرعى فى الحكم، وكان هناك أيضاً رمسيس تاسع وعاشر وحادى عشر، سنتناولهما فيما بعد فى معرض دراستنا لتتابع الرعامسة. ولكن المتفق عليه بصفة عامة أنه لم يكن هناك إتصال مستمر بين عهد رمسيس الثالث إلى رمسيس الثامن وبين الرعامسة التاسع والعاشر والحادى عشر، وبالتالى لا يوجد دليل على أنهم كانوا من سلسلة نسب الرعامسة من الثالث إلى الثامن.

بهذه المعلومات الضئيلة التى أوردناها عن الرعامسة نكون قد عرفنا أن نيكتانابو الأول هو رمسيس الثالث.

وفى خلال الستين عاماً التى مضت منذ أن قام نفريتس بتحرير مصر لدينا تسعة أو عشرة ملوك بعضهم حكم فقط لمدة لا تتجاوز بضعة أسابيع، وبعضهم ذكروا فقط كمطالبين بالعرش.

«الشخص الصغير» مؤيداً للفرعون

حينما مات ارتاكسركيس الثانى (٣٥٩ ق.م) أعلن إبنه أوخوس ملكاً تحت اسم أرتاكسركيس الثالث. ولكى يؤمن لنفسه العرش ضد الطامعين فيه من أخوته الأشقاء أو غير الأشقاء البالغ عددهم نحو ثمانين سمح بإعمال القتل فيهم جميعاً.

وكان الشغل الشاغل لارتاكسركيس هو استعادة مصر التى فقدها أبوه، وبدأ منذ الأيام الأولى من حكمه يعد حملة عسكرية لهذا الغرض. وحدث قبل أن يعتلى ارتاكسركيس أو خوس عرش بلاد فارس أن استطاع تاشوس (رمسيس الرابع) أن يستبعد أخاه الأكبر من وراثة عرش مصر. ونظرا لما كان يتوقعه من تهديد بالحرب من جانب ملك الفرس أرسل تاشوس إلى أجيسيلاوس ملك أسبارطه يسانده نظير أجر يدفعه له، وكان اجيسيلاوس ذلك المحارب القديم قد وصل إلى العام الثامن من اعتلائه العرش.

قبل أجيسيلاوس العرض بأن يقوم بدور الجيش المرتزق أو المأجور، وأبحر إلى مصر، وكتب بلوتارخ عن ذلك بعد نحو أربعة قرون رأيه الذى يتفق مع رأى المعاصرين لاجيسيلاوس بأن هذا العمل كان فيه إهدار لسمعة الرجل «الذى ظل لمدى ثلاثة عقود أقوى رجل هلينى». ولكن زينوفون الذى كان يعرف اجيسيلاوس معرفة شخصية قدم تبريرات لدوافع الرجل.

كان اجيسيلاوس ذا شخصية تتعمق فى أحكامها، ويقول زينوفون فى ذلك «كانت للرجل علاقات مع كل أنواع الرجال فى مختلف الأحوال، ولكن علاقاته لم تكن حميمة إلا مع الأخيار... وكان كلما سمع مديحاً أو هجاء أو ذماً فى الآخرين، اعتقد أنه كسب رؤية ثاقبة لشخصية الناقد والمنتقد، وكان يكره مروجى الشائعات السيئة ككراهيته للصوص.(١)

لم يستطع هذا المحارب العظيم وقائد الرجال أن يكتسب إعجاب المصريين الذين لم يألفوا الاسبرطيين غير مكترثين بمظاهر الأبهة والمواكب، كما أن مظهر اجيسيلاوس كان غير جذاب.

«حينما أدرك هذا الرجل العظيم أن الطبيعة قد وهبته صفات العقل الراجح، وجد أن هذه القدرة غير متناسبة مع تكوينه الجسمانى كرجل أعرج قصير القامة نحيف البنية، أدى ذلك إلى أن مظهره لم يكن جذاباً للغرباء فإذا نظروا إليه لم يجدوا فيه ما يثير الإعجاب. وواتته الفرصة حينما ذهب إلى مصر وهو فى الثمانين من عمره ليساعد تاشوس، ويعسكر برجاله على الساحل فى العراء، ويفترش الأرض التى تغطيها الأعشاب، ولم يكن ليشعر بأنه أكثر من كتلة من اللحم ملقاه فوق الأرض بينما كل من كانوا يشاهدونه فى لباس فاخرة، وتبدو عليهم الأبهة. كانت أنباء وصوله قد وصلت إلى ضباط الملك وسرعان ما أرسلوا إليه مختلف أنواع الهدايا. ولكنهم لم يصدقوا أنه واحد ممن يفترشون الأرض فى العراء.» وحينما اختار اجيسيلاوس بعضاً مما قدم إليه وأمر بأن تعاد بقية الأشياء إلى أصحابها «نظر إليه البرابرة بمزيد من الإزدراء اعتقاداً منهم أنه أختار ما ظن بجهله أنها الأشياء ذات القيمة.»(٢)

وتحدث بلوتارخ أيضاً عن أن اجيسيلاوس حينما رسا فى مصر ترك انطباعاً سيئاً عن الاسبرطيين لدى المصريين نتيجة نحافة بنيته ومظهره وتصرفاته. وفى ذلك قال:

«بمجرد أن رسا فى مصر تقدم القادة والحكام لاستقباله والترحيب به وتكريمه، وكان المصريون فى شغف شديد لرؤيته متوقعين ما يليق بشهرته، واندفعوا جميعاً نحوه ليعانقوه، ولكنهم لم يجدوا شيئاً من مظاهر الأبهة، بل شاهدوا شيخاً عجوزاً مستلقياً فوق الحشائش على شاطىء البحر بجسده الصغير النحيف، وغطاؤه عباءة من قماش خشن رخيص، فلبهم الضحك والسخرية، وقالوا إن هذا تصوير لعبارة: تمخض الجبل فولد فأراً.»(٣)

لم يعثر على أى وثيقة تفصيلية تركها الفرعون تاشوس، ولم يعرف شىء عن حكمه سوى فيما بعد عن طريق الكتاب اليونانيين والرومان، ويرجع ذلك إلى أن جميع السجلات المكتوبة بالهيروغليفية تحمل اسم

رمسيس الرابع كما سبق أن ذكرنا، ويرى الكثير من العلماء أن الحقائق التى وردت فى بردية هاريس الكبرى تتعلق برمسيس الرابع رغم ما يبدو من أن رمسيس الثالث هو صاحب البردية.

ولقد وجد النص التالى الذى يتعلق بحرب ليبيا على جدران معبد مدينة هابو: «أتى الملك بشخص صغير من بلاد تميح، كان شخصاً صغيراً ولكنه يعاونه جيش قوى، وهو زعيمه، لكى يصلح البلاد.»

كانت عبارة «شخص صغير» هذه إشارة للطفل، ومفهوم طفل أحضره الفرعون لمساعدته أمر غير مقبول، ولذا يعتبر هذا النص من «النصوص المعقدة»(٤)

وكلمة زعيم فى المفهوم المصرى تعنى ملك، وعلى ذلك كان الاعتقاد بأن الفرعون شديد الاهتمام بشئون ليبيا قد عقد حلفاً مع ملكها الذى كان طفلاً صغيراً آنذاك، ولكن النص لا يتحدث عن معاونة قدمها الفرعون، ولكن معاونة تلقاها. وأن يأتى إلى مصر «شخص صغير» بدعوى من الفرعون ويتلقى عون القوات العسكرية يبدو أمراً غير مقبول فى معرض الموضوع.

إن مظهر اجيسيلاوس كما صوره رواة سيرته وبخاصة عن الانطباع الذى تركه نحافة جسمه عند وصوله إلى مصر يجعل النص الموجود فى معبد مدينة هابو مفهوماً ومناسباً للمقام.(٥)

أما عن تميح وهى البلاد أو الشعب التى أتى منها الشخص الصغير يعاونه جيش قوى بناء على دعوة من الفرعون فهى طبعاً تمثل العنصر الحاسم الذى يحدد مدى صحة رأيى فى أن الشخص الصغير هو اجيسيلاوس أم لا.

كان المصريون يسمون سكان ليبيا المجاورة باسم تيحينو. وصور هؤلاء التيحينو ببشرة سمراء وشعر مجعد. وكانوا يعرفون بهذا الاسم منذ عهد الأسرة الأولى. ولكن، وصف شعب آخر، فى وقت آخر وصور على أنه يسكن ليبيا أو الجزء الشرقى منها فى طبرق وكان يسمى تيميح، وهم شعب مختلف تماماً فبشرتهم بيضاء وشعرهم أشقر وعيونهم زرقاء، ولا يمكن أن تكون افريقيا هى الوطن الأصلى لهؤلاء، فربما أتوا من أوربا واستقروا فى شمال افريقيا...»(٦) وكان من الواضح أنهم لا ينتمون إلى الساميين أو الحاميين ولكن كانوا يرجعون إلى أصل آرى. فمن هم أبناء

هذا الشعب؟

سوف تحين الفرصة لمناقشة الهجرات اليونانية المبكرة إلى ليبيا، ومع ذلك فهذا هو المكان المناسب لكى نتذكر ما قاله بلوتارخ فى سيرته التى كتبها عن ليساندر، ذلك البطل الاسبرطى الذى شارك فى حرب البلوبونيز واستطاع أن يأسر أسطول أثينا فى معركة ايجو سبوتامى(٤٠٥ ق.م)، وكان يطمع فى أن يصبح ملكاً على أسبرطه ولقى تاييداً من الكاهن الأكبر للإلهة دودونا، ولكنه لم يستطع الحصول على تأييد الكاهن الأكبر للإله دلفين، فأرسل يلتمس تاييد الكاهن الأكبر للإله أمون فى الصحراء الليبية، ولكنه فشل مرة أخرى.إلا أن كهنة أمون أعلنوا أثناء قيامهم برحلة إلى أسبرطة أن الاسبرطيين سوف يأتون قريباً للسكنى فى ليبيا - طبقاً لنبوءة الكاهن الأكبر.(٧)

يمكننا أن نستخلص من ذلك أن اسم تيميحو كان ينطبق تماماً على الاسبرطيين فى ليبيا وعلى اللاكاديميين فى بلاد اليونان، وكان الملك (الزعيم) الذى دعاه الفرعون لمعاونته زعيماً أو ملكاً اسبرطياً، وكان وصفه بالشخص الصغير ينطبق على اجيسيلاوس.

آخر الفراعنة الوطنيين

يخبرنا زينوفون أن تاشوس الذى اضطر إلى محاربة الفرس «كان يملك قوات كبيرة من الرماة والفرسان والكثير من النقود» وأن اجيسيلاوس «كان مسروراً حينما وصلته الدعوة من ملك مصر يطلب فيها المساعدة، مع وعده بأن يتولى قيادة الجيش»، ومع ما أصاب اجيسيلاوس من غضب «حينما عجز من استنصره عن تنصيبه قائداً، شعر بأنه خدع خدعة كبيرة» إذ إن تاشوس أسند إليه بعض المهام الجزئية، وأبقى مسئولية الأسطول فى يد شابرياس الذى كان حضوره إلى مصر للمرة الثانية، فى حين احتفظ تاشوس لنفسه بالقيادة العليا. وكان تاشوس فى سوريا التى احتل جزءاً منها بعد موت ارتاكسركيس الثانى. ودبرت فى نفس الوقت مؤامرة قصد منها تنصيب ابن عمه على العرش. وأراد شابرياس أن يحتفظ بولائه للملك تاشوس وتداول مع اجيسيلاوس

فى الأمر. فلجأ هذا الزعيم الاسبرطى العجوز الذى كان مليئاً بالغضب بسبب تحديد سلطاته فى القيادة، إلى استفتاء قومه فى الوطن عما يمكن أن يفعله، ولكنه ذكر لهم أن الوقوف فى صف الثائر نيكتانابو الثانى ربما كان أفضل للمصالح الاغريقية. وفى هذا الصدد كتب زينوفون يقول: «وعند هذه النقطة خرج على طاعة الملك ذلك الجزء من القوات المصرية الذين كانوا يعملون مع الجيش الأسبرطى، وتبعهم خروج بقية القوات عليه.»

وفر الملك تاشوس من الجبهة الفلسطينية إلى صيدا فى بلاد فينيقيا ومنها اتجه إلى ملك الفرس يطلب منه العفو. «وانقسم المصريون قسمين، واختار كل قسم منهما ملكاً، وأدرك اجيسيلاوس آنذاك أنه لو لم يساعد أحد هذين الملكين فلن يحصل جيشه على رواتبهم» لذلك قرر أيا من المطالبين بالعرش الذى يظهر لليونانيين صداقة أكثر ليقف إلى جانبه.» وبتخليه عن تاشوس ومحاربته للمطالب الآخر بالعرش استطاع اجيسيلاوس أن ينصب نكتانابو الثانى ملكاً على مصر.

وفى ذلك نقرأ عند بلوتارخ أن صراعا قام بين المطالبين بالعرش الذى خلا بسقوط تاشوس والتمسوا المساعدة من اجيسيلاوس، فاعتقد الزعيم الأسبرطى أنه من غير المناسب أن يغير موقفه مرة أخرى، وفى إحدى الحملات وقف موقف المدافع عن نكتانابو الثانى أخر ملوك مصر الوطنيين.

من هذا التتابع فى الأحداث والذي عرفناه عن طريق المؤرخين اليونانيين عرفنا أن شخصية رمسيس الرابع الذى اغتصب عرش أبيه هو تاشوس وأن شخصية رمسيس السادس هو شخصية نيكتانابو الثانى عند اليونانيين، كما سبق أن تعرفنا على شخصية رمسيس الثالث على أنه هو نيكتانابو الأول. كان نيكتانابو الثانى ابنا للوريث الشرعى للملك نيكتانابو الأول كما عرفنا أن رمسيس الرابع كان هو إبنا للوريث الشرعى لرمسيس الثالث. وفشل والد نيكتانابو الثانى فى اعتلاء العرش بسبب ذلك المغتصب المدعو تاشوس - رمسيس الرابع وهو أخ غير شقيق.

أما المطالبان بالعرش اللذان حاولا اكتساب اجيسيلاوس لصفهما فربما كانا رمسيس السابع ورمسيس الثامن. واللذان لم يتول أى منهما الحكم

فعلاً سوى اغتصاب السلطة لفترات قصيرة فى أجزاء من البلاد مما لا يمكن احتسابها فترات حكم، ولا توجد أى كتابات أو نقوش عنهما.

بعد الحملة الفاشلة التى قادها فارنا بازوس، وانسحاب قواتهم من فلسطين استطاع نيكتانابو الأول (رمسيس الثالث) أن يحتل تلك البلاد التى خلت من أى حماية آنذاك، وحدث نفس الشىء، ففى تل من الكفور خلفه بعض القائمين بالحفائر فى مجدّو عثر على حامل أقلام لأحد رسل رمسيس الثالث، كما عثر أيضاً على جُعل أو خنفس.

وعثر أيضاً على جُعل لرمسيس الثالث فى ليشيس أو ليخيش، وعثر على تمثال صغير له فى بيت شان، الأمر الذى يؤكد أنه استولى بالفعل على فلسطين بعد انتصاره على «البيرست».

وكان الملك تاشوس (رمسيس الرابع) فى فلسطين حينما قامت ثورة نيكتانابو الثانى التى ساندها اجيسيلاوس مما دفعه إلى الفرار من صيدا، بل ومن البلاد كلها ليتجه إلى الملك الفارسى. وفيما بين الحملة الفاشلة الأولى التى قام بها ارتاكسركيس الثالث أو ارتاكسركيس أو خوس ضد مصر عام ٣٥٠ ق.م والحملة الثانية الناجحة التى جردها على فلسطين عام ٣٤٣ ق.م كانت فلسطين تحت سيطرة نيكتانابو الثانى (رمسيس الرابع). وعلى ذلك قد نتوقع وجود بعض علامات تدل على احتلاله لتلك البلاد. وفى واقع الأمر اكتشفت بعثة ماجدّو تمثالاً برونزياً لرمسيس الرابع عام ١٩٣٤، ومرة أخرى أمكن التوصل إلى بعض النتائج التى تتعلق بالتسلسل الطبقى التاريخى لمنطقة ماجدّو، فى أحد الهوامش التوضيحية التى أوردها بريستد نقلاً عن المكتشف المنقب لويد حيث يقول إن التمثال البرونزى قد عثر عليه تحت حائط من الطبقة ٧ ب بالحجرة رقم ١٨٣٢كما لو أنه دفن عمداً ولذلك كان مخفياً.»(١) ويصعب بهذا النوع من التقدير استخراج نتائج تاريخية صحيحة فإن طبقة الحفائر ٧ ب تمثل «عصر الأسرة التاسعة عشرة وأوائل الأسرة العشرين».

وسوف نتناول النتائج غير المرضية للحفائر التى تمت فى بيت شان ومجدّو وليخيش وغيرها من المواقع المقدسة، بصورة أكثر تفصيلاً فى جزء خاص يتناول الآثار المتعلقة بالكتاب المقدس، ويكفى أن نذكر هنا أن الحفائر التى تمت فى كل من بيت شان ومجدّو وليشيس قد كانت موضع

مناقشات حادة فى أوساط علماء الآثار تضمنت معارضات كثيرة بلغت درجة تبادل الشتائم. ونحن نرى أن ذلك يرجع إلى الخطأ فى جدول التزامن بين تاريخ فلسطين وتاريخ مصر. فإن العثور على أشياء يرجع تاريخها إلى رمسيس الثالث (نيكتانابو الأول) ورمسيس السادس (نيكتانابو الثانى) لا يمكن أن تسهم فى الغموض الذى وجدناه فى طبقات الآثار فى ماجدّو. ولعل ما يثير الدهشة فى حفائر ممفيس التى قامت بها بعثة متحف جامعة بنسلفانيا هو أن طبقات الأسرة الحادية والعشرين وجدت تحت طبقات العصر البطلمى مباشرة.

كوميديا من الأخطاء

على أساس الأدلة القوية التى أوردناها فى الصفحات السابقة، فإن حكاية الفرعون المدعو رمسيس الثالث فى سجل المصريات قد نزل عن عرشه الذى اعتلاه خطأ فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد وتحرك إلى مكانه الصحيح فى القرن الرابع. وأصبح هو الملك نيكتانابو الأول عند المؤرخين اليونانيين. ويأتى خلفاؤه على عرش مصر فى مكانهم فى نفس القرن، وذلك قبل قدوم الاسكندر الأكبر بقليل.

وبالنظر إلى أسماء وألقاب وصفات رمسيس الثالث نجد أن من بين أسمائه الإلهية المقدسة اسم نيكتانابو (كانخت ماو بيثى نخت-أنيب كيبيش سيتى).(١)

ولم يلتفت بادج الذى رتب قائمة الأسماء التى كان يستخدمها ملوك مصر القديمة إلى اسم نخت-آبيب حينما قرأه، حيث لم تكن لديه أية فكرة عن أن هذا هو مفتاح قضية التعرف على هوية الملك. ويبدو أن رمسيس الثالث هو الفرعون الوحيد الذى كان من بين أسمائه هذا الاسم المألوف عند الكتاب اليونانيين الذين كتبوا عن مصر فى القرن الرابع قبل الميلاد. ويوجد المقطع «نيب» أيضاً فى اسم الملك رمسيس السادس (نيب مارى-مارامون- رمسيس ايتامون- نوتحيكاون)، أما المقطع «نخت» (أو «نيكت» فى النصوص الأغريقية للأسماء) فهو جزء عادى من أسماء الأمراء ومعناها «العظيم» وهى جزء من نيبو التى تعنى المدهش.

لقد حددنا هوية رمسيس الثالث نخت-آنيب بأنه هو نفسه نيكتانابو عند المؤرخين اليونانيين في الصفحات السابقة على أساس أكثر إقناعاً من مجرد الاسم ولكننا بوصولنا إلى دليل آخر هو دليل الأسماء فإن ذلك أمر مقبول أيضاً.

بيد أنه لكي نصل إلى تأكيد وحدة شخصية رمسيس الثالث ونيكتانابو الأول فلابد لنا من أن نقوم بعملية تمحيص أخرى، هي بالذات أن نجرد شخصية نيكتانابو الأول من أي ارتباط بشخصية أخرى قد يزعم الكتاب المحدثون أنه هو الاسم الأغريقي لشخصية نيكتانابو. وبالبحث في الشخصيات المصرية التي تواجدت على المسرح في العصر الفارسي وخلفت آثاراً في مصر بمزاعم النسب أو المكانة الملكية نجد أن هناك اسمين محتملين يحملان جزءاً أو مقطعا من اسم نيكتانابو، وهناك في الحقيقة عدد من الآثار المرتبطة بهذه الأسماء مازالت موجودة منها نخت حورحِب ونخت نيبيف.(٢) ولقد اختير أولهما في القرن الماضي ليكون هو الشخصية المقابلة للملك نيكتانابو الأول الذي يذكره المؤرخون اليونانيون، والثاني ليكون نيكتانابو الثاني.

ولعل ما أدى إلى الخلط في هذه النسبة هو حقيقة أن أياً منهما لم يذكر في النقوش العديدة التي خلفوها أي شيء عن الحروب التي قام بها أي من هذين الملكين. فقد حارب نيكتانابو الأول ضد ارتاكسركيس الثاني وجيشه من المرتزقة في البر والبحر، وحارب نيكتانابو الأول ضد ارتاكسركيس الثالث قبل أن يصاب بالهزيمة في الحملة الأخيرة. ونظراً لأن نصوصهم المنقوشة كانت مليئة بالفخار فإن عدم وجود أية إشارة إلى أسرى الحرب كظاهرة تتوج النصر يعتبر لغزاً غامضاً. وفي ضوء تلك الكتابات الكثيرة التي خلفها هذان الملكان لا يمكننا أن نزعم بأن الصدفة المجردة هي التي أدت إلى أن المباني التي خصصت جدرانها لتسجيل أنباء الأعمال قد بقيت بينما اختفت كل المباني التي خصصت جدرانها لتسجيل أنباء الحروب. وعلى ذلك فإنه نتيجة لعدم توافر ما هو أفضل من ذلك فقد تمت عملية المقابلة سالفة الذكر. ثم حدث بعد ذلك في أوائل هذا القرن أن وجد عالم المصريات الألماني شبيجلبرج مبرراً لإعادة ترتيب تعريف الشخصيات وأصبح نخت نيبيف يعرف بأنه شخصية نيكتانابو الأول

بينما عرف نخت حورحِب الذى كان فيما قبل نيكتانابو الأول بأنه هو نيكتانابو الثانى الذى كان أقل حظاً بين الحكام.(٣) ومنذ أن نشر شبيجلبرج عمله هذا ومعظم علماء المصريات يتفقون معه فى بنائه التاريخى، وذلك رغم ظهور أصوات رافضة من وقت لآخر تدافع عن تعريفات الشخصيات السابقة.

ونظراً لأن شخصية نيكتانابو الأول منطبقة تماماً على شخصية رمسيس الثالث وشخصية نيكتانابو الثانى منطبقة تماماً على شخصية رمسيس السادس فإن الأمر يتطلب أن نتوصل إلى الحقيقة التاريخية لكل من نخت حورحب ونخت نيبيف التى سنبدأ تمحيصها الآن وقبل أن نقرر نهائياً وضع شخصيتى كل من رمسيس الثالث ورمسيس السادس فى مكانهما علينا أن نخلى لهما هذا المكان.

إن أى قارىء مدقق لهذا الجزء من الكتاب سوف يجد بسرعة الحل بالنسبة للملك نخت حورحب، فلقد وجدنا فى الصفحات السابقة أنه هو حاكم البلاد، وحارس أموالها إلى جانب كونه مديراً لأملاك آرساميس الذى كان مرزبانا فارسياً واسع النفوذ مقيماً فى بابل وكانت مصر تمثل جزءاً من مناطق نفوذه الشاسعة. ونجد أن ارساميس يستحث نخت حور فى خطاباته الحديثة أن يولى مزيداً من العناية لأملاكه الخاصة ويزيد من عدد رقيق الأرض فى أبعادياته ويعمل على زيادة حجمها بمختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة. وتدل هذه الخطابات الموجهة إلى نخت حور على عدم احترام للمساعد أو التابع الوطنى الذى يعرف باسم بيكيدا. غير أن شاغل هذه الوظيفة كان ذا سلطة كبيرة على أهل بلده بالإضافة إلى توافر الفرص له كى يحصل أموالاً طائلة لنفسه نظراً لأن كل الأموال كانت تمر عليه قبل أن ترسل إلى المرزبان المقيم فى بابليون. وقد أوردت فى الفصل الأول نصاً نموذجياً لخطاب موجه من المرزبان الفارسى إلى مدير أعماله أو تابعه (البيكيدا).

وربما يتساءل الناقد المدقق قائلاً: هل نخت حور هو نفسه نخت حورحب؟ تبدأ كل خطابات المرزبان بعبارة «من أرشام إلى نخت حور». وعلى افتراض أن الطريقة التى كان يكتب بها المرزبان خطاباته إلى عماله فى مصر كانت غير رسمية كما يتضح من اسقاطه للجزء الأخير من اسمه

فى مطلع الرسالة (وكان يسقط أيضاً جميع عبارات التحية حتى من خطاباته الموجهة إلى نبلاء الفرس الذين يزورون مصر كما سنذكر بعد) وبذلك يصبح من الأفضل أن نصل إلى ما يثبت أن نخت حور هو نفسه نخت حورحب، ولحسن الحظ يمكننا اثبات ذلك أيضاً.

فى مقال نشره الأب تريسون عام ١٩٣٣، استخدم خبرته فى صورتين من مجموعة مقتنياته الخاصة.(٤) إحداهما لتمثال رجل راكع على ركبتيه (رأسه مفقود) ويحمل فى ذراعه أيقونة صغيرة بها رأس ايزيس وكانت بقاعدة الشكل كتابات هيروغليفية تقول:

«... قربان إلى نيث الأم المقدسة... إلى روح الرب الكريم وريث عرش ملك الشمال (يلاحظ أن القربان مقدم إلى نيث) الأم المقدسة العظمى لأنها تقدم الطعام الجنائزى، وكل الأشياء الصحيحة... إلى روح الرب الكريم وريث العرش حامل ختم ملك الشمال السيد الأوحد، ومستشار الأبعاديات - حاكم المداخل البرية والبحرية المؤدية إلى مصر نخت حورحب ولد نيثن برموت.»

ويعلن نخت حورحب عن نفسه المزيد بقوله: «كنت حقيقة متميزاً فى أخلاقى وبديعاً فى شخصيتى، متحرراً من قيود الوظيفة. وكان قلبى دائماً سوياً وأفكارى تخلو من التفاهات، ولم يكن لدى ما أخفيه فى صدرى...»

وزعم نخت حورحب فى أحد النقوش المكتوبة أنه كان مخلصاً فى العمل لحامل الخاتم الملكى - وكان يقصد بذلك ارساميس الذى نعرفه، وكانت صلواته الموجهة لروح «الرب الكريم والأمير الشرعى» تدل على أن هذا الشخص هو الذى تولى الأمور عند موت ارساميس، وتشير أيقونة اوزوريس إله الموتى وذلك الدعاء من أجل طعام الأموات إلى نفس الشخص. ونظراً لأن ارساميس ظل فى الحكم نحو نصف قرن، فقد ذكر اسمه لآخر مرة فى رسالة بردية من رسائل فيلة عام ٤٠٧ ق.م، ولابد أنه مات بعد ذلك مباشرة أو قبل ذلك التاريخ بقليل وربما مات فى بابل أو ربما فى برسوبوليس (مدينة الفرس) لأن رسالة فيلة هذه تشير إلى أنه فى عام ٤١٠ ق.م زار الملك دارا الثانى (نوتوس) الذى توفى عام ٤٠٤ ق.م.

أما ذكر ملك الشمال فى الكتابات المنقوشة على التمثال فلا شك أنها

تعنى أحد ملوك الفرس من الأسرة السابعة والعشرين، بيد أن مانيثو لا يذكر أسماءهم. ويتبين من الآثار الفرعونية أن الملوك الفرس المعروفين بالإسم هم قمبيز ودارا المعظم، أما بالنسبة للملوك الفرس الذين أتوا بعد ذلك فإن النقوش المصرية كانت تفضل أن تذكرهم بألقاب مثل ملك الشمال دون ذكر أسمائهم. ولم يزر مصر من ملوك الفرس سوى قمبيز ودارا. ومن الناحية الدينية كان لابد للملك؛ لكى يصبح متوجاً شرعياً وحاملاً لتاج الوجهين المزدوج، أن يمر بمراسم تجرى فى معابد الشمال ومعابد الجنوب. ونظراً لعدم زيارة أى من ملوك الفرس لمصر بعد الملك دارا فلم يستطع أى منهم أن يحصل على لقب العرش المصرى.

ويفترض أن الوالى أو الوكيل الحاكم كان يحتوى ذلك الموقف الصعب، ويسأل الأم المقدسة أن تجعل «ابن رع» أحميس «يحتفل بعيده الثلاثين على عرش حورس».

أدى وجود «ابن رع» أحميس المذكور فى هذه الفقرة إلى أن يعتقد الأب تريسون أن الملك أحميس هو الملك قبل الأخير فى الأسرة السادسة والعشرين (مات قبل غزو قمبيز لمصر بأشهر قليلة). ولوضع التمثال المذكور فى عصر أمازيس كان على الأب تريسون أن يفترض وجود ملك آخر غير الملك حورحب المفروض أنه نيكتانابو الثانى الذى يرجع إلى القرن الرابع، كان يحمل نفس الإسم منذ مائتى عام فى عصر الملك أمازيس. ويؤدى هذا التفسير عن ذكر أحميس على هذه الصورة، لابد إلى التعارض مع الإشارة إلى ملك الشمال فى نفس النص المنقوش، فلا يمكن للشخص الذى يتضرع فى عهد الملك امازيس أن يتضرع إلى ملك الشمال.

إن وجود اسم أحميس (امازيس) محاطاً بشكل بيضاوى (طرة) قد يكون إشارة إلى شخص آخر، وليس ملك الشمال، ويمكننا أن نرجع هذا الشخص إلى أيام الفرس فى القرن الخامس. «كان القائد الذى يتولى جمع التبرعات أو الهبات لتحنيط جثة العجل أبيس يحمل نفس اسم الملك امازيس مكتوباً فى داخل طرة بيضاوية، وإن كان العمود الذى يوجد به هذا النقش تشير نقوشه إلى عصر الغزو أو الإحتلال الفارسى».(٥) وربما كان يشار إلى هذا الرجل الذى كان قائداً عسكريا يحكم مصر على أنه هو نخت حورحب فى النص المحفور فى التمثال الراكع فى تلك الأيقونة إذا لم

تكن الإشارة إلى اسم ملك الشمال نفسه.

علمنا من هذا التمثال الذى يحمل الكلام أن نخت حورحب، إلى جانب واجباته كوكيل للملك الراحل، وإلى جانب وظائفه الأخرى كان كذلك مسئولاً عن جمع رسوم الاستيراد وتدل على ذلك العبارة (حاكم مداخل مصر بالبر والبحر). وفى الواقع أن نخت نيبيف الذى سنتناوله بالدراسة بعد قد أقام نصباً فى ميناء مدينة نوكريتس تدفع عنده رسوم الواردات.

وبالإضافة إلى ذلك علمنا أن اسم والدة نخت حورحب هو «نيس ان برموت». ولئن لم يسبق ترجمة أو نشر النصوص التفصيلية الموجودة على تابوت الملك نخت حورحب إلا أنه يجب قراءتها لأنها ربما تضمنت أيضاً اسم والدته. غير أن الدليل المتعلق بهوية نخت حورحب نائب المرزبان أو الحاكم الفارسى، موجود بين أيدينا فى مجموعة خطابات ارساميس وفى النص الموجود على الأيقونة التى بها التمثال.

وهكذا يتحدد عصر نخت حورحب، فى الفترة الأخيرة من حياة ارساميس وكان شاغلاً منصبه حينما مات ارساميس عام ٤٠٧ ق.م أو بعد ذلك بقليل.

ولكى نثبت أن نخت نيبيف عاش وعمل فى فترة أسبق ولكنه فى نفس عصر المرزبان ارساميس لابد أن نتعرض لذكر شخصية بسماتيك.

رأينا فى أحد الخطابات التى أشرنا إليها من ارساميس إلى نخت حور أن ابسامشيك مذكور على أنه رجل ذو حيثيات تجعله يخاطب الملك مباشرة. وفى خطاب سابق على ذلك مرسل إلى الأمير الفارسى ارتاوانت الذى كان متواجداً فى مصر آنذاك كتب ارساميس يقول:

أبعث إليك بتحياتى البالغة وسلامى وإحترامى والآن فيما يتعلق بالمنحة التى قدمها الملك وتلك التى قدمتها أنا إلى خادمنا آح حابى الذى كان يعمل فى ممتلكاتنا فى الصعيد والوجه البحرى- فإن بسماتيك ابن آح حابى قد أصبح الآن وكيلاً لنا (باكيدا) مكان أبيه فى ممتلكاتنا بمصر العليا والسفلى كما طلب منى.

والآن فيما يتعلق بهذه المنحة التى منحها الملك وأنا على آح حابى سيسمح لابنه بأن يحصل على ذلك الشرف فى مصر.

نحن الآن بصدد حل واحد من أكثر الأمور تعقيداً فى معرض التاريخ المصرى أو لو سمح لى العلماء باستخدام لغة أخرى، نحن أمام موقف نفهم فيه شخصاً ممن لعبوا دوراً، يشبه إلى حد ما، وإن كان أقل بكثير، من أدوار الملوك الأواخر فى هذه المسألة التى ناقشناها الآن، ولكنه ربما كان يمثل شخصية أحد ملوك مصر العظماء. ولعل أول ما يظهر مما ناقشناه هنا قد يغطى على المسألة التى نبحث عن حلها هنا، وهى لا تخرج عن المكان التاريخى للملك نخت نيبيف (الذى لم يعد هو نيكتانابو الأول) كما كنا نتناوله فى أول الأمر رغم أننا سوف نحدد زمنه فقط عن طريق علاقته مع ابسامشيك.

عثر على بعض قطع من أعمدة الحواجز المصنوعة من البازلت تشبه مخلفات نخت نيبيف وبسماتيك، وعلمنا من وصفها أن بسماتيك ونخت نيبيف كانا متعاصرين، وأنه نظراً لأن ابسامشيك قد سبق نخت حورحب فى منصبه فلابد أن نخت نيبيف كان موظفاً آخر يعمل فى خدمة أرساميس. ولقد ذكرت آنفاً إقامته بالعمل بناء على مرسوم يتعلق بالواجبات الهامة عثر عليه فى نواكراتيس المستعمرة التجارية التى أنشأها اليونانيون فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.

لقد كان لكل من نخت نيبيف ونخت حورحب الفضل فى إثراء الملك الفارسى وارساميس المرزبان، ونفسيهما قبل الجميع. ومن وصفهما لنفسيهما عرفنا أن كلا منهما كان يظهر التودد لطبقة الكهنة، ويغدق على المعابد، ويقدم منحا من الأراضى والعبيد.(٦) وكتبا هما وبسماتيك أسماءهم فى داخل طرة وبذلك يظهرون وكأنهم يحملون ألقاباً ملكية. ولم يكن الملك الفارسى المعظم ليعبأ بذلك لأنه كان ملك الملوك.

عثر فى أحد القصور الخاصة بالاسكندرية على تابوت نخت نيبيف المنحوت نحتاً دقيقاً ظل يستعمل زمناً طويلاً كمغطس فى حمام ذلك القصر، وهو الآن معروض فى المتحف المصرى بالقاهرة.

أما تابوت نخت حورحب فقد مر بمغامرات عديدة حتى استقر أمره فى المتحف البريطانى. فقد استخدم مرة كوعاء للتعميد فى كنيسة سانت أنستاسيوس التى تحولت فيما بعد إلى مسجد، وعرض فى أحد الاكشاك على أنه تابوت الاسكندر.

ومما يستحق الذكر هنا أن تابوت رمسيس الثالث المحفوظ الآن بمتحف اللوفر مصنوع بنفس طراز تابوت نخت حورحب. ويأتى التشابه فى كثير من الخواص ومنها الشكل شبه البيضاوى فى أحد طرفيه. ولا عجب فإن صاحبى التابوتين لم يفصل بينهما سوى جيل واحد وليس قرونا متعددة.

يظهر الخلط الكبير فى التاريخ التقليدى لمصر من خلال أشياء كثيرة فى كل العصور ابتداء من عصر الدولة الوسطى. ولكن من أكثر نقاط الخلاف والخلط هو تاريخ الأسرة الحادية والعشرين، ولا يرجع ذلك إلى أنها موضوعة قبل زمانها الحقيقى بستة أو ثمانية قرون فحسب بل لأن هناك بعض شخصياتها قد نسبت إلى شخصيات ترجع إلى عصور أسبق.

فالملك بسماتيك المصرى الذى يعتبر من الشخصيات البارزة فى التاريخ المصرى والذى ذكره هيرودوتس وغيره من المؤرخين اليونانيين، نجد أن المؤرخين المحدثين يضعونه فى القرن السابع قبل الميلاد ويجدون له مكاناً فى بداية الأسرة السادسة والعشرين المانيثونية. أما فى البنيان الجديد للتاريخ فهو سيتى بتاح مات الذى ينتمى إلى الأسرة التاسعة عشرة، وهو موضوع دراسة تفصيلية فى الجزء الذى تناولنا فيه تاريخ الغزو الأشورى، أما مواصلة مناقشة تحديد هوية ملوك الأسرة التاسعة عشرة والأسرة السادسة والعشرين فإنه موضوع نتناوله فى الجزء الخاص بعصر سيطرة الكلدانيين. لذلك فلن تشغلنا هذه النقطة كثيراً هنا، ويكفى أن نقول إن حكاية الأسرة التاسعة عشرة قد كتبت على أساس الآثار المصرية، وأن نفس القصة للأسرة السادسة والعشرين كتبت مما وجد عند الكتاب اليونانيين من أدلة وبراهين.

إن سيتى بتاح مات المتواجد فى الآثار هو نفسه بسماتيك الذى ذكره هيرودوتس فى روايته، ولكن المؤرخين المحدثين ينظرون إلى بسماتيك كشخص منفصل تماماً عن سيتى المتواجد فى الآثار وعثر على مخلفات تحمل إسمه الذى ينطق بسماتيك، ومع ذلك فمما يثير الدهشة أنه من بين تلك المخلفات الكثيرة لم يعثر على شىء يذكرنا بالقصة التى رواها هيرودوتس وغيره من المؤرخين اليونانيين القدماء. لماذا أحجم بسماتيك عن ذكر أعماله السلمية والحربية العظيمة: كيف نجح فى التغلب على

الحكام المحليين الآخرين فى مصر وكان عددهم أحد عشر، كيف عاد من فلسطين التى فر إليها أمام الاثيوبيين، وكيف تلقى العون من الكاريين والايونيين الذين وصلوا من البحر، وكيف بنى معسكراً حربياً لهم، وكان من أوائل الفراعنة الذين سمحوا لليونانيين بالإقامة فى مصر، وكيف كان يطعم مصر من الجزية التى كان يحصلها من الأشوريين، وكيف أقام حلفاً مع أشور بانيبال وكيف شن الحرب على سوريا. لم يعثر على شىء من هذا فى المخلفات التى تحمل اسم بسماتيك ومنقوشة بالهيروغليفية.

واللغز الأخر فى اسم بسماتيك بالذات كما هو مكتوب بالحروف الهيروغليفية هو أنه يبدو غريباً بين الأسماء الملكية. قال جاردنر متأملاً هذا الاسم: «إن الاسم فى كل مظاهره اسم مصرى يعنى «بائع الليمون».(٧)

لكن الفرعون لم يكن ليحمل اسم «بائع الليمون». إن لقب بتاح ولقب مات المضافة إلى اسم الفرعون سيتى تمثل أسماء معبودات مصرية، وهذا ما يمكن أن نتوقعه عادة فى الالقاب الملكية. ولكن بائع الليمون - لو صح تشكيل هذا المعنى من اللغة المصرية، تدلنا على أنه لفظ أجنبى. ونظراً لأن الكتاب اليونانيين قد ذكروا إلى جانب الشخصية المعروفة باسم بسماتيك عدداً آخر من الحكام يحملون هذا الإسم الذى يعنى «بائع الليمون» فإن ذلك يدل على شيوع الاسم وأنه قد أصبح من الألقاب الملكية المفضلة مثل قيصر فى العصر الرومانى.

إن الوضع الحقيقى يختلف تماماً،. فالآثار التى تحمل اسم ابسماشيك بالهيروغليفية ربما كتبت لتشير إلى ابسماشيك المتولى إدارة مصر تحت إمرة المرزبان ارساميس، وهذا ما جعلنا نتناول الشخص ومركزه أو منصبه. فمن الخطابات المكتوبة على رقائق الجلد الواردة من الحاكم ارساميس فى بابليون إلى تابعه فى مصر علمنا أن بسماتيك كان حاكماً لمصر العليا والسفلى قبل نخت حور.

يحتاج الأمر لأن نرجع بسماتيك إلى الوراء إلى زمنه الحقيقى فى منتصف القرن الخامس، فإن إسمه الذى ينتهى بالمقطع «يك» له جرس فارسى، كما قال لى مارثين ديكسون الاستاذ فى جامعة برنستون. ويمكننا أن نكتشف عصره أيضاً من المراجع اليونانية. وفيها يذكر أن الملك بسماتيك أرسل قوارب مليئة بالقمح إلى سكان أثينا فى عام ٤٤٥ ق.م.

وهناك زعم بأن هذه الإشارة مقصود بها ملك من القرن الخامس يحمل اسم الملك ابسامتيش الذى يرجع إلى القرن السابع، ولا يعرف أى شىء عنه خلاف ذلك. وهذا غير حقيقى فإن الملك بسماتيك ليس إلا بسماتيك الذى حكم تحت إمرة ارساميس، ومن المؤكد أن بسماتيك لم يكن ليرسل أى حبوب إلى أثينا دون علم ارساميس أو توجيه منه، فلابد .ن يكون ذلك فى الوقت الذى كانت المصالح الفارسية تقتضى تقديم المساعدة إلى أثينا.

أما عن الثائر ايناروس الذى هب ضد السيطرة الفارسية على مصر ابتداء من ٤٦٣ ق.م واستمرت ثورته حتى عام ٤٤٥ ق.م فقد ساعده الاثينيون وأسطولهم.

ونجح الاثينيون فى الاستيلاء على قلعة ممفيس ثم تقدموا إلى بروسوبيتوس حيث طال الحصار الذى استطاع الفرس أثناءه أن يحولوا المياه من القناة. وانتهت الحرب بمعاهدة سلام عقدت سنة ٤٤٨ ق.م بين الفرس تحت إمرة ارتاكسركيس وأثينا، وبمقتضاها ترك الاثينيون قبرص ومصر للفرس، وتعهدت فارس بألا تعتدى على اليونانيين فى ساحل آسيا الصغرى. ونتيجة لاتباع سياسة عدم التدخل هذه، وكذلك نتيجة لتحسن العلاقات بين الفرس والاثينين ساد السلام بين الدول اليونانية منذ عام ٤٤٦ ق.م وخاصة أتيكا (أثينا) وبويتيا (طيبة) ولاكادايمونيا (اسبرطة) وغيرها، وعرفت هذه السنوات فيما بعد باسم سنوات السلام الثلاثين. وأصبح لارتاكسركيس الأول سيطرة كاملة على مصر وأعطاها كولاية من ولايات المرزبان ارساميس الذى ظل مقيماً فى بابل (وهى العاصمة الثالثة للإمبراطورية الفارسية بعد كل من برسوبوليس وسوسا). وأشار آح حابى فى خطابه الذى سبقت الإشارة إليه إلى أنه منذ ذلك التاريخ كان سفراؤه موجودين منذ تاريخ معين، وبعد موت آح حابى عين ابنه ابسامشيك بدلاً منه. وبإعادة بناء هذا الترتيب التاريخى نكون قد حددنا تاريخين، أولهما ارسال بسماتيك القمح إلى أثينا عام ٤٤٥ ق.م، وقيام نخت حورحب خليفته فى خدمة ارساميس ينعى سيده عام ٤٠٧ ق.م أو نحو ذلك.

بهذين التاريخين سوف يكون بالإمكان التمييز الواضح بين عدد أكثر من المسائل، فهناك العديد من الشخصيات التاريخية الأخرى التى فقدت

مكانها التاريخى قد نقلت أوضاعها عبر حدود القرون. ولعل اختلال الوضع بالنسبة للتسلسل التاريخى المأخوذ به سوف يتيح للقارىء أن يحكم بنفسه، من خلال قراءة ما كتبه سميث W.S. Smith وهو أحد الخبراء فى التاريخ والفنون المصرية فيما يتعلق بالنقوش على أعمدة الدرج التى تحكى عن نخت نيبيف أو بسماتيك.

عثر على نقوش غريبة تحكى عن الملكين بسماتيك الأول ونيكتانابو الأول [نخت نيبيف] فى المخلفات الملكية، تدلنا على أن الذوق السائد فى ذكر صفات أى شخص لم يختف فى الفترة من أوائل عصر الأسرة السادسة والعشرين والعصر البطلمى. وتظهر تلك الصفات على الأعمدة البازلتية التى يبلغ ارتفاعها نحو أربعة أقدام، ويبدو أنها كانت تكون درابزين لدرج فى فترة معينة. ويصعب علينا أن نصل إلى الشكل الأصلى لهذه الآثار أو أن ندلل على أن الجزء الأكبر منها قد ترك دون أن تنقش عليه أى كتابة لمدى مائتى عام حتى تولى نيكتانابو القيام بالعمل عليه مرة أخرى. إذ نجد أن نفس نسق النقش منفذ فى مجموعتين من أعمدة الدرج منقوشة من الجانبين، فى أحدهما اشكال أفراد راكعين على مسافة من الملك يقدمون الهدايا المتنوعة مع وجود أفريز على شكل مجنح فوقها، ويوجد على الجانب الآخر للأعمدة شكل منفرد للملك فوق الخلفية السوداء، وهناك أيضاً افريز علوى مزخرف.»

لعل القارىء يلاحظ أن كلاً من شخصيتى بسماتيك ونخت نيبيف قد عرفت هويتهما بصورة خاطئة، فأحدهما حددت شخصيته بفرعون يرجع إلى القرن السابع ق.م والآخر بشخصية فرعون فى القرن الرابع (ق.م)، فى حين لم يكن الفاصل بينهما أكثر من مائتى عام (وفى الواقع أقرب إلى ثلاثمائة عام) وكلاهما يرجع إلى القرن الخامس(ق.م).

كان النقش الخاص بالملك نخت نيبيف نحتاً غائراً بنفس عمق النحت الخاص بالملك بسماتيك، مما يدل على أنهما كانا متعاصرين وبذلك كان كلاهما يعمل فى خدمة ارساميس، ربما كان أحدهما هو الحاكم، والآخر هو الجابى، أو أن أحدهما كان يحكم فى الشمال والآخرفى الجنوب، أو أن ارساميس قسم العمل بينهما بطريقة ما.

الترحيل لمدى ثمانمائة عام

فى الفصل المعنون «ضخامة المشكلة» وقفنا عاجزين أمام الفكرة القائلة بإمكان وقوع خطأ يصل إلى ثمانمائة عام فى التاريخ المقبول للأسرة العشرين وأرهبتنا الاضطرابات والخلط الكثير الذى قد يؤدى إليه الفحص الدقيق للوضع. وأدهشتنا سلسلة من الحقائق المتناقضة التى تشير كل منها إلى ضرورة إرجاع تاريخ رمسيس الثالث إلى عصر أحدث، وبالتالى تغيير تاريخ الأسرة كلها لهذا المدى الزمنى الطويل، ومن بين تلك الحقائق المذهلة وجود الأساليب الفنية وطرق الطلاء الفارسية، والحروف اليونانية القديمة التى ترجع إلى عصر أفلاطون والموجودة على ظهر البلاطات التى عثر عليها فى قصر رمسيس الثالث عند تل اليهودية قرب الجبانة التى كشف أحد أعضاء فريق التنقيب على الآثار نسبتها إلى الأسرة العشرين وبالتالى إرجاعها إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد.والتى يرجعها عضو آخر من أعضاء الفريق إلى القرن الرابع قبل الميلاد على أكثر تقدير. ويعتبر هذا المرجع وثيقة رسمية سجلها رمسيس الثالث أو سجلها باسمه إبنه رمسيس الرابع حتى بسط أرسا الآرامى سيطرته على مصر التى لم تكن لها آنذاك ملك وكانت تدفع الجزية له منذ جيلين سابقين، وقد أبدى ذلك الآرامى عدم احترام لآلهة البلاد وهو موقف غريب بالنسبة للنص التاريخى التقليدى الذى لا يذكر فيه أى شىء عن مثل هذا الحدث بل وليست هناك أى دلائل على وقوعه خلال حكم الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين حينما كان المفروض أن تبلغ مصر أوج مجدها الإمبراطورى.

ولكى نثبت صحة وأصالة ذلك من عدمه قمنا بمقارنة حوليات رمسيس الثالث التى يصف فيها حربه ضد الشعب الذى يسمى بيرست الذى يمتاز ببراعته فى الحرب، وحلفائهم من شعوب البحر، مع الوصف الذى وجدناه فى تاريخ ديودور الصقلى عن الحرب التى شنها نيكتانابو الأول، وهو فرعون مصر فى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد. وبينا كيف أن هوية شعب بيرست يمكن أن نثبتها بمقارنة خصائص خوذاتهم بخصائص خوذات حرس الملك دارا الموجودة على التماثيل

الموجودة فى المدينة الفارسية (برسوبوليس)، وكذلك وثقنا ذلك بحقيقة أن اسم بيرست كان يستخدم فى مصر للإشارة إلى الفرس حتى صياغة المرسوم الكانوبى فى ظل الحكم البطلمى. أما عن شعوب الجزائر أو الجزر فإنهم لم يكونوا يشبهون المسينيين اليونانيين لا فى اسلحتهم ولا فى دروعهم ولا فى حلق أذقانهم، فقد كان اليونانيون معروفين أيضاً للأنبياء العبرانيين الأواخر على أنهم «شعوب الجزائر».

وكان احتلال جزء من الموقع الحصين عند مصب الفرع المنديسى للنيل بمعرفة قوات غازية، وقيام الفرعون بهجوم مضاد وتقتيل الكثير من هؤلاء الغزاة المغتصبين ثم استنزافهم بالحصار الطويل، وحدث الخلاف بين قادة هذه القوات الغازية، ثم تراجعهم دون أى محاولة أخرى للتوغل فى البلاد، وكان هروب زعيمهم الذى كان يرسم الاستراتيجية، وغير ذلك من تفاصيل جاءت كلها فى أوصاف رمسيس الثالث وما كتبه ديودور الصقلى.

أما الأحداث التى سبقت الحرب، والصراعات الداخلية التى كانت تعانى منها شعوب البحر، والمساعدة العسكرية التى قدمها البيرست للفرعون فى أوائل فترة حكمه، وحشود الجنود من أبناء شعوب البحر واستعراضاتهم وهم فى خدمة الفرعون، ومشاركتهم مع القوات المصرية فى شن الحرب ضد البيرست، وأخيراً قتال الجنود المصريين وسفنهم الحربية ضد القوات المتحالفة من البيرست وشعوب البحر... كل ذلك نجده مصوراً بوضوح فى الحفر الغائر الذى خلفه رمسيس الثالث وكذلك نجد وصفه الدقيق عند ديودور الذى يروى لنا تفاصيل عن عام ٣٣٧ ق.م حينما ثار الفرعون ضد السيطرة الفارسية ودعا أمير البحر الأثينى تشابرياس وجنده المرتزقة لخدمته، فساعدوه على طرد الفرس من الأرض، ولكن الأثينيين استدعوا تشابرياس وجنوده وأرسلوا ابيقراط لمساعدة الفرس فى حربهم ضد المصريين. مثل هذه الأحداث بتفاصيلها موجودة فى نقوش رمسيس الثالث وعند ديودور الصقلى فنجد أن هناك معسكراً ضخماً جمع البيرست جنوده فى فلسطين تمهيداً للهجوم على مصر بالبر وبأسطول من سفن كثيرة بالبحر، ومعهم شعوب البحر يعملون كمرتزقة ونجد أيضاً فى كل من رسوم رمسيس الثالث وأوصاف ديودور التحصينات البرية التى أقامها الفرعون عند مدينة زاهى، وحدسه

الصحيح عن أن العدو ربما يحاول التوغل عن طريق مصبات فروع النيل، وتقوية هذه المواقع بالسفن المسلحة والأسوار والجسور والقلاع، ووقوع معركة فاصلة عند مصب النيل استخدمت فيها تلك القلاع الساحلية فى الرماية، كما استخدمت السفن قاذفة اللهب.إن الروايات الواردة عند رمسيس الثالث وديودور ليست روايات عن حربين مختلفتين يفصل بينهما ثمانمائة عام بل إنها جميعاً لحرب واحدة أو لنفس تلك الحرب ذاتها.

كذلك نلاحظ أن الاصلاحات التى أدخلها ابيقراط على نظام التسليح والتى عرفنا خبرها من المؤرخين اليونانيين نجدها أيضاً مصورة فى نقوش رمسيس الغائرة، فالسيوف قد أطيلت لضعف طولها، ونجد رمسيس يشير فى نقوشه إلى سيوف طولها نحو خمسة أذرع، هى ضعف السيوف المعتاده فى الطول قد استخدمها الجيش، كما أن الدروع مستطيلة الشكل التى كان يحملها جنود تشابرياس والتى حلت محل الدروع المستديرة نجدها جميعاً مصورة فى نقوش رمسيس الثالث الغائرة.

ويعتبر استخدام السفن قاذفة اللهب مؤكداً لأن الأحداث قد وقعت فى القرن الرابع كما تشير إلى ذلك حملة ماريانو على الحدود المصرية.

إذا لم يكن كل ذلك كافياً، ولم يكن مقنعاً للعلماء بكل المستويات، لكى يحدد الأحداث وهوية الأفراد فى موقع من التاريخ المتعارف عليه قبل موعدها بثمانمائة عام، إذاً فلنتذكر ملاحظات الثقاة من أهل الفن الذين تعرفوا على خواص مناظر الصيد عند الأشوريين والفرس، والتى تبدو فى الرسوم التى أبدعها فنانو رمسيس الثالث، ووجد أنها تشبه تماماً رسوم المناظر التى ترجع إلى العصر البطلمى، وكذلك اللغة الدينية التى كانت مستخدمة فى عهد رمسيس الثالث وكانت متأثرة باللغات السامية، فضلاً عن الفنون الدينية التى نتبين فيها المؤثرات الإيرانية واضحة.

ولقد وجدت رسوم مماثلة خلفها ملوك الجيل التالى وهى آثار كل من تيشوس (رمسيس الرابع) ونيكتانابو الثانى (رمسيس السادس). كما أن وصول اجيسيلاوس بقواته، وصورة هذا المقاتل الأسبارطى العجوز بقامته القصيرة وجسمه الضئيل قد جاء وصفها فى برديات رمسيس الرابع وفى كتابات المؤلفين اليونانيين. أما نخت نيبيف ونخت حورحب اللذان

يعتبرهما المؤرخون اليونانيون آخر الملوك المصريين الوطنيين ويسمونهما نيكتانابو الأول والثانى فقد كانا واليين تحت إمرة المرزبان الفارسى، ولم يكونا ملكين.

وقد يدهش القارىء حينما يتساءل: كيف يمكن أن تحدث مثل تلك الأخطاء الكبيرة فى كتابة التاريخ؟ من هو أول من وقع فى الخطأ ووضع رمسيس الثالث فى تلك الأسرة التى يطلق عليها الأسرة العشرون ويرجعها إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد؟ لقد وضع رمسيس الثالث وعصره حيث وجدا فى كتب التاريخ قبل أن تفك رموز الهيروغليفية بقرون، فقد حلت رموز الهيروغليفية فى الربع الأول من القرن التاسع عشر. وسوف نتناول هذه القضية ونبحث الأسس التى بنى عليها وضع مسلسل التاريخ المصرى القديم.

هوامش الفصل الخامس

الرعامسة الأواخر

1- G. Maspero, The Struggle of the Nations, p. 483.

٢- بردية تورين القضائية "The Judicial Papyrus of Turin", فى كتاب
Breasted, Ancient Records of Egypt, IV Secs. 416-56.

«الشخص الصغير» مؤيداً للفرعون

1- Xenophon, Agesilaus, trans. E.C. Marchant (Loeb Classical Library).

2- Cornelius Nepos, Agesilaus, trans Watson.

3- Plutarch, Lives, Agesilaus, trans. B. Perrin (Loeb Classical Library)

4- J. A. Wilson, "The Libyans and the End of Egyptian Empire," American Journal of Semitic Languages January 1935.

٥- لو أن هذا النص يخص رمسيس الثالث (نيكتانابو الأول) وأعماله، وليس خاصا بابنه رمسيس الرابع (تاشوس) لأمكن القول بصحة نظريتنا بأن الشخص الصغير هو أجسيلاوس فقط إذا كان هذا المحارب لم يحضر إلى مصر فى عهد تاشوس (رمسيس الرابع) فحسب بل أيضا قبل ذلك بخمسة عشر عاما فى أيام أبيه و هناك وقائع تدعم هذا الرأى: فالمعروف أن أيودوكسوس قارئ النجوم الذى اشتهر وهو فى الثالثة والعشرين من عمره حمل خطاب تعريف من اجيسيلاوس إلى نيكتانابو، ويبدو أن

اجيسلاوس لا يعرف نيكتانابو معرفة شخصية، وتدلنا الحسابات بأن أيودوكسوس ذهب إلى نيكتانابو عام ٣٦٧ أو ٣٦٦ ق.م (أنظر موضوع Giorgio di Santillana, "Eudoxus and Plato: A Study in Chronology" فى كتاب Reflections on Men and Ideas, (Cambridge, Mass, 1968) P. 228 هذه الحقيقة تسمح لنا بأن نشير إلى الكتابات المحفورة على جدران معبد مدينة هابو عن أيام رمسيس الثالث (نيكتانابو) والتى تشير أيضا إلى اجيسلاوس على أنه الشخص الصغير. ونحن نعلم أن الأميرال الاثينى تشابرياس جاء إلى مصر مرتين أيضا للمشاركة فى بعض الأعمال العسكرية أولاهما لخدمة نيكتانابو والثانية فى عصر تاشوس.

٦- أحمد فخرى: واحة سيوة، القاهرة ١٩٤٤ ص ٢٣

7- Plutarch, Lives, Lysander 20, 25.

آخر الفراعنة الوطنيين

1- J. H. Breasted in G. Loud Magiddo II (1948), p. 135.

كوميديا الأخطاء

1- E. A. Wallis Budge, The Book of the Kings of Egypt (London 1908) Vol. II, p.1

2- F. K. Kienitz, Die Politische Geschichte Ägyptens vom 7 bis zum 4 Jahrhundert vor der Zeitwende (Berlin 1953).

3- W. Spiegelberg, Die Sogenannte Demotische Chronik des Papyrus 215 der Bibliothek Nationale zu Paris (Leipzig 1914).

4- Paul Tresson "Sur deux monuments égyptiens inédits" Kêmi, IV (1931, published 1933).

5- A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 366 G. Posener, La premiére domination perse en Egypte (Cairo, 1936), pp. 41 ff.

٦- أنظر كتاب Kienitz السابق الاشارة إليه Kienitz, op. cit

7- Egypt of the Pharaohs p. 352.



الباب الثانى

الفصل الأول

عصر الملوك الكهنة

***

سنقوم فى هذا الباب الثانى بإعادة بناء تاريخ الأسرة الملكية التى تسمى خطأ بالأسرة الحادية والعشرين، وهى فترة غنية بوثائق معظمها قانونية أو كهنوتية، والنادر منها ما يتضمن معلومات تاريخية، ولقد بذلت جهود كثيرة لوضع تتابع زمنى للأمراء الكهنة والوصول إلى معنى لأنشطتهم السياسية. وفى هذا الصدد يذكر شيرناى فى الطبعة الجديدة من تاريخ كمبريدج عن العصور القديمة(١): «مازالت الأسرة الحادية والعشرون فترة غامضة من التاريخ المصرى». ولا عجب فى ذلك لأن هذه الفترة قد نقلت من موقعها الزمنى الصحيح فى التاريخ لعدة قرون مما أدى إلى الجنوح عن جادة الصواب فى الكشف عن العلاقات التاريخية التى كانت قائمة مع العالم الخارجى فى تلك الفترة، أو التعرف على العلاقات السياسية القائمة فى داخل البلاد. فمن المسلم به هنا أنه بدون الجهد المضنى لم يكن باستطاعتنا أن نحقق أية نتائج، وكان هذا الجهد هو السبب الذى جعلنى أؤخر نشر هذا الجزء من الكتاب.

وسوف يدرك القارىء فى معرض قراءته أن عصر هذه الأسرة التى نتناولها هنا كان قبل عصر الأسرة العشرين (مثله فى ذلك مثل الأسرة التاسعة والعشرين والأسرة الثلاثين)، وأن عصرها أيضاً يسير مع عصر الأسرة العشرين وأنه سبق بالفعل عصر الإسكندر بعدة أجيال.

وإذا كان الأمر كذلك، فقد بدا لنا أنه من الأفضل ألا نتناول هاتين الأسرتين على أنهما متعاصرتين أو متزامنتين بل بالأحرى أن نتناول الأسرة العشرين ثم الحادية والعشرين. ويعنى هذا إلى حد بعيد أن نمر

على نفس الفترة الزمنية مرتين وبخاصة حينما نتناول بالدراسة تتابع الحكم الفارسى.

ألف عام وهمية

تحتل الأسرة الحادية والعشرون فى مصر، فى الجدول الزمنى المصطلح عليه القرن الحادى عشر والنصف الأول من القرن العاشر أى الفترة من ١١٠٠ ق م إلى ٩٤٥ ق م. وهى تقابل فى تاريخ إسرائيل عصر القضاة المتأخر وعصر الملوك شاؤل وداود وسليمان. وتعتبر هذه الفترة هى أعظم فترات الأمجاد الإسرائيلية، ونجدها تحتل عدداً كبيراً من صفحات العهد القديم وتشمل: حروب شاؤل وتحرير البلاد وكل بلاد الشرق القديم «من هافيلا Havilah إلى أشور ...» (سفر صموئيل الأول، الإصحاح ١٥، الآية ٧) ومن بلاد ما بين النهرين حتى مصر من سيطرة الملكاتيين Amalekites، وكذلك هزيمة شاؤل على يد الفلسطينيين، واحتلال داود لأرشليم (القدس)، والحرب ضد أمور ومؤاب وأيدوم، والازدهار فى عهد سليمان الذى قام بالتشييد فى بالميرا وأورشليم وشارك مع جيرام ملك الفينيقيين فى بناء الموانى، وفيها أرسلت البعثات البحرية العظيمة، وكانت السلع تنقل بين البلاد فى عربات تجرها الخيول، وكان أرز لبنان يشحن بالبحر لبناء القصور والمعابد، وجاءت الملكة سبأ لتتحقق بنفسها من الأخبار العظيمة التى وصلت إليها، وكانت «الأرض كلها ملك لسليمان» (سفر الملوك الأوائل، الإصحاح العاشر، الآية ٢٤). ولكن المؤامرات دبرت فى عصر سليمان لتفتيت الإمبراطورية وكان مركز المؤامرات فى مصر، وكان مدبرها هو حداد أيدوم الذى فر إلى مصر حينما زحف يؤاب قائد جيوش داود عائداً إلى أيدوم تاركاً ابنه جينوباث فى قصر فرعون مصر. وشارك فى تدبيرها جيرويوم أحد أتباع سليمان الذى فر إلى مصر وتزوج أخت الملكة، وعاد ليستعيد إسرائيل من أيدى يهوذا. وبعد خمس سنوات من وفاة سليمان غزا الفرعون شيشاك مملكة يهوذا واستولى على أورشليم القدس وحمل معه كل ما هو ثمين قيّم من القصر والمعبد. كان وقتاً حافلاً بالازدهار والانهيار حتى بالنسبة لجميع الأمم المجاورة، ومنها مصر التى

كانت متورطة فى العلاقات السياسية بين إسرائيل ويهوذا، والمنشغلة بمغانم السلام العظيم وغنائم الحرب، تبنى أمجادها وتوسع تجارتها وتتآمر وتحارب، كإمبراطورية تتوسع ثم تنهار وتتفكك. كانت الأحداث التاريخية فى كل من مصر وإسرائيل متداخلة طيلة تلك الفترة.

ولقد سبق أن حددت فى الجزء الأول من مجموعة «عصور فى فوضى» الفترات المتزامنة مع تاريخ مصر: فنهاية عصر القضاة وجهودهم لتحرير البلاد من السيطرة الفلسطينية الامالكيتية تقابل المرحلة الأخيرة من سيطرة الهكسوس (أمو) على مصر وبلاد الشام (فلسطين وسوريا). وكان الملك شاؤل معاصراً للملك كاموس والملك أموس اللذين أسسا الأسرة الثامنة عشرة، وقاما معاً بحصار أفاريس عاصمة الهكسوس الاملكاتيين الحصينة. وحددت أيضاً فى ذلك الجزء. أن أفاريس هى العريش، حيث استطاع شاؤل أن يأسر آخر ملوك الهكسوس وهو الملك أجاج. وكان داود معاصراً لامنحوتب الأول، وعاش كل منهما كقديس زاهد يتذكر أمجاد الشعب الماضية سواء كانت تلك الأمجاد باهرة أو غير ذلك. أما سليمان فقد كان معاصراً للملك تحتمس الأول الذى تزوج سليمان إحدى بناته، وأصبحت ابنته الأخرى ووريثة عرشه حتشبسوت ملكة على مصر. وتنطبق الصور المنقوشة لأخبار رحلاتها إلى الأراضى المقدسة (أرض داود) وإلى فينيقيا (بلاد بنت) تماماً على الزيارة التى قامت بها الملكة سبأ التى وصفها المؤرخ جوزيفوس بأنها ملكة مصر وأثيوبيا. ولا يحتاج القارىء إلا لأن يعيد قراءة صفحات الجزء الأول من كتاب «عصور فى فوضى» ليدرك مدى ما هنالك من كثرة فى الأدلة وتداخل بينها. فالمدرجات التى رأتها الملكة والأشجار التى شاهدتها لم يرها أحد من قبل، كما روى عن مشاهدتها للقردة والطواويس وكذلك أهل أوفير، وهى مصورة أيضاً فى المناظر التى تبين أنها استقبلت فى أرض الإله، وكل ذلك وارد فى أسفار الملوك والأخبار، وكان باروح هو الذى استقبل الملكة حتشبسوت عند وصولها إلى الأرض المقدسة وباروح هذا والد يهوشافاط، كان يحكم ايزيون جابر فى عهد سليمان (الإصحاح الرابع الآية ١٧ سفر الملوك الأول). وقام تحتمس الثالث (الذى يطلق عليه فى الكتاب المقدس اسم شيشق) بغزو فلسطين، وحاصر مدنها المحصنة، ثم قبل التسليم الذى

عرضه الملك فى قادش، أورشليم. ولقد أمكن عمل مقارنة السفن والأثاثات التى نقلت من المعبد والقصر، والمنقوشة على جدران معبد الكرنك قطعة بقطعة وجزءاً بجزء وعدداً بعدد مع ما جاء وصفه فى معبد الملك سليمان. وهناك أيضاً إشارة لابن حدّاد جينوباش (سفر الملوك الأول الإصحاح ١١ الآية ٢٠) فى نقوش تحتمس الثالث، إذ كانت أنو زوجة جيروبيم (واسمها المذكور سبتوجينت) هى أميرة قصر تحتمس الثالث، ولها جرة فخارية محفوظة بالمتحف الرئيسى للفنون. ويتفق التاريخان المسجلان فى التفاصيل الصغيرة كما يتفقان فى الشكل العام، أما عن الصفحات التى وصفت الفترة السابقة (وهى زمن الخروج وانهيار الدولة الوسطى فى مصر) والفترة اللاحقة (فترة رسائل تل العمارنة) فإن هذه الصفحات لا تخرج عن كونها مطابقة دقيقة وتزامناً وتعريفاً بالأمور وبذلك تمد إطار القرون إلى ما قبل وما بعد الأحداث.

يحتل عصر الأسرة الحادية والعشرين فى التاريخ التقليدى المكتوب ما يقابل نهاية عصر القضاة وعصر حكم شاؤل وداود والجزء الأكبر من سنوات حكم سليمان فما الذى يقدمه هذا النسق بالنسبة لأسلوب الاتصال بين قطرين متجاورين؟ هل هناك نقطة اتصال واحدة؟ إن عصر الأسرة الحادية والعشرين عصر غنى بالوثائق البردية، فما هى الأدلة التى تثبت لنا ضرورة الإبقاء على التقابل بين عصر الأسرة الحادية والعشرين وعصر حكم الملوك شاؤل وداود وسليمان؟

ولكى أعرض على القارىء وجهة النظر المأخوذ بها سوف أتبع ما ذكره تشيرنى فى كتابه «مصر من موت رمسيس الثالث إلى نهاية الأسرة الحادية والعشرين» وهو الجزء الخامس والثلاثون من الطبعة الثالثة (١٩٧٥) من الجزء الثانى من تاريخ كمبريدج للعصر القديم.

«لا يعرف إلا القليل عن العلاقة بين مصر والعالم الخارجى خلال عصر الأسرة الحادية والعشرين». وهذه العبارة هى المقدمة ويتبعها «كانت سوريا وفلسطين مستقلتين سياسياً، والأمر الذى تؤكده الكتابات المقدسة عن قيام إسرائيل، بيد أن هناك فرعون مصرياً لم يذكر اسمه سمح للحداد، أمير ايدوم الشاب بأن يلجأ إلى مصر حينما استولى سليمان على بلاده ثم زوجه بعد ذلك من أخت الملكة. ونشأ جينوباش ابن الحداد فى بلاد

الفرعون مع ابنائه. وبعد موت داود، عاد حداد رغم معارضة الفرعون إلى بلاده ليكون عدواً مريراً للملك سليمان. ومازالت هوية هذا الفرعون غير مؤكدة.

«ومن الأمور غير المؤكدة كذلك إجابة التساؤل عن أى ملوك الأسرة الحادية والعشرين كانت له علاقات صداقة مع الملك سليمان لدرجة إرسال ابنته إلى أورشليم القدس ليتخذها الملك سليمان زوجة له».(١)

أليس هذا دليلا على حالة الغموض؟ لم تكن هناك علاقات مسجلة مع إسرائيل فى مصر. فهل يرجع هذا الصمت ويفسر بأن السبب هو أن كلاً من سوريا وإسرائيل كانتا مستقلتين؟ وفقاً لهذا النسق التاريخى فإن الزحف الواسع لكل من داود وسليمان قد ترك مصر دون أن يمسها أو يؤثر فيها، بينما أقيمت المبانى الضخمة فى كل من فلسطين وفينيقيا وسوريا، وأبحرت الأساطيل إلى بلاد بعيدة، وشُنت حروب وأحرزت انتصارات، وفى ذلك الوقت كانت المؤامرات تدبر فى مصر، وكانت هناك مخططات لانفصال الأجزاء الشمالية من الإمبراطورية، وأصبح علينا أن نصدق أنه لم تكن هناك أى سجلات عن الاتصالات أو الأنشطة عن علاقات مع إسرائيل محفوظة فى كل تلك المخلفات الفنية من برديات الأسرة الحادية والعشرين.

كانت مصر فى ظل هذه الأسرة الحادية والعشرين مثالاً للتدهور والتفكك والانهيار، كان الإداريون ينبشون المقابر القديمة بحثاً عن محتوياتها، وكان السكان مهددين بالأجانب الذين كان يطلق عليهم أيضاً اسم البرابرة، الذين ينتظرون هبوط الليل ليقوموا هم الآخرين بحفر المقابر خلسة، وكان الكهنة أيضاً ينبشون القبور بحجة إعادة تكفين الجثث وتحنيط الملوك القدامى، وجميعهم نهبوا كل المجوهرات التى كانوا يعثرون عليها، ووفقاً للسجلات البردية كان الشغل الشاغل لرجال البلاط الملكى هو عمليات نهب القبور. لم تكن بالبلاد صناعات ولم تكن هناك تجارة خارجية، وكان كل هم ويناموت هو شراء بعض أخشاب الأرز من بيبلوس لبناء سفينة وحيدة لآمون ليستخدمها الكهنة فى مراسمهم. أليس عجيباً أن نجد كل ذلك فى البرديات ولا نجد أى سجلات عن علاقة مصر بفلسطين وسوريا؟ سوف نتناول حالاً رحلات ويناموت لكى ندرك كيف أن الوضع

السيء في مصر كان أيضاً في علاقاتها الدلية، ولا يمكن أن توصف «بأنها علاقات تجارية جيدة مع المدن الساحلية في سوريا وفلسطين». كما قال شيرني مع عدم وجود أي أدلة أخرى تثبت تلك العلاقات.

طبعاً، يختلف الوضع بالنسبة لتجارة سليمان، فقد نقل كميات من أشجار الأرز من لبنان بالبحر إلى يافا، وهي عملية تختلف في حجمها، وفي العصر الذي تمت فيه.

إن مائة وخمسين عاماً (١١٠٠ ق م إلى ٩٤٥ ق م) خالية من أي اتصالات أو حتى مظاهر وجود علاقات ولو غير مباشرة. لأمر مثير للدهشة. لقد أصبح لدينا تاريخان أمام منصة القضاء، هل الدفاع الوحيد لأحد المتهمين هو أنه «لا جدال لعدم وجود الأدلة» وأن التاريخ القائم هو التاريخ الحقيقي؟

هذه الأسرة الحادية والعشرون هي الأسرة التي تحمل هذا الاسم خطأ بينما يقصد بها الأسرة التي تعاقب فيها على حكم البلاد عدد من الكهنة، وسوف نضعها في مكانها الصحيح من التاريخ في الصفحات التالية. فحينما تكتمل الصورة سنجد أن هناك اتصالات كثيرة قائمة مع الدول الأجنبية في نفس الفترة وبخاصة فترة الحكم الفارسي لمصر ثم في العصر البطلمي بعد مجيء الإسكندر الأكبر.

ولعل ما يتفق مع اسم الأسرة الحادية والعشرين هو تتابع مع الأمراء الكهنة الذين رفعوا راية العصيان في طيبة وتانيس وفي الواحات الخارجة بالصحراء الليبية الجنوبية وسيوة بالصحراء الشمالية. وكانت أسرتهم هذه معاصرة ثم تالية للأسرة العشرين وهي أسرة رمسيس الثالث-نيكتانابو الأول.

غزو قمبيز لمصر

بدأ العصر الفارسي في التاريخ القديم بالملك سيروس الأكبر، فمنذ البداية الأولى حينما كانت إمارة صغيرة في أنشان تابعة لمملكة ميديان التي يحكمها استايجوس ظهر سيروس كحاكم مطلق لإمبراطورية لم يكن لها مثيل في اتساعها وامتدادها خلال العصور القديمة، وقام بغزو مملكة

ليديا فى عهد حكم كرويزوس عام ٥٤٦ ق م، ثم غزا بابل التى كان يحكمها نابونيدوس بالاشتراك مع ولده بلشازار فى عام ٥٣٩ ق م. وجاءت رواية هذه الأحداث فى سفر دانيال فى ليلة الكتابة على الحائط(١) ولكن بقيت مصر بعيدة عن يد سيروس.

ولقد دخل سيروس فى حرب مع القبائل المتواجدة فى شمال امبراطوريته إلى الشرق من بحر قزوين، وباعتلاء ابنه قمبيز العرش ودفاعه عن عرش أبيه ضد الطامعين فيه وبعد أن ثبت له العرش كان من أوائل مخططاته غزو مصر التى كان يحكمها الفرعون أمازيس.(٢) ولكن قبل أن يصل قمبيز إلى مصر فى عام ٥٢٥ ق.م، مات أمازيس وحل محله على العرش ابنه بسماتيك الثانى الذى أطلق عليه هيرودوتس اسم بسامنتيوس. ووقعت معركة فاصلة عند القلزم خسرها المصريون، ثم سلمت ممفيس ووقع الملك فى الأسر. وأرسلت طبرق الواقعة إلى الغرب من مصر سفراءها إلى قمبيز معلنة تسليمها. ولم يقتنع قمبيز بذلك، بل كان مخططه أن يغزو ليبيا كلها، فأرسل إليها جيشاً، واتجه بنفسه إلى أراضى النيل واحتل مصر حتى حدودها الجنوبية وسيطر على كل أجزائها.

يعطينا هيرودوتس وصفاً حياً لغزو قمبيز لمصر، ويصف ما أتى به من دمار وخراب، وقسوة وجنون من جانب الغزاة، ووصف ما أشاعه من إذلال وفقر بين السكان، ويتمثل ذلك فى النبيل الذى يقف متسولاً يطلب كسرة خبز من أحد جنود الاحتلال. ولقد أثار عدد من علماء التاريخ الشك فى روايات هيرودوتس وبخاصة روايته عن قتل قمبيز للعجل أبيس، فقد اختلفت حولها الآراء وبخاصة حينما اكتشف مارييت (باشا) عام ١٨٥١ مقبرة بها أربع وستون مومياء لعجل محنط موضوعة جميعها فى توابيت فاخرة منقوش عليها تاريخ مولد ووفاة العجل المدفون بكل منها.

وجد اسم قمبيز فى الكتابات المصرية على البرديات والنقوش الحجرية، ولكن هناك نص هيروغليفى واحد يشير إلى غزو واحتلال مصر، وهو نص حول شخص يدعى أودجهارسنى وهو شكل تصويرى لتاريخ حياة منحوت على تمثال محفوظ حالياً فى الفاتيكان كان هذا الشخص قائداً للأسطول المصرى فى البحر المتوسط أثناء سقوط ممفيس وإعلان

الفرعون التسليم، وهو الوحيد من بين الوطنيين المصريين الذى اكتسب ثقة قمبيز، وأصبح مستشاراً له حول الشئون المصرية، وعين كذلك طبيباً ملكياً خاصاً، وهو تغيير غريب فى التخصص من قائد بحرى إلى طبيب.

ولقد كتب على التمثال ما يلى:

«جاء إلى مصر الزعيم العظيم لكل البلاد الأجنبية قمبيز، الذى كانت معه كل البلاد الأجنبية. حينما سيطر على كل البلاد استقر فيها لكى يصبح الحاكم العظيم لمصر والزعيم العظيم لكل بلاد الأجانب.

وقد عيننى جلالته مديراً لقصره، وقد لقبه باسم الملك مسيوتير ملك الوجهين القبلى والبحرى»(٣)

وكل ما قاله أودجهارسنى عن بؤس سكان مصر كان محدوداً للغاية واقتصر على جملة واحدة: «وقعت اضطرابات عظيمة اجتاحت كل أنحاء مصر ...» وهناك ما يمكن أن ندركه من كونه وريثاً للنظام الملكى حيث يقول «أمر جلالته أن ينظف معبد نيث من كل الأجانب الذين كانوا يسكنونه»، وكان أودجهارسنى أميناً لذلك المعبد الواقع فى سايس.

مثل هذا الاتجاه من جانب قمبيز كما كشف عنه طبيبه ومستشاره المصرى. إلى جانب اكتشافات مارييت باشا تدل على عدم صدق ماذكره هيرودوتس عن الأحداث التى وقعت أثناء الغزو.(٤)

فى أى من تلك السجلات نضع ثقتنا هل فى قصة أودجهارسنى المعاصر الذى يجعل أعباء الاحتلال تبدو وكأن القائد قد أزالها، أم فيما ذكره هيرودوتس حينما جاء إلى مصر بعد قمبيز بثلاثة أرباع قرن ليجمع المعلومات لكتابة مؤلفه التاريخى، وكان كفيلاً بأن يبالغ لكى يجعل روايته شيقة؟ كيف نميز بين الأمرين؟

لكن، علينا أن نتساءل أولاً: هل نملك أى سجل مصرى معاصر لغزو قمبيز لمصر خلاف ذلك؟

شكاوى أورماى

حصل عالم المصريات الروسى جولينيشيف على مجموعة من أوراق البردى من تاجر مصرى للآثار فى عام ١٨٩١، وكان أحدها رسالة كتبها أورماى ابن خيفى، نشرت عام ١٩٦١ أى بعد سبعين سنة من الحصول عليها.، وهذه الأوراق محفوظة فى المتحف الذى يحمل اسم الشاعر بوتشكين فى موسكو، وكان المتخصصون يعرفون بوجود هذه الأوراق، ولم يكن نشر نص الرسالة وترجمتها التى قام بها كوروستوفيتزيف بالأمر الهين،(١) فإن المترجم يعترف بأنه غير واثق فى ترجمة عدد من الكلمات أو الجمل.

وترجع بردية أورماى هذه إلى أوائل عصر الأسرة الحادية والعشرين. كتب أورماى «أبوالإله» فى المعبد الكائن فى هليوبوليس خطابه هذا إلى رع نخت وهو أحد كتاب بلاط هيراقليوبوليس. والخطاب معنون إلى «أبو الإله»، وهذا يعنى وجود علاقة قرابة بالتزاوج بينه وبين البيت الملكى، أو بمعنى أدق كان أبو زوجة الملك(٢) (فقد كان باستطاعة الملك أن يكون له أكثر من حم واحد إذا تعددت أزواجه). ومن الواضح أن كلا من مرسل الخطاب ومتلقى الخطاب كانا ينتميان إلى طبقة أعيان البلاد.

ويلاحظ أن الجزء الأول من الخطاب محفوظ بكامله، وابتداء من منتصف الصفحة الثالثة نجد الكثير من الثغرات والخروق. والخطاب كله عبارة عن خمس صفحات ويوجد تعليق على ظهر البردية. تتضمن الصفحة الأولى كلها وبداية الصفحة الثانية، وهو ما يمثل نصف ما تبقى من الخطاب، تعبيرات مهذبة فيها كل أنواع المديح للشخص الموجه إليه الخطاب ويتضمن كذلك ترجمة حياته التى امتدت مائة وعشرة أعوام دون ذكر أى مثالب فيها، وبذلك حفظت جثته المحنطة ومخلفاتها وسط عظماء الموتى فى هليوبوليس وبعد هذه التحيات والمديح بدأ الكاتب فوراً يروى شكواه ونحيبه قائلاً:

«أبعدت ظلماً، وجردونى من كل شيء، ومنعونى من الكلام أو الاحتجاج، وسرقونى ونهبونى دون أن أرتكب أى خطأ. ألقونى خارج مدينتى، وصادروا أملاكى فلم يبق منها شيء، لا حول لى ولا قوة أمام

الظالمين العتاة ...»

ولا يعتبر أورماى هو الضحية الوحيدة، فهناك كثيرون من أمثاله، وفى الجملة التالية أخذ يتكلم عن رفاقه وزملائه وموظفيه المخلصين قائلاً:

ابعدوا جميعاً عنى، قتلت أزواجهم (أمام أعينهم، وشرد أبناؤهم، وألقى البعض فى السجون، وتعرض الآخرون للتعذيب ...»

وأبعدت أنا عن موطنى السابق، وأرغمت على التجول متشرداً. فى أرض محاطة بنيران العدو من كل مكان فالجنوب والشمال والشرق والغرب كلها أصبحت ملكاً للعدو.

وانسحبت السفن من البلاد التي غزاها العدو الذى «جاس خلال الأرض وتوغل على امتداد مجرى النهر».

ويعدد أورماى الأماكن التى مر بها سائراً على الأقدام لأن الخيول قد أخذت غنيمة هى والعربات ومعدات الحرب؛ و«اضطررت أن أسير على قدمى يوماً كاملاً من مدينتى التى لم تعد مدينتى».

ويقصد بالمدينة هليوبوليس حيث كان فيها أورماى كاهناً له مكانته لانتمائه إلى الأسرة المالكة. ولكن يبدو أنه لم يعد هناك بيت ملكى فى مصر، فقد استولى العدو على السلطة فى البلاد واستولى على الأملاك الخاصة بكل المواطنين البارزين. ربما لم تكن الأحوال فى هيراقليوبوليس، التى يسكنها من أرسل له الخطاب على تلك الدرجة من السوء لأن هيراقليوبوليس كانت تقع على بعد نحو ثمانين ميلاً إلى الجنوب من هليوبوليس المدينة الشمالية الواقعة عند رأس الدلتا إلى الشمال قليلاً من مدينة القاهرة الحالية.

هذا، ولم يقتصر الأمر على تجريد الناس من ممتلكاتهم وسبى أطفالهم وذبح نسائهمْ بل إن الآلهة قد أهينت أيضاً ونبشت قبور الموتى.

«ألقيت الجثث والعظام فوق الأرض العراء، ومن الذى يستطيع أن يقترب منها ليهيل عليها التراب ؟...»

وهنا تأتى بعض الأسطر التى لم يمكن تفسيرها فى البردية ثم يتبع فى الرسالة القول:

«اختفت كل المذابح والمحاريب، وبددت كل القرابين من ملح ونطرون وخضروات ...»

ويشكو هذا الكاهن المطرود قائلاً: «عانيت من الجوع». ويشير إلى الحبوب التى حصل عليها من الجنود ويبدو أنه يقصد أنه كان يتسول بعض الحبوب من جنود الاحتلال.

و«فرض العدو ضرائب عالية»، و«ارتكب جرائم ضد الآلهة»، وأخذ يدعو ويصلى قائلاً:

«لتظهر بقوتك أيها الإله، ولتعود لتنقذنى منهم»

هنا نتساءل: من هم هؤلاء الأعداء الذين أتوا فى بداية عهد الأسرة الحادية والعشرين؟ لا يوجد فى التاريخ التقليدى أى غزاة أتوا إلى مصر واستولوا عليها حينما وصل ملوك الأسرة الحادية والعشرين للحكم فى بداية القرن الثانى عشر. فيفترض أنه بعد سقوط الأسرة العشرين اعتلت الأسرة الحادية والعشرون الحكم فى البلاد بطريقة سلمية، وعلى ذلك فقد أدى نشر ترجمة نص بردية أورماى إلى الدهشة الشديدة، وبدأت محاولات لتفسير القصة التى وردت فى شكاوى أورماى، ولكنها لم تصل إلى نتيجة(٣)

بيد أننا فى إعادة بناء التاريخ الذى نتناوله فى هذا الكتاب لا نضع الأسرة الحادية والعشرين فى القرن الحادى عشر أو العاشر بل فى العصر الفارسى من التاريخ المصرى؛ وبذلك فإننا نتوقع وجود مثل هذه الشكاوى التى ترجع إلى بداية عصر الأسرة الحادية والعشرين. ولقد وصف أورماى مصر العليا بأنها تعرضت حديثاً للغزو، ولعل عنوان هذه الرسالة وبعض ما كتب فيها ليدل على وجود أسرة حاكمة فى مصر آنذاك انتهت بوصول العدو الغازى.

سبق أن ذكرنا أن هيرودوتس كان هو المصدر الرئيسى لتاريخ غزو قمبيز ابن سيروس لمصر. وكان هيرودوتس قد زار مصر بعد ذلك الغزو بأجيال قليلة حينما كانت مصر تحت الحكم الفارسى، وكانت أحداث غزو قمبيز وما تعرضت له البلاد من معاناة مازالت حية فى ذاكرة الناس.

وجاء على لسان هيرودوتس أن قمبيز «ارتكب الكثير من الحماقات أثناء إقامته فى ممفيس، ومن بينها أنه أخذ يفتح التوابيت القديمة ويفحص ما بها من جثث. وكذلك ذهب إلى معبد هيفايستوس وأخذ يعبث بما فيه... وكان قمبيز يتصرف بجنون، ولم يتورع عن أن يتهكم على

المراسم المقدسة والتقاليد المعمول بها منذ زمن بعيد» (هيرودوتس، الجزء الثالث، ص ٣٨/٣٧).

وبعد فترة قضاها قمبيز في معفيس جرد حملة نحو الجنوب سائراً بحذاء النيل، ثم عاد إلى معفيس «فطرد اليونانيين، وأمرهم بالإبحار عائدين إلى بلادهم» (هيرودوتس، الجزء الثالث، ص ٢٥).

هذا، ويلاحظ وجود تشابه بين رواية هيرودوتس عن الأحوال وبين شكاوى أورماي وبخاصة بالنسبة لانتهاك حرمات الآلهة، والموتى، ونبش القبور وفتح التوابيت وإلقاء جثث الموتى وعظامهم، والفظائع التي ارتكبت ضد السكان بما في ذلك الأطفال، كذلك تشير كل من البردية وكتابات هيرودوتس إلى الحملة التي سارت إلى أعالي النهر، وكل من المصدرين أيضاً يشير إلى مغادرة السفن. وهناك رواية ذكرها هيرودوتس من أيام غزو قمبيز لمصر تجعلنا نفكر ملياً في أورماي وشكاواه:

«بعد عشرة أيام من سقوط قلعة معفيس قرر قمبيز أن يعرض للإذلال شخص بسامنتيس الملك المصري الذي حكم البلاد ستة أشهر فقط، فحدد إقامته في إحدى الضواحي ومعه الكثير من المصريين، وهنالك تعرض للإهانة. وأولى هذه الإهانات أن طرد ابنته من المدينة بعد أن ألبسها ملابس الرقيق الرثة، وهي تحمل جرة لجلب الماء فيها، وصحبها عدد من العذارى من بنات الزعماء والنبلاء وهن يلبسن نفس الأردية. وحينما وصل هذا الجمع إلى المكان الذي يجلس فيه الآباء، أجهشن بالبكاء والعويل، وبكى الآباء عند رؤية بناتهم في هذه الصورة ما عدا بسامنتيس، الذي طأطأ رأسه وأخذ ينظر إلى الأرض حينما رآهن هكذا. وبنفس الطريقة التي مرت بها حاملات المياه، مر بعدهن ابن بسامنتيس ومعه نحو ألفين من الشباب ممن هم في نفس العمر تقريباً مقيدين بالحبال من رقابهم وملجمين من أفواههم وهم في طريقهم ليعذبوا حتى الموت... ورأى الملك بسامنتيس هذا الطابور يسير أمامه وميز من بينهم ابنه وهو في طريقه إلى الموت، ورغم أنه رأى المصريين الآخرين الجالسين من حوله يبكون ويولولون، لم يبد أي جزع مثلما فعل حينما رأى ابنته من قبل. وبعد أن ذهب الآخرون أيضاً تصادف أن جاء أحد الرفاق المقربين وهو شيخ كبير السن جرد من كل ما يملك أصبح متسولاً مع عدد من المصريين إلى حيث

يجلس بسامنتيس ابن أمازيس هو وسائر المصريين يطلبون الصدقة من الجنود. وعندما شهد الملك ذلك لم يستطع منع دموعه وقال: لئن كان حظى يتجاوز كل دموع. فإن أنين صديقى يستحق أن نذرف من أجله تلك الدموع، فإن رجلاً عاش حياته فى رخاء وثراء يصبح هكذا متسولاً فى أواخر عمره ليستدعى منا البكاء»(٤)

يعطينا خطاب أورماى دليلاً يؤكد لنا صحة رواية هيرودوتس، وهو شهادة ضد ما اتفق عليه المؤرخون المحدثون من أن هيرودوتس قد رسم صورة قاتمة لانتهاكات قمبيز وجرائمه التى ارتكبها فى مصر، وأنها صورة ملفقة. وقد يبدو لنا أن شكاوى أورماى وهو أحد أقارب الملك تفيدنا هنا كأساس لصحة الصورة التى وجدناها فى رواية هيرودوتس، فإن أورماى كان يمد يده طلباً للخبز من جنود الاحتلال.

من دارا الأول إلى ارتاكسركيس الأول

بسقوط ممفيس انهارت مقاومة غزو قمبيز فى سائر أنحاء مصر وأراد الفرس أن يمتدوا بغزوهم إلى قرطاجنة ولكن الشيرانيين رفضوا أن يعيروهم السفن التى يستخدمونها فى غزو تلك الدولة التى أقامها الفينيقيون المستعمرون. وأرسل قمبيز بعد ذلك قوة مكونة من خمسين ألف رجل من طيبة لتسير نحو الغرب إلى واحات الصحراء الليبية، وذلك كخطوة أولى فى استراتيجيته لضم الساحل الشمالى الإفريقى إلى الإمبراطورية التى هيأها له والده سيروس. ومر الجيش بواحة سيوة ثم هلك فى عاصفة رملية ولم ينج منها أحد على حد ذكر هيرودوتس فى وصفه لهذه الكارثة.(١)

ولما لم يكن قمبيز قد أنهى خططه لغزو قرطاجنة فقد اتجه إلى غزو النوبة وأثيوبيا، واتجه جنوباً. ولعل عبارة أورماى التى يقول فيها «كانت الأرض محاطة بنيران العدو من الجنوب والشمال والشرق والغرب» تعبر عن هذا الوضع تماماً. فلقد قاد قمبيز جيشاً ضخماً ليسير به فى طول البلاد العارية الفقيرة وعرضها، ويبدو أنه اختار أن يمر عبر الصحراء إلى نباته عاصمة النوبة. وحينما نفدت الماشية التى يتغذى الجيش من

لحومها، وبدأت حالات أكل لحوم البشر تتكرر من وقت لآخر، أعطى أوامره بالعودة إلى مصر. وحينما عاد إلى مصر تصرف كالمجنون، ولو أن هيرودوتس صادق، فتكون هذه الفترة هي الفترة التي نبشت فيها القبور، وفتحت التوابيت ونهبت المقابر وانتهكت الحرمات، وذبح العجل أبيس. وتسبب قمبيز أيضاً في إجهاض زوجته روكسانا وأمر بأن يقتل كرويزوس الملك المأسور عنده، ولكنه عاد فغير رأيه وعدل عن تنفيذ هذا الأمر حينما علم بأن الملك قد قتل فعلاً، فغضب وأخذ يقتل من نفذوا ذلك القتل. وكان قد أمر أخاه بارديا (سميرديس) بمغادرة مصر إلى وطنه وأرسل معه القاتل لينفذ فيه حكم الإعدام، وحينما وصل إلى فلسطين وهو في طريقه إلى وطنه سمع أن سميرديس قد احتل عرش الإمبراطورية، واعتقد أن خطة القتل لم تنفذ فمات قرب جبل الكرمل، ويحتمل أن يكون قد انتحر. بيد أن الملك الجديد لم يكن سميرديس كان قمبيز قد أمر سراً بقتله، بل كان مجرد مشعوذ مجوسي يسمى جواماتا وكان شديد الشبه بالأمير المقتول سميرديس.(٢)

كان دارا ابن هيستابس يعمل في خدمة سيروس واصطحب قمبيز في حملته على مصر. فاتجه نحو جواماتا وقتله وأصبح ملكاً في عام ٥٢١ ق م. ومثله مثل قمبيز كان من الجيل الخامس في عائلة أخمينيس، ومن خلال هذا النسب طالب لنفسه بالحق في المُلك، ثم حارب كل المطالبين بالحكم الذين ادعوا أن روح نبوخذ نصر الذي مات منذ أجيال طويلة قد حلت فيهم. وقام بإخماد عدد من الثورات التي قامت في أنحاء الإمبراطورية ومر بطول آسيا الصغرى إلى البسفور ومر بمدينة تراث وغزا بلاد السيزيين. ولكنه حينما أدرك مدى الاتساع الذي عليه البلاد عاد أدراجه وجاس خلال ديار الإمبراطورية ثم غزا أراضي السند. ومن هناك أرسل بعثة بحرية لتدور حول الجزيرة العربية، ووجد مدخلاً إلى مصر، وعندئذ أمر بحفر قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر وذلك بتوصيل مياه النيل إلى خليج السويس.

ولم يستقر دارا في مصر، وتركها وسكانها في حالة من المجاعة والتشرد والتمزق في المدن بسبب ما عانوه من جنود الاحتلال في عهد الملك السابق قمبيز، ولكنه لم يضطهد شعب مصر. وكان قد أمر في أوائل

حكمه أن يسجل القانون المدنى المصرى، واتخذ كذلك بعض الخطوات ليسترضى كهنة مصر، وأقام قلعة ومعبدا فى الخارجة أو الواحة الكبرى التى ورد ذكرها فى البرديات باسم هيب أوجب، وهى الواحة الواقعة فى أقصى الجنوب بالنسبة للواحات التى تواجه ليبيا.

ما زال البناء الذى أمر دارا بإقامته فى الواحة الخارجة قائماً حتى يومنا هذا، وإن كان الزمن قد فعل به فعله. وعلى جدرانه نقشت بالهيروغليفية الكثير من الأناشيد التى تمجد الأجرام السماوية والملك الذى أعلن أنه ملك مقدس. ولقد اعترف هينريك بروجش الذى حل رموز هذه الكتابات بأنه لو أخذنا بظاهر عباراتها المباشرة لما استطعنا أن نعرف أن اسم سيتورع يقصد به دارا وإن كان يذكر أيضاً باسمه الفارسى انداريوس. كان المعبود فى معبد الواحة الخارجة هو «أمون الذراع القوى» ويبدو أن فى ذلك مظاهر للتزاوج الذى كان يحدث آنذاك مع العقيدة المازداوية.

ولقد لاحظ بروجش الذى زار الواحة الخارجة عام ١٨٧٧ أنه طبقاً لنص منقوش على أحد النصب التى وجدت فى الأقصر كانت الواحات تستخدم فى العصور القديمة كمكان لنفى السجناء السياسيين، حيث يقيمون هناك بعيداً عن وادى النيل المزدحم بالسكان، ويعيشون فى حراسة عسكريين من الكهنة، وسوف نتحدث عن أنصاب الأقصر فى صفحات مقبلة من هذا الكتاب.

ونظراً لأن حماية المواقع البعيدة كانت قد أوكلت إلى كهنة عسكريين يقومون مقام الأمراء فقد كان من الواضح أن داريوس يوجه اهتمامه إلى حماية الحدود الغربية لمصر ضد هجمات العشائر الليبية، أو ربما كان فى ذهنه أن يحمى مصر من قوة قرطاجنة المتنامية فيما يلى ليبيا إلى الغرب.

ولا يعرف بالضبط الزمن الذى أقيمت فيه قلعة ومعبد مماثل فى واحة سيوة، ولكن يغلب الظن أنها بنيت فى نفس الوقت الذى بنيت فيه القلعة الجنوبية فى الخارجة بأمر من دارا الأول كذلك. وسرعان ما أصبحت هذه الواحة مشهورة بسبب مقر وحى أمون، وكان «أمون صاحب الوحى» له احترامه فى أوساط الليبيين والمصريين على حد سواء، وانتشرت شهرته

فى الآفاق. وقد أشار اريستوفان فى كتابه الطيور (المنشور سنة ٤١٤ ق م) إلى مهبط وحى آمون كمكان مقدس يلى مهبط وحى دلفى ودودونا. وكانت نبوءات وحى آمون مثيرة للدهشة، وكثيراً ما كانت الأحداث تتبعها فتفسر على أنها تنفيذ لكلمات الوحى. لذلك فإنه فى أثناء الحرب بين الأثينيين والسيراكوزيين تنبأ آمون بأن الأثينيين سوف يأسرون السيراكوزيين، ولكن كل ما أسروه كان سفينة من سفن الأعداء بها إحصاء عن سكان سراكوزا. وكان بيندر قد كتب فيما قبل ذلك نشيداً أو مديحاً فى آمون، وأقيم نصب له ثلاثة أوجه أقيم وعليه هذه الأناشيد شوهد فى واحة بوسانياز بعد نحو ستمائة عام. وحافظ الكهنة المصريون على انتشار تلك النبوءات فى أوساط اليونانيين ونشروها بصورة واسعة جعلت هرقل نفسه يلجأ إليهم لمعرفة الطالع ويسأل النصيحة. ورأى فيليب المقدونى والد الإسكندر فى منامه حلماً أقلق باله وطلب من متلقى وحى دلفى تفسيره له، فأخبره بضرورة تكريم الإله آمون. هذا ما ذكره بلوتارك، ولكن ليس لدينا ما نستطيع به إثبات صحة هذه الرواية.

ورغم أن مصر التى فقدت استقلالها بمجىء الحكم الفارسى وأصبحت واحدة من المرزبانات أو الولايات الخاضعة للفرس إلا أنها احتفظت بشىء من الحكم الذاتى كدولة ذات حكم دينى، إذ عين الكهنة قواداً عسكريين وتمتعت المعابد بشىء من الحماية، وتحولت الأرض التى ليس لها استقلال ذاتى عن الحكومة إلى تبعية للمعابد وكهنتها.

واتبع الفرس فى هضبة اليهودية سياسة مماثلة بإنشاء ولايات دينية، وأصدر سيروس مرسوماً يرخص فيه بإعادة بناء معبد أورشليم القدس الذى كان نبوخذ نصر قد هدمه، وسمح بعودة اليهود المنفيين الذين قادهم زروبابال الذى قد عين حاكماً وجوشوا الذى عين كاهناً أكبر من بلاد بابل إلى وطنهم. وقاموا ببناء هيكل تقدم عنده القرابين المحرقة «ابتدأوا يُصعدون محرقات للرب وهيكل للرب لم يكن قد تأسس» (سفر عزرا، الإصحاح الثالث الآية ٦)، و«أعطوا فضة للنحاتين والنجارين ومأكلاً ومشرباً وزيتاً للصيدونيين والصوريين ليأتوا بخشب أرز من لبنان إلى بحر يافا حسب إذن كورش ملك فارس لهم» (سفر عزرا، الإصحاح الثالث الآية ٧). ولكن «شعب الأرض»، وغالبيتهم من نسل المستعمرين الذين أتى

بهم الملوك الأشوريون سيرجون، وسناحريب وعيزرهادون «يرخون أيدى شعب يهوذا ويذعرونهم عن البناء. واستأجروا ضدهم مشيرين ليبطلوا مشورتهم كل أيام كورس ملك فارس وحتى ملك دارا» (سفر عزرا /٤/٥). وحينما تولى الملك دارا السلطة استحثه أنبياء اليهودية حجى، وزكريا ليستعيد العمل فى بناء المعبد. وسرعان ما قام المرزبان تاتانى، بناء على تحريض البعض، بتبليغ دارا عن العودة إلى عملية بناء المعبد. وبالبحث فى محفوظات الدولة وفى قصر اشميتا عثر على الوثيقة الأصلية للمرسوم وصدق دارا على صحة الوثيقة. ورأى الأنبياء أن صهيون قادم «فتدعى أورشليم مدينة الحق» (زكريا ٨/٣) ويعلن زكريا فتأتى شعوب كثيرة وأمم قوية ليطلبوا رب الجنود فى أورشليم وليترضّوا وجه الرب» (زكريا ٨/٢٢)

وتم بناء المعبد فى العام السادس من حكم دارا «وأقاموا الكهنة فى فرقهم واللاويين فى أقسامهم». (عزرا ٦/١٨)، وتحققت النبوءات المبكرة أولاً فى زيروبابل، فسرعان ما واجه هذا الزعيم المدنى المصاعب، واستولى الكهنة «أسرى الرجاء» (زكريا ٩/١٢) على السلطة، وعلى ذلك تحولت اليهودية موطن «بنى إسرائيل العائدون من السبى» إلى دولة دينية تحكمها أسرة وراثية من الكهنة.

وكان زكريا هو آخر الأنبياء، أما ملاخى آخرهم فى القانون فلم يكن أكثر من متلقى الوحى، وكان همه الأكبر هو أضحيات الغفران، وكان مختلفاً عن متلقى الوحى فى المعابد المصرية، إذ كان الناطق بلسان الكهنة. «أيسلب الإنسان الله، فإنكم سلبتمونى فقلتم بم سلبناك فى العشور والتَقْدِمَةِ (أى الصدقات)» (ملاخى ٣/٨)

هذا ولم ترجع العشائر الإسرائيلية التى تنتمى إلى مملكة الشمال ممن سباهم ملوك آشور، ولم يأت ذكرهم فى التاريخ، أما معظم أبناء مملكة الجنوب يهودا وبنيامين وسايمون وليفى الذين سباهم البابليون فقد استوطنوا هناك. ومن بين من عادوا فى عهد الملوك الفرس أمة قامت فوق أطلال أمجاد الماضى، ورغم مقاومة المستوطنين الذين حلوا محل الأسلاف المنفيين تكونت نواة دولة متحدة لها بيت عبادة متواضع كمركز للإشعاع، وافتتحوا بذلك عصراً استمر ستمائة عام عُرف باسم البيت الثانى أو

الدولة الثانية.

وقبل أن يموت داريوس بقليل قام بأول عملية غزو لبلاد اليونان وواجه الصعاب في تراجعه العسكري، وتحمل ابنه اكسركسيس مسئولية الحفاظ على الإمبراطورية، فركز كل جهده خلال فترة حكمه على ما سمى الحرب الفارسية، وهي المواجهة العسكرية بين دويلات المدن اليونانية أثينا وطيبة واسبارطة وغيرها من جهة وبين المارد الفارسي العملاق، وهي الحرب التي رواها الكتاب اليونانيون بالتفصيل. وكان اكسركسيس (وهو اخشايارشا باللغة الفارسية) هو نفسه الشخصية المقدسة التي جاء ذكرها في التوراة باسم احشويروش الذي ملك من الهند إلى أثيوبيا على مائة وسبع وعشرين كورة (استير «عشتار» ١/١/). وطبقاً لما ذكره هيرودوتس «لم يكن هناك من يضاهيه جمالاً واكتمالاً في الجسم ليستحق أن يملك مثل قوته». ويتضمن سفر استير حكايات عن غراميات الحريم التي تروى عن الملكة ڤاشتي والملكة عشتار التي حلت محلها وخالها مردخاي وهامان، والعقيقي (نسبة إلى حبات العقيق والمالكايت). أما أسماء اليهود الذين شاركوا في الخدع والمؤامرات فهي ترجع إلى أسماء الآلهة البابلية (مردوخ وعشتار) وتشير إلى ظاهرة الاندماج التي أدت إلى إزالة الهوية القومية لليهود الذين فضلوا أن يبقوا في أرض الشتات.

وأتم اكسركسيس بناء مدينة برسوبوليس أي المدينة الفارسية التي بدأها والده، ففي ذلك السهل العظيم الممتد أمام منحدرات الجبال الواقعة على بعد أربعين ميلاً شمال شرقي شيراز شيد دارا رصيفاً من الحجارة الضخمة التي يبلغ طول بعضها خمسين قدماً يصل إليه درج واسع يكفي لأن يسير عليه طابور مكون من عشرة صفوف من الفرسان، وعلى هذا الرصيف أقام القصر الملكي وألحق به بهواً قائماً على مئات الأعمدة ليجتمع فيه شهود الملك، وزينت جدران الدرج بنقوش بالحفر الغائر تصور نبلاء الشعوب المهزومة يعلنون الولاء لملك فارس أو لملك الملوك في أول السنة الجديدة في يوم عيد تجديد المملكة.

وشيد اكسركسيس قصرا آخر وبيتاً للحريم في سوسة. وبالقرب من ناخشي رستم حيث حفر قبر دارا في الصخور أعد اكسركسيس لنفسه قبراً مماثلاً لقبر أبيه يمكن رؤيته من بعد كبير، وهنالك دفن بعد مقتله.

وحينما اعتلى أرتاكسركيس الأول العرش ثار سكان الدلتا بقيادة زعيم يسمى ايناروس، وكلف أحد أقارب الملك ويدعى أخايمينس بإخماد الثورة، وانتصر جيشه فى المعركة الأولى، ولكن الأثينيين أمروا أسطولاً مكوناً من مائتى سفينة كان راسياً فى قبرص للإبحار إلى مصر للوقوف فى صف ايناروس. فأبحر الأسطول إلى الدلتا وصعد فى النهر إلى ممفيس وهاجم الحامية الفارسية واحتل معظم أجزاء المدينة. وفى عام ٤٦٠ ق م قام جيش كبير بقيادة ماجابيزوس تسانده ثلاثمائة سفينة فينيقية بمحاربة المصريين وحلفائهم الإغريق وأرغموا الإغريق على التراجع إلى بروسوبيتس حيث قاوموا حصاراً استمر حولهم مدة ثمانية عشر شهراً، ثم حول الفرس المياه من مجرى النيل الذى به سفن الأسطول الأثينى فأشعل اليونانيون النار فى أسطولهم واستسلم المحاصرون.

زار هيرودوتس مصر بعد ذلك لفترة قصيرة وتوغل فيها جنوباً حتى جزيرة فيلة، ووصف البلاد وصفاً يدل على أنها كانت خاضعة لحكم جيد

وفى عهد كل من كورس، ودارا وأحشويروش وارتخشستا وارتاكسركسيس كانت هناك اتهامات كثيرة لليهود الذين كانوا منشغلين ببناء مدينة أورشليم الشريرة، وكيلت تلك الاتهامات على لسان السوريين الذين كانوا يمثلون أحفاد المستوطنين الذين احتلوا أرض سومر بقيادة أشور بانيبال (أسّنفّرْ كما ذكر فى سفر عزرا / ٤/١٠) وغيره من الملوك الأشوريين. «إن هذه المدينة منذ الأيام القديمة تقوم على الملوك وقد جرى فيها تمرد وعصيان» (عزرا ٤/١٠).

وفى السنة العشرين من حكم ارتاكسركيس (ارتخشستا) قال له ساقيه ناحوم: «أرسلنى إلى مدينة مقابر أجدادى لعلى أبنيها». فتحركت مشاعر الملك بما فى قلب ساقيه من أحزان ووافقه، وأمر بعض الفرسان ليصحبوه فى رحلته الخطرة، وأعطاه خطاباً يحمله إلى محافظ غابات الملك فى لبنان يطلب منه تزويده بعروق الخشب ليصلح ما هدمه وأحرقه نبوخذ نصر من بوابات أورشليم والأسوار المحيطة بها قبل ذلك بمائة وأربعين عاماً.

ولما وصل ناحوم إلى أورشليم القدس قام بمسح المدينة وأسوارها حيث كان يمر بها أثناء الليل، ويتحدث إلى كبرائها أثناء النهار، فقالوا له:

«فلنقم لنبنى»، واشترك مع الياشيب الكاهن الأكبر الذى كان يبنى فى باب الأغنام عدد كبير من المجموعات الذين قسموا فيما بينهم أجزاء السور المحيط بالمدينة وأطلال البوابات، وأخذوا يعملون بينما يراقبهم الآخرون والأسلحة فى أيديهم. «لم يخلع أىٌ منا ملابسه طوال أسابيع عديدة إلا لغسلها». وهددهم سانبالات الحاكم السومرى وأتباعه وسألوهم : «ما هذا الذى تعملون ؟ هل ستثورون ضد الملك؟»

استمر حكم ناحوم اثنى عشر عاماً امتدت من العام العشرين لحكم ارتاكسركسيس الأول إلى السنة الثانية والثلاثين من حكمه، عانى أثناءها من الرغبات الشريرة للسومريين والعرب. وبعد أن قضى ارتاكسركسيس (ارتخششتا) واحداً وأربعين عاماً فى العرش مات فى عام ٤٢٩ ق م وخلفه اكسركسيس الثانى (أحشويروش) الذى خلعه دارا الثانى عن العرش بعد أسابيع قليلة.

«وجاء الهمج فاستولوا على المعبد»

استمرت عبادة آمون سائدة فى مصر خلال العصر الفارسى، وكان آمون (المشترى أكبر الكواكب) هو الإله الأكبر الذى يقابل الإله الإيرانى مازدا (اهورامازد)، وأظهر الفرس صبراً واضحاً إزاء استمرارية معتقدات طيبة حيث كان كهنة آمون فى الواحات مسئولين عن الأماكن المقدسة فى الكرنك (طيبة). ونظراً لعدم وجود أسرة حاكمة مصرية ونظراً لأن الملوك الفرس الذين خلفوا دارا وبخاصة اكسركسيس وارتاكسركسيس الأول ودارا الثانى لم يزوروا مصر بل عينوا لها مرزبانات، فقد ظلت سلطة كهنة آمون قائمة، وكانوا مكلفين إلى جانب ذلك بقيادة الحاميات العسكرية مما جعل لهم مكانة مرموقة.

وفى إحدى وثائق الأسرة الحادية والعشرين يُذكر أن تحقيقاً أجرى فى السنة الأولى من حكم أحد الملوك (وذكر فيها اليوم والتاريخ) حول نبش قبور ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، واستمعت لجنة التحقيق التى عينت لذلك الغرض إلى الكثير من الشهود والمتهمين ومن بينهم حمال يدعى أحواتينوفر. وجاء ذكر هذه المحاكمات فى البردية

المحفوظة حالياً فى متحف ليفربول وتعرف باسم بردية ماير.

يقول احواتينوفر «جاء البرابرة أو الهمج فاستولوا على المعبد، بينما كنت أرعى بعض حمير أبى، وقبض على بحيتى أحد هؤلاء الهمج وأخذنى إلى أى بيب، كان ذلك بعد انقضاء نحو ستة أشهر على خلع امنحوتب الذى كان آنذاك هو الكاهن الأعظم للإله آمون». واعترف الشهود بأنه قد سمع لامنحوتب الذى كان كبيراً لكهنة آمون بأن يعود إلى موطنه بعد انقضاء «تسعة أشهر كاملة فى المنفى».(١)

وتعتبر هذه الوثيقة هى المرجع الوحيد الذى ورد فيه ذكر لخلع امنحوتب الكاهن الأعظم منذ الوقت الذى كان فيه أولاً متلقياً ثالثاً للوحى ثم متلقياً ثانياً ثم متلقياً أول حيث توجد نقوش عديدة تدل على ذلك، فيظهره أحد النقوش بالحفر الغائر وهو يقدم هدية من الزهور إلى الملك نفركيرستبنر. ونظراً لأن الكاهن الأعظم يظهر فى ذلك النقش بحجم يماثل حجم الملك، وهو وضع لم يسبق مشاهدته فى الفن المصرى، استنتج البعض بأن امنحوتب هذا كان ينافس الأسرة المالكة على السلطة، وكان هذا هو سبب إسقاطه.(٢) وهناك كتابات أطول حول موضوع سقوط امنحوتب لم يذكر فيها أى تفسير آخر للأسباب التى أدت إلى ذلك.

بيد أن الصلة بين الهمج الذين استولوا على معبد آمون بالكرنك وخلع الكاهن الأعظم جاءت واضحة فى شهادة أحواتينوفر.

يبدو أن الهمج الذين استولوا على المعبد «كانوا منظمين لدرجة أن كان لديهم قواد فرق».(٣) ولم يكن هؤلاء الهمج أو البرابرة أعراباً أو ليبيين، فإن جيران مصر كانوا يوصفون عادة بأنهم «سكان خيام»، كما لم يكن الأثيوبيون وهم الجيران الجنوبيون يعرفون بالهمج أو البرابرة.

يضع النظام التاريخى المأخوذ به، حكم الأسرة الحادية والعشرين فى مصر فى نفس الوقت الذى حكم فيه شاؤل وداود وسليمان فى إسرائيل ويحتاج هذا إلى البحث لمعرفة حقيقة هؤلاء الهمج أو البرابرة، ونظراً لأنه لم يذكر ما يدل على أنهم ليبيون أو أثيوبيون أو أعراب فالاستنتاج الذى يطرأ على الذهن مباشرة هو أنهم إسرائيليون، وهو استنتاج غير صحيح، فلو كان داود أو سليمان قد اجتاح أى منهما مصر لذكر ذلك فى الكتاب المقدس.

وحتى إذا رجعنا إلى التأريخ المأخوذ به فلا يوجد فيه ذكر لأى غزو أو احتلال لمصر خلال القرن الثانى عشر سواء فى نهاية الأسرة العشرين أو بداية الأسرة الحادية والعشرين أو خلال حكمها، ومع ذلك نجد وثيقة تشير إلى برابرة جاسوا خلال الديار كغزاة.

ونظراً لأن هؤلاء البرابرة كانوا فى شكل قوات نظامية يقودها ضباط، فلا يمكن أن نجد من بين أنشطتهم مثل تلك الأعمال غير المرضية التى تمارسها أقلية أجنبية كانت مستوطنة فى مصر آنذاك كما يظن بعض المؤرخين نظراً لعدم توافر أى فكرة صحيحة عن هؤلاء البرابرة.

وفى قرابة نفس الفترة التى حدث فيها «الاستيلاء على المعبد» وطرد الكاهن الأعظم امنحوتب كان من بين الضباط الذين يقودون قوات البرابرة قائد يدعى بنحاص أو فنحاص ويعتبر فنحاص هذا هو المسئول عن طرد الكاهن الأعظم. وكان قد ظهر فى مصر العليا على رأس حملة عسكرية قوية طردت أمنحوتب وقامت بالعمل على استتباب النظام.

وجاء فى بردية ماير أيضاً أن فنحاص قتل بعض نابشى القبور، وأن قتلهم جاء بعد محاكمتهم وإثبات التهم عليهم. هنا، قد يُفترض أن يكون ذلك الذى عمل على استتباب النظام رجلاً له احترامه، ولكن الحقيقة خلاف ذلك، فإن اسم بن حاصى أو فنحاص مكتوب بطريقة تجعل من المؤكد أنه كان من أعداء الموالين للحكم فى طيبة، وعدم وجود أى لقب له يدل على أنه كان شخصية شهيرة.

وإذا كان فنحاص هو الذى شدد العقوبة على اللصوص بعد محاكمتهم وعمل على استقرار البلاد فلماذا إذاً يعتبر عدواً للموالين للحكم أو الوطنيين؟ لكن المعروف فى الحقيقة أنه فرض ضرائب عالية أو أخذ يجمع مثل هذه الضرائب العالية فى المدن الواقعة إلى جنوب طيبة، وأنه كان يرهب أبناء الشعب أحياناً فيجعلهم يتشردون ويفرون خوفاً من أناس جاء ذكرهم فى النص الهيروغليفى تحت اسم ايمداوت. ا.ن. «وحقيقة أمر هؤلاء الايمداوت مازالت غامضة».(٥) وكانت هذه هى أول مرة تذكر ويكتب فيها كلمة امداوت لتدل على أناس بعينهم، مما يجعلنا قد نستنتج أن المقصود بالكلمة الميديون.

ومن الأعمال الطيبة التى تذكر عن فنحاص هو تعيينه حريحور، وهو

رجل عسكرى ليس له نسب معروف فى منصب الكاهن الأعظم فى قصر امنحوتب. وتلقى فنحاص أمراً ملكياً (لم يذكر اسم الملك الذى أرسله له) ليتعاون مع تاجر العاديات الملكية واسمه ينزكى يوردكيات لتوريد آثار من الأحجار شبه النفيسة لمعمل المدينة السكنية.

من هم هؤلاء البرابرة أو الهمج الذين جمعوا الضرائب وخلعوا الكاهن الأعظم وعينوا كاهناً آخر من الرجال الذين نشأوا تنشئة عسكرية، والذين عاقبوا المخالفين والمجرمين وكانوا مسئولين عن حفظ النظام، وكانوا مقسمين فى شكل قوات نظامية يقودها ضباط، والذين أرهبوا السكان بحيث لا يحاولون الخلاص، والذين يجمعون الأحجار شبه الكريمة لملك لم يذكر اسمه لمدينة سكنية لم يذكر اسمها أيضاً؟

كان لفظ البرابرة هو التعريف الشائع للفرس فى اليونان، وكثيراً ما استخدم فى كتابات المؤلفين اليونانيين الذين كتبوا خلال القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد ليدل على الفرس فى عهود دارا واكسركسيس وارتاكسركسيس وغيرهم من ملوك الأسرة الشامانية، حيث كانوا يسمون الفرس برابرة على الرغم من فخامة قصورهم الموجودة فى برسوبوليس والثراء والغنى الذى يظهر فى زى جنودهم. وكانت قوات احتلالهم لجميع المرزبانات تحت قيادة ضباط تحت قيادة حكام المرزبانات.

وكان البرابرة فى الوثائق المصرية التى ترجع إلى عصر الأسرة الحادية والعشرين هم الفرس. الذين كانوا يجمعون الضرائب وينفذون أحكام القضاء «من إعدام ونفى ومصادرة أملاك أو سجن» وفقاً لما جاء فى سفر عزرا (الإصحاح ٢٧، الآية ٢٦) وكانت المدينة السكنية هى العاصمة الفارسية، أما فنحاص ذاك أجنبياً كان أو مصرياً فقد كان هو الحاكم الفارسى الذى قاد البرابرة واستولى على طيبة ومعبدها.

فإذا كان لنا أن نحاول تحديد تاريخ لخلع امنحوتب من وظيفته أو الظروف التى خلع فيها فلابد أن نبحث أولاً عن الفترة الزمنية التى تناسب هذا الوصف للاستيلاء على المعبد على يد أناس يسمون البرابرة، وعن موقع تلك الفترة فى التاريخ الذى نعيد بناءه. إنها اللحظة التى اعتلى فيها ارتاكسركيس الأول العرش، وأخذ يواجه بشدة محاولات

المصريين لاستعادة استقلالهم. لو أن هذه الفرضية صحيحة لكان ذلك التاريخ هو عام ٤٥٨ ق م. ويتبع ذلك أن حريحور لم يعين بمجرد أن خلع امنحوتب من منصب الكاهن الأعظم بل بعد ذلك ببضع سنوات.

هوامش الفصل الأول

***

1- "Egypt from the Death of Ramesses III to the End of the Twenty-first Dynasty," Cambridge Ancient History (Cambridge 1975) Vol. II Part 2, Chapt XXXV, p. 643.

الف عام وهمية

١- المرجع السابق ص ٦٥٦

غزو قمبيز لمصر

١- يصف سفر دانيال الغزو البابلى لبلاد الفرس فى عهد دارا، وهناك احتمال بأن دارا الذى كان فى خدمة سيروس هو الذى قاد الهجوم على بابل

٢- حكم أمازيس الأول (أحمس) بعد طرد الهكسوس من مصر كأول ملك فى الأسرة الثامنة عشرة، أما الثانى فإنه هو الذى جلس على العرش خلفا للفرعون هو برا (أبرايس) الذى يعتبر السابق لآخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين رغم أنه كان من أقاربه.

٣- ترجمها جاردنر فى كتاب: A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs (Galaxy ed., 1966), p. 366.

4- Posener, La premiére donination perse en Egypte.

شكاوى أورما

1- M. A. Korostovtzev Hieratic Papyrus 127 from Collection of the, State Museum of the Arts named for A. S. Pushkin (Moscow, 1961).

٢- أنظر C. Alderd in Journal of Egyptian Archaeology XLIII (1927) 30-41 أيضا كتابى أو ديبوس واخناتون.

3- G. Fecht, "Der Moskauer 'literarische Brief' als historisches Dokument," Zeitschrift für Aegyptische Sprache, 87 (1962).

٤- هيرودوتس الجزء الثالث ص ١٤ ترجمة رولنسون G. Rawlinson

من الملك دارا الأول إلى ارتاكسركيس الأول

١- هيرودوتس الجزء الثالث ص ١٧، ٢٥-٢٦ و كذلك ديودور الجزء العاشر ص ١٤.

٢- هيرودوتس الجزء الثالث ص ٣٠ وما يليها.

وجاء الهمج فاستولوا على المعبد

1- Papyrus Mayer A, 6, published in T. E. Peet The Mayer Papyri A and B (London 1920) Peet The Great Tomb Robberies of the Twentieth Egyptian Dynasty, Vol. 2 (1930), p. xxiv. E.F. Wente, "The Suppression of the High Priest Amenhotep" in Journal of Near Eastern Studies, XXV, 2 (April 1966).

2- A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, pp. 299, 301.

3- Wente, Journal of Near Eastern Studies, XXV, 2 (April 1966), p. 84.

4- Gardiner, Egypt of Pharaohs, p. 302.

5- J. ˇCern´y, "From the Death of Ramesses III to the End of the Twentyfirst Dynsty," Cambridge Ancient History, Chap. XXXV, p. 631. Cf. also T. E. Peet. "The Chronological Problems of the Twentieth Dynasty," Journal of Egyptian Archaeology, 18, (1928), 68, Peet reads mdw-'n..

الفصل الثانى

أحقر الممالك كلها

الرحلة الحزينة

أصبحت مصر منذ الغزو الفارسي على يد قمبيز «هى أحقر الممالك كلها» (حزقيال ٢٩/١٥) وتحققت نبوءات كل من جيريميا وحزقيال فيما يتعلق بالحط من قدر مصر ولكن فى زمن بعد زمانهما وهو أواخر عصر حكم أمازيس حينما استولى قمبيز على مصر، واضطهد سكانها وهدم معابدها، واستمر الحال كذلك لأجيال عديدة شغلت معظم فترات العصر الفارسى.

وحينما اشترى جلوشنكوف البرديات التى تتضمن شكاوى اورماى، حصل فى نفس الصفقة على رسائل بردية تحتوى على قصة أخرى من قصص المآسى هى رحلة ويناموں إلى بيبلوس على الساحل السورى. وترجع هذه الرحلة القصيرة التى قام بها ويناموں إلى نفس التاريخ الذى يرجع إليه شكاوى أورماى خلال عهد الأسرة الحادية والعشرين، وكلاهما مكتوب بخط واحد، ولكن القارىء يستطيع أن يدرك أن حكاية رحلة ويناموں تنسب الأحداث إلى فترة سابقة بعدة أجيال لفترة تحرير شكاوى اورماى. ولئن كانت شكاوى اورماى قد ترجمت أخيراً (فى عام ١٩٦١) إلا أن حكاية رحلة ويناموں ترجمت فى حينها حيث ترجمها جلوشنكوف نفسه فى عام ١٨٩٩.

ولا توجد أى وثيقة تصف مصر وموقعها الدولى المتردى خلال الفترة الأخيرة من حكم الفرس أفضل مما ورد فى وصف ويناموں وتجاربه.

كان الكاهن ويناموں مرسلاً فى مهمة من رئيسه الكاهن الأعظم حريحور كى يشترى خشب الأرز من لبنان لبناء الهيكل المقدس للإله

آمون. وحينما وصل إلى تانيس فى الدلتا قدم خطابات التفويض أو وثائق التعريف التى يحملها إلى ناسوبانيبداد حاكم مصر السفلى وزوجته تانيت آمون. وقرئت الخطابات فى حضوره فأرسلوه على ظهر السفينة الحربية مانجيبت.

وقبل أن يصل ويناموون إلى بيبلوس كان ويناموون قد فقد ما كان يحمله من ذهب وفضة ليدفع بها ثمن الأخشاب اللازمة للهيكل المقدس، وحدث ذلك حينما دخلت السفينة إلى ميناء دور وهى مدينة من مدن الجيكر على الساحل الفلسطينى ونزل منها أحد البحارة وهو يحمل معه المزهريات الذهبية وأربع جرار من الفضة وكيس مملوء بالفضة (أو قطع العملة الفضية). وبقى ويناموون فى مدينة دور لمدة تسعة أيام يجأر بالشكوى لأميرها باديل ويحمله مسئولية العثور على اللص. بيد أن الأمير باديل رفض الشكوى ورفض أن يقوم بأى تحقيق ويتحمل أى مسئولية عن العثور على اللص باعتبار أن اللص من غير سكان المدينة، بل واحداً من بحارة السفينة. وواصل ويناموون رحلته البحرية إلى بيبلوس.

ولقد وصف ويناموون فى مذكرات رحلته كل ما عاناه من مصاعب مرت به فى الطريق وتعصب واضطهاد واجهه فى المدن السورية بسبب أصله المصرى وانتمائه لمصر، وانعدام الحماية فى البحار، وكان وصفه لكل هذه الأمور وصفاً حياً بليغاً.(١)

كان السفر إلى سوريا فى ذلك الوقت محفوفا بالأخطار، ولقد جاء فى كل من سفر نحميا(٧/٢) وسفر عزرا (٢٢/٨) اشارة لانعدام الأمان فى طرق السفر حتى لو كان الإنسان من أتباع الملك. ويعترف عزرا بما أصابه من حرج حينما طلب من الملك الفارسى «فرقة من الجنود والفرسان» لحمايته وهو فى طريقه إلى سوريا لأنه سبق أن أخبر الملك بأن الإله يحميه ممن يحاولون الاعتداء عليه. ولكنه مع ذلك كان يشعر بالخوف. أما نحميا فقد حمل معه خطاباً من الملك إلى حكامه فيما وراء النهر (يقصد نهر الفرات) وحامية صغيرة من الفرسان لحمايته وتأمين طريقه.

وحينما وصل ويناموون بسفن متعددة إلى بيبلوس أمره أميرها زاكربعل أن يغادر من فوره وفى ذلك يقول: هكذا قضيت تسعة وعشرين

يوماً فى المرفأ وظل هو طيلة ذلك الوقت يرسل لى كل يوم يقول «لتقلع عن مرفأى».

انتظر المبعوث المصرى سفينة تحمله إلى وطنه، وأخيراً، فى إحدى الأمسيات حينما كان على وشك الرحيل حدث أن أصيب أحد الشبان المقربين من الأمير بغيبوبة ونطق أثناءها بنبوءة عن بعثة وينامون، تبعها وصول دعوة إلى وينامون بالبقاء. وسميت هذه النوبة التى أصابت ذلك الشاب «أول حالة غيبوبة تنبؤية عرفت لنا».(٢) وكان آخر أنبياء بنى إسرائيل قد ماتوا آنذاك.

وافق أمير بيبلوس أن يقابل وينامون الذى وصف المشهد: «رأيته جالساً فى متكئه المرتفع مسنداً ظهره إلى النافذة بينما تتلاطم خلفه أمواج البحر السورى العظيم.»(٣) فكان وصفاً فيه حيوية كأننا نراه أمامنا.

وسأله الأمير: «كم مضى عليك من الزمن منذ أن جئت من البلد التى بها آمون؟» فأجابه وينامون «خمسة أشهر ويوم حتى الآن».

وسأل زاكربعل وينامون عن أوراقه الرسمية فأجابه بأنها مع ناسوبانبداد فى تانيس، فغضب الأمير وسأل عن السفينة التى وضعه فيها ناسوبانبداد، وعن طاقمها السورى، وأين كانوا.

وأغلب الظن أن الأمير كان يعلم أن وينامون ترك السفينة ليقودها مانجبيت حينما سرق منها الذهب والفضة فى المرفأ الفلسطينى دور.(٤) ولم يكن المبعوث الذى أتى للحصول على خشب الأرز لإقامة الهيكل المقدس للإله آمون يحمل أوراقاً رسمية ولم تكن معه سفينة أو ذهب وفضة ليدفع ثمن الاخشاب.

وحول وينامون موضوع الحديث بمهارة دبلوماسية نحو مشكلة جنسية طاقم السفينة التى سافر عليها من تانيس قائلاً: «ألم تكن سفينة مصرية؟» وواصل حديثه قائلاً إن السفن التى تبحر من مصر وإليها ليس عليها أطقم سورية. فأجاب الأمير على ذلك قائلاً بأن فى مرفأه عشرين سفينة تبحر بانتظام إلى مصر، وصمت الأمير قليلاً وتابع كلامه قائلاً:-

«هذا بالنسبة لصيداء، وفى الموقع الآخر الذى مررت به أليس هناك خمسون سفينة أخرى لها علاقة تجارية مع «ويركيت ايل» وهى راسية

عند منزله. يبدو أن ويركيت ايل أو بركات ايل هذا كان - وفقاً لما ذكره مترجم النص - تاجرا فينيقياً مقيماً فى مصر ويتولى شئون التجارة مع صيدا بصفة خاصة. ويعتبر بركيت ايلِ من الأسماء الهامة ذات الدلالة ولذا سوف نعود إليها بعد الانتهاء من استعراض بقية الحديث بين ذَاكربعل وويناموِن والأحداث التى أعقبت ذلك الحدث.

قال الأمير غاضباً «لو أن حاكم مصر كان رئيساً لى لحق له أن يطلب منى هدية، ولكنى لست تابعاً له، لست تابعاً لكم ولا لمن أرسلكم.» وأردف قائلاً: «ما هذه الرحلات البائسة التى أرسلوكم فيها؟»(٥)

أجاب ويناموِن أنه لا توجد سفينة لا تنتمى إلى آمون: «فالبحر ملك له ولبنان ملك له» وطلب ويناموِن من الأمير أن يسمح بإرسال الأشياء إلى تانيس مع طلب منه موجه إلى ناسوبانبداد ليحصل منه على قرض يرده (من حريحور) عند عودته. فوافق الأمير على ذلك، وبعد بضعة اسابيع أرسل ناسوبانبداد بعض الذهب والفضة، وخمسمائة لفافة من أوراق البردى وخمسمائة قطعة من جلد البقر وخمسمائة حبل، وأرسل الأمير ثلاثمائة رجل إلى الجبال لقطع اشجار الأرز وجر كتل الخشب إلى ساحل البحر، وأمر ويناموِن أن يأخذ كتل الخشب ويرحل. فتردد ويناموِن لأن البحر كان هائجاً وكان يخشى من بأس سفن جيكار. وفقد الأمير صبره فقال له ويناموِن: «هلا أتيت لترى أهوال البحر؟ لو أنك رأيت تلك الأهوال لأدركت ما أخشاه.»

قال الأمير الغاضب لويناموِن «فلتشكر حظك» فإن البعثات التى أتت من مصر فى الأجيال السابقة فى أيام خا-ام-واست لتشترى خشب الأرز قبض عليها أجداد هذا الأمير وبعد أن بقيت سبع سنين فى بيبلوس قضت نحبها هناك. وقال لسمساره: «خذه ليرى مقابرهم» فاستجداه ويناموِن قائلاً: «لا ترينى إياهم.»

وأمره الأمير مرة أخرى أن يرحل فقال ويناموِن والرعب يملأه «وماذا عن سفن جيكر، ربما تقبض علينا، فلقد تحسست وجود إحدى عشرة سفينة من سفن جيكر آتية من أعالى البحر.» وصاح جيكر قائلاً: «اقبضوا عليه، ولا تتركوا أيا من سفنه تبحر إلى مصر». وقال ويناموِن فى مذكراته: «جلست بعد ذلك أبكى، فرق قلب الأمير للرجل الباكى من الخوف، وقال

لربابنة سفن جيكر الذين طلبوا تسليمه لهم «أنا لا أستطيع أن أقبض على مبعوث آمون وأبقيه في أرضي، فدعوني أخرجه أولاً ثم لتتبعوه وتقبضوا عليه.»

كانت القرصنة في البحر المتوسط خلال العصر الفارسي شيئاً مشروعاً (٦) فقد كان الأثينيون والأسبرطيون والصقليون يجوبون البحر بسفنهم في كل اتجاه، وكانت صيدا هي أكبر مرفأ لبناء السفن وبيعها، ولم يكن بيع تلك السفن قاصراً على التجار الشرفاء وحدهم.

وأدت فكرة اتباع الطريق الدائرى خلال العواصف إلى أن جنحت سفن ويناموى فى قبرص فى ميناء تحكمه الأميرة حتب. ولم يعرف كيف وصل ويناموى أخيراً إلى مصر، فإن الجزء الأخير من البردية مفقود.

ومن المدهش حقاً استخدام عدد من الكلمات العبرانية فى حكاية رحلات ويناموى، فليعبر عن الاجتماع استخدم كلمة «مُويد» واستخدم لكلمة التحالف الكلمة العبرية «هيفر»، وهناك أمثلة كثيرة على استخدام كلمات عبرية عديدة فى وسط المفردات المصرية ظهرت واضحة فى كتابات ويناموى.

وهناك اسمان من الأسماء التى وردت فى البردية أدت إلى خلاف وجدل كثير بين العلماء. أحدهما خايموايز (خا-ام-وازست) الذى فى أيامه كان الكثير من المبعوثين الذين يأتون من مصر يمنعون من مغادرة ببليوس رغماً عنهم، وكان الثانى هو صاحب السفينة ويركر-ايل أو بيركاث ايل الذى كان يتولى أمور التجارة بين صيدا وتانيس.

لم نجد حلاً لمسألة هوية خايموايز. فكون رمسيس التاسع هو رمسيس خايموايز ميرير آمون، وكون رمسيس الحادى عشر منمارى ستبنبتاح رمسيس خايموايز ميرير أمون نويتخيكاون اعتبرت مرفوضة. وليس من شك فى أن خايموايز كان ملكاً. (٧) ولكن رمسيس التاسع ورمسيس الحادى عشر اعتليا العرش مؤخراً، وكون ويناموى كاهنا وموظفاً لا يلغى أن يذكر كل منهما حاملاً لقب الملك، وهو لقب لا يمكن لموظف مدنى أو كاهن أن يتغاضى عن ذكره.(٨) وحول رفض الدعوة المهينة لزيارة قبور المبعوثين الذين حضروا فى عهد خايموايز يقول ويناموى: « لا تريني إياهم، فبالنسبة لخايموايز (٩) كانوا مجرد رجال أرسلهم لكم شخصياً بصفته

رجلاً عادياً. ويعلق ويلسون على ذلك بقوله «هذا يلغى إمكانية الاعتقاد بأن خايم واست كان هو رمسيس التاسع أو رمسيس الحادى عشر، لأن عبارة وينامون» قد لا تكون إشارة إلى الفرعون كرجل عادى.»(١٠)

كان الفرعون المسمى رمسيس التاسع متعاصراً مع حريحور، ولكن رمسيس المعروف باسم رمسيس الحادى عشر فلابد أنه سابق عليه نظراً لأنه ظهر فى الحفر يتلقى هدايا الزهور من الكاهن امنحوتب. وكلا الملكين يرجعان إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وكلاهما يستخدم لقب خايم واست. ولابد أن الإشارة الواردة فى بردية وينامون كانت تقصد السابق منهما وهو الذى خلع مع الكاهن الأعظم أمنحتب فى وقت مبكر من عصر ارتاكسركيس الأول. وأغلب الظن أنه هو هو ايناروس الوارد اسمه فى المصادر اليونانية، على أنه الشخص الذى ثار ضد الملك ارتاكسركيس الأول. أما الرأى القائل بأن خايم واست هو هو قمبيز فتقابله صعوبات التفسير اللغوى.

أما عن الاسم الثانى الذى عثر عليه فى بردية وينامون والذى سبب جدلاً فهو صاحب السفن التى تبحر من تانيس فى الدلتا، وهو الذى قال عنه أمير ببلوس «إن فى بيبلوس خمسين سفينة متعاقدة مع بيركاث إيل لتبحر إلى وطنه مصر».

ولقد توصل عالم المصريات الألمانى ايرمان فى كتابه عن رحلة وينامون إلى نتيجة هامة حول الحروف الهيروغليفية التى يتكون منها اسم بيركث ايل فهى «وركتر» حيث يقوم حرف «ر» وحرف «ل» كل مقام الآخر، ويقوم حرف «و» وحرف «ب» كل مقام الآخر.(١١) وعلق ايرمان على ذلك مشيراً إلى أن صاحب السفن سامى الأصل فهو غالباً فينيقى ومعنى الكلمة «بركات الله» واسمه ينتهى كغيره من الأسماء السامية بالمقطع «ايل».

أضاف بوركهارت نقطة تؤيد قراءة ايرمان للاسم، ولكنه تساءل أيضاً حوله على أساس أن المصريين فى العصور المتأخرة كانوا يبدلون الحرف «ب» المتحرك بالحرف «و» الساكن، وأن القرن الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد كان فترة مبكرة لحدوث مثل هذا التراخى فى تركيب الالفاظ.(١٢)

وفى عام ١٩٢٤ نشر ايسلر R. Eisler بحثاً بعنوان:

Barakhel sohn und Cie Rhedereigeigesellschaft in Tanist (شركة ابن

براخل للملاحة فى تانيس)(١٣) ولفت الأنظار فى هذا البحث إلى حقيقة أن المصادر العبرية المتأخرة تحتوى على إشارة لاسم هذه الشركة. فإن وصية نفتالى فى كتاب «وصايا أبناء يعقوب» تخبرنا بوجود شركة ملاحة تسمى شركة بن براخل. وتعتبر وصية نفتالى من المأثورات التى ألفت فى عام ١٤٨ ق.م وهى السنة التى غزا فيها جوتاثان من أسرة هاشمانايم (الميكابى) مدينة يافا وفتح بذلك أبواب التجارة عبر البحار.

ويحكى فى الوصية عن رؤية سفينة تمر بساحل يافا بدون طاقم ولا ركاب، وإن كان اسم صاحب السفينة مكتوباً على الصارى وهو بن براخل.

واسم براخل أو بيركات - ال يعنى بركات الرب بتركيب لفظى أقرب ما يكون إلى معنى البركة من الرب.

وتساءل ايسلر متعجباً عما إذا كانت شركة الملاحة قد بقيت إلى وقت متأخر يصل إلى ١٥٠ ق.م، فلو كان الأمر كذلك فمعنى ذلك أن سفنها ظلت تبحر إلى الساحل السورى لمدى تسعمائة عام منذ رحلة وينامون حوالى عام ١١٠٠ ق.م، غير أن هذه الفترة الزمنية تبلغ ثلاثة أمثال الفترة الزمنية التى استمرت فيها شركات الملاحة الانجليزية وشركات ملاحةالهان. أما افتراض أن كاتب نصائح نفتالى قد جمع معلومات من نسخة من حكاية وينامون فلابد أن يرفض. هذا ما ارتآه ايسلر بصفة عامة، ولكن ذلك يرجع كذلك إلى وجود اشارتين أخريين عن شركة ملاحة ذات اسم مختلف قليلاً.

وفى تقديرنا أن وينامون لم يقم برحلته عام ١١٠٠ ق.م ولكن فى وقت قريب من عام ٤٠٠ ق.م وبذلك لن يكون هناك ذلك الفارق الزمنى الذى يبلغ تسعمائة وخمسين عاماً. وفضلاً عن ذلك فإن من المقنع أن تكون نصائح نفتالى قد كتبت قبل أن يحقق هاشمانيام استقلاله عن سيطرة السليوسيديين التى ربما كانت خلال العصر الفارسى، ولو أن هذه النصائح كانت ترجع إلى اواسط القرن الثانى الميلادى فربما كانت الملاحة مازالت موجودة أو أنها كانت معروفة لكاتب النصائح حيث سبقته بنحو قرنين من الزمان وليس نحو ألف عام.

ويعارض البرايت فكرة ايرمان، ويزعم أن الاسم كما يقرأه هو «واركار» وهو ليس الاسم المصرى ولا السامى، ولكنه ربما كان من الأسماء

الآسيوية الأصل (اناضولى أو ايجى)، وأنه اسم شخص شارك فى حركات شعوب البحر واستقر فى مصر.(١٤) ويبنى البرايت رأيه على الزمن الذى وقعت فيه غارات أو غزوات شعوب البحر. بيد أن معظم علماء المصريات يميلون إلى الأخذ بقراءة ايرمان للاسم، ويشهد على ذلك ويلسون.(١٥)

تكرار المواليد

خرج ويناموں فى رحلته فى وقت ما خلال أواخر الحكم الفارسى فى مصر. فهل يمكننا تحديد التاريخ بشكل أدق ؟

جاء فى افتتاحية بردية ويناموں «أن ويناموں بدأ رحلته فى السنة الخامسة، الشهر الثالث من الفصل الثالث»، ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو من أى عصر كانت تلك السنة الخامسة؟ المعتاد فى الوثائق المصرية أن السنة التى تذكر فى افتتاحية الوثيقة تشير إلى سنة من بدء حكم الملك، وعلى ذلك فمن هو الملك الذى كان يحكم فى الوقت الذى خرج فيه ويناموں فى رحلته؟ إن اسم ذلك الحاكم غير مذكور، كان يقال إن ويناموں وصل إلى تانيس فى الدلتا قبل رحيله، وأنه أعطى خطاب التفويض الذى كتبه له حريحور إلى ناسوبانبداد، وأن ويناموں تحدث إلى باديل أمير دور حينما سرق منه الذهب والفضة قائلاً: «إن (هذا الذهب والفضة) ملك لآمون رع، ملك الآلهة، مالك الأرض، إنها ملك لناسوبانبداد، إنها ملك لحريحور سيدى ولغيره من أعيان مصر»، ولم يأت ذكر أى ملك، ولم يُشر إلى أى من هذين الإسمين (حريحور وناسوبانبداد) على أنه ملك.

يعتبر حريحور الكاهن الأعظم وناسوبانبداد حاكم الدلتا من رجالات رمسيس الحادى عشر، وهو الذى يفترض أنه أخر الرعامسة، والذي بموته انتهت الأسرة العشرون. ويقال إن رمسيس الحادى عشر لم يكن فى السلطة وذلك لأن الرسول حين شكا من حادث السرقة إلى أمير دور السورى كان يتحدث باسم كبير كهنة طيبة وحاكم الدلتا، ثم بعد ذلك حينما احتجزه زاكربعل أمير بيبليوس أشار مرة أخرى إلى هذين

الرجلين ولم يذكر اسم ملك مصر الذى كان من المتوقع أن يحتج باسمه لو أن هناك سلطة ملكية فى مصر.لذلك يفترض أن العام الخامس ربما كان يشير إلى «الفترة التى كانت فيها مصر بلا ملك فى أعقاب سقوط الأسرة العشرين.»(١) على أنه من الواضح أن ذلك شىء لا يمكن تصديقه، فإن فترة بدون ملك حاكم لا يمكن أن تذكر بالسنين والشهور فى مقدمة وثيقة، إذ إن المصريين كانوا يحددون الزمن من بداية اعتلاء الملك العرش. ولم يكن فى مصر ملك حاكم فى ذلك الوقت مع ذلك فإن الوثيقة مؤرخة بالسنة الخامسة.

نجد فى وثائق أخرى ترجع إلى نفس الفترة تأريخاً مماثلاً بذكر سنوات معينة، ولكن لم يأت ذكر لاسم الملك، بيد أن هناك ذكراً «لتكرار المواليد» أحياناً. كتب جاردنر فى كتابه مصر الفراعنة، فيما يتعلق بعصر الكاهن حريحور يقول «بدلاً من الاستمرار فى ذكر التواريخ كما هو معتاد، منسوبة إلى سنة حكم الملك بدأ عصر جديد من الغموض يوصف «بتكرار المواليد».(٢)

فنجد أن بردية ماير «أ» معنونة: «السنة الأولى من تكرار المواليد». وأسماء لصوص المقابر فى هذه الوثيقة هى هى أسماء لصوص المقابر فى بردية أبوت التى تحمل تاريخ «السنة الأولى، الشهر الأول من فصل الفيضان، اليوم الثانى المقابل للسنة التاسعة عشرة.» من الواضح أن هناك طريقتين لوضع تاريخ الحدث كانتا مستخدمتين آنذاك. فمثلاً ربما كانت السنة التاسعة عشرة تشير إلى تعيين الكاهن الأعظم، ولكن: ماذا تعنى السنة الأولى فى «تكرار الميلاد»؟ هل هى نوع من النهضة أو الصحوة؟

يذكر أحياناً أن حريحور زعم أن عصر نهضة بدأ منذ التنصيب أو الجلوس على العرش (كان اسمه فى أحيان كثيرة، يوضع فى داخل شعار بيضاوى وهو المميز لاسم الملك، ولكن ذلك لم يكن فى كل الأحيان). ولكن لماذا يعتبر عصر حريحور هو بداية عصر النهضة؟ لا يمكننا التوصل إلى أى شىء من رحلة وينامون التى تمت بتكليف وتفويض من حريحور على أن هناك بداية لعصر جديد أو الحصول على لقب ملكى.

وإلى جانب تكرار الميلاد والتاريخ بهذه الطريقة الغامضة التى

عرفناها منذ عهد رمسيس الحادى عشر قبل حريحور بعدة سنوات فقد وجدت فى السنة السابعة من «تكرار الميلاد» باسم منمار ستبينبتاح رمسيس (رمسيس الحادى عشر) وثيقة تتعلق بكيفية تعيين شخص معين يدعى نيس آمون فى وظيفة الكاتب فى مخازن الكرنك بمرسوم ملكى.(٣)

هكذا بعد طول جدال أمكن التوصل إلى تفسير للسنة الخامسة التى وردت فى مطلع بردية وينامون، باعتبارها متعلقة بعصر تكرار المواليد الذى ابتدعه حريحور.

ولكن يبدو لنا أن السنة الخامسة تشير إلى سنة من حكم أحد السادة الفرس إما أن يكون دارا الثانى نوثوس (من ٤٢٤ ق.م إلى ٤٠٤ ق.م) الذى ربما تمت الرحلة فى عهده عام ٤١٩ ق.م، أو أن يكون ارتاكسركيس الثانى الذى بدأ حكمه عام ٤٠٤ ق.م فتكون الرحلة فى عام ٤٠٩ ق.م.

ويلقى حدسنا هذا عن معنى التاريخ وعلاقته بتكرار الميلاد تأييداً من عادة متبعة فى أثناء حكم ملوك الفرس. فما علينا إلا أن نفتح كتاباً عن التاريخ القديم للإمبراطورية الفارسية مثل كتاب الميديون والفرس تأليف وليام كوليشان(٤) لنقرأ فى صفحته الأولى:

«بدأت مدينة برسوبوليس... على يد دارا عام ٥١٨، وتمت على يد اكسركيس.ففى كل يوم من أيام السنة الجديدة فيها كانت الملكية الشامانية تجدد ويأتى الناس من كل أنحاء الإمبراطورية ليقدموا فروض الولاء والطاعة.»

وينامون ينشىء هيكلاً

يمكن القول بصفة عامة أن وينامون وصل إلى وطنه أرض مصر بعد أن أتم رحلة المغامرات بنجاح وكتب قصة مهمته فى بيبلوس.

ونظراً لأن وينامون كان مبعوثاً أرسله حريحور. فلابد وأن كانت له مكانته بين الكهنة، وربما كان من المفيد هنا أن نبحث عن آثاره فى الكرنك أو حتى فى الواحات الخارجة وواحة سيوه، وهى الأماكن التى كانت عبادة آمون مزدهرة فيها خلال العصر الفارسى من التاريخ المصرى ولن يكون لهذا البحث فائدة كبيرة كما سنرى بعد.

يعرف معبد زيوس آمون فى واحة سيوه الآن باسم معبد أجورمى وهو مهدم، ولكن هناك معبد آخر متروك فى نفس الواحة هو معبد أم عبيده. ويذكر ديودور اعتماداً على كليتارخوس كاتب سيرة الاسكندر أنه على مسافة من اكروبوليس فى معبد متلقى الوحى «يوجد معبد آخر لآمون مقام فى ظل أشجار كثيرة، وبجواره يوجد نبع ماء يسمى نبع الشمس...»

كان معبد أم عبيدة فى عهد الاسكندر محاطاً بغابات من الأشجار الباسقة؛ والباقى منه اليوم حائط واحد عليه نقوش بالحفر الغائر وكتابات هيروغليفية، وحوله توجد عتبات حجرية بعضها يشتمل على نقوش مكتوبة. وكانت هناك حوائط عديدة وسقف يصل بينها قبيل نهاية القرن التاسع عشر، ولكن أحد ذوى النفوذ فجرها بالديناميت للحصول على كميات من أحجار البناء.

وفى عام ١٩٠٠ زار ستاين دورف واحة سيوه وفحص الحائط المتبقى من المعبد، وقرأ عليها اسم منشىء المعبد: وينامون. ويصفه النص المحفور على الحائط بأنه «السيد الحقيقى والزعيم العظيم للأرض الأجنبية وينامون...» وهناك منظر بالحفر الغائر يظهر وهو يركع أمام الإله آمون: إله معبد متلقى الوحى الذى كان يعبد أيضاً فى الهيكل الذى أقامه له وينامون.

لم يكن ستاينفورد مستعداً لأن يربط بين وينامون الذى قام بالرحلة إلى بيبلوس ووينامون الذى أقام هيكل آمون: إذ لا يوجد أى تاريخ يدل على زمن سابق لعصر الحكم الفارسى فى مصر،(١) بينما كان محدداً لرحلة وينامون إلى بيبلوس القرن الحادى عشر قبل الميلاد.

من الواضح أن وينامون قد حدد هويته على جدران المعبد الذى بناه على أنه الزعيم والسيد أو صاحب السلطة فى البلاد الأجنبية. ولا يمكن لرجل عادى أو لكاهن أن يكون زعيماً للبلاد الأجنبية، ولكن بناء على ما علمناه من أسفار وينامون إلى البلاد الأجنبية فيمكن أن يكون قد التمس لنفسه ميزة المعرفة بالبلاد الأجنبية. ولئن كنا نعرف من النقوش المكتوبة أن أباه كان ناخت-تيت وأن أمة كانت نِفر-رنبت. إلا أن أسميهما لم يرد ذكرهما فى بردية وينامون (ما بقى منها طبعاً).

وربما أمكن لنا تحديد الوقت الذى قام فيه ويناموون ببناء المعبد بشىء من الدقة:

قام ميناتولى بزيارة للواحة منذ أكثر من مائة وخمسين عاماً، ووصفها ووصف المعبد والمعابد الموجودة بها.(٢) ولاحظ على أحد الأعتاب المتهدمة فى أم عبيدة طرتين بيضاويتين قدم صورة لهما فى كتابه. لا توجد هاتان الطرتان الآن فيما بقى من الأطلال. ويذكر الدكتور أحمد فخرى أنه «رغم عدم وضوح الحروف فيهما إلا أنه من غير المشكوك فيه إنتماءهما إلى نيكتانابو الثانى.» ورد ذلك فى كتاب الدكتور أحمد فخرى عن واحات سيوه.(٣) «كتب اسم نيكتانابو الثانى على الواجهة، ولكن فى الحجرة الداخلية نجد أن اسم بانى المعبد وهو ويناموون مكرر عدة مرات.» ولقد سبق أن بينا أن نخت حورحب الذى وجدت طرات باسمه هنا وفى جهات أخرى لم يكن هو هو نكتانابو الثانى الذى يتحدث عنه الكتاب اليونانيون ولكنه كان أحد الولاة فى عهد دارا الثانى.

أصبح من المؤكد أمامنا الآن أن «السنة الخامسة» التى أشار إليها ويناموون فى مطلع برديته، التى تكلم فيها عن أسفاره، هى السنة الخامسة من حكم دارا الثانى وهى سنة ٤١٩ ق.م.

ونظراً لأن حريحور هو الذى أرسل ويناموون فى تلك البعثة، وأن نخت حورحب كان، كما يبدو، مشتركاً مع ويناموون فى بناء الهيكل فى أم عبيدة بالواحة، بالإضافة إلى ذلك كان حريحور الذى عاش أيضاً فى عهد دارا الثانى يشغل وظيفة دينية رفيعة هى كبير الكهنة، ولكن فى الواحات الجنوبية: الخارجة والشمالية سيوه كان له لقب آخر هو قائد الجيش.

وعلى هذه الأسس القوية يمكننا أن نقول ثقة إن هذه «الرحلة الحزينة» التى وصل إلى أيدينا نصها المكتوب بدون الجزء الأخير قد وصلت إلى مصر سالمة، والأهم من ذلك أن ويناموون عاش فى العصر الفارسى من التاريخ المصرى، وبالتحديد فى عصر دارا الثانى. فصاحب المخطوطة ومنشىء المبانى شخص واحد اتحد هنا من وجودين كان يفصل بينهما نحو سبعمائة عام.

كان كاهن معبد الإله الأكبر آمون فى سيوه الذى قابل الاسكندر الأكبر وباركه هو الجيل الثالث بعد حريحور. ولقد امتدت هذه الأجيال الثلاثة

من عهد رحلة ويناموون عام ٤١٩ ق.م إلى وصول الاسكندر إلى مصر عام ٣٣٢ ق.م أى على مدى سبع وثمانين عاماً.

المخبأ الملكى

ظلت التحف الأثرية الآتية من مصدر سرى تصل إلى أيدى السياح وتجار العاديات فى كل من الأقصر والقاهرة وباريس لمدى عشر سنوات قبل عام ١٨٨١. كان واضحاً أن مصدر هذه التحف الأثرية هو مخبأ أو مقابر غير معروفة لرجال الآثار. وحينما بلغت هذه التجارة غير المشروعة حد الخطورة بدأت أعمال المباحث تحاول الكشف عنها وتوصلت إلى تورط بعض أفراد إحدى العشائر العربية التى تسكن قرية القرنة الواقعة فى البر الغربى للنيل أمام الأقصر. وحينما أجرى التحقيق مع افراد هذه العشيرة أنكروا جميعاً تورطهم فى عمليات حفر غير مشروع أو علمهم بمثل هذه الأشياء على الإطلاق. واهتم خديوى مصر اهتماماً شخصياً بالأمر، وكان جاستون ماسبيرو عالم المصريات الشهير الذى كان مسئولاً عن الآثار فى ذلك الوقت يبلغ الخديوى أولاً بأول بكل ما يدور حول هذا الأمر وحدث أن سجن أحد أفراد تلك العشيرة للاشتباه فيه وقضى شهرين فى السجن دون أن يكشف عن شىء، ولكن حينما أفرج عنه لعدم كفاية الأدلة بدأت بينه وبين شركائه مشاجرات، وبخاصة شقيقه الأكبر، وطالب بأن يكون له نصف حصيلة التحف التى يعثر عليها فى المستقبل بدلاً من خُمسها كتعويض له عن الفترة التى قضاها فى السجن. وتألم لعدم إجابته لمطلبه ولشعوره بالظلم الواقع عليه كاد أن يكشف السر للسلطات، ولكن أخاه الأكبر سبقه إلى ذلك. بالقرب من معبد الدير البحرى الذى شيدته الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة كانت هناك حفرة عميقة مغطاه وسط الصخور تمتد إلى عمق اثنى عشر متراً وتؤدى إلى سرداب يبلغ طوله نحو خمس وستين متراً، وعند نهاية السرداب حجرة أو كوّة كبيرة طولها سبعة أمتار وعرضها أربعة وارتفاعها خمسة، وكانت هناك حجرة أو كوة أخرى وسط السرداب، وفى تلك الحجرة وتلك الكوة كانت هناك توابيت ومومياوات لكثير من الفراعنة العظام، تمكن ماسبيرو

ومساعده اميل بروجش من قراءة بعض أسمائهم على « ضوء الشموع».

عثر في هذا المخبأ على مومياء أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة بعد طرد الهكسوس من قلعة أفاريس، ومومياء أمنحتب الأول الذي كانت له مكانة خاصة وكان يعتقد أنه ملك مقدس، ومومياء تحتمس الأول وابنه تحتمس الثالث الفاتح العظيم، ومومياء سيتي أعظم ملوك الأسرة التاسعة عشرة، ورمسيس الثاني وابنه من ملوك الأسرة العشرين. واعترف ماسبيرو أنه كان يتوقع أن يعثر في هذا المخبأ على توابيت ملوك وأمراء من غير المشاهير، ولكنه دهش حينما عثر على توابيت ملوك معروفين لكل دارسي التاريخ مجموعين بهذه الصورة فيما يشبه مثوى العظماء. وكانت أسماء الملوك مكتوبة على الأكفان مصحوبة ببيانات عن الذين قاموا بإعادة تكفينها. كانت عملية إعادة التكفين هذه قد بدأت على يد الكاهن الأعظم حريحور، وكانت هناك أكفان أخرى تمت تحت اشراف بيانخ والبعض الآخر تحت اشراف بينوزيم الأول ابن بيانخ، وبعضها تحت اشراف أبنائه ميساحارت ومانخ بير، وقليل منها تحت اشراف بينوزيم الثاني أبن الأخير، وتمت العملية كلها بمعرفة سي آمون.

يرجع هذا المخبأ إلى عصر الأسرة الحادية والعشرين التي كان يحكمها أمراء من الكهنة، اشتملت التوابيت على بعض جثث من موتى هذه الأسرة وبعض موميات الذين قاموا بعملية إعادة التكفين أنفسهم مثل بينوزيم الثاني. وكانت هذه المقبرة قد بنيت أصلاً لتدفن فيها الملكة ان حابي، ويبدو أن سي آمون قد جمع توابيت الملوك لإعادة تكفينها في هذه المقبرة لآخر مرة، وكانت الجثث قد سبق تجديد أكفانها على يد الأمراء الكهنة في الأسرة الحادية والعشرين.

لكن قبل أن يعرف كل ذلك كانت محتويات المقبرة قد نقلت. وتمت عملية النقل بسرعة كبيرة، ويذكر ماسبيرو في تقريره(١) أنه كان يحسب حساب إمكانية قيام بعض البدو، الذين يعرفون كنوز ملوك مصر القدامى، وكلها من الذهب والجواهر الثمينة ألا يتورعوا عن الهجوم للإستيلاء عليها. ولكن من يعرف الظروف آنذاك ليدرك تماماً أن الأمر لا يخرج عن أن الدافع لسرعة نقل التوابيت هو دهشة علماء المصريات وشغفهم أن يكشفوا عنها في وضح النهار.

ويصف ماسبيرو العملية: «جمع بسرعة نحو مائتين من البدو للقيام بالعمل، وتأخرت سفينة الآثار عن الوصول قليلاً، ولكن كان الريس محمد عبد السلام الذى كشف لنا السر معنا، وكنا نعتمد عليه، نزل إلى الحفرة وبدأ ينقل محتوياتها»، وكان هناك مساعدان من مصلحة الآثار يتلقيان التوابيت التى تصعد إلى سطح الأرض ويحملانها إلى أسفل التل ويضعانها الواحد بجوار الآخر، «دون أى تباطؤ أو تراخٍ» ويواصل ماسبيرو وصفه قائلاً: «استمر العمل لمدة ثمانى وأربعين ساعة متصلة، وأصاب العاملين الأعياء ولم نكن قد أنجزنا نصف العمل بعد» وتطلب الأمر سبع أو ثمانى ساعات لنقل تلك التوابيت الكبيرة على اكتاف الرجال من سفح الصخرة إلى شط النهر فى حرارة أيام يولية الشديدة وشمسها اللافحة وأتربتها الثائرة. كانت الأشياء من الكثرة بدرجة لا يمكن مراقبة سلامتها، فاختفى بعضها ولكن أمكن استعادتها فيما بعد، ما عدا خمسين تمثالاً صغيراً مكسوة بالطلاء الأزرق اللامع. «وفى حوالى الساعة الحادية عشرة مساء، وصلت التوابيت والموميات والأثاثات إلى الأقصر، وبعد ثلاثة أيام وصلت السفينة إلى شط بولاق (موقع المتحف) محملة ببضاعتها المكونة من ملوك.

واضطرت الرائحة التى أخذت تنبعث من بعض التوابيت التى كانت مخزونة آلاف السنين إلى فتحها، وقام اميل بروجش فى غياب ماسبيرو وبدون إذن منه بفتح البعض منها من شدة شغفه لمعرفة محتوياتها. أما توابيت كل من سيتى العظيم ورمسيس الثانى فقد فتحت فيما بعد بعد سنتين فى حضور خديوى مصر.

لم يعثر على ثروات حقيقية فى داخل أكفان وتوابيت الموميات. ولو أن رواية هيرودوتس كانت صادقة فمن المحتمل أن ثروات المقابر قد نهبت حينما أمر قمبيز بفتح القبور القديمة. وهناك العديد من قضايا نهب القبور تملأ الكتابات التى ترجع إلى ذلك العصر الذى سبق أن حددناه بالنصف الثانى من القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت كلها فى عهد حريحور وخلفائه، وبدا من تصرفاتهم أنهم كانوا كهنة أتقياء لأنهم قاموا بإعادة تكفين ودفن الموتى. لكن يبدو أن الكهنة كانوا يتطلعون إلى تحقيق الثراء لأنفسهم فكانوا يبحثون على ما فى

القبور من حلى وذهب وجواهر مخبأة فى داخل الأكفان، وما تحتويه المقابر من أدوات وأثاثات ذات قيمة. ألم يزود كهنة ما يسمى الأسرة الحادية والعشرين مقابرهم بكل ما هو فاخر من الأشياء الجنائزية والتوابيت والأكفان والحلى التى كانت أصلاً توجد فى مدافن الملوك القدامى؟

جمعت موميات هؤلاء الملوك القدامى وحلفائهم من الكهنة من المخابىء المختلفة بمعرفة سى آمون الذى وضعها فى هذا المخبأ وأغلقه فى السنة العاشرة.

حدث بعد أن نقل ماسبيرو هذه التوابيت والموميات الملكية وغيرها بعشر سنوات من مخبئها فى جنوب الدير البحرى إلى القاهرة أن نفس البدوى الذى دل رجال الآثار عليها لفت نظر المستر جريبوت الذى خلف ماسبيرو فى منصبه كمدير للآثار إلى مخبأ آخر لا يبعد كثيراً عن ذلك المخبأ، ولكن إلى الشمال من الدير البحرى، وهو حفرة تؤدى إلى سرداب (طوله نحو مائة متر على مستوى وتحت امتداد آخر طوله ستون متراً على مستوى أدنى) على جانبيه توابيت، وكان حقاً بمثابة جبانة كبيرة تحت الأرض. عثر دارسى الذى كان مسئولاً عن هذه العملية على مائة وثلاثة وخمسين تابوتاً جميعها لأفراد من أسر الكهنة وبعض ذوى الحظوة ولكن من غير رجال القمة.(٢) وكثير من هذه التوابيت كانت لنساء، هن «عشيقات آمون» ومغنيات المعبد، وكانت هناك حجرة معدة لأسرة الكاهن الأعظم منخبار وزوجاته (سيأتى ذكر هذا الشخص على أنه الكاهن الذى استقبل الاسكندر الأكبر فى معبد آمون الكبير فى واحة سيوة).

وقبل أن تنقل محتويات هذا المخبأ قضى دارسى بضع ليال فى خيمة قرب فتحة السرداب لحمايتها من لصوص القبور الجدد. وحينما نقلت هذه التوابيت إلى القاهرة تبين أن المتحف لا يتسع لها، وبعد قليل أرسلت ست عشرة مجموعة منها كل مجموعة مكونة من خمسة أو ستة توابيت كهدايا لمختلف حكومات أوربا من البرتغال إلى روسيا دون أى قيود من جانب المتحف المصرى على مستقبل هذه التوابيت. واكتشف دارسى فيما بعد أن أحد هذه التوابيت وصل إلى اركوتسك فى سيبيريا فى رحلة لم يحلم صاحب التابوت بها وهو على قيد الحياة زودتنا الكتابات المنقوشة على توابيت الموميات التى وجدت فى كل من المخبأين بمعلومات غزيرة

أوضحت لنا ترتيب الأسر الملكية، وتتابع كهنة الأسرة الحادية والعشرين ولكن ظل العصر الغامض أو العصر المظلم مظلماً غير واضح المعالم مثيراً للجدل والخلاف (٣)

ومن المهم جداً في مجال بحثنا هذا أن نعرف حقيقة هامة هي أن بينوزيم ابن بيانخ ابن حريحور هو الذي أعاد تكفين جثة رمسيس الثالث أو ربما هو الذي قام بتكفينها أصلاً، فإن هذا يقودنا إلى خلاصة هامة هي أن بيانخ وكذلك بسوسنس (الذي كان بينوزيم يعتبره أباه ولكنه ربما كان حماه) كانا معاصرين لرمسيس الثالث (نيكتانابو الأول). ويكون حريحور الذي بدأ عمله في سلك الكهنة في عهد دارا الثاني في الربع الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد قد سبق رمسيس الثالث.

كان المخبأ الملكي قد أقفل تماماً على يد الأمير الكاهن التانيسي سي أمون الذي يعتبر آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين في السنة العاشرة، ولا يمكن في إطار النسق الزمني المتعارف عليه أن يشتمل هذا المخبأ على مومياء شخص عاش في عهد الأسرة الثانية والعشرين (الليبية)، ولكن مومياء كاهن أمون جيت بتاح اينونخ الذي يرجع إلى عصر الأسرة الثانية والعشرين كانت من بين المومياوات التي عثر عليها في المخبأ.(٤) ولذا يعتقد بأن المخبأ فتح مرة أخرى في عهد الملوك الليبيين لوضع جثة هذا الكاهن.(٥) وهذا الزعم ضعيف، ولكنه من وجهة نظر إعادة كتابة التاريخ علينا أن نتوقع أنه إلى جانب المومياوات التي ترجع إلى عهود الأسر السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة قد نجد مومياء ترجع إلى العصر الليبي الذي مر على مصر خلال القرنين التاسع والعاشر قبل الميلاد قد أقحمت على المخبأ. ولعل عدم وجود أي مومياء ترجع إلى عصر الأسرة الليبية يمثل حقيقة تحتاج إلى تفسير، ووجود مثل هذه المومياء يؤدي إلى مواجهة النسق التاريخي المتعارف عليه بحقيقة تؤدي إلى الإخلال به.

الدول الدينية في يهوذا و مصر

كانت أورشليم القدس في عهد الفرس مدينة مستقلة وكانت المنطقة

الخاضعة لها قانوناً منطقة تابعة تسيطر عليها طبقة رجال الدين وعلى رأسهم نحميا الذى تولى بعده عزرا، وازداد نفوذ رجال الدين وأصبح أكثر وضوحاً مع مرور الزمن.

ومن المفيد هنا أن نقارن بين نظام الحكم الدينى فى كل من طيبة وتانيس والواحات فى ظل ما يسمى الأسرة الحادية والعشرون من جهة وبين نظام كهنة أورشليم المعاصرين لهم من جهة أخرى. كان الكهنة وعظام الكهنة والأنبياء الذين يعملون فى خدمة المعابد وأتباعهم الذين يتلقون الوحى، ومرتلو المعابد والبوابون والرقيق التقليديون، كان لهؤلاء جميعاً وجود فى أورشليم، وكان لهم ما يقابلهم فى طيبة وتانيس والواحات. ويمكننا فى كثير من الحالات أن نتفهم الوضع بصورة أفضل لو رجعنا إلى نص مصرى أو من موقف معين بدراسة نصوص الكتاب المقدس بعد الخروج أو الرجوع إلى ما كتبه خدام المعابد فى أورشليم فى العصر الفارسى. فمثلاً حينما اتهم البواب المسمى أهو تينوفر بأنه شارك فى سرقة أحد خزانات معبد من معابد الطوائف، فإنه يعترف أمام المحكمة المصرية، ويشير إلى خلع الكاهن الأعظم (بدون سبب واضح) ويمكننا بمساعدة الاية ٧٣ من الاصحاح السابع من سفر نحميا أن نفهم مهمة أو وظيفة البواب، فيتحدث هذا النص العبرى عن «الكهنة واللاويين والبوابين والمغنيين...» أما عن خلع الكاهن الأعظم أمنحوتب بالذات من وظيفته كما جاء ذلك فى تلك الشهادة، فإن لها ما يقابلها ممثلة فى محاولة خلع جوناثان الكاهن الأعظم فى أورشليم بمعرفة المرزبان باجواس، وهى حادثة وصفها جوزيفوس فلافيوس.(١)

كان للمعابد فى كل من مصر وأورشليم أحياء سكنية تابعة لها لإقامة الكهنة، فقد طلب اودجيهارس من قمبيز أن يأمرهم بإبعاد الاشخاص غير المخول لهم بالإقامة فى مساكن معبد نايث فى سايس ومنهم جنود الاحتلال، وصدر بالفعل أمر بإبعاد كل المحتلين مغتصبى الأماكن بكل أمتعتهم. «كل أمتعتهم وحقائبهم لابد أن تحمل إلى خارج أسوار المعبد، وأمر جلالته أن ينظف معبد نايث بعد ذلك...» وقع مثل هذا الحدث فى أورشليم حيث يقول نحميا «وطرحت جميع آنية طوبيا خارج المخدع» الذى كان قد أعطاه له الكاهن الأعظم الياشيب «من ديار بيت الله» وكان طوبيا من المناهضين

لنحميا. «وأمرت فطهروا المخادع وردت إليها آنية بيت الله مع التقدمة والبخور» (نحميا ٧/١٣ إلى ٩).

وفرضت عوائد من النقود والمؤن على سكان أورشليم والمدن المحيطة بها لصالح المعبد والكهنة واللاويين. وكان من بين هذه المؤن ماشية ودواجن ونبيذ وخبز وزيت. وفي نفس الوقت كانت الضرائب المفروضة للمعابد في مصر نظاماً فاضحا للغاية في عهد الأسرة الحادية والعشرين، وتبين لنا النصوص الهيروغليفية والديموطيقية التي تذكر تلك الضرائب بأنها كانت ضرائب باهظة، فكانت الماشية والدواجن والنبيذ والخبز والزيت من المؤن التي تقدمها الدولة والسكان للمعابد ولكهنتها.

وكان لمعبد أورشليم في ظل الحكم الفارسي ضمن تنظيمه هيئة من الخدم الاجباريين أو العبيد الملحقين بالمعبد. ويشير نحميا (٣/١١) إليهم بقوله «وسكن كل واحد في ملكه في مدنهم من إسرائيل: الكهنة ،اللاويون والنثينيم وبنو عبيد سليمان.» وهم العبيد الموروثون، وكانت أعداد كبيرة من أمثال هؤلاء ملحقين بمعابد مصر، وكان لهذه المعابد أيضاً أملاك شاسعة من الأراضي التي يعمل بها فلاحون هم في الواقع عبيد أرض مسخرون.

ويقدم لنا عزرا وكل من سفر حجي وزكريا (اللذان يحكيان عن عصر دارا الأعظم) وكذلك سفر ملاخي صورة مثل التي قدمها لنا كل من سفر نحميا وعزرا عن حكم ديني تسيطر فيه المعابد على البلاد. ولقد كان الفرق الرئيسي بين أورشليم ومصر في ذلك هو أن أورشليم كانت تعبد إلهاً علوياً ليس له شريك أو منافس في قدسيته بينما كان المعبود في مصر هو الإله العلوي آمون الذي كان يشاركه وينافسه آلهة آخرون في مجمع الآلهة. أما عن القانون الموسوي والتراث الأخلاقي لأنبياء ما قبل الخروج فليس له ما يشابهه في عقائد المعابد المصرية التي كان لها تراث من الاعتقاد في أبيس يطغى على كل مظاهر العقائد القديمة.

أما عن التنبؤ فقد كان نظاماً آخر من النظم التي سادت في مهام الكهنة، بل وكان لها اعتبار وأولوية خاصة في صنع القرار بالنسبة لشئون الدولة في مصر. كما كان كهنة أورشليم، في عهد السيطرة الفارسية مصدرا للوحي أو التنبؤ: «وقال لهم الترشاثا أن لا يأكلوا من

قدس الأقداس حتى يقوم كاهن للأوريم والتميم» (عزرا ٢/٦٣)

وكان منصب الكاهن الأعظم فى كل من يهوذا وفى مصر منصباً وراثياً، ولئن كنا لا نعرف الكثير عن سلسلة نسب الكهنة العظام فى العصر الفارسى قبل عهد حريحور الذى أشتهر فى أوساط الكهنة إلا أننا نعرف تسلسل الوراثة بعده والتى بدأت بالكاهن ابسوسينز ثم بينوزيم ثم منخبار ثم بينوزيم الثانى. أما فى يهوذا فإن سلسلة الكهنة العظام معروفة منذ عهد سيروس إلى عهد الاسكندر الأكبر، وذلك فى الاصحاح الثانى عشر من سفر نحميا الآيات العاشرة والحادية عشرة، وهم: يشوع ولد يوياقيم ويوياقيم ولد الياشيب، والياشيب ولد يوياداع، ويوياداع ولد يوناثان ويوناثان ولد يدُّوع. ونجد أيضاً هذه السلسلة فى كتاب الآثار اليهودية تأليف جوزيفوس فلافيوس.

وهناك بالمعابد فى كل من مصر وأورشليم كتب حفظت بها سلاسل نسب الكهنة. وإن كان عزرا يدخل ضمن سلسلة الكهنة فلم يكن له نسب يرجعه إلى أحد الكهنة العظام، ولكنه مع ذلك موجود فى التكوين الدينى اليهودى الذى لم يختلف فى شكله خلال العصور الفارسية واليونانية والرومانية، وخلال القرن التاسع عشر الذى حدث فيه الشتات. وكان الكهنة المصريون المعاصرون له يزيدون من دخلهم من الضرائب والهبات، والاعتداء على المقابر القديمة لما فيها من ثروات وينبشوا توابيتها بحثاً عن أى شىء له قيمة، وعلى ذلك فإن الديانة المصرية اختلفت تماماً عن ديانة إسرائيل فى القرون التى أعقبت ذلك.

عـــزرا

لا يمكن الغض من قيمة جهود عزرا فى إقامة اليهودية الربانية، فهو الذى قام بنشر الأسفار الخمسة الأولى أو الأسفار الموسوية وربما كان هو واضع القانون الكهنوتى كذلك هناك اعتقاد راسخ بأنه هو الذى سطر اسفار الملوك الأول والملوك الثانى وأخبار الأيام الأول والثانى، ويرى بعض علماء الكتاب المقدس أن له يداً فى وضع سفرى نحميا وعزرا وأن هذين السفرين ربما كانا فى الأصل سفراً واحداً. وأوحى له الماضى رؤية

أيام العشائر الغامضة، وأيام وسنين الأمة التى يقودها موسى ومرت بفترة من الثراء، والقرون السبعة المستقرة فى ظل القضاة والأنبياء والملوك والتى انتهت بقيام مملكة اسرائيل الشمالية التى سحقها الأشوريون وجعلوا اليهود يغادرون البلاد لمدى مائة وخمسة وثلاثين عاما ويصارعون ضد اضطهاد بابل ومصر حتى سحقتا أيضا. وكانت حياة اليهود فى ظل الشتات البابلى قريبة من زمن عزرا، وقد خرج اليهود منها إلى عصر اجتياح الفرس للبلاد ٥٣٨ ق.م فعادت مجموعات قليلة منهم تحت قيادة عزرا بعد ذلك بمائة عام أو أكثر. وقد أتى عزرا معه من الشتات برؤية عن الدور المستقبلى لاسرائيل وهو الاسم الذى حل محل يهوذا. وأدخل عزرا قراءة التوارة (أسفار موسى الخمسة) علنا على الملأ، وشرع اقامة عيد السكوث واستخدام سعف النخيل كما كان يفعل الفرس فى أعيادهم ولكنه كان يركز على نشر فكرة عدم مشاركة كهنة اليهود مع الوثنيين والتأثير بذلك على الأمة لعدم المشاركة فى السياسة، تاركا لجماعة يهودية هم المسيحيون أمر غزو الغزاة الرومان الذين قضوا على بيث شانى أو عصر الملوك الثانى، وهو العصر الذى امتد من الغزو الفارسى عبر قرون السيطرة اليونانية حتى سنة ٧٠ ميلادية.

رفع عزرا من شأن موسى الذى عاش قبله بأكثر من ألف عام. ووضعه فى مكانة تفوق مكانة كل من كان فى عصر الملوك الأول. وكانت الوحدانية التى لم تتضح بعد قد اتضحت وتبلورت بتلك الكيفية التى تبلورت بها فى عصر الشتات والتعاليم المكتوبة، حتى فى أوساط الأنبياء الذين سبقوا أرميا، ولم يقم أى من الملوك أو الأنبياء بتقنينها كما أنه هو الذى أعطى للسبت قدسيته السامية وبذلك أصبح هو المصلح الإجتماعى وراعى العاملين منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا. وتميز عزرا على أى رسول أو كاهن أو كاتب آخر فى أنه تحمل مسئولية الحفاظ على شكل اليهودية خلال أيام الدولة الثانية وهى زمن الفرس واليونانيين والرومان، وكذلك عند ما دمرت الدولة على يد الرومان خلال القرن التاسع عشر من الشتات بين الأمم وفى مجال التعاليم الربانية يأتى عزرا فى الترتيب بعد موسى، فلم يقم بمهمته ويتلقى وحيه كموسى وسط الغمام وأمام جبل منهار أمام قدرة الله)، بل قام بمهمته فى شوارع أورشليم التى كانت حطاماً وأطلالاً

منذ أن دمرها نبوخذ نصر، وأخلاها من سكانها، وبدأ عزرا يعمل فيها وهى بعد رماداً.

وهناك مسألة تاريخية مازالت تشغل علماء الكتاب المقدس هى هل كان عزرا سابقاً على نحميا أم أن نحميا هو الذى سبقه، فلكل منهما سفر فى الكتاب المقدس.(١) فالترتيب المتعارف عليه هو أن عزرا سابق على نحميا يأتى من أن عزرا أتى من بابل فى السنة السابعة لحكم الملك ارتاكسركيس أما نحميا فقد أتى من سوسه فى السنة العشرين لهذا الملك. وعلى ذلك فقد ثار جدل شديد ليؤكد أن عزرا أتى بعد نحميا ولم يسبقه، ومن الأدلة التى ساقها أصحاب هذا الرأى أن الكاهن الأعظم فى أورشليم فى عصر عزرا كان هو جوناثان وهو ابن أو حفيد الياشيب، بينما كان الكاهن الأعظم فى عصر نحميا هو الياشيب. أما عن الإشارة إلى مشاركة بين عزرا ونحميا (فى سفر نحميا الاصحاح السابع الاية ٩) فتعتبر نصاً خاطئاً وتركيبه النحوى يؤكد هذا.(٢) ولقد كتب الكثير عن موضوع ترتيب مجيء كل من عزرا ونحميا ولكن لم يمكن معارضة الرأى القائل بأن نحميا أتى إلى أورشليم فى السنة العشرين لحكم الملك ارتاكسركيس الأول أى سنة ٤٤٥ ق.م وبقى فيها عدة سنوات وذهب بعدها إلى فارس وعاد مرة أخرى بعد إقامة قصيرة هناك فى السنة الثانية والثلاثين من حكم نفس الملك (نحميا ١٣/٦). أما عزرا فقد أتى إلى أورشليم لا فى السنة السابعة من حكم ارتاكسركيس الأول (٤٥٨ ق.م) بل فى السنة السابعة من حكم الملك ارتاكسركيس الثانى (٣٩٨ق.م) أى بعد نحو ستين عاماً. ولعل عدم ذكر أى شيء عن عزرا فى برديات فيلة التى كتب أخرها عام ٣٩٩ ق.م يؤكد مجيء عزرا إلى أورشليم فى السنة التالية، أى عام ٣٩٨ ق.م.

وهناك مدرسة من علماء الكتاب المقدس تحاول التوفيق بين الرأيين فتضع رحلة عزرا فى تاريخ متوسط باعتبار أن «السنة السابعة» خطأ وأن أصلها السنة السابعة والثلاثين من حكم ارتاكسركيس الأول أى سنة ٣٢٨ ق.م. خرج بهذا الرأى عالم يدعى البرايت W.F. Albright وهو رأى يعنى أن عزرا واصل وجوده فى أورشليم حتى الوقت الذى اعتلى فيه دارا الثانى نوثوس العرش.

ويمكن إقامة الجدل لا حول تغيير السنة بل حول تغيير اسم الملك وبذلك يُقرأ النص: «في السنة السابعة من حكم داريوس» وهذا يعني دارا الثاني ابن الملك ارتاكسركيس الأول ووالد ارتاكسركيس الثاني. ولكي نعتبر أن عزرا أتى إلى أورشليم في عهد دارا الثاني يمكننا أن نستقي بعض الحقائق في سفر عزرا الاصحاح العاشر الاية ١٦، ففي هذه الاية خطأ نحوي يحتاج إلى تعديل، فحينما أصدر عزرا مرسوماً بأن يطلق اليهود كل الزوجات غير اليهوديات «جلسوا في اليوم الأول من الشهر العاشر للفحص عن الأمر». فكلمة «دروش» العبرية ومعناها الفحص في الأمر، لم تكتب كما يجب ولكن بحرف يود مما جعل الكلمة تشبه اسم الملك دارا بالعبرية . وفي نفس سفر عزرا (الاصحاح الرابع ٢٤ والاصحاح السادس ١٦ والاصحاح السابع١٣) نجد أن اسم دارا (الأعظم) مكتوب بالطريقة المحرفة لكلمة يدرس أو يفحص. وفي ضوء هذه الأمثلة الكثيرة في نفس سفر عزرا أو سفر نحميا حيث يأتي يوم وشهر وسنة حكم الملك الفارسي وردت كتاريخ حادثة، ويزداد الشعور بأن المقصود به دارا، وقد جاء ذكر اليوم والشهر ولكن سقطت السنة حينما حدث التحريف بالنص الذي ربما تم على يد أحد الكتبة المتأخرين الذي لم يستطع تفهم الكيفية التي يشار بها إلى دارا الأعظم في النص، ولم يكن يعلم بوجود دارا الثاني (٤٢٤ق.م-٤٠٤ق.م). ويمكننا أن نلاحظ الخلط لدى الكاتب في ترتيب تتابع الملوك الفرس في الاية ٢٤ من الاصحاح الرابع من سفر عزرا حيث يحدث الخلط بين دارا الثاني ودارا الأول (كما ورد أيضاً في سفر عزرا ١٥/٦).

ولو أن عزرا أتى إلى أورشليم في السنة السابعة والثلاثين من حكم ارتاكسركيس (٤٢٨ ق.م) فلابد وأنه كان معاصراً للكاهن وينامون الذي أرسله حريحور إلى بيبلوس للحصول على خشب الأرز لإقامة هيكل آمون. بيد أنه لو أن عزرا ترك بابل إلى أورشليم في السنة السابعة من حكم ارتاكسركيس الثاني فلابد أن الوقت الذي سافر فيه وينامون في عهد دارا الثاني كان سابقاً لحضور عزرا إلى أورشليم باثنين وعشرين عاماً (من العام الخامس لحكم دارا إلى العام السابع من حكم ارتاكسركيس الثاني). وعلى ذلك فإن الأمر الأقل إحتمالاً هو أن وينامون سافر إلى

بيبلوس فى السنة الخامسة من حكم ارتاكسركيس الثانى وبذا وبما يكون كل من عزرا وويناموون قد بدأ رحلتيهما بفارق سنتين فقط.

الأمير الكاهن بسوسينس

كان بسوسينس ابن نيسوبانبداد الذى يأتى ذكره فى رحلات ويناموون على أنه الأمير العسكرى يقيم فى تانيس، ثم ورث أباه فى مقر الإقامة وفى اللقب وأضاف إليه لقب الكاهن الأعظم والرسول الأول لآمون، وهى ألقاب حموه حريحور واستخدم فى بعض الأحيان لقب الملك. بنى بسوسينس فى هذه العاصمة الشمالية وفى أرض المعبد العظيم مقراً له محاطاً بسور ضخم من الطوب. وقام بيير مونتيت بدراسة أرض المعبد فكشف عن شخصية من بناه بوضوح: «فى الركن الشمالى الشرقى من المبنى كان هناك أساس يحمل اسم بسوسينس، ووجد هذا الاسم أيضاً على العديد من قوالب الطوب فى حوائط السور.(١)

وفى الركن الواقع بين المعبد والسور المبنى بالطوب اكتشف مونتيت مقبرة نفس الأمير الكاهن، ولكن بدلاً من أن يؤكد مونتيت بقوة رأيه الأول عن اكتشاف أن بسوسينس هو الذى بناه، وجد نفسه مضطر إلى إنكاره بقوله:

«هذا الرأى الذى عبرنا عنه فى كتابنا الحالى غير صحيح، فإننا نعلم الآن أن المعبد العظيم فى شكله النهائى يرجع إلى عصر متأخر كثيراً عن ذلك لأننا وجدنا فى الركن الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى مخلفات تنتمى إلى اوسوركون الثانى كما وجدنا فى الركن الجنوبى الشرقى مخلفات تنتمى إلى نيكتانابو الثانى (نخت نيبيف)»(٢)

بالطبع لا يمكن لفرعون يرجع إلى القرن الحادى عشر قبل الميلاد أن يبنى فوق منشأة عثر تحتها على مخلفات ملك يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد، ولا يستطيع أن يواصل بناء بدأه ملك يرجع إلى القرن الرابع إلا إذا كان اعتبر خطأ من ملوك القرن الحادى عشر وينتمى فى الواقع إلى القرن الرابع قبل الميلاد على أكثر تقدير. لم تتراء هذه الفكرة أمام مونتيت، ولم تحل المشكلة بمجرد التراجع عن رأى قاله مونتيت فى

كتابات مبكرة له، بل لابد وأن يبين كيف أن بسوسينس الذى عاش فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد أقام بناء فوق أساسات بنيت فى القرن الرابع قبل الميلاد، فلو أن ما يلى يعتبر تفسيراً لهذا فلنقبله كشيء مقرر.

«أعيد بناء معابد تانيس عدة مرات ولذا أسيء ترتيبها فى العصور التاريخية الحديثة، بحيث لا نجد أى حجر من عهد الدولة القديمة أو الوسطى أو الحديثة فى مكانه الأصلى.»

أعيد بناء تلك المعابد باستخدام المواد القديمة، ولكن مونتيت واصل القول فى مطبوعاته الأخيرة بأن «معبد بسوسينس» ربما احتوى على مخلفات من عصور متأخرة موجودة تحت أساسه.

إن هذه الأدلة المتعارضة ظاهريا والتى تتمثل فى وجود مخلفات من القرن الثامن والقرن الرابع قبل الميلاد تحت بناء يفترض أنه يرجع إلى القرن الحادى عشرقبل الميلاد ليس بينها تعارض حقيقى إذا ما أدركنا أن بسوسينس ظهر وازدهر بعد نخت نيبيف بجيل واحد، وكان ذلك فى النصف الأول من القرن الرابع.

اكتشف مونتيت فى أشتات الحجارة التى تحمل اسم بسوسينس أن بعضها يحمل بجوار اسمه «اسم بربرى» هو شاهيدات محفورا داخل طرة، وقام بتصوير هذه الاشتات، ودهشته دلالة وجود اسم بربرى بجوار اسم بسوسينس، واستنتج أو افترض أن شاهيدات هذا اسم لمعبودة أنثى غير معروفة، ربما كانت إلهة ليبية.(٣) يبدو أن هذا تفسير فيه تكلف، إذ لماذا يعمد بسوسينس إلى وضع طرة بجوار اسمه يتضمن اسم إلهة ليبية غير معروفة بهذه الصورة التى لم يسبق أن وجدناها فى مكان آخر؟(٤) ولكن من المؤكد أن الاسم كان بالنسبة للمصريين إسماً بربرياً.

ويبدو أن هناك اتفاقاً بين الغرض من وجود الطرة وبداخلها الاسم وبين لقب الشخص الذى ينتمى للأسرة المالكة، وهذا يعنى أن كلمة شاهيدات لا تخرج عن كونها لقباً، وهو أمر يتفق مع التاريخ الفارسى بعد مراجعة الألقاب، فإن الجزء الأول من الكلمة (شاه) تعنى الملك.(٥) وحول التساؤل عما إذا كانت هذه الكلمة تعنى «الملك الكاهن» أو «وريث العرش» أو نائب الملك، أو غيرها فإن جورج كاميرون الأستاذ بجامعة

ميتشجان يجيب بقوله إن الكلمة قد يكون لها مدلول أصلي خاص في اللغة الفارسية.»(٦)

أما أوسوركون الذي وضع أساساً وجدت بقاياه تحت ركني المنطقة المسورة من أرض المعبد فقد أقام لنفسه أيضاً مقبرة في داخل المنطقة المحاطة بالأسوار. ولم يعثر إلا على قليل من المواد المدفونة مع الميت في هذه المقبرة، فالمقبرة كانت قد نهبت وتركها لصوص المقابر خالية من أي آثار، حتى أن الذين كانوا يعملون مع مونتيت في الكشف عن المقبرة لم يشعروا بأنهم بإزاء اكتشاف تاريخي، وحول ذلك كتب مونتيت يقول: «إن اللصوص الذين نهبوا مقبرة اوسوركون الثاني التي كانت مجاورة لمقبرة بسوسينس قاموا بمحاولات عديدة للحفر حولها ولم يجدوا شيئاً، فانصرفوا عن البحث فيها»(٧)

فكيف يمكن أن يحاول اللصوص عدة مرات الحفر دون أن يعثروا على المقبرة المجاورة، في حين أن الفلاحين الذين كانوا يقومون بالحفر مع مونتيت انتقلوا بدون إدراك وجود اكتشاف من طبقة إلى أخرى حتى وصلوا إلى المقبرة الأخرى؟ وعلى ذلك فهناك أدلة قائمة على وجود محاولات للبحث والتنقيب حول مقبرة أو سوركون.

ويبدو أن مقبرة أوسوركون قد نهبت قبل أن يضع بسوسينس بقية حاجياته الخاصة، وفضلاً عن ذلك سوف نعرف حالا أن مقبرة بسوسينس كانت قد بنيت أصلاً لأحد الملوك أو الأمراء المنتمين إلى الأسرة الحاكمة الليبية وأن بسوسينس قد اتخذها لنفسه.

حينما فتحت المقبرة للمرة الأولى غلب الظن على أنها بنيت للملك أو الأمير الذي عثر على تابوته بدون صندوق في الحجرة التي تبين فيما بعد أنها مجرد دهليز أو مدخل. وبمجرد أن وصف مونتيت منظر المقبره، وكان ذلك في عام ١٩٣٩، ووصلت الأنباء إلى القصر الملكي في القاهرة بأن مقبرة أحد الملوك القدامى فتحت ووجد فيها تابوت، ذهب الملك فاروق بصحبة كانون اتيين درايتون مدير مصلحة الآثار المصرية الى الموقع للمشاركة بيديه في نقل التابوت الأثري. ويقول مونتيت تكملة لوصف الموقف «وقد ساعدته في أن يضع السلاسل (الفضية) التي تزين الجثة بما فيها من جواهر في علبة رقيقة مبطنة بالحرير، وأدركنا في تلك اللحظة أن الجثة

كانت لملك غير معروف يسمى هيكاخيبر-رع شاشانق، وهو الملك الذى ربما حكم البلاد بعد بسوسينس بأقل من قرن من الزمان.(٧)

كان هذا الظن طبعاً مبنياً على أن بسوسينس حكم البلاد خلال القرن الحادى عشر، وأن الأسرة المالكة الليبية قد حكمت بعد أسرة الكهنة التى تسمى خطأ الأسرة الحادية والعشرون.

كان بهذا الدهليز أو المدخل أربعة أبواب مغلقة تؤدى إلى حجرات، (٩) لم يمكن دخول تلك الحجرات مباشرة لوجود كتل حجرية كبيرة موضوعة فى الممرات التى تؤدى إلى تلك الحجرات، ولم يفتح مونتيت من هذه الحجرات سوى واحدة فقط قبل انقضاء موسم التنقيب فى عام ١٩٣٩. وكانت تلك الحجرة تضم تابوتا ضخماً، «كان التابوت خالياً، وكان اسم صاحب التابوت قد أزيل من على التابوت ومن على جدران الحجرة التى وجد بها التابوت، وكان الأمر أمامنا شديد الغموض، ففى مقبرة بناهابسوينس لا نجد أى علامة تدل على شخصية صاحب التابوت الذى عثرنا عليه، وتلك الحلى الثمينة تكون لملك غير معروف يرجع إلى تاريخ لاحق، ثم نجد الآن حجرة دفن ملحقة منهوبة وقد محى اسم صاحبها.»

فى الموسم التالى فتحت حجرتان أخريان بعد إزالة الكتل الحجرية الضخمة التى تغلق مدخليهما بعد هدم أحجار السقف، كان فى إحداهما تابوت بسوسينس، مصنوعاً من الجرانيت الوردى، وكان قد صنع أصلاً للملك مرنبتاح هو تفيريا أو (هوبرامات) الذى ينتمى إلى الأسرة التاسعة عشرة. وكان الاسم قد أزيل من سطح الحجارة إلا فى مكان واحد بقى واضحاً وحسب ما يقول مونتيت «وكان أفرادَ الأسرة المالكة الحادية والعشرين قد اعتادوا أن يغيروا الطرة التى تحتوى اسم الملك». وفى داخل ذلك التابوت الوردى كان هناك تابوت آخر من الجرانيت الأسود كان أيضاً لشخص غير معروف. وفى داخل هذا الصندوق الأسود كفن من الفضة للملك بوجهه مغطى بقناع من الذهب.

دفن الملك بسوسينس دفناً فاخراً، ولكن كل شىء دفن معه كان لملوك سابقين بل والمقبرة ذاتها ليست مقبرته.

ومن الصعب أن نتفهم عقلية الذين كانوا يرتبون لأنفسهم الدفن فى مقابر بنيت لأشخاص آخرين وفى توابيت ليست توابيتهم ويتوقعون

أنهم بهذه الطريقة سوف يستمتعون بالحياة الأخرى عند البعث. على هذا فإن عدم إزالة الملك بسوسينس لكل آثار الملك الأصلى شيشنق الذى ينتمى إلى الأسرة المالكة الليبية من مقبرته له اعتباره الخاص.

كان من بين الأشياء الفضية والذهبية الكثيرة التى عثر عليها مدفونة مع بسوسينس عدد من العقود والخرز محفوراً عليها بالخط المسمارى الذى تمكن المتخصصون من قراءة ثلاثة أسطر منها بصعوبة شديدة وتوصلوا إلى نص غير ذى معنى. ولو أن هذا النص لم يكن فارسياً مكتوباً بالخط المسمارى، وإنما باللغة الاكادية (البابلية الأشورية) فربما كانت تلك الخرزات أيضاً قد أتت من مقبرة أقدم، ربما كانت مقبرة شيشنق الذى وجد فى كفنه أسطوانة خاصة من متاع موروث تحمل علامات بالخط المسمارى أيضاً.

عثر أيضاً على ثمانية وعشرين سوارا فى المقتنيات الجنائزية للملك بسوسينس. استلفتت إحداها نظر المكتشف، فقد كانت مصنوعة من الذهب المطعم مع وجود كتابات هيروغليفية تحمل عبارة «ملك الأرضين (الوجه القبلى والبحرى) رب السيف المبعوث الأول لآمون رع (بسوسينس مى آمون) واهب الحياة». ولعل ما استرعى نظر مونتيت فى هذا هو الطريقة التى كتب بها اسم الملك (ان سو) فلم تكن مكتوبة بالطريقة العادية ولكن بطريقة متميزة للغاية تتمثل فى قرد البابون يحمل العين. « وكلمة الملك (ان سو) مكتوبة هنا بالطريقة التى كتبت بها فى العصر البطلمى... » فقرد البابون بالعين بين يديه كانت طريقة متميزة، هى فى الواقع لعب باللفظ للتعبير عن كلمة ملك، وقد ظهرت فى عصر متأخر للغاية فى النصوص المصرية.(١٠)

ولاحظ مونتيت شيئاً آخر متميزاً فى نفس الجملة كلمة (أن سو) التى تصحب اسم آمون رع «فهى مكتوبة بجناح الصقر كما كان الحال فى العصر البطلمى.»

لا يقتصر الأمر على أن مثل هذه الاكتشافات تحتاج إلى تسجيل ووصف فحسب بل يقتضى الأمر التوصل إلى نتائج حاسمة حولها.

ومن الاكتشافات الأخرى أن الحجرة التى احتلها تابوت بسوسينس بها نقش على الجدران يخبرنا بأن «بسوسينس يقول الحق» حينما يتوجه

بالدعاء إلى الإلهة موت «سيدة السماء صاحبة النفوذ على الأرضين، وربة الساحل الهلينى...».

كتب مونتيت عن ذلك يقول «كان البحر الهلينى (هيلونيبوت) بالنسبة للمصريين هو البحر المتوسط من الاسكندرية إلى رشيد، وشاطىء البحر الهلينى هو الجزء الساحلى الممتد غرب دمياط.»(١١)

ونظراً لأن هذه الكتابات المنقوشة المبكرة تذكر هيلونيبوت (أى البحر الهلينى) فإن مونتيت يفترض أن هذا الاسم كان يطلق أولاً على بحر إيجة ثم اطلق بعد ذلك على الساحل المصرى كذلك، وهى حقيقة تراءت فى نظره أنها إثبات على أن اليونانيين كانوا متواجدين فى أجزاء من سواحل الدلتا من أقصاها إلى أقصاها (١٢) قبل أن يظهروا لأول مرة فى عهد بسماتيك فى القرن السابع قبل الميلاد.(١٣)

لكننا نعرف من كتابات هيرودوتس أن الساحل الهلينى كان هو منطقة ساحل الدلتا التى كانت تمتلكها المدن اليونانية العديدة، وكانت تمثل نوعاً من المستعمرات المنعزلة التى سمح فيها امازيس بإقامة المعابد الهلينية، وذلك فى أثناء حكمه الذى سبق الاحتلال الفارسى للبلاد بسنوات عديدة. وفى ذلك يكتب هيرودوتس (فى الجزء الثانى ص ١٧٨).

«كان امازيس ميالاً لليونانيين، ومن بين الامتيازات التى منحها لهم أن جعل مدينة توكريتس مكاناً لاستيطانهم، أما الذين يقومون بالتجارة فقط على الساحل ولا يرغبون فى الإقامة الدائمة بالبلاد فقد سمح لهم بإقامة الهياكل والمعابد لألهتهم ومن بين هذه المعابد. المعبد المعروف باسم هلينيوم وهو أكبرها وأشهرها. وقد اشترك فى بنائه الايونيون والدوريون والايوليون، واشتركت مدن أخرى فى ذلك منها دويلات مدن شيوس، وتيوس وفوشيا وكلازومينا ورودس وسنيدوس وهليكارنازوس وفاسيليس الدورية ومايتيلين الايولية. هذه هى الدويلات التى كانت تمتلك المعبد، وكان لأبنائها الحق فى تعيين مراقبين على البوابة، أما المدن الأخرى التى كانت تدعى لنفسها نصيباً فى البلاد فإن إدعاءها ليس له أساس. بيد أن هناك ثلاث أمم أخرى أقامت لنفسها معابد منفصلة هى معبد زيوس الذى أقامه الايجنيتان ومعبد هيرا الذى أقامه الساميان، ومعبد ابوللو الذى أقامه الميليزيان.

هكذا فإن الساحل الهلينى المشار إليه فى مقبرة ابسوسينس ترجع بدايته الأصلية إلى عهد امازيس، ونظراً لأن بسوسينس ينتمى إلى القرن الرابع قبل الميلاد فمن الطبيعى أن نجد فى مقبرته إشارة إلى «الإلهة موت صاحبة الأرضين وربة الساحل الهلينى». ومع نقل بسوسينس وجميع ما يسمى الأسرة الحادية والعشرون إلى زمن لاحق بزمن امازيس بنحو خمسمائة عام تصبح مسألة التعارض فى هذه الإشارة للساحل الهلينى فى مصر مسألة غير قابلة للحل.

على ذلك فإن فى الحجرة التى ضمت رفات بسوسينس زوج ابنة حريحور الكثير من الدلائل التى تشير إلى أن هذا الشخص الذى ينتمى إلى أسرة الأمراء العسكريين يرجع إلى تاريخ أقرب إلى العصر البطلمى من القرن الحادى عشر قبل الميلاد. إذ إن لقبه الملكى مكتوب بطريقة شبيهة بالطريقة المستخدمة فى العصر البطلمى، وإشارته إلى الساحل الممتد إلى الغرب من دمياط على أنه الساحل الهلينى تشير إلى نفس ما يشير إليه استخدامه للطرة الفارسية التى تحتوى اللقب الملكى.

فتحت الحجرة المجاورة لحجرة دفن بسوسينس فى نفس الموسم وكانت هى الأخرى تضم تابوتاً للملك امينيموب الذى استنتج أنه خليفة بسوسينس ربما كان حفيده. ولاحظ رجال الآثار أن موقعه الجنائزى ومقتنيات الميت لا تدل على أنها أشياء ملكية، ولئن لم يكن البنيان كله لا يشبه أى مقبرة من مقابر ملوك الأسرة الثامنة عشرة قرب طيبة فإن حالة الفقر التى كانت عليها حجرة دفن امينيموب تثير دهشة المنقب، فإن التابوت كان فيما سبق يضم رفات موتند جيمى التى هى والدة أو زوجة بسوسينس.(١٤) ونقل رفاتها لإخلاء المكان لامينيموب، وغير اسمها ولكن لم يمسح تماماً.

وكان المدفون فى الحجرة الرابعة أحد أبناء بسوسينس. فلقد تبين أخيراً أن الحجرة التى فتحت فى الموسم الأول كانت خالية، ثم أعلن أن أحد أقارب بسوسينس كان مدفوناً فيها ثم نقل رفاته لإعداد الحجرة لإستقبال شخص من الجيل التالى ولكن المشروع لم يتم.

ومن المؤكد أن الترتيبات النهائية فى هذه المقبرة وحجراتها كانت من أعمال سى آمون الذى عثر على نص محفور يحمل اسمه فى الدهليز.(١٥)

والدهليز مع الحجرات الأربعة الملحقة به أقل من أن يكون مقبرة ملكية من مقابر طيبة، وغالباً ما كان بسوسينس يبحث عن مكان غير فخم ولكنه أمن ليحفظ فيه رفاته بعد الممات لأنه كان على علم بأن رفاته ربما يتعرض يوماً لما تعرضت له مقابر الآخرين.

الاحتلال الفارسى الأخير لمصر

استطاع ارتاكسركيس الثالث بشخصيته وقدرته على تخطيط الأمور أن يعيد للإمبراطورية سابق عظمتها، فحينما لجأ إليه تاشوس (رمسيس الرابع) لم يكن مستعداً فى ذلك الوقت للاستيلاء على مصر وضمها لمتلكاته بعد أن كانت قد تحررت من الحكم الفارسى قبل ذلك بأربعين عاماً تقريباً فى بداية عهد والده ارتاكسركيس الثانى. وحكم نيكتانابو الثانى (رمسيس السادس) معتمداً على مساعدة المرتزقة اليونانيين لمدة تزيد عن عشر سنوات، فأقام بعض المعابد وبسط رعايته على البعض الآخر، وحفر لنفسه قبراً كبيراً. ولكن حينما تحرك الملك ارتاكسركيس الثالث نحو مصر وقمع المقاومة التى قوبل بها عند القلزم (بيلوزيم) لم يستطع نيكتانابو الصمود أكثر من ذلك، وترك قصره ووطنه وأهله وفر إلى بلاد السودان ولم يسمع عنه بعد ذلك إلا فيما يسمى رواية الاكسندر الخيالية وهى متأخرة نسبياً، فهو الذى ظهر فى هذه الرواية مشخصاً الإله أمون، وقام بزيارة اوليمبيا ملكة فيليب فى حجرة نومها بالقصر ليجعلها تحمل الاسكندر . وهناك نص آخر عن الأصل المقدس للاسكندر هو أن إله الآلهة آمون جاء إلى اوليمبيا فى صورة ثعبان كبير.(١)

وفى خلال الفترة القصيرة التى أعقبت أخر السيطرة الفارسية على مصر ومدتها أقل من عشر سنوات ظهر كاهن يدعى بيتوسيريس من كبار كهنة الإله تحوت فى هيرموبوليس، واشتهر بعلمه الغزير، وربما كان هو هو بيتوسيريس الذى ذكر الكاتب الرومانى سيرفيوس فى أواخر القرن الرابع الميلادى أنه كان من مصادر المعرفة بالكوارث، وأنه أحد الذين قالوا بتعرض الأرض لجسم كروى ضخم من النار أو فى حمرة الدم هو المذنب تيفون الذى سبب دماراً عند شروقه وغروبه.(٢)

أما عن روايات الأحداث الطبيعية الخارقة للعادة التى وقعت فى العصور المبكرة والتى عرفها فيثاجوراس وسولون أثناء رحلاتهما إلى مصر (كان سونشيس كاهن سايس هو الدليل الذى صحب سولون فى رحلاته)، فلم تكن تلك الروايات قد نسيته فى الوقت الذى كانت الإمبراطورية الفارسية فى سبيلها إلى الإنهيار. وتميزت مقبرة رمسيس السادس الموجودة فى وادى الملوك قرب طيبة بأن لها سقفاً به رسوم فلكية مثل التى وجدت فى مقبرة سنموت المهندس المعمارى الذى كان فى خدمة الملكة حتشبسوت (٣) ومقبرة سيتى أحد الملوك العظام من الأسرة الثامنة عشرة. وهذا موضوع متروك لمناقشته فى كتاب كامل. على أن هذه الأسقف تتضمن مادة تحلل النظام السماوى فى خلال القرون التى ناقشناها فى كتاب «عوالم فى تصادم».

ولخدمة غرضنا فى إعادة بناء تاريخ مصر فى العصر الفارسى هناك فقرة معينة فى النقش الموجود فى مقبرة بتوسيروس يناسب المقام.

«قضيت سبع سنوات أدير شئون الإله تحوت... جاء أناس من بلاد غريبة وحكموا مصر... لم تكن هناك أعمال (فى المعابد) منذ أن أتى الغرباء وغزوا مصر.»(٤)

فى هذا النص وصف للفرس بالغرباء الذين أتوا وغزوا مصر وهى نفس الكلمات والعبارات التى نقرأها فى البرديات التى خلفتها الأسرة الحادية والعشرون وبخاصة رسالة أورماى الذى نعرف أنه كان معاصراً لقمبيز، ونجدها أيضاً فى سجلات المحاكمة التى تضم شهادة احوتينوفر أحد حملة المشاعل فى المعبد، والذى تحدث عن الغرباء الذين احتلوا المعبد وخلعوا الكاهن الأعظم.

كثيراً ما ترد الإشارة فى الوثائق الخاصة بالعصر الفارسى إلى فارس باسم «برس» أو برشيا، وفى إحدى الوثائق التى ترجع إلى عصر ثالث البطالمة وهى «المرسوم الكانوبى» إلى الفرس باسم بيرست، وهو موضوع سبق أن تناولناه، وتأتى الإشارة إلى البيرست على أنهم الشعب الذى حمل تماثيل الآلهة من مصر إلى فارس، واستعادها بطليموس الثالث وأعادها إلى معابدها بعد بضع سنوات من سقوط الإمبراطورية الفارسية. ويعتبر هذا من الأمور التى لا يمكن تأكيدها عند مراجعتنا للتاريخ القديم.

ويقال أحياناً إن القضاء على الإمبراطورية الفارسية لم يكن على يد الاسكندر، بل كان السبب فى سقوط هذه الإمبراطورية هو بوجواز الخصى وكاتم الأسرار الملكية الذى دس السم للملك ارتاكسركيس الثالث (٣٣٨ق.م) لكى ينصب ابنه مكانه على العرش، وحينما لاحظ بوجواز ما لهذا الشاب من روح استقلالية دس له السم أيضاً وبذلك انتهت الأسرة الأخايمانية. وبعد فترة معقولة من موت الملك السابق نصب بوجواز نفسه على العرش تحت اسم دارا الثالث (٣٣٦ ق.م). ولكى يحمى حياته قام دارا هذا بدس السم للرجل الذى نصبه ملكاً، ولكن ثلاث سنوات من الحكم لم تكن كافية للقيام بضم شتات الامبراطورية وفرض السلطة واستعادة طاعة حكام المرزبانات. وساد الاضطراب أنحاء الامبراطورية من الساحل الايونى فى آسيا الصغرى إلى التركستان فى وسط آسيا ومن شلالات النيل إلى حوض نهر السند، وانقلبت كلها على شخص الملك المعظم، وتتابعت موجة من التقتيل فى القصر مما أدى إلى تفكك الإمبراطورية ككل.

وكانت الفترة القصيرة التى لا تبلغ العشر سنوات والتى استعاد فيها الفرس سيطرتهم على مصر تعد بمثابة الأسرة الحادية والثلاثين ومن فراعنتها الملك ارتاكسركيس الثالث ثم دارا الثالث هذا.

أما عن الانتصارات الحربية للاسكندر الأكبر ضد دارا الثالث فى المعارك المشهورة وأهمها معركة جرانيكوس (٣٣٤ ق.م) وايسوس (٣٣٣ق.م) فإنها معروفة ومشهورة ولا يوجد ما يمكن أن تضيفه عملية إعادة بناء التاريخ إليها أو تعدل منها، ولكن مع مجىء الاسكندر الأكبر إلى مصر يظهر للنور أحد العناصر الهامة فى موازنة العصور التاريخية. وعلى القارىء أن يتنبه إلى أن الأمير الكاهن منخبار ابن بينوزيم الذى سوف نرى أنه خرج ليحيى أحد زوار معبد مهبط وحى آمون من الاغسطيين قد عاش من قبل فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد فى معرض التاريخ التقليدى المأخوذ به.

هوامش الفصل الثانى

الرحلة الحزينة

1- J. Breasted, Ancient Records, Vol. IV, Secs. 563 ff; J. A. Wilson in J. B. Pritchard, ed., Ancient Near Eastern Texts (1950) pp. 25 ff. M. A. Korostovtzev, Pooteshestviye Un-Amuna. v' Bibl (Akademiya Naook. S. S. S. R., Moscowe, 1960)

2- Breasted, Ancient Records, Vol, IV, Sec. 562.

٣- هذه العبارة من ترجمة برستيد، أما العبارات الأخرى المقتبسة فإنها من ترجمة ويلسون

٤- حول مرفا دور فى العصر الفارسى، راجع موضوع T. C. Mitchell, "Philistia" فى كتاب Old Testament Study الصادر باشراف D. W. Thomas أكسفورد ٦٧ ص ٤١٧

5- J. A. Wilson. He also comments: "The 'drawn to his hous'e would mean either drawn up on the shore at his Sidonian office or towed along the waterways of Egypt."

٦- ترجمة بريستيد منشورة تحت عنوان "silly trips" فى ترجمة ويلسون

٧- أنظر تفسير ماكس كارى لكلمة Piracy فى قاموس أكسفورد الكلاسيكى (أكسفورد ١٩٤٩ ص ٦٩٤ ففى حرب البلوبونيز أصبحت حرب القراصنة جريمة كبرى

8- Gardiner, The Twentieth Dynasty, "Egypt of the Pharaohs, p. 311.

9- Korostovtzev Pooteshestsviye p. 34.

١٠- فى ترجمة البرديات يستخدم جاردنر الإسم خايموا بز وليس خايم واست

١١- فى ترجمة ويلسون فى كتاب Ancient Near Eastern Texsts الطبعة الأولى ص ٢٨ وما بعدها حتى ٣٥.

12- A. Erman, Aegyptische Literatur (1923) p. 230.

13- M. Burchhardt, Die Altkanaanaeischen Fremdworte und Eigennamen im Aegyptischen (Leipzig, 1909-10).

14- Zeitschrift der Morgenlaendischen Gesellschaft, Vol. 78 (Vol. 3. of the New Series) (1924,) 61-63.

15- "Some Oriental Glosses on the Homeric Problem," American Journal of Archaeology LIV (1950) 174.

١٦- يبدو أن ويركيت إيل (بيركاث إيل) كان تاجرا فينيقيا مقيما فى مصر ويتاجر بصفة خاصة مع صيدا، راجع ص ٢٧ من كتاب نصوص من الشرق الأدنى القديمة Ancient Near Eastern Texts) (1950), p. 27.

تكرار المواليد

1- J. Wilson in Pritchard, Ancient Near Eastern Texts (1950) A 25.

٢- ص ٣٠٤

٣- جملة تكرار المواليد يبدو أنها استخدمت فى أيام أمنمحتب الأول وأيام سيتى الأعظم، راجع جاردنر فى Egypt of the Pharaohs pp. 12 7 and 249.

4- W. Culican, The Medes and Persians (London 1965).

وينامون ينشئ هيكلا

١- يذكر الدكتور أحمد فخرى أن أصل معبد تلقى وحى أمون يرجع إلى عصر أمازيس الثانى قبيل الغزو الفارسى لمصر بسنوات قليلة.

٢- راجع فى ذلك H. C. Minutoli, Reise Zum Tempel des Jupiter Ammon in der Libyschen Wüste (Berlin, 1824)

٣- أنظر ص ١٠٠ من المرجع السابق

المخبأ الملكى

1- G. Maspero, Les Momies rayales de Déir el-Bahari published as the first volume of Mémoires de la Mission Archéologique Française au Caire, (Paris 1889).

2- G. Daressy, "Les Sépultures des prêtres d' Ammun á Deir El-Bahari" in Annales du service des Antiquités de L'Égypte, I (1900) وأيضـــــا فـى Les Cercueils des Prétres d' Ammun," ibid., VIII (1907).

٣- أشير إلى ذلك فى المصادر التالية:-

Some Notes on the Chronology and Genealogy of the Twenty-First Dynasty, by Eric Young in Journal of the American Research Center in Egypt, II (1963) 99-111, ˇCern´y, Cambridge Ancient History, Vol. II Chap. XXXV; "On the Chronology of the Twenty-first Dynasty, by. E. F. Wente in Journal of Near Eastern Studies XXVI, 3 (July 1967)

4- Maspero, Les Momies royales (Paris, 1889), pp. 572-73. B. Porter and R. Moss. The Theban Necropolis (Oxford 1924) p. 666

5- Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 320 H. Gauthier, in Annales du Service des Antiquités de l'Égypte, Vol. 18 (1919) pp. 252 ff.

عزرا

١- فى الأزمنة القديمة كان سفرا عزرا ونحميا يكونان سفراً واحداً

٢- الفعل (فايومر) مستخدم فى صيغة المفرد فى ذكر كل من نحميا وعزرا واللاويين. أنظر نحميا ٣٦/١٢

1- P. Montet, Tanis (Paris 1942) pp. 43, 55-56.

2- Montet, Les Constructions et le tombeau de Psousennés á Tanis (Paris 1951) p. 10

3- Montet, Psousennés (Paris, 1951) p. 184.

٤- فى محاولة لتفسير السبب فى وجود اسم شاهد يديت مع وجود دال بعد الهاء فى بعض النصوص التى ترجع إلى هذا العصر خرج (ليجرين) Legrain بنظرية تقول إن هناك إلهة ليبية تحمل إسم الإلهة شاهديديت Annales du Service des Antiquités d'Egypte, XV, 284-86 غير أن كلمة شاهديديت فى اللغة الفارسية تعنى محافظ الملك أو المتحدث الرسمى باسم الملك ولكن نظرا لأن «ديديت» إسم مصرى كان يطلق على منديس فى الدلتا فربما كان اسم شاه ديديت يعنى منديس.

٥- على ذلك فإن كلمة (شاه زادا) تعنى ابن الملك أو الشاه وهى مستخدمة كلقب «راجع قاموس ويبستر».

٦- من خطاب مؤرخ ٢٠ يناير ١٩٦٧ ورد لمؤلف الكتاب الأستاذ چورج كاميرون

٧- أنظر كتاب مونتيت عن بسوسينس ص ٨

٨- المرجع السابق ص ٢٠

٩- ذكر شيرنى خطأ أنه قد عثر على حجرتين للدفن فى مقبرة بسوسنس راجع فى ذلك تاريخ كمبريدج القديم الجزء الثانى الفصل الخامس والثلاثين ص ٦٥٤ الطبعة المنقحة.

10- Montet Psousennés p. 149. Cf. Émile Chassinat, "Le Mot seten 'Roi'" in Revue de l'Égypte Ancienne, 11 (Paris, 1929), 5 F.

11- Montet, Psousennés, p. 92.

12- Montet, in Revue archéologique, 6 série XXXIV, 138-40.

13- Herodotus, II, 152.

١٤- ذكر مونتيت فى عدة أماكن بكتابه عن مقبرة بسوسنس أن موتندچيمى هى أم بسوسنس، وفى بعض الأماكن أشار إلى أنها زوجته

دون أن يفسر ذلك. Montet, Psousennés, p. 186.

الاحتلال الفارسى الأخير لمصر

١- حاول نيكتانابو وهو فى السودان أن يستعيد سيطرته على جنوب مصر راجع ديودوز الجزء ١٤ ص ٥١ ولذا فمن الممكن أن يكون قد عاد فى عهد الاسكندر الأكبر كمواطن عادى فى مصر راجع: Hermann Bengston, The Greeks and the Persians from the Sixth to the Fourth Centuries (New York, 1965), p. 351 ربما كان تاشوس أيضا الذى سبق أن فر إلى بلاد فارس من بين العائدين إلى مصر مع غزو الاسكندر.

٢- أنظر كتاب عوالم فى تصادم الفصل الخاص بمذنب تيفون.

٣- أنظر كتاب عوالم فى تصادم الفصل الخاص بالأقطاب المنزوعة.

4- G. Lefebvre, Le Tombeau de Petosiris (1924), 1, 3 f. Olmstead, History of Persia, (Chicago, 1948), P. 441.

الفصل الثالث

الاسكندر

الاسكندر أمام هيكل آمون فى الواحات

عبر الاسكندر الصحراء فى خريف عام ٣٣٢ ق.م ووصل إلى مصر، ولم يقاوم المرزبان الفارسي الذى كان عاجزاً عن الاعتماد على شعب مصر. واستقبل الشعب الاسكندر بالترحاب. «هتف الشعب له والفرحة تملأه لأنه مخلصهم من نير الفرس.»(١) وقدم الاسكندر القرابين لأبيس ووزع الهبات الملكية، وهذا يعنى أنه توج ملكاً على مصر، «فقد كان الفرعون يعتبر عودة لحياة الإله الأعظم فيه.»(٢) ونظم المسابقات الرياضية والأدبية وحافظ على العادات المصرية وعلى الخدمات الدينية التى أولاها بالغ الاحترام.

وخلال إقامة الاسكندر فى مصر أحضروا أمامه مجموعة كبيرة من الأسرى وكانوا من ثوار جزر بحر إيجة فنفى ابولونيدس وأتباعه من ثوار شياوس إلى ييب فى صعيد مصر. إتجه الاسكندر فى أول الأمر جنوباً ثم تحرك إلى المصب الغربى للدلتا ومعه خرائط مساحية لمدينة كبيرة ليبنيها فى المستقبل وهى الاسكندرية. ومن هناك إتجه لزيارة هيكل الإله آمون فى واحة سيوة حيث أعلن تلقيبه بابن الإله آمون وحلول روح الإله فيه وبعودته من الصحراء قام بتنظيم إدارة البلاد ثم ترك مصر فى ربيع عام ٣٣١ ق.م نتيجة لاعتبارات عسكرية (إذ إنه رفض السلام الذى عرضه عليه دارا فى صور).

ويرى عدد من الكتاب أن زيارة الاسكندر لهيكل آمون تعتبر أهم حدث للاسكندر فى مصر، ويستخدم بعض هؤلاء الكتاب الرأى المرفوض الذى

سجله كاليستين الذى صحب الاسكندر فى كثير من مسيراته ومؤداه أن شهرة الاسكندر لا ترجع لأعماله الفعلية بل ترجع إلى ما كتبه كاليستين عنه. أما كتابات معاصرى الاسكندر من كتاب مؤرخين أمثال بطليموس واريستوبولوس وغيرهما والذين تعتبر تقاريرهم موثوقة، وكذلك كليثارخوس الذى كان يقيم فى الاسكندرية والذى جمع مادته من شهود العيان الذين رأوا الاسكندر؛ فإن كتابات كل هؤلاء تعتبر المصادر التى رجع إليها كتاب التاريخ اليونانى والرومانى فى القرون التالية ممن كتبوا عن الاسكندر الأكبر فى مصر(٣)

وكانت المصادر المصرية صامتة لم تذكر شيئاً عن زيارة الاسكندر لهيكل أمون فى الصحراء. ولكن الاسكندر لم يكن زائراً عادياً لمصر، وكان هيكل الإله أمون فى الواحات هو المزار الرئيسى الذى يحج إليه سكان مصر فى القرن الرابع قبل الميلاد، لذلك فإن هذا الصمت حول زيارة أمون أو حجه إلى ذلك المعبد سيظل لغزاً يحتاج إلى حل.

من الوثائق الهامة عن عصر الأسرة الحادية والعشرين لوحة المختفى أو لوحة مونيير التذكارية التى عثر عليها فى الأقصر، وهى محفوظة حالياً بمتحف اللوفر فى باريس. لم تحفظ هذه اللوحة حفظاً جيداً (فمن الصعب قراءتها)(٤) والنص المنقوش فيها يتناول هيكل أمون وشئون الواحة، كتبها منخبار الكاهن الأعظم لأمون، ابن الكاهن بينوزيم وهو أحد الأمراء الكهنة الذين قاموا بإعادة تكفين موميات الفراعنة.

يبدأ النص بتاريخ «فى السنة الخامسة والعشرين فى الشهر الثالث فى الفصل الثالث فى اليوم التاسع والعشرين» وبعد بضعة أسطر مكسورة يأتى النص التالى «جلالة ذلك الإمبراطور الإله (وهنا كلمات مكسورة)... ثم اتخذ طريقه إلى الكتبة والمساحين والناس»(٥). وجاء وصف الكاهن الأعظم على هذه اللوحة التذكارية أيضاً على أنه «القائد الأعلى للجيش» واسمه «منخبار المنتصر ابن الملك بينوزيم ماريامون... رفيق خطواته».

ويتتابع النص

فى لوحة مونيير: « فرحت قلوبهم لأنه رغب فى الحضور إلى الجنوب على رأس قواته منتصراً لكى يرضى قلب الأرض ويطرد الأعداء».

استقبل هذا المنتصر الذى طرد الأعداء بالترحاب، وفى الشهر الأول من الفصل الثالث حدث الآتى:-

فى لوحة مونيير: «وصل إلى المدينة الفرحة القلب، وقابله شباب طيبة وأقاموا له احتفالاً، وكان رسله يتقدمون، كانت تجلله عظمة الإله وأجلسه (الكاهن الأعظم لآمون) على عرش أبيه على أنه الكاهن الأعظم للإله آمون رع ملك الآلهة جميعاً»

ثبته الإله المنتصر-أو قدسية الانتصار- فى مكانه وشرفته وفى الشهر الرابع من الفصل الثالث فى اليوم الخامس من عيد ميلاد ايزيس:

فى لوحة مونيير: «ظهر جلالة الإله الإمبراطور رب الآلهة آمون رع ملك الآلهة (فى موكبه) وجاء إلى البهو الكبير من منزل آمون واستند إلى الحائط المحيط بآمون. وأتى إليه كبير كهنة آمون رع ملك الآلهة، القائد الأعلى للجيش منخبار المنتصر، وامتدحه واسترسل فى مدحه عدة مرات، وقدم له الهبات من كل شىء حسن»

يزعم بعض العلماء المحدثين أن كان هناك ممثلان يلعبان ادوارهما: كبير الكهنة أو الكاهن الأعظم وهيكل الإله. ويعبر هؤلاء العلماء عن دهشتهم لهذه المراسم. فيقولون «بدا وكأنه كان غائباً عن طيبة زمناً طويلاً، واحتاج إلى تأمين الاعتراف بالإله، وهى بلا شك حالة رئيس الكهنة المقيم.»(٦)

أما جلالة الملك الذى وصل إلى الجنوب منتصراً، فكان من الواضح أنه هو منخبار لأنه مذكور بالاسم فى نفس النص على أنه الشخص الذى ثبت فى مكانه ككاهن أعظم.

بعد أن امتدح كبير كهنة آمون الزائر مدحاً بالغاً وأتى بالهبات له بدأ يسأل الوحى:

فى لوحة مونيير: ثم أخذ كبير كهنة آمون منخبار المعظم يسأل الإله ويخاطبه قائلاً:

«يا الهى الطيب حينما يكون هناك أمر من الأمور هل يمكن أن نرويه؟

ثم أومأ الإله العظيم برأسه ايماءة شديدة(٧)

ثم تساءل كبير الكهنة قائلاً.

فى لوحة مونيير: ... إن مسألة هؤلاء الخدام، الذين تستحق أن

يخدموك، وهم فى الواحة، هل ابعدوا أم لا، ثم أومأ الإله الأعظم إيماءة شديدة، بينما كان قائد الجيش (كبير الكهنة) رافعاً يديه يمتدح ربه كما لو كان الأب يتحدث مع ابنه.(٨)

هذه العبارة الأخيرة فى النص غير متوقعة، فإن الكاهن قد يتحدث إلى الإله آمون كما يتحدث الإبن إلى أبيه وليس كما يتحدث الأب إلى ابنه، بيد أن النص المنقوش على اللوحة التذكارية يقول إن الكاهن يتحدث إلى الإله أو الرب كما يتحدث الأب إلى ابنه، وقد لاحظ المترجم الحائر: «أن هذا الشكل المعكوس موجود فى النص الأصلى.»(٩)

ومع تكرار السؤال نجح الكاهن فى الحصول على إجابة وهى أن المبعدين الذين كانوا فى الواحة يجب أن يخلعوا، وألا يكون هناك نفى فى المستقبل إلى هناك. وكان يهم الكاهن أن يتأكد من أن وحى الإله له كان واضحاً أمام الجميع، فقال:

فى لوحة مونيير: «يا إلهى، ألن تصدر مرسوما بشأنهم بألا يبعد أى أناس من الأرض إلى تلك المنطقة البعيدة فى الواحات ابتداء من اليوم» ثم أومأ الإله ايماءة شديدة «سوف يكون مرسوماً على لوحة تقام فى المدينة»

وكان اصدار المراسيم من اختصاص الملوك.

وكان السؤال الثانى الذى سأله الكاهن فى مهبط وحى آمون متعلقاً بالقتلة وهل يجب توقيع عقوبة الإعدام عليهم.

فى لوحة مونيير: ثم توجه كبير كهنة آمون منخبار المعظم إلى الإله قائلاً: «ماذا بشأن من سيمثلون أمامك... من قتلة الأحياء هل ستقضى عليهم.. أعتقد أنك لن تذبحهم» ثم أومأ الإله ايماءة شديدة، شديدة جداً.

يبدو أن تركيب العبارة التى توجه بها الكاهن الأعظم أو كبير الكهنة فى الأسئلة إلى مهبط وحى آمون «قتلة الأحياء» تركيب غريب ولا يساير المضمون: «بينما كنت فى الرحم ثم أخرجتنى من البيضة» كما لو أن الخلق الطبيعى للرب المقدس فى رحم الأم منسوب للإله آمون.

وتحتوى اللوحة التذكارية أيضاً على طلب بالمباركة أو التنبؤ بحظ سعيد وعطف من جانب الآلهة: «هبنى حياة سعيدة أقضيها...» وكان ذلك مصحوبا بسؤال: «هل سيكون لى نصيب من كل الانجازات؟»(١٠) ووهبه الإله ماطلب وأعلن الوحى: «أن الطهر والصحة ستكون لك فى كل مكان

تحل فيه.»

هذا وتعتبر اللوحة كلها غامضة «فإن المهمة الرئيسية للكاهن مروية عن عمد بأسلوب غامض بحيث يتعذر تحديد طبيعتها بدقة»(١١) ولكن سيتضح لنا الأمر.

فعلينا ألا نتغاضى عن الظروف التالية: يكشف لنا النص عن حقيقة أن الكاهن طلب أن يكون المرسوم مبنياً على إجابات ناقل الوحى بأن يوضع فى المدن المصرية، بينما وجدت هذه اللوحة التذكارية فى الأقصر (طيبة) مما يدل على أن هذا الطلب قد نفذ. لذلك فإن النبوءة أو الوحى لا تتطلب بالضرورة أن تكون آتية من آمون الذى يتواجد حيث اكتشفت اللوحة التذكارية. وأن الانشغال بواحة يجعل الأمر يبدو وكأن هذه اللوحة تتناول وحى آمون الذى فى الواحة، ولكننا سوف نسير بصورة أفضل إذا ما تتبعنا الاسكندر فى رحلته إلى هيكل آمون.

جاء الاسكندر من الشمال كقائد منتصر وكمحرر للبلاد من الفرس الأعداء الذين طردهم؛ ونظم الاحتفالات فى مدن مصر واستقبل بالترحاب من جانب شباب البلاد. واعترف بالموظفين المدنيين والدينيين الرسميين «وسمح لحكام الولايات بالاستمرار فى حكم أقاليمهم كما كانوا يحكمونها من قبل»(١٢) ومن ممفيس «صعد مع النهر وتوغل فى داخل البلاد».(١٣) ثم ابحر مع مجرى النهر شمالا نحو البحر»، وقام بنفسه «بتخطيط الأرض لإنشاء مدينة الاسكندرية.(١٤) وهناك أصدر توجيهاته إلى المساحين الذين يقيسون الأرض «وأمر المسئولين عن العمل بأن يبدأوا التنفيذ بينما اتجه هو إلى معبد آمون.»(١٥) وقام برحلته إلى الواحات فى الفصل المطير لما قيل له من أن المطر سيساعده فى اجتياز الصحراء.

كانت القلعة الواقعة وسط الواحة محاطة بحائط ثلاثى، وكتب عنه كوينتوس كورتيوس روفوس يقول:-

«المحيط أو السور الأول يحيط بالقصر القديم الذى كان مسكناً للملوك وفى داخل السور الثانى كان يعيش الأمير وزوجاته وأطفاله ومحظياته، وفيه أيضاً هيكل الوحى الخاص بالإله، وفى الدائرة الخارجية وضع الحرس الملكى والاتباع والحراس.(١٦)

من هذا نعرف أن كبير كهنة الهيكل فى الواحة كان يحمل لقباً ملكياً،

وكتب هيرودوتس (الجزء الثانى/٣٢) فى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد عن الواحات الشمالية فى وصفه لمصر وليبيا وقال إن الملك كان يحكم فى الواحة من مقر هيكل وحى الإله آمون.»

ولقد أعطانا ديودور الصقلى تفصيلات أكثر عن هذا الموقع العسكرى فى قوله:-

«فى داخل السور المحيط الثالث مساكن الرماة والمقاتلين وبيوت الحرس الذين يحيطون بالأمير حينما يسير خارج الموقع.(١٧)

نستنتج من هذه الأوصاف أن كاهن هيكل أمون فى الواحة كان أميراً له جيش خاص به، وهذا يفسر لنا الألقاب التى استخدمت فى اللوحة التذكارية مثل:- الأمير الكاهن قائد الجيوش.

وحينما وصل الاسكندر وحراسه إلى السور الخارجى المحيط بالقلعة خرج الكاهن الأعظم وحيا الملك وعبر بلوتارك عن ذلك بقوله:-

«حينما مر الاسكندر عبر الصحراء وأتى إلى موقع الهيكل قدم له رسول أمون التحية من الإله كما لو كانت تحية من الأب.(١٨)

وكتب سترابو نقلاً عن كاليستين:

«سمح الكاهن للملك وحده أن يمر إلى داخل المعبد بملابسه العادية، ولكن جميع الأخرين غيروا ملابسهم... وجميعهم سمعوا خطاب الوحى من الخارج إلا الاسكندر فقد سمعه من الداخل.(١٩)

ولقد أشار العديد من الكتاب إلى النفاق أو المديح الزائد الذى قابل به الكاهن الزائر الاسكندر عندما لاقاه أمام الأسوار، فمثلاً يتحدث كيورتيوس روفوس عن المديح المنغم» الذى وجهه الكاهن للاسكندر. وما ورد عن ذلك فى اللوحة التذكارية يقول:

فى لوحة مونيير: « إن جلالة الإله المعظم، ملك الآلهة آمون رع أتى إلى الأبهاء العظيمة لبيت أمون واستقر بجوار السور المحيط بآمون. وذهب الكاهن الأعظم منخبار المنتصر إليه وامتدحه مدحاً بالغاً عدة مرات، وقدم له هداياه، بل قدم له كل شىء جميل وحسن»(٢٠)

وأشار بلوتارك إلى الهبات بقوله "قدم الاسكندر قرابين كثيرة للإله" وتحدث كل الكتاب الذين وصفوا زيارة الاسكندر عن الكيفية التى خاطبه بها الكاهن فيقول ديودور:

"حينما تقدم الاسكندر إلى المعبد يتبعه الكاهن رأى الإله وتقدم إليه أحد الرسل المسنين وخاطبه قائلا "رعاك الاله يا بنى، وقد خاطبه بهذا اللقب بوحى من الإله نفسه

وأجابه الاسكندر "سأسمى دائما ابنُك"

وهنا نرى أن العبارات التى وردت فى اللوح التذكارى عن الكاهن "يمتدح ربه، كما لو كان الأب يتحدث إلى إبنه" لم تكن قلبا للوضع.

وكتب كيورتيوس أيضا (الجزء الخامس/ فقرة ٧)

بينما كان الملك يقترب حياه كبير الكهنة بلفظ "بنى" مما يؤكد أن أباه "كوكب المشترى" (آمون) قد خلع عليه هذا اللقب.

لهذا اللقب "يابنى" الذى خوطب به الاسكندر وأكده كل من ديودور وبلوتارك وكيورتيوس روفوس، أهميته بسبب إفراده ولأنه يوضح ويؤكد العبارة الواردة فى اللوحة التذكارية.

وكانت طريقة إجابة الأسئلة فى هذا الاستيحاء متميزة، فعلى اللوحة التذكارية مكتوب أن "الإله الأعظم أومأ ايماءة شديدة بل وشديدة جداً".

وذكر ديودور نفس الشئ عن وحى آمون فى أثناء زيارة الاسكندر "وجههم الإله بإيماءة من رأسه". وتحدث استرابو أيضا عن هذه الظاهرة:

"إن الوحى أو الإجابة على الاستيحاءات لم تكن مثلما كان يحدث فى دلفى بالكلمات بل كانت فى أغلب الأحيان بإيماءات من الرأس كما هو الحال بالنسبة لهومر "تكلم كورونيون وأومأ بحواجبه السمراء" ومع أن المتنبئ هو الذى يقوم بدور زيوس -أى الإله الأعظم أو ملك الآلهة فإنه أخبر الملك الاسكندر بأنه هو ابن الإله الأعظم.

وهناك سبب آخر يجعل الكاهن يتحدث إلى ربه وإلى الاسكندر بنفس الطريقة (بأن ينادى كلا منهما باسم الرب أو الإله آمون) هو إعلان أن روح الإله آمون قد حلت فى الاسكندر ذاته. وفضلا عن ذلك فقد أكدوا له أنه الابن الحقيقى لآمون، فالكلمات التى جاءت فى اللوحة التذكارية تخبر المنتصر المقدس بأن آمون هو الذى كونه فى البيضة.

لم يضار الاسكندر بأن سمى ابن الإلهة جوبيتر (المشترى كبيرة الالهة وهو اسم أكبر الكواكب) بل إنه كان فى حاجة إلى هذا اللقب". فإن الحظ حينما يواتى الرجال ليثقوا فيها ثقة كاملة فإنها تزيد من حرصهم على

المجد بدرجة تفوق قدراتهم"(٢١)

ولقد عرفنا من برديات هاريس العظيمة التى ترجع إلى عصر حكم رمسيس الثالث أو رمسيس الرابع، أن المحكوم عليهم بالنفى كانوا يرسلون عادة إلى الواحات الجنوبية ليقوموا بالعمل الإجبارى فى حدائق المعبد، ومنذ القدم حتى العصر المسيحى كانت الواحات هى المنفى الذى يرسل اليه المعاقبون. وقبل أن يأتى الاسكندر إلى هيكل الإله آمون فى الواحات كان ينفى اليها بعض اعدائه من الشيوس إلى "هيب" وهى التحريف اليونانى لاسم يبب وهو موقع جزيرة فيلة فى النيل، ولكن هيب كان هو الاسم الذى يطلق على الواحة الجنوبية(٢٢).

وكان كاهن وحى آمون فى شغف شديد لاستقبال الملك ليحصل منه على مرسوم بعدم إرسال المنفيين إلى الواحات.

ولعل السؤال الذى كان يهم الاسكندر هو حسب ماذكر ديودور «هل نفذت العدالة على كل من قتلوا أبى أم أن بعضهم قد فر ؟ » وإجابة على هذا السؤال صاح متلقى الوحى «عبر عن نفسك بشكل أدق، لأنه لايوجد من بين من كتب عليه الموت أن يقتل أباك، ولكن كل قتلة فيليب لقوا العقوبة العادلة(٢٣).

ويذكر كورتيوس روتيوس ذلك على النحو التالى: (الجزء الرابع/ القسم السابع):

«اتجه الملك ليستفسر عما إذا كان كل من تآمروا على قتل والده قد عوقبوا » وكانت الإجابة «أن الجريمة ليست جريمة أحد فلا يستطيع أحد أن يلحق الأذى بأبيك، ولكن كل قتلة فيليب قد عوقبوا عقابا صارما ».

والنص الذى ذكره بلوتارك أيضا مشابه لذلك: (الجزء ٢٧ من كتاب الاسكندر):

«حياه رسول آمون من الإله تحية الأب، بينما سأله الاسكندر عما إذا كان أحد الذين قتلوا أباه قد أفلت من العقاب، وأجاب متلقى الوحى على هذا السؤال بأن طلب منه أن يحترس فى كلامه لأن أباه خالد لا يموت (يقصد الإله آمون) ولذلك غير الاسكندر صيغة السؤال وسأل عما إذا كان كل قتلة فيليب قد عوقبوا... عندئذ أجاب الإله بأن ثأر فيليب قد أخذ كاملاً.

والآن وقد أصبحت لدينا الترجمة التقريبية للعبارة الخاصة بمعاقبة القتلة، فليس هناك مكان للتساؤل عما إذا كان الواجب معاقبة القتلة، فبدون وساطة الرسول أو متلقى الوحى فالكل يعرف أنه يجب معاقبتهم، والسؤال الفعلى هو هل جميع القتلة قد عوقبوا أم لا، وكانت الإجابة أنه لم يفلت أحد من قتلة فيليب من العقاب.

وجدت كلمتا قتلة وأحياء فى نص السؤال الموجود بالهيروغليفية على اللوح التذكارى فى جملة واحدة لم تكن تتكلم عن قتلة الأحياء بل عما إذا كان هناك أحد القتلة بين الأحياء، وكانت الإجابة بالنفى، «إنك ستدمره، إنك ستقتله، ولكنك سوف لا تتردد فى تدميره، فى قتله.»

وطرح الاسكندر سؤالاً آخر عما إذا كان الحظ سيحالفه عما إذا كان الإله سيعطيه العالم كله ليكون تحت سيطرته، أو على حد تعبير بلوتارك «إذا كان قد كتب له أن يكون سيداً ورباً لكل البشر؟ وعلى هذا السؤال أجاب الكاهن أن «الإله بلا شك سوف ينعم عليه بما يرغب فيه» وأن «نجاحه العظيم وإنجازاته الكبرى دليل على مولده من أصل قدسى» (جاء ذلك فى تاريخ ديودور)، ونحن نتذكر كلمات اللوح التذكارى «هبنى حياة سعيدة أقضيها... وهل سيكون لى نصيب من كل الإنجازات.»

وقدم الاسكندر «كثير من الهدايا الثمينة والمكافآت لكاهن التنبؤ أو متلقى الوحى.»(٢٤) وقدم للكاهن «هبات مالية كثيرة»(٢٥) أو حسب ما جاء فى اللوحة التذكارية: «خلع جلالته عليه الكثير من المنن المدهشة.»

وتعتبر السنة الخامسة والعشرون المذكورة فى اللوحة التذكارية متعلقة بالاسكندر، فلقد ولد فى عام ٣٥٦ ق.م، وكان فى زيارته لمصر فى أواخر خريف عام ٣٣٢ ق.م حتى ربيع عام ٣٣١ ق.م قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، فلابد أن سنوات الحكم بالنسبة للاسكندر قد بدأت بميلاده لأنه أعلن بواسطة كاهن الوحى ابنا للإله وأزليا أبدياً.

ومما يستحق الذكر أن كل ما يتعلق بالاسكندر من ذكر السنة الخامسة والعشرين فى اللوح التذكارى، ووصول الزائر المنتصر إلى الجنوب ليحرر البلاد ويطرد الأعداء وترحيب السكان به وما أقاموه له من احتفالات، وتأييد الكهنة له، والقيام بقياس الأرض (لبناء المدينة الجديدة)، والزيارة الملكية لهيكل آمون بكل تفاصيلها بما فيها وصوله إلى السور،

وكون الكاهن الأعظم اميراً بالوراثة وقائداً للرماة والمقاتلين، ومخاطبته بلقب «جلالة الملك» مصحوباً بلقب ابن أمون الذى أعطاه وضع الملك المقدس، وكونه منسوب إلى الإله جسدياً حيث تولى الإله تكوينه وهو فى البيضة والطريقة المتميزة لإجابة كاهن الوحي بالايماءة. والسؤال عن المنفيين وطلب المرسوم الملكى بشأنهم، والتساؤل حول القتلة وعما إذا كان قد أفلت بعضهم من العقاب وما زالوا بين الأحياء- كل ذلك جاء فى رواية الكتاب اليونانيين واللاتينيين لقصة زيارة الاسكندر الأكبر لهيكل آمون، تماماً كما جاء فيما ذكره كاهن الوحي بنفسه. كذلك هناك تطابق تام بين ما ورد فى اللوح التذكارى للمبعدين وما ذكره كتاب سيرة الاسكندر من اليونانيين واللاتينيين.

يرجع اللوح التذكارى إلى القرن الرابع، وبالتحديد إلى أوائل ربيع عام ٣٣١ ق.م.

ونعود مرة أخرى فنقول إن ما تسمى الأسرة الحادية والعشرون تبدو وكأنها أسرة أمراء الواحات حيث عينهم الفرس لقيادة المواقع المتقدمة فى الجبهة الليبية. وفى اللوح التذكارى الذى تركه الأمير الكاهن منخبار راعى معبد وحى أمون فى واحة سيوة وصف لزيارة الاسكندر للمكان، وهو متفق مع ما جاء فى كتابات اليونانيين حتى فى التفاصيل الدقيقة.

وكثيراً ما قيل إنه لا توجد أى سجلات مصرية عن زيارة الاسكندر لهيكل الإله الأعظم أمون فى الواحات.(٢٦) ولكن الأمر يختلف الآن بعد اكتشاف اللوح التذكارى للمبعدين الذى يضم هذه المعلومات.

وقيل أيضاً إننا لن نجد اطلاقاً أى بيانات عما تلقاه الاسكندر من إجابات على أسئلته من كاهن الوحي فى الواحات، ولكن الواقع أن الأمر تجاوز ما رواه من اصطحبوا الاسكندر وزاد عليه ما رواه من كانوا بداخل المعبد عند تلقى النبوءات. فقد رووا جميعاً أنه حصل على وعد بأن يخبر أمه عن سر معين حينما يصل إلى مقدونيا. وقال الاسكندر «فى خطاب أرسله إلى أمه إنه تلقى سراً معيناً إجابه على سؤال طرحه سوف يسر به إليها وحدها» (ورد فى بلوتارك)، ولكنه لم يعد إلى وطنه. «فما هى الاسئلة التى طرحها الاسكندر، وما هى إجابات متلقى الوحى؟ مشكلة ناقشها المؤرخون منذ البداية، وسوف لا نصل إلى إجابة صحيحة حولها،

لأن الاسكندر أخفاها ليسر بها إلى والدته عندما يعود إلى الوطن، ولكنه لم يعد إلى مقدونيا فماتت حقيقة السر معه.»(٢٧) إن جهلنا هذا بكل ما نطق به الوحى وعدم قدرتنا على انتهاز فرصة دراسة ما جرى بين الملك والكاهن أمر غير صحيح فإن لدينا الإجابات على تساؤلات الاسكندر محفورة فى اللوحة التذكارية للمبعدين التى أعدها الكاهن مع بعض الأشخاص الآخرين الذين حضروا ذلك الاجتماع الهام والسرى.

هل زار الاسكندر طيبة المصرية؟

أقام الاسكندر فى مصر فى الفترة من خريف عام ٣٣٢ إلى ربيع عام ٣٣١ ق.م، وكان من بين أنشطته خلال هذه الفترة أن وضع أساس بناء الاسكندرية وزيارته لواحة سيوة وهما أكثر أعماله شهرة لأن كتاب السيرة من اليونانيين واللاتينيين قد وصفوهما بالتفصيل، وإن كانوا قد استقوا مادتهم من كتابات من اصطحبوا الاسكندر فى حملته لغزو آسيا ومصر فى أفريقيا. وقام كليثارخوس الذى أقام فى الاسكندرية بعد إنشائها بجمع المعلومات المكتوبة والمروية عن الاسكندر لكى يؤلف كتاباً عن سيرته» وأصبح مؤلفه معروفا من خلال الكتاب الذين اقتبسوا منه ونقلوا عنه وأشاروا إليه.

أما المسألة التى سنتناولها هنا فهى مسألة ثانوية: هل زار الاسكندر طيبة عاصمة مصر العليا أم لا؟ لا توجد أى معلومات تدل على هذه الزيارة فى الكتابات المتأخرة عن وصف مصر، ويبدو بذلك أن التركيز كله كان على الدلتا أو مصر السفلى وعاصمتها القديمة ممفيس والصحراء والواحات الشمالية. أما بالنسبة لرحلة الاسكندر إلى صعيد مصر فإن فى أقوال كل من بطليموس وكاليستين وهما شهود العيان تعارضاً كبيراً، فبينما يقول أحدهم إن الاسكندر عاد من نفس الطريق على امتداد الساحل ثم اتجه نحو الجنوب، يقول الآخر إنه عاد بطريق برى كامل. ومن بين المؤلفين المتأخرين نجد أن كورتيوس روفوس يقحم عبارة سبق أن اقتبستها: «من ممفيس صعد مع النهر وتوغل الملك إلى داخل مصر». ولكن فى فقرة أخرى قرب نهاية روايته قال نفس الكاتب إن الاسكندر شعر

بميل شديد لزيارة الأجزاء الداخلية من مصر بل وأثيوبيا أيضاً. فإن فخامة قصر ممنون وتحتمس كادت تشده وتجعله شديد الشغف للقيام باكتشاف الآثار التى تمتد حتى مدار السرطان، ولكن الحرب منعته.. والوقت لم يسعفه»

وربما كان قصر ممنون الذى ذكره كورتيوس روفوس هو قصر الأقصر الذى بناه امنحتب الثالث، نظراً لأن تمثاليه التذكاريين اللذين يوجدان فى سهل طيبة على البر الغربى من الأقصر يعرفان عند اليونانيين باسم «تمثالاً ممنون» لأنهما يشبهان تمثال ممنون الأسطورى.(١) ويبدو بذلك أن كورتيوس روفوس جعل الاسكندر يتوغل إلى داخل مصر على امتداد أعالى النهر ولكنه لم يصل إلى أسوان قرب مدار السرطان، أو حتى إلى طيبة.

على أن طبيعة الاسكندر الشغوف بارتياد الأماكن والفخور بنفسه ربما لم تجعله يفوت على نفسه زيارة معابد العاصمة القديمة التى عرف عنها الكثير من قراءته الالياذه والاوديسا لهومير التى يذكر فيها أن أخيل الذى كان يعتبر بالنسبة للاسكندر الأكبر المثل الأعلى فى البطولة تحدث عن الثروات الطائلة لطيبة ذات المائة باب والمائتى عربة على كل باب. وكانت طيبة بالنسبة لليونانيين أعظم مدن العالم كله. ومازالت طيبة حتى اليوم تجتذب آلاف السائحين. وعلى اعتبار أن الاسكندر أصبح ابناً لآمون فلابد أنه كان يميل لزيارة معبد آمون الفاخر فى الكرنك إلى الشرق من طيبة، فهى ليست أصعب من الرحلة الطويلة التى قام بها عبر الصحراء إلى سيوة فقد كان يكفيه أن يسافر إلى طيبة فى سفينة مريحة تستغرق فترة أقصر. لقد ظل نحو نصف عام يجوب أنحاء مصر ولم يمنعه ذلك من أن يبحر إلى طيبة فى أعالى النهر. ومن المسلم به لكى يتوج ملكاً على مصر العليا والسفلى، ويحصل على ذلك اللقب أن يكون قد زار طيبة لاتمام مراسم تتويجه كما تم فى ممفيس.

ولقد قام الاسكندر بإقامة بعض حجرات النذور فى معبد الكرنك، كما عملت بعض النقوش التى تحمل اسمه بالحفر الغائر مازال السائحون يشاهدونها حتى اليوم، وتدل حجرات النذور هذه دلالة قوية على أن الاسكندر الأكبر زار طيبة وقدم القرابين هناك للإله آمون كبير أرباب مجمع الآلهه المصريين.

هذا، ويمكننا استخلاص هذه الحقيقة ذاتها من لوحة المبعدين أو لوح مونيير التذكارى. «فرحت القلوب لأنه رغب فى الحضور إلى الجنوب على رأس قواته المنتصرة لكى يرضى قلب الأرض ويطرد الأعداء...». قد تعنى كلمة الجنوب هنا مجرد أن الملك قد وصل إلى مصر من الشمال، فقد جاء من مقدونيا ماراً بالأناضول وسوريا وفلسطين، ولكن الفقرة تنص على أنه «وصل إلى المدينة الفرحة القلب وقابله شباب طيبة وأقاموا له احتفالا، وكان رسله يتقدمون...» ويشير اللوح التذكارى المحطم فى الجملة التالية إلى أن جلالته قد أجلس منخبار «على عرش آبائه كبيراً لكهنة أمون رع أو ثبته على عرش أبيه».

وتستحق النقوش الموجودة على حجرات النذور التى بناها الاسكندر فى الكرنك مزيداً من عناية علماء الآثار. فإن الإسم الأخير أو لقب تحتمس الثالث كان منخبار، وكان هذا كما نعلم هو اسم الكاهن الأعظم الذى استقبل الاسكندر فى الواحات، وعلى ذلك فإن الأمر يستحق معاودة دراسة تفاصيل أجزاء النصوص المنقوشة على الجدران لكى نقرر مدى صحة القول بأن «الاسكندر بنى حجرات النذور لتحتمس الثالث.» ربما كان الأمر كذلك نظراً لأن تحتمس الثالث كان بطلاً عسكرياً مصرياً معروفاً فى التاريخ. عاش وحارب قبل مجىء الاسكندر بستمائة عام(٢)، ولكن هل كون اسم منخبار هناك يشير إلى الكاهن الأعظم ولا يشير إلى منخبار ذاته أمراً قد يجعلنا نتنبه إلى أن اسم الاسكندر أو صورته لابد وأن تكون منقوشة فى الكرنك فى صورة متصلة به؟ كتب أحد أبناء منخبار، كما سنرى بعد، نصاً طويلاً منقوشاً عن بعض المسائل التافهة على جدران الكرنك، فهل يمكن أن نتغاضى عن ذكر أشياء أهم بكثير كان أبوه قد أشار إليها؟ عثر على اللوح التذكارى فعلاً فى الأقصر وهو مجمع المعابد الثانى فى طيبة، وعلى ذلك فهناك دليل قوى على أن الاعتقاد الذى ساد هو أن الحجرات التى بناها الاسكندر كانت على شرف الفرعون العظيم.

«كان هيكل آمون فى سيوة فرعاً من معبد آمون فى طيبة»(٣)، وهذا يفسر أيضاً أن منخبار كان يقوم بنشاطه فى كلا الموقعين، وأن الاسكندر زار طيبه إما قبل أن يحج إلى هيكل آمون فى سيوه أو بعد أن رجع من تلك الرحلة.

هوامش الفصل الثالث

الاسكندر أمام هيكل آمون في الواحات

1- U. Wilcken, Alexander the Great (London 1932), p. 113.

٢- المرجع السابق ص ١١٥

3- Arrian, Anabasis of Alexander, III; Diodorus;, Plutarch.

4- Breasted, Ancient Records, Vol. IV, Sec. 650, note.

٥- ترجم بريستد هذه الكلمة بالمفتشين، أما بروجش فترجم الجملة إلى الألمانية على النحو التالي: "Da legte er den Weg zurück zu den Schreibern, den Vermessern und zu den Leuten". H. Brugsch, Reise nach der Grossen Oase (1878), p. 86.

6- Petrie, History of Egypt from the XIXth to the XXXth Dynasties, Vol. III, P. 211.

٧- سجلات برستد الجزء الرابع القسم ٦٥٥.

٨- المرجع السابق.

٩- المرجع السابق في الهامش.

١٠- ترجمها بروجش للألمانية بالنص التالي: "Wird mir aller Lohn zu thiel?" وردت في كتابه Brugsch, Recueil de monuments éyptiens (Laepzin 1882-85) وكتابه Reise nach der Grossen oase 1.39.ff.

11- Breasted Ancient Records, Vol. IV sec. 650.

12- Arrian, Anabasis of Alexander, III, 1.

13- Quintus Curtius Rufus, The History of the Life and Reign of Alexander the Great, trans. P. Pratt (London 1809) IV, Chap. vii

14- Arrian Anabasis of Alexander, III, 1

15- Plutarch, Lives, "Alexander", trans. B. Perrin (Leob Classical Library, 1919), XXVI

16- Curtius Rufus, The History of the Life and Reign of Alexander the Great, IV, Chap, vii

17- Diodorus, The Historical Library, XVII, 5.

18- Plutarch, Lives "Alexander" XXVII

19- Strabo, The Geography, XVII, i, 43

20- Breasted, Ancient Records, Vol, IV, sec 654

21- Curtius Rufus, The History of the Life and Reign of Alexander the Great, IV, Chap. vii.

22- "Der Name des Tempels, oder vielmehr der Örtlichkeit dessen Cultusmittelpunkt er bildete, wird unzählige Male in den Texten genannt: er lautets Heb oder Hib." Brugsch, Reise nach der Grossen Oase. pp 19 and 25. وأيضا chapter "The Great Oasis as a Place of Exile in Antiquity," ibid., p. 83.

23- Diodorus The Historical Library, XVII, 5.

٢٤- المرجع السابق.

25- Plutarch, Lives, "AlexAnder" XXVII. 4.

26- J. Grafton, Milne, "Alexander at the Oasis of Ammon" in Miscellanea Gregoriana (Vatican, 1941) p. 148.

27- Harold Idris Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest (Oxford, 1948), p. 30.

هل زار الإسكندر طيبة المصرية؟

١- أنظر كتاب أوديبوس واخناتون.

٢- أنظر الجزء الأول من كتاب عصور فى فوضى.

٣- د. أحمد فخرى: واحة سيوة ص ٤٢.

الفصل الرابع

ســى - آمـــون

بينوزيم الثانى

بعد انتصارات الاسكندر فى وسط آسيا وحوض نهر السند عاد إلى بابل حيث استلقى فى فراش الموت، فسئل عن آخر رغباته، فطلب شيئا واحدا هو أن يدفن فى واحة سيوة التى سمع فيها من قبل منذ ثمانى سنوات وحياً يعلن أنه ابن الإله. ووصل موكب جنائزى يحمل جثمان الاسكندر إلى مصر، ولكن بطليموس كان يعارض فى تسليم جثمانه لكهنة الواحة، واختار له مقبرة فى الاسكندرية. وأحضر له تابوتاً من الرخام الأبيض الفائق الجمال فى صيدا، وزين بصور الحرب والصيد، وهو الآن فى متحف اسطنبول ويعرف باسم تابوت الاسكندر، ولكن لا توجد أى كتابات منقوشة تدل عليه سوى فخامته التى تدل عليه.

وحينما تفككت الامبراطورية التى كونها الاسكندر بعد موته. فاختار بطليموس ابن لاجوس الذى كان قد اصطحب الاسكندر فى مسيراته للغزو حتى وصل معه إلى الهند، اختار مصر لنفسه وحارب فى البر والبحر لكى يحصل على نصيب أوفى من الميراث. وقد أعلن البعض ولاءهم الظاهرى لأخى الاسكندر غير الشقيق فيليب ارهيدايوس، وبعد موته أعلنوا ولاءهم للاسكندر الصبى نجل الاسكندر الأكبر الذى ولد بعد وفاته لزوجته روكسانا وظل هذا الولاء قائما حتى قتلت هى وابنها فى عام ٣١٠ ق.م. بعد ذلك فقط استطاع بطليموس أن يعلن نفسه ملكا على مصر وفلسطين، وكون أسرة حاكمة ملكية استمرت على عرش مصر ثلاثمائة عام انتهت بالملكة كليوباترا سنة ٣٠ ق.م.

أما منخبار وبينوزيم اللذان استقبلا الاسكندر فى الواحات فقد

خلفهما فى منصب كبير الكهنة ابن بينوزيم الذى سمى باسم جده. وقد خلف لنا بعض الكتابات المنقوشة ومنها نقوش على أحد جدران معبد أمون فى الكرنك. وفى هذه النقوش نجد صورة بينوزيم الثانى ككاهن أعظم ورسول وليس كملك. كذلك لا يذكر فى تلك النقوش أن أباه منخبار كان ملكا، ويؤرخ بينوزيم هذا النص بالسنة الثانية والثالثة والخامسة والسادسة من حكم ملك لم يذكر اسمه. وكتب نافيل يقول "من المرغوب أن نعرف من هو ذلك الملك"(١). فلابد أن بينوزيم باعتباره ابنا لمنخبار وخليفة له أن يكون معاصرا لأيام بطليموس الأول، وبذلك تكون السنوات الثانية والثالثة والخامسة والسادسة هى من سنوات حكم بطليموس الأول، وربما تشير إلى الوقت الذى تولى فيه بطليموس السلطة الفعلية بعد موت الاسكندر الأكبر دون أن يكون قد أعلن نفسه ملكا على مصر(٢). هذا ويفترض أن بينوزيم الثانى قد مارس وظيفته كرسول أو متلقى وحى أمون فى العقدين الأخيرين قبل سنة ٣٠٠ ق.م.

يظهر بينوزيم فى النقوش الكبيرة فى معبد الكرنك وهو يعمل مباشرة أمام الإله الأعظم، وقد لاحظ نافيل أنه بهذا "يقوم مقام الملك". وكما جاء فى لوحة الغائبين فإن الإله الأعظم هو الذى يعين الكتبة والمفتشين والملاحظين، والذين كان بعضهم يقوم بأعمال الخداع، ويحقق بينوزيم فى موضوع وحى أمون ليتحقق من أن تحتمس ابن سوا أمون أمين المعبد، كان مذنبا فى اغتصاب بعض ممتلكات المعبد لنفسه. ويجيب متلقى الوحى بحركات عنيفة بحاجبيه كما جاء فى لوحة الغائبين ويصل بنا النص الطويل إلى حد الشك، فلا نعلم إلى أى حد كان الوحى أصيلا، ولكن النقش الموجود على جدران الكرنك متضمنا مثل هذه المسائل التافهة بهذا التفصيل ما هو إلا دليل على الوصول إلى حد الضحالة.

ويفترض أن بينوزيم الثانى كان له ابن يسمى بسوسينس، ويعتبر بسوسينس الثانى هذا آخر ملك من ملوك الأسرة الحادية والعشرين، وإن لم توجد أى نصوص عنه تدل على ذلك. وفوق ذلك يفترض أن بسوسينس كانت له ابنة تسمى ماكارى. فما هو السبب فى هذه الافتراضات؟ السبب هو أن نعقد الصلة بين أسرة ملوك الكهنة التى تسمى الاسرة الحادية والعشرون من جهة وبين الأسرة المالكة الليبية التى تعد الثانية

والعشرون التى حكمت فى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد من جهة أخرى.

ولئن كان التمثال الذى صنعه أحد الحجاج لإله النيل لم يسترع نظر علماء الآثار إلا أنه تبين من النصوص المنقوشة عليه أن من أمر بصنعه هو الكاهن الأعظم مريامون سوسنك الذى يصف نفسه بأنه ابن الملك اوسوركون وزوجته ماكارى ابنة الملك ابيسبكينو (بسوسينس). هذا ويعتقد أن هناك صلة بين الأسرتين إحداهما انتهت ثم حلت محلها الأسرة الأخرى(٣). وافترض أيضا أن الكاهن الأعظم سوسنك اعتلى العرش تحت اسم الملك شيشنق رغم أن النص المنقوش يضع شيشنق فى زمن سابق وليس لاحقا للملك اوسوركون.

وليس هناك أى دليل مؤكد على أن بينوزيم الثانى كان له ابن يسمى بسوسينس الثانى ولا أى دليل فى سلسلة تتابع الكهنة على أن كانت له ابنة تسمى ماكارى. ولكن هناك اعتقاد بأن بسوسينس الثانى جاء بعد بينوزيم الثانى، والأكثر من ذلك أن كانت له ابنه تسمى ماكارى وأنها فى النهاية تزوجت اوسوركون الأول وحملت منه ابنا اسمه سوسنك، وأدى هذا الظن أو الاعتقاد إلى خلط أدى إلى تغيير فى أدوار أسلافهم والزمن الذى عاشوا فيه. ومع ذلك ساد الاعتقاد بأن ترتيب الأسر مستقر، لكن الحقيقة هى أن الصلة الوحيدة التى وجدت هى الصلة بين الأسرة الحاكمة الليبية والأثيوبية التى أعقبت الأسرة الليبية، وأنهما جاءا بعد أسرة الامراء الكهنة الذين عرفنا انهم ازدهروا فى ظل الحكم الفارسى وفى ظل حكم البطالسة الأوائل كذلك. ونظرا لأن بينوزيم الثانى كان موظفا رسميا فى عهد بطليموس الأول، فلا يمكن أن يكون حمو الملك الذى حكم البلاد منذ أكثر من ستمائة عام.٤

سى آمون

هنا نصل إلى الشخصية الأخيرة فى هذا العمل الذى نقوم به لإعادة بناء التاريخ القديم، ولقد بذلت جهود حديثة متعددة لوضع نظام لتتابع ملوك وكهنة الأسرة الحادية والعشرين التى يعتبر الملك سى آمون آخر

ملوكها فى النسق التاريخى المعتاد(١).

كان سى آمون هو خاتمة ملوك الدير البحرى، ولكن لم يتقرر ذلك قبل أن يضع رفات بينوزيم الثانى بين موميات الفراعنة القدامى الذين قام هو بنفسه بإعادة تكفينهم، وربما كان سى أمون أيضاً هو الذى وضع رفات الملكة زوجة ابسوسينس مع مومياء الملك امينيموب فى المقبرة فى فناء معبد تانيس. وعثر على جعران يحمل اسم سى آمون فى دهليز المقبرة ويكاد هذا الاسم يشبه التوقيع (على حد قول مونتيت).

ازدهر بينوزيم الثانى ابن منخبار فى ظل حكم بطليموس الأول (سوتر)، ولابد أن سى آمون قد عاش فى ظل حكم نفس هذا الملك وربما فى عهد خليفته بطليموس الثانى فيلادلفوس (٢٨٥ ق.م إلى ٢٤٦ ق.م) وبينما كان بطليموس الأول ملكا محاربا فإن ابنه الأصغر الذى من أجله تنازل عن العرش قبل وفاته بسنتين كان ملكا عاشقا للأبهة ومحبا للثقافة الهلينية. ولئن كان فيلادلفوس قد تزوج أخته متبعا فى ذلك ما كان سائرا فى الأسر الحاكمة المصرية إلا أنه كان يمقت الأجواء الغامضة التى تحيط بالمعتقدات الدينية الوطنية ولذا فقد أحل محل تلك الأجواء جوا من المعتقدات التى يسودها المرح مثل الاعتقاد فى سيرابيس الذى حل محل الآلهة القديمة آمون وبتاح وغيرهما. وأصبحت مكتبة الاسكندرية التى أسسها بطليموس الأول مركزا هاما من مراكز العلم فى ظل حكم بطليموس الثانى، وأصبحت الاسكندرية عاصمة لمصر فغطت على شهرة سايس وممفيس وغيرهما من مدن الدلتا. وفضلا عن ذلك فقد رعى بطليموس الثانى الفنون.

ونظرا لأن سى آمون قد عاش فى ظل البطالمة الأوائل فلابد أنه قد شهد التغيرات التى طرأت على الأحوال. رأى الثقافة المصرية التى تجاوزت كل تأثيرات غزو الهكسوس والليبيين والأثيوبيين والآشوريين والفرس قد تأثرت وتعرضت لنمط جديد خلاف النمط الشرقى للثقافة. فبينما أقام المرتزقة والتجار اليونانيون فى مصر لفترات متعددة، كان الفلاسفة من أمثال سولون وفيثاغورث وهيرودوتس وأفلاطون يأتون إلى مصر طلبا للعلم والمعرفة، أتى الاتجاه الجديد بتغيرات كثيرة لم تقتصر على الأسلوب بل وعلى الفكر أيضا، فتحول مركز الثقافة من هيلاس إلى مصر أو

بالتحديد إلى الاسكندرية التى سرعان ما أصبحت العاصمة الثقافية للعالم وحلت بذلك محل أثينا. ولم تكن الثقافة الجديدة يونانية خالصة هبطت إلى البلاد مع غزو الاسكندر، بل إن الغزو المقدونى أدى إلى إحياء مايسمى الثقافة الهلينيسية التى اختلفت تماما عن الثقافة الهلينية، كانت هذه الثقافة الهلينيسية مزيجا من الثقافة الهلينية والثقافات الشرقية، ولئن كان هناك مكان واحد يجمع الباقة التى جمعها الاسكندر وتركها لأصحابه الذين ورثوا من روح أثينا لكانت هى الاسكندرية.

استمر النظام الكهنوتى فى مصر يستمتع بسيطرته على الملوك فبنى معبد كوم امبو ومعبد إسنا ومعابد أخرى فى أماكن عديدة لم تختلف كثيراً فى طرازها المعمارى عن معابد الأسرة العشرين، وكانت المعابد وأطقمها يستمتعون بما يتلقونه من هبات ومخصصات، ولكن المراسم القديمة تعرضت لتأثير الروح الهلينية وسرعان ما عبدت فيها الآلهة الجديدة وأصبح سيرابيس هو الإله العلوى.

وعلى الرغم من أن الفرص كانت متاحة فى الواحات للإبقاء على بعض المراسم والخرافات لفترة من الزمن إلا أن تأثيرات الهلينية قد استطاعت أن تعبر الصحراء وتصل إلى الواحات أيضاً. ويمكننا أن نشبه التغير الذى طرأ على الثقافة المصرية بعصر التنوير الذى ساد أوربا فى القرن الثامن عشر الميلادى، ولكن احتفظ عهد البطالمة بما يشبه ما حدث فى فرساى فى القرن السابع عشر من موجة إلحاد دينية رغم بقاء تأثير رجال الدين فى المجالات السياسية والثقافية. وكان البلاط الملكى «رائعاً فى رعايته للعلوم والفنون.»

ومن أجل تزيين الاسكندرية أمر البطالمة بنقل العديد من المسلات لإقامتها وسط ميادين الاسكندرية. وكانت المسلتان القائمتان حاليا إحداهما على شط نهر التيمز فى لندن والأخرى فى منتزه نيويورك مقامتين من قبل عهد القياصرة فى الاسكندرية، وكان الذى نقلهما هناك هو اغسطس الاوكتافى، ولكن لا يعرف بالتحديد متى نقلتا إلى الاسكندرية لأول مرة من مكانهما فى هليوبوليس شمالى ممفيس حيث كان تحتمس الثالث قد أقامهما أصلاً فى عهد الأسرة الثامنة عشرة. ويفترض أن اغسطس الأوكتافى هو الذى نقلهما، وإن لم نجد أى شاهد

على ذلك.

والمعتقد أن نقل المسلتين من مكانهما الأصلى فى هليوبوليس (واسمها المصرى مدينة أون) تطلب موافقة من الكهنة. وعلى المسلتين تاريخ يرجعهما إلى عصر تحتمس الثالث، ولكن وجد فى أسفل المسلتين نقش هيروغليفى يحمل اسم سى آمون أضيف فى زمن متأخر.(٢) فلو أن هذه الأسطر أضيفت فى وقت نقل هاتين المسلتين فيكون سى آمون هو الذى أعطى الإذن بنقلهما.

وهناك أمثلة كثيرة معروفة ترك فيها سى آمون اسمه أو توقيعه على أشياء عثر عليها فى ممفيس وتانيس وغيرهما من الأماكن فى مصر العليا، فلقد كان نشيطاً للغاية فى بذل الجهود للحفاظ على المعابد والآثار التى ترجع إلى القرون الأولى. كما أنه شعر أن من واجبه الحفاظ على البقايا القليلة التى تخلفت من مدافن الفراعنة العظام ومن مدافن عشيرته.

وحينما حول سى آمون مقبرتين قديمتين من مقابر الملكات إلى مستودع لموميات الفراعنة العظام وكبار الكهنة وبعض كبار الموظفين جعل المكان لا يبدو مثيراً للشكوك حتى ظلت المقبرتان غير معروفتين طوال عهود اليونانيين والرومان والبيزنطيين والعرب والمماليك والأتراك، وبقيتا كذلك دون أن تكتشفا حتى أواخر القرن التاسع عشر. فلم يُظهر هذين المخبأين بإقامة أى علامة أو أثر يدل عليهما، بل إنه حينما كان ينقل التوابيت إليهما كان يفعل ذلك سراً فى الظلام.

لم تسلم مقبرة من مقابر الشخصيات العسكرية المرموقة أو كبار الكهنة أو النبلاء من يد نباشى القبور منذ القرن السادس قبل الميلاد فى مصر، وحتى فى عهد البطالمة الذى كان النظام مستتباً فيه أكثر من الأوقات السابقة، كان من الطبيعى بالنسبة للكاهن الأكبر سى آمون وريث الأمراء الكهنة العسكريين، حينما رغب فى أن يقيم لنفسه حجرة يدفن فيها جثمانه أن يختار موقعاً فى واحة سيوة فى ظل معبد هيكل وحى آمون، فحفر الأرض على عمق كبير كما سنرى بعد، وتمنى الاسكندر أن يدفن هناك.

فإلى جانب التل المسمى جبل المؤتة فى واحة سيوة يوجد عدد من حجرات الدفن مكشوفة للعيان الآن، كانت إحداها قد بنيت لشخص يدعى

نى بربا تحوت الذى يوصف فى النص المختصر المنقوش على الحائط بانه رسول أوزوريس، ومحرر الكتاب المقدس، والكاهن » ويوصف أيضاً بأنه « الشخص العظيم بذاته » و « المتبع لتعاليم إلهه » و « الرجل الفذ ». ولم يذكر الإله آمون، ويبدو أن نى-بر-باتحوت رسول أوزوريس كان رجلاً تقياً اختار الواحة كمكان للتطهر مفضلاً اياها على ابيدوس أو السرابيوم فى ممفيس، وكان على صلة قديمة بالمعتقدات التقليدية فى اوزوريس التى أصبحت آنذاك هى العبادة الأساسية للإله سيرابيس.

« وحينما قام دارسى بفحص النقوش للمرة الأولى أرجع مقبرة نى-بر-باتحوت إلى عهد الأسرة العشرين، ولكنه عاد ففضل إرجاعها إلى تاريخ أحدث فأرجعها إلى عصر الاسكندر الأكبر. »(٣) وفى هذا تخفيض للتاريخ مدة تقدر بثمانمائة عام فى عرف التاريخ المعمول به.

وإلى الشمال الغربى من ذلك التل توجد مقبرة سى آمون التى اكتشفت عام ١٩٤٠. « وتعتبر هذه المقبرة أحسن ما اكتشف حتى ذلك الوقت فى الصحراء الغربية، وتنافس أى عمل معمارى فى قبور وادى النيل. »(٤)

« حينما اكتشفت هذه المقبرة أثارت فضول أهالى سيوة، فاتجه الجميع إليها ليشاهدوها، وأعطيت تفسيرات كثيرة لما شوهد من مناظر على جدرانها. » « فزعم بعض أهالى واحة سيوة أن النصوص الهيروغليفية تظهر التحذير من الكارثة التى وقعت لهم (نتيجة للحرب العالمية الثانية). وزعم أحد السحرة أنه يستطيع من عدد النجوم المنقوشة على سقف المقبرة أن يحسب متى يأتى يوم القيامة. »

وبعد اكتشافها بقليل تحولت المقبرة إلى مكان لسكنى إحدى الأسر الكبيرة بما تملكه من دواجن وأغنام، أخذوا يطهون طعامهم ويسوون خبزهم بداخلها، وكانت النتيجة أن غطيت حوائطها بالهباب وفقدت الألوان لمعانها ووضوحها . . . » ولكن ما هو أسوأ من ذلك أن القوات التى احتلت سيوة أثناء الحرب العالمية الثانية، وغيرهم ممن أتوا لمشاهدة المقبرة أخذوا يقطعون أجزاء من مسطحات الجدران المنحوتة. هكذا تعرضت المقبرة التى كانت محفوظة من قبل بداية العصر المسيحى للدمار السريع، فقد كان الرجل الذى عاش فى المقبرة يسمح لأى شخص

بأن يدخل إلى المقبرة ويفعل فيها ما يشاء نظير قليل من الهبات المالية.»(٥)

يتكون الضريح من بهو طوله نحو ثلاثين قدما وعرضه نحو ثمانية أقدام وحجرة دفن غير كاملة طولها عشرة أقدام وعرضها خمسة أقدام. وطبقا لما هو وارد فى النقوش الهيروغليفية المجاورة للصورة المرسومة للمقبرة بنى هذا الضريح سى أمون لنفسه. وتزين جدران وسقف البهو رسوم ملونة بعضها على مستوى فنى عال، وتصور رسوم الجدران الإلهة توت بجوار شجرة ذابلة الأوراق تقدم الطعام والماء والبخور لصاحب المقبرة. وعلى جدار آخر صورة سى أمون يعبد ايزيس ومن ورائه طائر البنو. وفى شكل ثالث يوجد صقر بأجنحته الممتدة فوق سى أمون.

ولا نجد فى أى من هذه الصور علامة الملك وهى رأس الحية فوق جبهة سى أمون، ولكن يوجد النسر ناشرا جناحيه فوقه وهى من علامات الملك أيضا. أما إسمه فى النقوش التى لم تزل باقية فإنه مكتوب بدون طرة محيطة به، ولكن الإطار المحيط بالجدران مزين بطرر خالية من الاسم وهو تصميم غريب على المقابر الخاصة، فإن أى شخص مهما كانت ثروته أو مكانته الإجتماعية لا يزين مقبرته بمجموعات من الطرر التى تعتبر علامة من علامات الملك، وفى هذه المقبرة نجد أن هذه الطرر ملونة بترتيب خاص اثنان باللون الأزرق يتلوهما اثنان باللون الأصفر وهكذا.

والسقف كله مزين بزخارف من رموز ملكية: صقور ونسور بأجنحة منشورة وعلامات ملكية فى مخالب تلك الصقور والنسور. ولو أن سى أمون كان يحاول إدعاء المكانة الملكية لنفسه فلماذا لم يكتب اسمه فى داخل الطرر أو يضع أى علامة ملكية بين حاجبيه أو فوق جبهته؟

الإجابة على ذلك سهلة، ففى ظل حكم البطالمة وبالتحديد بطليموس الثانى ربما كان ادعاء الملك مخالفة كبيرة بالنسبة لأى شخص فيما عدا البطالمة أنفسهم. وقد وضع سى أمون لنفسه أقرب تعبير للانتساب للملكية بتزيين جدران وسقف المقبرة بالعلامات الملكية، ولكنه منع الفنانين الذين قاموا بتنفيذ تلك الزخارف من إعطائه ما يمكن أن يكون إدعاء للنسبة الملكية وبالتالى مطالبة بالعرش. ومن قبل لم يجرؤ بينوزيم ابن منخبار من أن يدعى لأبيه لقب «الملك»(٦)

ونظراً لأن سى آمون لم يجد الحرية ليكتب لقب الملك بجوار اسمه فقد فضل أن يترك اسمه بدون ألقاب، وبينما نجد فى المقبرة الأخرى، وهى مقبرة نى-بار-باتحوت سجل الوظائف التى شغلها صاحبها منقوشة على الجدران («رسول أوزوريس» و«مسجل الوثائق المقدسة» و«العظيم فى مدينته» والكاهن)، نجد أن اسم سى آمون وصورته خالية من أى وصف أو ألقاب تتعلق بالوظائف التى شغلها طوال حياته. لم يكن بناء المقبرة قد تم، وربما كانت الطرر البيضاوية الخالية سوف تحمل اسم الميت لو أن الأوضاع السياسية تغيرت، ولكن مع ذلك فإن المظهر العام للمقبرة يدل على أنها مقبرة ملكية تشبه المقابر الموجودة فى وادى الملوك بطيبة.

ومع مناقشتنا لكل هذه التفاصيل أغفلنا وصف الطريقتين اللتين أراد سى آمون أن يظهر بهما، ففى معظم المناظر نجده مصوراً بملابس مصرية حليق الوجه والرأس، ولكن فى قليل من تلك الصور الحائطية ظهر بشعر أسود ناعم وذقن سوداء مجعدة. ونجده بالإضافة إلى ذلك فى إحدى الصور يظهر ومعه ابنه الأصغر جالسا وابنه الصغير واقفا أمامه بشعره المجعد وعلى كتفيه عباءة من طراز يونانى (حسب وصف الدكتور أحمد فخرى للصورة).

وليس من شك فى أن تاريخ مقبرة سى آمون يرجع إلى العصر الهلينيسى فى التاريخ المصرى، ونظرا لأن سى آمون عاش فى ذلك العصر فإنه لم يعدم أن يتأثر بالروح السائدة فيه.

حينما مات سى آمون لم تكن غرفة الدفن فى مقبرته قد تمت، وسرعان ما حفر بعد وفاته عدد من الكوات فى جدران البهو حيث وضعت بعض معدات التحنيط، وحينما اكتشف الدكتور أحمد فخرى هذه المستلزمات نسبها للعصر البطلمى وهو العصر الذى استمر حتى وفاة الملكة كليوباترا عام ٣٠ ق.م.

ونظرا لأن الأسرة الحادية والعشرين قد وضعت خطأ فى القرن الحادى عشر أو القرن العاشر قبل الميلاد، وأن عصر حكم سى آمون قدر فيما بين ٩٦٩ و٩٥٠ ق.م (٧) فقد أصبح بذلك معاصرا للملك سليمان. ولقد اعترف عالم المصريات الذى كتب الفصل الخاص بالفترة من وفاة رمسيس الثالث إلى نهاية الأسرة الحادية والعشرين للطبعة المنقحة من التاريخ القديم

الذى أصدرته كمبريدج -اعترف بأنه لا يعرف بشئ من التحديد من هو الملك الذى كان على علاقة طيبة مع الملك سليمان لدرجة أنه أرسل له ابنته لتكون واحدة من زوجاته(٨). وتبع ذلك افتراض بأن سى آمون كان هو حمو سليمان نظرا لأن سليمان كان فى الحكم خلال الجزء الأول من القرن العاشر قبل الميلاد.

عاش سى آمون ومات فى العهد البطلمى، وكان ذلك بعد عهد الملك سليمان بنحو سبعمائة عام، وهو الذى دفن بينوزيم الثانى ابن منخبار، ودفن منخبار أيضا كما علمنا وهو الذى استقبل الاسكندر الأكبر فى معبد هيكل آمون فى الواحة، كان سى آمون هو الذى أغلق المخبأ الملكى فى الدير البحرى فى السنة العاشرة.

وحينما دخل بروجش إلى المخبأ لأول مرة رفع من بداية الممر الطويل لفافة جلد، لابد أن الكاهن المصرى كان قد تركها قبل أن يغلق المقبرة. وحينما فكت اللفافة تبين أنها على شكل غطاء كان قد استعمل لتغطية الرفات أثناء مراسم جنازة بينوزيم الثانى. وكان مليئا بالرسوم والزخارف وتصميمات الأزهار التى تضم ثمانى أوراق ملونة باللونين الأصفر والأحمر بالتبادل، وتحيط تلك الزخارف بمساحة مستطيلة مرسوم بها نسور ناشرة أجنحتها وتحمل فى مخالبها مراوح مستديرة من ريش النعام. وأما الجانبان فكانا مزخرفين بإطار يضم أشكال حيوانات (بط وغزلان معدة للقربان) وكل غزال مرسوم واقفا فوق لوحة من مربعات خضراء وحمراء على شكل سجادة أو أرضية من الموزايكو، وفيما بين تلك الحيوانات المرسومة طرر مكتوب فى داخلها اسم بينوزيم الثانى.

وهناك شبه كبير بين هذا التصميم والزخارف التى وجدت فى سقف مقبرة سى آمون فى الواحة، ففيها أيضا نجد المساحات المستطيلة التى يجللها التاج الملكى والنسور المرسومة بأجنحتها المنشورة (فى تبادل زخرفى مع الصقور) وتحمل فى مخالبها ، كما فى الرسم الموجود على الغطاء الجلدى، مراوح من ريش النعام، وهذا الريش كما فى الغطاء الجلدى مصمم بدرجات متبادلة من الألوان. وكل هذه الأشياء من غطاء رأس الملك إلى الريش إلى تداخل الأجنحة المنشورة (بجانبها العلوى بيضاوى الشكل وجانبها السفلى مستقيم الحد) كلها تشبه زخارف أخرى وجدت فى الغطاء

الجنائزى الذى استخدمه سى آمون فى جنازة بينوزيم الثانى. وكما هو الحال فى هذا الغطاء نجد أن الطيور الملكية مصممة بألوان متعددة الواحد منها تحت الآخرفى مساحات مستطيلة متتابعة تحيط بها زخارف من الزهور وإطار من رؤوس حراب مرتبة بشكل دائرى، وزخارف أخرى من مربعات تكمل ذلك التشابه غير العادى الموجود فى الزخارف الأخرى المستخدمة فى المخبأ حيث ترك سى آمون توقيعه أو بصمة اسمه على كثير من موميات الملوك، ومقبرة سى آمون التى بناها ليدفن فيها.

ولم يربط الدكتور أحمد فخرى الذى وصف مقبرة سى آمون فى واحة سيوة هذه المقبرة بالأمير سى آمون الذى يرجع إلى الأسرة الحادية والعشرين التى يحدد تاريخها بالنصف الأول من القرن العاشر قبل الميلاد. فلقد رأى عالم المصريات فى مقبرة الواحة هذه آثار طرز يونانية لا يمكن انكارها، بل وعناصر فنية يونانية خالصة. ونظرا لعدم العثور على أى وصف للوظائف التى شغلها صاحب المقبرة خلال حياته منقوشة بجوار اسم سى آمون فإن الدكتور أحمد فخرى قرر أنه ربما لم يكن قسيسا أو موظفا حكوميا، وبذلك قدم نظرية تقول بأن سى آمون لابد أنه كان من المهاجرين اليونانيين وأنه تزوج واندمج فى أسرة مصرية، واعتنق الديانة المصرية ولكنه لم يتخل عن طريقة حياته اليونانية. وأنه بعد أن أصبح تاجرا ثريا أو مالكا للأرض بنى لنفسه ضريحا فخما لايوجد مثيل له فى الصحراء الغربية.

فمن جهة بنى ضريح سى آمون وتمت زخرفته فى العصر الهلينيسى من التاريخ المصرى حيث إن العباءة اليونانية موضوعة فوق كتف ابن سى آمون الصغير، كما أن بعض صوره لا تسمح بأن ينسب إلى تاريخ آخر غير هذا العصر. ومن جهة أخرى فإن على الغطاء الجنائزى لرفات بنيوزيم الثانى الذى عثر عليه فى المخبأ الملكى فى الدير البحرى، قد وضع بمعرفة سى آمون الذى ينتمى إلى الأسرة التى يطلق عليها اسم الاسرة الحادية والعشرين، وقد ترك سى آمون ايضا توقيعه على مومياء بينوزيم الثانى وأغلق المخبأ.

وواضح أن الزخارف الموجودة على جدران مقبرة الواحة وتلك التى وجدت على الغطاء الذى عثر عليه فى المخبأ الملكى قد رسمت فى عصر

واحد وربما قام فنان واحد برسم الزخارف فى كلتا الحالتين بناء على تكليف سى آمون. وإن لم تكن لدينا أى أدلة أخرى تقرب عصر الأسرة الحادية والعشرين من التاريخ الميلادى فإن هذا الدليل وحده يعدل كل جدل يثار حول الموضوع، لو وجد مثل هذا بالنسبة للتواريخ المتعارف عليها بالنسبة لكل من سى آمون وبينوزيم ومنخبار وسائر أفراد أسرة الأمراء الكهنة، ولكن هذه هى آخر دليل لدينا فى سلسلة طويلة غير منقطعة من الشواهد التى أتت من كل جيل من أجيال الكهنة الذين توارثوا الوظيفة.

خلاصات

فى الفصل الافتتاحى لهذا الباب الثانى من هذا الجزء من الكتاب وضعنا أمام القارئ صيغتين للفترة الزمنية التى عرفت بالأسرة الحادية والعشرين كل منهما يقف موقف المنافسة ليكون هو التاريخ الحقيقى لتلك الفترة. يزعم أصحاب الصيغة الأولى أن هذه الأسرة تنتمى إلى القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد ولكنهم لم يستطيعوا أن يقدموا أى نقطة تزامن بين هذه الأسرة فى مصر وبين دول العالم الخارجى فى هذين القرنين. هذا بالرغم من أن فلسطين، حسب ما ينص عليه الكتاب المقدس كانت فى تلك الفترة تموج بالنشاط العسكرى فى عهد شاؤل وداود، وكانت تموج بالنشاط التجارى والثقافى فى عهد سليمان. وأصبحت مصر فى عهد سليمان مركز التآمر ضد اسرائيل. ولقد تبين أن هذا الزعم كله باطل حينما طلب إلى أصحابه تقديم الدليل على زعمهم.

أما الصيغة الثانية فقد قدمت عليها الأدلة، وكم هى أدلة مقنعة بتقدير من يتابع الصفحات ويقوّمها، إلى حد أن أصبحت الأسرة كلها تدخل فى نطاق العصر الفارسى وفى بداية العصر اليونانى فى مصر، وأمكن مناقشة الأدلة والشواهد العديدة وفحصها.

فمن رسالة أورماى علمنا أن مصر كانت محاطة من جميع الجهات بالقوات الأجنبية وأن جيش احتلال كان يمارس أعمال قمع السكان وكان الأطفال يباعون كرقيق، وانتهكت حرمة الأماكن المقدسة ونهبت المقابر وأخذ الراوى الذى كان من أبناء النبلاء يجوب البلاد مشيا على الأقدام

متسولاً الخبز من جنود الاحتلال. وكل ما فى هذه الرسالة يطابق تماماً ما ورد فى رواية هيرودوتس عن غزو الفرس لمصر بقيادة قمبيز. بيد أنه تبين من دراسة هذه الأحداث بعد نشر رسالة اورماى سنة ١٩٦٠ أنها لا تتفق مع النسق التاريخى المتعارف عليه، فالمفروض فى ذلك المخطط التاريخى أن الأسرة الحادية والعشرين قد حكمت دون أى تدخل أجنبى.

مع ذلك فهناك شك فى وقوع بعض الاضطرابات السياسية خلال عصر الأسرة الحادية والعشرين، وربما استنتج تورط بعض القوى الأجنبية فيها. فلقد شهد خادم المعبد أهو تينوفر أمام المحكمة فى تحقيقها عن سرقات حدثت فى المعبد بأن كبير الكهنة المسمى امنحوتب قد خلع من منصبه وأن المتهم نفسه قد قبض عليه أحد الأجانب وأبعده. من هذه الشهادة ومن السجلات التى تضمنت أحداثاً أخرى تكشفت لنا الحقيقة بأن البلاد قد خضعت لاحتلال قوات أجنبية يقودها ضباط. وظهر أشخاص لا يحملون أسماء مصرية بل إن أسماءهم كانت غالباً فارسية الأصل.

ولقد وجدنا أن الحساب الغامض على أساس سنوات التجديد أو النهضة الذى ورد فى وثائق الكاهن الأعظم حريحور يكاد يساير ما ثبت تاريخياً فى عهد ملوك الفرس من إقامة مراسم تجديد أو نهضة فى أيام السنة الجديدة لما زدا، حيث اعتاد السفراء الذين يمثلون الشعوب الخاضعة للفرس أن يصلوا إلى برسوبوليس لحضور احتفالات التجديد أو النهضة.

أما ويناموون الذى أبحر إلى بيبلوس لشراء أخشاب الأرز فإنه يشير إلى دار بيركاث-ايل للنقل البحرى الذى كان يتولى أمور التجارة بين تانيس والموانى السورية، وكانت نفس الشركة معروفة تحت اسم شركة أبناء براخيل عند كاتب شهادة نافتالى وهو عمل أدبى ألف خلال العصر الفارسى أو الهلينى. وقام ويناموون نفسه «حاكم أرض الأجانب» ببناء هيكل الإله فى واحة سيوة، وهو الهيكل الذى يرجع بناؤه إلى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد، وفى الواقع بنى هذا الهيكل حينما كان نخت حور-حب حاكما لمصر تحت إمرة دارا الثانى.

وكتب الملك الكاهن بسوسينس الذى خلف حريحور اسمه فى داخل طرة ملكية وكان اللقب الفارسى شاهيدات موجوداً بجوار الاسم الثانى. وفى بعض الكتابات المنقوشة فى مقبرة بسوسينس إشارة إلى ساحل

البحر المتوسط المصرى الممتد من دمياط إلى رشيد على أنه الساحل الهلينى رغم أن اليونانيين لم يستقروا فى مصر قبل عام ٦٦٣ ق.م. وقد كتب لقب الملك بالطريقة التى كانت متبعة فى العصر البطلمى.

وكان منخبار حفيد بسوسينس هو الذى استقبل الاسكندر الأكبر فى معبد هيكل آمون فى سيوة ، ولقد تابعنا تزامن وتقابل تفاصيل الزيارة بين النصوص التى وردت فى السير التى كتبت عن الاسكندر وفى لوحة المبعدين وتبين تطابقها جملة بجملة.

ولقد قام بينوزيم ابن منخبار بإعادة تكفين وتحنيط رفات الفراعنة الذين نبشت قبورهم، ودفن هو نفسه فى نفس المخبأ الملكى بالدير البحرى قبل أن يغلقه سى آمون، وقارنا بين الزخارف الموجودة على الغطاء الجنائزى لبينوزيم وبين الزخارف والنقوش الحائطية فى مقبرة سى آمون بواحة سيوة وتبين التشابه بينهما بما لا يدع مجالاً للشك فى أن سى آمون الذى أغلق المخبأ الملكى هو نفسه صاحب المقبرة التى بناها لنفسه فى سيوة، وفى أحد النقوش الحائطية فى تلك المقبرة رأينا ابن سى آمون يضع العباءة اليونانية وشعره مصفف بالطريقة اليونانية.

ولم يصبح أمامنا أى مجال للشك فى أن الأسرة الحادية والعشرين يمكن أن تنقل من العصر الفارسى وأوائل العصر البطلمى، وإذا ما تذكرنا النتائج التى سبق أن توصلنا إليها فى الباب الأول من هذا الكتاب فيما يتعلق بالأسرة العشرين فإننا نصل إلى نتيجة هامة هى أنه لا يمكن أن توضع الأسرتان العشرون والحادية والعشرون فى الفترة من القرن الثانى عشر قبل الميلاد إلى القرن العاشر قبل الميلاد.

هذه الخلاصة الواضحة توصلنا إليها بعيداً عن الحقيقة التى سبق أن أوضحناها فى الجزء الأول من عصور فى فوضى وهى أن الفترة من القرن الثانى عشر إلى القرن العاشر كانت فترة مليئة لا يمكن أن تضم اسراً مالكة إضافية، فقد استمر حكم الهكسوس حتى منتصف القرن الحادى عشر قبل الميلاد، ومنذ ذلك الوقت ولمدى قرنين من الزمان حكمت مصر الأسرة الثامنة عشرة فى فترة من أزهى فترات التاريخ المصرى ضمت أحمس وأمنحتب الأول وتحتمس الأول وحتشبسوت وتحتمس الثالث وامنحتب الثانى وتحتمس الرابع وأمنحتب الثالث واخناتون

وسمنخكارى وتوت عنخ آمون الذين جلسوا على عرش مصر على التوالى.

استقصاء الماضى ومنظور المستقبل

إن تناول العصر الفارسى فى هذا الجزء من كتاب عصور فى فوضى كان مقصوداً لذاته فبدراسة القرنين الأخيرين من التاريخ الذى نبنيه يأتى بعد الجزء الأول. فالسرد التاريخى فى الجزء الأول من هذه المحاولة لإعادة كتابة التاريخ يتضمن الفترة من سقوط الدولة الوسطى إلى عصر تل العمارنة قرب نهاية الأسرة الثامنة عشرة (وقد ورد توضيح السنوات النهائية للأسرة فى كتابى اوديبوس واخناتون). ولكن هذه الفترة تظهر فى التاريخ ممثلة الفترة التى تتضمن الفترة من الخروج من مصر إلى عصر الملك يهوذا شافاط فى أورشليم والملك اهاب فى السامرة وكان الفرعون الثائر اخناتون معاصراً لهما وتبادل معهما الرسائل التى مازالت موجودة.

هذا، وتأتى نهاية الأسرة الثامنة عشرة فى صيغة التاريخ المتعارف عليها فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر قبل الميلاد (حوالى ١٣٤٠ ق.م)، بيد أن صيغة التزامن فى حوالى ٨٣٠ ق.م، وبذلك يكون هناك فارق يبلغ خمسمائة عام.

وحدث الغزو الفارسى عام ٥٢٥ ق.م، وهناك فارق يبلغ ثمانمائة عام بين نهاية الأسرة الثامنة عشرة والغزو الفارسى، ولكن هناك فقط نحو ثلاثمائة عام فارق بين الحدثين فى النسق التاريخى المقابل.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو كيف يمكن لثمانمائة عام أن تضغط إلى فترة أقصر من ذلك بكثير؟ فلدينا فقط ثلاثمائة عام لتغطية تلك الفترة التاريخية، ومن الواضح أنها فترة غير مناسبة لتتضمن الأسرة التاسعة عشرة (وفيها سيتى ورمسيس الثانى ومرنبتاح) والأسرة العشرين (وفيها رمسيس الثالث والرعامسة الأواخر) والأسرة الحادية والعشرين (أسرة الملوك الكهنة) والأسرات من الثانية والعشرين إلى الخامسة والعشرين (وتضم حكم الأسر الليبية والاثيوبية) والأسرة السادسة والعشرين وهى عهد ملوك صاى التى تضم بسماتيك ونيخو

وأبرايس وأمازيس التى انتهت بالغزو الفارسى. وجميع هذه الأسرات تحتاج إلى مكان توضع فيه فى هذه الفترة التى تناسب وضعهم جميعاً خلالها. ولم يكن النقد الرئيسى الذى وجهه العاملون فى مجال التاريخ القديم عند نشر الجزء الأول من كتابى عصور فى فوضى ضد أى موضوع بعينه بل ضد ما بدا أمامهم من استحالة اتمام عملية إعادة بناء النسق التاريخى. والمثل يقال عن الذين قرأوا القسم الأول من هذا الجزء وشعروا بأنهم مضطرون إلى قبول صيغة التزامن الموثقة للتاريخ القديم من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع، فإنهم تساءلوا عن الكيفية التى يمكن بها استبعاد قرون كاملة من التاريخ وعن تلك السنوات الوهمية أو الأسر الحاكمة الزائفة.

ويظهر فى هذا الجزء من الكتاب الذى بين أيدينا أن أسرتين من الأسر التى يجب أن تضغط فى هذه الفترة التاريخية المحدودة لا تنتمى أصلا إلى هذه الفترة التى تسبق الغزو الفارسى، وهما الأسرتان العشرون والحادية والعشرون، فيبدو أن وضعهما فى هذه الفترة ضرب من الاحتيال فإن ملوك الأسرة العشرين لا يخرجون عن كونهم ذوات شخصيات مكررة أو بديلة من شخصيات الأسرة الثلاثين التى ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد. أما عن ملوك الأسرة التى تسمى الحادية والعشرون فلا يخرجون عن كونهم الأمراء الكهنة الذين عينهم دارا الثانى وخلفاؤه فى الواحات. ولا يقتصر الأمر فقط على أن الأسرة الحادية والعشرين لا تنتمى إلى القرن الحادى عشر والنصف الأول من القرن العاشر، بل إنها كانت أسبق من ذلك لأنها عاصرت الأسرة العشرين بل وسبقتها، بل إن واقع الأمر هو أن الملوك الأواخر فى الأسرة الحادية والعشرين قد واصلوا عملهم المزدوج كقادة للمواقع الحدودية وككهنة لهياكل أمون فى العصر البطلمى.

وباستبعاد الأسرتين العشرين والحادية والعشرين الوهميتين من قائمة الأسر التى تطالب بوضعها فى الفترة الزمنية السابقة للغزو الفارسى فسينتفى وجود المشكلة المتعلقة بالقرون الخمسة التى تمثل الفارق الزمنى بين صيغتى تاريخ الجدول الزمنى المتعارف عليه حيث إن هاتين الأسرتين تحتلان فى ذلك النسق التاريخى المتعارف عليه الفترة من ١٢٠٠ ق.م إلى ٩٤٥ ق.م تقريباً وهى أكثر من مائتين وخمسين عاماً،

وتكون نصف المشكلة بذلك قد وجدت حلها.

فهل يمكن أن تضغط الأسر التى تبدأ من الأسرة التاسعة عشرة إلى الأسرة السادسة والعشرين فى فترة طولها ثلاثة قرون فقط؟

سوف نتناول هذه المسألة فى أجزاء أخرى متعددة عن عصور الظلام فى التاريخ اليونانى والغزو الفارسى، ورمسيس وعصره.(١) ففى هذين الجزئين عمدت إلى الكشف عن أن عصور الظلام فى التاريخ اليونانى وفى آسيا الصغرى لا وجود لها فى الواقع، وأن إمبراطورية الحيثيين لم تكن سوى مملكة كلدانية، واستطعنا أن نبين أن هذه الفترة كلها قد امتدت من ٨٣٠ ق.م إلى ٥٢٥ ق.م.

أما من حيث إعادة البنيان الكامل لصيغة التاريخ يأتى الجزء الخاص بشعوب البحر هذا باعتباره الجزء الرابع من السلسلة لأنه يروى الأحداث التى بدأت بالغزو الفارسى وحتى العصر الهلينيسى أو العصر البطلمى.

وكما سبق أن ذكرنا فى المقدمة أننا حركنا ميزان التاريخ بدءاً من الأسرة الثامنة عشرة أكثر من خمسمائة عام (هى الجزء الأول من عصور غامضة: من الخروج إلى الملك اخناتون، واستبعدنا إحدى وحدات التاريخ المتعارف عليه وأقمنا مكانها وحدة من البناء المعدل. فبنقل الأسرتين العشرين والحادية والعشرين إلى عصر الحكم الفارسى فى مصر نكون قد نقلناهما عدة قرون من مكانهما التقليدى؛ وبذلك ينبنى تعديل الفترة الزمنية فى التاريخ القديم على أساس هاتين النقلتين.

فالتاريخ القديم الذى أصابه نوع من الزحزحة الزمنية والاختلال فى نهايتيه يتطلب اتخاذ ما يلزم لانقاذ الاختلال فى الفترة المتوسطة بين أوله وآخره.

ولسوف يصاب القارىء بالارتباك إذا لم يتابع بدقة وعناية عملية إعادة بناء التاريخ القديم هذه، فإن الأسرة الثامنة عشرة حسب قائمة مانيثون التاريخية (وهى التى حكمت من طيبة) فلم تأت بعدها الأسرة التاسعة عشرة (التى حكمت من العاصمة تانيس) بل أعقبتها الأسرة الثانية والعشرون (الليبية)، ثم تأتى الأسرة التاسعة عشرة بعد الأسرة الخامسة والعشرين الاثيوبية، وهى التى تمثل الأسرة السادسة والعشرين التى تتبعها الأسرة السابعة والعشرون (الفارسية) ثم الأسرة العشرون

التى تكونت من ملوك وطنيين كان لهم بعض الاستقلال الذاتى هى ذاتها الأسرتان التاسعة والعشرون والثلاثون. أما عن الأسرة الحادية والعشرين فإنها توازى زمنياً الأسرة العشرين ولكنها تبدأ قبلها (فى عهد دارا الثانى) وتستمر بعدها فى العصر البطلمى. ويندرج تحت اسم الأسرة الحادية والثلاثين الفترة التى استعاد فيها الفرس سيطرتهم على مصر حتى مجىء الاسكندر والبطالمة من بعده.

ولكى يتضح أمامنا التاريخ ونخلصه من تقسيم مانيثون للأسر، ذلك التقسيم الذى لم يأت إلا بالغموض، فإننى أقدم تقسيمات جديدة للأسر المالكة المصرية.

فقد انتهى عصر الدولة الوسطى (ولا يتطلب الأمر تقسيمه إلى الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة) بكارثة وقعت فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، إذ تعرضت البلاد لغزو العرب (الأمالكيت الذين يعرفون عند المصريين القدماء باسم أمو وعند الأغريق باسم الهكسوس). وحكمت الأسرة المالكة العربية هذه أكثر من أربعمائة عام حتى سنة ١١٠٠ ق.م تقريباً. وكانت طيبة قبل ذلك التاريخ قد أصبحت تحت حكم أمراء طيبة المحليين، وانتهى الحكم العربى فى مصر بفضل الجهد المشترك لشاؤل ملك إسرائيل وكاموس أو أحمس ملك طيبة. واستمرت البلاد لمدى قرنين تقريباً (من ١٠٢٠ ق.م إلى ٨٣٠ ق.م) تحت حكم أسرة ملوك طيبة. وانتقلت العاصمة إلى أخت أتون (اخيتاتون) عند موقع تل العمارنه ولكن أعيد مقر الحكم إلى طيبة فى عهد الملك سمنكارى وآى.

أعقب العصر الطيبى هذا عصر السيطرة الليبية على يد شيشنق وأوسوركون واستمرت لأكثر من مائة عام (من حوالى عام ٨٣٠ ق.م إلى ٧٢٠ ق.م). أتى بعدها الحكم الأثيوبى الذى استمر لمدة خمسين أو ستين عاما، وحدث فى نفس الوقت ضغط من جانب الأشوريين من جهة الشمال، وتعرضت البلاد لغزو متتال بقيادة سنحريب (الذى نصب حور محب) ثم ايسر هادون ثم اشوربانيبال (الذى نصب نيخو الأول - رمسيس الأول كملك محلى). وحينما قتل نيخو على يد الأثيوبيين المحتلين عاد اشوربانيبال لغزو البلاد واحتلال طيبة مرة أخرى سنة ٦٦٣ ق.م.

أعقب ذلك العصر عصر الحكم التانيسى الذى يضم سيتى (الذى سماه

الأغريق بسماتيك) ابن رمسيس الأول (نيخو الأول) وحصل على الاستقلال من أشوربانيبال وتحالف معه فى حربه ضد الكلدانيين والميديين. واتخذ سيتى عاصمته فى تانيس بالدلتا. واستمر العصر التانيسى من سنة ٦٦٣ ق.م إلى سنة ٥٢٥ ق.م. وتولى بعده الحكم ابنه رمسيس الثانى (نيخو الثانى) الذى ظل فترة طويلة يشارك والده سيتى فى الحكم. ودخل فى حرب طويلة مع نبوخذ نصر الكلدانى. أما مرنبتاح (واسمه هفرع فى سفر أرميا (اصحاح٤٤/٣٠) وأبرايس عند هيرودتس الذى ورث رمسيس فقد خلعه عن العرش الثائر أمازيس وحكم أمازيس البلاد فى أمن وسلام أكثر من أربعين عاما ومات حينما كان قمبيز متجها إلى مصر.

وخضعت مصر لمدة تقترب من قرنين (من ٥٢٥ ق.م إلى ٣٣٢ ق.م) لحكم الملوك الفرس (قمبيز - دارا - اكسركسيس - ارتاكسركسيس الأول - دارا الثانى - ارتاكسركسيس الثانى والثالث) وتوج بعضهم كفراعنة لمصر، ولكنهم استبقوا الحكام المحليين مثل بسماتيك أو نخت حور.

وفى خلال القرن الرابع، أثناء حكم ارتاكسركسيس الثانى والثالث نالت مصر قسطا من الاستقلال أكثر مما كانت تتمتع به الدويلات اليونانية أثناء حكم ملوك الفرس.

وتضمنت قائمة الملوك الوطنيين الذين حكموا فى هذه الفترة على: نفريتس وأموريس ونيكتانابو الأول (رمسيس الثالث) وتاشوس ونيكتانيبو الثانى، ويفضل أن نطلق عليهم اسم عصر ملوك صاى نسبة إلى المقر الرئيسى لأشهرهم، وفى نفس الوقت كان الملك دارا الثانى (نحو ٤٢٠ ق.م) أقام أسرة من الكهنة كحكام عسكريين للمواقع الحدودية فى واحة سيوة بالصحراء الليبية واستمروا يحكمون هناك حتى بعد سنة ٣٠٠ ق.م.

وكان الفرس قد نجحوا فى عام ٣٤٣ ق.م فى استعادة مصر، وفر نيكتانيبو الثانى إلى السودان، ولكن لم تمض عشر سنوات على هذا الغزو حتى استقبلت مصر الاسكندر الأكبر كمحرر لها فى عام ٣٣٢ ق.م. واستمرت الأسرة المقدونية فى الحكم مدى ثلاثمائة عام بملوك البطالمة على عرش مصر حتى انتحار كليوباترا عام ٣٠ ق.م وبعدها خضعت مصر لحكم القياصرة الروم.

هذا النسق لتتابع الحكم الملكى فى مصر قد تحرر من ترقيم الأسر المالكة ويمكن تفهمه بسهولة فى تتابع الحكم العربى والطيبى والليبى والأثيوبى (الذى تخلله غزو اشورى عدة مرات) والتانيسى ثم الفارسى (وجزء منه صاوى) وأخيرا المقدونى. وكما هو واضح بالنسبة لمعظم فترة الألف وأربعمائة عام (١٤٥٠ ق.م حتى ٣٠ ق.م) خضعت مصر للحكم الأجنبى، أما الثلاث فترات التى خضعت فيها لحكم ملوك محليين وهى عصر الحكم الطيبى (من ١٠٢٠ ق.م إلى ٨٣٠ ق.م) والحكم التانيسى (من ٦٦٣ ق.م إلى ٥٢٥ ق.م) والصاوى (من ٣٩١ إلى ٣٤١ ق.م) فإنها لاتزيد فى مجموعها عن ٣٨٠ عاما من بين الفترة التاريخية التى شغلت ١٤٢٠ عاما.

هوامش الفصل الرابع

بينوزيم الثانى

١- E. Naville, Inscription historique de Pinodjem III (Paris 1883) يذكر فى المراجع الأحدث على أنه بينوزيم الثانى

٢- H. Gauthier, Le Livre des rois d'Égypte, V (1917), 213 يعطينا تاريخ بطليموس الأول فرصة استخدام تاريخين مختلفين لبداية حكمه.

3- Breasted, Ancient Records, Vol. IV, Secs. 738-40.

سى آمون

1- J. ˇCern´y, Cambridge Ancient History, Vol. II. Chap. XXXV. E. F. Wente, Journal of Near Eastern Studies, XXVI, 3 (July 1967). Eric Young, Journal of the American Research Center in Egypt, II. (1963), 99 ff.

2- Maspero, Les Momies royales, p. 674, K. A. Wiedeman Aegyptische Geschichte (1884-88), p. 532.

٣- أحمد فخرى: واحة سيوة ص ١٢٧

٤- المرجع السابق ص ١٣٢

٥- المرجع السابق

6- Cf. ˇCern´y, Gardiner.

7- Young. Journal of the American Research Center in Egypt, II (1963), 109.

٨- J. ˇCern´y Cambridge Ancient History, Chap. XXXV, p. 656. ويـــرى ماسبيرو أن سى آمون ربما كان هو حمو الملك سليمان

استقصاء الماضى ومنظور المستقبل

١- قـد نخـصص كتـابا خـاصا عن العصـور المظلمـة فى اليـونان وعـصـر الغزوات الفارسيـة يحمل اسم عصر أشعيا وهوميـر.

ملحق فكري تاريخي

الفصل الأول

أسس التاريخ المصرى القديم

شجرة عريقة

اعتاد دارسو التاريخ القديم وبخاصة تاريخ الألفى عام الأخيرة قبل الميلاد أن يربطوا كل التقسيمات الزمنية فى الشرق القديم بحسابات التاريخ المصرى، «ويمكن أن يقام تقسيم زمنى مناسب من نتائج الحفائر التى تجرى فى أى قطر من الأقطار التى كانت معمورة منذ أزمنة طويلة، ولكن يبقى هذا التقسيم الزمنى معلقاً حتى يتم ربطه بمصر إما مباشرة أو عن طريق قطر ثالث وسيط»(١) وبهذا فإن الملوك والأسر، والتشريع والانشاءات والحروب ومعاهدات السلام بين الإمبراطوريات والممالك كلها تحدد فى موقعها الزمنى من القرون على أساس قاعدة التقسيم التاريخى المصرى. فحينما تكشف الآثار عن وثيقة تقرر وجود علاقة بين أحد الملوك وأحد فراعنة مصر فإن زمن هذا الملك يتحدد بناء على تأريخ ذلك الفرعون المصرى المعروف. ولقد تمت دراسة تتابع الملوك البابليين والأشوريين مع تواريخ حكمهم بمساعدة ما يسمى أشجار نسب الملوك، ولكنها كانت دائماً تعدل لتساير التقسيم التاريخى المصرى وتزامنه. وبناء على ذلك فإن حامورابى واضع مشروع القوانين فى الأسرة الحاكمة البابلية الأولى وضع فى مكانه الزمانى وهو ٢١٠٠ ق.م، ولكنه تغير فى العقود الأخيرة إلى حوالى عام ١٧٠٠ ق.م لكى تتزامن الدولة الوسطى فى مصر مع الأسرة البابلية الأولى على أساس أن المواد التى اكتشفت فى كلا المكانين عثر عليها فى طبقة واحدة فى كريت. وبالمثل قسم ماضى الثقافة المينوية والكريتية والتاريخ الماضى لمسينا الواقعة فى أراضى هيلاس الأصلية، ثم لعب التقسيم التاريخى المصرى الدور الرئيسى فى تحديد موقعها الزمنى بين القرون.

فلابد أن يكون التقسيم التاريخى المصرى جذعاً قوياً لدرجة تجعله يحتمل الكثير من تفرعات الممالك والثقافات الماضية. فهل للتاريخ المصرى حقاً جذور قوية مدعمة بالأدلة؟ قد يبدو هذا السؤال متأخراً عن موعده الآن، وذلك لأن معظم الكتابات العلمية فى علم المصريات وكذلك الكتابات الكاملة التى تتناول ماضى الجنس البشرى قد ألفت بناء على النسق الذى وضعه علماء المصريات لتسير عليه كل فروع التاريخ القديم.

حقاً من المتفق عليه أن التاريخ المصرى موضوع بصورة جيدة للغاية من قرن إلى قرن، ومن عقد إلى عقد، بل وأحياناً من سنة إلى سنة بحيث لا توجد أى أدلة جديدة تقطع هذا التسلسل العظيم. فما هو أساس هذا النسق الذى توصل إليه علماء المصريات بصورة حاسمة، والذى يثق فيه علماء التاريخ فى مناطق أخرى ويستعيرون بياناتهم منه؟

لم يشتهر المصريون بأن لديهم نسقاً لتعداد السنين بالفترات، فقد كانوا يؤرخون الأحداث طبقاً لسنواتها بالنسبة للملك الحاكم، مثال ذلك ما ذكر من أن الملكة حتشبسوت زارت الأراضى المقدسة فى السنة التاسعة من حكمها، ووقعت معركة قادش فى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثانى. غير أننا نجد الملك وابنه يشتركان فى الحكم، وفى هذه الحالة لا يمكن وضع التاريخ الزمنى للأسرة الحاكمة بمجرد جمع سنوات حكم كل ملك، نظراً لعدم معرفة عدد السنوات التى قضاها الحاكم الجالس على العرش. كما أن طول فترة الحكم لا يمكن تحديدها من الوثائق إلا بصورة تقريبية. وكأن أكبر عدد من السنوات عثر عليه فى آثار أى ملك من الملوك يعتبر هو نهاية مدة حكمه، وإن لم تكن فى الواقع نهاية حكمه. ويصعب فى كثير من الحالات استخدام المعلومات الموجودة فى الوثائق الأثرية لتحديد تتابع الملوك فى بعض الأسر الحاكمة. وأود أن استرعى النظر إلى ما هو أهم من ذلك وهو أن تتابع الأسر الحاكمة غير محدد بصورة نهائية. ولا نجد أدلة تاريخية تبين لنا تتابع أسرتين حاكمتين إلا فى حالات محدودة.

ومن المسلم به أن الأدلة الأثرية لا تقدم لنا مادة تكفى وحدها لبناء نسق تاريخى زمنى، فلابد لبناء مثل هذا النسق من استخدام وسائل أخرى، ولكن الأدلة الأثرية فى هذه الحالة تساعدنا من وقت لآخر فى تحديد بعض

التواريخ الخاصة بأحداث معينة فى سنوات حكم بعض الملوك.

وأن الوثائق القليلة التى عثر عليها مثل بردية تورينو التى وجدت ممزقة إلى عدد كبير من الأجزاء واحتاج تجميعها إلى جهد شاق ولكنه مفيد، وكذلك حجر بالرمو (حجر رشيد) فقد تضمن كلاهما سلسلة نسب الملوك منذ البداية، ولكنهما لم يصلا إلى عصر الدولة الحديثة، وهى الفترة التى تكوّن إعادة بناء النسق التاريخى الذى بين أيدينا مضافاً إليها الأسر الأخيرة. بيد أنه حتى الفترة التى تغطيها تلك الوثائق فهناك أسماء عجيبة فى أشجار النسب وتتابع الملوك مثل وجود أكثر من مائة ملك فى عصر الأسرة الثالثة عشرة وهى آخر أسرات الدولة الوسطى. ولعل الجهود التى بذلت فى كتابة هاتين الوثيقتين وغيرهما لإطالة تاريخ مصر وإرجاعه إلى أزمنة مغرقة فى القدم يقلل من أهمية وقيمة هذه الوثائق.

هيكل عظمى مكسو باللحم

يقول وايل «قد لا نكون مبالغين إذا قلنا إننا مازلنا نرتب تاريخ مصر وأننا نرتب ظواهر التاريخ على نفس طريقة جوليوس الافريقى الذى كتب فى القرن الثالث الميلادى»(١) وكان جوليوس الافريقى هذا أحد آباء الكنيسة المسيحية وحاول المحافظة على تراث مانيثو الذى سجله فى القرن الثالث قبل الميلاد. وكان مانيثو كاتباً مصرياً مؤرخاً فى العصر البطلمى، وكانت له إتجاهات معادية للسامية. وهو الذى ابتكر ربط موسى بشخصية تايفون وهو الروح الشريرة، وربط الإسرائيليين بالهكسوس، وناقض نفسه بأن ربط بين شخصية موسى وشخصية القديس الثائر أو سارسيف الذى ظهر فى وقت متأخر عن وقت موسى ودعا المجذومين الذين يعيشون فى أورشليم لمساعدته فى الحرب ضد بلاده.

ولقد كان مانيثو فى تأليفه لتاريخ مصر ووضع سجل لأسرها الحاكمة مدفوعا بالرغبة فى أن يثبت لليونانيين، الذين كانوا آنذاك سادة البلاد، أن المصريين أسبق بثقافتهم من البابليين وأصحاب الحضارات الأخرى. أما بيروسوس، الكاهن الكلدانى المعاصر لمانيثو فقد حاول أن يثبت

لليونانيين الذين كانوا خاضعين لحكم السيليوسيد قدم التاريخ البابلى الأشورى ولذا فقد مد هذا التاريخ عشرات الآلاف من السنين إلى الوراء. أما ايراتوستين الذى تلقى تعليمه فى قورنيه باليونان، وكان رئيساً لمكتبة الاسكندرية فى عصر بطليموس الثانى والثالث، وكان معاصراً لكل من مانيثو وبيروسوس ولكنه أصغر سناً؛ فقد حاول أن يثبت عظمة الأمة اليونانية بإرجاعها إلى عصور أسطورية ماضية. ونحن نعتمد على حسابات ايراتوستين فى التاريخ الذى يرجع إليه سقوط طروادة وهو ١١٨٣ ق.م (وهو قبل عصر حكم السيليوسيد ٣١٢ ق.م بنحو ٨٧١ عاماً).

هذا الاتجاه يجعلنا ملزمين بأن نضع هؤلاء المؤرخين الثلاثة فى اعتبارنا حينما نتناول تسلسل تاريخ العالم القديم.

ولقد حُفظت قائمة الأسر المالكة التى وضعها مانيثو فى نصين هامين، فنصا ايوسيبوس وجوليوس الأفريقى يختلفان فيما يتعلق بفترات حكم الأسر المالكة، وكلاهما يختلف عن تتابع الملوك المأخوذ عن جوزيفوس ومانيثو.(٢) وإلى جانب هذه التناقضات فإن الاختلاف الرئيسى يرجع إلى صعوبة تحديد الملك المذكور فى النصوص الأثرية والذى يقصده مانيثو بالتحديد. «ولقد أصيبت القائمة بكثير من الخلط والاضطراب نتيجة تعدد ناقلى النسخ حتى أنه يصبح من الصعب الوثوق فى المعلومات الواردة بتلك القوائم» إلا إذا تأكدت بأدلة أخرى.(٣)

ويمتلىء نص مانيثو بأسماء غريبة لملوك لم يعثر عليها فى الآثار، ولذا نعتقد أن نساخ القوائم قد أخلّوا بالقوائم الأصلية التى وضعها مؤلفها بطريقة غامضة تثير الشكوك فيها.

«إن قائمة مانيثو قائمة متأخرة وألفت بطريقة غير دقيقة دون تحقيق، ويسهل اثبات خطئها بمقارنتها بالآثار المعاصرة للأحداث فى معظم الحالات التى عثر فيها على النصوص الأصلية»(٤)

إن ما وصلنا من مانيثو «هو مختصر موجود فى مؤلفات المؤرخين المسيحيين [جوليوس الافريقى وايوسيبوس وسينسيلوس]... ورغم كل العيوب التى تشوب تقسيم الأسرات إلا أنها مبنية على أساس قوى... لدرجة أنه لا توجد فرصة متاحة لإلغاء هذا التقسيم. هذا، وتوجد من الناحية الشكلية فى الكتاب الذى وصل إلى أيدينا أشياء واضحة تدل على

عدم الدقة... فغالباً ما نجد عدم الاتفاق بين جوليوس الأفريقى وايوسيبوس... وغالباً ما نجد الأسماء الملكية محرفة، وتختلف اطوال فترات الحكم الواحد من نص لآخر، كما تظهر فوارق كبيرة فى التمييز بين الشخصيات. وحينما أجريت التعديلات والتدقيقات بأى صورة أو أخرى فإن نسق البناء التاريخى الذى وضعه مانيثو ظل مليئاً بالعناصر غير الدقيقة... ومع كل ذلك فإن كتابه مازال هو الكتاب السائد فى كل دراساتنا عن تاريخ مصر القديمة...»(٥)

وعلى الرغم من أن قوائم مانيثو بالنسبة للأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة غير متفقة مع الدلائل الوثائقية المعروفة، فإن الأسر التى لا توجد لها وثائق أو أدلة وثائقية احتفظت بشكلها كما جاءت فى نظام مانيثو نظراً لعدم وجود ما يؤدى إلى رفضها. ولم يعتبر وجود وثائق تغير من تواجد مثل تلك الأسر عقبة فى حد ذاتها. وغالباً ما لا نجد مفاتيح مؤكدة لوجود الأسر من السابعة إلى العاشرة وبعض الأسر التالية مما ذكره مانيثو.

ولقد نوقشت أعداد السنوات التى حددها مانيثو للأسر الحاكمة، ومد بعضها وأنقص البعض الآخر طبقاً لما يناسب عمليات التأريخ. وتم ذلك دون ما خشية من أن تتعارض التقديرات الحديثة للأزمنة رقمياً مع تقديرات مانيثو.

وبذلت جهود كثيرة لمطابقة هويات الملوك المعروفين من خلال النقوش المعاصرة لهم مع هويات الملوك الواردة فى قوائم مانيثو، وانتهت تلك الجهود إلى مجرد الاختيار لا المطابقة. ولتوضيح هذه النقطة نقدم المثال التالى: حينما عثر على مادة أثرية وفيرة تتعلق بفرعون سمى فى سلسلة التاريخ رمسيس الثالث لم يمكن مطابقة هويته مع أى ملك من الملوك الواردة أسماؤهم فى قوائم مانيثو. ونظراً لعدم العثور عليه فى تلك القوائم فقد نسب إلى الأسرة العشرين، ربما لعدم تحديد أسماء ملوك هذه الأسرة فى قوائم الأسر عند كل من جوليوس الافريقى وايوسبيوس، رغم أن هناك قائمة احتفظ بها أحد الرهبان البيزنطيين الذين كانوا ينسخون قوائم الأسر المالكة هو جورجيوس سينكليولوس، ولكن لم يوجد فى تلك القوائم حاكم ملكى تحت اسم رمسيس الثالث. وكان الملوك الاثنا عشر

الذين لم تذكر أسماؤهم الذين يكونون الأسرة العشرين والذين استغرق حكمهم ١٣٥عاماً (طبقاً لجوليوس الافريقى) أو ١٧٨ عاماً (طبقاً لما ذكره ايوسيبيوس) فكان وضع رمسيس الثالث بعد الرعامسة مباشرة أمراً يبدو آمناً فى هذه القوائم. والواقع أن رمسيس الثالث- كما حاولت أن أوضح فى هذا الكتاب هو الملك نيكتانيبو الوارد فى قوائم مانيثو، وهو ينتمى إلى واحدة من الأسر المالكة الأخيرة فى التاريخ المصرى هى الأسرة الثلاثين. ولكن لكى توضع عشر أسر حاكمة بعده -من العشرين إلى الثلاثين- كان لابد من حدوث اضطراب قد لا يكون مانيثو مسئولاً عنه مسئولية كاملة، بوضعه رمسيس الثالث فى الأسرة العشرين. وبالتالى فإن هذا الملك يمثل بصورة غير حقيقية رمسيس الثالث الذى يرجع إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد بينما هو نيكتانيبو الأول الذى ينتمى إلى القرن الرابع قبل الميلاد.

ومن المسلم به أن الانتقال من الأسرة الحادية والعشرين إلى الأسرة الثانية والعشرين كان حدثاً غامضاً فى معرض التأريخ، فطبقاً لما توصلنا إليه فى إعادة بناء التاريخ هذه، فإن الأسرة الحادية والعشرين حكمت فى الواحات قبل الأسرة الثانية والعشرين وفى أثناء فترة حكمها فى وادى النيل (والمثل يقال عن الأسرة التاسعة والعشرين والثلاثين) بيد أن الأسرة الثانية والعشرين أو الأسرة الليبية حكمت بعد الأسرة الثامنة عشرة كما سبق أن أوضحنا فى أحد الأجزاء السابقة من هذه السلسلة.

ولقد كتب سينسيلوس نقلاً عن قائمة جوليوس الافريقى يقول عن الأسرة الرابعة والعشرين: «فى الأسرة الرابعة والعشرين، فى عهد ملك صاى فى السنة السادسة تحدث حَمل وديع فى عهده [هناك اختصار واضح فى النص هنا] عام ٩٩٠» وكتب ايوسيبيوس مثل ذلك، ولكنه اختلف كثيراً فيما يتعلق بفترة حكم هذه الأسرة فقال «بوكورس ملك ساى، فى السنة الرابعة والأربعين من حكمه تحدث حمل وديع، وجملة الفترة أربع وأربعون عاماً. تلاحظ أن مثل هذه المعلومات بالنسبة للأسرة الرابعة والعشرين غير ذات قيمة، وأصبح علينا أن نخمن أى الأرقام هو الصحيح ست سنوات أم أربع واربعون سنة أو تسعمائة وتسعون سنة.

وعلى الرغم من أن السجل الزمنى الذى وضعه مانيثو يعتبر غير

دقيق وغير محقق، حتى أن الأدلة الأثرية كشفت عن أنه خاطىء فى معظم الحالات إلا أنه له قيمته كإطار عام لتاريخ مصر. إذ إن التقسيم الذى وضعه مانيثو للعصور والأسر مازال مستخدماً حتى يومنا هذا، ويعتبر مؤلفه بمثابة استمرار التقاليد التاريخية لمصر، وفى حين يفتقر تتابع الأحداث التى مرت بالشعب فى الماضى إلى مثل ذلك الاستمرار التقليدى وتظل موضع تخمين نظراً لعدم وجود نسق أثرى من المعلومات يثبت تتابع تلك الأحداث.

«فالثقة المطلقة فى مثل هذه الأمور تكون ممكنة فقط فى حالة وجود آثار أدبية متصلة. ومازالت الدراسات الأوربية والأمريكية الحديثة لآثار عصور ما قبل التاريخ مسألة تعتمد على التخمين والافتراض نظراً لعدم وجود سجلات أو آثار مروية تسايرها. أما النسق الأصلى لتاريخ مصر القديمة فهو الآن أمر واقع، ولم يعد مجرد فرضيات، ولكن من المشكوك فيه أن بناءه أصبح أمراً ثابتاً مع اعتماده على رجال الآثار وحدهم. إن الصورة الكاملة لهيكل نسق التاريخ المصرى كله قد اكتملت بالأثر المسجل الذى حفظه لنا الكاهن المصرى مانيثو، والذى قام علماء الآثار بكسوة هيكله ليكتمل شكله.»(٦)

هذه العبارات بقلم هال الذى نقلنا عنه فى صفحات سابقة عن وصفه لحالة الاضطراب والتفاهة التى تميزت بها نصوص مانيثو الكاهن.

ولم يكن علماء الآثار فى الواقع هم الذين قاموا بكسوة النسق التاريخى لمانيثو بالمعلومات المأخوذه عن النصوص الهيروغليفية المحفورة فى الآثار أو المكتوبة فى البرديات. والأمر الغريب هو أن ملوك مصر قد وضعوا فى قرون محددة مازالت السلسلة الزمنية تحتفظ لهم بأماكنهم فيها قبل أن تقرأ اللغة الهيروغليفية لأول مرة بزمن طويل.

أول من وضع رمسيس الثالث فى القرن الثانى عشر

فى عام ١٧٩٩ عثر المسيو بوسارت أحد ضباط حملة بونابرت على مصر على بعد نحو أربعة أميال من رشيد على حجر منقوش عليه نص

بثلاثة أنواع من الكتابات هى اليونانية والهيروغليفية وطريقة ثالثة غير معروفة كثيراً ما وجدت فى البرديات وسميت فيما بعد الكتابة الديموطيقية. وكان هناك طبيب وعالم طبيعيات بريطانى يسمى توماس يونج اشتهر بأنه أول من شرح تمييز العين للألوان نتيجة لوجود أطراف عصبية معينة للأحمر والأخضر والبنفسجى فى حدقة العين، وهو أيضاً أول من استطاع فهم طريقة قياس الاستجماتيزم (عدم التركيز النقطى فى العين)، واكتشف ظاهرة التدخل الضوئى التى ناقش طويلاً حولها فى موضوع نظرية الموجات الضوئية التى سخر منها الكثيرون. كان هذا الطبيب وعالم الطبيعيات توماس يونج هو أيضاً أول من قرأ بعض الكلمات الهيروغليفية على الحجر ومنها اسم بطليموس موضوعاً فى دائرة أو طرة بيضاوية. فكانت هى المفتاح الأول. وتعتبر مجهوداته ونجاحه وعلاقاته المحزنة مع شمبليون حكاية تروى، فيبدو أن يونج قد حقق أكثر بكثير مما نسب إليه وهو مجرد قراءة النص باللغة الهيروغليفية.

أما عن جيان فرانسوا شمبليون (١٧٩٠-١٨٣٢) فقد سمع عن حجر رشيد وهو فى الحادية عشرة من عمره، وقرر أن يكرس حياته لكشف سر اللغة الهيروغليفية، وأخذ هذا الطفل المتطلع يدرس اللغة القبطية، ونمت معارفه عن فلسفة اللغات الشرقية، وبعد ذلك بعشرين عاماً فقط وبالتحديد فى ٢١ ديسمبر ١٨٢١ طرأت على ذهنه الفكرة البسيطة وهى أن هناك عدد علامات الهيروغليفية فى الحجر تبلغ ثلاثة أمثال الكلمات اليونانية فى النص المقابل، وأن أشكال الإنسان فى أوضاعه المختلفة وأعضائه وصور الطيور والزهور لا تمثل أفكاراً فى حد ذاتها وهى فكرة طرأت على الأذهان قبل ذلك بعدة قرون، كذلك لا تمثل علامات أو رموز بمعنى الكلمة بل هى رموز صوتية أو حروف (معظمها مجرد حروف متحركة تشبه من هذه الناحية الكتابة العبرانية). وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٢٢ أعلن نجاحه فى اكتشاف الحروف الهيروغليفية أمام اكاديمية باريس، وفى عام ١٨٢٥ استطاع أن يترجم اسم امنحوتب الثالث. ومع ذلك «ظل العلماء على مدى أكثر من عقود ثلاثة غير مستعدين للاعتراف بأى شىء أكثر من إمكان قراءة أسماء بعض الملوك، وأن كل ما عدا ذلك لا يخرج عن كونه خيال»(١) وظل الموقف كذلك حتى سنة ١٨٦٦ حينما أمكن اكتشاف

ثلاثة نصوص أخرى فى الرسوم الكانوبى أمكن لقرائها أن يقرأوا فى صفحات أكبر فكان ذلك مؤكداً لقراءة شمبليون. كان شمبليون آنذاك قد رحل عن الدنيا وعمره لم يتجاوز الرابعة والثلاثين.

كم مضى من الزمن بعد أن قرأ شمبليون الهيروغليفية لأول مرة أمكن فك رموز الكتابات الأثرية أو النصوص البردية وأمكن أن يقدم ذلك حلاً للمشكلة التى نحن بصددها هنا وبخاصة تحديد تاريخ حكم رمسيس الثالث؟ قد يظن البعض أن ذلك حدث فى عهد لبسيوس (١٨١٠-١٨٨٤) أوشاباس (١٨١٧-١٨٨٢) أو بروجش (١٨٢٧-١٨٩٤)، وهم الذين وصلوا بدراسة المصريات إلى مستوى العلم الحقيقى، ولكن هذا الظن لا يمثل الحقيقة. فالحقيقة أن رمسيس الثالث كان قد وضع فى القرن الثانى عشر قبل أن يقرأ شمبليون الهيروغليفية، وبالتالى كان ذلك قبل أن تبرر أى من النصوص أو النقوش الأثرية ذلك الوضع الزمنى لرمسيس الثالث.

وفى كتاب نشره عالم النفس الاسكتلندى بريتشارد J.C. Pritchard عام ١٨١٩، أى قبل ذلك اليوم التاريخى فى حياة شمبليون بسنتين ورد فى صفحة ٦١ أنه ذكر أن حكم رمسيس الثالث بدأ عام ١١٤٧ ق.م. ومن الواضح أن هذا التقديرلم يكن مبنياً على أى نص هيروغليفى. ويبدو أن بريتشارد أخذ تواريخه عن كتابات تاريخية سابقة. فهل هناك أى اشارة إلى رمسيس الثالث لدى الكتاب القدامى تسمح بالوصول إلى هذه النتيجة؟ لم يشر أى من الكتاب الكلاسيكيين سواء هيرودوتس أو ثيوكيريدس أو أى مؤرخ آخر إلى رمسيس الثالث، أو على الأقل لا نعرف شيئاً عن وجود مثل هذه الإشارة.

وبالطبع لم تكن النقوش الغائرة فى معبد هابو غير ملفتة للنظر، حيث إنه من الآثار التى استلفتت أنظار كل من سافر إلى طيبة وعبر النيل ليشاهد تمثال ممنون (تماثيل امنحوتب الثالث) أو المعبد الجنائزى للملكة حتشبسوت فى الدير البحرى، أو الرامسيوم، أو المعبد الجنائزى لرمسيس الثانى وتمثاله الضخم المحطم الملقى على التراب، فلابد أن من زار كل تلك الآثار لابد أن يزور أيضاً معبد مدينة هابو. فالملك الذى بنى هذا المعبد الجنائزى هو الذى سماه العلماء المحدثون باسم رمسيس الثالث.

ويبدو أن المؤرخ الفرنسى جوزيف جوستوس سكاليجار (١٥٤٠-١٦٠٩)

هو الذى قام بالمحاولات الأولى لوضع تواريخ محددة للأسرة المالكة التى رتبها مانيثو وذلك فى كتابه Thesaurus Temporum الذى نشر عام ١٦٠٦ م. ويبدو أن الحساب بدورات الشعرى اليمانية وهو المفتاح الفلكى للتاريخ الزمنى المصرى أعطى الأمل آنذاك فى التوصل إلى نتيجة. هذا ولم تبذل أى محاولات فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لتحديد تواريخ حكم ملوك مصر القدامى. أما عن تحديد بريتشارد لتاريخ جلوس الملك رمسيس الثالث على العرش فقد غيره روسيلينى عام (١٨٤١) إلى عام ١٤٧٧ ق.م دون أن يعطى أى تفسير لذلك، أما شمبليون نيجياك (١٧٧٨-١٨٦٧) شقيق شمبليون الذى كشف رموز الهيروغليفية (فقد حدد عام ١٢٧٩ ق.م تاريخاً لجلوس رمسيس الثالث على العرش، ولم يقدم أيضاً أى أساس لهذا التحديد.

وحينما قرئت النصوص المصاحبة للنقوش الغائرة على جدران وأعمدة معبد هابو تبين أن الملك حارب الفلسطينيين، وهو ما يتفق تماماً مع وضعه فى القرن الثانى عشر وهو عصر القضاة فى الكتاب المقدس، فللفلسطينيين فى سفر القضاة ذكر كثير للدور الذى كانوا يلعبونه. إذاً فهل هناك أى أساس آخر لمراجعة التقديرات التى تمت قبل أيام شمبليون؟

ولكن مازال السؤال المطروح: هل حارب رمسيس الثالث الفلسطينيين.

هوامش الفصل الأول

شجرة عريقة

1- O. G. S. Crawford, Man and His past (London 1921) P. 72.

هيكل عظمى مكسو باللحم.

1- R. Weill, Bases méthodes et résultats de la chronologie égyptienne (Paris, 1926), P.1

٢- مجموعة فى قائمة مانيثو، ترجمة واديل (Loeb Classical Library)

3- H. R. Hall, "Egyptian Chronology," Cambridge Ancient History, 1. 167.

4- Breasted, A History of Egypt (2nd ed). p. 23

5- Gardiner, Egypt of the Pharaohs, pp. 46. 47.

7- H. R. Hall, The Oldest Civilizatión of Greece (1901) pp. 18-19.

أول من وضع رمسيس الثالث فى القرن الثانى عشر

1- Johannes Friedrich, Extinct Languages (1957) p. 25.

الفصل الثانى

الشعــرى اليـمـانيــة

الشعرى اليمانية

أصبحت الأسر المالكة التى رتبها مانيثو هى الإطار العام للتاريخ المصرى، والشئ الوحيد الذى لم يؤخذ به كان التقسيمات الرقمية التى اعتبرت "عالية للغاية"(١) ومع ذلك يعتقد المؤرخون أن لتلك التقسيمات أدلة فلكية تحدد قيمة التقسيمات الرقمية للمخطط التاريخى الأساسى.

ولم يعثر على أى سجلات فى مصر عن الخسوف والكسوف كتلك التى وجدت عند البابليين(٢)، ولقد أصبحت الأزمنة المحددة بدورة ظهور نجم الشعرى اليمانية (الذى يسمى سبيدت عند قدماء المصريين) قد أصبحت هى ألفا وأوميجا للبنيان الرقمى للتاريخ المصرى (أى حساب البدايات والنهايات فيه).

ظلت السنة المصرية لمدى طويل من التاريخ تتكون من ٣٦٠ يوما، ثم أضيفت إليها خمسة أيام فى بعض مراحل التاريخ. وأدخل تعديل جديد فى العصر البطلمى بإدخال السنة الكبيسة كل أربع سنوات، ففى عام ٢٣٨ ق.م وهى السنة التاسعة من حكم بطليموس الثالث ايويرجيتس ونشر مرسوم كهنوتى فى الدلتا، عثر عليه خلال القرن الماضى فى تانيس وعرف باسم المرسوم الكانوبى نسبة إلى المكان الذى عقد فيه الاجتماع الذى تقررت فيه التعديلات، وهو كانوبوس. وكان هذا النص - مثله مثل حجر رشيد يضم اللغات الثلاث الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية.

ولكى يثبت عيد النجم ايزيس وغيره من الأعياد دون أن يتجول بين فصول السنة فقد نص فى المرسوم الكانوبى على أن يضاف يوم واحد كل

أربع سنوات إلى التقويم لكى يتحرر التقويم من الاعتماد على رصد النجم ايزيس.

ولم يثبت هذا التعديل بسبب المعارضة التى لقيها من جانب جماعة الكهنة أصحاب الهيمنة الذين لم يوافقوا على تثبيت موعد عيد ايزيس بالنسبة لفصول السنة، ويرتبط إدخال نظام السنة الكبيسة باسم يوليوس قيصر. إذ إن الأباطرة الأوكتافيين هم الذين أعطوا التقويم المشتمل على السنة الكبيسة الوضع القانونى فى روما، وبعد ذلك ببضع سنوات فى عام ٢٦ ق.م أو ٢٩ ق.م (وفقا لحساب آخر) أدخل هذا التقويم إلى الاسكندرية فى مصر.

كان المصريون فى العهد الهلينيسى والرومانى يعرفون أن طول السنة ١/٤ ٣٦٥ يوم طبقا للمرسوم الكانوبى ووفقا لما أثبتته كتابات ديودور الصقلى(٣). ومن الممكن أن يكون قيصر قد أخذ المعلومة من المصريين، ولكنهم كانوا أنفسهم مترددين فى جعل تقويم السنة الدينية مطابقا للتقويم الفلكى.

أما الكتاب الرومان الذين عاشوا فى القرن الأول قبل الميلاد والقرون الميلادية الأولى التى تبعته فقد شعروا بضرورة إيجاد تقويم أفضل، وكانوا يعلمون أنه بالحسابات المبسطة بإضافة يوم كل أربع سنوات يتكون عام كامل كل ما مضى ١٤٦١ عاما مكونة من ٣٦٥ يوما.

وفى عام ٢٣٨ أى بعد أربعمائة خمسة وسبعين عاما من صدور المرسوم الكانوبى (٢٣٨ ق.م) كتب الكاتب الرومانى سنسورينوس يقول: "لم يعمل المصريون اعتباراً للقمر فى حساب سنتهم العظيمة التى يسميها اليونانيون الكلبية(Cynic) ويسميها اللاتينيون المتعلقة بالشعرى اليمانية (Canicularis) لأنها كانت تبدأ بظهور الشعرى اليمانية أو النجم الكلبى فى أول يوم من الشهر الذى يسميه المصريون تحوت.. كما أن السنوات الأربع عندهم أقصر من السنوات الأربع الطبيعية بيوم تقريبا، ويعيد هذه العلاقة على أساس السنوات الألف وأربعمائة وواحد وستين... ويسمى البعض هذه السنة العظمى باسم السنة الشمسية ويسميها البعض الآخر باسم «سنة الإله»(٤).

أخذ سنسورينوس بعد ذلك يصف «السنة الأعظم» وهى سنة أرسطو

التى تستمر حتى تعود كل من الشمس والقمر والكواكب إلى وضعها الذى بدأت منه، وتتكون سنة الأحداث من الفترة بين حدوث كارثتين عالميتين متتاليتين سواء كانت طوفانا أو حريقا، وهى طبقا لحسابات اريستاركوس الساماوى هى السنة الشمسية ٢٤٨٤.

وفسر سينسورينوس النجم سوتيس على أنه هو الشعرى اليمانية عند المصريين، أما النجم الكلبى الذى يوجد فى المجموعة الجنوبية من نجوم الكلب الأكبر وهى لاتظهر فى فترة من فترات السنة فى نصف الكرة الشمالى التى تقع فيها مصر، وتعود إلى الظهور فى نفس الوقت من صيف السنة التالية فى موضعها المحدد من سماء مصر.

وإلى جانب مدار الأرض الذى يستغرق ٣٦٥ ١/٤ يوم فإن دوران الأرض حول الشمس يحدث مدارا آخر بالنسبة للنجوم، ولهذا فإن النجوم تبكر فى كل ليلة فى مرورها من خط الأفق أربع دقائق عن الليلة السابقة.

تميل الأرض بالجزء المضئ من نصفها الشمالى نحو الجنوب ابتداء من الاعتدال الربيعى (ولذلك تكون المنطقة القطبية مضيئة)، أما الجزء الليلى من الأرض فإنه يتجه نحو الشمال. وبعد الانقلاب الصيفى يبدأ الجزء الليلى من نصف الكرة الشمالى يتحول تدريجيا نحو الاتجاه الجنوبى وتبدأ نجوم نصف الكرة الجنوبى تظهر مرة أخرى. ويظهر الشعرى اليمانية فى سماء مصر فى النصف الثانى من الصيف لامعا فى الغبش قبيل شروق الشمس بوقت قصير.

يظهر النجم أول الأمر فوق الأفق قبل أن تلقى الشمس بضيائها فتخفيه هو والنجوم الأخرى. ويبدأ بزوغه كل ليلة مبكرا بضع دقائق عن الليلة السابقة ويعلو موقعه فى السماء يوما بعد يوم قبيل انبثاق الضياء. ويكون الظهور السنوى للنجم (وبدء السنة النجمية) منذ اليوم الذى يظهر فيه لأول مرة قبيل شروق الشمس.

ويكون هذا الظهور السنوى لنجم الشعرى اليمانية إعلانا عن فيضان النيل الذى يمتلئ بالماء نتيجة لسقوط الأمطار المدارية الغزيرة فى اثيوبيا، وتبدأ الثلوج على أعالى الجبال فى الذوبان. أما الأيام الكلبية (نسبة إلى النجم الكلبى) فتتكون فى مصر القديمة فى أواخر يولية والجزء الأكبر من أغسطس، وهى أشد فصول السنة حرارة.

وبالنسبة للتقويم الذى تكون السنة فيه ٣٦٥ يوما فقط ويكون هناك نقص يوم كامل كل أربع سنوات يتأخر الظهور السنوى للشعرى اليمانية يوما كاملا كل أربع سنوات(٥).

وطبقا لشرح وتفسير سنسورينوس تبدأ السنة العظمى بالسنة التى يظهر فيها الشعرى اليمانية لأول مرة فى أول أيام شهر تحوت. وقد يظهر بعد أربع سنوات فى اليوم الثانى من شهر تحوت وهكذا، فبعد ١٤٦١ سنة من السنوات التى طولها ٣٦٥ يوما، أو بعد ١٤٦٠ سنة من السنوات التى طولها ٣٦٥ ١/٤ يوما يعود الشعرى اليمانية إلى البزوغ لأول مرة فى السنة فى أول أيام شهر تحوت. وتكون هذه الفترة ما يسمى بدورة الشعرى اليمانية. إذ إن الشعرى اليمانية يظهر سنويا لأول مرة فى كل صيف ولكن لا يظهر فى أول شهر تحوت (لمدة أربع سنوات متتالية) إلا بعد ١٤٦٠ سنة. ويزعم بعض العلماء المحدثين بأن هذا اليوم كان يوم احتفال سنوى باعتباره الظهور الرمزى للشعرى اليمانية أو يوم بداية السنة.

وأضاف سنسورينوس أنه فى خلال المائة سنة التى سبقت كتابة كتابه (liber de Die Natali) بدأت دورة شعرى يمانية جديدة، فقد كتب كتابه هذا فى عام ٢٣٨ ميلادية، وأشار إلى أن دورة شعرى يمانية أخرى قد بدأت فى عام ١٣٩ ميلادية، وبذلك يسهل حساب تاريخ بدء الدورة السابقة وهو ١٣٢٢ قبل الميلاد(٦). وتمثل سنة ١٣٢٢ ق.م (أو ١٣٢١ ق.م) الأساس لحساب التاريخ المصرى.

كتب ثيون الاسكندرى مؤرخ القرن الرابع الميلادى يقول إن أزمة السنة المصرية، وهى الفترة التى أدخل فيها اصلاح فى الاسكندرية على يد أغسطس ومؤداه عدم الأخذ بالسنة الشمسية التى تبدأ فى يولية، والتى أدى فيها الاصلاح إلى تجمع خطأ فى الحساب مقداره سنة كاملة، هذه الأزمة وصلت إلى نهايتها فى السنة الخامسة من حكم أغسطس أى سنة ٢٦ ق.م، وطبقا لما ذكره بعض الثقاة هى السنة التى فرض فيها التقويم المعدل فى الاسكندرية. وكما سبق أن ذكرنا وضع سنسورينوس بداية دورة الشعرى اليمانية (أى الدورة النجمية) فى سنة ١٣٩م.

ولقد اكتشف فى أحد مخطوطات ثيون ملاحظة مكتوبة باللغة

اليونانية البربرية(٧) يقول فيها: «منذ عهد مينوفريس وحتى نهاية عهد أغسطس أو بداية عهد ديوقلتيان انقضت ١٦٠٥ سنة». وكانت آخر سنة فى حكم أغسطس ما بين سنة ٣٨٢م و ٢٨٤م. وبخصم هذه السنين من ١٦٠٥ سنة نصل إلى سنة ١٣٢١ ق.م، وهى نفس السنة التى بدأت فيها دورة الشعرى اليمانية أو دورة التقويم النجمى طبقا لما ذكره سنسورينوس.

لابد لنا لكى ننشئ جدول تتابع زمنى أن تكون الخطوة الأولى هى أن نتعرف على مينوفيريس هذا. كان هناك إصرار دائم على أن مينوفيرس الذى ذكره ثيون هو رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة(٨). وعلى ذلك فإن سنة ١٣٢١ ق. م تعتبر هى السنة التى اعتلى فيها رمسيس الأول العرش، ونظرا لأن مدة حكمه كانت سنة واحدة فلابد أن تكون هى سنة ١٣٢١ ق.م.

وربما كانت مهمة وضع تتابع زمنى من هذه السنة المحددة مهمة سهلة لو أن المصريين كانوا يحسبون سنوات حكم ملوكهم أو وقوع الأحداث على أساس دورة الشعرى اليمانية، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، فلا توجد أى حالة تدل على أن أى حدث مسجل لديهم قد حسب على أساس هذه الدورة. ولا توجد أى وثيقة مصرية معروفة تشير إلى دورة الشعرى اليمانية أو إلى أن هذه السنة أو تلك من سنوات دورة الشعرى اليمانية وطبقا للرأى السائد حاليا لا تعتبر الدورة الفلكية فترة كان القدماء يحسبون بها سنواتهم، إنما يستخدمها المحدثون فقط كوسيلة لحساب التتابع التاريخى. ولقد بُحثت بعض المراجع القديمة القليلة المتوافرة، ولم يمكن التوصل، فلم توجد إلا إشارات نادرة إلى ظهور الشعرى اليمانية ولو فى تاريخ خلاف أول شهر تحوت.

ولقد عثر فى مخلفات معبد اللاهون فى الفيوم على بردية جاء فيها أن الشعرى اليمانية ظهر فى أول شهر فارموتى فى السنة السابعة من حكم الملك (ولم يذكر فيها اسم ذلك الملك) ولكن يبدو أنه أحد ملوك الدولة الوسطى. ويحدد بوركهارت هذا الملك بأنه فيما بين عصر سنوسرت الثالث أو امنحتب الثالث، ومع مزيد من التدقيق قال إنه أحد هذين الملكين. والأصح أن يكون هو الملك سنوسرت، ولما كان الشهر المسمى فارموتى قد تحدد بالشهر الرابع من الفصل الثانى أو الشتوى، فإن تحول

ظهور النجم الكلبى أو الشعرى اليمانية فلكيا فى هذا الشهر فى السنة السابعة من حكم الملك سنوسرت كان بعد ۹۰۰ عام من بدء الدورة الفلكية أو فى العام ٥٥٥ قبل انتهائها فى عام ۱۳۲۱ ق.م وذلك بعمل حساب يوم واحد تأخير فى كل أربع سنوات من بدء شهر تحوت وهو يوم الظهور الفلكى لأول مرة للشعرى اليمانية. وبذلك تحسب السنة السابعة من حكم سنوسرت بسنة ١٨٧٦ ق.م.

وحينما يتم تحديد تاريخ حكم أى ملك من ملوك الأسرة الثانية عشرة فإنه يسهل بعد ذلك حساب أزمنة الملوك الآخرين فى نفس الأسرة المالكة ولو بالتقريب. وبناء على ذلك تكون سنة ۱۷۸۸ ق.م هى نهاية هذه الأسرة.

هذا ويوجد على أحد الأحجار التى عثر عليها فى جزيرة فيلة إشارة عن الشعرى اليمانية فى عصر تحتمس الثالث أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة وترجم النص على أنه بزوغ نجمة الصباح(٩)، ذكر فيه اليوم والشهر ولكن لم تذكر فيه السنة التى ظهر فيها من عصر حكم تحتمس مما جعل الحساب غير دقيق، فضلا عن عدم تحديد المقصود بهذا البزوغ الفلكى.

وهناك تقويم سنوى يسمى بردية ايبرس، معروف بأنه يتضمن سنة مكونة من اثنى عشر شهرا فى كل شهر ثلاثون يوما بدون أى أيام مكملة فى أول السنة أو آخرها، أى أن السنة مكونة من ٣٦٠ يوما فقط، وتحتوى هذه البردية أيضا على بيانات معينة بعد مراجعتها وإدخال التصحيح عليها، وبإعمال التخمين فيها، رؤى أنها تربط بداية العام بتاريخ معين فى عصر امنحوتب الأول فى الأسرة الثامنة عشرة. ولكن إلى جانب ما أدخل عليها من تعديل. فإن أمر حساب السنة على أساس ٣٦٠ يوما وليس ٣٦٥ يوما يعوق كل حساب صحيح يدخل فيه الربع يوم من الفرق السنوى الذى يعتبر أساسا لاستخدام التقويم الفلكى النجمى على أساس ظهور الشعرى اليمانية.

على ذلك فإن الإشارة الواردة فى بردية اللاهون التى ترجع إلى عصر الدولة الوسطى، والإشارة الأخرى الواردة فى مخطوطة ثيون عن عصر مينوفيريس، هما الاشارتان الوحيدتان اللتان يمكن الاستناد اليهما فى عمل تقويم مبنى على أساس فلكى أو على أساس بزوغ نجمة الصباح: الشعرى اليمانية، أو على أساس الدورة الفلكية أو دورة الشعرى اليمانية

المكونة من ١٤٦٠ عاما.

ولابد من احتجاز الفترة بين نهاية الأسرة الثانية عشرة وبداية الأسرة التاسعة عشرة التى كونها رمسيس الأول كفترة حكم الأسرة الثالثة عشرة، وهى آخر الأسر الحاكمة فى الدولة الوسطى، وأسر الهكسوس الأربعة التى حكمت البلاد فيما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة. وكذلك فترة الظلام التى أعقبت نهاية الأسرة الثامنة عشرة وسبقت بداية الأسرة التاسعة عشرة، ولذا وجب إدخال هذه الفترة فيما بين سنة ١٧٨٨ ق.م و١٣٢١ ق.م.

وبمساعدة التأريخ الفلكى حسب عصر الأسرة الثامنة عشرة «فلقد أمكن عن طريق حساب التواريخ التى نظمت فيها احتفالات معينة بأول الشهر القمرى فى عصر كل من الملك تحتمس الثالث وامنحتب الأول (من الأسرة الثامنة عشرة) منذ أول حكم مينوفيريس بالسنوات من ١٥٥٠ إلى ١٤٧٤ ق.م(١٠). وليس هذا بالأمر السهل، لأن حسابات منازل القمر كانت مرتبطة بالبزوغ الفلكى للشعرى اليمانية. وحدد احتفال بظهور هلال معين عام ١٥٥٠ ق.م فى عهد امنحتب الأول، وحدد احتفال آخر عام ١٤٧٤ ق.م فى عهد تحتمس الثالث. وكان امنحتب الأول هو خليفة أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة، ولذا فإن بداية هذه الأسرة الثامنة عشرة يمكن تحديده أيضا فى عام ١٥٨٠ ق.م.

ويبدو أن الخطوة الأخيرة لتحديد تواريخ أحداث معينة واردة فى النقوش أو النصوص أبسط من ذلك بعد أن تحددت تواريخ الاحتفالات بالهلال، ولذا نقرأ أن تحتمس الثالث غادر مصر للقيام بحملته الأولى على فلسطين فى ١٩ أبريل سنة ١٤٨٣ ق.م(١١).

مائتا سنة قليلة جدا
وألف وستمائة كثيرة جدا

تبقى الصعوبة الرئيسية فى عدد السنوات التى انقضت فيما بين عصر الأسرة الثانية عشرة وعصر الأسرة الثامنة عشرة قائمة لأسباب تاريخية يبدو أنها لا تناسب إدخال الأسرة الثالثة عشرة وأسر الهكسوس

المالكة، إذ كانت عهود حكم العديد من ملوك الأسرة الثالثة عشرة وملوك الهكسوس طويلة جدا «فلقد اعترف كل من درسوا المواد المتوافرة عن تاريخ هذه الفترة بأن الفترة التى انقضت منذ عهد الأسرة الثانية عشرة إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة يصعب تضمينها خلال قرنين من الزمان فقط»(١) إذ كيف لهذين القرنين (من ١٧٨٨ ق.م إلى ١٥٨٠ ق.م) أن يضما كل ذلك التتابع التاريخى لحكم الملوك وبخاصة إذا عرفنا أن هناك تقدما ثقافيا بعيد المدى؟

هناك -كما يبدو- أسلوبان لتجنب الوقوع فى هذه المشكلة سبق أن ذكرناهما باختصار فى الجزء الأول من كتابنا «عصور فى فوضى». فهناك محاولة لإثبات أن مائة سنة تكفى لتضم عصر الهكسوس إذا ما حددنا للأسرة الثالثة عشرة المائة سنة السابقة، رغم أن جوزيفوس الذى استخدم تأريخ مانيثو ذكر أن عصر الهكسوس شغل ٥١١ عاما. وهذه هى الطريقة التى اختارها ادوارد مايور الذى وجد أن مائة سنة كافية لتتضمن حكم الهكسوس. ورغم الجدل الشديد الذى ثار ضد هذا الرأى فقد ظل الرأى سائداً.

أما الأسلوب الثانى للتوفيق بين التاريخ والتتابع الزمنى الذى تم وضعه بمساعدة الأساس الفلكى، فإنه مبالغ فيه بصورة أوضح. فلكى يتم التوفيق بين الإشارة الواردة عن الدورة الفلكية فى بردية اللاهون التى ترجع إلى عصر الدولة الوسطى وتحدد سنة ١٥٨٠ ق.م كبداية للدولة الحديثة، فهناك دورة فلكية أخرى مدتها ١٤٦٠ سنة شمسية لابد وأن توضع فى الحسبان، وبذلك تصبح الفترة البينية (بين الاسرة الثانية عشرة والأسرة الثامنة عشرة) ١٦٦٠ عاما، ولابد بالتالى من إرجاع عصور الدولة الوسطى والدولة القديمة إلى الوراء بمقدار دورة فلكية كاملة، وبذلك يمتد هذا التاريخ المصرى بالضرورة إلى الماضى بنفس مقدار السنين. كان صاحب هذا الرأى هو فلندرز باترى، ورغم دفاعه عن رأيه فإنه لم يلق تأييدا إلا من أقلية صغيرة من العلماء.

ولو أننا نظرنا إلى الأمر من حيث المادة التاريخية المتوافرة لوجدنا أن مائتى سنة غير كافية لتتضمن سنوات حكم ملوك الأسرة الثالثة عشرة وما تبعها من الأسرة الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة وهى أسر

ملوك الهكسوس، كما أنها لا تسمح بتضمين ذلك القدر من التغير الثقافى الذى مر بمصر. ولكن يبدو فى نفس الوقت أن ١٦٠٠ عاما كثيرة جدا على هذه الفترة ذاتها.

«ولو كان تاريخ بدء الدورة الفلكية غير معروف، لما احتاج الأمر إلى أكثر من تحديد الفترة (بين نهاية الأسرة الثانية عشرة وبداية الأسرة الثامنة عشرة) بما لايزيد عن أربعمائة أو خمسمائة عام»(٢) وهذه هى الفترة الزمنية التى حددناها فى الجزء الأول من كتابنا عصور فى فوضى تحت عنوان «زمن حكم الهكسوس».

لم يسبق أن اقترح أحد تحريك بداية الدولة الحديثة إلى تاريخ متأخر، بل إن الجميع قد أجمعوا على أن هذه البداية محددة فى تاريخها الثابت ولو أن تاريخ بداية الدولة الوسطى أو الدولة القديمة كان قابلا للمناقشة فإن الأمر يختلف بالنسبة للدولة الحديثة التى يعتبر تاريخها محدداً بصورة ثابتة كثبات النجوم فى السماء. وبسبب هذا الثبات والاتفاق على التتابع الزمنى يكون البدء بسنة ١٥٨٠ ق.م وهو عام طرد الهكسوس من مصر وبداية الأسرة الثامنة عشرة، ويعتبر هذا وفقا لما يقال «هو أول تاريخ يمكن أن يعتبر مؤكدا فى إطار سنوات قليلة تسبقه أو تتلوه(٣).

يقسم علم التاريخ ماضى العالم إلى قسمين رئيسيين: ما قبل عصر الدولة الحديثة فى مصر، وهى الفترة التى تكثر بشأنها الافتراضات، وبدءا من عصر الدولة الحديثة فى مصر حتى الآن وهى الفترة التى لايدخل فيها المؤرخون تغييرات كبيرة سوى سنين قليلة على تواريخ أحداث معينة. ويكاد يجمع مؤرخو الشعوب المختلفة على البدء من سنة ١٥٨٠ ق.م.

الجمع بين صيغتى سنسورينوس وثيون

يعتمد الترتيب أو التتابع الزمنى المتعارف عليه على مراجعة مدى الدقة فى تفسير صيغتى سنسورينوس وثيون، وتفسير هاتين الصيغتين. فلقد جاء فى صيغة سنسورينوس أن الدورة الفلكية استغرقت ببساطة ١٤٦٠ عاماً، بطرحها من عدد السنين نستطيع أن نعرف بدايتها.

أما صيغة الآخر وهو ثيون الذى شرح صيغة سنسورينوس فقد ذكر اسم ملك افترض أنه هو الذى كان يحكم فى ذلك التاريخ. وبمعرفة اسم ذلك الملك الذى كان يحكم عندما بدأت الدورة الفلكية الجديدة، ووضعه فى الزمن الذى حدده سنسورينوس لبداية الدورة الفلكية، استطاع المؤرخون تحديد نقطة يبدأ عندها بناء الترتيب الزمنى لتاريخ العالم القديم.

كان ثيون وسنسورينوس كغيرهما من الكتاب الذين ظهروا فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين فى مطلع عصر ادب وعلم يؤلفان كتبهما ويحرران تعليقاتهما بشىء قليل من الرجوع إلى مصادر الحكمة القديمة.

ولئن كان الكتاب الذى ألفه سنسورينوس « Liber de Die natali » يعتبر بصفة عامه كتاباً لمؤلف لم يمزج بين المعارف المكتسبة وخياله الخاص إلا أن مصادر معلوماته كانت كتابات السابقين الذين لم يكونوا يدركون فى أغلب الأحيان أهمية الفصل بين الحقيقة والافتراض.

أما ثيون، فقد كان غزير التأليف كثير التعليقات، ولكن الكثيرين من العلماء المحدثين يرون أنه لم يكن مفكراً عميقاً ولا كاتباً دقيقاً، ولقد أضاف النساخ إلى كتبه بعض العبارات والتعبيرات البربرية إلى ملاحظاته عن التقاويم المصرية ونسبوها إليه مما أثار الشكوك فى كونها مجرد اضافات.(١)

إن بناء تاريخ للعالم القديم بترتيب زمنى مكون من الجمع بين صيغتين لكاتبين مختلفين يرجعان إلى القرن الثالث والرابع الميلادى ليعتبر عملاً لا يخلو من المخاطرة حتى لو كان هناك اتفاق بين الصيغتين.

والمعروف أن المؤلفين اللاتينيين قد ضمنوا مؤلفاتهم الكثير من المعلومات المغلوطة والادعاءات الخطيرة والمزاعم الخاطئة عن مصر. ونورد هنا كمثال منها عبارات كتبها تاكيتوس يقول فيها «فى عهد قنصلية كل من بولوس فابيوس ولوسيوس فيتليوس (سنة ٣٤ م فى ظل حكم تيبريوس)، وبعد انقضاء زمن طويل عاد طائر العنقاء إلى مصر فى زيارة، وزود المتعلمين فيها وفى اليونان بالمعارف المعجزة لسنين طويلة... وبالنسبة لعدد السنين التى تفصل بين زيارتين من زيارات هذا الطائر، فإن الأمر يختلف. والزمن المعروف هو خمسمائة عام ولكن هناك من يؤكد أنه أتى إلى مصر منذ ١٤٦١ عاماً، وأن ذلك كان لأول مرة

فى عهد سيزوستريس ثم فى عهد امازيس وأخيراً فى عهد بطليموس (الملك الثالث من ملوك مقدونيا، وأن أول ثلاثة من طائر العنقاء طارت إلى مدينة تسمى هليوبوليس وتبعتها أعداد كبيرة من الطيور العادية...»(٢) وفى إشارته إلى أن الزمن الذى يفصل بين بطليموس الثالث وتيبريوس أقل من مائتين وخمسين سنة رأى أن إحدى هذه الزيارات كانت غير طبيعية، وأضاف «ولكن هذا الطائر يظهر فى مصر أحياناً بصورة لا مبرر لها»، وكتب بيلنى بطريقة لا تختلف عن ذلك كثيراً، فاشار إلى مانيليوس وذكر أن السنة العظمى ترتبط بحياة ذلك الطائر، فتأتى نفس الفصول ونفس النجوم مرة أخرى.»(٣) ولكى يقدم الدليل ذكر بيلنى السنة التى كان يحكم فيها كل من القنصل كوينتوس بلوتينوس وسكسوس بابينوس وهى سنة ٣٦ م كتاريخ لزيارة طائر العنقاء لمصر.

يعتبر سنسورينوس وثيون من أواخر الكتاب القدامى الذين يعتبرون إرجاع تاريخ مصر إلى الوراء ١٤٦٠ سنة أمرا مشروعاً، ولكن لم يذكر المصريون شيئاً من مثل هذه الدورة الفلكية، فالنظريات الخاصة بالدوره الفلكية عند الكتاب المتأخرين مثل سنسورينوس وثيون لها ما يدعمها بحيث يمكن بناء تاريخ العالم القديم كله على أساسها. ولكن ما لم تحدد شخصية مينوفيريس الذى أشار إليه ثيون، فإن صيغة سينسورينوس ستظل غير ذات قيمة بالنسبة للترتيب الزمنى لتاريخ الدولة الحديثة.

من هو مينوفيريس؟

من هو مينوفيريس؟ ومن الذى حمل هذا الاسم فى العصر المصرى طبقا لما ذكره ثيون؟ لم يذكر ثيون أن مينوفيريس كان ملكا، ربما كان ناسكا أو فلكيا يقوم بحساب الأزمان، وربما سمى العصر باسمه لخدمات قدمها. قد تكون كل من هذه الافتراضات ممكنة ولا تستبعد لو أننا وثقنا فى دقة معلومات ثيون، أما إذا لم تكن تلك الثقة موجودة فلابد أن يتطرق إلى أذهاننا الشك منذ البداية حيث لم يعثر على ذكر مينوفيريس فى أى

مصدر مصرى فى أى عصر من العصور.

ولقد خرج أحد العلماء فى أواخر القرن الماضى برأى يقول إن مينوفيريس هو اسم مين نوفر وهو الاسم المصرى لمدينة ممفيس(١) ولئن كان هذا التفسير قد رفض فى حينه(٢)، إلا أن له جاذبيته المرتبطة بقيام كهنة ممفيس بمراقبة ظهور نجم الشعرى اليمانية والأخذ بذلك فى كل أنحاء مصر خلال العصر الهلينيسى. ويأتى الظهور الفلكى لنجم الشعرى اليمانية فى طيبة (الأقصر/ الكرنك) قبل ظهوره فى ممفيس (قرب القاهرة) بأربعة أيام لأن كل درجة من درجات العرض الشمالية تعنى اختلاف يوم بالنسبة لظهور النجم. ومن مصب النيل فى خط عرض الاسكندرية إلى سيين (أى أسوان) هناك فرق يبلغ سبع درجات عرض، وحينما يظهر الشعرى اليمانية فى أول شهر تحوت فى ممفيس لا يكون قد ظهر فى سايس أو تانيس فى الدلتا، ويكون قد ظهر بالفعل منذ خمسة أيام فى طيبة، ومنذ سبعة أيام فى سيين. فأى من هذه الأيام كان يعتبر بداية التقويم السنوى؟ هذه الصعوبة التى لم يجد لها منشئ مدرسة برلين فى علم المصريات(٣) حلاً، حلها العالم اليونانى اوليمبيو دوروس(٤) الذى عاش فى مصر خلال القرن الخامس الميلادى، وذلك بأن الاسكندرية كانت تقبل الأخذ بموعد ظهور النجم فى ممفيس. ولما لم يكن ادوارد مايور يعلم بعبارة اوليمبيو دوروس فقد ظل يبحث عن أساس التقويم بالشعرى اليمانية مادام موعد ظهوره يختلف من مكان لآخر حسب درجات العرض فى مصر. ولذلك اعتقد بعدم وجود رصد حقيقى يستند إليه عمل التقويم النجمى وأن المواعيد كانت توضع فى التقويم مقدما. كذلك تبين أن بوركهارت وهو الآخر من أساطين علم المصريات لم يكن يعرف شيئا عما ذكره أوليمبيو دوروس فزعم أن تقويم هليوبوليس كان معمولا به فى كل أنحاء مصر(٥)، بيد أن تفسير اوليمبيو دوروس يجعل احتمال كون مينوفيريس هى مين نوفر أى ممفيس هو الاحتمال الأقرب إلى الصواب.

ولئن كانت مينوفيرس مدينة وليست شخصاً فلن توجد أية نقطة ينبنى عليها وضع ترتيب زمنى، فكما سبق أن ذكرنا، نجد أنه فى كل فترات التاريخ المصرى التى تناولناها فى هذا الجزء من الكتاب لم يعثر على مرجع معروف عن حساب زمن الهكسوس والدولة الحديثة والممالك

المتأخرة حتى مجيء الاسكندر الأكبر بسنوات الدورة الفلكية.

وحتى لو كان مينوفيرس ملكاً عاش فى بداية حقبة من الزمان وكانت تلك الحقبة فترة دورة فلكية فسوف تنشأ صعوبة تحديد هوية هذا الملك. ففى قوائم الأسر كما وضعها مانيثو، ونقلها عنه كل من ايوسبيوس والافريقى هناك المتشابه فى النطق من أسماء الملوك والمشتبه فى نطقه الصحيح، ولكن لا يوجد فى تلك القوائم اسم مينوفيرس، هناك ميرنر من الأسرة السادسة، وميـنوفـيـر من ملوك الهكسوس(٦)، وامنيمبتاح وميرنبتاح من الأسرة التاسعة عشرة (فى قوائم الافريقى وايوسيبوس) وهناك أيضاً امينوفيس وميرهيس من الأسرة الثامنة عشرة فى القوائم التى احتفظ بها جوزيفوس، ويمكن الزعم بأن أياً من هذه الأسماء هو اسم امينوفيرس، رغم أن بعضهم لم يكن له مكانة تاريخية أو على الأقل لم يكن لمعظمهم أى ذكر فى الآثار المصرية. ولعل أقرب شخص لأن يكون مينوفيرس هو ميرنبتاح خليفة رمسيس الثانى، ويغلب الظن أنه هو هو الذى قصده ثيون باسم مينوفيرس. ولكن إذا ما أخذنا بالتبرير المبسط الذى وضعه عالم المصريات فى المدرسة الالمانية لعلوم الآثار المصرية يستحيل أن نضع ميرنبتاح فى عام ١٣٢١ ق.م وهو بداية الدورة أو الحقبة الفلكية «لأن أقدم تاريخ يمكن أن يكون رمسيس الثانى (والد مرنبتاح) قد اعتلى العرش فيه هو سنة ١٣٠٠» على حد ذكر مايور.(٧) وعلى ذلك يكون سيتى والد رمسيس الثانى هو مينوفيرس الذى ذكره ثيون وفقاً لرأى بوركهارت وأتباعه.(٨)

ليس لهذا المنهج فى بناء التاريخ أى أساس، إذ إن الترتيب الزمنى فى التاريخ المصرى قد بنى على أساس تحديد عصر الملك مينوفيرس بمساعدة حسابات الحقبة الفلكية، فالمعروف بالفعل أن «أقدم تاريخ لرمسيس الثانى وهو جلوسه على العرش كان سنة ١٣٠٠ ق.م» فإذا كان الأمر كذلك فالاحتمال الوحيد هو أن يكون خليفته قد جلس على العرش سنة ١٣٢١ ق.م، وهنا نتساءل، لماذا إذاً يكون حساب التقريب على أساس تأخير ظهور الشعرى اليمانية سنة كاملة فى التقاويم بربع يوم، لتحديد هوية مينوفيرس؟ إن الترتيب الزمنى كما يبدو ثابت بدون مينوفيرس والدورة أو الحقبة الفلكية.

ونظراً لأن جلوس رمسيس الثانى على العرش كان فى سنة ١٣٠٠ ق.م فلابد أن تكون سنة ١٣٢١ ق.م إما سنة جلوس والده سيزوث أو سيتى الذى يسمى أيضاً مين مآترى أو جده رمسيس الأول مين بحتيرى ومن الواضح أن الأمر يستلزم اختيار أحد البديلين.(٩) بيد أن المعتاد اختيار رمسيس الأول مين بحتيرى على أنه هو مينوفيرس، ويمكن بسبب اعتبار مدة حكمه سنة واحدة أن تعتبر تلك السنة هى بداية عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٠) وهناك ملاحظة عميقة تتمثل فى أنه ليس هناك أى ذكر لرمسيس الأول. مين بحتيرى مما يدل على أن الأسرة الثامنة عشرة بدأت بالملك سيزوث أو سيتى. ولو أن ثيون استخدم بعض صيغ مانيثو، دون استخدامه للآثار المصرية، إذاً يكون تحديد هوية مينوفيرس بشخصية رمسيس الأول عملاً تم بمجهود إضافى.

ويعتبر وضع رمسيس الأول سنة ١٣٢١ ق.م دون العثور على أى دليل استخدمه سنسورينوس وثيون، أمراً غير مقبول إطلاقاً. فبعد تحديد هوية مينوفيرس بشخصية رمسيس الأول بهذه الطريقة تكون بداية الأسرة التاسعة عشرة محسوبة ابتداء من سنة ١٣٢١ ق.م ومن جهة أخرى، حسبت احتفالات بزوغ هلال أول الشهر القمرى خلال عهد الأسرة الثامنة عشرة وأمكن التعرف على سنوات حكم ملوكها عن طريق الجمع الحسابى للأيام. أما فيما يتعلق بالأسر التى أعقبت الثامنة عشرة والتاسعة عشرةوهما أعظم أسر الدولة الحديثة، فقد حددت عصورها بنفس الطريقة، وعدل المؤرخون وغيرهم مادتهم وفقا لذلك.

أصبح البنيان التاريخى الذى أقيم على أساس الافتراضات التالية:

١) كان هناك عهد حكم فيه مينوفيرس.
٢) أن هذا العهد يرتبط بالدورة الفلكية.
٣) أن هذه الدورة الفلكية بدأت سنة ١٣٢١ ق.م.
٤) أن مينوفيرس كان ملكا عاش فى بداية هذا العصر.
٥) أن مينوفيرس كان هو هو رمسيس الأول لأن بداية حكم رمسيس الثانى جاء بعده (وبدون أى سبب واضح) وحددت له سنة ١٣٠٠ ق.م.

ولا يبدو أن تتابع تاريخ العالم المبنى على هذه الافتراضات تاريخ مستقر ومضمون كما كان يعتقد، بل يبدو أنه أقرب لأن يكون تجميعا لأشياء غير مترابطة، بل وكل منها غير ثابت فى حد ذاته، وأن هذه الأشياء قد جمع بعضها بصورة مشكوك فيها.

الشك الفلكى فى الترتيب الزمنى المبنى على أساس فلكى

هناك سلسلة من الجدل المنطقى ليس بينها أى نوع من الترابط القوى، فهناك حلقات متعددة مفقودة من هذه السلسلة التى بنى عليها نظام الترتيب الزمنى للتاريخ المصرى. ولسنا بحاجة إلى مزيد من الدخول فى هذه المناقشات حول خطأ الترتيب الزمنى المبنى على ربط عهد مينوفيرس بالدورة الفلكية، ولذا نغلق النقاش حول هذه القضية، ويكون من المحتم علينا أن نكشف عن السبب فى أن الأسس الفلكية للتأريخ تعتبر أسسا لجأنا إليها اضطرارا، ولكنها غير دقيقة، ولا داعى لأن نستعرض المزيد من الأخطاء فيها.

ولندخل فى الموضوع بصورة أكثر تفصيلا لكى نضيف المزيد من الموضوعية على تفهم التقويم المصرى. غير أننا سوف نتعرض أثناء النقاش للمزيد من الأسس غير المقبولة لحساب الترتيب التاريخى على أساس فلكى.

ففى البداية هناك نقاط رئيسية يجب أخذها فى الاعتبار. فلقد قدرنا صيغة سنسورينوس التى اعتبر فيها البزوغ الفلكى للشعرى اليمانية فى أول شهر تحوت سنة ١٣٩م «فى السنة الثانية لحكم الامبراطور انطونيوس بيوس وبرتيوس أوبروتس برايزنس»، وكان لهذا التقدير أسسه التى وجدناها محتملة فى تحديد البزوغ الفلكى لنجم الشعرى اليمانية بالسنة التى صدر فيها المرسوم الكانوبى(١).

ولكن إذا كانت سنة عظمى قد انتهت عام ١٣٩م وبدأت سنة أخرى فلابد أن يكون مثل هذا الحدث الفلكى العظيم قد وقع فى حياة كلوديوس بطليموس، أو بالتحديد فى منتصف حياته (من ١٢٧م إلى ١٥١م) ولئن

كان كلوديوس بطليموس من سكان الاسكندرية إلا أننا لم نجد فى أى من كتاباته ذكراً لهذه الحقيقة، كما أنه لم يظهر فى أى من كتاباته ما يدل على أنه يعرف شيئا عن حسابات الدورة الفلكية ومسائل التقويم الخاصة بعهده، ولا حتى دراسته للسجلات البابلية عن الخسوف والكسوف والتى ترجع إلى نحو ثمانمائة سنة قبل عصره. وفى حياته التى قضاها بالاسكندرية وشغل نفسه أثناءها بهذه الأمور نتساءل كيف ظل غير مدرك لمجئ الاسكندر الأكبر إلى مصر خلال حياته أو كيف أغفل ذكر ذلك؟.

وجدير بالذكر أيضا فى هذا الصدد أن ندخل فى اعتبارنا الحسابات الفلكية التراجعية للبزوغ الفلكى لنجم الشعرى اليمانية فى سماء مصر. ففى بداية القرن الحالى قام برسى ديفز بمثل هذه الحسابات. وبناء على دراساته لم يكن هناك بزوغ فلكى لنجم الشعرى اليمانية فى سنة ١٣٩م فى أول شهر تحوت فى مصر، وذلك على الرغم من وجود ذلك فى صيغة سنسورينوس ذلك أن الشعرى اليمانية ظهر عاليا فى سماء ذلك اليوم قبل الفجر بنحو ساعة تقريبا. والمثل يقال عن التواريخ الثلاثة الأخرى التى قيل إنها كانت بدايات لدورات فلكية سابقة وجد ديفز أن الشعرى اليمانية ظهر فى سماء مصر قبل الفجر بساعة. ولو أن هذه الحسابات التى قام بها ديفز كانت صحيحة فإن تلك التواريخ الأربعة لا تمثل تواريخ بزوغ فلكى للشعرى اليمانية فى سماء مصر.

على ذلك فإن عيد الشعرى اليمانية ذلك لابد وأنه يشير إلى ظواهر فلكية خلاف البزوغ الفلكى «فهل هى تشير إلى ظهور شئ آخر خلاف البزوغ الفلكى للشعرى اليمانية فى سماء الليل؟ إذا كان الأمر كذلك فإن الأمر يقتضى القيام بحسابات جديدة، ويصبح من المشكوك فيه أن نعتبر أى تاريخ من تلك التواريخ أساسا لنظام ترتيب زمنى يستقى منه»(٢).

إن التتابع الزمنى فى تاريخ مصر لم يراجع، وشعر علماءالمصريات فى ذلك الوقت أنه لا يمكن ادخال تعديل فيه، لأن بنيان النسق التاريخى كان ثابتاً، أو على حد تعبير برستيد «كان صحيحاً من الناحية الحسابية.»(٣)

فضلاً عن ذلك فإن ربط بداية الدورة الفلكية بالشعرى اليمانية مازال مسألة غير مؤكدة. فلقد قام دنكان ماكنوتون بدراسة تفصيلية خصصها

لكى يثبت أن كلمة الدورة الفلكية فى اللاتينية وهى سبيدت أو سوزيس يشاربها إلى النجم سبيكا Spica أو السنبلة وهو أحد نجوم مجموعة العذراء وليس هو الشعرى اليمانية.(٤) غير أن فرصة قبول فكرة تحديد نجم سبيدت أو السنبلة بما يقابله فى الصيغة الواضحة التى عبر عنها سنسورينوس قد لا تجد قبولاً فى أوساط العلماء، ولذا تظل المسألة محيرة، فهل كان المقصود بالنجم سبيدت ذلك النجم الذى يطلق عليه سهيل (أوكانوبوس باللاتينى)؟ إن الشعرى اليمانية هو ألمع النجوم الثوابت فى السماء، ويليه النجم سهيل الذى يعتبر ألمع من أى نجم آخر.(٥) ويقع سهيل إلى الجنوب من الشعرى اليمانية وغالباً ما يكون على الخط المستقيم الممتد إليه من القطب الجنوبى، ولا يمكن رؤية سهيل هذا فى نصف الكرة الشمالى فى أى موقع شمال نورفولك بفرجينيا، فلا يرى إطلاقاً فى بالرمو بصقلية، ولكن يمكن رؤيته من أعلى بركان اتنا فى ليال قليلة متتالية طوال السنة. أما فى مصر فإنه يظهر واضحاً فى وقت محدود كل عام. وحيث إن اعلان المرسوم الكانوبى أعلن أن بدء السنة الجديدة (أول شهر تحوت) بالظهور الفلكى للنجم سبيدت وكان ذلك على يد الكهنة الذين اجتمعوا فى مدينة كانوبس (وهو الاسم اليونانى لمدينة برجوت المصرية)، وكان ذلك مدعما للرأى الذى يقول بأن سبيدت هو الشعرى اليمانية. أما كانوبس (فى الثقافة اليونانية) فهو شخصية مينالوس الأسطورية، شقيق اجاممنون الذى قاد اليونانيين فى حرب طروادة، وقد مات فى مصر، فى المدينة الواقعة على الفرع الكانوبى من مصب النيل، وهو آخر فروع الدلتا القديمة من جهة الغرب (وهو الآن مطمور بالرمال) تجرى مكانه الآن ترعة مديرية التحرير. وقد سمى هذا الفرع باسمه، وكذلك أطلق اسمه على النجم، ألا يمكن أن يكون اليونانيون قد أطلقوا اسم النجم على المدينة؟ ألا يمكن أن يكون السبب الذى جعل اليونانيين يطلقون اسم كانوبى على هذا المكان هو المرسوم الذى صدر فى ذلك المكان متعلقاً بالنجم؟ لكن هيرودوتس أطلق، قبل ذلك بكثير اسم الكانوبى على أحد فروع الدلتا.

لقد تجاوزت عن هذه الفكرة مهما كانت قيمتها، ولكننى سوف أؤيد التفسير الجديد للمرسوم الكانوبى، فكما سيتبين لنا حالاً، لم يقتصر

المرسوم على موضوع النجم سبيدت الذى يفترض أنه الشعرى اليمانية فحسب، ولكنه تناول أيضاً النجم ايزيس، وقد زعم علماء العالم خطأ أنه هو هو نفس النجم.

قام بصياغة المرسوم الكانوبى مجموعة من الكهنة المنافقين دعتهم السلطة ليقرروا إضافة عيد جديد يحتفل فيه بتكريم الملك بطليموس الثالث ايروجيتس وزوجته الملكة برينيس، وكانت تقام فى الأيام الخمسة الأخيرة من السنة احتفالات لتكريم الفراعنة البطالسة، وقرر المجتمعون فى كانوبس أن يكون اليوم السادس كل اربع سنوات يوم احتفال يضاف إلى أيام تكريم بطليموس ايروجيتس وزوجته الملكة.

هذا، وتختلف نصوص المرسوم الثلاثة المكتوبة باليونانية والديموطيقية والهيروغليفية اختلافا كبيراً، وهناك زعم بأن النص اليونانى هو الأصل، وزعم يقول بأن النص المكتوب بالحروف الديموطيقية هو الأصل. لكن نظراً لعدم وجود الوحدة الكاملة بين النصوص الثلاثة فيبدو أن مترجمى النص من أصله، أياً ماكانوا، لم يكونوا على إدراك وفهم كامل بمعنى النص وخاصة فى تناوله للمسائل الفلكية، ومن المؤكد أنهم سمحوا لأنفسهم بحرية فى تفسير ما لا يدركون معناه.

وهناك نقطة أخرى تحتاج إلى مزيد من الإيضاح، فرغم أن النص يتحدث عن إدخال تعديل فى التقويم السنوى بادخال يوم كل أربع سنوات، ولم يعثر فى أى من النصوص الثلاثة على إشارة لسنة ١٤٦٠ ق.م (أو ١٤٦١ ق.م) أو عن أى دورة فلكية. ويشير المرسوم فى الواقع إلى الوقت الذى كانت فيه السنة مكونة من ٣٦٠ يوماً فقط، وإلى التعديل الذى أدخل بإضافة خمسة أيام، وكما سبق أن أوضحت، هذه الحقيقة فى حد ذاتها تهدم كل أسس حسابات بداية الدورة الفلكية خلال الالف سنة الأخيرة قبل الميلاد، أو خلال آلاف السنين السابقة على ذلك، وهى الحسابات التى بنيت على أساس طريقة سنسورينوس وليس على أساس المرسوم الكانوبى الذى سبق هذا الكاتب اللاتينى بنحو خمسة قرون تقريباً. ولكن نجد أن سنسورينوس أيضاً كتب بعد أن ناقش موضوع الدورة الفلكية، عن حسابات تقويم السنين الذى ينبنى على أساس وجود ٢٤٨٤ سنة تفصل بين طوفان أو كارثة وأخرى.

هوامش الفصل الثانى

الشعرى اليمانية

١- أنظر برستيد تاريخ مصر الطبعة الثانية ص ٢٣

٢- «ألم تلتهم السماء القمر؟ وجد هذا النص مسجلا فى عصر أحد ملوك ليبيا وهو تاكيلوت الثانى، وغالبا ما كان يشير إلى حدوث كسوف فى القمر.

٣- «يضيفون خمسة أيام وربع للأشهر الإثنى عشر، وبهذه الطريقة يكملون دورة السنة ولكنهم لم يطيلوا أو يقصروا الفصول كما كان يفعل معظم اليونانيين، ويبدو أنهم كانوا يلاحظون الخسوف بدقة ويتنبأون بكل الأحداث المتوقعة أنظر الكتاب الأول من ترجمة أولد فاذر.

٤- Liber de Die Natali, XVIII

٥- هذه الحسابات أبعد ما تكون عن الدقة نظرا لأن السنة التى تبدأ فى يولية وتتكون من ٣٦٥ ١/٤ يوم ليست هى السنة النجمية، ذلك أن ١٤٦٠ سنة يوليوية تتكون من ٣٦٥ ١/٤ (أو ١٤٦١ سنة تتكون من ٣٦٥ يوما) تختلف عن ١٤٦٠ سنة نجمية بحوالى تسعة أيام بما يؤدى إلى ايجاد فرق مدته ٣٦ سنة فى كل دورة من دورات الشعرى اليمانية، فكيف إذاً توصل المصريون القدماء إلى علمهم بدورة الشعرى اليمانية عن طريق الملاحظة المجردة، بحثا عن إجابة لهذا السؤال يقال إن المصريين عن طريق الصدفة النادرة الحدوث بالنسبة للشعرى اليمانية أصبح لدى المصريين سنة يوليوية وليست سنة نجمية وذلك يرجع إلى ظاهرتين رئيسيتين: تغير

فى الانقلابين أو فى حركة محور الأرض كل فترة تبلغ ٢٦ ألف سنة، واتجاه الشعرى اليمانية بالنسبة للنجوم الأخرى. وقد كان لهذين العاملين معا أثرهما خلال الألف الرابع إلى الألف الأول قبل الميلاد. وقد أدى ذلك إلى أن السنة الشمسية (التى تبدأ فى يولية) وليست السنة النجمية هى الأكثر تمثلا فى حركة الأرض عند خط عرض مصر

٦- علينا أن نتذكر أنه فيما بين أول شهر تحوت الذى بدأت به السنة الأولى من التاريخ الميلادى وأول تحوت قبل بدء التاريخ الميلادى لايوجد فى الواقع فرق سنتين ولكن سنة واحدة. ففيما بين تاريخ معين فى سنة ١٣٩م والتاريخ المقابل له فيما قبل الميلاد وهوسنة ١٣٢٢ ق.م هناك فرق يصل إلى ١٤٦٠ سنة وليس ١٤٦١ سنة، ولذلك فإن سنة ١٣٢٢ ق.م. ماهى إلا سنة ١٣٢١ ق.م فى الحساب الفلكى، وإذا لم يذكر خلاف ذلك فإن كل التواريخ التى وردت فى هذا الكتاب محددة تاريخيا وليس فلكيا. والفرق هو أن التأريخ الفلكى يفترض وجود السنة «صفر» بينما لايفترض التأريخ التاريخى وجود هذه السنة صفر

7- T.H. Martin, "Mémoire sur la date historique, d' un renouvellement de la période sothiaque" in Mémoires présentés par divers savants á l'Académie des Inscription et Belles-Lettres, Série I, Vol. 8, Pt. 1 (Paris 1869).

٨- يفضل بوكهارت أن يعتبر مينوفيرس هو الملك سيتى العظيم ابن رمسيس الأول ووالد رمسيس الثانى.

9- L. Borchardt, Quellen und Forschungen zur Zeitbestimmung der Aegyptischen Geschichte, 2 (Cairo 1935) 18-19.

10- Hall, "Egyptian Chronoloogy," Cambridge Ancient History (1st ed), 1, 170.

١١- A. T. Olmstead, History of Palestine and Syria (1931) p. 132 ويحدد بريستيد هذا الحدث فى تاريخ ١٩ أبريل ١٤٧٩ ق.م

مائتان سنة قليلة جداً وألف وستمائة وستون سنة كثيرة جداً

1- Hall, "Egyptian Chronology," Cambridge Ancient History (Ist. ed.), I, 168.

٢- أنظر المرجع السابق ص ١٦٩. وقد رفض ماسبيرو وفون بليسنج وعدد من العلماء قبول أى من الفكرتين، كما رفضوا الحسابات المبنية على أساس الدورة الفلكية بقولهما.

إن الدورة الفلكية بدلا من أن تبسط لنا حساب التتابع الزمنى فإنها لم تؤد إلا إلى إضافة غموض جديد وربما فرصة أخرى للوقوع فى خطأ جديد.

راجع G. Jéquier, Histoire de la civilisation égyptienne des origines á la conquête d'Alexandre, (Paris, 1913) pp. 26-27.

٣- أنظر كتاب هال Egyptian Chronology السابق الإشارة إليه ص ١٧٠ أنظر أيضا البرايت From the Stone Age to cChristianity p. 166; وبرستيد تاريخ مصر ص ٢٢ وكذلك T. Säve- Söderbergh, "C- 14 Dating and Egyptian Chronology" in Radiocarbon Variations and Absolute Chronology, ed. I. U. Olsson (Stockholm 1970), p. 38 وقد أرخت بداية الأسرة الثامنة عشرة بأحد تاريخين يفصل بينهما عشرون عاما أما بقية عصور الحكم فيما بين القرنين السادس عشر والحادى عشر قبل الميلاد فإن الفرق لم يزد عن عدد قليل من السنين.

الجمع بين صيغتى سنسورينوس وثيون

1- Martin, Mémoires, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres Série, I. Vol. 8, Pt. I, pp. 232 ff.

2- Tacitus, The Annals, trans. J. Jakson, VI, 28.

3- Pliny, Natural History, X, 2.

من هو مينوفيرس؟

1- J. B. Biot, Etudes Sur l'astronomie indienne et sur l'astronomie chinoise (Paris, 1862), pp. xxxvi-xxxix.

٢- Cf. Martin, Mémoires, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, I 275 (1869), وقام أخيرا بعض الكتاب بإحياء فكرة أن مينوفيرس هى

D. B. Redford, History and Chronology of the Eighteenth ممفـــيس ومنـهم
Dynasty of Egypt: Seven Studies (Toronto 1967) pp 214-15

3- E. Meyer, Aegyptische Chronologie (Berlin 1904) pp. 17-18. أنظر كتاب

4- A. J. Letronne, "Nouvelles recherches sur le calendrier des anciens égyptiens, "Mémoires, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, XXIV, pt, 2 (Paris 1864); J. L. Ideler, Meteorologia veterum Graecorum et Romanorum (Berlin, 1832).

5- Borchardt, Quellen, 11, 13.

٦- "الأنسب أن يكون مينوفيرس هو أحد شخصيات الهكسوس" وفقا لما ذكـره وايل Weill فى كـتـابـه Bases, méthodes, et résultats de la chronologie égyptienne, p. II.

7- "Wonach diese Periode bei Theon bennant ist, wissen wir nicht. Der Name Menophris oder Menophreus könnte ägyptisch Merenre sein, mit eingeschobenem Artikel

8- Borchardt, Quellen, II, 17.

9- "Man könnte auch etwa an Menpehtire, den Vornamen Ramses' I, oder selbst an Menmaatre, den Vornamen Sethos' I, denken. Damit wird aber der Willkür das Thor geöffnet". Meyer, Aegyptische Chronologie, p. 30.

10- Hall, "Egyptian Chronology," Cambridge Ancient History (Ist أنظر كتاب ed.), I, 170.

الشك الفلكى فى الترتيب الزمنى المبنى على أساس فلكى

١- أنظر كتاب CF. sävee-Söderbergh السابق الإشارة إليه ص ٣٧.

٢- رأى ج لـيـج G. Legge فى تقرير البعثة الفرنسية بالقاهرة رقم ٣١ بعنوان Recueil de travaux relatifs á la philologie et l'archéologie egyptiennes et assyrienne (Paris, 1909), 106-12. وكانت الخلاصة التى توصل إليها ليج مستندة على الحسابات التى قام بها برس ويفز ويجب أن نلاحظ أنه رغم

احتمال خطأ حسابات ويفز إلا أنه ربما استخدم أول شهر تحوت فى تقويم الاسكندرية (٣٠ أغسطس ٣٠ سنة ١٣٩ م). بدلا من أول شهر تحوت فى التقويم المصرى (٢٠ يوليه ١٣٩ م)

3- Breasted A History of Egypt (2nd ed.) P. 22.

4- D. Macnaughton, A Scheme of Egyptian Chronology (London 1932).

٥- النجم سهيل فى واقع الأمر أكبر بكثير من الشعرى اليمانية. ولكنه يبعد عن الأرض بمسافة ٣٠٠ سنة ضوئية، بينما لايبعد الشعرى اليمانية عن الأرض سوى ٨.٨ سنة ضوئية.

الفصل الثالث

كوكب الزهرة

كوكب الزهرة

إذا ما عرفنا طول السنة بدقة فى خلال الألف الثانية والثالثة قبل الميلاد، فإن ترك الربع يوم كل سنة، والذى يؤدى إلى اختلاف ٢٥ يوم تقريباً فى كل قرن من الزمان يعتبر شيئاً يمكن اغفاله من حيث درجة الدقة التى كان عليها كهنة مصر فى حساباتهم. فما هو السبب الذى أدى بالمصريين إلى الاستمرار والإصرار على هذا الخطأ خلال القرون وآلاف السنين رغم معرفتهم به؟

افترض كِتاب العالِم الذى طرح هذا السؤال أن الدورة الفلكية كانت متصلة بكوكب الزهرة وليس بالنجم اللامع الشعرى اليمانية، فمازال كوكب الزهرة يعتبر أكثر أجرام السماء ضياء.

والزهرة مثله مثل الشعرى اليمانية يختفى فى فترة من فترات السنة. ولكن فترة اختفاء الزهرة لا ترجع إلى تغير فصول السنة التى تؤدى إلى تحرك جزء من نصف الكرة الشمالى وبالتالى اختفاء بعض النجوم عن الأنظار فى السماء المرئية كما هو الحال بالنسبة للشعرى اليمانية والسنبلة. ولكن اختفاءالزهرة يرجع إلى دورانه فى مساره حول الشمس بزاوية منحرفة عن مسطح مسار الأرض بدورات قليلة، فيختفى وراء الشمس لمدة شهرين وستة أيام هى بمثابة كسوف له.

وحينما يكون كوكب الزهرة إلى الشرق من الشمس يكون نجم (كوكب) مساء أما إذا كان إلى الغرب منها فيكون نجم (كوكب) صباح. ويتم كوكب الزهرة مداره حول الشمس فى ٢٢٤.٧ يوماً (من أيام الأرض). ولئن كان الكوكب يرى من الأرض التى تدور بسرعة أقل فى نفس الإتجاه، فإنه يعود

فيعبر الخط الذى يوصل بين الشمس والأرض مرة كل ٥٨٤ يوماً (٢)، وهذا هو ما يسمى السنة الاقترانية لكوكب الزهرة.

وكل ثمانى سنوات أرضية تساوى خمس سنوات اقترانية لكوكب الزهرة مع اختلاف لا يتجاوز يوماً كل أربع سنوات، فكل دورة اقترانية لكوكب الزهرة تساوى ٢٩١٩،٦ يوماً(٣)، وكل ثمانى سنوات أرضية بحساب ٣٦٥ يوماً تساوى ٢٩٢٠ يوماً بينما كل ثمانى سنوات أرضية بحساب ٣٦٥،٢٥يوماً تساوى ٢٩٢٢ يوماً.

ويشير كلوديوس بطليموس فى كتابه الميجست إلى هذا النوع من الحساب مما يدل على أنه كان معروفاً فى أيامه أى قبل سنسورينوس بقرن واحد وقبل ثيون بقرنين. وكتب يقول: «ثمانى سنوات مصرية محسوبة بدون معدل الخطأ تساوى دورة كاملة من دورات كوكب الزهرة»(٤)، أما الإختلاف البسيط بين خمس سنوات اقترانية لكوكب الزهرة وثمانى سنوات أرضية بحساب ٣٦٥ يوماً للسنة كانت طبقاً لما ذكره كتَاب مهملة من جانب المصريين بقصد تبسيط الحساب.

وفى كتاب ايساجوجى المسمى جيمينوس يقال بصورة تعبيرية إن عيد ايزيس يتنقل بين الفصول على مدى١٤٦٠ سنة.(٥)

يمكننا توضيح هذه الفرضية بصورة أكثر تفصيلاً لاثبات أن كوكب الزهرة قد لعب دوراً هاماً فى التقاويم المصرية فى الفترة التى أعقبت القرن السابع قبل الميلاد.

كان المرجع الذى أخذ عنه جيمينوس هو اراتوستين الذى عاش فى القرن السابع قبل الميلاد واستخدمه الملك بطليموس الثالث ايورجيتس فى مكتبة الاسكندرية. وفى المرسوم الكانوبى الذى نشر تحت اشراف هذا الملك ذاته يذكر أن عيد نجم ايزيس وغيره من الأعياد تنتقل بين فصول السنة وبترتيب يجعل التقويم الفلكى للسنين يتمشى مع النظام الطبيعى الذى يجب أن يسير عليه ظهور النجم الكلبى. وبذلك ينتفى الفرق بين التقويم الفلكى للسنين الذى يعتمد فى حسابه على نجم ايزيس وذلك الذى يعتمد فى حسابه على الشعرى اليمانية إذا ما أضفنا يوماً على كل أربع سنوات من أعوام ايزيس، وبذلك يتعدل التقويم الفلكى فى السنة التى يظهر فيها النجم فى مكانه الثابت.

ولقد نشأ الخلط لدى المفسرين بين هذا المرسوم وبين السنة الفلكية للشعرى اليمانية لأن المفروض أن النجم ايزيس والنجم الكلبى نجم واحد وأن كليْهما هو الشعرى اليمانية. ولكن نجم ايزيس هو كوكب الزهرة على حد قول بلينى.(٦)، وربما كان المرسوم الكانوبى يتحدث عن نجمين مختلفين فالنص اليونانى للمرسوم (٧) يذكر أن الاحتفال بالعيد العام والموكب سوف يتم كل عام... فى اليوم الذى يظهر فيه نجم ايزيس، وهو يعتبر طبقاً للكتاب المقدس، رأس السنة الجديدة... ولكن إذا ما حدث أن تغير ظهور النجم فى اليوم المعلوم خلال كل أربع سنوات فإن العيد والموكب لن يتغير موعده،» ويجب أن يعقد الاحتفال فى نفس اليوم المحدد فى المرسوم، ويجب أن يساير التقويم الفلكى «الاتفاق الحالى (المعمول به) فى العالم لكى لا تقام أى احتفالات شعبية صيفية فى الشتاء تبعاً لظهور النجم الذى يتغير مرة كل أربع سنوات، ولكى لا تأتى الاحتفالات التى تأتى دائماً فى الصيف حالياً تأتى فى الشتاء فى الأزمنة المقبلة كما سبق أن حدث». وصدر الأمر بإضافة يوم كل أربع سنوات لكل ثلاثمائة وستين يوماً إلى جانب الأيام الخمسة التى كانت قد أضيفت للسنة من قبل.

وفى التفسير الشائع للمرسوم يعتبر كل من نجم ايزيس ونجم الكلب الأصغر تسميات للشعرى اليمانية، ولم يسبق أن طرح سؤال عما إذا كان النجم ايزيس هو هو نجم الكلب الأصغر. بيد أن بادج نفسه، ادرك حينما ترجم النص اليونانى أن الاشارة هنا كانت إلى جرمين سماويين مختلفين، وبالتالى زعم أن أحدهما يقصد به الشمس.

وبالإضافة إلى ذلك، قد تدلنا فكرة بسيطة على أن تاريخ البزوغ الفلكى للنجم الثابت الشعرى اليمانية قد يتحرك فيتغير موعده فى تقويم سنوى لسنة مكونه من ٣٦٥ يوماً، فيتقدم ظهوره يوماً كل أربع سنوات، ولكنه لا يتردد بين الفصول بل يحدث ذلك الظهور الفلكى دائماً فى نفس الوقت فى الصيف. أما البزوغ الفلكى لكوكب الزهرة فإنه يتغير ويتردد بين الفصول مرة فى الصيف وأخرى فى الخريف ثم فى الربيع ثم فى الصيف، وعلى مدى أيام السنة البالغ طولها ٣٦٥,٢٥ يوماً فيتأخر ظهوره غالباً يومين كل ثمانى سنوات أو يوما واحداً كل أربع سنوات. بناء على ذلك يكون النجم ايزيس الذى شرحه بلنى هو كوكب

الزهرة، وتكون العبارة القائلة بأن البزوغ الفلكي في مختلف الفصول لا يترك مجالاً للشك في أن النص اليوناني للمرسوم يتحدث عن كوكب الزهرة وعلاقته بالنجم الكلبي أو الكلب الأصفر.

مع ذلك فإن النص الديموطيقي يتحدث عن الشعرى اليمانية ثم يشير إلى النجم الذى «يتأخر يوماً كاملاً كل أربع سنوات»، ولكنه يشير بعد ذلك إلى حقيقة أن «الاحتفالات التى تقام فى مصر والتى يجب الاحتفال بها فى الشتاء قد يحتفل بها فى الصيف لأن المضىء (أى النجم) يغير مكانه يوماً واحداً كل أربع سنوات...»(٨)

كان القصد الرئيسي هو تحرير التقويم السنوى الفلكى من الارتباط بعملية رصد وقت ظهور كوكب الزهرة، وذلك بادخال سنة كبيسة كل أربع سنوات، وأصبح رأس السنة الجديدة (أول شهر تحوت) مرتبطاً بكوكب الزهرة، مختلفاً عن رأس السنة الجديدة المرتبط بالشعرى اليمانية، واستخدم لذلك لفظان مختلفان: تيباىء ارنبت ووابىء ارنبت.

ولئن كان موعد الاحتفال برأس السنة قد تغير موعده على مدار التقويم الفلكى فإن الاحتفال بالسنة الجديدة قد تغير موعده على مدار فصول السنة. وكان الغرض من الاجتماع الكهنوتى هو العمل على توحيد موعد الاحتفال برأس السنة مع موعد الاحتفال بالعام الجديد، وكان الدافع إلى ذلك التساؤل عن معنى الاحتفال بالبزوغ الفلكى للشعرى اليمانية طوال ١٤٥٧ سنة كل ١٤٦١ سنة فى أيام ليست هى أيام البزوغ الفلكى، والاحتفال به فى أربع سنوات متتالية فقط فى وقته الصحيح طوال هذه المدة، هل يمكن أن نسمى يوماً من أيام شهر اغسطس أو ديسمبر يوم الانقلاب الربيعى؟

لم يكن للإصلاح الذى أدخله بطليموس ايروجيتس والكهنة فى كانوبوس أى أساس متين، والسبب فى ذلك مشروح فى دراسات جيرمانيكوس.(٩) وقال هذا المعلق إن ملوك مصر (فى زمن الفراعنة البطالسة) اعتادوا أن يَقْسِموا فى متحف ايزيس أن يعملوا على جعل السنة ٣٦٥ يوماً وألا يدخلوا أى أشهر أو أيام بينية (نسىء) قد تؤدى إلى اضطراب فى الاحتفالات، وربما كان هذا مقبولاً لو أن القصد من وعود الملوك هو أن يستمر الاحتفال بالكوكب فى المعبد الذى أقيم لذلك الكوكب.

فلماذا إذاً يتحتم التغاضى عن نجم الشعرى اليمانية فى الاصلاح الذى قد يجعل اجازة البزوغ الفلكى للنجم تتفق مع ظهوره الفعلى؟

كما سبق أن ذكرنا، كا ن القصد من تعديلات بطليموس ايروجيتس التى ادخلها يوليوس قيصر بعد ذلك بقرنين هو عمل تقويم فلكى بإضافة يوم تعديلى كل أربع سنوات. أصبح هذا التقويم سارى المفعول فى الاسكندرية فى عهد الإمبراطور أغسطس، وربما كان ذلك حافزاً للمؤرخ سنسورينوس أن يكتب بعد عهد الإمبراطور اغسطس بقرنين من الزمان يقول إن خطأ الربع يوم فى التقويم قد أدى إلى تراكم سنة كاملة كل دورة من السنين تبلغ ١٤٦١ سنة (طول كل سنة ٣٦٥ يوماً) وأضاف أن هذه الفترة التى ترتبط بنجم الشعرى اليمانية كانت مطبقة فى مصر. فقد ظل المصريون خارج مدينة الاسكندرية يحتفلون بالبزوغ الفلكى لكوكب الزهرة حفاظاً على أن تكون أوائل السنين فى ذلك اليوم، وأن يكون عدد أيام عامهم الكامل ٣٦٥ يوماً، ولكى يتحرك عيدهم ببطء بين الفصول. وكتب كلوديوس بطليموس أكثر العبارات وضوحاً بهذا الشأن والتى سبق أن ذكرنا نصها بان كل ثمانى سنوات مصرية تمثل بدون «معامل خطأ واضح» خمس دورات كاملة أو سنوات إقترانية لكوكب الزهرة. ولكن نظراً لأن هناك فرقاً يبلغ ٤ ,٠ من اليوم بين هاتين الفترتين ربما تنشأ مسألة السبب فيما يحدث خلال فترات أطول من تضاؤل هذا الاختلاف بحيث لا يصبح ظاهراً مما يجعل سنة كوكب الزهرة تفترق يوماً عن السنة التى طولها ٣٦٥ يوماً، ثم بعد دورة أخرى من السنين تفترقان يوماً أخر وهكذا، وربما كانت السنة الاقترانية لكوكب الزهرة فى الأيام الماضية تختلف بأقل من ١ ,٠ يوماً عن مدتها فى الوقت الحاضر لو أن مدار الزهرة الاهليجى استمر فى التحول التدريجى ليقترب من الشكل الدائرى. وفى واقع الأمر فإن مسألة معادلة دورة الثمانى سنوات التى طول السنة منها ٣٦٥ يوماً أو ٢٩٢ يوماً لم تكن قاصرة على حسابات المصريين وحدهم.

الفترة الاقترانية لكوكب الزهرة والأعياد

ظل رصد يوم البزوغ الفلكى لكوكب الزهرة أو عشتار معمولاً به لدى البابليين(١) وشعب المايا(٢) والانكا(٣) وهى شعوب يعيش بعضها فى نصف الكرة الشمالى والآخر فى نصف الكرة الجنوبى وتفصل بينها محيطات، وهناك بعض السجلات المحفوظة لهذه الأرصاد. والمعروف أن شعب المايا أيضاً كانوا يسيرون على التقويم الفلكى المبنى على كوكب الزهرة، ومن الغريب أن علماء المصريات لم يستلفت أنظارهم أن «شعب المايا كانوا يحسبون سنوات كوكب المريخ على فترات من السنين طول كل منها خمس سنوات بما يساوى ٢٩٢٠ يوماً التى تساوى ثمانى سنوات طول كل منها ٣٦٥ يوماً»(٤) كذلك لم يرجع دارسو التقويم الفلكى الذى يعمل به المايا إلى التقويم المصرى.

كذلك عرف شعب المايا، قبل اكتشاف امريكا بأكثر من ألف عام الطول الحقيقى للسنة الشمسية أو للسنة المدارية.(٥) ومع ذلك فإنهم لم يرفضوا العمل بالتقويم المبنى على أساس حسابات كوكب الزهرة، بل إنهم واصلوا العمل به حتى بعد اكتشاف أمريكا. وهذه الظاهرة تقابل تلك الظاهرة التى وجدناها فى نظام التقويم المزدوج الذى كان متبعاً فى مصر فى عهد الأسر البطلمية.

ويظهر فى التقويم المبنى على كوكب الزهرة تمشيه مع فترات السنوات الثمانى التى تتكون كل سنة منها من ٣٦٥ يوماً. ويمكننا بسهولة تقسيم فترة الثمانى سنوات إلى قسمين يتكون كل منها من ٢.٥ سنة اقترانية لكوكب الزهرة، وبناء على هذا التقسيم يعتبر الالتقاء الصغير، ومنتصف الالتقاء الكبير موعداً للتقسيم، وتكون سنة كوكب الزهرة تبعاً لذلك مساوية لأربع سنوات مصرية طول كل منها ٣٦٥ يوماً.

ولقد تحدث هورابوللو عن سنة مصرية كان طولها أربع سنوات(٦). وظهر منذ البداية أن هذه العبارة غريبة وبخاصة بالنسبة للمعلقين الذين دأبوا على التأكيد على أنه لا توجد مثل هذه الفترات الطبيعية، الأمر الذى سيأتى تفسيره.

إذ إن الكتاب القدامى والمحدثين الذين تعجبوا من عبارة هورابوللو قد فاتهم أن لدى اليونانيين أيضاً سنة عظمى أو سنة اوليمبيا التى كانوا يسيرون عليها منذ القرن الثامن قبل الميلاد، والتى كان الظن، فى بادىء الأمر أنها تأتى كل ثمانى سنوات، (٧) ثم فيما بعد كل أربع سنوات وكانت هناك ثلاثة أعياد هى عيد ستبثاريا وعيد هيرويس، وعيد شاريلاً التى، تأتى كل ثمانى سنوات حتى وقت متأخر، أما عيد دافنيفوريا الذى كان يحتفل به فى طيبة باليونان فقد كان يأتى أيضاً كل ثمانى سنوات أما عيد بيثيا الذى كان يحتفل به كل ثمانى سنوات فقد تغير فى القرن السادس وأصبح الاحتفال به كل ست سنوات. وكذلك مسيرة باناثينيا فى بارثينون فقد كان الاحتفال بها يتم فى أثينا كل أربع سنوات.

ولا يستطيع المؤرخون الذين يدرسون مسألة الاحتفالات التى تعقد كل ثمانى سنوات أو كل أربع سنوات أن يجدوا تفسيراً لهذا، ويتساءلون: لماذا يأتى العيد مرة كل ثمانية أعوام أو كل أربعة أعوام إذا لم يكن هناك ما يربط بين هذه الفترات والحياة الزراعية لتلك الشعوب؟

وذكر أحد الكتاب الثقاة وهو برناردينودى ساهاجون عن المكسيك يقول«يحتفل السكان الأصليون هنا بعيد يسمى أتمالكوليز»(٨) وهناك احتفالات لدى الهنود الأمريكيين مرتبطة بالبزوغ الفلكى لكوكب الزهرة، وقد استمر الاحتفال به حتى وقتنا الحاضر، وتمارس فى اوساط شعب المايا الكثير من المراسم الخاصة المرتبطة بالبزوغ الفلكى لكوكب الزهرة، وهى قائمة حتى اليوم دون أى تغير.(٩)

وللأعياد المصرية القديمة التى كان الاحتفال بها يتم على فترات كل ثمانى سنوات ثم كل أربع سنوات أصل واحد مشترك مع أعياد المكسيك واليونان، فقد كانت مرتبطة بالسنة الاقترانية لكوكب الزهرة ويسمى «عيد ملكة السماء».(١٠)

وهناك ارتباط بين السنة المصرية التى تحتوى على ٣٦٥ يوماً وبين كوكب الزهرة بحيث إن البزوغ الفلكى للكوكب يحدث فى أول شهر تحوت كل ثمانى سنوات فيكون يوم السنة الجديدة. ويلاحظ أن البزوغ الفلكى لكوكب الزهرة بعد الثمانى سنوات يتأخر يومين، ويرتبط هذا بالفصول التى يمكن رصدها فى ساعات البزوغ الفلكى أو الغروب الفلكى لأى نجم

جنوبى. ولكى نقارن بين البزوغ الفلكى أو الغروب الفلكى لكوكب الزهرة مع بزوغ وغروب أى نجم من النجوم الثوابت وقع الاختيار على ألمعها فى السماء وهو الشعرى اليمانية. وهناك إشارات رمزية فى الرسوم المصرية على أنهما يعملان أو يتحركان معاً كفريق مترابط.(١١) ويشير الرسوم الكانوبى بتعبير بلاغى عن الصلة بين حركة النجم ايزيس بالنسبة لنجم الكلب الأصغر أو الشعرى اليمانية.

ولقد أدى الخلط بين كوكب الزهرة والشعرى اليمانية إلى الانصراف عن الحسابات الخاصة بالتقويم الفلكى فى مصر. وإذا لم يكن هذا كافياً، وهو فى الحقيقة كاف، إذاً تصبح التعديلات التى أدخلت على التقويم الفلكى فى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، وفى خلال القرنين الثامن والسابع من الألف الأولى قبل الميلاد، عقبة تعوق أى محاولة للحساب باستخدام الشعرى اليمانية، أو أى طريقة أخرى ككشاف للتتابع الزمنى.

ولكن إذا ما رجع القارىء إلى كتابنا: عوالم فى تصادم فسوف يجد الكثير من الأدلة على التغيرات العنيفة والقوية فى نظام الطبيعة فالساعات الشمسية أو المزاول التى وجدت فى الآثار المصرية لا تظهر الوقت الحقيقى فى خطوط العرض الواقعة عليها، والساعات المائية لا يمكن تشغيلها، وتشير النصوص المنقوشة سواء فى بابل أو مصر إلى زمن كان فيه أطول يوم من السنة يصل إلى ثلاثة أمثال طول أقصر يوم، وهى نسبة تغيرت واختلفت باختلاف العصور، وكان القطب الفلكى أو السماوى الشمالى فى وقت من الأوقات فى مجموعة الدب الأكبر، ولكن منذ القرن الثامن قبل الميلاد تغير القطب السماوى وأصبح فى مجموعة الدب الأصغر، وحدث التغير فجأة، وكان الاعتدالان الربيعى والخريفى قد انتقلا عن موعديهما ٤ . ٣٠ يوماً، واقتصر الانتقال أو التأثير فى ظروف أخرى على تسعة أيام فقط، وتغيرت اتجاهات واجهات المعابد فى كل من اليونان وفلسطين ومصر والسودان، وكان طول الشهر يتغير من وقت لآخر، كما حدث تغير فى عدد أيام السنة كذلك(فيشير حجر بالرمو إلى سنة طولها ثلاثمائة وعشرون يوماً فى عهد الدولة القديمة».(١٢) ولم يخل الأمر من تغير فى طول اليوم، وكانت التقاويم الفلكية تعدل من وقت لآخر وتنقل بداية العام، وهذا هو ما حدث فى معظم الحضارات القديمة التى تتأثر

دائماً بالاضطرابات الأرضية.

أمام كل ذلك، وأمام الأدلة المتجمعة لدينا عن التغيرات المفاجئة فى الأحوال الطبيعية كما وردت فى كتابنا «الأرض فى اضطراب» ما هى القوة البنائية الموجودة فى ذلك الصرح الضخم من البنيان الفلكى للتابع الزمنى، على فرض عدم تعرض أى ظاهرة من الظواهر الطبيعية للتغير، على الأقل منذ أقدم عصور التاريخ؟ ولكننى عمدت عن قصد أن أتحقق من صحة التتابع الزمنى المبنى على الدورات الفلكية دون الرجوع إلى المناقشات التى توجد أصلاً فى كتبى الأخرى.

ولتاريخ العالم أعمدة ثلاثة

يعتبر التتابع الزمنى على أساس فلكى إطاراً للبناء العلمى للتاريخ المصرى وبالتالى بناء تاريخ العالم. ففى إطار الأسر التى وضع مانيثو ترتيبها منذ قرون عديدة، وضع كل فرعون فى مكان من أماكن ذلك النسق الذى وضعه مانيثو. ومثال ذلك رمسيس الأول من الأسرة التاسعة عشرة الذى لم يذكره مانيثو هو الذى حدد ثيون شخصيته بأنها شخصية مينوفريس وحدد ثيون الفترة التى جاء فيها مينوفريس بأنها فترة الدورة الفلكية طبقاً للمؤرخ سنسورينوس، وحدد عام ١٣٢١ ق.م على أنه عام رمسيس الأول وكانت فترات حكم ملوك القرن الثامن عشر قد حسبت بوسيلة عائمة غير دقيقة على أساس الأعياد أو الاحتفالات القمرية.

ولقد قام المتخصصون فى التتابع الزمنى أو التأريخ على أساس فلكى بعمل حساباتهم وأعلنوا نتائجهم المبنية على الخبرة. وأخذ المتخصصون فى أشغال الفخار هذه النتائج التى توصل إليها المتخصصون فى الدورات الفلكية على أنها أساس قوى يبنون عليه دراساتهم. وتوارت الصعوبات وأصبحت النتائج التى يصل إليها المتخصصون يخدم بعضها البعض ويثبت بعضها الآخر، ومن ثم أصبح لدى هؤلاء المتخصصين أدلة علمية بأن الانساق التى وضعوها قد بنيت على أسس دقيقة ودعمت من جميع جوانبها، واستعار قراء النصوص المنقوشة بالخط المسماوى التواريخ من النصوص الهيروغليفية، وأخذ القائمون بتأويل الكتاب المقدس عن علماء

الآثار، وأخذ المؤرخون أو رجال التاريخ عن الجميع. ومن هنا ظهر للوجود نظام عظيم متعمق فيه كل التشابه مع الماضى الحقيقى.

ويمكن القول بأن نظام الدورة الفلكية المستخدم فى الترتيب الزمنى للعصور القديمة نظام غير واقعى، وأن مينوفريس معروف، بصرف النظر عن شخصيته، وأن قوائم مانيثو قوائم مربكة ومحيرة، وعلى ذلك فإن تتابع أزمنة مصر القديمة قد انبنى على هذه الأعمدة الثلاثة وانبنى تاريخ العالم كله على التتابع الزمنى فى مصر.

هوامش الفصل الثالث

كوكب الزهرة

١- M. knapp, Pentagramma Veneris (Basel, 1934), pp 22 فى أثناء طباعة هذا الكتاب كان كناب أحد أعضاء قسم الفلك فى جامعة بازل بسويسرا

٢- رغم أن السنة الاقترانية للزهرة ٥٨٤ يوما فإن طول السنة الاقترانية الواحدة يختلف بضعة أيام من سنة لأخرى تبعا لموقع كوكب الزهرة النسبى من الشمس.

٣- حتى وقت قريب كانت تحسب ٦٠٩٧ . ٩١٩ . ٢ يوما وأخيرا وبعد قياسات الرادار تبين أنها ٥٧ . ٩١٩ . ٢

4- Claudius Ptolemy, Almagest, Tenth Book, Fourth Chapter.

5- Geminus, Isagage, Chap. 8.

6- Pliny, Natural History, 11, 37.

٧- نقلا عن ترجمة Budge لكتاب The Decrees of Memphis and Canopus, Vol. III, The Decree of Canopus (London 1904) Der demotische Text der Priesterdakrete von Kanopus und Memphis (Rosettana) (Heidelberg, 1922) pp 70-76, 89.

٨- نقلا عن ترجمة S. Sharp لكتاب the Decre of Canopus in Heiroglyphics and Greek (London 1904) كما ورد ذكره فى كتاب شبيجلبرج السابق الإشارة إليه ص ٧١

9- Germanicus translation of Aratus Phaenomena ed Buhle p. 71.

١- لمعرفة البيانات الخاصة بالكتاب المقدس يرجع إلى:S. Longdon and J.K. Fotheringham, The Venus Tablets of Ammizaduga (London 1928) for biblical data on these tablets.

٢- "احتفظ المايا بسجل عن الأيام التى ظهر فيها نجم الصباح لأول مرة فى السنة (البزوغ الفلكى) وهى بالغة الدقة لدرجة أنها تكاد تكون خالية من الأخطاء" هذا ما كتبه رامون أى زامورا الذى قام فى القرن السادس عشر بدراسة عقائد وتقاليد شعب المايا، يراجع فى ذلك كتاب E. Seler Gesammelte Abhandlugen zur amerikanischen Sprach-und Altertumskunde (Berlin, 1902), I, 624.

3- E. Nordenskiöld, The Secret of the Peruvian Quipus (Göteborg, 1925 pt, II, p. 35.

4- J. E. Tompson, A Correlation of the Mayan and European Calendres, publications of the Field Museum on Natural History, Anthropological Series. Vol. XVII (Chicago, 1927), C. Ricci, Las Pictografias de las Grutas Cordobesasy su interpretaciόn astronόmico-religiosa (Buenos Aires, 1930), p. 22.

٥- أنظر ترجمة جيتس W. Gates لكتاب ديجودى لاندا Diego de Landa (بالتيمور ١٩٣٧) Yucatan before and after the Conquest ص ٥٩، أنظر كذلك كتاب جيتس The Dresden Codex, Maya Society Publications, No 2 (1932)

٦- "السنة عند المصريين بأربع سنوات معدودات) هذا ما قاله هور بوللو فى الجزء الثانى ص ١٤٩، ورد ذكره فى كتاب.J. G. Wilkinson in G Rawlinson, The History of Herodotus (London, 1858-60), II, 285.

٧- كانت فترة السنوات الثمانى طويلة وغير مناسبة، ولذا نفترض أن اتباعها قد جاء نتيجة للاحتفال ببداية ومنتصف الفترة. تماما مثلما كان هناك احتفال ببداية ومنتصف الشهر وحدث التغير أوليمبيا على الأقل عام ٧٧٦ ق.م، راجع E. N. Gardiner Olympia (Oxford, 1925) p. 71 وأنظر

أيضـا L. R. Farnell The Cults of the Greek States (Oxford 1896-1909), IV, 293, and J. G. Frazer, The Dying God (London 1911), p. 78.

٨- Fray Bernadino de Sahagun, A History of Ancient Mexico, I, ترجمة F. R Bandelier (ناشفيل ١٩٣٢) ملحق الكتاب الثانى تقرير عن الأعياد التى يحتفل بها كل ثمانى سنوات.

٩- R. Linton, The Sacrifice to the Morning Star by the Skidi Pawnee, نقلا عن مذكرات غير مطبوعة بقلم G. A. Dorsey المتحف العلمى للتاريخ الطبيعى. قسم الأنثروبولوچيا (شيكاغو ١٩٢٢)

١٠- سفر جيرميا الاصحاح ٤٤ - الآية ١٨

١١- W. Max. Müller, Egyptian Mythology (Boston, 1918), p. 56. وجاء فيه أن الشعرى اليمانية أو الكلب الأصفر كان فى أول الأمر هو النجم هاتور أو ايزيس، ومما يستحق الذكر هنا أيضا ما يكشف لنا هنا عن الترابط أو التعارض بالأحرى مع حورس باعتباره نجمة الصباح، وبذلك تكون العلاقة غريبة، مما لم يمكننا العثور على تفسير له فى النصوص.

12- L. Borchardt, Quellen, II, 33, note.

خريطة زمنية

السنة ق.م	مصر	اليونان	سوريا وفلسطين	بلاد فارس	السنة ق.م
٥٥٠		سولون (٦٤٠ –٥٥٨ ق.م)			٥٥٠
٥٤٥				كورش يغزو ليدياويلسركرويسيس	٥٤٥
٥٤٠					٥٤٠
٥٣٥			قرار كورش بعودة اليهود من السبى.	كورش يغزو بابليون مع ابنه وشريكه فى الحكم نابونيدس. وصول بلشازار نهاية الامبراطورية البابلية الجديدة (كلديا).	٥٣٥
٥٣٠					٥٣٠
٥٢٥	وفاة أمازيس (٥٢٥ ق.م)، وخلفه بسماتيك وغزو قمبيز لمصر (٥٢٥ ق.م).			قمبيز (٥٢٩ ق.م –٥٢١ ق.م) يغزو مصر.	٥٢٥
٥٢٠			زروبال (٥٢٠ ق.م ومابعدها)	دارا الأعظم يتولى الحكم (٥٢١ ق.م –٤٨٥ ق.م)	٥٢٠
٥١٥			عصر الأنبياء زكريا وحجى بداية العصر المسمى «الحلف الثانى» الذى انتهى سنة ٧٠م.	دارا الأول يزور مصر (٥١٧ ق.م)	٥١٥
٥١٠	دارا يحفر قناة تصل إلى خليج السويس، ويقر القوانين المصرية إقامة نظام الحكم العسكرى الدينى فى المواقع الحدودية بالواحات وقاعدة حدودية يهودية فى جزيرة فيله.				٥١٠
٥٠٥		وفاة بيتاجوراس ٥٠٧.			٥٠٥
٥٠٠					٥٠٠
٤٩٥					٤٩٥

السنة ق.م	مصر	اليونان	سوريا وفلسطين	بلاد فارس	السنة ق.م
٤٩٠		معركة عند الماراثون			٤٩٠
٤٨٥	اكسركسيس يحكم مصر والسودان، الكاهن الأعظم امنحوتب.			اكسركسيس فى الحكم (٤٨٥ ق.م-٤٦٥ ق.م)	٤٨٥
٤٨٠				رواية أستير	٤٨٠
٤٧٥				حروب وإقامة مدينة برسيبوليس	٤٧٥
٤٧٠	اجراءات محاكمة نهب القبور. استغلال حكومة غرب طيبة.				٤٧٠
٤٦٥	ثورة ايناروس ضد الفرس (٤٦٠ ق.م) وتولى امارتايوس الأول.	قوات يونانية لمساعدة ايناروس		ارتاكسرلسيس الأول (٤٦٥ ق.م -٤٢٤ ق.م)	٤٦٥
٤٦٠	تعيين ارساميس حاكما فارسيا (مرزبانا) على مصر. خلع امنحوتب لمساعدته لايناروس قام بخلعه القائد العسكرى فنحاس.	بداية عصر بريكليس (٤٦٠ ق.م -٤٢٩ ق.م)			٤٦٠
٤٥٥	ارساميس يعين أح حابى حاكما له فى مصر.	وفاة أخيل (ولد ٥٢٥ ق.م، وتوفى ٤٥٦ ق.م)			٤٥٥
٤٥٠	ارساميس يعين بسماتيك حاكما على جنوب مصر ونخت نيبف				٤٥٠
٤٤٥	حاكما على شمال مصر، وبسماتيك يرسل قمحا إلى أثينا ويقيم المرتزقة اليونانيين والكاريين فى أبو سمبل.	الحرب المقدسة بين اثينا واسبارطه (٤٤٩ ق.م-٤٤٨ ق.م) توقيع معاهدة سلام لمدة ثلاثين عاما (٤٤٥ ق.م)	وصول نحميا إلى اورشليم (٤٤٥ ق.م) معارضة الياشيب الكاهن الأعظم وملاخى النبى.		٤٤٥
٤٤٠	نخت نيبف حاكما لمصر، وتعيين				٤٤٠
٤٣٥	حريحور كاهنا أعظم (٤٣٨ ق.م).				٤٣٥

السنة ق.م	مصر	اليونان	سوريا وفلسطين	بلاد فارس	السنة ق.م
٤٣٠	نيسونبداد يعين حاكما على تانيس.	حرب البلوبونيز (٤٣١ ق.م -٤٠٤ ق.م)	زيارة نحميا الثانية (٤٣٣ ق.م)		٤٣٠
٤٢٥					٤٢٥
٤٢٠	ارساميس يعين نخت حورحب حاكما على مصر (٤٢٤)			دارا الثاني -نوثوث (٤٢٤ ق.م -٤٠٤ ق.م) يعتلي العرش بمساعدة ارساميس.	٤٢٠
٤١٥	حريحور يرسل وبنامون إلى ببلوس (٤١٩ ق.م).		عزرا الكاتب يصل إلى اورشليم. (٤١٧ ق.م)		٤١٥
٤١٠	تدمير المعبد اليهودي في فيلة.				٤١٠
٤٠٥	وينامون ينشئ معبد أغورمي في سيوه. نخت حورحب يرثي ارساميس.	سوفوكليس (المولود ٤٩٦ ق.م) يوربيبدس (المولود ٤٨٩ ق.م)			٤٠٥
٤٠٠	اميرتايوس الثاني يستولي على الحكم.	زينوفون في المسيرة الصغرى لكورش، ثيوسيديدس ٤٦٠-٤٠٠ ق.م.		ارتاكسركسيس الثاني (٤٠٤ -٣٥٨ ق.م) انابسيس الشقيق الأصغر لكورش	٤٠٠
٣٩٥	نفريتس يقيم حكما وطنيا.	محاكمة سقراط وموته (٣٩٩ق.م)			٣٩٥
٣٩٠					٣٩٠
٣٨٥	اكوريس (٣٩٣ - ٣٨٠ ق.م). الكاهن الأعظم بسوسينس	حرب كورنثه (٣٩٤ -٣٨٧ ق.م)			٣٨٥
٣٨٠					٣٨٠
٣٧٥	نيكتانيبو الأول (رمسيس الثالث -نخت أى نب) على العرش ٣٧٩ ق.م)				٣٧٥

السنة ق.م	مصر	اليونان	سوريا وفلسطين	بلاد فارس	السنة ق.م
٣٧٠	فرنابازوس يسحب جيوشه من آسيا الصغرى ويواجه معارضة من جانب شابرياس، ويلقى مساعدة من ابيقراطس.				٣٧٠
٣٦٥					٣٦٥
٣٦٠	تاشوس (رمسيس الرابع).	اجيسيلاوس يغادر مصر (٣٦١ ق.م)			٣٦٠
٣٥٥	نيكتانيبو الثاني (رمسيس السادس) يبدأ سنوات حكمه الست عشرة.			ارتاكسركسيس الثالث (٣٥٥ ق.م – ٣٣٨ ق.م)	٣٥٥
٣٥٠	بنيوزيم الكاهن الأعظم يعيد تكفين مومياء نيكتانيبو الأول (رمسيس الثالث).	بيموثين ضد فيليب (٣٥١ ق.م)			٣٥٠
٣٤٥					٣٤٥
٣٤٠	نكتانيبو يفر أمام ارتاكسركسيس الثالث الغازى المنتصر.	ارسطو فى مقدونيا (٣٤٢ ق.م –٣٣٢ ق.م)		ارتاكسركسيس الثالث يهزم نيكتانيبو الثانى	٣٤٠
٣٣٥	السيطرة الفارسية الثانية على مصر (٣٤٢-٣٣٢ ق.م)، بيتوسيريس.	الاسكندر يخلف فيليب (٣٣٦ ق.م)		دارا الثالث (٣٣٦ ق.م –٣٣٠ ق.م)	٣٣٥
٣٣٠	الأسكندر فى مصر. إنشاء الاسكندرية. استقبال الكاهن الأعظم منخابار له فى سيوه.			نهاية الامبراطورية الفارسية (٣٣١ ق.م)	٣٣٠

السنة ق.م	مصر	اليونان	سوريا وفلسطين	بلاد فارس	السنة ق.م
٣٢٥	بطليموس ابن لاجوس يحكم مصر	فيليب ارهيدايوس		الاسكندر في وسط آسيا ووادي السند	٣٢٥
٣٢٠	بطليموس الأول (سوتر) يتوج ملكا على مصر	العصر الهلينيسي يبدأ في التاريخ اليوناني.		الاسكندر يموت في بابل (٣٢٣ ق.م)	٣٢٠
٣١٥	بطليموس الأول والحرب مع سيليوشس.				٣١٥
٣١٠		سيليوشس الأول يبني انطاكيه.		بيروسوس يؤلف تاريخ بابل وأشور	٣١٠
٣٠٥					٣٠٥
٣٠٠	اقليدس (٣٠٠ ق.م ومابعدها)				٣٠٠
٢٩٥	بينوزيم الثاني كاهنا أعظم.				٢٩٥
٢٩٠					٢٩٠
٢٨٥	بطليموس الثاني "فيلا دلفوس" (٢٨٥ ق.م – ٢٤٦ ق.م)				٢٨٥
٢٨٠	مانيثو يؤلف تاريخ مصر.				٢٨٠
٢٧٥	الكاهن الأعظم سي أمون يقيم مبان في معفيس ويغلق مخبأ الموميات الملكية ويشرف على نقل مسلات تحتمس الأول من هليوبوليس إلى الاسكندرية، ويبني لنفسه قبرا في سيوه.				٢٧٥
٢٧٠		ارستارخوس في ساموس.			٢٧٠

السنة ق.م	مصر	اليونان	سوريا وفلسطين	بلاد فارس	السنة ق.م
٢٦٥					٢٦٥
٢٦٠					٢٦٠
٢٥٥	اراتوثينس يصبح أمينا لمكتبة الاسكندرية.				٢٥٥
٢٥٠					٢٥٠
٢٤٥	ارشميدس في الاسكندرية ترجمة سبتاجنت للكتاب المقدس.	ارشميدس الساراقوزى			٢٤٥
٢٤٠					٢٤٠
٢٣٥	بطليموس الثالث (إيورجيتس) (من ٢٤٦ ق.م -٢٢١ ق.م)، المرسوم الكانوبى (٢٣٨ ق.م).	الحرب اليونانية الأولى			٢٣٥

عصور فى فوضى

فهرس السفر الخامس

عصور فى فوضى

السفر السادس

رمسيس الثانى وعصره

ترجمة:

أحمد عمر شاهين

مقدمة

كان الاكثر صوابا، أن يكون عنوان هذا الكتاب "رمسيس الثانى ونبوخذ نصّر"، حيث لعب الاثنان ادوارا متناوبة فى هذا المجلد أو فى هذه الفترة من التاريخ.

إن الكشف، بهذه الطريقة، عن موضوع الكتاب - معاصرة أثنين من الشخصيات التاريخية القديمة المشهورة يفصلهما سبعمائة سنة فى التاريخ التقليدى - يضيف إشارة إلى اعادة البناء الثورية لتسلسل التاريخ القديم بحكم الضرورة، ومع ان العمل الكلى لإعادة بناء التاريخ، يغطى فترة تزيد عن ١٢٠٠ سنة، فإن كل مجلد نُظِّم بطريقة تقدم، بقدر الامكان، جزءاً مستقلا من التاريخ القديم.

هناك جهد قد بذل، فى الصفحات التالية، لإعادة بناء السيطرة الكلدانية فى الشرق الاوسط. الفترة التى عُرفت فى التاريخ أيضا بفترة الامبرطورية البابلية الجديدة. عُرف "نبوخذ نصّر" في الكتاب المقدس بأنه ملك بابل والكلدانيين، مع أن الكلدانيين لم يكونوا من سكان بابل.

المقولة، التى أقدمها هنا بالدلائل والبراهين، إن ما يسمى بالامبراطورية الحيثية التى لُقبت "بالامبراطورية المنسية"؛ لأنها لم تُكتشف إلا منذ أقل من مئة سنة، ليست فى الواقع إلا المملكة الكلدانية، بل واكثر من ذلك، فإن الكتابة التصويرية التى وُجدت على الآثار المكتشفة على شطآن اسيا الصغرى وحتى بابل، خاصة فى وسط الاناضول وشمال سوريا، هى فى الواقع الكتابة الكلدانية، وما أباطرة الحيثيين إلاّ أسماء بديلة لملوك الاسرة الكلدانية العظام فى بابل. وما الامبراطورية التى وُضعت فى أقصى فترات مجدها فى القرنين الرابع عشر والثالث

عشر قبل الميلاد وتسسببت فى صعوبات تاريخية لا تحصى، ودهشة كبيرة وسط علماء الآثار، إلا الامبراطورية الحيثية التى اختفت بعد ان عاشت فى الكتب والمقالات لأكثر من قرن، كما ان ما حدث من زعزعة فى التاريخ الرسمي المصرى القديم ليس أقل من ذلك. فان ما يسمى بالاسرة التاسعة عشرة التى يمثلها بشكل رئيسى سيتى الكبير ورمسيس الثانى ومرنبتاح، تتكشف بأنها تتطابق تطابقا تاما مع ما يسمى بالاسرة السادسة والعشرين التى يمثلها بسماتيك ونيخو وابريس والذين نعرفهم بافعالهم الحقيقية عن طريق المؤرخين اليونانيين الكبار ونصوص الكتاب المقدس وليس عن طريق النصوص المصرية الموجودة. هذا التطابق بين الاسرتين يتطلب ازاحة سيتى الكبير ورمسيس الثانى ومرنبتاح من القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ووضعهم فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. إن عملية تطابق الفراعنة الأول من الاسرة التاسعة عشرة: سيتى الأول (سيتوس) وهاريمباح ورمسيس الأول ثم سيتى الكبير مع الفراعنة الأول من الاسرة السادسة والعشرين تحتل المجلد الذى يتناول الهيمنة الاشورية التى تغطى الفترة من ٨٤٠ - ٦١٢ ق.م. وقد بينت هناك، بشىء من التفصيل ان سيتى الاول (الذى يسميه هيرودت سيتوس) كان معاصرا وخصما للملك سناخريب، وان هاريمباح شقيقه قد عُين نائبا للملك بمرسوم من الملك الاشورى، وقد تُوج فرعونا بعد ذلك وهو مازال خاضعا لنينوى، وإن رمسيس الاول الذى عرف عند المؤرخين اليونان باسم نيخو الاول حكم لفترة قصيرة قبل ان يقتله الاثيوبيون الذين ظلوا لمدة خمسين سنة يحاولون السيطرة على مصر ضد الاشوريين، وان سيتى الكبير (١) يسميه المؤرخون الكبار بسماتيك، وهكذا فإن بداية عملية التطابق بين الاسرة التاسعة عشرة والسادسة والعشرين فى قائمة "مانيتون" - وهى قائمة مشوشة ومضللة وممتدة بشكل مقصود لأسرات وملوك مصر - تتوافق مع الكتاب الذى يغطى عصر السيطرة الاشورية حتى سقوط "نينوى" حوالى ٦١٢ ق.م.

وفكرت، هل أضع خطا محددا بين هذين الكتابين بسنة ٦٦٣ ق.م وهى السنة التى سقطت فيها طيبة أمام "أشوربا نيبال"، وأن أضم فى مجلد واحد قصة الاسرة المصرية الكبيرة من بداية عصر "سيتى الكبير" الذى

يتميز بانتقال مصر من العبودية الى الاستقلال، وحتى نهايتها، ولكن بعد بعض التفكير بدا أكثر قبولا ان يكون الخط الفاصل هو سقوط نينوى بعد حوالى ٥٥ عاما من ذلك التاريخ. ومع ذلك ففى فصول تالية من هذا الكتاب، وليس فى الفصل الاول، سنقود القارىء الى العصر الذى كان فيه "سيتى" حليفا للأشوريين وليس خاضعا لهم، واشتراكه فى الصراع الطويل الذى واجه فيه الكلدانيون والميديسيون، الاشوريين والمصريين. ووضع السكيثيون حداً له.وهكذا، يبدأ هذا المجلد بالمواجهة الاولى بين ملكين طموحين وشهيرين من المفروض ان يفصل بينهما سبعمائة عام: رمسيس الثانى ونبوخذ نصّر. مواجهة تجددت مرات ومرات لمدة تسعة عشر عاما وانتهت بمعاهدة سلام مازال نصها موجودا. ووقعت دولة "يهوذا" بين فكى الصراع للقوتين الكبيرتين حتى فقدت كيانها، ونفى سكانها الى بابل، وتعاد القلة منهم التى هربت الى مصر الى بابل أيضا بقوة شرط فى المعاهدة نفسها.

لقد ظن، أحيانا، ان "مرنبتاح" هو فرعون الخروج، لكنه تبين إنه فرعون "النفى"، وهناك فترة طويلة من الزمن تفصل بين هذين الحدثين فى تاريخ الشعب اليهودى – التيه فى الصحراء، هزيمة الكنعانيين، عصر القضاة والملوك حتى آخر ملوك أسرة داود –

بهذا العرض للفكرة الرئيسية فى هذا الكتاب، آمل ان يؤجل كل قارىء متمعن حكمه على الموضوع، حتى يستوعب الادلة بكل تفاصيلها والتى تتراوح من النصوص القديمة بالكتابة المسمارية والهيروغليفية والعبرية، إلى السير الذاتية والالواح الى الخرائط الطبوغرافية القديمة وخطط المعارك الى تراصف الطبقات الارضية لعلم الآثار. إن القرون السابقة واللاحقة للعصر المذكور هنا، تشكل فى اعادة بناء التاريخ، وحدة وانسجاما كليا.(٢)

١ – سيتى الاول فى تسلسل التاريخ التقليدى، لكنه سيتى الثانى فى اعادة كتابة التاريخ هذه.

٢ – القرون السابقة كانت موضوع عصور فى فوضى: المجلد الاول: من الخروج الى أخناتون (١٩٥٢)، وأوديب وأخناتون (١٩٦٠)، أما القرون اللاحقة لهذا المجلد فهى موضوع كتابى: شعوب البحر (١٩٧٧).

الفصل الأول

معركة قادش

- قرقميش -

من هو الفرعون نيخو، خصم نبوخذ نصّر؟

على الرغم من مساعدة مصر، فقد ترنحت الامبراطورية الاشورية ثم سقطت. واستولى البابليون والميديسيون على نينوى وأحرقوها، وانشغلوا فى السنوات التالية فى تقسيم الامبراطورية بينهم.

وتحرك ملك مصر سنة ٦٠٨ ق.م فى اتجاه الفرات (سفر الملوك الثانى ٢٣: ٢٩) سائرا بمشاته على الطريق الحربى بطول الساحل، وحين وصل "مجدو" وجد عائقا أمامه متمثلا فى يوشيا ملك القدس. فأرسل اليه رسله قائلا "أنا لم آت لأحاربك فى هذا اليوم... ومع ذلك ظل "يوشيا" يواجهه" وفى المعركة جرح رماة الأسهم المصريين يوشيا جرحا مميتا. (سفر أخبار الايام الثانى ٣٥: ٢١ - ٢٤).

وتقدم الفرعون المصرى شمالا تجاه "قرقميش" على الفرات. وأنتخب الناس فى القدس "يهو اجاز" الابن الثانى ليوشيا ملكا، لكن بعد ثلاثة أشهر اعتقله الفرعون فى "ربلة" فى أرض حماة وأرسله الى مصر، وعين "الياقيم" ملكا وهو الأخ الاكبر ليهو آخاز وغير اسمه الى "يهوياقيم"، وأخذ جزية من اليهود تعادل مائة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب (سفر الملوك الثانى ٢٣: ٣٣ - ٣٤).

خلال السنوات التاليه أصبحت "ربلة" فى شمال سوريا مقر القيادة العسكرية للفرعون الذى كان يزورها سنويا.

وبعد ثلاث سنوات من الحملة الاولى، جاء الفرعون بجيش كبير من مصر وحارب فى "قرقميش" على الفرات ضد "نبوخذ نصّر" وجيشه الكلدانى. وهُزم جيش مصر الكبير وتشتت، وتراجع الفرعون بسرعة فى اتجاه مصر، وتبع "نبوخذ نصّر" الجيش المهزوم، ولكنه توقف عند الحدود

المصرية، وعاد الى بابل بسبب بعض المشاكل الاسرية. ووقعت سوريا وفلسطين فى السنوات القليلة التالية تحت السيطرة البابلية، وأصبحت "ربلة" مقر القيادة العسكرية لنبوخذ نصّر، كما أصبح "يهوياقيم" خاضعا له.

بعد سنوات قليلة، جدد الفرعون نشاطاته العسكرية والسياسية فى جنوب فلسطين، فبعد استيلائه على عسقلان تقدم شمالا. وتمرد "يهوياقيم" ضد بابل، فأرسل "نبوخذ نصّر" جيشا من الكلدانيين والسوريين ضد القدس، وأُسر يهوياقيم وأعدم (١)، وأجلس نبوخذ نصّر "يهوياقين" الشاب، ابن يهوياقيم على عرش أبيه، وتراجع الجيش المصرى الى حدوده وراء وادى العريش.

ولم يحكم "يهوياقين" سوى ثلاث سنوات فقط. فقد استولى الشك على "نبوخذ نصّر" ولم يثق فى استمرار ولاء الملك الجديد، لبابل، فعاد ثانية وحاصر القدس، ورغبة من الملك الشاب فى انقاذ المدينة وشعبها خرج لنبوخذ نصر ليجدد ولاءه. فأسره "نبوخذ نصّر" وأرسله مع "كل الامراء ورجال الحرب الاقوياء وعشرة آلاف أسير وكل الحدادين والصناع المهرة" الى بابل، ولم يترك فى المدينة سوى الفقراء. وظل "يهوياقين" فى السجن سبعة وثلاثين عاما حتى وفاة نبوخذ نصّر (سفر الملوك الثانى ٢٥ : ٧٢).

حين أخذ "يهوياقين" الى بابل، عُين "صدقيا" الابن الثالث ليوشيا ملكا. ان نزح الأغنياء وذوى النقود والمهرة من القدس، لم يكن ضمانا لعدم قيام تمرد جديد، فعلى الرغم من كل ما حدث، فان شعب القدس المحب للحرية، رغب فى الاستقلال، وتوقع أن يساعده الفرعون، فبعد ثمان سنوات من تعيين "صدقيا" ملكا، قام بثورة، فجاء "نبوخذ نصّر" بجيوشه وحاصر القدس. وتقدم الفرعون بجيشه على طول الساحل الجنوبى لفلسطين، فابتعد الجيش الكلدانى عن القدس "خوفا من جيش فرعون" (ارميا ٣٧ : ١١)، ولكى لا يلتف الجيش المصرى حولهم، ساروا فى اتجاه المصريين، ولكن لم تقع معركة، ومن الواضح إنه تم التوصل لاتفاق ما كانت نتيجته عودة الجيش المصرى الى بلاده، ومواصلة الجيش الكلدانى محاصرة القدس. وبعد حصار دام سنة ونصف احتل الكلدانيون المدينة وأحرقوها وأخذوا سكانها الى الاسر البابلى.

هذه الحرب توجد تفاصيلها فى الفصول الأخيرة من سفر الملوك وأخبار الايام وخاصة فى سفر إرميا، والملك الذى ذُكر اسمه فى الكتاب المقدس اكثر من تسعين مرة هو "نبوخذ نصّر" الامبراطور القوى لامبراطورية كبيرة، وقد كتب عنه أيضا عدة كتاب يونان. لقد انشأ مبان ضخمة، كشفت البعثات الاثرية عن بعضها، وقرأت النقوش المدونة عليها وقد وجد "حجر فى أحد حقول العراق عليه كتابة مسمارية فى معظم سطورها تحتوى على اسم نبوخذ نصّر" (٢) يسمى الفرعون الذى كان خصما لنبوخذ نصّر لمدة عقدين، فى الكتاب المقدس باسم "نيخو"، ولابد أنه كان ملكا عظيما، فبرغم هزيمته فى "قرقميش" فان مصير فلسطين وسوريا ظل غير مستقرا لمدة عقدين بسببه، كما أن دور مصر فى القدس كان أكبر وأقوى من الدور البابلى، كما أن "نبوخذ نصر" قطع حصاره للقدس خوفا من الفرعون. فمن هو الفرعون نيخو؟

تخبرنا الكتب التى تتناول التاريخ المصرى بقصة شاملة عن حروب نيخو الثانى ضد نبوخذ نصر، لكن هذه القصة بنيت على المادة الغنية الموجودة فى الكتاب المقدس. أما نشاطاته الأخرى فقد عرفت بمساعدة معلومات جمعت مما كتبه هيرودت (٣). ولقد بحث علماء الآثار فى النقوش المصرية عن ذكر لفرعون يسمى نيخو وحملاته، ولم يستطيعوا تأكيد قصة الحرب الطويلة. النقش الوحيد الموجود ذو القيمة التاريخية ومن المفترض أن تكون له علاقة بالفرعون نيخو، هو عمود السيربيوم الذى يسجل دفن «أبيس» بواسطة جلالته «نيكاو – ويهمبر»: «هذا الأله – العجل أبيس – قد وصل بسلام إلى مدينة الموتى ليتخذ مكانه فى معبده» بينما نيكاو – ويهمبر يُعد «كل الاكفان وكل شىء بامتياز وراحة لهذا الاله الجليل» (٤). ثم يتتبع ذلك سيرة حياة العجل باليوم والشهر الذى ولد فيه.

ويرضى التاريخ الرسمى بهذا الأثر الوحيد للماضى الغنى للفرعون نيخو. من الغريب حقا ان لايوجد فى الحوليات المصرية أى شىء عن الحرب الطويلة بين «نيكاو – ويهمبر» ونبوخذ نصر، كما لايوجد سجل للنشاطات المدنية لهذا الفرعون، ولاقانون صدر فى عهده، أو اكتشف معبد بناه، أو أية لفافة أو مومياء أو كفن (٥). وبالنظر إلى المادة المصرية الموجودة حوله فقد كان حاكما ذا إنجازات ضئيلة. فكيف يمكن اذن ان

يكون نداً لنبوخذ نصر لمدة جيل تقريبا؟ وكيف نجح فى ان يجعل الملوك الفلسطينيين يهوآجاز ويهوياقيم وصدقيا يعتقدون ان بإمكانه ان يحرر فلسطين من نير مملكة بابل التى لم تُعرف قوة مثلها آنذاك؟

قادتنى جهودى فى اعادة كتابة تاريخ الاسرة التاسعة عشرة، بتطابق شخصية بسماتيك والد نيخو الثانى مع الفرعون سيتى الكبير (بتاح معت)، وتطابق شخصية نيخو الأول جد نيخو الثانى مع رمسيس الأول، وأن رمسيس الأول عُين حاكما لمصر بواسطة أشور بانيبال بعد نهب طيبة سنة ٦٦٣ ق. م. هذه التطابقات التى كانت موضوع «الفتوح الاشورية» أوصلتنى إلى فرضية سأحاول اثبات صحتها فى هذا الكتاب. وهى أن آثار رمسيس الثانى تصف الاحداث نفسها التى سجلها كل من إرميا وهيرودت وتعود إلى فرعون نيخو الثانى.

يتحدث هيرودت (١١-١٥٩) عن فرعون الكتاب المقدس «نيخو» باسم مشابه هو «نيكوس»، فيقول عن حروبه الآسيوية، بجيش بلاده واجه وهزم السوريين فى «مجدو»، وضم إلى ممتلكاته بعد المعركة، المدينة السورية العظيمة قاديتس Cadytis» (٦)

وبالاضافة إلى تسجيله لمعركة نيكوس مع السوريين، فقد كتب هيرودت أيضا «إنه - أى نيكوس - كان أول من حاول شق قناة إلى البحر الأحمر، وهو عمل أكمله بعد ذلك داريوس الفارسى» (٧)

كان ذلك عملا عظيما، ويضيف هيرودت «هلك مائة ألف وعشرون ألف عامل فى الحفر قبل أن ييأس نيكوس من اكمال القناة التى ستصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر».

وقد وجدت أدلة تاريخية تؤكد ان رمسيس الثانى شق قناة تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر (٨).

وهذا يقودنا إلى سؤال: من الذى بدأ شق القناة رمسيس الثانى أو نيكاو - ويهيمبر بعد سبعمائة سنة؟ يقول هيرودت ان نيكوس هو أول من شقها، بينما يقرر المؤرخون المحدثون، على اساس شواهد تاريخية، ان رمسيس الثانى هو من شق القناة التى تربط البحرين فعلا، وأن هيرودت كان على خطأ، وأن نيخو - ببساطة - هو الذى أكمل العمل الذى بدأه رمسيس الثانى منذ سبعمائة سنة مضت (٩).

وحتى لو كان رمسيس الثانى هو أول من نفذ المشروع، ونيكوس الذى يذكره هيرودت، أو نيخو كما جاء فى الكتاب المقدس، لم يكن الأول، فمازال السؤال قائما: لماذا لم يترك نيكاو ويهمبر نقشا على الحجر أو البردى كى يخلد جهده المدهش باكمال عمل رمسيس الثانى؟ فهناك دليل بالهيروغليفية عن عمل رمسيس الثانى مازال موجودا، كما ان «داريوس» سجل جهوده على طول طريق القناة لتخلد إنجازه.

ويقول هيرودت أيضا (٤-٤٢) أن الفرعون نيكوس أرسل بحارة فينيقيين ليدوروا حول القارة الافريقية لاكتشاف شواطئها، ولقد استغرق منهم ذلك ثلاث سنوات، بدأوا من البحر الأحمر وعادوا بفخر عبر بوابة جبل طارق (أعمدة هيرقليس) (١٠)

«نيكاو-ويهيمبر» الذى كان شديد التواضع فلم يترك تخليدا لذكرى أى من انجازاته الحربية، كان على الدرجة نفسها من الصمت بالنسبة لنشاطاته المدنية، وهى مشاريع عظيمة بأى مقياس، فكيف يمكن تفسير ذلك؟

لقد بنى رمسيس الثانى قصورا ومعابد كبيرة، وترك نقوشا عديدة على الأعمدة والمسلات والحوائط. وكثير من هذه النقوش تحتوى على الكثير من معاركه، وبعضها مزين بخرائط المعارك وصور تبين جيوشه وجيوش خصومه، كما ان معاهدة السلام التى وضعت حدا للعداوة محفوظة بكليتها. وحسب العادات المصرية فإن الاسم الشخصى للملك الخصم لايوضع عند وصف المعركة، ولكنه موجود فى نص المعاهدة. كما أن أختام رمسيس الثانى وجدت بأعداد كبيرة فى مصر وفلسطين، كما وجدت ورقة بردى كتبها كاتب مصرى لرمسيس الثانى تصف فلسطين فى عصره. ومن ناحية أخرى فإن أسفار الملوك وأخبار الأيام وإرميا تزودنا بسجل مختصر للأماكن والأزمنة، ويمكن مقارنتها، بل يجب مقارنتها بوصف الحروب وسير الأحداث وصور وخرائط معارك رمسيس الثانى.

حملة رمسيس الثانى المبكرة

حين سار رمسيس الثانى لأول مرة بجيوشه عبر فلسطين من الجنوب إلى الشمال، خرج ملك هذه البلاد لمقاومته.

هناك جزء من جدارية من معبد طيبة لرمسيس الثانى محفوظة فى متحف المتروبوليتان للفن فى نيويورك. يبين أميرا فلسطينيا مصاب بجرح مميت من سهم أو رمح أطلقه أحد المحاربين المصريين، كما يبدوا جيش هذا الأمير فى رعب عظيم (١).

وعلى عمود فى اسوان أقيم فى السنة الثانية من حكم رمسيس الثانى سجل هذه الحملة فخورا بنصره الكبير «لقد تغلب على الكثيرين فى لحظة.. ووسع حدود بلاده إلى الأبد، ناهبا الآسيويين (السنيو) ومستوليا على مدنهم» (٢). كذلك يقص الكتاب المقدس المواجهة المميتة للملك يهوذا «نيخو ملك مصر اتجه إلى قرقميش ليحارب عند الفرات، فخرج يوشيا للقائه فأرسل إليه رسلا يقول مالى ولك يا ملك يهوذا، لست عليك أنت اليوم فكف عن الله الذى معى فلا يهلكك، ولم يحول يوشيا وجهه عنه وتقدم لمقابلته وجاء ليحارب فى بقعة مجدو» (سفر أخبار اليام الثانى ٣٥: ٢٠، ٢٢)

ولكن يوشيا سحب جيوشه المستعدة حين أصابه أحد رماة السهام والذى قرر نتيجة المعركة «وأصاب الرماة الملك يوشيا فقال الملك لعبيده انقلونى لأنى جرحت بشدة. فنقله عبيده من المركبة وأركبوه على المركبة الثانية التى له وساروا به إلى اورشليم فمات» (سفر اخبار الايام الثانى ٣٥: ٢٣، ٢٤)

وحسب القص الموازى فى سفر الملوك الثانى (٢٣: ٢٠) فإن يوشيا مات قبل وصوله القدس.

بعد وفاة يوشيا. وضع شعب اورشليم ابنه يهوآجاز ملكا ليهوذا، لكن بعد فترة قصيرة عزله ملك مصر وحمله إلى بلاده (سفر اخبار الايام الثانى ٣٦: ٣، ٤) وتذكر مسلة لرمسيس الثانى فى تانيس «حمل أمراء ريتناو (فلسطين) كأسرى أحياء» وقد كتبت كلمة «أمراء» بالهيروغليفية فى حجم مميز عن بقية النقش لتؤكد على وضعهم الملكى (٤).

وحسب ما جاء فى الكتاب المقدس فان الفرعون اثناء وجوده فى شمال سوريا، وضع يهوآجاز فى القيود «واسره فرعون نحو ربلة فى أرض حماة.. وأخذ يهوآجاز وجاء إلى مصر فمات هناك». (سفر الملوك الثانى ٢٣: ٣٣، ٣٤) وقد غرم الارض مائة وزنه فضة ووزنة ذهب (سفر أخبار

الايام الثانى ٣٦: ٣) ونصب الفرعون يهوياقيم على العرش الذى شغر بأسر أخيه. «ودفع يهوياقيم الفضة والذهب لفرعون إلا إنه قوم الارض لدفع الفضة بأمر فرعون» (سفر املوك الثانى ٢٣: ٣٥).

ويقول النقش على مسلة رمسيس الثانى فى تانيس، بأنه «سلب رؤساء الاسيويين فى أرضهم» ومقابل الجزية أضفى الفرعون حمايته على يهوذا، وقد كتب رمسيس على عموده باسوان «أقاموا فى ظل سيفه ولم يعودوا يخافون أى دولة».

فى زياراته المتعددة لقيادته فى «ربلة». نقش رمسيس الثانى ألواحا تذكارية عند نهر الكلب قرب بيروت على الساحل السورى، قطعها فى الصخر قرب ألواح «اسارهادون» ملك الاشوريين ابن سناحريب.

وجهة النظر التاريخية المقبولة ان الواح «اسارهادون» هى التى نحتت قرب تلك التى لرمسيس التى يتجاوز عمرها الستمائة سنة. ولكن بما تم جمعه فى اعادة كتابة هذا التاريخ القديم فان الواح «اسارها دون» كانت موجودة قبل نقش رمسيس الثانى بثلاثة أرباع القرن. ومن السخرية الافتراض ان «أساراهادون» حفر نقوشه قرب تلك التى لرمسيس الثانى. إن «أسارهادون» هو الذى وضع حدا لحكم الاثيوبيين لمصر، ووالده «أشوربانيبال» هو الذى أسس هناك اسرة رمسيس الأول، وكان يعتبر عند المصريين كمحرر لهم، ولهذا فإن رمسيس الثانى لم يدمر نقوش «أسارهادون».

كتب رمسيس الثانى نصوصه عند نهر الكلب فى السنة الثانية أو الثالثة؟ أو الرابعة من حكمه. السنة الثانية على لوحة، والرابعة على لوحة أخرى مازالت مقروءة، لكن النص مدمر تقريبا بسبب العوامل الجوية بالدرجة الأولى. ويمكننا ان نفترض ان نص السنة الثانية هو بدرجة ما شبيه بنص عمود اسوان الذى هو عن السنة الثانية لحكم رمسيس أيضا.

سار رمسيس الثانى فى السنة الخامسة من حكمه ثانية فى اتجاه الفرات، وقامت هناك معركة كبيرة، معركة قادش الشهيرة، وكانت حملة مصيرية.

تل نبى ميند

صورت المعركة التى اكتسبت فى التاريخ الرسمى اسم « معركة قادش » فى سلسلة من النقوش الغائرة حفرت على حوائط الراميسيوم قرب طيبة وعلى جدران معابد الاقصر والكرنك وأبيدوس وأبو سمبل، وهناك تسجيل رسمى للمعركة يصاحب الصور فى الراميسيوم وفى الاقصر وابو سمبل، كما تحتوى الصور على خطط أرض المعركة.

هذه النقوش شهيرة، وهى معروفة للسياح فى مصر منذ القدم، كما يثبت المقتطف من « هيكاتاوس » - من القرن الخامس قبل الميلاد - الذى أورده « ديودورس الصقلى » بعد وصف مختصر للجيش الفرعونى، المكون من المشاة والخيالة والمقسم إلى أربعة أقسام.

يقول «ديودورس» مستشهدا بهيكاتاوس «يظهر الملك هنا وهو يحاصر مدينة مسورة يحيطها نهر، ويقود الهجوم ضد قوات معادية» (١) بالاضافة إلى السجل الرسمى، هناك وصف شعرى لهذه المعركة مكتوب على جدران معابد الكرنك والاقصر وأبيدوس، كما إنه محفوظ على لفائف من البردى (٢)، وأعطى اسم «قصيدة بنتاءور» وربما كان بينتاءور هذا أحد نساخ إحدى البرديات.

المدينة التى حارب فيها رمسيس الثانى معركته، كانت مدينة سورية فى الشمال، شمال جبل لبنان. مدينة قادش» التى حدثت فيها هذه المعركة غير «قادش» التى احتلها «تحتمس» فى فلسطين (٤)، وهى أيضا ليست «قادش» الموجودة فى سوريا الداخلية واجتاحها «سيتى» والد رمسيس الثانى، فكما تبين رسوم سيتى فان قادش التى هاجمها كانت تقع على تلة تكسوها الغابات ولايوجد أمامها نهر (٥)، كما أن السوريين وليس شعب «الخيتى» هم الذين دافعوا عن المدينة.

اذن، فان لا قادش فلسطين ولا تلك التى فى سوريا الداخلية تتطابق مع قادش رمسيس الثانى، قادش أو «المدينة المقدسة» التى أخذت اسمها من المعابد العظيمة، كما فى أيامنا هذه، فان اسم «المدينة المقدسة» هو غالبا بديل للقدس او الفاتيكان او مكة.

لقد ضلل «ديودورس الصقلى»، شامبليون الذى فك رموز اللغة

الهيروغليفية، بوضعه المدينة فى «باكثريا» قرب الاجزاء الشمالية الغربية للهند. (٦). كذلك فان علماء مصريات آخر، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وضعوا المدينة فى أرض الرافدين، أو قريبا من «تاروس» ليس بعيدا عن حلب، أو فى «أديسا» فيما وراء الفرات (٧). ولكن فى النصف الثانى من ذلك القرن فان الدارسين حين بحثوا عن موقع تتوافق جغرافيته مع خرائط أرض المعركة كما رسمها فنانو رمسيس الثانى، وضعوا «قادش» هذه على مجرى نهر «اورنتس» فى سوريا. وحصر البحث عن «قادش» على مجرى نهر «اورنتس» كان بسبب قراءة اسم النهر فى النصوص الهيروغليفية.

تختلف الخرائط فيما بينها كالعادة، لكن تبين ان مكان المعركة كان على ضفتى نهر واسع، وإن «قادش» كانت محاطة بمجرى ماء أصغر من النهر، يشكل رافدا للنهر الرئيسى، وإن أية محاولة لتحديد أرض معركة قادش لابد أن يعتمد على هذه الخاصية الجغرافية التى تعتبر حتمية فى أى موقع يمكن تحديده لقادش (٨).

نهر «اورنتس» الذى ينبع من منتصف سوريا ويتجه شمالا عبر عدة بحيرات يوجد فى اولاها جزيرة صغيرة، هذه البحيرة تسمى «بحرة القطاين» والباحث (٩) الذى وضع قادش فى وسط البحيرة بين إنه فى العصور الوسطى كانت هذه البحيرة تسمى «بحر القادش» (١٠). لكن التطابق قد استبعد، حيث ان البحيرة صناعية بسبب أحد السدود. ويعزو «التلمودان» السد إلى ديوكليس (١١) الامبرطور الرومانى (٢٨٤-٣٠٥) ولم تكن البحيرة موجودة فى العصور القديمة.

هناك مكان يبعد فقط عدة أميال جنوب البحيرة على نهر الاورنتس، وجد إنه يلبى كل المتطلبات، إنه «تل نبى ميند» أو لاوديسيا لبنان، تلة تكونت بارتفاع ثلاثين مترا وبطول كيلو متر، يحدها نهر الاورنتس ورافد له كما لو كانا ضلعين لزواية (١٢)، وهناك مطحنة فى الجوار تسمى «قوداس» مما يشير إلى صحة التطابق، وفى الغالب فإن الطاحونة مبنى تركى (١٣).

منذ سنة ١٨٨٠ م فإن عددا من المتحمسين للنظرية سابقة الذكر حاولوا أن يبينوا إنه يوجد فى «تل النبى ميند» كل ما يتوافق مع ما جاء

فى النصوص والخرائط المصرية (١٤). وحتى الآن فإن «تل نبى ميند» كمكان لقادش مازال نظرية لم تناقش فى علم الاثار.

الحفريات التى جرت هناك سنة ١٩٢١ و ١٩٢٢ لم تكتشف أية بناية أو حوائط لمدينة يمكن ان تؤكد وجود مدينة فى فترة البحث هذه. حقيقة إنه لم يبحث إلا فى جزء صغير من التل، ومع ذلك فنحن متأكدون انها مختفية تحت الجبل تنتظر حفريات مستقبلية.

فاذا كان الموقع الجغرافى او الطبوغرافى «لتل نبى ميند» لا يؤكد تطابقه مع قادش التى حصلت فيها المعركة، فلماذا اذن اقترح هذا التطابق؟ أولا: اسم النهر الذى قامت على شاطئه المينة، ثانيا موقعها فى زواية بين مجرين، وبالتالى لابد من الآخذ فى الاعتبار الخلفية الجغرافية والطبوغرافية للمكان.

هناك مرجع، يعود إلى عدة قرون سابقة، يحدد موقع قادش الشمالية، وجد فى نقش مقبرة أحد ضباط «تحتمس» الثالث يسمى: أمينمباح: إنه يؤكد بقوة ان المدينة أقيمت فى الشمال أبعد من «تل نبى ميند»، وأشار الضابط فى تسجيل قصير إلى المعارك فى جنوب فلسطين (النقب)، ثم الوصول إلى بلاد النهرين (نهارين) وأخيرا إلى الجبال فى إقليم حلب، ثم الحملة إلى أرض قرقميش وعبور النهر والاستيلاء على قادش.

يؤكد الدارسون ان الضابط لم يكن دقيقا فى سرده للأماكن التى سارت فيها الحملة المنتصرة لتحتمس الثالث (١٥) لأنه وضع قادش الشماليةفى أرض قرقميش غرب الفرات، وإنه جاءها من الشرق مع قواته، حيث لايمكن لجيش تحتمس المنتصر ان يستولى على حلب وبعض مناطق بلاد النهرين دون ان يستولى أولا على «تل نبى ميند» حين يسير من مصر شمالا على الطريق الحربى.

ولكن، هل كانت قادش رمسيس الشهيرة على نهر «أورتيس»؟ فى قصيدة «بنتاءور» تهجية اسم النهر ر. ن. ت.، ويبدو من الصعب، وليس من العدل، ان نقدم سؤالا لم يُسأل منذ تسعين سنة، منذ اليوم الذى حدد فيه «كوندر Conder» تل نبى ميند» كمكان لمعركة قادش.

نطق الحروف متشابهة يثير الشك. ففى بردية «ساليية» التى تتناول الحملة نفسها، اسم النهر فيها ن. ر. ت. ، والاسماء ر .ن .ت و ن. ر .ت و

ب. ن. ر .ت موجودة في وثائق هيروغليفة قليلة. تشوش المكان الجغرافي، تسبب منذ فترة طويلة، بأن يرى بعض الدارسين مثل «برنوف» و«لاجارد» بأن ر .ن.ت كان اسما لأنهار وجبال عدة. واذا كانت الرموز المذكورة ب.ن. ر.ت أو ر.ن.ت ترجع إلى نهر الاورنتس، فمن اسمه البابلي «بوراتو» والعبري «برات»، في اللغة المصرية يمكن حذف الباء الأولى اذا فهمت كأداة تعريف وهناك شواهد من أمثلة أخرى معروفة، ليس من المدهش ألا يذكر نهر الاورنتس في المصادر المصرية، ولكن كيف لنهر الفرات الشهير العظيم بل ونهر النيل أكبر نهر في العالم عرفه المصريون.. أن يكون بلاَ اسم؟

حسب رأي «سترابو» ان النهر الذي في سوريا لم يتسم باسم «اورنتس» حتى القرن الرابع قبل الميلاد، ويقدم «سترابو» المعلومة التالية: كان اسمه من قبل «تيفون» وقد تغير اسمه إلى «اورنتس» باسم الرجل الذي بني جسرا عليه» (١٦).

هذا الرجل كان في الاصل من «باكتريا» التي كانت ولاية فارسية، وهو ابن «لأرتاسيرواس»، وقد تزوج ابنة «ارتاكسيركيس» الثاني «منيمون» الملك الفارسي (١٨)، وكان نشطا في سوريا وآسيا الصغرى وقد منح المواطنة الاثينية سنة ٣٤٩ أو ٣٤٨ ق. م بقرار من الاثينيين.

وهكذا فان النهر الذي حمل اسم جنرال باكثيري مشهور بنى جسرا عليه في القرن الرابع ق. م. لم يكن ممكنا بالطبع ان يحمل الاسم نفسه قبل الف سنة. هذه المعلومة النوعية، التي تبدو مقنعة، لاتنهي المشكلة بالضرورة. في نقوش «شالما نيصر الثالث» عن حروبه على نهر «ارانتو» التي سجلها «هازائيل الدمشقي»، قد يكون هذا النهر إما «اورانتس» أو الفرات، وكما قرأنا قبل قليل رأي المستشرقين الأوئل بأن ر.ن.ت أو ن. ر .ت أو ب. ن. ر .ت كانت تطلق على اكثر من مجرى في الاقليم، فإننا مضطرون للعودة إلى طبوغرافية معركة قادش، مع الأخذ في الاعتبار الاماكن التي جاءت بالهيروغليفية لرمسيس الثاني في وصف الطريق إلى قادش حتى يمكن ان ننهي مشكلة النهر صاحب المعركة الشهيرة.

طبوغرافية قادش كما صورها رمسيس الثاني تتناقض أيضا مع طبوغرافية «تل نبي ميند». في النقوش الغائرة لرمسيس الثاني، كما

ذكر سابقا، فإن مدينة قادش كانت محاطة بالماء من نهر كبير يسير شمال المدينة، وأخر صغير يحيطها من الجنوب. لكن «تل نبى ميند» لم يكن محاطا بالماء من جميع الجهات. حيث قاعدة المثلث التى يكون ضلعاها الاورنتس ورافده لم تكن مغلقة بحاجز مائى، بل ان موقع النهر بالنسبة إلى التل يختلف فى «تل نبى ميند» عما رسمه رمسيس الثانى فى خططه.

قصيدة «بنتاءور» تشير إلى أن الفرعون توقف شمال مدينة قادش على الشاطئ الغربى للنهر، كما ان السجل الوسمى للمعركة يقول ان رمسيس الثانى كان شمال غرب قادش حين بدأت المعركة. ولكن اذا كان الرسم المصرى حيث كان الفرعون هو الشمال فإنه يظهره كما لو إنه على الجانب الشرقى من النهر، بمعنى إنه اذا كان الأمر كما يحدده النص فلابد ان يكون فى الرسم بناء على ذلك على الجانب الغربى، والرسم يقدمه فى جنوب المدينة ويتجه شمالا، لكن لاتوجد حالة واحدة فى هذه الرسوم الاربعة القديمة لميدان المعركة تتفق مع ماتقوله النقوش.

كانت «قادش» كما تبينها رسوم رمسيس الثانى محصنة بسد على شكل حدوة فرس، وبآخر أقصر من الأول يلمس ماء النهر، وكان السدان مرتبطين بمعقلين حصينين، والمنطقة المحصنة بيضاوية الشكل، وكان خارج السد خندق يحيط بالمدينة وحائط مزدوج يكمل التحصينات، وبرج حصين عال يبرز من الحائط وشرفات مثلثة تقوم بحماية الجنود على الاسوار وفى المناطق المحصنة. لا السد المضاعف بمواقعه الحصينة وأبراجه، ولا الخنادق اكتشفت فى «تل نبى ميند»، واذا كانت الاسوار مازالت تغطيها تربة الجبل، فعلى الأقل آثار حفر الخندق حول التل لابد ان تكون باقية، لكن هذه أيضا لم تكتشف. وبالرغم من هذا النقص فى التطابق بين الخطط والطبوغرافيا الفعلية لتل نبى ميند وتحصيناته، وإنه لابد ان يكون المكان الخطأ، فإن الدارسين الذين اكدوا على هذا التناقض مازالوا لايشكون بأن «تل نبى ميند» هو موقع معركة قادش التى خاضها رمسيس الثانى.

فى فصل لاحق، سأقارن طبوغرافية المعركة فى خرائط رمسيس الثانى مع طبوغرافية قرقميش». لكن ماذا يعنى لنا تل نبى ميند - هذا التل

الكبير؟ وما الموقع التاريخى الذى يخفيه؟

على بعد أميال قليلة من هذا التل تقع قرية عربية تسمى «ربلة» وهى أقرب مكان مسكون إلى التل بالفعل. قرية «ربلة» لايوجد فيها تل أو جبل، ولكن من المفترض ان القرية تحتل مكان قلعة قديمة بالاسم نفسه. القلعة فى أرض حماة لعبت دورا مهما كقيادة عسكرية أولا للفرعون «نيخو» وبعد ذلك «لنبوخذ نصر». وهناك وضع الفرعون «يهوآجاز» ملك القدس فى الاصفاد (سفر الملوك الثانى ٢٣: ٣٣) وهناك سمل نبوخذ نصر عينى صدقيا (سفر الملوك الثانى ٢٥: ٧، إرميا ٣٩: ٧) فى استكشافه المخفق لتل نبى ميند، وجد «بيزارد» كسرة من عامود لسيتى الكبير والد رمسيس الثانى، تظهر أن سيتى بنى قلعة فى «ربلة». لقد مات «بيزارد» بعد بدء العمل مباشرة، هل لو كان أكمله ألا يمكن أن تظهر إلى الضوء موجودات غير متوقعة؟ ألا يمكن ان تظهر تحت عمق كيلو متر من التل «ربلة» وليست «قادش» مركز القيادة لسيتى وللفرعون نيخو وبعد فترة لنبوخذ نصر؟ لكن من المفروض - حسب التاريخ التقليدى - ان بين سيتى ونيخو سبعمائة سنة.

إن التل يخفى جائزة خصبة لاولئك الذين سيواصلون عمل «بيزارد» الذى ظلت مجارفه ملقاة صدأة لمدة أكثر من خمسين سنة الآن.

جيش رمسيس الثانى

«قصيدة بنتاءور» قصيدة مصرية قصد بها تمجيد البطولات الشخصية للفرعون، وتتحدث عن «النصر الذى حققه فى أرض خاتى، ونهارين.. وقرقميش وكيدى وأرض قادش» (١).

قصيده أخرى كتبها «إرميا» عنوانها «ضد جيش الفرعون نيخو ملك مصر الذى كان بجانب نهر الفرات فى قرقميش» (٢).

فى الشهر العاشر من السنة الخامسة من حكم «اسيرمير شيبيبنير» «رمسيس الثانى» عبر قلعة «ثارو» على الحدود المصرية «كل البلاد الأجنبية ترتعد أمامه ويقدم رؤساؤها هداياهم وينحنون بخوف أمام قوة جلالته» (٣).

ويصف إرميا (٤٦ك ٨) بداية هذه الحملة بالكلمات التالية:

«تصعد مصر كالنيل وكأنهار تتلاطم بالمياه فيقول أصعد وأغطى الأرض» ويقرر «يهوذا» ان كل الأراضى فى طريق الفرعون خضعت لمشهد القوة، ودون ان يعارضه أحد. ودون أن تقع أحداث تقدم الفرعون شمالا. وعبر رمسيس الثانى اقليم الارز وقلعة ربلة «وتقدم جلالته شمالا ووصل إلى المنطقة الجبلية لقادش، كان خصمه «الرئيس البائس لخاتى» ولم يكن العدو وحده، فقد كان السوريون حلفاء مع قوات ملك خاتى. الآن السقوط البائس لمدينة قادش قد أتى وجمعت معا كل البلاد الاجنبية من على بعد البحر. كل أرض خاتى أتت.. (ثم اسماء المدن الشمالية فى سوريا مذكورة بالاسم) (٤) ونقرأ ما يشبه ذلك فى إرميا بأن مدن سوريا الشمالية كانت حليفة لنبوخذ نصر. وإن «جيش السوريين» كان يساعد جيش الكلدانيين.

لقد وصفت النصوص المصرية جيش رمسيس بأنه مقسم إلى أربع فرق: فرقة امون، فرقة رع، فرقة بتاح، وفرقة سوتيخ، وحسب قصيدة إرميا العبرية كان هذا الجيش مكون من المصريين والاثيوبيين والليبيين (الذين يحملون الدروع) والليديين (الذين يستخدمون السهام ويصلحونها) . إرميا ٤٦: ٩، وعلى هذه الفرق تنطبق كلمة الرب «أعدوا المجن والترس وتقدموا للحرب. اسرجوا الخيل واصعدوا ايها الفرسان وانتصبوا بالخوذ استعملوا الرماح والبسو الدروع» إرميا ٤٦: ٣، ٤.

كذلك تذكر القصيدة المصرية بشكل واضح مرتزقة فرعون وتسميهم «الساردان»، كما يظهرون فى قصيدة إرميا ٤٦: ٢١ «أيضا مستأجروها (مصر) فى وسطها كعجول صيرة «سمينة)» إرميا ٤٦: ٢١.

كان الجيش المصرى منذ القدم، يجند محاربين من البلدان المجاورة: اثيوبيا وليبيا، وفى أيام «سيتى بتاح ماعت» والد رمسيس الثانى أصبحت «الساردان» وهى فرقة من المرتزقة، فرقة دائمة فى الجيش المصرى. وهناك نظريتان عن المكان الذى جاء منه «الساردان» إما من سردينيا أو من «الساردیس» فى ليديا، والرأى الأخير هو الصحيح. فإن «جايجز» ملك «سارديس» بعث بالمرتزقة إلى سيتى الذى يسميه المؤلفون اليونان «بسماتيك»، ووصلوا عن طريق البحر وبنى لهم الفرعون معسكرات فى ديفينية (دفناى) فى الجزء الشرقى من الدلتا.

فى اعادة تحديد تطابق شخصية رمسيس الثانى مع شخصية الفرعون «نيخو»، نبحث عن تفسير مع إرميا: من كان الجنود الساردين الذين كان لهم دور فى الجيش المصرى؟ يذكر إرميا (٤٦: ٩) الاثيوبيين والليبيين والليديين كفرق فى الجيش المصرى «الذى كان عند نهر الفرات فى قرقميش». وتعاركت مع نبوخذ نصر. الليبيون والاثيوبيون كانوا جيرانا لمصر، وفى فترات مختلفة من التاريخ المصرى سيطر الليبيون والاثيوبيون على المنطقة كلها، كما أن مصر الكبرى ضمت فى فترات ما على الأقل اجزاء من ليبيا غربا واثيوبيا جنوبا. أما الليديون (فى العبرية لاديم جمع لد او ليديا) كانوا شعوبا فى غرب آسيا الصغرى، ولايمكن ان يوجد خطأ ما، فإن الليديين الذين كانوا مع رمسيس الثانى هم الساردان، فساردس كانت عاصمة ليديا، فالسردان هم سكان ساردس».

معركة قادش قرقميش

سارت معركة قادش الشهيرة على النحو التالى:

لم يشك رمسيس الثانى بأن العدو كان قريبا، فسار مع فرقة آمون ووصل إلى نقطة شمال قادش، وصاح بشكواه «إنها جريمة كبرى ان لايتتبع حكام المناطق الاجنبية وقواد الفرعون أثار «خاتى» اينما كان وإرسال التقارير عنه للفرعون كل يوم» (١).

لم يفرض رمسيس الحصار على قادش، فقد خطط ان يستولى عليها بالهجوم. وقد كان يتوقع قوات العدو من الشمال، لكن هذه القوات كانت مختبئة وراء المدينة، وفى اللحظة المناسبة خرجت هذه القوات من الجنوب وهاجمت فرقة «رع» التى تتبع فرقة آمون. «خططوا ان يحتشدوا مختبئين خلف مدينة قادش، والآن تقدموا من الامام من الناحية الجنوبية لقادش واقتحموا جيش «رع» من وسطه وهم يسيرون، فلم يعرفوا اين يحاربون وهزمت أمامهم مشاة وعجلات جلالته» (٢).

أخذ الجيش كبير العدد على غفلة، فتراجع إلى الشمال. حوليات الحرب تكرر ما جاء فى القصيدة وتشير إلى اتجاه التراجع. «جاء البائس والصديق صاحب «خاتى» مع مشاته وعرباته ومع الاقطار الاجنبية التى

كانت معه، وعبروا المخاضة جنوب قادش ثم دخلوا وسط جيش جلالته وهو سائر دون ان يعرف، وهزمت مشاة وعربات جلالته أمامهم بينما اتجهوا شمالا حيث كان جلالته » (٣).

يصف إرميا (٤٦: ٥، ٦) هذا التراجع المنهك للجيش الذى كانت هيبته كبيرة وادعاءاته عالية «لماذا أراهم مرتعبين ومدبرين إلى الوراء..؟ الخفيف لاينوص والبطل لاينجو، فى الشمال بجانب نهر الفرات عثروا وسقطوا». ذكر إرميا ورمسيس ان تراجع الجيش المصرى كان شمالا، لماذا من المهم ذكر الاتجاه الذى تراجع اليه المصريون؟

عادة تتراجع الجيوش نحو الارض التى قدمت منها، لكن المصريين تراجعوا إلى الشمال بعيدا عن أرضهم وقواعد تموينهم حين تبعهم العدو من الجنوب.

وفى الوقت نفسه فان «رئيس خاتى البائس» أحاط بحراس جلالته، وهذه كانت حالة رمسيس الثانى الخاصة «كل البلاد الاجنبية اتحدت ضدى، وأصبحت وحدى لا أحد معى. مشاتى كثيرة العدد هجرتنى، لا أحد ينظر الىّ فى عربتى» (٤).

صورة مشابهة لهذا الهروب المذعور للجيش المصرى يقدمها إرميا ٤٦: ٥ «تحطمت أبطالهم وفروا هاربين ولم يلتفتوا من الخوف حواليهم» وكتب بنتاءور «وغطى الملاحقون الجبال كالجراد فى عددهم»، ويقول إرميا ٤٦ك ٢٣ «كانوا أكثر من الجراد ولا عدد لهم»

فى هذا الموقف الخطير أنقذ الملك المصرى نفسه من الاسر بجهد يائس، حمل على أعدائه مثل «الاسد الجريح»، وحارب حتى شق طريقه خارج الحصار. «وهكذا نظر جلالته حوله باحثا عن مخرج، فوجد ٢٥٠٠ تحيطه تمنعه من الخروج.. كانوا ثلاثة رجال فى عربة يعملون كوحدة واحدة». كم من الحقيقة فى الوصف الشعرى لشجاعة الملك الذى هجرته قواته؟ من الصعب الحكم. يصف المؤلف المصرى شجاعة مليكه فى الحرب كأسد، والقصيدة كتبت باستخدام ضمير المتكلم كما لو أن الملك رمسيس هو كاتبها. إنه بالتأكيد عمل فذ وصعب وخطير ان يشق طريقه خارج المعركة، ولقد أوضح النبى العبرى (إرميا) أيضا ان الفرعون نجا بحياته، وكما سنعرف فيما بعد فإن فرقة من «النعاريم» أو الشباب بالعبرية هى التى

ساعدته.

وصف المعركة ونتائجها يتشابه كثيرا فى العبرية وفى المصادر المصرية: كانت كارثة. هزيمة. وهروب، وتبعثرت هيبة مصر.

يلقى المؤلف المصرى باللوم كله على الجيش وليس على الملك الذى قدمه كبطل يلوم قواته على جبنها:

«كم هى جبانة قلوبكم ياقادة عرباتى. لاتوجد أية فائدة من الثقة بكم بعد ذلك. انظروا لقد قمتم بعمل جبان بتجمعكم فى مكان واحد ولم يقف أى رجل منكم ليساعدنى وأنا أحارب» (٦)

وقال الفرعون عن نفسه وهو يلوم جيشه

«لقد رأتنى الامم وستردد اسمى حتى فى المناطق النائية جدا» لكن إرميا لا يوافقه (٤٦: ١٢):

«قد سمعت الامم بخزيك وقد ملأ الأرض عويلك» وحسب ما جاء فى القصيدة، نجح رمسيس عن طريق جانبى فى الوصول إلى الفرقتين اللتين لم تشتركا فى المعركة، وتشاور مع ضباطه، وسمع نصيحتهم بالعودة إلى مصر، وكانت هرولة.

وبكلمات إرميا (٤٦: ١٥، ١٦):

«لايقفون لأن الرب قد طرحهم، كثر العاثرين حتى يسقط الواحد على صاحبه ويقولوا قوموا إلى شعبنا وإلى أرض ميلادنا من وجه السيف الصارم»

النتيجة الفورية للمعركة كانت هروب بقية الجيش المصرى إلى مصر، وضياع سوريا وفلسطين من الفرعون ووقوعهما تحت سيطرة «نبوخذ نصر». استراتيجيا كانت النتيجة هزيمة للمصريين، وكان عليهم الانسحاب إلى وطنهم دون ان يقدموا شيئا من جهدهم. وقد كتب مؤرخ اثناء حكم رمسيس الثانى «لابد ان تمرد سوريا وفلسطين انتشر بعيدا فى الجنوب» (٧)

جدول معركة قادش - قرقميش

المصادر العبرية حول الفرعون نيخو	المصادر المصرية حول رمسيس الثانى
الزمان	
بعد أربع سنوات من غزو الفرعون نيخو الأول لفلسطين راجع سفر أخبار الايام الثانى ٣٠: ٢٠، ٣٣٦: ٢، ٤، وإرميا ٤٢: ٢	بعد أربع سنوات من الغزو الأول لرمسيس الثانى لفلسطين. راجع لوحة من السنة الثانية لحكمه عند نهر الكلب، عامود اسوان، الحوليات، قصيدة بنتاءور.
المكان	
عند نهر الفرات فى قرقميش راجع إرميا ٤٦: ٢	فى أرض «خاتى»، نهرين (نهارايم) قرقميش، كيدى، أرض قادش. قصيدة بنتاءور
طبوغرافية الارض	
قرب قلعة تحيطها المياه من كل جانب، وللقلعة سور مزدوج وخندق، تبرز من مجرى كبير قرب بحيرة مقدسة. راجع: وصف وخطط حفريات قرقميش	قرب قلعة تحيطها المياه من كل جانب وللقلعة سور مزدوج وخنادق تبرز من مجرى كبير وقربها بحيرة مقدسة. راجع الخطط الاربع على جدران معبد الكرنك.
الموقع	
قرقميش تقع شمال بلدة «باب»	ميدان المعركة يقع شمال «باو»
الحلفاء	
جيش السوريين يحارب بجانب الكلدانيين (البابليين). إرميا ٣٥: ١١	جيوش المدن السورية تحارب بجانب جيش الحثى.
جيش فرعون	
أربع فرق: المصريون، الاثيوبيون الليبيون والليديون. راجع: إرميا ٤٦: ٩، الليديون كانوا مرتزقة (مستأجرون) إرميا ٤٦: ٩، والعجلات اشتركت فى المعركة، إرميا ٤٦: ٩	أربع فرق: آمون . رع. بتاح. سويتك. (راجع قصيدة بنتاءور) المرتزقة فى الجيش كانوا من الساردان او محاربين من سارديس فى ليديا، العربات اشتركت فى المعركة (راجع حوليات رمسيس الثانى، وقصيدة بنتاءور.)
سير المعركة	
هزم الجيش المصرى وتراجع (إرميا: ٤٦: ٥)	هوجمت مشاة وعربات جلالته فجأة وهزمت (قصيدة معركة قادش. الحوليات)
التراجع تطور إلى هروب عند الجيش المصري	
«ابطالهم طرحوا أرضا وهربوا ولم ينظروا خلفهم» (إرميا ٤٦: ٥)	«مشاتي الكثيرون هجرونى ولا أحد ينظر لى فى عربتى «حوليات رمسيس الثانى»
الفرار كان شمالا بعيدا عن مصر	
تعثروا وفروا بسرعة باتجاه الشمال.	ثم مشاة وعربات جلالته، هزمت امامهم وهم يتجهون شمالا.

قلعة قرقميش

كشف إرميا عن مكان المعركة بأنه فى قرقميش، فإذا كان إرميا وبنتاءور يصفان المعركة نفسها، فإن «تل نبى ميند» على نهر الأورنتس ليست مكان الصراع الكبير. ولابد ان نفحص الآن ما اذا كانت قرقميش تتوافق مع رسومات رمسيس الثانى.

إن قرقميش تتماثل مع رابية «بيرابلس» على الضفة الغربية للفرات (١)، الطريق من حلب الذى يسير تجاه الشمال الشرقى، يمر ببلدة باب وأريما وهيرابولس فى العصرين اليونانى والرومانى، ثم يعبر وادى «سادجور»، هناك رافد يصب فى الفرات عند «بيرابلس»، ورابية قديمة كبيرة تحتل الجانب الغربى من الفرات (بسبب التفافها نحو الجنوب هناك) حيث تخترق النهر الآن سكة حديد بغداد قرب الحدود السورية التركية. وقد اكتشفت هناك قطع مسطحة سميكة عليها نقوش وأشكال حيثية قبل ان تجرى حفريات فى الرابية، جذبت النتباه وافترضت تطابق الرابية مع موقع قرقميش.

والموقع كما وصفه مكتشفوه «محدد بسد على شكل حدوة حصان و «بقلعة عالية على رابية ترتفع على شاطئ النهر مائة وعشرين قدما فوق مستوى سطح الماء فى الفرات، وتقريبا تملأ الفراغ بين نقطتى حدوة الحصان» (٢)

السدان أو السوران - الذى على شكل حدوة الحصان وذلك الذى للقلعة - يكونان شكلا بيضاويا (٣) ويحيط بالسور الذى على شكل حدوة حصان خندق عميق، كما يرتفع السور بحدة من ٣٠-٥٠ قدما من هذا المنخفض، وترتفع الرابية عشرين مترا فوق سطح الارض وتقع خارجها حفرة بعمق خمسة امتار (٥). وهناك خندق آخر فى الجانب الداخلى من السور، وهكذا فهناك خندقان مملوءان بالماء يسيران مع السور.

رسومات رمسيس الثانى تتوافق مع هذا الشكل من التحصينات، القلعة التى على شكل حدوة حصان محاطة بالخنادق:

«قادش فى واد منخفض محاطة بالخنادق» (٦)

«المدينة تبدو بخندق مزدوج» (٧)

نذكر بأن «تل نبى ميند» ليس محاطا بالخنادق ولا توجد آثار لسور هناك كذلك السور الذى على شكل حدوة حصان حول قرقميش له حائطان «الحائط النهرى كان مزدوجا» (٨)، وكان للمدينة دفاعات خارجية «تتكون من حائطين متوازيين بينهما حوالى تسعة أمتار» (٩)

وتبين رسوم رمسيس الثانى لمدينة قادش أيضا أربعة خطوط متوازية تمثل سورين يحيطان بالقلعة. وعلى الخريطة التى رسمها مكتشفو قرقميش يمكن رؤية حصنين بين رابية القلعة والسد الذى على شكل حدوة فرس، شمال غرب وجنوب شرق القلعة «التنقل بين الرابية والسور (السد) محدد بحصن كبير فى الركن الشمالى الغربى قريبا لما كان آنذاك شاطئ المجرى الصغير، كما ان هناك معقل محصن شبيه فى الجنوب الشرقى» (١٠)

فى رسوم فنان رمسيس الثانى هناك مربعان يخترقان خط الاسوار يشيران إلى حصنين او معقلين. وبالاضافة إلى الحصنين كانت أسوار قرقميش تقطعها الابراج «ابراج حجرية بنيت على مقدمة الاسوار» (١١) وتبين رسوم رمسيس هذه الابراج أيضا، كما يمكن مقارنتها بالصورة التى رسمها «شالما نيسير» الثالث، وكان هذا الملك قد احتل قرقميش قبل «نبوخذ نصر» بـ ٢٥٠ سنة، وجعل فنانه يرسم المنظر الامامى لقرقميش على البوابة البرونزية «لبلاوات» (١٢).

وهناك تفصيلة أخرى: فى رسومات رمسيس الثانى، ورسومات شالمانيسير الثالث، فان الابراج والسور متوجة بالمثلثات، بعض هذه المثلثات أو المرلوتز (الجدار الفاصل بين فتحتين فى شرفة حصن) وجدت فى قرقميش اثناء الحفر.

توصف مدينة المعركة كما رسمت فى الرامسيوم فى غرب طيبة بالشكل التالى «قلعة محاطة بنهر، ومقامة ليس بعيدا عن طرف بحيرة على يسار القلعة». و«بالضبط جنوب فتحة البوابة الغربية» لقلعة قرقميش هناك منخفض «هذا المنخفض العارى من أى أثر للبناء ربما يشكل مساحة مفتوحة أو حتى يمكن ان يكون بحيرة مقدسة» (١٥). ورابية القلعة تتوازن على صخرة، سطحها الشمالى «ينحنى فى اتجاه الفرات» (١٦). هذا الوضع أوحى لفنانى رمسيس الثانى برسم التحصينات على

مقدمة الماء نفسه «نحن نرى هنا مدينة قادش التى وقعت عندها المعركة محاطة بالماء بشكل تبدو إنها تقع فى نهر الاورنتس نفسه وليس على ضفته» (١٧). ولكن هذا الوصف لاينطبق على تل نبى ميند (١٨)، بل يناسب موقع قرقميش «نهر الفرات قادما من الشمال ينحنى هنا تجاه الشرق جنوبا بعد أن يلتقى مياه مجرى صغير يهبط من واد فى الغرب، وبعد عبوره قرية يونس الصغيرة على بعد ميل، يتفرع من هذا النهير مجرى صغير على اليمين من أجل طاحونة، ليصل أخيرا إلى الفرع الرئيسى على بعد حوالى مائة ياردة من القلعة»(١٩). الفرات، النهير، ومجرى الطاحونة يحيطون بيرابلوس (قرقميش) من جميع النواحى كحاجز مائى. وهناك خريطة توضيحية لمدينة يرابلوس فى كتاب طبع سنة ١٧٥٤ تصور هذا.

فطبوغرافية المدينة المحاطة بالماء تتفق مع الشروط «الضرورية لكل موقع يمكن ان يحدد كمدينة قادش» (٢٠) ولايوجد أى موقع أخر، بما فيها تل نبى منيد تتوفر فيه هذه المتطلبات، فطبوغرافية موقع القلعة، وخطوط تحصينها وتصميمها المعمارى تحدد قادش رمسيس الثانى بأنها قرقميش.

خطة المعركة

يمكننا الآن اعادة تحديد موقع جيوش رمسيس الثانى حين كان مع فرقة أمون شمال غرب قرقميش. كانت فرقة «رع» قد عبرت مخاضة نهر نرت (او رنت روب - رنت) واقتربت من قرقميش (١) وكانت فرقتا بتاح وسوتيخ إلى جنوب مدينة اورنامـا (ارينامـا) (٢) وهى أريمـا اليوم (٣)، والضباط كانوا أبعد عدة أميال للجنوب فى مكان يسمى باو أو باف «الآن فرقة رع وفرقة بتاح تتقدمان ولم تصلا بعد، وضباطهم فى غابة باو» (٤) هكذا كتب رمسيس فى حوليات المعركة.

باو هى بلدة «باب» اليوم، باب وأريما موقعان متعاقبان على الطريق من حلب إلى يرابلس (قرقميش)، وعلى علماء الآثار الذين يبحثون عن قادش - المعركة لابد ان يضعوا باو وأريما كمفتاح للحل.

لقد ذكر رمسيس «غابة باو» فلابد اذن أن نقرأ تقرير المنقبين فى قرقميش، متتبعين الطريق من حلب إلى موقع التنقيب. «ملامح المكان التى تصدم الوافد الجديد بشدة هى خلوه من الاشجار. ولكن شمال وشرق الجبل هنا أماكن مازالت تحتفظ ببعض غاباتها القديمة.. لكن الارض ككل عارية وبلا ظل.. لم تكن الحال هكذا دائما: أحد الرحالة الانجليز فى القرن السابع عشر كاد يتوه لكثافة الغابات بين حلب وباب حيث لاتنمو شجرة الآن. ولا شك ان عملية تصحر كبيرة قد حدثت ومن المحتمل إنه فى زمن الحيثيين كانت منطقة قرقميش منطقة غابات كثيفة» (٥).

لو كانت قادش فى «تل نبى ميند» فلا يمكن تحديد اريناما وباو إلى الجنوب منها «حيث من المستحيل تحديد مكانهما» (٦).

كان العدو مختفيا تماما خلف مدينة قادش، ولم يلاحظه الفرعون أو فرقة أمون حين عبروا إلى نقطة شمال غرب المدينة «أنظر. لقد وقفوا مستعدين وجاهزين للقتال خلف قادش القديمة» (٧).

ان طبوغرافية الأرض تجعل من الممكن نصب كمين، ويمكن رؤية ذلك من الوصف التالى لموقع قرقميش «تقع قرقميش على حافة النهر اليمنى منخفضة بحيث تختفى عن الانظار على بعد ميل داخل البلاد بسبب الشكل المنحرف، ولكن على الرغم من انخفاضها ذاك بالنسبة إلى الهضبة الرئيسية، فهى تتحكم فى مدخل الأرض الخصبة المنخفضة» (٨).

وبمجرد ان بدأ الفرعون وفرقة أمون بإقامة معسكر شمال غرب المدينة، ظهر العدو فى الميدان. فريق منه، من الذين كانوا على الضفة الأخرى للفرات، عبروا النهر - ربما فوق سد إلى الجنوب من القلعة - وهاجموا فرقة «رع» التى كانت تسير غير مستعدة للقتال بعد عبورها وادى «ساجور»، واذ انقطع طريق تقهقرهم هربوا إلى الشمال. وفى الوقت نفسه هاجمت قوة خرجت من جنوب المدينة الفرعون وفرقة أمون، وقد حدثت المعركة على الضفة السورية لنهر الفرات حيث يكون النهر فى اتجاه الحصن من نقطة تقع فى الشمال الغربى للقلعة، مع طبوغرافية المكان.

حين حذر الفرعون بهروب فرقة «رع» التى هوجمت أولا، أرسل رسولا عن طريق فرعى بعيد إلى الغرب، ليستعجل وصول الفرقتين من اريناما

(أريحا) وباو (باب)، فى الوقت نفسه كانت فرقة أمون التى مع الفرعون تواجه كارثة مثل فرقة «رع»، وإذا كان لنا ان تصدق «قصيدة بنتاءور» فان الفرقة تخلت عن فرعون وعجلته. أنذاك قام فرعون بقتاله البطولى باسلوب «الرولاند» وهرب من الأسر حين أتت «النعاريم» لمساعدته. «ونعاريم» كلمة عبرية تعنى الاولاد أو الشباب. تخلى جيش رمسيس عنه، وعزا نجاته إلى شجاعته الخاصة، ولكن أيضا إلى النعاريم الذين هبوا لمساعدته، مخترقين صفوف العدو المحيطة به لينقذوه فى اللحظة الحرجة. «وصول قوات النعاريم - قوات فرعون - قوة وازدهار وصحة - من أرض امورو (سوريا)» (٩).

نعاريم (أو نعارين) ساعدت رمسيس الثانى فى شق طريقه إلى قواته المنكمشة مرتعدة عن الطريق لاتجرؤ على الاقتراب من ميدان المعركة حيث سحق العدو فرقتين واضطر جنودها للفرار شمالا.

نعلم، ان المحاربين الاكثر احتمالا من يهوذا، كانوا يكونون وحدة منفصلة عن فرق الجيش الاربع، وقد اشتركوا فى الحملة كقوة مساعدة. ولحد ما قرروا النتيجة النهائية للمعركة بانقاذ رمسيس من الأسر أو القتل. وقد نوه الكتاب المقدس بنعاريم كمقاتلين مختارين فى زمن «إهاب»، ووجود النعاريم كقوات مختارة جاء ذكرها مرتين فى كتابة كاتب مصرى يتحدث عن فلسطين أيام رمسيس الثانى، وسننظر فيها فى صفحات تالية.

قرقميش المدينة المقدسة

فى نقوش رمسيس الثانى تدعى قرقميش عادة بقادش، لكن جاء بها الاسم الثانى أيضا. وبقدر ماذكرت اسماء حلفاء «رئيس خيتا» فى قصيدة بنتاءور» بقدر ماتم الرجوع إلى «قادش» أو «قرقميش» ولكن ليس لكليهما، عدا نص وحيد فى جملة استشهد بها، عددت أراضى البلدان التى اتحدت تحت قيادة «رئيس خيتا» وتشمل «قرقميش، كود، وأرض قادش» لكن قادش فى هذا المقام تشير إلى القطر وليس إلى المدينة.

قرقميش تعنى مدينة (قر) شيموش، ولأنها مدينة مقدسة سميت على

اسم إله فهى مدينة مقدسة «قادش» (١). وكانت عبادة «شيموش» واسعة الانتشار لأكثر من قرنين قبل ذلك. وقد وصف الملك «ميشا» ملك موأب على أحد الالواح كيف إنه تحت حماية «شيموش» انتصر على ملك إهاب ملك ساماريا (٢).

كانت قرقميش مقرا لمعبد كبير، اكتشفت اساساته حين مسح المكان ونقب فيه جزئيا على يد بعثة من المتحف البريطانى. وفى الصفحات التالية سنناقش اختلاف وجهات النظر بين علماء الآثار حول زمن المنشآت المختلفة والنقوش والموجودات فى مقابر قرقميش خاصة فيما يتعلق بموضوعنا. تقدير الزمن تراوح بين القرن الثالث عشر ق.م. وأواخر القرن السابع ق. م.، وستتاح لنا الفرصة لمعرفة هذا الاختلاف فى وجهات النظر وسببه.

كانت المنطقة كلها، وليس المعبد والمدينة فقط، مقدسة بالنسبة للاله الحامى. وعلى بعد حوالى عشرين ميلا جنوب شرق قرقميش، على طريق حلب تقع «هيرابوليس» أو المدينة المقدسة فى اليونانية وهو اسم يعادل الاسم السامى لمدينة قادش. ومن المحتمل إنه فى الايام التى نتحدث عنها كانت تدعى «شابتونا» وهو موقع أشار إليه رمسيس الثانى فى طريقه إلى قرقميش شمال باو (باب). وأصبحت «هيارابولس» فى العصر الهلينى مدينة عبادة مهمة، ولكن على الرغم من ذلك فلم تكن هى قادش المعركة، فخرائط المعركة عند رمسيس الثانى تبين ان قادش تقع على حافة الماء، بينما هيارابولس تبعد عشرة أميال عن نهر الفرات، ولانهر فيها. مركز المعركة كان شمال هيارابولس بعشرة إلى عشرين ميلا. فرقتان أو نصف الجيش المصرى لم يشترك فى المعركة، وقف ساكنا بعيدا فى الجنوب فى اريناما (أريما وباو (باب)، فقد وقعت المعركة فى السهل بين هيارابولس وقرقميش حيث هوجمت فرقة «رع» بعد عبورها وادى ساجور، والرسوم لم تترك مكانا للشك، قلعة قادش التى كانت ميدان المعركة تقع على نهر ويحيطها الماء مدينة المعركة كانت قرقميش ولكن فى نقوش رمسيس الثانى تحمل اسم مدينة تبعد عنها بعشرين ميلا.. فما هو سبب ذلك؟

قدم الكاتب الرومانى «لوسيان»، وهو نفسه مواطن من المنطقة، وصفا

تفصيليا للديانة المتبعة فى هيارابولس، ويبدأ كتابه بالكلمات التالية:

«يوجد فى سوريا مدينة ليست بعيدة عن نهر الفرات تسمى المدينة المقدسة، وقد قدست نسبة للالهة الاشورية هيرا» (٣). ويقدم لوسيان هنا الاجابة للسؤال الذى أثرناه: لقد أمرت الملكة «ستراتونايس زوجة الملك أنتيخوس (٢٨٠-٢٦١ ق. م) بأن تكون مدينة قرقميش التى فقدت مكانتها العسكرية والدينية أثناء العصر الفارسى (٥٣٩-٣٣٢ ق. م) مركزا كهنوتيا إلى الجنوب بعشرين ميلا عن المكان الذى يسميه الأشوريون «مايوج» ويسميه المصريون «شابتونا»، وأطلق عليه اليونانيون بعد ذلك اسم هيارابولس. ويكتب لوسيان «بقدر ما استطيع أن أحكم فان هذا الاسم «هيارابولس» لم يمنح للمدينة حين انشئت أول مرة ولكنها فى الاصل كانت تحمل اسم آخر».

وحين سلبت قوتها تحت حكم الفرس، استبدلت الطقوس الدينية المقدسة لشيموش بالطائفة الدينية للالهات السوريات على يد السوريين الهيللينين، وبمقارنة بما يقوله لوسيان عن «هيرا» (٤) فان تحويل طائفة دينية إلى طائفة دينية جديدة فى العصور القديمة تسبب فى تشويش معين وسط الدارسين.

الترجمة السريانية للكتاب المقدس (بشيتا) تجعل من قرقميش «مايوج»، ومن هيارابولس مايوج أيضا (٥)، كذلك يطابق «سترابو» (١٦: ٢٧) قرقميش مع هيارابولس، ولولا تحديد «لوسيان» لحار المرء فى وضع «هيارابولس» مكان يرابولس- قرقميش، وقد كانت معلومات «بروكوبيوس» أفضل حين كتب ان هيارابولس تقع على مسافة قريبة من «يروبوس» على الفرات (٦)، يوروبوس هو الاسم الذى أعطاه الرومان لقرقميش يرابولس (٧).

المؤرخ الرومانى «اميانوس مارسيلنيوس» فى القرن الرابع ق.م، وقد ولد فى «انتيوخ» فى سوريا، فى تعداده للمدن على مجرى نهر الفرات فى «كومانى Commagene) (وهى منطقة تمتد من سفح جبال طوروس ما بين قليقيا والفرات هـ م) ذكر مدينة هيارابولس القديمة» (٨).

ويبدو أن هذا التحديد نشأ بعد أن حول «ستراتونايس» الاماكن

المقدسة من موقع قرقميش إلى الجنوب. لكن للغرابة فإن حوليات رمسيس الثانى تسمى مدينة المعركة «قادش القديمة» مما يثبت ليس فقط ان «قرقميش» كانت مدينة مقدسة (هيارابولس) ولكن أيضا إنه فى زمن رمسيس الثانى قبل «ستراتونايس» بفترة طويلة كانت المدينة تسمى بالاسم الذى عرفها به «مارسيلونيوس»

قرقميش (قارقيموش) كان الاسم الكارى Carian للمدنية بينما اسمها السامى «قادش»، أما هيارابولس فقد كانت الترجمة اليونانية لقادش السامية.

هوامش الفصل الأول

من هو الفرعون نيخو، خصم نبوخذ نصر؟

1- Midrash Breshith Raba, 94; Midrash Va'yikra Raba; Seder Olam, 25: Josephus Flavius, Antiquities, X, 6: 3. Cf. L. Ginzberg, Legends of the Jews, (Philadelphia, 1925-38), VI, 379. Compare also II kings 24: 6 and II Chronicles 36:6.

2- C. J. Gadd, The Fall of Ninevch (london. 1923).

3- See especially F. K. Kinetic. Die politische Geschichtc Aegyptens vom 7. dis zum 4. Jahrhlundert vor der Zeitwened (Berlin, 1923), Ch. 2.

4- J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt (Chicago, 1906), Vol. IV, See. 977, 979.

5- The objects attributable to Nekau-Wehemibre were enumerated by F. Petrie in A History of Egypt, Vo. III (london, 1905), pp. 335-36. A few additional small objects discovered since.

6- The identity of these two places is uncertain. Cadytis may be Gaza, or possibly, Jerusalem. F. Hitzig, De Cadyti urbe Herodotea (Göttingen, 1829), identifed Cadytis with Gaza. P. H. Larcher, Historical and Critical Comments on the History of Herodotus (London, 1844), favored Jerusalem (Vol. I, p. 391). J. T. Wheeler, The Geography of Herodotus (London, 1854), concurred with the opinion of Rawlinson that Cadytis is Gaza. For recent discussion of the problem, see II. de Meulenaere, Herodotos over de 26ste Dynastie

(Leyden, 1951), pp. 57-59; Kienitz, op. cit., p. 22, note I.

7- Herodotus, II, 156, trans, G. Rawlinson, See also Diodorus Sieulus, I, 33: 9.

8- E. A. W. Budge, A History of Egypt (London, 1902-4), VI, 219; K. Sethe, Untersuchungen zur Ceschichte und Altertumskunde Aegyptens, Vol. II (1902), 23; cf. Posener in Chroniq d' Egypte, XIII (1938), 259-73.

9- Budge, op, it., VI, 219: "He (Necho) gave orders for fleets of triremes to be built for him, both in the Mediterranean Sea and the Red Sea. In order to give these vessels the opportunity of being employed upon both seas he conceived the idea of connecting them by means of a canal, which he intended to join the the old canal that was already in existence in the days of Rameses II."

10- Ramses II gave a son of his for a husband to a daughter of a Phernician sea captain, Ben-Anath. The thought may oecur, was not Ben-Anath in pharaoh's favors for some unusual achievement? see J. II. Breasted, A History of Egypt (New York, 1905), p. 449.

حملة رمسيس الثاني المبكرة

1- H. E. Winlock, Excavations at Doir el Bahari, 1911-1931 (New York, 1942), p. 12 and Plate 69.

2- Breasted, Records, Vol II, Sec. 479.

3- The Hebrew text has yore ha-yorim and a correct translation is "the hurlers (ha-yorim) lmded (yoru)," or the "shooters shot." The same verb is used but with the addition of ha-keshet, "with a bow" if a how and arrow are the weapons. See I Samuel 31: 3 and I Chronicles 10: 3; of. also Genesis 21: 10 and Jsaiah 21 17..3.

4- See Kémi, Revue de philologic et d' arch´cologie égyptieuncs et coptes, V (1935), Plate 26, and p. 113.

5- D. D. Luckenbill, Records of Assyria (1927), Vol. II, See. 479.

1- Diodorus, trans Oldtather (1933). 1, 48.

2- The Papyri Raife. the beginning) and Sallier II (the rest). The first page is lost; Papyrus Raifet is the second page and Papyrus Sallier III pp. 3-12.

3- A. Eirman regards Pentaur as merely a copyist and is followed by other scholars.

4- Ages in Chaos, Vol. I. "Kadesh in Judah".

5- See W. Wreszinski, Atlas zur altägyptischen Kulturgeschichte, Vol. II, Part 2 (Leipzig, 1935), Plate 53.

6- J. F. Champollion, Lettres écrites d'Egypte (Paris, 1833). HE identified the foes of Ramses II as Scythians.

7- Literature in G. C Maspero, The Struggle of the Nations (New York, 1897), pp. 140-41, note 4.

8- "Elle était encerdéc par les caux: or, cette condition est nécessaire pour tout site qui voudra s'identifier avec Qadesh". M. Pézard, Qadesh. Mission Archéologique á Tell Nebi-Mend, 1921-1922 (Paris, 1931), p. 26.

9- H. K. Brugech, Geographische Inschriften altägyptischer Denkmäler (Leipzig. 1857-60), II, 22.

10- Abulfeda (1273-1331), Tabulac Syriae (Leipzig, 1786), p. 157; "The lake at Qades. Now it is the sme as the lake of Homs."

11- The Jensalem Talmud, Kilaim 60. 5: The Babylonian Talmud, Baba Batra 74b. Ahulfeda (1273-1331), also referred to the fact the lake is ????? ?????.

12- Claude R. Conder, "Kadesh", Quarterly Statement of the Palestine Exploration Fund, 1881, pp. 163-73.

13- Pézard. Qadesh, p. 2.

14- J. H. Breasted, The Battle of Kadesh (Chicago, 1903), uses the map of Tell Nebi-Men for the reconstruction of the famous battle.

15- "It appears that the tomb inscription of Amenemheb records the campaign

events in a very loose order: Negeb, Naharina, Aleppo, (land of) Karchemish, Qades (Kadesh) and so forth. Naturally Qades must have been conquered first before northern Syria and Naharina (Mesopotamia and before the Euphrates could have been crossed". R. Kittel, Geschichte des Volkes Israel (5th ed; Stuttgait, 1923-25), I, 79, note I.

16- Strabo, The Ceography, trais. M. L. Jones, XVI, 750.

17- Bactria was a persian satrapy between the mountain range of Hindu Kush and the Oxus (Amu Darya).

18- Xenophon, Anabasis, II, iv, 8; Plutrach, Lives, "Artaxerxes", 27.

19- He was second in command under Tiribazos, in the war against Euagoras of Cyprus, and without the knowledge of Tiribazos concluded a peace treaty with Euagoras (Diodous of Sicily, XV, ii, 2). He served as a satrap of Amania (Xenophon, Anabasis, III, v, 17). In Asia Minor he became an open enemy of the persian king; in Syria he was besieged by Artaxerxes III (ochus). The Athenians presented him with a golden wreath together with citizenship.

20- "Poem of Pentaur" in Breasted, Records, Vol. III, Sec. 335.

21- Wrexinski, Atles, Vol.., II, part 4, Plate 173.

22- Pézard, Qadesh, pp. 19-21 plate XXVIII.

جيش رمسيس الثاني

1- A. Cardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II (Oxford, 1960). p. 7.

2- Jermiah 46.

3- Cardiner The Kadesh Inscription of Ramesses II, p. 8.

4- Ibid., p. 8.

معركة قادش قرقميش

1- Cardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, p. 30.

2- Ibid., pp. 8-9.

3- Ibid., p. 30.

4- Ibid., p. 10. Breasted, Records, Vol. III Seee 327uanslates the last phrase; note one emong tham stood to about.

5- Ibid., p. 9.

6- Cardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramsees II, p. 11.

7- R. O. Faulkner, in The Cambridge Ancient History, II, 2 (1975), p. 228.

قلعة قرقميش

1- First identified by W. H. Skene and G. Smith see D. G. Hoganth Carchemish;; report on the excavations at Djcrabis on behalf of the british Museum conducted by C. Leonard Woolley and T. E. Lawrence, Pt. 1, Introductory (London, 1914).

2- Ibid., p, 1.

3- R. Koldewey, Die Architcktur von Sendschirli (Bwlin, 1898), p. 179, describes it as acircle.

4- Hogarth Carcaemish, Pt, a, Introductory, p. 1.

5- C. L. Woolley, Carchemish, Vol. 2: The Town Defences (London 1921), p. 44.

6- Breasted Recaal. Vol, III, See. 140, note.

7- Conder, Quarterly Statement of the Palestine Exploration Fund, 1881, p. 164.

8- Woolley, Carchemish, Pt. 2, pp. 46 and 47.

9- Ibid., p. 50.

10- Ibid., p. 47.

11- Ibid., p. 46.

12- L. W. king Branze reliefs from the Cates of Shalmancsr (London 1915). During two centuries and a half since Shahnaneser III, Carchemish had been repeatedly stormed and occupied by Assyrian kings.

13- Wooly, Carchemish, Pt, 2.

14- Conder, Quarterly Statement of the Palestine Exploration Fund, 1881, p. 164.

15- Hogarth, Carchemish, Pt. 1, p. 2.

16- Ibid.

17- Breasted, Records, Vol. II, Sec 335.

18- "In the reliefs the town is wrongly depicted as an isiand in the river". Cardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, p. 16.

19- Hogarth Carchemish, Pt. 1, p. 2.

20- Alexander Drummond, Travels... as for as the Banks of the Euphrates (London, 1754); the map is reproduced in Hogarth, Carchemish, Pt. 1, p. 4.

21- Pézard, Qadesh, p. 26.

خطة المعركة

1- The Semitic parat changed to ranat in Egyptian, the n, as often in this language, being only slightly pronounced, and the letter p being dropped, as the Egyptians might have mistaken it for "the" (pi) before the name of the river.

2- "Poem of Pentaur", Gardiner, op. cit., p. 8.

3- The original name of the place was "Arne, the city of Arame," the name of the king whose capital it was in the days of Shalmaneser III. Shalmaneser worte of the campaign of his tenth year: "Against the cities of Aarame (personal name) I drew near. Arne, his royal city, I captured". Lujenbill, Records of Assyria, Vol. I, Sec. 567. A. Erman. Life in Ancient Egypt (London, 1894), p. 335, and A. Gardiner, Egyptian Grammar (London, 1927), pp. 52-53 ¶ ¶ 59, 63, discuss instances of words containing an internal m or n that is often not written "with apparently no reason for the omission" (Erman), or "probably due to calligraphic reasons" (Gardiner, p. 52, ¶ 59).

4- Breasted, Records, Vol. III, Sec. 340. Breasted vocalized Bewcy in Records and Baui in The Battle of Kadash.

5- Woolley, Carchemish, Pt. 2, pp. 33-44.

6- Breasted. The Battle of kadesh, p. 23.

7- Annals of Ramses II. Breasted transhted "Kadsh the Deceitful," but it is assumed by Erman-Grapow, Wörterbuh dar Egypt the Sprache, I, 128, that the meaning is "Kadesh the Old," the adjective being a part of the name. See also A. Jirku, Zeitschrift der Deutschen Moegwnländischen Geselleschaft, 86 (1933), 179; A. Cardinerm The Kadesh mscriptions of Ramesses II, p. 32.

8- Woolley, Carchemish, Pt. 2, p. 38.

9- Trans. J. A. Wilson in J. B. Pritchard, ed., Ancient Near Eastern Texts (Princeton, 1950), p. 256.

10- I Kings 20: 14-19. See also J. Macdaged "The Naàr in Israelite Society," Journal of Nàar Lastern Studes, 35 (1976), p. 169.

قرقميش المدينة المقدسة

1- Joachim Menant, "Kar-Kemish," memoires, Academic des Inscriptions et Belles Letters XXXII, (1891), 210.

2- Ages in Chaos, Vol. I, "Mesha's Rebellion".

3- Lucian, The Syrian Coddess, Trans. H. A. Strong (London, 1913). The authorship of this book is sometimes questioned.

4- Sacred prostitution became the predominant feature of the cult, and every married women was rrequired, at least once in her lifetime, to offer herself to a stranger in the precincts of the temple.

5- In II Chronicles 35:20 the Syriac version substitutes Mabog for Carchemish; in II Kings 23: 29, where the Hebrew text reads "to the riverEuphrates," the Syriac version is "to Mabog whih is on the river Euphrates." The Arabic version follows the Syriac and has "to Menbaj"

(Membidj or Mabog). Also Ephrem, the Syrian saint (Commentaire sur l' Ecriture Saintc, Opcra Omnia, IV), renders Carchemish as Mabog.

6- Procopius, Histories, Persian Wars, II, 20.

7- The name Jerablus is considered a corruption of the names Europos (the Roman city on the site of Carchemish) and Hierapolis (Hogarth, Carchemish, Pt. 1, pp. 23-25).

Travelers of the eighteenth and nineteenth centuries placed Hicrapolis in Jerablus or Carchemish. J. S. Buckingham, in Travels in Mesopotamia (London, 1827), worte about "ruins of Hicrapolis, now called Yerabolis".

8- Ammianus Marcellinus, IV, 8, 7. See Hogarth, Carchemish, Pt. 1, p. 23.

الفصل الثانى

رمسيس الثانى ونبوخذ نصر
فى الحرب والسلم

ثورة السنوات الثلاث فى فلسطين والاستيلاء على عسقلان

بين السنة الخامسة والسنة الثامنة من حكم رمسيس الثانى. ثارت كل فلسطين ضد مصر (١). حدثت معركة قادش فى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثانى، وتبعت ثورة فلسطين النتيجة السيئة لهذا الصراع. وُصفت هذه الثورة فى سفر الملوك الثانى من الكتاب المقدس، فالمعركة عند نهر الفرات وقعت فى السنة الرابعة من حكم «يهوياقيم» (إرميا ٤٦:٢) ووقعت سوريا وفلسطين تحت السيطرة البابلية. والجزية التى كانت تُدفع لفرعون توقفت. (سفر الملوك الثانى ٢٣: ٣٥، ٢٤: ١).

«فى أيام يهوياقيم صعد نبوخذ نصر ملك بابل فكان له يهوياقيم عبدا ثلاث سنوات» (٢).

وكانت هذه السنوات الثلاث فترة كافية كى يستعد المصريون لإرسال جيش لاعادة اخضاع فلسطين. وهناك نقش من السنة الثامنة لحكم رمسيس الثانى يسجل محاولته هذه (٣). غزا رمسيس الثانى الساحل الفلسطينى وحاصر عسقلان، وهناك نقش فى معبد الكرنك يبين مدينة عسقلان تهاجمها القوات المصرية بقيادة رمسيس الثانى، ونقش موجز يقول «المدينة البائسة التى احتلها جلالته لأنها كانت شريرة، عسقلان تقول: سعيد من يعمل بإخلاص من أجلك» (٤). هذه الفترة الثالثة من الحرب، وصفها إرميا فى فصل «ضد الفلسطينيين قبل ضرب الفرعون

غزة» (٤٧: ١). «أتى الصلع على غزة. أهلكت أشكلون مع بقية واديهم» (٤٧: ٥).

كان الغزو الوشيك لفرعون إشارة إلى يهوياقيم، فتمرد فى سنة حكمه الثامنة ضد الكلدانيين. وعادت يهوذا ثانية ولسنوات قليلة، تحت سيطرة الفرعون رمسيس الثانى. وقد وصل بحملته إلى «بيت شان» حيث وُجدت لوحة لسنة حكمه التاسعة. ولكن بعد سنوات قليلة، وفى السنة الحادية عشرة من حكم يهوياقيم، تحرك «نبوخذ نصر» إلى فلسطين، وحاصر القدس وأسر ملكها وطرد الفرعون خارج البلد. «ولم يعد ملك مصر يخرج من أرضه؛ لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر إلى الفرات كل ما كان لملك مصر» (سفر الملوك الثانى ٢٤: ٧). ونصبَّ نبوخذ نصر «يهوياشين» (ييقونيا) على عرش والده يهوياقيم، لكنه عاد بعد ثلاثة أشهر إلى القدس وحمل «يهوياشين) إلى بابل مع «كل الامراء وكل الرجال ذوى الشجاعة فى الحرب» وأيضا «كل الصنّاع والحدادين»، ونصب «ماتنياح» الابن الثالث ليوشيا كملك تابع فى القدس وغيّر اسمه إلى «صدقيا». وتحمل صدقيا لثمان سنوات نير العبودية لملك بابل، ثم تخلى عن ولائه لنبوخذ نصر، مثل أخيه يهوياقيم معتمدا على وعد من الفرعون بمساعدته. وجاء نبوخذ نصر بجيشه إلى يهوذا وحاصر القدس.

نهاية مملكة يهوذا

مرت عشرون سنة منذ دفع «يوشيا» حياته ثمنا للدفاع عن «مجدو» ضد الجيش المصرى الغازى بقيادة رمسيس الثانى، وبذلك أوفى بشروط معاهدته مع البابليين. يهوآجاز بن يوشيا أمضى بقية حياته فى سجن مصرى، يهوياقيم – وهو ابن آخر ليوشيا– قتله البابليون، ييقونيا يهوياشين) ابن يهوياقيم سجن فى بابل، وصدقيا الابن الثالث ليوشيا وآخر ملك على عرش داواد يحاصره نبوخذ نصر فى القدس. أمر صدقيا سرا، دون معرفة الأمراء وكبار القدس، بإحضار إرميا من سجنه إلى القصر ليسمع منه نبوءة.

منذ شبابه، ولأكثر من ثلاثين سنة، أدهش إرميا شعب القدس:

«لاتضطهدوا ولاتظلموا الغريب واليتيم والارملة ولا تسفكوا دما زكيا فى هذا الموضع» (إرميا ٢٢: ٣) وكان يسير يوميا فى شوارع القدس وساحاتها محذرا سكان المدينة «لا أستطيع السكوت، لأنك سمعت يا نفسى صوت البوق وهتاف الحرب. بكسر على كسر نودى لأنه قد خربت كل الأرض» (٤: ١٩و٢٠). وكان إرميا قد ساند «يوشيا» فى تعهده الدفاع عن بابل ضد الهجوم المصرى، ومع إن يوشيا خسر المعركة فى مجدو، لكن العراف إرميا ظل طوال حياته وفيا لتوجهاته البابلية، وكان يرى أن الناس غير واعية للقوة النامية للكلدانيين، وكانوا يعتمدون على الافتراض الخاطئ بتساوى أو حتى تفوق مصر تحت حكم رمسيس الثانى. ولم يواس العراف الناس بوعود بمساعدة الرب كما فعل «إسيبا» منذ مائة سنة حين هدد سناحريب القدس. صاح إرميا في شوارع القدس: «قدسوا عليها حربا، قوموا نصعد فى الظهيرة، ويل لنا لأن النهار مال وظلال المساء امتدت» (٦: ٤).

وشهدت القدس الصراع الكبير بين نبوخذ نصر ورمسيس الثانى للسيطرة على العالم القديم، وأصبحت المدينة الجائزة بينهما. كان حزب المصريين فى القدس أقوى من حزب البابليين؛ لأن خيلاء مصر تحت حكم رمسيس الثانى ضللتهم، والمعاملة القاسية للبابليين جعلت الكثيرين أعداء، وهكذا كررت القدس تمردها على نبوخذ نصر.

اضطهد إرميا فى الايام الأولى التي سبقت الحصار الأخير وقبل أن تسقط القدس اعياءً من الجوع، وأخذ العهد عليه بألا يتسبب فى تردد قلوب الجند الذين أخذوا على عاتقهم العمل البطولى بمقاومة نبوخذ نصر، ومن الملاحظ إنه لم يُقتل بتهمة الخيانة. لقد أزعج كل الأمة بزعمه أن نبوخذ نصر هو خادم الرب ولابد من توقير شعوبه وحتى حيوانات حقوله. ولم يصدق شعب القدس ان هذه كلمة الرب. وكان صدقيا، ضمن قلة صدقت ان إرميا نبى فعلا. فى المقابلة السرية مع النبى الذى أحضر من سجنه، سأله الملك: «هل هناك كلمة من الرب فى هذا الموضوع، وأجاب إرميا: هناك كلمة: «إنك تُدفع لملك بابل» (٣٧: ١٧) لم يُعد إرميا إلى السجن، بل احتجزه فى فناء مجاور للقصر، وكانت تقدم إليه هناك يوميا بأمر الملك، قطعة خبز حتى نفذ الخبز من المدينة. وحين سمع القواد وسط المدافعين عن المدينة إن إرميا قال فى باحة حجزه «الذى يقيم فى هذه المدينة يموت

بالسيف والجوع والوباء، أما الذى يخرج إلى الكلدانيين فإنه يحيا وتكون له نفسه غنيمة» (٣٨: ٢) القوه فى زنزانة تحت الأرض حتى لايسمع أحد كلماته، وبقى هناك، لكن صدقيا أمر بأن يُجر من الوحل بالحبال ويُحضر إلى القصر عبر ممر سرى كان فى بيت الرب.

قال الملك لإرميا «أنا أسألك عن أمر فلا تخفى عنى شيئا، فقال إرميا: اذا أخبرتك انما تقتلنى قتلا..، فحلف صدقيا لإرميا سرا قائلا: حى هو الرب الذى صنع هذه النفس إنى لا أقتلك ولا أدفعك ليد هؤلاء الرجال الذين يطلبون نفسك. فقال إرميا لصدقيا: هكذا قال الرب إن كنت لاتخرج إلى رؤساء ملك بابل تدفع هذه المدينة ليد الكلدانيين فيحرقونها بالنار وأنت لا تفلت من ايديهم» (٣٨: ١٤-١٨). فات الوقت «لأن الموت طلع إلى كوانا ودخل قصورنا» (إرميا ٩: ٢١). ولم تحدث معجزة مثل أيام فرعون الخروج أو الملك سناحريب. وتحملت القدس الحصار ثمانية عشر شهرا، وأصبحت المجاعة مرعبة، لكن الناس لم تستسلم. وأخيرا حطمت العربات العاصفة الاسوار، وحين سقط سور المدينة هرب آخر المدافعين ليلا من باب حديقة الملك بين جدارين، وشق صدقيا طريقه إلى السهل. وتبع جيش الكلدانيين المحاربين الجوعى وقبض على صدقيا فى سهول أريحا وقد تبعثر جيشه. وأحضر أمام نبوخذ نصر فى «ربلة»، فقتل أولاده الصغار أمام عينيه ثم سملهما، فكان آخر ما رآه فى حياته منظر أطفاله فى سكرة الموت. واقتيد الملك الأعمى جرا إلى بابل وألقى فى السجن وكان عمره ٣٢ سنة. ووضع شعب القدس فى القيود، وتبعوا ملكهم إلى المنفى، جروا عرايا تماما، ولم يسمح لهم بالراحة فى الطريق (١)، لكنهم حملوا معهم أوعية فيها تراب من القدس كما يقول المؤرخ العربى ياقوت (٢).

«وصار لهذا الشعب قلب عاص ومتمرد. عصوا ومضوا (إرميا ٥: ٢٣) حين وصلوا الفرات، أقام نبوخذ نصر احتفالا على سفينته الملكية، وأمر أسرى القدس أن يغنوا أغانيهم المقدسة «سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة، ومعذبونا سألونا فرحا قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون، كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة. إن نسيتك يا أورشليم تنسنى يمينى، ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى» (المزمور ١٣٧: ٣-٦).

يقول الكاتب التقى لسفر أخبار الأيام: إن صدقيا «عمل ما هو شر فى نظر الرب ولم يتواضع أمام إرميا النبى. ولمحاولته استعادة حرية شعبه وسم بأخبار الايام بأنه خاطئ. ولم يشارك التلمود رأى الكتاب المقدس، وأعلن بأنه على حق وبأن معذبه رجل قاس (٣)

صدقيا، ممسوس برؤية حصار ومجاعة القدس، وصراخ أطفاله يرن فى أذنيه، وحفرتان جافتان فى وجهه لا يستطيع البكاء، عاش ومات فى السجن الذى كان ظلاما ليل نهار، ترك عرش داود واستهل موكب العبيد ورهبان الشقاء الذى امتد عبر الدهر منذ قياصرة الرومان ومحاكم التفتيش المسيحية وحتى وقتنا الحاضر.

وأصبحت فلسطين خرابا، أضحت البلاد المثمرة برية، وظلت الحقول بلا حرث، وهرب من الأرض المروَّعة كل طير مغرد وحلت مكانها النسور، ولم تعد تسمع صوت الطواحين فى أرض يهوذا أو يرى ضوء شمعة (٤) وترك النبى ليندب نهاية مدينته وشعبه وبعد أن تحققت نبوءته، سأل نفسه «لماذا صنع الرب هذا بمدينته العظيمة؟».

كانت القدس كومة حطام، ودمر الهيكل، وكل من مرَّ بها هز رأسه أسفا. آمة عنيدة سُبيت بالسلاسل على طول طريق سارت فيه قبائل اسرائيل بعد سقوط السامرة منذ ١٣٠ سنة سابقة. ولم يكن القول صحيحا بأن يهوذا وجدت القبائل العشر فى أشور أو بابل. لقد نزحوا شمالا وشرقا فى عمق أسيا، ومن المحتمل أن بعض الجماعات الاسرئيلية المنشقة عن يهوذا والسامرا، قد وصلت جبال الهملايا وغابات الهند.

دمرت القدس سنة ٥٨٦ ق. م. ، وبعد حقبة أو حقبتين ولد بوذا، وبعد سنوات قليلة ولد كونفوشيوس، وكان لاوتسى معاصرا لهم (٥). وذلك بالضبط ما حدث بعد التدمير الثانى للقدس حين أحرقت المدينة والهيكل على يد تيتوس، دفعة عبرية حامية اجتاحت الغرب و «هزمت الهازمون» وبعد التدمير الأول ريح من العاصفة التى كنست عرافى يهوذا، وصلت الشرق الأقصى لتثير ألسنة العرافيين والوعاظ.

حريق لاخيش الهائل

قبل الحرب العالمية الثانية، رفعت مجارف علماء الآثار عن الأرض

رماد ٥٨٦ ق.م. كانت لاخيش وعزيقة مع القدس آخر المعاقل التى قاومت الجيش الكلدانى.

«إذا كان جيش ملك بابل يحارب اورشليم وكل مدن يهوذا الباقية لاخيش وعزيقة لأن هاتين بقيتا فى مدن يهوذا مدينتين حصينيتن» (إرميا ٣٤: ٧).

بين سنتى ١٩٣٢، ١٩٣٨ أظهرت الحفريات فى «تل الدوير» فى جنوب فلسطين مدينة لاخيش القديمة (١) كانت واحدة من سلسلة حصون يهوذا. هاجم سناحريب المدينة سنة ٧٠٢ ق.م. وجعل فنانه ينقش هجومه على جدران قصره فى نينوى - وهو أحد أشهر النقوش الحربية الاشورية. وبعد ١١٥ سنة تعانى المدينة من حصار آخر، على يد قوات نبوخذ نصر.

وجدت تحت حوائط المدينة المنهارة التى دمرها الحريق، كسر من أوعية فخارية عليها نقوش بحروف عبرية. وبقراءة ما عليها فان تاريخ هذه الكسر يرجع إلى زمن حصار القدس على يد نبوخذ نصر.

كتب «شاياهو» وهو آمر حامية أمامية صغيرة شمال «لاخيش» إلى رئيسه «يائوش» الحاكم العسكرى «للاخيش» «بالنسبة لاشارات محطات لاخيش التى نراقبها حسب الاشارات التى يرسلها سيدى، فاننا لانرى اشارات عزيقة» ولقد ضمن ان هذه الرسالة قد كتبت حين كانت «عزيقة» تنهار تحت الحصار، «ولاخيش» فقط هى التى ترسل الاشارات النارية وترسل الاوامر إلى المخفر الذى ربما يكون «كريات يريم». لقد اكتشفت الكسرة تحت طبقة من رماد وأنقاض محروقة لبرج محطم من دفاعات المدينة، وتبدو حجارة الاسوار وقد تكسرت بفعل الحرارة الشديدة او تكلست جزئيا، كما تحولت المونة إلى مسحوق رمادى وردى. «من المؤكد أن الحريق داخل الغرفة التى قرب البوابات يرتبط مباشرة باحراق البرج من الخارج ومتوافق مع الهجوم الأخير كما تدل نقاط كثيرة على طول حائط السور الخارجى للمدينة، وقد وجهت مشاعل ضخمة لعمل تصدع فى السور، ومع ذلك فان الركن الشمالى الغربى للرابية والبرج تحمل الوطأة العظمى للهجوم.

أول موسم تنقيب فى التحصينات، أشار إلى أن إشعال الحريق يتوازى مع تدمير المدينة فى نهاية مملكة يهوذا زمن حملة نبوخذ نصر

قبل ان يدمر القدس سنة ٥٨٦ ق. م. أخشاب الزيتون المحترقة فى رماد النار تشير إلى الخريف كتوقيت لذلك» (٢).

وصفت التقارير فى المجلد الثانى لنتائج التنقيب المعبد المحلى «للاخيش» بإنه «تأسس بعد سحق قوة الهكسوس فى فلسطين، وقد أعيد بنائه فى فترة العمارنة، وقد وجدت لوحة لتخليد ذكرى امنحتب الثالث تحت اساسات المعبد المعاد بناءه» (٣).

كذلك اكتشفت وسط الانقاض أشياء صغيرة مختلفة:

«عاج وخرز وفازات زجاج، وخزف وأحجار ترجع إلى الاسرة الثامنة عشرة والاسرة التاسعة عشرة، جعارين ولوحات لتخليد ذكرى اسماء ملكية تتدرج من تحتمس الثالث (١٥٠١- ١٤٤٧ ق. م) إلى رمسيس الثانى (١٢٩٢-١٢٢٥ ق. م.)». وهذا يشير إلى أنه لم يتدمر قبل ١٤٩٢ ق. م. (٤). كل هذه التواريخ استمدت من التاريخ التقليدى الرسمى. وقد وجدت فى المعبد مع الاشياء المصرية من الاسرتين ١٨، ١٩ أشياء محلية من القرن التاسع والثامن ق. م.

وقد فسر وجودها مع الاشياء المصرية بأن «الاشياء التى وجدت من القبور التي حفرت فى وقت متأخر فى الغرف والتربة المحيطة من ٩٠٠-٨٠٠ ق.م تثبت فقط ان المعبد كان مدفونا جيدا ونسى مع الزمن» (٥).

الجعارين وأختام لفراعنة مصر من الاسرتين ١٨، ١٩ وجدت فى فلسطين غالبا فى طبقة أرضية ترجع للعصر الاسرائيلى، وقد اعتبرت هذه الأختام سابقة للطبقة الأرضية التي اكتشفت فيها، وفسر ذلك بإنها إما تمائم قديمة استخدمها الاسرائيليون بعد خمسمائة سنة أو ستمائة سنة، أو أنها معاصرة ولكنها مزيفة لفراعنة قدامى.

بناء على هذا التفسير الغالب يمكن للمرء ان يفترض ان الاشياء المصرية فى معبد لاخيش إما إنها قديمة أو مزيفة. ولكن فى هذه الحالة يمكن تجاهل هذا التفسير بسبب «ان الجعارين تشتهر بسوء السمعة ولا تستخدم لأغراض تاريخية إلا إذا كانت بكميات وافرة» (٦). والجعارين هنا توجد بكميات وافرة. ويهمل هذا التفسير أيضا بسبب لوحة تخليد ذكري امنحتب الثالث التي وضعت تحت اساسات المعبد حين أعيد بناءه. وضع

هذه اللوحة عمل رسمي، ولابد ان تستخدم لوحة أصلية ومعاصرة.

معبد لاخيش دمر تماما فى حريق هائل «دمر المعبد بالنار » ثم بعد ذلك مباشرة وقبل ان يتم استنقاذ أى شيء جاء المطر وازاح الرمل وملأ الحطام به. «وهذا يشير بأن التدمير حدث قبل أو أثناء فصل المطر » (٧) وفصل المطر فى فلسطين يبدأ من أواخر الخريف وحتى الربيع.

علامات النار والتدمير وجدت منتشرة على نطاق واسع مما يشير إلى ان حرق المعبد كان «فقط جزءاً من كارثة أكبر وأشمل» (٨). بالنسبة لتاريخ تدمير المعبد بالنار، كتب علماء الآثار «من شواهد المجموعة الكبيرة من الأوعية التى وجدت داخل غرف المبنى وسط الرماد الذى يغطى الأرضية، يبدو من المستحيل أن يكون التدمير أبعد من منتصف حكم رمسيس الثانى حوالى ١٢٦٢ ق. م» (٩).

فى وقت ما بعد تدمير معبد لاخيش، نصبت عدة أحجار معا «بواسطة أحد المؤمنين الباقين الذى كانت تعوزه المواد الضرورية لاعادة بناء الانقاض لتقدم عليها القرابين» ذكرت هذه الاحجار المنقبين بحادثة مشابهة بعد تدمير الهيكل فى القدس والمفروض إنه تم بعد سبعمائة سنة، فكتب أحد المنقبين «حادثة مشابهة ملحوظة يمكن رؤيتها فى سفر إرميا ٤١: ٥» (١٠).

فى انقاض بناء مستطيل كان امتدادا البرج، حيث وجدت قطعة فخار من زمن نبوخذ نصر، اكتشفت آثار ترجع إلى حكم رمسيس الثانى «مع ان المبنى قد دمر، فان النفاية التى طمرت اساساته لها أهمية كبيرة لدينا». كسر الفخار التى وجدت كانت دون شك من الاسرتين ١٨، ١٩ «وأصبح من المؤكد ان المستوى الأفقى التى وجدت فيه قد حفره البناءون المتأخرون» كذلك وجدت كميات من كسر الأوعية من الطراز المحلى المزخرف ترجع إلى الاسرتين ١٨، ١٩ مشابهة لما وجد فى المقابر التى بها الجعارين، ومن الراسب نفسه وجد جعران من العقيق الأحمر مزخرف بشكل جيد يحمل اسم «أوسر معت رع»، وسيتب . ان . رع، رمسيس الثانى. وبالتاكيد تعرض هذا الجعران للنار فعلى سطحه طبقة رمادية، وفى هذه الطبقة جمعت خمس وعشرين قطعة من آنية فخارية مزخرفة لولبيا داخليا وخارجيا، وعرفت الكتابة التى عليها بأنها «الهيراطيقية

المصرية من القرنين ١٣، ١٢ ق. م ، ويرجع النقش إلى السنة الرابعة، من الواضح إنها من حكم رمسيس الثانى (١١).

وحاول المنقبون فى أواخر سنة ١٩٣٧، ان يحددوا تاريخ طبقة من الرماد الاسود النقى تغطى خندقا اسفل اساسات المبنى بأنها « لبنائين من العصر الحديدى»، وقد وجد فى هذه الطبقة الأخيرة من الرماد كسر من وعاء فخارى أصفر برتقالى من نموذج وجد فى المستويات العليا يعود للاسرتين ١٨، ١٩، مع ادوات زينة عاجية وجعارين مدفونة فى الرماد من نوع الاشياء التى وجدت فى تل الدوير (١٢).

ونجد هنا ان حرق المعبد لم يكن حادثة منعزلة فى تاريخ المدينة، ولكن كان جزءا من نكبة عامة تحدد نهاية السيطرة المصرية فى القرن ١٢ ق.م قرب نهاية حكم الاسرة ١٩.

وهكذا يكون لدينا الموقف التالى: وجدت فى رماد وخرائب معبد لاخيش الذى دمر بالنار أيام رمسيس الثانى (هذا التاريخ بسبب وجود أختام هذا الملك) آثار من عصر المملكة اليهودية بأعداد كبيرة، وقد قيل إنها قد اختلطت بآثار من فترة أبكر عند الحفر.

وكذلك وجد فى رماد وخرائب معبد لاخيش الذى دمر بالنار أيام نبوخذ نصر (هذا التاريخ بسبب وجود الرسائل العبرية للمدافعين عن المدينة) فازة عليها كتابة هيراطيقية من الاسرة ١٩ وأختام لرمسيس الثانى، وقيل ان هذه الآثار من المحتمل إنها من عصر سابق استخرجت فى عصر الملوك اليهود واختلطت باشياء من عصر متأخر (عصر نبوخذ نصر).

هل كان هناك تدميران للمعبد بالنار يفصلهما سبعمائة سنة؟

اعادة كتابتنا للتاريخ، على أساس ان نبوخذ نصر ورمسيس الثانى متعاصران تقودنا إلى نتيجة مختلفة:

بنى معبد لاخيش أيام سليمان وتحتمس الثالث، وأعيد بناؤه ايام يهوشابات وأمنحتب الثالث، البناء الثالث للمعبد فى المكان نفسه - اكتشف علماء الاثار ثلاث انشاءات للمعبد فى فترات متعاقبة - بعد حصار المدينة أيام سنحريب. وقد دمرت المدينة والمعبد على يد نبوخذ نصر فى عهد رمسيس الثانى فى السنة الحادية والعشرين من حكمه.

معاهدة بين رمسيس الثانى ونبوخذ نصر

تحارب عملاقان لمدة تسع عشرة سنة للسيطرة علي الشرق الاوسط، مصر تحت حكم رمسيس الثانى، وبابل تحت حكم نبوخذ نصر، وكانت يهوذا هى ضحية هذا الصراع المميت. وأهلكت بجنود الطغاة واحد وراء الآخر، ونجت أرضها من اهوال هذه الحرب الطويلة.

ولكى يحقق النصر على يهوذا المتمردة، اقترح نبوخذ نصر (أخيرا) معاهدة سلام مع الفرعون. وأخذ المؤرخون ذلك قضية مسلمة.

اثناء الحصار الأخير للقدس، حدثت مفاوضات حول معاهدة بين بابل ومصر (١)، وكان الفرعون سعيدا بذلك، فقد وفر السلامة لبلاده، وضحى بحليفته يهوذا.

عانت القدس من حصار استمر ثمانية عشر شهرا، ثم تبع ذلك تدميرها .وأنتهت الحرب بين مصر وبابل، ولم تأت مصر لمساعدة المحاصرين بل رهن المصريون والبابليون الوفاء لبعضهما بتسليم اللاجئين السياسيين إلى مصر.

معاهدة السلام محفوظة باللغة المصرية منقوشة على جدار آمون فى معبد الكرنك، ونصها باللغة البابلية (الاكادية) مكتوب على الصلصال بالحروف المسمارية وقد وجدت فى أول هذا القرن فى «بوغازكوى» – وهى قرية فى شرق الاناضول – نسخة من وثيقة المعاهدة نفسها.

أصل المعاهدة كتب على لوحة فضية لم توجد حتى اليوم. اللغة الاصلية للمعاهدة هى البابلية، والنص المصرى هو ترجمة لها كما تكشف بعض التعبيرات.

وقع المعاهدة أسيرمير بن منمير حفيد منبهتاير (وهو الاسم الملكى لرمسيس الثانى بن سيتى حفيد رمسيس الأول)، ومن خيتار سار بن ميروسار حفيد سبليل.

ووقعت المعاهدة فى اللغة الاكادية من حاتوسيلس بن مورسيلنس حفيد سبلوليوماس (٢)

الرجل الذى قرأ اسمه بالمصرية خيتاسار، وفى النص الاكادى حاتوسيليس هو الملك الذي نعرفه باسم نبوخذ نصر بن نابو بولاسار. وقد

ذكر اسمه في الكتاب المقدس نبوخذ ريزار أكثر من خمسين مرة، ونيبوخادنزار اكثر من ثلاثين مرة (٣)

سمى خصم رمسيس الثاني في المعاهدة بملك الحيثيين، و Hatti أو حثى كما هو معروف من الكثير من النصوص المسمارية هو اصطلاح انثروبولوجي وصفي واسع المعنى أو مكان يحدد أرضا ما.

في نقش على مبنى بابلي، كتب نبوخذ نصر «أمير أرض الحثيين وراء الفرات إلى الغرب الذين مارست عليهم السيادة» (٤)

وهناك في المعاهدة مادة تتعلق بعهد ولعنة لمن لا يفي به، وذكر لآلهة أماكن عدة يرجى تدخلها للمحافظة على سريان المعاهدة ومعاقبة من ينتهك بنودها.

في قائمة الآلهة والآلهات كانت آلهة «صور» متبوعة بالهة «دان» ولكن «دان» كان اسمها في عصر القضاة «ليش»، وجيروبوم هو الذى بنى معبدا هناك فورود اسم «دان» في معاهدة لرمسيس الثاني الذى من المفترض ان يكون في القرن ١٣. ق. م، يبدو مفارقة تاريخية.

كان الهدف من المعاهدة وقف العداء بين الأرضين وواضح من نصها ان سوريا وفلسطين لم تعودا تحت السيطرة المصرية، وهذا يتفق مع التاريخ التوراتي. ويتناول الجزء الاكبر من المعاهدة مشكلة اللاجئين السياسيين، وقد كتبت المادة الخاصة بذلك بطريقة تبادلية، ومن الواضح ان ملك الحيثيين العظيم هو الذى كان مهتما بتسليم اعداء الكلدانيين السياسيين. كذلك هناك فقرة في المعاهدة تتعلق بالأبقين الفلسطينين (السوريين): «والآن اذا خرق رعايا رئيس خيتا الكبير القانون ضده وعبروا الحدود.. ساتعقبهم لأعاقبهم عند حاكم مصر العظيم (رمسيس ميريامون).. لكي يبقى حاكم مصر صامتا وهو سوف يعيدهم إلى حاكم خيتا العظيم» (٥).

قبل ذلك بفترة، كانت هناك معاهدة مماثلة بين الفرعون وملك القدس. فلقد هرب النبي إرياه Uriah من وجه «يهوياقيم» إلى مصر «فارسل الملك يهوياقيم أناسا إلى مصر.. فاخرجوا «أوريا» من مصر وأتوا به إلى الملك يهوياقيم» (إرميا ٢٦: ٢٢، ٢٣). بعد عشر أو خمس عشرة سنة كان سكان فلسطين وأدوم يهربون إلى مصر من وجه الكلدانيين، وكانت مصر مكان للجوء الخائفين من الكلدانيين. وقد تنبأ «إرميا» أن هؤلاء اللاجئين اليهود

سيطردون من مصر «ولايكون ناج ولاباق لبقية يهوذا الآتين ليتغربوا فى أرض مصر ليرجعوا إلى يهوذا» إرميا ٤٤: ١٤.

وكانت المادة التالية فى المعاهدة تحقيقا لما تنبأ به إرميا قبل سنوات قليلة: «اذا هرب شخص أو شخصان.. وجاءوا إلى أرض مصر كي يغيروا الولاء، فإن «اسر ماعت رع» المختار من رع حاكم مصر الكبير لايسامحهم ولكن يجعلهم يعودا إلي الرئيس الكبير للحيثيين» (٦).

كان قدر «إرميا»، رغم ارادته، ان يصبح هاربا إلي مصر حيث قررت بقية يهوذا ان تهاجر هناك «لكى يسيروا ويدخلوا مصر من وجه الكلدانيين لأنهم كانوا خائفين منهم» (إرميا ٤١: ١٧، ١٨).

ولقد حفظ التلمود قصة نهاية إرميا وأولئك الذين أجبروه على الذهاب إلى مصر. فلقد أخذ نبوخذ مصر الهاربين من مصر إلى بلاد الكلدانيين (٧)، وفعل ذلك بفضل المعاهدة التى وقعها مع رمسيس، واحتوت المعاهدة على فقرة تدعوا إلى المعاملة الانسانية للهاربين الذين يسلمون إلي نبوخذ نصر «اذا هرب أناس من أرض الحيثيين وجاءوا إلى «أسر ماعت رع» حاكم مصر الكبير .. ثم أعيدوا إلى رئيس الحيثيين الكبير.. فإن رئيس الحيثيين الكبير لايتهمهم بالجريمة ضده ولايدمر بيوتهم ولايقتله او زوجته وأولاده ولايتعدى على سمعه أو بصره أو فمه أو ساقيه» (٨).

ولقد وجد رمسيس ضرورة لأن يضمن المعاهدة هذه المادة الانسانية حماية للتعساء المضطر الآن إلى تسليمهم، لأن نبوخذ نصر هو الذى قتل صدقيا وسمل عينيه. وهناك حكاية «حزقيال» التى تنبأ بها للعبرة «بنى بابل وكل الكلدانيين..ومعهم كل بنى أشور يقطعون أنفك وأذنيك» حزقيال ٢٣: ٢٣، ٢٥.

مواد المعاهدة تتعامل مع موقف عملى، يلقى ضوءا إضافيا على قصة الاستشهاد كما أخبر بها الكتاب المقدس. قصة تشويه السجناء وقتل الاطفال، والابعاد وقصة تلك القلة التى هربت إلى مصر من رعب التعذيب والذراع الطويلة التى طالتهم فى البلاد التي لجأوا إليها.

مقارنة أحداث الحرب في الكتاب المقدس وفي نقوش رمسيس الثانى

مقارنة التاريخ العسكرى لرمسيس الثاني مع ما جاء في الكتاب المقدس تكشف عن عدم التناقض وعن نقاط توافق كثيرة.

فحسب المصدرين بدأت الحرب بحملة من الفرعون عبر فلسطين حتى شمال سوريا (سفر الملوك الثانى ٢٣: ٢٩، لوحة عند نهر الكلب، مسلة تانيس). واجهت الفرعون اثناء سيره مقاومة وكان عليه ان يحارب ليشق طريقه (سفر أخبار الأيام الثانى ٣٥: ٢٢، سفر الملوك الثانى ٢٣: ١٩، لوحة اسوان).

وقتلت سهام رماة رمسيس الملك المعارض (سفر أخبار الايام الثانى ٣٥: ٢٣، لوحة جدارية مصرية فى متحف المتروبوليتان للفن من معبد رمسيس الثانى) ثم وصل فرعون إلى شمال سوريا ونصب معسكره ومخفر فى ربلة بأرض حماة (سفر الملوك الثانى ٢٣: ٣٣، نقش لرمسيس الثانى فى السنة الثانية لحكمه عند وادى الكلب). وأحضر معه أسرى من البيت الملكى فى فلسطين (سفر أخبار الايام الثاني ٣٦: ٤)، مسلة تانيس) وفرض جزية على الأرض (سفر أخبار الايام الثانى ٣٦: ٣، سفر الملوك الثانى ٢٣: ٣٥، مسلة تانيس). فى السنوات التالية عاد الفرعون إلى شمال سوريا، فقام بحملة ثانية (سفر الملوك الثانى ٢٣: ٣٣، لوحة اسوان، السجلات الرسمية للمعركة) ووصل إلى اقليم قادش – قرقميش (إرميا ٤٦: ٢ ومابعد، السجلات الرسمية للمعركة، قصيدة بنتاءور). جاء بأربع فرق (إرميا ٤٦: ٩، قصيدة بنتاءور، السجلات الرسمية للمعركة) وكان مع جيشه مرتزقة من الساردان (إرميا ٤٦: ٢١، قصيدة بنتاءور) وتحالفت مدن سوريا مع خصمه (إرميا ٣٥: ١١، السجلات الرسمية للمعركة، قصيدة بنتاءور) هوجمت القوات المصرية فجاة وطردت شمالا تجاه النهر (إرميا ٤٦: ١٠، قصيدة بنتاءور، السجلات الرسمية للمعركة) بمعنى ليس فى اتجاه مصر لكن بعيدا عن قاعدتهم الاساسية، وكانت هزيمة وتفرق الحشد الكبير خائفا (إرميا ٤٦: ٨، قصيدة نبتاءور، السجلات الرسمية للمعركة) وسارع الفرعون بالتراجع عن طريق ملتوية مع بقية قواته إلى مصر،

وكنتيجة مباشرة لهذه الحملة خضعت فلسطين للقوات الكلدانية الاكادية (الحيثية) و أصبحت تحت حكمهم لسنوات قليلة: (إرميا ٢٤: ١، وقارن فوكنر فى تاريخ كمبردج القديم حـ٢ صـ٢٢٨ سنة ١٩٧٥) تبع ذلك محاولة الملك المصرى بدء عدوان جديد لاعادة غزو فلسطين (إرميا ٤٧: ٢، فوكنر المصدر السابق صـ٢٢٨) وكانت أرض الفلسطينيين هى الهدف المباشر، فحوصرت المدن وهوجمت وتم الاستيلاء عليها (إرميا ٤٧: ٥، نقش غائر على الحائط الجنوبى الخارجى فى قاعة مرتكز السقف فى معبد الكرنك)، وأصبحت فلسطين ثانية لفترة من الزمن تحت السيطرة المصرية (لوحة فى بيت شان، نقوش فى الرامسيوم، فوكنر مصدر سابق صـ٢٢٨) لكن المصريين تراجعوا تحت ضغط الاكاديين الكلدانيين وضاعت فلسطين مرة ثانية من مصر (سفر الملوك الثانى ٢٤: ٧، سجلات بريستد مجلد ٣ فصل ٣٦٦)، واستمر العداء لعدة سنوات دون معركة، ووصلت الحرب إلى نهايتها بعد عقدين تقريبا، وفى النتيجة النهائية قبلت الامبراطورية المصرية بفقدها الولايات الآسيوية وبذلك نجت هيبتها المهددة بالخطر، وأتهمت مصر بأنها كانت «عكاز قصب لبيت اسرائيل» حزقيال ٢٩: ٦.

كانت مشكلة اللاجئين السياسيين القضية الاساسية فى مفاوضات السلام، ووافقت مصر على تسليمهم (تلمود اورشليم، سانهيدرن ١: ١٩م، معاهدة رمسيس الثانى مع حاتوسيليس).

كذلك يلاحظ ان الاحداث ونتائجها والمواقع التى حدثت فيها هى نفسها فى السجلات المصرية لرمسيس الثانى وفى نقوش الفرعون نيخو، كما نجد ان الفترات المحددة بين كل خطوات هذه الحرب الطويلة تتوافق تماما فى المصادر المصرية والمصادر العبرية.

اذا كانت هذه المقارنات التاريخية قد درست لا من أجل التمحيص ولكن من أجل تحديد التماثل، واذا أتخذت كبرهان لهذا التماثل، فأنها تصبح دراسة مثيرة، إن التوافق بين الشخصيات فى التاريخ المصرى والكتاب المقدس - بخصوص الفترة التى هى تحت الفحص فى هذا الفصل - توافقا كاملا. إن تزامن كل الاحداث يتوافق حتى بالتفاصيل. ولكن اذا أمكن التشكيك فى تعاصر الازمنة فكيف يمكن تفسير تزامن التفاصيل؟

*****

وقعت الحملة الأولى لرمسيس الثانى على شمال سوريا فى السنة الثانية من حكمه. هذا هو تاريخ لوحته الأولى عند نهر الكلب، ويبدو ان مسلة تانيس تشير إلى الاحداث نفسها. فى بداية هذه الحملة الأولى لملك مصر المتجهة إلى نهر الفرات، قتل يوشيا ملك القدس فى مجدو. بعد ثلاثة أشهر نصب يهوياقيم ملكا على القدس (سفر أخبار الايام الثانى ٣٦: ٢، ٤). وتتوافق بداية حكم يهوياقيم مع السنة الثانية من حكم رمسيس الثانى. فى السنة الرابعة لحكم «يهوياقيم» قام الفرعون بحملته الحربية الثانية ووصل قرقميش (إرميا ٤٦: ٢)، ابتدأت السنة الرابعة من حكم يهوياقيم فى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثانى، وهذا يتوافق مع المصادر المصرية، فرمسيس الثانى بدأ حملته الثانية تاركا مصر فى اليوم التاسع من الشهر العاشر من السنة الخامسة (قصيدة نبتاءور).

كانت السنة الرابعة من حكم «يهوياقيم» أيضا هى السنة الأولى من حكم نبوخذ نصر ملك بابل (إرميا ٢٥: ١) وبالتالى فإن نبوخذ نصر عد سنوات حكمه من السنة التى حارب فيها المعركة الثانية عند الفرات حين كان قائدا للجيش البابلى وملكا علي آشور» التى كانت جزءا من الامبراطورية البابلية، وقد كان يدعى في البداية ملك أشور (سفر الملوك الثانى ٢٣: ٢٩) ثم دعى بعد ذلك ملك بابل أو ملك الكلدانيين.

السنة الأولى من حكم «نبوخذ نصر» كانت تقع فى الجزء الأخير من السنة الخامسة لحكم رمسيس الثانى وبداية السنة السادسة. وحسب المصادر المصرية فإن فلسطين كانت فى ثورة ضد مصر منذ نهاية السنة الخامسة وحتى السنة الثامنة أو التاسعة من حكم رمسيس الثانى. هذه السنوات التي تبعت هزيمة المصريين فى قادش - قرقميش تتوافق مع الفترة من السنة الخامسة حتى السنة الثامنة من حكم يهوياقيم، وقد ذكرت هذه السنوات فى سفر الملوك الثانى ٢٤: ١ «فى أيامه صعد نبوخذ نصر ملك بابل فكان له يهوياقيم عبدا ثلاث سنوات ثم عاد فتمرد عليه».

فى نهاية هذه الفترات، تمرد يهوياقيم ضد البابليين، كما يقرر سفر الملوك. وهكذا يكون تمرده فى السنة الثامنة لحكمه فى الوقت الذى هاجم فيه رمسيس الثانى عسقلان فى سنة حكمه التاسعة (٢). وحيث ان السنة التاسعة لحكم رمسيس الثانى هى الثامنة من حكم يهوياقيم فإن حصار

رمسيس لعسقلان يتوافق مع تمرد يهوياقيم على نبوخذ نصر.

النقش فى معبد الكرنك الخاص بحصار عسقلان، والفصل ٢٧ من سفر إرميا يلقيان ضوءاً واضحا على هذه الحادثة. ووصول الجنود المصريين إلى «بيت شان» فى السنة التاسعة من حكم رمسيس تؤكده لوحة أقيمت هناك فى سنة حكم رمسيس الثانى التاسعة.

بعد ذلك بثلاث سنوات، فى بداية السنة الثامنة من حكم «نبوخذ نصر» (سفر الملوك الثانى ٢٤: ١٢) التى كانت السنة الثانية عشرة من حكم رمسيس الثانى، والحادية عشرة من حكم يهوياقيم سقطت القدس ثانية فى قبضة «نبوخذ نصر».

وبعد ثلاثة أشهر كان «يهوياشين» بن «يهوياقيم» ينفى إلى بابل، وخلال الاشهر الثلاثة من حكمه والسنوات الثمانى من حكم صدقيا كانت القدس خاضعة لبابل (سفر الملوك الثانى ٢٤: ٨).

فى السنة الثامنة من حكمه، تمرد «صدقيا»، وحاصر «نبوخذ نصر» القدس كان جيش الفرعون لم يغادر مصر منذ عزل يهوياقيم أى منذ السنة الثانية عشرة من حكم رمسيس (سفر الملوك الثانى ٢٤: ٩٧ وكان قد أعد نفسه فعبر حدود فلسطين (إرميا ٣٧: ٥) فانسحب الكلدانيون عن القدس واتجهوا لمقابلة الجيش المصرى، وتنبأ إرميا «إن جيش الفرعون الخارج لمساعدتكم يرجع إلى أرضه، إلى مصر» (إرميا ٣٧: ٧) وأن الكلدانيين سيعودون ويحاربون ضد القدس. كانت هذه الفترة كافية ليصدق أغنياء القدس ان الخطر قد انتهى، وكانوا قد حرروا عبيدهم فحاولوا ان يستعيدوا من اطلقوهم (إرميا ٣٤: ١١) وبعد ان عاد المصريون إلي بلادهم دون ان يحاربوا فى الشهر العاشر من السنة التاسعة لصدقيا، عاد نبوخذ نصر إلى القدس وجدد حصارها (سفر الملوك الثانى ٢٥: ١). ونتيجة للاتفاقية بين الامبراطورتين، سلمت مصر سوريا وفلسطين إلى نبوخذ نصر تاركة القدس دون مساعدة.

وقعت هذه المعاهدة بين ملك مصر وملك الكدانيين قبل اليوم العاشر من الشهر العاشر من السنة التاسعة لحكم«صدقيا» فى اليوم الذى جدد فيه الكلدانيون حصار القدس (سفر الملوك الثانى ٢٥: ٢١ إرميا ٢٩: ١، حزقيال ٢٤: ١) كانت السنة التاسعة من حكم «صدقيا» هي السابعة عشرة

لنبوخذ نصر (حيث السنة العاشرة لصدقيا هى السنة ١٨ لنبوخذ نصر، إرميا ٣٢: ١) وبالتالى فهى السنة الحادية والعشرين لحكم رمسيس الثانى، وبالفعل فإن المعاهدة بين رمسيس الثاني وملك الحثيين وقعت فى اليوم ٢١ من الشهر الرابع من السنة ٢١ من حكم رمسيس الثانى.

استمر كل الصراع بين مصر والحثيين (الأكاديين، الكلدانيين) ١٩ سنة، من السنة الثانية من حكم رمسيس الثانى (أول سيره نحو الشمال) حتى السنة الحادية والعشرين من حكمه (حين وقعت معاهدة السلام).

بمقارنة ذلك مع المعلومات العبرية نجد الارقام التالية:

الفترة من موت يوشيا فى مجدو (الحملة الاولى لفرعون نحو الشمال)، حتى بداية الحصار الأخير للقدس على يد الكلدانيين تتضمن:

ثلاثة شهور من حكم يهوأجاز (سفر الملوك الثانى ٢٣: ٣١) عشر سنوات وبضعة أشهر من حكم يهوياقيم.

ثلاثة أشهر من حكم يهوياشين.

ثمانى سنوات وتسعة أشهر من حكم صدقيا (تجديد الحصار)

وحيث ان سفر أخبار الايام الثانى (٣٦: ١١) يتحدث عن السنوات الاحدى عشر ليهوياقيم، بينما إرميا (٣٩ك *) يتحدث عن السنة الحادية عشرة، فربما مايشير إليه سفر أخبار الايام يعني السنة الحادية عشرة.

وهكذا فقد مرت تسع عشرة سنة منذ الحملة الأولى لرمسيس إلى فلسطين وموت الملك يوشيا حتى انسحاب الجيش المصرى وبداية الحصار الأخير للقدس.

وحسب معلومات الكتاب المقدس وسجلات رمسيس الثانى، المتشابهة، فإن مصر اشتركت فى حرب لمدة تسع عشرة سنة.

تتوافق المصادر المصرية والعبرية في نظامها وطولها لمراحل الحرب المصرية الكلدانية. والمعلومات الدقيقة فى هذه المصادر جعلت هذه النتيجة ممكنة. وهذه دقة لم تتحقق فى التاريخ الرسمى فى فترات كثيرة فى الالف أو حتي الالفين من السنين السابقة علينا.

يفترض التاريخ الرسمى لمصر ان رمسيس الثانى كان فرعون الاضطهاد زمن موسى (هذا اذا ترك العبريون مصر أيام مرنبتاح) أو إنه

كان حاكما لمصر وفلسطين زمن القضاة (هذا اذا ترك اليهود مصر قبل بداية الاسرة ١٩)، وبالتالى فإن حملات رمسيس الثانى على سوريا وفلسطين من المفترض إنها قد حدثت إما أيام عبودية اليهود فى مصر أو فى أيام حكم القضاة فى فلسطين. ومع ذلك لايوجد فى سفر القضاة أى ذكر لحاكم مصرى أو أى حملة لفرعون ضد سوريا وفلسطين.

وبالمنطق نفسه، فإن إزاحة رمسيس الثاني إلى الماضى البعيد، نجد ان ما جاء فى سفر الملوك وأخبار الايام وإرميا وحزقيال عن حرب نبوخذ نصر مع الفرعون نيخو لايوجد لها مقابل فى التاريخ المصرى. وقد بحث فى النقوش المصرية عن فرعون باسم نيخو.. لكن علم الآثار لم يزودنا بشىء عن قصة هذه الحرب.

النقش الأثرى الوحيد الذى يذكر اسم نيكاو ويهمبر هو نقش على بلاطة ضريح لعجل.

لو تتبعنا التاريخ الرسمى لانجد ذكرا لحروب رمسيس الثانى فى الكتاب المقدس، وكذلك لانجد ذكرا لحروب نبوخذ نصر ضد مصر فى السجلات الكثيرة لبلاد النيل، لكن حروب رمسيس الثانى تتوافق بدقة مع رواية الكتاب المقدس عن الفرعون نيخو.

أو أن الأحداث والمعارك والحصارات نفسها للمدن ذاتها وقعت وبالطريقة نفسها منذ سبعمائة سنة وعلى الفترات عينها بالضبط؟

يبدو ذلك معجزا لو وصلت إلينا سجلات هذه الأحداث المتطابقة، لكن ليس هناك سجلات مصرية لحروب نيكاو – ويهمبير (٤).

هوامش الفصل الثانى

ثورة السنوات الثلاث فى فلسطين والاستيلاء على عسقلان

1- Faulkner in The Cambridge Ancient History. II, 2 (1975), p. 228.

2- Jehoiakim revolted against Nebuchadnezzar in his (Jehoiakim's) eighth year, after three years of submission; therefore his defection from the pharaoh occurred in his fifth year.

3- Wilson in Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, p. 256.

4- Wilson, loc. cit.

نهاية مملكة يهوذا

1- Pesikta Rabba 28.

2- "This is told in the ancient chronicles: when the Jews went from Jerusalem... and became exiles in Iraq, they carried with them earth and water of Jerusalem". Yaqout (Yakut), Dictionnaire géographique, historique et littéraire (trans. from Arabic by Barbier de Mcynard, Paris, 1861), p. 613.

2- Tractate Shabbat 149a, Sanhedrin 103a.

4- Jeremish 25: 10.

حريق لاخيش الهائل

1- Earlier in the century was erroneously identified in the mound of Tell et Hasi. Following a suggestion by W. F. Albright. J. L. Starkey dug at Tell ed Duweir, He suffered death at the hands of Arab terrorists who mistook him for a Jew; the mound was left only partially exavated. The publication of the results absorbed the next twenty years and was executed by Olga Tufnell, a member of Starkey's staff. Lachish (Tell ed Duweir), Vol. I, The Lachish Letters (1938) (Torezyner of the Hebrew Universityat Jerusalem read and edited the letters)' vol. II, The Fosse Temple, by O. Tufnell, C. H. Inge, and L. Harding (1940); Vol. III, The Iron Age, by o. Tufnell (1953); Vol. IV, The Bronze Age, ed. O. Tufnell (1958).

2- Lachish, Vol. I, P. 12.

3- Ibud., Vol. II, p. 20.

4- Ibid.

5- Ibid.

6- Ibid., p. 68.

7- Ibid., p. 44.

8- Ibid., p. 23.

9- Ibid., p. 47.

10- Ibid., p. 45.

11- J. Cerny maintains that the fourth year refers to the fourth year of Meneptain, the succosson to Ramses II. See Albright, Bulletin, American School of Oriented Resecrch, LXXIV (1930), 21.

12- A ewer is a kind of a wide-mouthed jug.

معاهدة بين رمسيس الثاني ونبوخذ نصر

1- F. K. Kientiz, Die politische Geschishtc Aegyptens vom 7. bis. zum 4.

Jahrhundert vor der Zeitwened (Berlin, 1953), p. 24: "Thus Necho and Nebukadnezar came to an understanding, and probably even concluded a formal treaty". R. P. Dougherty, Nabonidus and Belshazzar (London, 1929), p. 55: "It is natural to supposc that a traty (with Egypt) was negotiated... Breasted takes it for granted".

2- This reading of the foreign royal names by Egyptologists follows other usages, the sounds r and i being represented by the same sign in hieroglyphics.

3- The name of one of the two legates who brought the lreaty in the name of Hattusilis to Ramses II is preserved in the text of the treaty itself. He is called T-r-t-s-bw. In the Book of Jeremiah (39: 3), among the chiefs of Nebuchadnezzar, Nergal-Sharezer, Sarsechim, and Rab-saris are named. These names are sometimes regarded as names of othoes. It is possible but far from certain that first or second of these was the above-mentioed ambassador.

4- S. Langdon, Building Insecriptions of the Neo-Babylonicn Empire (paris, 1995), p. 451.

5- Breasted, Rcords, vol. III, See. 381.

6- Jhon D. Schmidt, Ramesses II: A Chronological Structure for his Reign (Baltimore, 1973), p. 116.

7- The Jerusalem Tahcud, Tractae Sanhedrin, I, 19a; Seder Olam 26. See also Ginzberg, Legends, Vol. VI, p. 399. n. 42.

8- Schmidt, Ramesses II, p. 118.

مقارنة أحداث الحرب فى الكتاب المقدس وفى نقوش رمسيس الثانى

1- There is a discrepancy Between jeremiah 25: 1 and Daniel 1; 1- in the latter Nebuchadnezzar is called king of Babylon in the third year of Jehoiskim. For Nebuehadnezzar's later claims to have been the legitimate king of Babylon

immediately following the death of Nabopolassar, see the section "Changing History" in Chapter V. See also, on the methods of calculating the reigning years in Bablyonia and Judea, E. R. Thiele, "the Chronology of the Kings of judah and Isreal", Journal of Near Eastern Studies, III (1944), 137-86; The Mysterious Numbers of the Hebrew Kings (Grand Rapids, Mich., 1965).

2- According to Petire and Maspero.

3- The months of the reigns of the kings of this period are described in the Scriptures as first, second, and so on, As calendar months of the year. So the date of destruction of the Temple-the fifth month (II Kings 25: 8)-was the fifth month from the vernal equinox. this destruction is still mourned by the Jews in the fifth month or the month of Ab, late in the summer.

4- Four clay impressions of a nekau were found in the ruins of a house at Carchemish, together with seals of psamthek. As I show in Peoples of the Sea (pp. 93-98), this person is to be identified with Psamshek, a Persian high official mentioned in the Elephantine papyri. The seals of Nekau found next to those of Psamshek would seem to place also Nekau Wehamthre in the fifth centary when Egypt was under Persian occupation. See L. Woolley and T. E. Lawrence, eds., Carchemish, II (1915-1952), pp. 126-128; pl. 26c.

الفصل الثالث

مقبرة الملك أحيرام

الكاتب الماهر

تحتوى «قصيدة بنتاءور» على بعض الكلمات التى تسللت إلى اللغة المصرية، واستخدمت بدلا من مقابلها المصرى. وهكذا استخدمت كلمة «كاتزن بمعنى ضابط، «وسيسم» بمعنى حصان(١) و «نعاريم» الذين أنقذوا رمسيس الثانى فى قادش كما ورد ذكره، والتى تعنى أولاد. من بين النصوص التى كتبت فى عهد رمسيس الثانى، خطاب كتبه كاتب يسمى «حورى» إلى آخر إسمه «أمينيحوب» (٢)، هذا الأخير أهان «حورى» واتهمه بالجهل، فرد «حورى» بخطاب ساخر يبرهن فيه على معرفته الواسعة ويعرض بجهل خصمه. حقل المعرفة الذى ظن نفسه فيه متبحرا. كان علم الفلسطينيات، ومن المحتمل ان يكون الخطاب قد كتب فى فلسطين.

يذكر الخطاب أسماء أماكن جغرافية عديدة، كتبت بشكل واضح سهل القراءة، مثل كريات ن. ب وهى كريات أناب. والأكثر تأثيرا من قائمة المدن الفلسطينية استخدامه أسماء عبرية عديدة (٣)، فالدقيق يسميه «كيماخ»، والعليق «كوز»، وجعبة «أشيب»، حتى أن هناك جملة عبرية كاملة مدخلة فى الخطاب «افادتاكمو أرى، ماهر نوعام» وليس المهم ماذا كان يدور فى ذهن الكاتب حين كتب الجملة، فربما رغب ان يتفاخر بمعرفته العبرية.

الخلاصة العامة المقبولة هى أن المصريين من أصل كنعانى كانوا يستخدمون الكلمات العبرية، كما أن السكان الموجودين فى فلسطين قبل وجود الاسرائيليين، والذين يقال إنهم من أصل حامى (سفر التكوين

٩: ١٨) كانوا ينطقون بالعبرية السامية. وهكذا أصبح أمر لاجدال فيه، خاصة بعد اكتشاف نصوص رأس الشمرا، أن كلمات عبرية دخلت فى النصوص البابلية فى رسائل تل العمارنة التى كتبت فى فلسطين.

ونستنتج أيضا أن الكنعانيين سكان قبل المرحلة الاسرائيلية ليس فقط كانوا يتكلمون العبرية ولكن أيضا كان لديهم كتاب مهرة فى هذه اللغة التى كانت متجنبة، وبالتالى فإن «حورى» استخدم «سوفر يوديا» العبرية بمعنى الكاتب المتعلم، و «ماهر» بمعنى الجيد الذى يحسب بسرعة ويكيف نفسه على الفور مع أى موقف. قلم الكاتب الماهر أو الجيد موجودة فى الفقرة التى تفتتح المزمور ٤٥. كان الكتاب طبقة محترفة من بداية حكم اليهود فى فلسطين (٥)، والكاتب الماهر أو الذى يستطيع ان يسجل الكلمات كما تنطق، مهارة تطورت فى مرحلة متأخرة من فن الكتابة.

فهل ازدهر فن الكتابة أيام الكنعانيين، ثم نسى تماما فى أيام الاسرائيليون الأول فى فلسطين؟

التاريخ الصحيح لايفترض استخدام الكنعانيين للغة العبرية، أو المصريين الذين تعلموها منهم، واذا اكتشفت آثار تثبت ان الكنعانيين استخدموا العبرية قبل هجرة عشيرة اسرائيل إلى مصر، معنى ذلك ان فن الكتابة العبرية فى عصر الآباء لايتبع النصوص العبرية فى رأس شمرا (المكتوبة بالمسمارية) أو خطابات تل العمارنة التى جاءت فيها بعض الكمات العبرية بالمصادفة.

هذه الوثائق مؤرخة من القرن التاسع ق.م وليس من القرن الرابع عشر ق.م (٦) وليس من المدهش إنه خلال التفاعل الحقيقى بين العبريين فى فلسطين ومصر من أيام شاؤول وكاموس إلى أيام إرميا ورمسيس الثانى أن استوعبت مفردات الكتاب المصريين عددا من الكلمات العبرية (٧). وفى الغالب فإن خطاب حورى على ورق البردى قد كتب بين السنة الثانية والخامسة من حكم رمسيس الثانى، بين حملته الأولى الناجحة والثانية الفاشلة أو بعد فترة قصيرة من عبور الفرعون «مجدو» كما هو موصوف فى سفر الملوك الثانى ٢٣: ٢٩، ٣٠.

تحتوى البردية على كلمات الكاتب التالية موجهة إلى خصمه «بموجب معرفتى طريق العبور إلى مجدو». فى مثل هذه الظروف يمكن ان نتوقع

وجود خطابات بكلمات عبرية مع بعض اشارات تؤكد عصر رمسيس الثانى.

مقبرة أحيرام

فى فصل سابق، مرت مناسبة لمناقشة السؤال: هل رمسيس الثانى هو الذى شق قناة تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر كما تقول المصادر المصرية؟ أو إنه نيخو (نيكوس) هو الذى بدأ العمل كما يقول هيرودت؟ ومرة ثانية: هل كان «سيتى بتاح معت» سلف رمسيس الثانى هو الذى استخدم لأول مرة المرتزقة اليونان فى جيشه؟ أو كان بسماتيك سلف نيخو الذى يتحدث عنه هيرودت بأنه هو الذى فعل ذلك؟

بابيلوس (جبيل المعاصرة) على الساحل السورى شمال بيروت والتى كانت تسمى «جويل» فى العصر القديم وفى النقوش الفينيقية، أو ك. ب. نى فى اللغة المصرية، كانت مدينة ملكية مقدسة، تتاجر بخشب الارز من لبنان وتستورد البردى من مصر (١).

فى القرن التاسع عشر نقب المؤرخ الدينى الشهير إرنست رينان فى بيبلوس وصور وصيدا وإرفاد، وكلها على الساحل الفينيقى(٢). بعد ستين سنة سنة ١٩٢١م جدد «بيير مونتيه» التنقيب فى «جبيل»، وبعد عدة شهور فى ١٦ فبراير ١٩٢٢ على منحدر تجاه البحر عند موقع التنقيب اكتشفت مقبرة ملكية فيها هدايا جنائزية من امنمحات الثالث من المملكة المصرية المتوسطة. كما اكتشفت فى المنطقة ثمان مقابر ملكية أخرى من فترات تاريخية مختلفة، وكان أهم ما اكتشف مقبرة الملك «أحيرام» عبر نفق شق فى الصخر ويقود إلى غرفة الدفن، وهناك جدار يفصل بين النفق وغرفة الدفن. فى الغرفة الثلاث توابيت من حجر، اثنان عاديان يحويان عظاما فقط، والثالث مزين بالنقوش للملك أحيرام (٣) أو حيرام وهو اسم لأكثر من ملك فينيقى. على الحائط الجنوبى للنفق نقوش عبرية قصيرة تقول: انتبه. توقف. انت تدخل إلى القبر فى الاسفل. وهناك تحذير من انتهاك الضريح تكرر وانتشر ونقش أيضا على غطاء التابوت.

«التابوت الذى صنعه «إثوبعل» بن أحيرام ملك جويل «بيبلوس) لأبيه

كمسكن له فى الابدية، واذا هاجم أى ملك أو حاكم أو جيش «جويل» وأنتهك هذا التابوت، فليكسر صولجان حكمه، وليسقط عرشه الملكى، وليهرب السلام من جويل، وليمسح متشرد نقوشه» (٤)، على أحد جوانب التابوت يظهر أحيرام جالسا على العرش والحاشية تواجهه وابو الهول المجنح يحرسه. وعلى الجانب الآخر موكب من أشخاص يحملون العطايا، وعلى طرفى التابوت رسوم لأربع نساء نائحات.

قرب مدخل غرفة الدفن وجدت كسر عديدة من الألابستر إحداها تحمل اسم رمسيس الثانى ثم اسمه الملكى، وكسرة أخرى عليها خرطوش الملك رمسيس الثانى، ووجدت أيضا لوحة تخليد ذكرى من العاج من «العصر المسينى» حسب رأى «ر. دوساو»، كما وجد فخار من أصل قبرصى ويبدو من طراز خزف القرن السابع ق. م.

كانت المقبرة منتهكة، ومن المحتمل ان ذلك حدث فى القدم على الرغم من التحذيرات بالعبرية (الفينيقية)، وكان على الدارسين تقدير الوقت الذى عاش فيه الملك أحيرام.

لايكشف النقش الفينيقى على التابوت عن تاريخه، ولكن مكتشف المقبرة حدد تاريخها بعصر رمسيس الثانى وبالتالى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد قرر ذلك بناء على كل الاشياء التى وجدت فى المقبرة بما فيها الفازات القبرصية. لكن بعض الدارسين أعلنوا بأن الفخار القبرصى ينتمى إلى القرن السابع ق. م. وقد وافق المستشرق الفرنسى «دوساو» بأن المقبرة ترجع إلى القرن الثالث عشر ق. م. لكن أصر أن الخزف القبرصى من القرن السابع، وافترض بأن اللصوص اقتحموا المقبرة فى القرن السابع ق. م وتركوا هناك فخارا من عصرهم، فعلامات الاقتحام والسلب واضحة، فغطاء التابوت أزيح عن موقعه الاصلى، الفازات المصنوعة من الألابستر مكسورة والجواهر مفقودة، وكتب «دوساو» وجد «مونتيه» مع الآثار «المسينية» كسر من فخار قبرصى تعود للقرن السابع ق. م وهذا يثبت وقت نهب المقبرة ولم توجد كسرة من أى تاريخ أحدث» وأضاف «ولايوجد شك، (اذا أردنا ان نختار) الوقت الذى حفرت به المقبرة ونقشت النقوش بين عصر رمسيس الثانى أو القرن السابع ق. م، فإن العصر الأول هو المقبول» (٥)

لكن الناهبين لايمكن ان يكونوا قد أحضروا معهم مزهريات عمرها ستمائة أو سبعمائة سنة لغرفة الدفن بل لماذا يحضرون أصلا أية أوعية فى غرفة دفن جاءوا ليسرقوها؟ لم يشرح ذلك شرحا مقنعا، ماهى الحقيقة اذن.

حتى لو أمكننا أن نفسر وجود أوعية قبرصية فى مقبرة أحيرام بأنه من عمل اللصوص، فإن هناك شيئا لايمكن ان يعزى إلى السارقين: النقوش.

نقش بالحروف العبرية عند المدخل يحذر أى منتهك لحرمات القبر ويستنزل اللعنة على أى ملك أو جندى أو شخص يزعج سلام المدفن. النقش الآخر على التابوت، أن الملك الذى نقرأ اسمه هو «أتو بعل» (٦) يتحدث بضمير المتكلم، وقد بنى الضريح لأبيه أحيرام ملك جويل (بيبلوس). النقشان محفوران فى عصر واحد وعلى يد الاشخاص أنفسهم. فلو كانت المقبرة قد جهزت فى عصر رمسيس الثانى. فإن النقوش لابد قد كتبت فى عصره. ولكن لايمكن التوقع على الاطلاق ان توجد نقوش مكتوبة باللغة العبرية فى عصر رمسيس الثانى.

وثار نقاش ونزاع حام طوال خمسة عقود لم تخرج منه بنتيجة. فى جانب من هذا النقاش يقف علماء الآثار الذين رأوا أن الادلة الأثرية فى المقبرة تعود إلى الاسرة التاسعة عشرة أو القرن ١٣ ق. م كنتيجة نهائية، بينما يقف فى الجانب الآخر دارسو الكتابات المنقوشة الذين لايسلمون بأن نقوش مقبرة أحيرام تعود إلى القرن ١٣ ق. م، فقد وجدوا تشابها كبيرا بين هذه الحروف، والحروف التى كتبها «أبو بعل» و« الى بعل» الملكان الفينيقيان على تماثيل فراعنة الاسرة الليبية، نصرائهم، «سوسنيك» و «اسوركون» من القرن التاسع والعاشر ق. م. ومنذ انتبه العلماء للتماثيل المنقوشة لهذين الفرعونين، وحتى اكتشاف مقبرة أحيرام، فقد أفترض أن اهداء هذه التماثيل لاسم «أنى بعل» و «إلى بعل» ليس معاصرا للتماثيل نفسها: فحروف الاهداء تتروام بين حروف لوحة ميشا حوالى ٨٥٠ ق. م وحروف حزقيا التى نحتت على جدار صخرى لقناة مائية لنبع «شلوا» قرب القدس حوالى ٧٠٠ ق. م، ولابد إنها كتبت بين هذين التاريخين.

لكن نقوش أحيرام، اضطرت أحد دارسى النقوش لاعادة النظر فى النقوش التى على التماثيل، وللصعوبات التى نشأت فى مقارنة الحروف عُزى إلى بعض الشذوذ فى تطور الكتابة العبرية.

وحسب التاريخ الرسمى. يكون أحيرام معاصرا لرمسيس الثانى، ولابد إنه عاش ومات قبل أربعة قرون من سوسينك واسوركون تقريبا، وخلال أربعة قرون لابد ان يتناول الكتابة تغير معين، لكن ليس هناك أى تغيرات ملموسة فى الحروف من عصر أحيرام إلى عصر «أبى بعل» و «إلى بعل».

ولندع بعض المتناقشين يدلون بآرائهم، وكل المشاركين فى النقاش والذين اقتبسنا منهم مؤرخين ذوى سمعة كبيرة.

يقول دوساو «من لحظة اكتشاف الفازتين المصنوعتين من المرمر منقوش عليها اسم رمسيس الثانى فى مقبرة أحيرام، استنتجنا دون شك ان المقبرة والضريح ونقوشه من القرن ١٣ ق.م» (٧).

ويقول سبيجلبيرج (٨) «من الغريب ان يكون هناك اتفاق على القرن ١٣ ق.م بسبب قطعتين تحملان اسم رمسيس الثانى، فلا يوجد هناك أدنى سبب لمثل هذا التاريخ. فبعد سرقة مقبرة أحيرام بين القرنين الثامن والسابع ق. م، وظلت المقبرة المفتوحة، فوضع فيها لصوص فى زيارة تالية فازات من مقبرة أخرى أكثر قدما، وبالتالى فإن المقبرة ونقوشها قد أقيمت قبل القرن الثامن أو السابع ق.م والذى يحدد ذلك دارسو النقوش الذين لم تلفت انتباههم اطلاقا الفازات التى تحمل اسم رمسيس الثانى».

الكاتب الأول يفترض ان الفازات القبرصية من ق ٧ ق.م، أحضرها اللصوص إلى المقبرة، والكاتب الآخر يقبل هذا التفسيرويضيف ان اللصوص أيضا أحضروا الفازات التى تحمل اسم رمسيس الثانى إلى المقبرة نفسها.

يقول دوساو (٩) «تاريخ هذه المقبرة تؤكده مجموعة من الشواهد المتفقة والمقنعة: خزف مسينى Mycenaeمن نوع جيد، عاج مسينى ليس من فترة متأخرة، فازتان من المرمر عليها خرطوش رمسيس الثانى، ونقش الضريح يؤكد على عصر رمسيس الثانى».

ويقول ادوارد ماير (١٠) «التابوت والحروف المستخدمة أرجعت إلى

القرن ١٣ ق.م إلى عصر رمسيس الثانى لكن ذلك غير معقول ويتناقض مع كل الظواهر، نحن نعرف تاريخ الكتابة هل ظلت الكتابة هنا دون تغير لمدة أربعة قرون؛ أحيرام عاش قبل أبى بعل بفترة قصيرة فلنقل حوالى ١٠٠٠ سنة ق.م.

ويقول سدنى سمث (١١) «دليل زخرفة هذا التابوت يبدو خادعا بالنسبة إلى تاريخه. فلايمكن ان يكون أبعد من القرن ١٣ ق.م. شكل الحروف أقنع دارسى النقوش للشك فى نتائج المنقبين، وهناك بعض اللعب قد جرى بالكسر التى وجدت فى المقبرة، إن جدل دارسى النقوش ليس عقليا».

لم يهتز علماء الآثار. وأصروا على أن مدفن أحيرام من عصر رمسيس الثاني، في منتصف حكمه في النصف الأول من القرن الثالث عشر ق.م، ومن الممكن اقتطاع خمسين سنة لا أكثر اذا كان هذا يقنع دارسى النقوش.

واتفق دارسو النقوش غير القادرين على دحض أدلة علماء الآثار، على اقتطاع نصف قرن حتى يقربوا تاريخ نقش أحيرام قدر الامكان إلى لوحة ميشا.

يقول جاردنر (١٢) «لقد وجدنا فى المقبرة حقيقة، مزهرية من المرمر عليها خرطوش رمسيس الثاني، وكسرة من أخرى تحمل اسم الملك نفسه، وهما ترجعان إلى القرن ١٣ ق.م، لكن الاختلاف بين تشكيلات أحيرام وتلك التى لابى بعل وإلى بعل قليلة جدا، ويبدو ممكنا ان التاريخ الحقيقى لأحيرام ربما يكون أقرب لعصر البوباستايت Bubastite فى القرن العاشر ق.م».

وقد رفض الحل الوسط منذ البداية، قبل ان يلفظ نهائيا.

يقول دوساو (١٣) «لايكفى ان نضع هذه الفرضية فقط بل من الضرورى ان نبرهن عليها. اذا كان الدفن قد تم فى القرن ١٣ ق.م، وان النهب قد حدث فى القرن الثامن أو السابع ق.م وهناك شواهد واضحة جداً من الخزف، فافتراض ان الدفن تم فى القرن ١١ ق.م. لابد ان يثبته الفخار الذى وضع مع الميت، لكن لم توجد آثار ترجع إلى تلك الفترة (١١ ق.م).

وقد حار دارسو النقوش من طلب علماء الآثار ان توضع نقوش ابى

بعل وإلى بعل قبل قرن من لوحة ميشا، وكانوا على غير استعداد لتأريخ نقوش اتوبعل على تابوت أبيه أحيرام بأربعة قرون قبل لوحة ميشا.

فسر وجود كسر مزهرية من القرن السابع ق. م تغطى أرضية المقبرة بأن اللصوص قد أحضروها معهم. دارسو النقوش يعزون مزهريات رمسيس الثانى إلى اللصوص أيضا مع ان التابوت والآثار المسينية من زمن رمسيس الثانى، الحل الأخير هو أن نعزى النقوش أيضا إلى اللصوص.

يضيف دوساو (١٤) «يتساءل أحد العلماء هل النقوش قام بها اللصوص أيضا؟ ويجيب على نفسه: النقوش على الضريح معاصرة للضريح نفسه لأن «اثو بعل» أعلن أنه قام بها. والنقش الصغير عند المدخل مكتوب بنفس الحروف وهو تحذير بعدم انتهاك القبر، ويصب «أثو بعل» اللعنات على المنتهكين فى نقش على الضريح. فالناهبون لم يكتبوه ولايمكن ان يعزى إليهم».

وحين طور المؤرخ الفنى هـ فرانكفورت وجهة النظر هذه بأن التابوت ينتمى إلى القرن الثالث عشر وأن النقش عليه أضيف بعد ذلك فى أوائل القرن العاشر ق. م حين أعيد استخدام الضريح، فإن أحد أبطال النقاش الذى قال ان الضريح من أوائل القرن العاشر ق. م كتب «لايمكن الدفاع عن موقف فرانكفورت اطلاقا، بأن ضريح «أحيرام» ينتمى إلى القرن ١٣ ق. م والنقش (الذى يسلم بأنه من القرن العاشر ق. م) قد نقش عند اعادة استخدام التابوت، هذا التأكيد يتحدى المنطق العادى حيث ان النقش يبتدئ «التابوت الذى صنعه «إثو بعل» بن أحيرام ملك بيبليوس لأبيه كمقر أبدى له...، كذلك هناك نقش آخر بالكتابة نفسها على جدران عمود مدخل المقبرة، ولايوجد حاكم شرقى قديم يمكن ان يقع فى مثل هذا التزييف القاسى المذنب لأنه لاهدف ولاسبب لذلك» (١٥).

كاتب هذه الكلمات، المرحوم وليم ف.اولبرايت أضاف «يصبح تاريخ القرن العاشر ق. م للمقبرة حتميا بعد الاكتشافات النقشية الأخيرة فى فلسطين».

فى السنة نفسها التى كتبت فيها تلك الكلمات، كتب بيير مونتيه ساخرا تقريبا، وهو الذى اكتشف مقبرة أحيرام قبل ٣٣ سنة، «ان أقدم

نقش الف بائى معروف هو ذاك الخاص بميشا ملك مؤاب وهو مؤرخ فى القرن التاسع ق. م النصوص الجديدة لمقبرة أحيرام تعود باستخدام الألف باء لأربعة قرون سابقة. ويزعم بعض العلماء ان وجود مزهريات رمسيس الثانى مسألة مقنعة - إنها لا تعنى شيئا - مثل نقوش الحروف الالفبائية وكل نقاشاتهم لم تعد بإمكانها اقناع أحد» (١٦) وتضمن الجدل مشاكل أخرى «ان ضريح أحيرام يفتح فصلا جديدا فى تاريخ الفن الفنيقى» (١٧). فلقد وجد ان الفن الفينيقى محافظ جدا لأنه بعد عدة قرون يستخدم الاشكال نفسها، وحتى الاضرحة نفسها وأشكال النساء النائحات المعروفة والتى اكتشفت فى صيدا وعزيت للقرن الرابع ق. م ١٨٠).

باحث اسرائيلى(١٩) كتب بحثا عن النقش الغائر على تابوت أحيرام والتفت خاصة إلى النساء الحزينات، أربع عند كل طرف من التابوت: «اثنتان تضربان على اوراكهما» (٢٠) و «اثنتان تمكسان رأسيهما بين ايديهن». وعدد الباحث امثلة عدة بضرب الايدى على الاوراك فى العهد القديم كعلامة على الحزن العميق، خاصة فى إرميا ٣١: ٩ وحزقيال ٢١ : ١٢. «المرأتان الاخريان تضعان ايديهن على رأسيهما مظهر آخر عادى للحزن والألم. كان إرميا وحزقيال معاصرين لنبوخذ نصر.

هل تلك هى المشكلة الوحيدة لاختلاط عصر مقبرة أحيرام بمشكلة الفن الفنيقى؟ إن البحث فى تطور الكتابة العبرية وأصل الحروف الالفبائية قضية مترابطة وغير منفصلة.

«ان تحديد تاريخ نقش أحيرام مهم جدا فى دراسة تاريخ الالف باء» (٢١). «ان اكتشاف نقوش سامية جديدة، لايدفع اختراع الالف باء إلى الوراء فقط، ولكن يجعل من الممكن الافتراض ان اليونانيين قد تبنوها فى فترة أسبق» (٢٢).

نقوش أحيرام وأصل الألف باء

يعتبر اختراع الالف باء أحد أعظم الانجازات فى كل العصور. قبل اختراعها كانت الكتابة إما تصويرية أو مقطعية، والشكل الأخير استخدم بالضرورة مئات الاشكال والعلامات المختلفة.

«اخترعت الالف باء تقريبا حوالى ١٣٠٠ ق.م على شواطئ سوريا، ربما فى بيبيلوس (جبيل)» (١). وكانت مقبرة «أحيرام» هى أقدم النصوص الواضحة التى اكتشفت للحروف العبرية. (٢).

«لايشك أى عالم الآن بأن الألف باء قد اخترعت على الأقل فى النصف الأول من الألفية الثانية قبل الميلاد»(٣).

وقد أرجع التاريخ قرونا قليلة لأن نقوش «أحيرام» تبين مرحلة متطورة من الالف باء، وأيضا بسبب اكتشاف عدد قليل من الكسر تحمل بضعة حروف قديمة من عصر غير محدد، فى لخيش وأماكن أخرى» (٤). كذلك فان العلامات المسمارية للحروف العبرية تكون فى حد ذاتها كتابة الف بائية. فى هذه الكتابة وجدت القصائد فى رأس شمرا التى ربما كتبت فى أوائل القرن الرابع عشر ق.م. كذلك وجدت نقوش قليلة فى سيناء لم تحل شفرتها بعد بشكل تام، يعتبرها آخرون بأنها ابتدعت فى عصر الهكسوس. علاقة هذه الكتابة باللغة العبرية وأصل الالف باء مازالت مشكلة غامضة بسبب ندرة وغموض المادة المكتشفة.

استنسخت الالف باء اليونانية شكل حروف عديدة من العبرية، نظامها فى اسمائها - الفا (الف - ثور)، بيتا (بيت) جاما (جيميل - جمل)، ديلتا (دالت - باب) وهكذا.

متى اشتقت اليونانية من العبرية (الفينقية)؟ تكمن الاجابة الافضل بمقارنة الحروف اليونانية الأولى بالمراحل المختلفة من تطور الكتابة العبرية.

النقوش اليونانية المبكرة وجدت فيما بين القرنين الثامن والسادس ق.م، وكانت تكتب من اليمين إلى الشمال، ومن شكل الحروف استطاع أحد العلماء سنة ١٨٦٠م ان يعيد بناء الحروف العبرية بالشكل الذى وجدت به بعد ذلك بعدة سنوات على لوحة ميشا من القرن التاسع ق.م (٥). وبسبب تشابه الحروف اليونانية القديمة مع حروف لوحة ميشا، اعتبر كثير من العلماء ان القرن التاسع ق.م هو الوقت الذى أخذت فيه الالف باء اليونانية شكلها من العبرية (٦). لكن الحقيقة، إننا لم نجد أى نقوش يونانية قبل القرن السابع ق.م، مما أوحى لبعض العلماء ان الالف باء اليونانية اشتقت من العبرية فى وقت متأخر حوالى ٧٠٠ ق.م (٧). وهناك

وجهة نظر أخرى متطرفة تقول بأن الحروف اليونانية أخذت عن العبرية قبل ١٢٠٠ سنة ق. م. (٨). وكى يثبت المتناقشون وجهات نظرهم لجأوا إلى النقوش العبرية (الفينقية) لعصور مختلفة، ليثبتوا ان التغيير البسيط ببعض الحروف لهذه الحقب المتتالية انعكس على الحروف اليونانية المبكرة.

نتائج هذه المقارنات قدمت سندا متساويا لكل من الطرفين (٩)، فالحروف العبرية فى حوالى القرن ١٣ ق. م (نقوش أحيرام) والحروف العبرية للقرن السابع ق. م فيها التغيرات البسيطة نفسها فى حروف لوحة ميشا فى القرن ٩ ق. م.

مثلا: الحرف حيث Heth يرسم فى نقوش أحيرام بثلاثة خطوط متوازية أفقيا محصورة بين متوازيين رأسيين، بينما فى نقوش «ميشع» يختفى أحد الخطوط الأفقية. ليعود للظهور ثانية فى القرنين الثامن والتاسع ق. م (١٠).

هذا الموقف الغريب اضطرنا إلى التخمين التالى «بسبب ان كتابة «أحيرام» أقدم تاريخيا من أية كتابة فينيقية.. فهناك اسباب تجعلنا نعتقد ان نموذج بيبيلوس كان غريب الاطوار فى بعض تفصيلاته» (١١).

المدافع عن اشتقاق اليونانية المبكر أشار إلى أن معارضه اعترف بأن بعض أشكال نقش «أحيرام» أقرب إلى اليونانية أكثر بكثير من تلك الكتابة التى على حجر موآبايت (١٢)، ولكنه نفسه كان عليه التسليم بأن مشكلتنا الكبرى تكمن فى تفسير غياب النقوش اليونانية تماما بين ١٢٠٠-٧٠٠ ق. م. (١٣). اسلوب الكتابة «ب» الذى اكتشف أولا فى كريت ثم فى اليونان وبيلوس وطيبة وسينا والذى استخدم فى اليونان حتى ١٢٠٠ ق. م، ،وفك شفرة هذه الكتابة «مايكل فنتريس»، ثم جاءت فترة خمسة قرون حيث لم تستخدم أية كتابة فى اليونان، أو على الأقل لم نكتشف شيئا منها.

يقول المدافعون ان «البردى» سريع التلف هو الذى كان يستخدم فى الكتابة، لكن الكتاب المسينيين Mycenean كانوا يستخدمون فى معظم الأحيان الصلصال حتى ١٢٠٠ ق. م والنقوش اليونانية فى القرن السابع أيضا على الصلصال أو الحجر كما كانت النقوش الفينيقية للفترة بينهما.

السؤال هل توجد نقوش يونانية بين ١٢٠٠-٧٠٠ ق. م؟ كان لابد ان نجد بعض آثارها لو وجدت (١٤). لكن المشكلة تتضمن مشكلة أكبر: هل ابداعات هوميروس انتقلت شفاهيا وظلت تتلى من الذاكرة على السنة الشعراء أو هل كانت مكتوبة؟ لقد أُلّفت فى القرن الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد، ولايمكن ان تظل تتداول شفويا لعدة قرون كما تساءل بعض الباحثين، بينما يقول آخرون ان المؤشرات الذاتية تشير بشكل ساحق إلى حقيقة ان عالم الالياذة والاوديسا هو عالم القرن الثامن ق. م (١٥) وهو قريب من الوقت الذى ابتدعت فيه الالف باء اليونانية.

سأتوقف هنا قليلا: فسلسلة المشاكل تقودنا إلى أبعد من ذلك. نقش أحيرام ينتمى إلى عصر رمسيس الثانى، لكن مراجعة التاريخ التى يقدمها هذا الكتاب، تقول أن رمسيس الثانى لم يعش فى القرن الثالث عشر ق. م ولكن فى القرن السادس ق. م. والخزف القبرصى فى مقبرة أحيرام لم يحضره اللصوص ولكنه معاصر للمقبرة كما ان نقوش المقبرة معاصرة لرمسيس الثانى.

كذلك نقوش المقبرة من تاريخ متأخر عن نقوش «ابيبعل» و «الى بعل» بحوالى مائة سنة، وهذه بدورها من تاريخ متأخر عن نقوش مسلة ميشع بأكثر من مائة سنة. وتعتبر نقوش ميشع (ميشا) فى الوقت الحاضر هى أقدم النصوص العبرية الموجودة. كذلك فان نقوش العبرية المسمارية فى «نكميد» فى اوغاريت من نفس عمر نقش ميشع، وهذا يعنى إنه فى مدينة اوغاريت الكارية الايونية الفينقية كانت العبرية تكتب بألف باء مسمارية حين كانت تستخدم فى موآب عبر الاردن (١٦). وهذا يفترض ان العبرية وليست الفينيقية هى أصل الألف باء.

يقول «ميشع» إنه استخدم الاسرائيليين الاسرى فى قطع العاج، ورسائل مشابهة تماما حفرت على عاج سامراء وعلى مسلة ميشع (١٧)، ومن المحتمل أن الاسرى العبريين من سامراء نقشوا أيضا مسلته. كانت الكتابة العبرية تستخدم فى أية حادثة فى السامرة فى ذلك الوقت، وكانت الحروف متطورة بالفعل. ومن المحتمل ان اللغة العبرية ابتدعت فى الالف الثانية ق. م.، لكن هذا لايمكن تأكيده على اساس نقوش «أحيرام».

ارتباك دارسى النقوش مفهوم، فالمطلوب منهم ان يفسروا تطور

الكتابة العبرية ابتداءا من عصر رمسيس الثانى ١٣٠٠ ق.م، إلى عصر ميشع فى القرن التاسع ق.م، ونقش شلوع لحزقيا ٧٠٠ ق.م وأخيرا إلى عصر الكسر الخزفية للاخيش ونبوخذ نصر حوالى ٥٨٦ ق.م.

لكن البداية والنهاية وما بينهما كلها متعاصرة.

لقد سارت الكتابة العبرية عبر عملية طبيعية من التطور دون التردى فى استعمالات مهجورة. العلماء الذين قارنوا الحروف اليونانية بالحروف العبرية بالقرنين الثالث عشر ق.م. والسابع ق.م كانوا يقارنون حروفا هى عمليا من العصر نفسه. إن حروف نقش أحيرام هى أحدث بحوالى قرن من حروف حزقيا ٧٠٠ ق.م. الفجوة الكبيرة لمدة ٥٠٠ سنة بين ١٢٠٠-٧٠٠ فجوة لاتوجد فى الواقع. فقد قدر العصر المنيوى حسب التاريخ المصرى، والعصور اليونانية حسب الادلة الاثرية المتتابعة لليونان الكتابة الخطية المسينية حلت محلها اليونانية الكادمية، ولو كانت الالف باء الفينيقية قد وجدت فى طيبة البيوتانية فى القرن التاسع بالفعل فان الكتابة الخطية التى كانت تستخدم فى بيلوس وبعض الاماكن الأخرى فى اليونان لمدة قرن قبل ان تستبدل بالحروف الفينيقية هى التى أصبحت اللغة الايونية ثم أخيرا اللاتينية التى نستخدمها فى الكتابة حتى الآن.

بعد هذه التاكيدات أود أن أكرر فرضية قدمتها منذ سنوات (١٨). ان ادخال الحروف الايونية (اليونانية) من الشاطئ الفنيقى تعزى إلى كادموس الاسطورى الذى جاء من فينيقيا (صور وصيدا) وبنى طيبة فى اليونان. الحروف التى كانت ماتزال تكتب من اليمين إلى الشمال كانت تسمى «كادمية»، هل من الجرأة ان نفترض ان نكميد أو نكديم كما جاء فى سجلات حرب شلما نسير الثالث، الذى غادر اوغاريت حوالى ٨٥٥ ق.م مع الايونيين والكاريين، هو كادموس الاسطورى؟ (١٩). كان رجلا أديبا ومؤلفا للمعاجم بالحكم على مكتبته المليئة بالقواميس الكثيرة، ومع إنه استخدم العبرية بألف باء مسمارية فقد كان يعرف الحروف العبرية لأنه عاش فى زمن ميشع. اذا كان «نيكدم» هو مؤسس مدينة طيبة اليونانية، فلابد إنه جرب هناك أولا الالف باء المسمارية التى استخدمها بالفعل فى «رأس شمرا» لكتابة النصوص العبرية، اوربما حاول كتابة اللوحة الخطية «ب» جاعلا منها كتابة الف باء قبل ان يتوصل إلى الحل الأمثل فى

استخدام الحروف العبرية فى الكتابة اليونانية، فاذا وجد نقش مطول يحتوى على عشرين إلى ثلاثين علامة مكررة فيمكن ان نستنتج استخدام كتابة الف بائية.

اكتشفت فى السنوات الحديثة فى خرائب «كادميون» فى القصر القديم الأول فى طيبة اليونانية، لفائف اسطوانية بعلامات مسمارية، وهى أول كتابة مسمارية تكتشف فى التربة اليونانية (٢٠). واجهت قراءتها صعوبات كبيرة (٢١) لكن الجهد الذى بذل فى قراءتها على افتراض انها بالالف باء اليونانية المسمارية، أثبت بالمصادفة نجاحه.

اثو بعل بن أحيرام

إثو بعل الذى دفن أباه فى عصر الصراع الكبير بين رمسيس الثانى ونبوخذ نصر، حين كانت الجيوش المصرية والكلدانية تزحف بالتناوب على الشواطئ السورية، حذر عبثا «أى ملك من الملوك، أو حاكم من الحكام» دخول غرفة الدفن ورفع غطاء التابوت.

«نبوخذ نصر» القائد المرعب «مقض مضجع الامم» أخضع لتوه إرفاد وبيبلوس وصيدا وحاصر صور، هذا المركز التجارى للعالم القديم الذى كان يسكنه أناس يعيشون على البحر، يصنعون سفنهم من شجر التنوب من سفير، والصوارى من شجر ارز لبنان، والمجاديف من بلوط باشان، ولونوا بالارزق والقرمزى الكتان المصرى المطرز ونشروه للاقلاع فى البحر «شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك كلافوك، علقوا أتراسهم على أسوارك من حولك هم تمموا جمالك» هكذا وصف حزقيال مدينة «صور» تلك الايام.

كان الملك الاشورى «اسار هادون» قبل مائة سنة قد لعن صور وسفنها «عل الله يرسل ريحا شريرة على سفنك، يمزق حبالها ويحطم سواريها، عل بحرا هائجا يغرقها بأمواجه، عل فيضانات غاضبة تتكسر فوقها» (١). وظلت ملكة البحر ثابتة و «سفن ترشيش تتغنى بصور» (٢) فى الاسواق البعيدة. وتحالفت «صور» مثل القدس مع مصر، وحين تحطمت مقاومة يهودا، حانت ساعة صور التى ظلت تقاوم ١٣ سنة محمية بحليفها المصرى، واستطاعت صور تحمل الحصار الطويل، فقد كانت في القدم جزيرة على

الساحل الفينيقى، وقد كتب بلينى Pliny «كانت صور جزيرة تنفصل عن الارض بقناة بحرية عميقة جدا اتساعها ٧٠٠ ياردة» (٣).

يستشهد «جوزيفوس فلافيوس» بالسجلات الفينيقية التى من المفترض ان كاتبها «منياندر أفيسيوس» يقول «تحت حكم الملك اثوبعل حاصر نبوخذ نصر صور لمدة ١٣ سنة» (٤). وكرر فلافيوس المعلومة نفسها على مسؤولية «فيلوسراتوس» مؤلف «تاريخ الهند وفينيقيا» (٥). لم يذكر «يوسيفوس» اسم والد «اثوبعل، لكن كتابات الكهنة اليهود (٦) تخبرنا إنه خلال الفترة التى كان فيها «نبوخذ نصر» يحاول السيطرة على أرض جديدة لامبراطوريته، وجد خصما عنيدا جدا فى شخص الملك الفينيقى حيرام (أحيرام).

فى العهد القديم لايوجد تحديد معين لفينيقيا كقطر، ومع ذلك فإنه يستخدم الاسم «جوال» ليس للدلالة على بيبلوس فقط ولكن أيضا على الساحل الفينيقى، و«ملك جوال» الذى دفن فى بيبلوس قد يعنى «ملك فينقيا». وقد كانت «صور» على جزيرة وليست لها مقبرة خاصة، وكانت بيبلوس الارض المقدسة لكل الفنيقيين. هل كان اثو بعل الذى بنى قبرا «لأحيرام» ملك بيبلوس، هو اثو بعل الذى دافع عن صور؟ سؤال مازال مفتوحا، لكن الزمن كان نفسه والاسم نفسه ولايوجد أحد غيره. وانتهى دفاع الملك إثو بعل عن آخر حصن فينيقى ضد نبوخذ نصر، حين وقع معاهدة معه، وأصبح الفينيقيون خاضعين للامبراطورية البابلية (٧) ومصير اثو بعل النهائى مجهول.

حقيقة مثيرة

لم تكن كسر المزهريات المرمرية التى تحمل اسم رمسيس الثانى هى الآثار الوحيدة التى عليها خرطوشه ووجدها «مونتيه» فى بيبلوس». فلقد حصل من بنائين لبيت جديد على قطعتين من لوحة عليها خرطوشة هذا الفرعون، بينما استخدمت قطعتين آخريين فى البناء بالفعل. حين غادر «مونتيه» فينيقيا لينقب فى دلتا النيل، اكمل «موريس دوفاند» عمله فى «بيبيلوس»، فوجد فى مواقع مختلفة عددا من الاشياء عليها اسم

رمسيس الثانى. من بين الاشياء التى وجدها جزءاً من باب كبير يحمل خرطوشة الملك رمسيس الثانى (١).

الحفر على الصخر لرمسيس الثانى عند مصب نهر الكلب والمؤرخ فى السنة الثانية والرابعة والخامسة من حكمه لايبعد كثيرا عن الشاطئ بين بيروت وبيبلوس. وقد وجد باب كبير يحمل اسم رمسيس الثانى فى المدينة الأخيرة، مما يشير إلى ان عبور رمسيس الثانى بيبلوس قد خلد ذكراه. ومن بين موجودات دوناند الآخرى والاكثر أهمية لوحة للملك «يهيملك» مكتوبة بحروف عبرية ورأى بعض العلماء النقوش انها أقدم من نقش أحيرام.

تلميذة ومساعدة دوناند، «نينا جدجيان»، فى كتابها عن تاريخ بيبلوس، قدمت مفاجأة حيرتها واستاذها وآخرين. فبعد وصفها للاشياء المتعلقة برمسيس الثانى والتى وجدت فى بيبلوس. تفتتح الفصل الثانى بالكلمات التالية: «بينت الحفريات فى بيبلوس حقيقة عجيبة كانت مثار نقاش وسط العلماء. هناك غياب كامل، فى منطقة الحفر، للطبقات الصخرية التى تحدد العصر الحديدى فى الفترة من ١٢٠٠ – ٦٠٠ق. م» (٢).

لاتوجد طبقة أرضية تصل بين رمسيس الثانى ونبوخذ نصر أى فترة أكثر من ستمائة سنة من التاريخ الرسمى. «لم يستطع المنقبون ان يجدوا أى تكوين صخرى من العصر الحديدى وهى فترة لابد انها كانت ذات نشاط تجارى مزدهر ومكثف» (٣). من المعروف، مثلا، ان مبعوثا من الكهنة المصريين يسمى «وينامون» زار المكان وقصر الملك المحلى – من المفترض ان ذلك قد تم فى القرن ١١ ق. م – ولكن لم يكتشف أثر لذلك القصر، والذى اكتشف فقط «حجارة اساس ضخمة لبناية من العصر الفارسى (٥٥٠ – ٣٣٠ ق. م) إلى الشرق من الموقع» (٤). وعدا نقوش القرن العاشر ق. م، هناك فقط قطع قليلة فى بيبلوس تغطى العصر الحديدى الأول والوسيط» (٥) أو الفترة من ١٢٠٠–٦٠٠ ق. م، ومثل هذا التشوش هو المتوقع.

كل الصعوبات الأثرية والنقشية التى أربكت ثلاثة أجيال من الباحثين وورطتهم فى نقاشات طويلة وتبادل التهم، كلها كانت صعوبات متخيلة لقد سارت الأحداث بالشكل التالى:

دفن اثو بعل أباه فى أوائل عهد رمسيس الثانى، حين مات «أحيرام» أرسل رمسيس الثانى هدايا جنائزية: مثل هذا التصرف عند التعزية حدث قبل ذلك من ملك مصرى عند وفاة ملك بيبلوس فى مقبرة مجاورة (صنفها العلماء برقم ١) وكانت هدايا جنائزية محفوظة هناك، مرسلة من الملك امنمحات الثالث من المملكة الوسيطة.

بعد معركة قادش - قرقميش - فى السنة الخامسة من حكمه، انسحب رمسيس الثانى من فينيقيا وأيضا من سوريا وفلسطين. وعاد مرة أخرى بين السنة الثامنة والحادية عشرة من حكمه ليحتل بيت شان فى شمال فلسطين ومن المحتمل إنه وصل إلى الساحل الفينيقى وجعل سوريا وفينيقيا مناطق نفوذ له.

ويبدو ان نبوخذ نصر حين احتل فنيقيا بعد معركة قرقميش ان نهب مقبرة أحيرام الذى وقف ابنه بجانب رمسيس الثانى.

هذا النظام لتوالى الاحداث يفسر كسر المزهريات التى عليها اسم رمسيس الثانى ووجدت فى المقبرة، ويفسر لماذا انتهكت المقبرة وكُسرت المزهريات وأزيح غطاء التابوت، وكل ذلك قد تم بعد وقت قصير من دفن اثو بعل لأبيه. المزهريات القبرصية فى المقبرة من اواخر القرن السابع ق. م، والمزهريات المصرية أيضا من العقود الأخيرة للقرن نفسه. والحروف العبرية على غطاء التابوت هى أيضا من العصر نفسه، وانتهاك المقبرة حدث بعد سنوات قليلة من إقامتها وعلى يد جنود نبوخذ نصر.

اعادة مختصرة للحقائق الاساسية

أوضحنا فى الفصول الثلاثة الأولى ان قلعة قادش فى شمال سوريا وقرقميش هما المكان نفسه، كما بينت الشواهد بالموقع الجغرافى شمال «باب» و «أريما» وطبوغرافية الموقع، وخطة التحصين كما جاءت فى سجلات ورسومات رمسيس الثانى، وفى عمليات الحفر الحديثة. وإن معركة قادش التى وصفها رمسيس الثانى بالتفصيل، هى نفسها معركة قرقميش التى وصفها إرمياء وأن «تل نبى ميند» يخفى قلعة «ربلة»، وان حرب التسعة عشر عاما بين رمسيس الثانى وملك خيتا، وبين «نيخو» و

«نبوخذ نصر» هى الحرب نفسها، وان معاهدة السلام الموقعة من رمسيس الثانى وتسليم المارقين من اللاجئين إلى مصر، كانت اتفاقية بين فرعون ونبوخذ نصر.

أما المصطلحات العبرية فى اللغة المصرية أيام رمسيس الثانى، فقد استعيرت من سكان يهودا فى الفترة المتأخرة من حكم الملوك، بينما الشقف الخزفية التى كتبها المدافعون عن «لاخيش» ممن حاصرهم نبوخذ نصر، وأختام رمسيس الثانى ومزهريات الاسرة التاسعة عشرة التى وجدت فى المدينة من العصر نفسه، وأيضا فازات رمسيس الثانى والقطع الاثرية من اواخر القرن السابع ق.م والتى اكتشفت فى مقبرة أحيرام فى بيبلوس هى من الفترة نفسها أيضا.

الحروف العبرية المحفورة على الحجر على مقبرة أحيرام من اواخر القرن السابع ق.م أوائل السادس، من أصل متأخر عن الحروف العبرية لزمن ميشع وحزقيا، ومن عصر واحد مع الحروف المكتوبة بالحبر فى لاخيش.

أليس غريبا ان فرعونا عظيما، بنى قناة تربط بين المتوسط والمحيط الهندى، وأرسل بعثة حول افريقيا، وشن حروبا كبيرة، وأثر فى المؤلفين اليونان والانبياء اليهود وكتاب الحوليات، لم يترك سجلات مصرية لانجازاته؟ لكننا اكتشفنا ان الحروب الكبيرة والنشاطات الأخرى للفرعون المعروف باسم نيخو عند كتاب الحوليات اليهود، قد سجلت باسم الفرعون الذى يعرفه المؤرخون المحدثون باسم رمسيس الثانى. ومع ذلك، مازلنا لانمتلك صورة كاملة للأحداث الكبيرة التى وقعت على مسرح الشرق الاوسط فى نهاية القرن السابع ق.م واوائل السادس.

كذلك كان نبوخذ نصر ملكا قويا، وقد أثر فى كتاب الحوليات اليهود والمؤلفين اليونان، وترك وراءه نقوشا على مبان كثيرة، ولكن أين السجلات البابلية لهذا الملك؟ يبدو غريبا ان حربا عظيمة وطويلة بين مصر وبابل مدونة بهذا التفصيل فى الكتاب المقدس لاوجود لها فى سجلات المشاركين الاصليين الرئيسيين.

وبعد ان عرفنا الطبيعة الحقيقية لسجلات رمسيس الثانى، ينبغى ان نتتبع بعض النقوش التاريخية لنبوخذ نصر.

هوامش الفصل الثالث

الكاتب الماهر

1- De Rougé, Ocuvres diverses, Vol. V (Paris, 1914), pp. 318-343.

2- Papyrus Anastasi I, ed. and trans. by A. H. Cardiner, Egyptian Hicratic Texts, I (Leipzig, 1911).

3- M. Burchardt, Die Altkanaanäschen Fremdworte und Eigennamen im Aegyptischen (Leipzig, 1909-10).

4- You have perished like a lion , said the speedy scribe.

5- I Chronicles 2: 55; II Samuel 8: 17; 20: 25; I kings 4; 3.

6- See Ages in Chaos, Vol. I, "Ras Shamra" and "The El-Amarna Letters".

7- Another example of the use of Hebrew words by an Egyptian scribeofthat time is presented by the Papyrus Koller, ed. and trans. by Gardiner, Egyptian Hieratic Texts, I (Leipzig, 1911).

مقبرة احيرام

1- The word "Bible" it derived from Byblos, which means "papyrus" in Creek.

2- Mission de Phénicie (Paris, 1864).

3- P. Montet, Bublos et l'Egypte, Quatre Campagnes de Fouilles à Cebel (1911-1924), (Paris, 1928), Ch. IV.

4- Trans. by W. P. Albright, Journal of the American Oriental Society, LXVII, 1947, pp. 155-56. The translation by R. Dussaud quoted by Montet reads in part: "...le throne de la royauté se renversera et la paix regnera sur Gobel" (...and peace will reign over Cwal).

5- "Avec des vestiges rgecéniens, M. Montet it troavé... des fragments dde poterie chypriote, caractéristiques du Vlle siécle, qui fixent ainsi l'epoque de la violation. Aucun fragment plus recent n' a été découvert. Or, il est certain que les inscriptions de Phypogée V ne peuvent descendre à une dateaussi basse. Entre l'epoque de Ramses II et le Vlle siecle, il n'y aucun doute qu'il ne faille adopter la premiére." R. Dussaud. "Les Inscriptions phéniciennes du tombeau d' Ahiram, roi de Byblos," Syria, Revue d'art onental et d'archéologie V (1924), 143-44.

7- R. Dussaud, Syria, V (1924), 142.

8- W. Spiegelberg, "Zur Datierung der Ahiram-Inschrift von Byblos," Orientalistische Literaturzeitung, XXIX (1926), clos. 735-37.

9- Dussaud, Archiv für Orientforschung, V (1929), 237.

10- Eduard Meyer, Geschichte des Altertums, II (1931), Pt. 2, p. 73.

11- Sidney Smith., Alakh and Chronology (london, 1940), P. 46.

12- A. H. Gardiner, Quartely Statement of teh Palestine Exploration fund, 1939, p. 112.

13- Dussaud, Syria, V (1924), 144.

14- Ibid., p. 142.

15- W. F. Albright in The Aegean and the Near East, studies presented to Hetty Coldman, 1956, p. 159. Albright's earlier treatment of teh subject is found in Journal of the American Oriental Society, LXVII, 1947, pp. 154ff.

16- P. Montet, Isis (Paris, 1956), p. 194.

17- Dussaud, Syria, XI (1930), 181.

18- Si l'on considére le traditionalisme, qui est un des traits caractéristiques de l'art de des cultes phéniciens, le cél´´bre sarcophage de Sidon, dit des pleureuses et conservé à Stambl, est de dernier état de la rcprésentation qu' apparait sur le sarcophage d'Ahiram." Dussaud, Syria, XI (1958).

19- M. Haran in Israel Exploration Journal, Vol. 8, Vo. 1 (1958).

20- The photograph of one of the two scenes with the mourning women shows two beating their breasts, not hips, two others lifiting their arms over their heads: Plate 97 in N. Jidejian, Byblos Through the Ages (Beirut, 1968).

21- B. Ullman. "How Old is the Creek Alphabet"? American Journal of Archacology XXXVIII (1934). 362.

22- Ibid., p. 379.

نقوش أحيرام وأصل الألف باء

1- H. Bauer, Der Ursprung des Alphabets (Leipzig, 1937), p. 43.

2- J. Leiboviteh (Bulletin de l'Institut Français d' Arch´cologis Orientale, XXXII (1932). 84). rates the inscription of Yehimilk as older than the Ahiram inscription.

3- D. Diringer, "The Palestinian Jnscriptions and the Origin of the Alphabet," Journal of the American Oriqntal Society, LXIII (March 1943).

4- The finds are enumerated by Diringer.

5- Kirehhoff in 1863. See Meyer, Ceschichte dse Altertums, Vo. II, pt. 2 (1931), p. 72.

6- So Eduard Meyer and his school; F. G. kenyon argues for the tenth century.

7- R. Carpenter, "The Antiquity of the Creek Alphabet," American Journal of Archacology. XXXVII (1933), 8-29. More recently it has been elaimed that the carliest Creek inscription, found on a vase from the kerametho s cemetery (Athens), dates from c. - 740.

8- Ullman, American Journal of Archacology, XXXVIII (1934); also among

carlier epigraphists, M. Lidzbarski, Handbuch der nordsemitisehen Eppigraphik (Weimar, 1898).

9- I find the elosest relation of early Creek writing in inscriptions antedating the Moabite stene, carpenter finds tham in later inscriptions". Ullman, op. cit., p. 366.

10- See the comparative table in Syria, V (1924), 149, fig 7.

11- A. H. Gardiner, Quarterly Statement of the Palestine Exploration fund, 1939, p. 112.

12- Ullman, op. eit., p. 366.

13- Ibid., p. 376. But see supra, fn. 7.

14- Carpenter, American Journal of Archacology, XXXVII, 26-27.

15- G. Karo, "Homer," in Ebert's Reallextikon der Vorgeschichite, XV (1926).

16- See ages in Chaos, Vol. I. "Ras-Shamra" and "El-Amaran Lettera".

17- E. L. Sukenik in Crowfoot and Crowfoot, Early Ivories (London, 1938), pp. 6-8.

18- Oedipus and Khnation (New York, 1960), p. 190.

19- Ages in Chaos, Vol. I (1952), "The End of Ugarit"; Ocdipus and Aklnaton (1960), p. 190.

20- By N. Platon.

21- Personal communication by J-Nougayrol, dated 29 March 1965.

إثو بعل أحيرام

1- Luckenbill, Rcords of Assyria, Vol. II, Sec. 567.

2- Ezekiel 27: 25.

3- Pliny, Natural History, V, 76.

4- Josephus, Against Apion, I, 156.

5- Josephus, Jewich Antiqvities. X, 228.

6- Ginzberg, Legonds, VI, 425-26.

7- H. R. Hall, Ancient History of the Near East (London, 1913), p. 547.

حقيقة مثيرة

1- M.. Dunand, Fouilles de Byblos, I (1937), pp. 53, 54, 56, 93, 339.

2- N. Jidejian, Byblos Through the Ages, p. 57.

8- Ibid.

4- The true time of Wenamon's travel is exarmined in Peoples of the Sea, a volume of the Ages in Chaos series dealing with the Persian periodi Wenamon visited byblos under Darius II in the second half of the fifth century.

5- Byblos Through the Ages, p. 57.

الفصل الرابع

الامبراطورية المنسية

الكتابة التصويرية والسجلات المسمارية للحيثيين

فى نهاية القرن الثامن عشر، لاحظ المسافرون قرب "افريز" فى هضبة آسيا الصغرى، ونوهوا بنقوش غائرة بكتابة تصويرية متميزة. بعد ذلك رأى الرحالة علامات تصويرية مشابهة محفورة على حجر أعيد استخدامه فى بناية فى سوق حماة شمال سوريا. كما لوحظت العلامات المميزة نفسها على بلاطة فى منطقة يربيلوس - قرقميش على ضفة الفرات، ومؤخرا فى موقع بابل القديمة وأماكن أخرى، وهى كتابة تختلف تماما عن الهيروغليفية المصرية، ولم يعرف الشعب الذى ترك هذه النقوش الغامضة.

من ناحية أخرى، فان ذكر "الخيتا" فى النصوص المصاحبة للنقوش الغائرة لمعركة قادش، وفى القصيدة التى تحتفى بهذه المعركة، وفى النص المصرى لمعاهدة السلام بين مصر وخيتا، أثارت التخمينات حول هوية خصوم رمسيس الثانى فى الصراع للسيطرة على العالم القديم.

فمن هم الخيتا هؤلاء؟

وقدم الحل سنة ١٨٧٠ وقبله علماء الآثار. الخيتا هم الحيثيون الذين ذكروا أحيانا فى الكتاب المقدس، والتشابه فى النطق هو الذى ساعد على هذا التحديد.

وقد وصل إلى هذه النتيجة "وليم رايت"، مبشر فى دمشق، وقرر أيضا ان العلامات الغامضة هى كتابة حيثية، وحيث إنه لم يكن قد عرف شئ عن التاريخ الحثى، بدا الأمر وكأنه احياء لامبراطورية من النسيان وسُمى

الموضوع "اكتشاف امبراطورية منسية" (١). ومع ذلك، صدرت تحذيرات وسط العلماءالذين عارضوا الفكرة، فقد بدا غريبا جدا ان يضاف الى عالم الامبراطوريات القديمة المصرية والاشورية البابلية امبراطورية تكتشف حديثا.

الوثائق المصرية التى ذكرت الحيثيين: حوليات الحرب لتحتمس الثالث (فى سطور قليلة)، ثم حوليات سيتى ورمسيس الثانى (بتوسع). رسائل تل العمارنة، المكتوبة باللغة المسمارية، ترجع بتكرار الى الحيثيين. هذه الفترة من التاريخ الرسمى تغطى المسافة الزمنية من حوالى ١٥٠٠ ق.م - ١٢٥٠ ق.م. قال "مرنبتاح" الذى تلا رمسيس الثانى بأنه قد طوع الحيثيين، وكتب رمسيس الثالث حوالى ١٢٠٠ - ١١٨٠ ق.م بأن الحيثيين قد سحقوا بالفعل (٢).

وقد أشار التاريخ البابلى الى علاقة الحيثيين بغزو بابل عند نهاية الاسرة القديمة لحمورابى فى القرن السابع عشر أو السادس عشر قبل الميلاد.

وأشارت الحوليات الاشورية الى الحيثيين للمرة الاولى أيام تجلات - بيلسير الاول الذى قام بحملة ضدهم سنة ١١٠٧ ق.م. وكانت ترجع هذه الحوليات الى الحيثيين بصورة متقطعة حتى ٧١٧ ق.م حين هزمهم «سرجون الثانى» وأخضعهم تماما باحتلاله قرقميش، وقد أكد علماء معاصرون ان نبوخذ نصر قد استأصل ما بقى منهم حين احتل قرقميش قبل وقت قصير من معركته مع "نيخو" وأعلن نفسه ملك لكل الأراضي الحيثية.

في سفر التكوين (١٠: ١٥) حين يتحدث عن اولاد أدم "وكنعان بن آدم ولد صيدون بكره، وحثا واليبوس والعمورى والجرجاشى والحوى (Hivite) وهكذا". والارض بين النيل والفرات التى وعد بها ابراهيم قبيل ان الكينتسى والكنيزتيس والكادمونين والحيثيين وستة قبائل أخرى قد احتلتها (٣).

حين اقترب الاسرائيليون من فلسطين عبر الصحراء وجدوا الحيثيين واليبوسيين والعموريين يسكنون الجبال، والكنعانيين يعيشون علي ساحل البحر (٤). وكان لدى داود عددا قليلا من الجنود الحيثيين (صموئيل

الاول ٢٦: ٦ وصموئيل الثانى ١١: ٣). وأما ابنه سليمان "فقد أحب نساء غريبة كثيرة... موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات" سفر الملوك الاول ١١:١. وأيضا تبادل التجارة مع ملوك الحيثيين وملوك سوريا (سفر الملوك الاول ١٠: ٢٩) وذكر ملك الحيثيين مرة أخرى في سفر الملوك الثانى ٧: ٦.

فى تماثل مزدوج، قيل ان الخيتا الوارد ذكرهم فى الحوليات المصرية، والحيثيين في الحوليات الاشورية، هم الحيثيون الذين ورد ذكرهم فى الكتاب المقدس، وان الآثار التى عليها الكتابة التصويرية تعزي اليهم من بين هذه الآثار نقوش محفورة في الصخر، واعتبر الفن والكتابة الحيثيين شاهد مادى لامبراطورية لعبت دورا كبيرا كدور مصر وأشور وبابل، ولكن لسبب ما قد نسيت ولم توضع في مكانها التاريخى المنسجم مع الحضارات القديمة إلا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى.

وقد وجدت الاثار التى عليها نقوش وكتابة تصويرية حيثية فى آسيا الصغرى، خاصة فى الجزء الشرقى، وفى المنطقة حول قرقميش وفي حماة وفى شمال سوريا وأيضا فى غرب آسيا الصغرى، وعلى جبل سبيلوس وكارابيل وسميرنا، ولم توجد آثار لهم فى جنوب سوريا وفلسطين، ولكن مراجع العهد القديم تقول انهم امتلكوا أرضا فى فلسطين القديمة (الخليل) (٥)، ومن المحتمل اكتشاف آثار حثية هناك.

ويتساءل بعض العلماء: لماذا تحتل احدى القبائل التى عددها الكتاب المقدس كسكان للأرض المقدسة قبل ان يحتلها يوشع، مثل هذا الدور غير المتوقع على مسرح الشرق القديم؟ (٦).

لقد كان من المتوقع ان تفشى اسرارهم الكتابة التصويرية بلغة واضحة مقروءة دون الاعتماد على المصادر المصرية والاشورية وحدها، هكذا كان حلم المؤرخين. لكن حدث شئ لم يحلموا به، فقد ظهرت الواح منقوشة بعلامات مسمارية على منحدر شديد يواجه قاع نهر تحت خرائب قديمة لمدينة "بوغازكوى". وقد تحركت بفعل الرمل والحطام وثقلها ذاته. وبوغازكوى، الآن، قرية تركية فى اقليم جالاتيا على بعد حوالى ١٤٠ كم شرق أنقرة، تحتل موقعا على عدة تلال منحدرة، وجدت فيها خرائب بنايات قديمة من بينها قصر تطوقه الانحناءة الكبير لنهر هاليس (الآن

كزل ارماك) الذى يصب فى البحر الاسود.

ونهر "بوغازكوى" هو رافد لنهر هاليس، وقد وجدت نقوش على الصخر فى "يازلكايا" فى واد ضيق على مسافة قريبة من "بوغازكوى"، وقد اجتذب ذلك منذ فترة طويلة انتباه الرحالة العلماء، وقد احتلت بالفعل مكانا مهما وسط الآثار الفنية الحيثية حين اكتشفت الواح بوغازكوى، وقد صاحبت الاشكال على النقش الصخرى اساطير تصويرية قصيرة.

هناك الواح وجدت على المنحدر، باعها فلاحو بوغازكوى قطعة قطعة لكل مسافر علي استعداد لدفع بضعة قروش. وقد ظهر عالمان فى الموقع سنة ١٩٠٦ للبحث عن مصدر هذه اللوحات (٧). وظلوا ثلاثة اسابيع يحفرون بمساعدة الفلاحين، دون اتخاذ الاحتياطات الصحيحة، فحصلوا بسرعة على ٢٥٠٠ لوحة وكسرة وبينما يحاولون قراءة اللوحات كانت ترد اليهم لوحات جديدة بمعدل مائة لوحة في اليوم بعضها مكتوب باللغة البابلية (الاكادية) وبعضها يحمل علامات مسمارية ايضا لكنها كانت بلغة أو لغات مجهولة.

تم قراءة الالواح المكتوبة بالبابلية دون صعوبة، فى هذه الايام شديدة الاثارة حيث كانت ترد لوحات بالعشرات، دهش عالم الآثار "هوجو وينكلير" وهو يقرأ على ضوء شمعة نسخة بابلية أو مسودة للمعاهدة التى وقعت بين رمسيس الثانى وملك الحيثيين والتى كانت معروفة من الترجمة المصرية المكتوبة على جدران الرامسيوم وعلي مرتكز السقف الكبير فى قاعة معبد آمون فى الكرنك. ولم يوجد اللوح الفضى الذى نقشت عليه مواد المعاهدة الأصلية، لكن الترجمتين المصرية والبابلية وُجدت احداهما فى مصر والأخرى فى الاناضول.

ويتضح من الترجمتين الهيروغليفية والمسمارية للمعاهدة بين رمسيس الثانى وخيتارسار (حاتوسيليس في المسمارية) ان الخيتا والحيثيين هما الشئ نفسه. فى النص الهيروغليفى يسمى خيتاسار "رئيس خيتا الكبير" وفى النص المسمارى "رئيس الحيثيين الكبير".

وبدا واضحا ان الارشيف الملكى لما يسمى بالحيثيين قد ظهر للضوء وبدا أيضا ان نظرية "الامبراطورية المنسية" قد تأكدت تماما. ألم يكن

مبتدع هذه الفكرة بعيد النظر وهو يتنبأ فى كتابه "امبراطورية الحيثيين" "بالنسبة للقبول النهائى للآراء المعروضة هنا فليس لدى شك فى ذلك" (٨).

فى السنة التالية ١٩٠٧م، حملت آلاف من الالواح والكسر من المنحدر نفسه فى بوغازكوى ليرتفع الرقم الى عشرة آلاف.

كانت هناك صعوبة تتعلق بعملية تراصف الطبقات الارضية: فالطبقة التى وجدت فيها الالواح تشير الى فترة اكثر عصرية من عمر هذه الوثائق. لكن وجود معاهدة رمسيس الثانى منع حتى النظر فى المعطيات المضادة، ووضع الملك حاتوسيليس الثانى ملك الحيثيين فى التاريخ فى عصر رمسيس.

أدرك "اى. فورر" وهو عالم سويسرى فى اللغة المسمارية، إن هناك ثمانى لغات على الأقل مستخدمة فى ارشيف بوغازكوى، وكلها تستخدم علامات مسمارية. احدى هذه اللغات المستخدمة اكثر من غيرها - عدا البابلية - أفترض انها لغة الحيثيين. وبعد جهود متواصلة قام بها عالم المسماريات التشيكوسلوفاكى "ف. هروزنى" حل لغز هذه اللغة المسيطرة فى الارشيف. بداية، قوبل هروزنى بمعارضة شديدة من زملائه، لكن بمرور السنين قلت المعارضة وانتصر رأيه. وقد عرفت اللغة بأنها تنتمى الى اللغات الهند اوروبية، ومع ذلك لا يوجد نص كتب بالحيثية أطلق فيه عليها حثى أو حثية.

وحين حلت رموز لغة أخرى من لغات الارشيف، وجد إنه أطلق عليها فى النصوص "خاتيلى" اولغة هاتى، ومازال الوقت مبكرا لتسمية اللغات الأخرى. اما اللغة التى حلت الفاظها حديثا سميت "هاتيش"، وتركوا الاسم "حيثى" للغة التى حل رموزها "هرونزى" أما اسمها الحقيقى التى جاء فى النصوص فهو "نيشيلى".

لغة الخاتيلى (هاتيش) كانت تستخدم فقط فى القصر وفى المعابد للابتهالات والصلوات والرقى (٩)، ونصوص الطقوس إما أنها كتبت باللغة الخاتيلية وحدها أو مع لغة أخرى بترجمة إلى اللغة المسماة بالحيثية.

اللغة الخاتيلية غنية بنظامها الصوتى وتصريفاتها، وتستخدم بوادئ

للكلمات وليس لواحق، فهى ليست هند اوروبية ولا تحمل أية علامات معروفة لأى مجموعة لغوية معلومة.

وقد قدمت فرضية بأن حيثيى سوريا وآسيا الصغرى هم جماعة مدمجة من شعبين ينتمى أحدهما الى الجنس الهند اوروبى، ولابد ان الامة الهند اوروبية استوعبت ثقافة وديانة السكان الآخرين ودخلت لغتها كثير من العناصر البابلية والخاتيلية.

وقد عقد المشكلة أمام المؤرخين وعلماءاللغة، نظام اللغات الثلاث الرئيسية وعدة اللغات الثانوية فى الارشيف نفسه. فالبابلية قد استخدمت للأغراض الدبلوماسية .كما فى المعاهدة مع رمسيس الثانى)، واللغة أو اللهجة التى اسماها العلماء "حثية" استخدمت فى معظم الوثائق المحلية وأحيانا لأغراض ديبلوماسية، اما اللغة التى سميت " لغة الخاتى" فقد استخدمت للأغراض الدينية وفى شؤون الاتيكيت فى القصر. ثم خمس لغات أو لهجات أخرى سميت بما يناسبها ممن حلوا رموزها، واتضح ان هاتوس (المدينة القديمة فى موقع بوغازكوى) كانت العاصمة ولها صلات دولية كثيرة.

بإزاحة المشهد التاريخى الى حيث ينتمى بالفعل، أى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، نتساءل أى هذه اللغات: الكلدانية أم الفريجية الليدية أو الميديانية أو التروسكية تكلمها الناس الذين جاءوا الى ايطاليا من آسيا الصغرى؟ اللغة الفريجية phrygian لها علاقة باللغة اللوانية Luwian: فالمملكة الفريجية أنتهت تقريبا فى الفترة التى أخضع فيها الاشوريون الدول التى تتكلم اللوانية والحثية – السورية. فلقد استولي السيميريون Cimmerians – وهم شعب أمى من جنوب روسيا – على "جورديون" عاصمة الفريجيين فى ٦٨٧ ق. م، ولكى يصلوا العاصمة كان عليهم عبور نهر هاليس ومحاصرة بوغازكوى. ومن المهم جدا التساؤل عما اذا كانوا قد اكتسبوا اوكيفوا الف باء خاصة بهم؟ فلم يتركوا وراءهم إلا القليل جدا من الآثار. بعد سنة ٦٨٧ ق. م أصبحت "ليديا" تحت حكم "جايجس" القوة المسيطرة فى غرب آسيا الصغرى، محاصرة للمملكة الحثية التى امتدت لوسط وشرق الاناضول ومركزها بوغازكوى. كانت اللغة الحثية هى الاكثر استخداما وشيوعا خلال فترة الامبراطورية. وقد

وجد بعض العلماء المعاصرين أن اللغة الليدية "تبدو حثية" (١٠)، فالمملكتان الليدية والحثية كانتا متعاصرتين وتستخدمان اللغة نفسها، فحوريان Hurrian، كما حاولنا أن نبين فى كتاب :"عصور فى فوضى" هو اسم محرف لـ Carian، وامتزاج اللغات فى ارشيف بوغازكوى مع لغات الجماعات العرقية (الاثنية) التى احتلت آسيا الصغرى، هو عمل علماء فقه اللغة.

مشكلة «الامبراطورية الحثية» تعقدت بسبب العلامات التصويرية الغريبة التى وجدت فى أماكن كثيرة فى الاناضول وبلاد النهرين وشمال سوريا: هذه العلامات هى التى قامت عليها فكرة الوجود التاريخى للامبراطورية المنسية. أختام ملوك الحيثيين التى وجدت فى آسيا الصغرى تحمل الصفتان: التصويرية والمسمارية، كذلك كانت العلامات التصويرية موجودة على بعض الالواح المسمارية من أرشيف بوغازكوى، وعلامات مشابهة أيضا حفرت على الصخر فى «يازيلاكيا». الوثائق التى كشف النقاب عنها فى الأرشيف، تزودنا بمادة لعدة فصول جديدة فى التاريخ، وقد نشرت كتب ومجلات عديدة تتناول الحثيين ونقوشهم، وقد درست الفترة من امنحتب الثالث إلى رمسيس الثانى والتى تغطى القرنين ١٣، ١٤ ق. م من جديد على ضوء هذه النقوش.

ولقد رتبت الحوليات الملكية التى وجدت فى بوغازكوى بطريقة تكشف عن علاقة وثيقة بالحوليات الملكية الاشورية لسنحريب، واسارهادون وأشور بانيبال فى القرن السابع ق. م (١١). كما أن نصوص أخرى من بوغازكوى تثبت أن « السحر البابلى والطب والفلك كانت معروفة وموجودة فى آسيا الصغرى وكذلك ترجمة لملحمة جلجامش» (١٢)، كذلك كان للحيثيين علاقة مشتركة مع الاعمال البحثية البابلية والترانيم الكتابة المبنية على التراث التاريخى وأعمال أدبية أخرى (١٣)،. كذلك القوانين المدنية وأمور العدالة الاشورية كانت شائعة ومشتركة مع القوانين المدنية فى أرشيف بوغازكوى (١٤).

من المفترض أن تكون الامبراطورية الاشورية قد بدأت صعودها بعد سقوط الامبراطورية الحثية، لكن بشكل ما يبدو أن الحيثيين أكثر تقدما من الاشوريين، وبالتالى يفترض أن الاشوريين انتكسوا ثقافيا بمقارنتهم

بالحيثيين (١٥). ويتساءل العلماء عن السبب المجهول لهذا التراجع فى التطور الثقافى، حيث أنتهى عصر الحيثيين ١٢٠٠ ق.م، ونهضت الامبراطورية الاشورية قبل ١١٠٠ ق.م بقليل، وكيف يمكن أن تكون الثقافة الحثية التى تقع بين القرنين ١٥ - ١٣ ق. م بعلمها وقوانينها وآدابها وحولياتها الملكية وتقاليدها وعاداتها، تشبه بدرجة كبيرة ثقافة الامبراطورية الاشورية فى القرنين ٨،٧ ق. م والامبراطورية البابلية الجديدة فى القرنين ٦،٧ ق. م؟.

فى المعاهدات التى كشفت فى أرشيف بوغازكوى بين ملك الحيثيين "خيتا" وملوك البلاد الأخرى، نجد أن الحوليات الحربية لوالد "حاتوسيليس" والتى كشف عنها النقاب، تسميه مورسيليس، وتقدم وصفا لحروبه، وسيرة ذاتية لحاتوسيليس تغطى الفترة من طفولته حتى ارتقائه عرش الامبراطورية.

يتضح، مما جاء فى الفصول السابقة، أن ملك خيتا العظيم الذى حرك رمسيس الثانى جيوشه ضده، كان هو ملك الكلدانيين، وإن الذى وقع معاهدة السلام خيتاسار أو حاتوسيليس فى النص المسمارى هو نبوخذ نصر.

هذه النتيجة تؤكد اخفاق المؤرخين فيما يتعلق بالامبراطورية الحثية. وقبل أن نفحص حوليات والد حاتوسيليس، نزعم بأنها لم تكتب بيد ملك حتى من القرن ١٤ ق. م، ولكن بيد نبوخذ نصر العظيم الذى لم يكشف عن تاريخه بوضوح حتى الآن. سيرة ذاتية لنبوخذ نصر؟ لم يكن لدينا سوى صلوات عديدة لهذا الملك، كتبت فى مناسبة انشاء المعابد، وسطور قليلة تحتوى على اشارات إلى حكمه السياسى والحربى الغنى بالاحداث، وجزء من لوح صغير يشير إلى حادثة واحدة لعلاقات معقدة بين الامبراطورية الكلدانية البابلية تحت حكم نبوخذ نصر ومصر، علاقات استمرت عقودا خصص لها الكتاب المقدس فصولا عدة فى أسفار إرميا وحزقيال والملوك وأخبار الأيام، وقد أخذت تقريبا كل المادة التاريخية عن هذه الفترة البابلية العظيمة من هذه النصوص فى الكتاب المقدس ومن الأدب اليونانى.

بينا فى الفصل السابق أن رمسيس الثانى هو الفرعون نيخو وأن

هناك مادة وفيرة باللغة الهيروغلافية تتعلق بالحرب بين مصر والامبراطورية البابلية تحت حكم نبوخذ نصر. وقد كشف عن المادة التى تتعلق بالفترة نفسها باللغة المسمارية فى بوغازكوى سنة ١٩٠٦م. ولكن بالسحر الاسود نفسه الذى شوه التاريخ الأنسانى بخمسة إلى ثمانية قرون، نسب هذه المادة الاولية إلى ألفية خطأ وإلى أناس غير أناسها.

مورسيليس الحثي ونابولاسار الكلدانى

من بين نصوص "بوغازكوى" نقشان طويلان يرويان حوليات مورسيليس الحربية. أحدهما يحتوى أحداث السنة الأولى من حكمه حتى السنة التاسعة أو العاشرة (١)، والآخر أكثر تفصيلا، وقد وجد على كسر تحتوى على ما حدث فى السنوات التالية من حكمه بشكل غير واضح، وبمساعدة حوليات السنوات العشر الأولى، تمكنا من ترتيب الكسر بشكلها الصحيح وأن طافت ظلال شك حول صحة هذا الترتيب؟ لأن تفاصيل الحوليات تعيد رواية احداث السنوات العشر الأولى بشكل مختلف (٢)، ويعتقد أن هذه الكسر تغطى فترة السنة الحادية عشرة من حكمه منذ بدايتها حتى نهايتها، ثم السنة التاسعة عشرة إلى السنة الثانية والعشرين من حكم مورسيليس "وتقع بينها فجوة مؤلمة" (٣)، ومن الواضح أن هذه الفجوة الزمنية تخفى فترة الذروة فى حروب مورسيليس، كما أن السنة التاسعة بلغ فيها الصراع الطويل مرحلة فاصلة، باصطدام مورسيليس مع ملك أشور الذى تلقى المساعدة من ملك مصر، أما السنوات الأولى من الحوليات فتحتوى بالاضافة إلى سجلات الحملات المختلفة التى قام بها مورسيليس فى الاتجاهات الاربع، سجل المراحل التمهيدية لهذا الصراع الكبير.

فى سنته الثانية، أرسل مورسيليس قائدا عسكريا إلى أخيه سارى - سن - أح أمير قرقميش يأمره بأن يقاوم ملك أشور «حين يأتى الاشوريين... حاربهم».

فى السنة السابعة من الحوليات جاء ذكر اتفاق مع ملك مصر: "... معاهدة... حين ملك مصر... وحين مع... ملك مصر" وبالرغم أن الاسطر

مهشمة، فمن الواضح أن تحالفا قد قام بين ملك أشور وملك مصر ضد مورسيليس. كذلك عند أقتراب ملك مصر أنضم بعض الحكام السوريين إلى جانب أعداء مورسيليس. "بمجرد أن عرفت أخبار وصول قوات مصر تحركت ضدهم" وكتب مورسيليس إلى الحامية فى قرقميش بأنه اذا دخل الجيش المصرى نوهاسى (فى سوريا) فعليهم اخباره على الفور "وسآتى وأحاربه". لكن الصراع مع الجيش المصرى قد تأجل، وفى الوقت نفسه لم تأت القوات المصرية.

بعد سنتين، فى السنة التاسعة من حكم مورسيليس أصبحت الحرب نشطة مع ملك أشور الذى غزا أرض قرقميش، فتوجه مورسيليس إلى الاقليم وحرره ووضع ابن أخيه بن سارى - سن -أح على عرش قرقميش، وتحرك في السنة نفسها إلى اقليم حوران:

«تحركت تجاه حوران، ووصل جيشى هناك».

أجزاء مهمة من النص كانت مهشمة، لكن من أصلحه استطاع أن يعيد تركيبه، وكانت هذه الخلاصة هى التى قدمها: "قابل مورسيليس فى سنته التاسعة خصمه أشور اباليت على نهر الفرات" (٤).

فى أخر حوليات سنته العاشرة، أكد مورسيليس بأنه قد وصف أفعاله الخاصة فقط وأن انجازات امرائه وقواده لا تشتمل عليها الحوليات.

الحقيقة المهمة التى نعلمها من الحوليات إنه حارب لعدد من السنين ضد تحالف بين ملك أشور وملك مصر، واستمرت الحرب دون حسم، وامتدت إلى حوران فى السنة التاسعة حيث قابل وحارب هناك ملك أشور "أشور بالبيت".

وحسب التاريخ المعاد ترتيبه، فان مورسيليس والد حاتوسيليس هو الاسم الكلدانى لنابو بولاسار والد نبوخذ نصر، لذا سأقارن الحقائق الموجودة فى حوليات مورسيليس بالحقائق المعروفه عن نابو بولاسار ملك أكاد (بابل) وكلديا.

حتى نصف قرن مضىٍ، لم يكن لدى المؤرخين نصوصا بابلية تتضمن معلومات تاريخية تغطى حكم نابو بولاسار، ولكن فى سنة ١٩٢٠م، حللت لوحات مسمارية كانت مخزونة فى المتحف البريطانى لعدة سنوات، فوجد أنها لكسر من تاريخ الملوك الكلدانيين (البابليين) كتبت فى وقت

متأخر ربما فى العصر الفارسى نقلا عن بعض السجلات التى كانت موجودة آنذاك (٥). وقد كانت مشابهة، من هذه الناحية، لما جاء فى سفر أخبار الايام فى العهد القديم، والتى كتبت أيضا فى العصر الفارسى.

لوح، من الالواح التى تحوى تاريخ ملوك بابل، يتعلق بالحملات الحربية لنابو بولاسار (٦)، وهو يحكى قصة حروبة خلال الفترة التى تمتد من بداية السنة العاشرة من حكمه. وتقدم مادة جديدة حول سقوط "نينوى" وتدهور القوة الاشورية. التاريخ البابلى (المتحف البريطانى لوحة ٢١٩٠١) لحروب نابو بولاسار يبدأ بحملة السنة العاشرة من حكمه "فى السنة العاشرة فى شهر أيار استدعى نابو بولاسار الجيش الاكادى وسار على طول شاطئ، نهر الفرات"، بعد عدة شهور "فى شهر تشرى تبع الجيش المصرى والاشورى جيش أكاد"، فى السنة الثانية "عبأ ملك أشور جيشه وأرجع ملك أكاد عن أشور". ولكنه لم يستطع استغلال نصره على نابو بولاسار، لأن المديسيين Medes غزوا أشوريا واحتلوا مدينة أشور. وشهدت السنة التالية قدوم الملك السكاثى Scythian مع جيشه للاشتراك فى معركة أشوريا. "سار ملك أمان - ماندا تجاه ملك أكاد (نابو بولاسار)" لكنه اقنع أن يأخذ جانب أعداء أشور - ثم جاء الهجوم الكبير الشهير على "نينوى" والمذبحة الكبرى، واقتربت الامبراطورية الاشورية من ساعتها الأخيرة. وهلك "سن - أشار - اشكون" وريث أشور بانيبال، وتبدو اسطورة التضحية بالنفس "لساردانابال" فى قصره فى نينوى أنها تعكس نهاية سن - اشار - اشكون، بعد سقوط نينوى، أعلن «أشور بالبيت» الأخ الاصغر لأشور بانيبال والذى كانت إقامته فى حوران، نفسه ملكا على أشور (٧).

وحسب التواريخ "أشور بالبيت" أخذ مقعده على العرش كملك لأشور واستمر نابو بولاسار فى حربه ضد أشور لسنتين تاليتين ثم "جاء أمان ماندا ليساعد ملك أكاد واتحد جيشاهما واتجها إلى حوران ضد أشور بالبيت الذى جلس على عرش أشور" (٨).

المساعدة التى قدمتها مصر لأشور طوال حلفها مع "نينوى" لم تنقطع بسقوط المدينة، ولكنها قدمت إلى "أشور بالبيت" فى حوران "جيش مصر الكبير... عبر النهر واتجه إلى حوران.. ملك أكاد سار لمساعدة جيشه".

فى السنة السابعة عشرة (٩) عبأ ملك أكاد جيشه و.. وهنا ينتهى التاريخ المكتوب على اللوحة المحفوظة بالمعهد البريطانى تحت رقم ٢١٩٠١ (١٠).

ليس هناك فترة أخرى فى التاريخ كانت فيها مصر وأشور متحدتان فى الحرب سوى هذه الفترة. الحالتان اللتان نتعامل معهما هنا يفصلهما سبعة قرون فى التاريخ الرسمى، ولكنها شئ واحد لحالة واحدة.

سار مورسيليس على طول شاطئ الفرات ليحارب القوات الاشورية المؤيدة من القوات المصرية، وقيل أن العمليات الحربية التى وقعت فى حوران ضد أشور بالبيت حدثت فى القرن الرابع عشر ق. م.

سار نابو بولاسار على طول الفرات وتحارب مع الجيوش الاشورية المؤيدة من الجيش المصرى، وقيل أن معاركه الحربية ضد أشور بالبيت فى حوران وقعت فى القرن السابع ق. م.

مات نابو بولاسار فى السنة الثانية والعشرين من حكمه، الكسرة الأخيرة من حوليات الحرب الخاصة بمورسيليس تقع فى السنة الثانية والعشرين من حكمه.

"الفجوة الاليمة" فى حوليات مورسيليس بين السنة العاشرة والتاسعة عشرة من حكمه، فى جزء كبير منها مملوءة بالتاريخ البابلى الذى يغطى فترة حكمه من السنة العاشرة إلى السنة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، خلال هذه السنوات تدخل ملك الـ Scythians "أمانى - ماندا" أولا بنية مساعدة ملك أشور، ولكن أخيرا كشريك فى حلف ضده.

وقد كتب نابونيدس (٥٥٦ - ٥٣٩ ق. م) أخر ملوك الامبراطورية الاشورية الجديدة، عن سقوط أشوريا تحت الحكم المشترك للميدسيين والكلدانيين والسكيثين "ملك امان - ماندا الشجاع خرب معابد آلهة أشور كلها" (١١).

ريقص هيرودت كيف حاصر ملك ميديس نينوى "هناك هاجم جيش سكنيثى عظيم يقوده ملكهم مادياس بن بروتوثياس، وغزا آسيا بعد أن طرد السيميريين خارج أوروبا، وتبعهم فى فرارهم، ووصل السكينيثيون إلى بلاد ميديان" (١٢). وهذا العصر هو الذى شهد لأول مرة غزو السكيثين من سهول روسيا، وقد كتب هيرودت "جاء السكيثيون من الطريق العلوى

الاكثر طولا وعلى يمينهم جبال القوقاز" (١٣).

قال التاريخ البابلى عند اشتراك السكيثيين فى الحرب ضد أشور أنه تم فى السنة الرابعة عشرة إلى السابعة عشرة، وحيث أن تاريخ هذه الفترة مفقود فى حوليات بوغازكوى، حيث أن اسم "أمان ماندا" ورد كملك للسكيثين فى التاريخ البابلى، فاننا بحثنا عن اسم هذا الملك فى وثائق أخرى، ووجدناه فى نصوص قانونية كشف عنها فى الموقع نفسه وتشير إلى محاربى أمان - ماندا (١٤).

هل من الممكن أن نزعم أن جيوش أمان ماندا كانت على مسرح الأحداث فى الشرق الأوسط قبل ٧٠٠ سنة من طرد السيميريين من أوروبا وملاحقتهم عن طريق القوقاز؟ كان لابد أن يكون هذا انذارا بأن قرون التاريخ لم تكن مرتبة بشكل صحيح.

أسماء وألقاب

من أجل فهم أفضل للشخصيات فى المراحل التاريخية، من المناسب أن نشير إلى عدة حقائق.

كانت العادة فى بابل وفى سوريا ومن المحتمل فى أقطار أخرى فى غرب آسيا. ان يطلق اسم المتوفى على أحد الاحياء من ذريته. وأعتقد ان بركة الميت ستحل بمن يحمل اسمه، اوربما كانت رغبة فى أن تظل ذكرى الميت حية وتواصل عاداته. يسمى الابن على اسم جده أو أبيه، أو يسمى الولد على اسم أخيه الراحل، كذلك حين يموت ملك ما يسمى عدد من المواطنين أنفسهم أو أولادهم على اسم الملك المبجل.

كذلك كان الامراء فى الشرق القديم لايختلفون عن امراء الامم الاوروبية القديمة من ناحية اطلاق عدة اسماء على أولادهم. ومثل فراعنة مصر وملوك اليهود فإن ملوك وأمراء بابل وأشور كان لهم أكثر من اسم. ويخبرنا التلمود أن سينحريب كان له ثمانية اسماء وحزقيا سبعة (١). وفى مصر كان هناك قانون يحدد بأن يكون للملك خمسة اسماء ملكية، دائمة، وفى مناسبات معينة تغير بأسماء أخرى، بالاضافة إلى ان للملك اسماء خاصة أخرى، فمثلا رمسيس الثانى كان له أكثر من ١٢ إسما (٢).

من نص السيرة الذاتية لحاتوسيليس، يمكن للمرء ان يعرف ان عدة شخصيات مثل أرما ولاباش يشار اليها باسماء مختلفة في السياق نفسه. ومن حسن الحظ ان كلا من نرجل (نرجلسار) ولاباش ابنه، ذكرا في مناسبات بالاسماء نفسها التي جاءت بالوثائق الحيثية والبابلية.

وكان من العادة، خاصة في بلاد الرافدين، ان ينادي الملك بأسماء عدة في الولايات المختلفة، هكذا فان تجلاث بيليسير الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م) ملك أشور، كان يسمى "بول" في بابل التي كانت تابعة لمملكته. "وأصبح شائعا كقاعدة عامة تقريبا لملوك أشور الذين يحكمون بابل ان يكون لهم اسم آخر غير الذي يستخدم في أشوريا" (٣). وكان الملك يحمل اسماءً أخرى، ليس في نينوى فقط، بل في اجزاء أخرى من الامبراطورية. وكان للملوك الحيثيين اسماء حورانية بالاضافة إلى اسمائهم الملكية، وهكذا فالملك الصبي الذي عرفه التاريخ باسمه الحوارني "ارحي – تيثوب" كان اسمه الملكي نورسيليس الثالث. وكان أمر عادي ان يغير اسم شخص ما بقرار ملكي حتى يبدو أكثر قبولا في آذان الشعوب الاجنبية. فاسم "الياكيم" غيره الفرعون "نيخو" الى يهوياقيم (سفر الملوك الثاني ٢٣: ٣٤) وأيضا "ماتيتياح" غيره نبوخذ نصر الى صدقيا (سفر الملوك الثاني ٢٤: ١٧) دانيال واصدقاءه غير نبوخذ نصر اسماءهم (دانيال ١: ٧)، من يمكن ان يكتشف أن دانيال هو بيلتيشازار، لو لم تكن هناك اشارة مباشرة الى تغيير الاسم؟

ولقد عرف من النقوش المسمارية لملوك أشور في القرن السابع ق.م سنيحريب وأسارهادون وأشور بانيبال انهم كانوا يسمون اتباعهم من الملوك المصريين باسماء لا تحمل أي تشابه للأسماء التي استخدمها هؤلاء في النصوص الهيروغليفية، فعادة تغيير الاسماء قديمة جدا، لقد غير فرعون مصر من المملكة الوسطى اسم يوسف الى "زفنافياناب" (التكوين ٤١: ٤٥)، وتغيير الاسم ليس فقط لارضاء شعوب مختلفة، بل أيضا لارضاء آلهة مختلفة. فهناك اسماء مختلفة للالهة، فنبوخذ نصر كان يطلب الحماية من الاله نيبو (كوكب عطارد، ومردوك (كوكب المشتري)، ونرجل (المريخ)، وعشتار (الزهرة)، وبيل (زحل)، وسن (القمر) والشمس شاماس، وكلها يجب أن ترضى لأنها قد تؤذي، وكان للكواكب – الالهة اسماء أخرى

فى الولايات المختلفة، مثل انليل ونتليل وهكذا، وكذلك اسماء الالهة فى الهيكل المكرس لجميع الالهة (البانثيون) كان لها اسماء بديلة فى لغات مختلفة، وقد دمجت الكثير من هذه الاسماء باللغة الاكادية.

بالاضافة الى ذلك، فاللغة المسمارية يمكن أن تقرأ كرموز أو كمقاطع، وهكذا من الممكن أن يصبح اسم نرجل (نرجال) ميواتاليس حسب القراءة.(٤) ولهذه الاسباب ليس من المدهش أن يدعو المؤلفون اليونان نابو بولاسار باسم بيلسيس (ديودورس ٢: ٢٤) وبوسالوسور (ابيدنيوس)، وأن يسمى في نصوص بوغازكوى مورسيليس وبيحاسيلى، وفى المصرية ميروسار وفى البابلية بل - شم - اشكن ونابو بولاسار.

وكما بينا فى صفحات سابقة، فان حاتوسيليس كان الاسم الكلدانى للملك الذى دعى نبوخذ نصر أو نبوخذريزير في الكتاب المقدس، وهو الاسم الذى فضله بعد تحقيقه شهرة كبيرة ببنائه مدينة بابل تحت حماية الاله نيبو حامى والده والمدينة التى فتحها، وبناها الابن. وأعتزم ان أوضح فى عمل آخر ان ما عرف بكارثة برج بابل تسببت بمرور قريب لعطارد نيبو عند البابليين (ومنه اسماء نابو بولاسار ونبوخذ نيزار) او توت عند المصريين (ومنه اسم تحتمس)، كما يعكس اسم نيرجلسار عبادة الريخ الذى كان يظهر كثيرا فى القرن الثامن ق. م (٥).

نابو بولاسار يصبح عاجزا

يكتب "بيروسوس" المؤرخ البابلى، باليونانية عن أحداث وقعت قبل ثلاثة أو اربعة قرون، مسجلا تتابع ملوك الامبراطورية البابلية الجديدة، واصفا كيف أصبح نابو بولاسار مريضا "حين أصبح غير قادر على متاعب الحملة، أوكل جزءاً من جيشه الى ولده نبوخذ نصر" وكيف أخضع ابنه الولايات المتمردة (١). " وحدث فى الوقت نفسه، ان مرض والده ومات فى مدينة بابل بعد حكم استمر ٢١ سنة".

نابو بولاسار المحارب الذى لا يتعب حين ضربه المرض أول مرة كان عليه أن يتخلى عن قيادة جيشه، وحين ساءت صحته ثانية مات. وحفظت سجلات بوغازكوى القصة الموثقة لمرض مورسيليس والد حاتوسيليس: "

كنت على طريق "تل كونو" حين هبت عاصفة، وجعل اله العواصف الرعد مرعبا، وأصبحت الكلمة نادرة فى فمى تخرج متعثرة. وبمر السنين أصبحت هذه الحالة تلعب دورا فى أحلامى، وضربتنى يد الله فى زمن الحلم وفقدت القدرة على الكلام نهائيا" (٢).

تكسح الملك فى أول ضربة للشلل، ولم يستطع تحمل قسوة الحياة العسكرية فتقاعد، وبعد سنوات قليلة أصبح مريضا مرض الموت حين فقد القدرة على الكلام، ثم مات.

واذا حكمنا من حولياته - تلك التى وجدت فى بوغازكوى وتلك التى حفظت فى المتحف البريطانى، فان نابو بولاسار - مورسيليس كان رجلا لا يقهر فى معركة، وكان مسجلا أمينا للأحداث ليس له مثيل. حولياته حتى السنة العاشرة، ومن العاشرة للسابعة عشرة، ومن التاسعة عشرة الى بداية الثانية والعشرين، تعتبر روائع فى الدقة وسرد الانتصارات والهزائم. وهى تختلف كثيرا جدا عن حوليات أشور أو تلك التى لأى ملك لامبراطورية كبيرة فى العالم القديم.

نظام توارث العرش فى بابل

يواصل "بيروسوس" حديثه بعد وفاة نابو بولاسار بعد حكم استمر ٢١ سنة قائلا "قبل أن يبلغ نبوخذ نصر بموت أبيه بفترة طويلة، كان قد جعل الامور مستتبة فى مصر والبلاد الأخرى، فالسجناء - من اليهود والفينيقيين والسوريين ومن الجنسية المصرية - ارسلوا إلى بعض اصدقائه مع أوامر باصطحابهم إلى بابل مع القوات الجرارة، بينما هو نفسه اندفع عبر الصحراء إلى بابل. وهناك وجد الادارة فى يد الكلدانيين، والعرش محفوظ له على يد رئيسهم النبيل" (١).

وعن الاحداث التى تلت تولى نبوخذ نصر العرش، يواصل "بيروسوس": "حكم نبوخذ نصر ٤٣ سنة قبل أن يمرض ويموت، وانتقلت المملكة إلى حكم ابنه "ايفل ماردوخ"، ووقع هذا الأمير الذى كانت حكومته استبدادية وفاسدة، ضحية مؤامرة، واغتاله زوج أخته "نيرجلسار" بعد حكم دام سنتين، وبوفاته نجح قاتله في أن يستولى على العرش ويحكم

أربع سنين، وتبعه ابنه الصبى "لابوروسو أردوخ" فحكم تسعة شهور، وبسبب فساد طبعه، دبرت مؤامرة ضده، وضرب حتى الموت على يد أصدقائه، وبعد قتله، اجتمع القتله ومنحوا المملكة بالاجماع إلى "نابونيدوس" أحد أفراد عصابتهم" (٢).

وكتب بيروسوس أن "قورش" الفارسى هزم بابل فى السنة السابعة عشرة من حكم "نابونيدوس".

ويتوافق التلمود والمدراشا عموما مع "بيروسوس" على طول فترة حكم نبوخذ نصر والتى يحددونها بـ ٤٥ سنة (٣).

فى الكتاب المقدس، كما عند بيروسوس، تبعه فى الحكم ايفل ميردوخ (٤)، ولم يذكر الكتاب المقدس أن "ايفل ميردوخ" تبعه "نيرجيلسار" ثم ابنه الصبى. أما سقوط بابل على يد الفرس فهو موصوف فى كتا ب دانيال، أما الملك المنتصر الذى شرب من أوعية هيكل القدس والذى رأى الكتابة اليدوية على الحائط ليلة سقوط المملكة كان يسمى "بلشازار"، ووفقا لنقوش "نابونيدوس" فقد كان وريثه وشريكة فى الحكم (٥).

وقد كتب "نابونيدوس" فى نقش له بكلماته عن الاحداث التى قادت إلى توليه الملك "احضرونى إلى وسط القصر، وألقوا بأنفسهم عند قدمى، فأنا المثل القوى لنبوخذ نصر ونيرجيلسار، اسلافى "افل ماردوك" بن نبوخذ نصر ولاباش مردوخ بن نيرجيلسار الذين شوهوا النظام والقانون" (٦).

يبدو أن هذا السرد يؤكد الجزء الثانى من قصة "بيروسوس"، أما الجزء الاول منها الذى يخص صعود نبوخذ نصر إلى العرش نجد تأكيده على لوح مسمارى فى المتحف البريطانى نشر لأول مرة سنة ١٩٥٦ (٧)، وهو يقول "فى السنة الحادية والعشرين مكث أكاد فى أرضه، وحشد نبوخذ نصر أمير التاج وابنه الاكبر الجيش البابلى وتولى قيادته وسار إلى قرقميش التى تقع على ضفة الفرات، وعبر النهر ليواجه الجيش المصرى الذى كان معسكرا فى قرقميش.. وتحاربا وانسحب الجيش المصرى أمامه وتمت هزيمتهم. وبالنسبة لبقية الجيش المصرى فقد هرب من الهزيمة بسرعة ولم يمسهم سلاح، وفي منطقة حماة هزمتهم القوات البابلية ولم يهرب رجل واحد إلى بلده. فى ذلك الوقت استولى نبوخذ نصر على كل بلاد الحيثيين،

وكان نابو بولاسار ملكا على بابل لمدة ٢١ سنة، وفى الثامن من شهر أب مات، وفى شهر ايلول عاد نبوخذ نصر إلى بابل، وفى اليوم الاول من ايلول جلس على العرش الملكى فى بابل.".

لمدة من الزمن، انبهر علماء الآثار، بلوحة نذرية (مقدمة وفاء لنذر) فى حالة جيدة أقامتها والدة نابونيدس، وهى كاهنة وصلت الى سن مائة وخمس سنوات، واللوحة تغطى اسماء الملوك التى عاشت تحت حكمهم. كانت قد ولدت فى السنة العشرين من حكم اشوربانيبال، تتابع الملوك ومدة حكمهم هو نفسه الذى عند "بيروسوس" الذى كتبه بعد ثلاثمائة سنة من نبوخذ نصر، حذفت اللوحة فقط الصبى ابن نيرجيلسار.

مع كل هذه الشواهد التى لدينا لن توجد هناك صعوبة. ومع ذلك فإن النقوش الخاصة بنيرجيلسار تخفى مشكلة. ففى الجملة الافتتاحية فى كل من اللوحتين يزعم نيرجيلسار "انا ابن ملك بابل بيل – شم – اشكون" (٨).

حكم نبوخذ نصر بابل مدة أربعين سنة، وحكم قبله والده نابو بوليسار لأكثر من عشرين سنة، اذن من هو ملك بابل المسمى "بيل – شم – اشكون"، اذا كان نيرجيلسار هو الذى حكم بعد نبوخذ نصر ؟ لا توجد إجابة لهذا السؤال. "فى أهم نقش لنيرجيلسار دعا والده باسم بيل شم اشكون الذى لا نعرف عنه شيئا" (٩). كما أطلق "القابا رفيعة على بيل شم اشكون، سار بابيلى ملك ملك. وبالمعلومات التى لدينا الآن، من الصعب تحديد بيل شم اشكون بأى حاكم معروف" (١٠).

ومع ذلك، فان الحل الممكن لهوية ملك بابل الذى يدعوه نيرجلسار والده، يمكن ان نجده عند ديودورس الصقلى الذى حين يتحدث عن سقوط نينوى، يدعو الملك الكلدانى نابو بولاسار باسم "بيليسيس" "اسم هذا الرجل بيلسيس" (١١). وهذا الاسم يمكن ان يكون فى الترجمة اليونانية للمسمارية بسهولة بيل شم اشكون.

كذلك يسجل "نيرجلسار" بأنه وجد "ازاجيلا" معبد بابل الكبير فى حالة تصدع "ازاجيلا... جدرانه خربة... ابوابه غير متماسكة.. وعتبات نوافذه غير ثابته.. فوضعت اساساته على حجارته الاصلية وبنيت عاليا جدرانه" (١٢).

لو حكم بالفعل سنتين بعد نبوخذ نصر. فمن الغريب ان يحل الخراب

بمعبد "ازاجيلا" فى هذا الوقت القصير. كان نبوخذ نصر معروفا بانشاءاته كما لم يعرف عن كثير من الملوك القدماء، لقد بنى وأصلح معابد فى طول البلاد وعرضها، واهتم بمعبد "ازاجيلا" الكبير أكثر من أى مكان مقدس آخر، وغالبا ما بدأت نقوشه الدينية هكذا "نبوخذ نصر، ملك بابل، المعتنى بإزاجيلا وأسيدا بن نابو بولاسار، ملك بابل أنا" (١٣) فهو يذكر حمايته لأزاجيلا قبل ذكر إنه ابن نابو بولاسار، كما كتب ثانية وثانية "جعلت إزاجيلا وأسيدا تلمعان كسماء مزينة بالنجوم، مشعتان كيوم مبهر" (١٤).

حسب نقوش نيرجلسار فإنه أصلح المعبد الضرب وغطى بواباته بالفضة، ولكن نبوخذ نصر بناه من الاساس الى السطح وغطاه كله بالذهب. فكيف يمكن اذن، بعد سنتين من وفاته - ولم يهاجم بابل عدو - أصبحت ابواب المعبد غير متماسكة وعتبات نوافذه غير ثابتة، واحتاجت اساساته اصلاح كامل؟ ونظرة إلى صورة الحفريات فى معبد إزاجيلا نرى "جدرانه الهائلة المكونة من ملايين الحجارة المنقوش عليها اسم نبوخذ نصر. العناية بمعبد إزاجيلا (١٥)، كافية ليدرك المرء ضعف فكرة خراب جدرانه واساساته بعد وفاة نبوخذ نصر بسنتين.

وفى نقش آخر روى نيرجلسار كيف أصبح قصر الملك فى بابل خربا ولا يصلح للسكنى "القصر... خرب على شاطئ الفرات، تحطمت ابوابه. فهدمت حوائطه المنهارة حتى وصلت ماء الأرض، فوضعت هناك اساساته ثانية بالاسفلت والطوب المحروق.. فبنيته وأكملته" (١٦). هذا هو القصر الذى أقام فيه نبوخذ نصر كملك بابل، "كان نير الشار أسور يقيم فى القصر نفسه الذى قام نبوخذ نصر بتغييرات كبيرة فيه وتحسينات وأول شئ كان يتعلق بالاساسات" (١٧) ذلك ما كتبه نبوخذ نصر عن تحديثه وتوسيعه للقصر فى عمل نفذ بدقة "وضعت اساساته فى قاع اللجة عميقا"، كما كتب نبوخذ نصر أيضا "بنيت عليه حائطا كبيرا من الطوب المحروق والملاط كالجبل، وبجانب الحائط الطوبى، أقمت حائطا هائلا من حجارة صلبة من الجبال العظيمة، فكان عاليا كالجبل، ثم ملأته بأثاث غال لأجل كل الرجال الذين أدين لهم بالفضل، وتبعثرت فى ارجائه اشياء هائلة ومخيفة من روعتى الملكية.. هذا البيت سيعمر إلى آخر الدهر.. حتى

استقبل فيه الجزية الوفيرة من ملوك جميع أرجاء المملكة من كل الانواع البشرية... ولعل أحفادى يحكمون فيه إلى الابد" (١٩).

كيف يمكن لقصر كهذا ان يخرب وتتحطم جدرانه القوية وتتهدم اساساته بعد سنوات قليلة من وفاة نبوخذ نصر ؟

ولكن لدينا شواهد آثرية، حين نقب فى الارض التى بنيت فيها الاساسات، وجدنا حائطا من الحجارة المربعة، كتلا هائلة متماسكة بمشدات خشبية مطلية بالقار، والبناء يقف على الصخور التحتيه بالعمق عند الماء "صدر العالم الآخر"، وكل كتلة من الصف الثالث فوق الارض تحمل اسم نبوخذ نصر منقوشا. "نبوخذ نصر.. أنا.. صنعت اساسات قصر بابل من كتل جبلية" (٢٠). لقد ظلت الكتل فى مكانها ليس فقط لسنتين بعد وفاة نبوخذ نصر بل هى حتى اليوم بعد ٢٥٠٠ سنة من وضعها وربطها فى حالة ممتازة.

المعلومات الاثرية المعطاة هنا فيما يخص حالة القصر ومعبد ازاجيلا لا تتوافق مع التتابع المعروف لملوك بابل. وهذا موقف خطير.

فيما يخص هذا التناقض، هناك، من ناحية، الشواهد التالية:

١- النقش على اللوح ٢١٩٤٦ (٢١) المحفوظ فى المتحف البريطانى الذى يحدد اليوم الذى توفى فيه نابو بولاسار، ثم اليوم الذى استدعى فيه نبوخذ نصر للعودة إلى بابل وتولى العرش.

٢- لوحة الدفن لوالدة نابونيدس (٢٢)، التى تذكر "نيرجلسار" (ولا تذكر ابنه لاباش مردوخ) كملك تال لنبوخذ نصر وولده "ايفل مردوخ" ودون أن تذكر نيرجلسار أو لاباش مردوخ قبل نبوخذ نصر.

٣- نقش خاص بعرش نابونيدس (٢٣) الذى لم يعدد السابقين عليه، ولكنه يشير فقط إلى نبوخذ نصر وابنه ايفل مردوخ والى نيرجلسار وابنه لاباش مردوخ.

٤- وأخيرا سجلات بيروسوس (٢٤) التى تتوافق مع لوحة الدفن لوالدة نامونيدس فيما عدا إنه يضع لاباش ميردوخ بن نيرجلسار بعده وهى لا تذكره.

بهذه الشواهد الاربعة، لوحة المعهد البريطانى وهى فى الغالب من العصر الفارسى (٥٣٨ – ٣٣١ق. م، وبيروسوس قبل العصر الفارسى أو فى

العصر الهيللنى، ثم والدة نابونيدس التى ولدت تحت حكم اشور بانيبال وعاشت ١٠٥ سنوات، وفى تأبينها الذى كتبته بنفسها فى سنتها الخامسة والتسعين جعلت نابو بولاسار يتبع أشور بانيبال، مع أننا نعرف أن خليفته هو سن - شار - اشكون الذى هلك فى قصره فى نينوى سنة ٦١٢ ق.م ثم تبعه "أشور بالبيت" - وضد ثلاثتهم شن نابو بولاسار حربا طويلة - ثم تشير إلى أن نبوخذ نصر جاء بعد نابو بولاسار دون أن يحكم أحد بينهما. ثم نقش نابونيدوس الذى يقول بأنه "كان المنفذ الحقيقى لوصايا نبوخذ نصر ونيرجلسار اسلافه من الملوك". ويمكن أن تقرأها نزولا: نبوخذ نصر ثم نيرجلسار، أو صعودا نيرجلسار ثم نبوخذ نصر. وحيث أن أمه لم تذكر "لاباش مردوخ" بعد نيرجلسار كما فعل هو، فان "بيروسوس" هوالذى حل سؤال المؤرخين المعاصرين حين جعل الصبى "لاباش مردوخ" يتبع "نيرجلسار"، ويقول بيروسوس عن "نابونيدس" بأنه "واحد من العصابة" ورفيق الامبراطور الصبى، مع إنه حين أعلن ملكا كان متقدما فى السن. إن ما كتبه "بيروسوس" كتبه بعد سنة ٣٠٠ ق.م لأحداث وقعت أواخر القرن السابع ق.م فلابد إنه اعتمد على شهادة سابقة، ولابد إنه ارتكب هنا غلطة ما.

هناك حقيقة مثيرة، تتابع الملوك وسنوات حكمهم فى الامبراطورية البابلية الجديدة كالتالى: نابو بولاسار (٢١ سنة)، نبوخذ نصر (٤٣ سنة)، ايفل مردوخ (سنتان) نيرجلسار (٤ سنوات)، نلاحظ أن أرقام بيروسوس تتوافق تماما مع أرقام والدة نابونيدس، مثل هذا التطابق التام فى الارقام فى مصدرين يفصلهما ٢٥٠ سنة شئ غير عادى فى علم الآثار.

اللوحة التذكارية لوالدة "نابونيدس" التى وجدت فى حاران سنة ١٩٠٦ كانت ناقصة بسبب تهشم كثير من العلامات، والارقام الخاصة بمدد الحكم الملكية والتى أدخلت على النص المطبوع كانت بالفعل مستعارة من "بيروسوس"، لكن فى اللوحة التذكارية الثانية لوالدة "نابونيدس" والتى عثرعليها فى حالة جيدة سنة ١٩٣٦. كانت الارقام واضحة وتتفق تماما مع "بيروسوس". عند قراءة النص، ثار تساؤل: ألا يمكن أن تكون اللوحة الجديدة مزيفة أو نتاج تزييف علمى؟ كثير من النقوش المسمارية، حين كانت تقدم للبيع، كانت ترفضها المتاحف، إما لمعرفتها إنها مزيفة

أواحتمال أن تكون كذلك. ولكن في حالة لوحة والدة نابونيدس التذكارية الثانية، يمكننا تتبع طريقة أكتشافها ويفقد الشك بالتزوير أرضيته. ومع ذلك ظلت هناك تساؤلات معينة قائمة في الدوائر العلمية منذ اكتشاف اللوحة الثانية: لماذا هناك لوحتان تذكاريتان للدفن لشخص واحد؟

في الشواهد العديدة لتتابع الملوك في الامبراطورية البابلية الجديدة نجد نبوخذ نصر يتبع على الفور نابو بولاسار، مختصرا الملوك من أربعة إلى اثنين، نابونيدوس لم يناقش التتابع على العرش بعد نابو بولاسار، ويبدو أن "بيروسوس" اعتمد لوحة والدة "نابونيدوس" كمصدر رئيسي، ومن ناحية أخرى فوجود الملك نيرجلسار بعد نبوخذ نصر وايفل مردوخ أصبح مؤكدا بشهادة والدة نابونيدوس بالدرجة الاولى. في شهادة أثرية أخرى جاءت من خلاصة قضائية تقدم تتابعا ملكيا بعد نابو بولاسار وقبل نبوخذ نصر بقولها أن نيرجلسار آخر حكم الامبراطورية (في حالة كهذه يكون نيرجلسار الاول)، اذا كانت هذه الواقعة صحيحة، فماذا يمكن أن نظن بلوحة المتحف البريطاني؟ أولا يجب أن نحلل هذا التقرير المعارض ثم نبحث عن حل.

كما اتضح سابقا، فان "نيرجلسار" وجد القصر الملكي في بابل في حالة خراب عظيم، فأعاد بناءه وجدد اساساته، ومع ذلك فان أساسات القصر نفسه وجدت كاملة حين وصل اليها كولديوس (٢٥) منتنية على الصخر أو بتعبير نبوخذ نصر "على صدر العالم الآخر".

نظريا، يمكن اهمال هذا النقاش بالاختلاف بين الدارسين فيما اذا كان نيرجلسار يحتل قصر نبوخذ نصر نفسه، مع إنه لم يكشف أي قصر آخر يعزى إلى نيرجلسار. ثم لماذا يصلح قصرا خربا اذا كان نبوخذ نصر قد ترك له قصرا فخما على اساسات راسخة؟ لكن أي نقاش كهذا لا يمكن تطبيقة على معبد إزاجيلا، فهناك "إزاجيلا" واحد فقط.

معبد "إزاجيلا" في بابل كان قرة عين نبوخذ نصر، في انشاءاته البنائية العظيمة، لم يعط انتباها أكثر ولا بذل جهدا أكبر ولا أسرف بمثل هذا السخاء كما فعل على معبد "ازاجيلا". اساسات "إزاجيلا" التي بناها نبوخذ نصر بحجارة تحمل اسمه مازالت كاملة حتى اليوم، ولابد إنها كانت كذلك في عهد خلفه بعد سنوات قليلة من وفاته.

هذا الدليل الأثرى لاهوادة فيه: لابد أن نيرجلسار كتب نقوشه قبل أن يكتب نبوخذ نصر نقوشبه، وهذا يعنى إنه حكم قبل نبوخذ نصر وليس بعده.

يأتى الدليل الثالث أيضا من النقوش التى على مبانى نيرجلسار. فهو يشير إلى نفسه بأنه ابن ملك بابل بيل - شم - اشكون، فاذا حكم نبوخذ نصر لمدة ٤٣ سنة، وابنه ايفل مردوخ حكم سنتين بعده وقبل نيرجلسار، فادعاء الأخير يصبح فى صراع كامل مع الحقائق والتواريخ. ولكن من السهل توافق الوضع اذا حكم بعد نابو بولاسار وقبل نبوخذ نصر، والاكثر من ذلك فهو يسمى أباه باسم مشابه لذلك الذى استخدمه الكتاب اليونان لنابو بولاسار.

الدليل الرابع الذى لم نناقشه بعد، لوحة محفوظة فى المتحف البريطانى (تحت رقم ٢٥١٢٤) تصف حربا شنها نيرجلسار فى سنته الثالثة على الحدود الغربية لآسيا الصغرى عند حدود ليديا.

"فى تلك السنة، سار في الطريق الذى يقود إلى مدينة سالونى على مبعدة من حدود مدينة "لودو" وأحرق بالنار" (٢٦).

نيرجلسار الذى حكم بعد نبوخذ نصر، لابد إنه اعتلى العرش بعد أن وافق الليديون والميديسيون سنة ٦١٥ ق. م أو ٥٨٥ ق. م على اقتسام السيطرة على اسيا الصغرى، ولم تكن هناك فرصة ولا وضع تاريخى يسمح لحكام ضعفاءعلى العرش البابلى بعد نبوخذ نصر ليحركوا قواتهم عبر آسيا الصغرى إلى حدود ليديا. هذه الحملة، حملت فى ذاتها، مفاجأة واجهت المؤرخين الذين قرأوا الوثيقة (٢٧). لكن فى السنة الثالثة من حكم نيرجلسار الملك قبل نبوخذ نصر، فان حملة نحو ليديا تتوافق مع توازن القوى فى آسيا الصغرى فى ذلك الوقت.

أدلة متصارعة، مفتوحة للنقاش، وستظل هناك معلومات متناقضة طوال ما وضعنا للنقاش ما يمكن جمعه من تاريخ الامبراطورية البابلية الجديدة. ومعرفتنا بأن الاسرة الكلدانية (البابلية الجديدة) كان أصلها فى أقليم بوغازكوى فى شرق ومنتصف الاناضول، فلدينا اسباب قوية كى نتوقع وجود حل للمشاكل المستغلقة، بل ومعرفة سبب التشوية المتعمد للتاريخ.

هوامش الفصل الرابع

الكتابة التصويرية
والسجلات المسمارية للحيثيين

1- Priority claims are shared by Archibald H. Sayce (Transactions of the Socicty of Biblical Archacology, 1876), and William Wright, whose work, The Empire of the Hittites (london, 1882), becaine the sensation of the eighties. But compare also De Rouge, Oeucres dicerses, Vol. V, Cours de 1869, PP. 104ff.

2- See my Peoples of the Sea for the true time of ramses III - Nectanebo I.

3- Genesis 15: 19 - 20; see also Genesis 25:9 and 26: 34.

4- Numbers 13: 29; compare Joshua 1:4.

5- "the cave of Machpelah, in the field of Ephron the son of Zohar the Hittite, which is before Mamre" (genesis 25: 9). Compare E. Forrer, "The Hittites in Palestine, " Quarterly Statement of the Palestine Exploration Fund, 1936, PP. 190 - 203.

6- "The Canaanite, the Amorite, and the Hittite, and the Perizzite, the Hivite, and the Jebusite" (Exodus 33: 2). "It is surprising to find the great northern nation of the Hittites classed as a subdivision of the Canaanites." (J. Skinner, A Critical and Exegetical commentary on Genesis {New York, 1910}, P. 214.).

7- Hugo Winckler and Makridi - Bey. A detailed record of the excavations was never published. Prelinnuary reports appeared in Mitteilungen der Deutschen Orientgesdbchaft, No. 35 (1907), and in Orientalistisdie Lit - by Winckler, was published in 1913.

8- Wright, The Empire of the Hittites, P. X.

9- "Songs also were very frequently sung by the singers in the Khauish language during religious services. Khattish appears to have played an important role, especially in the religion of the khatti land." F. Hrozny, "The Hittites, " Encyclopacdia Britannica (14th ed.), XI, 602.

10- J. G. Macqueen, The Hittites (London, 1975), P. 59.

11- "Annalen treten zuerst in Boghazköi auf, und die Aehnlichkeit in Stil und Ausdruckstceise zuischcn den Hetditischen und assyrischen Wcrken ist so gross, dass man ohne die Annahme eines Zusammenhaangs garnicht auskommt." A. Götze, Das Hethiter - Reich, in Der Alte Orient, XXVII, 2 (Leipzig, 1928), P. 44.

13- "Die Hethiter haben uon den Akkedern nwben Werken der Wissenschsft, wie Vokabularen, Omina and medizinischen Texten, und literarischen Werken im enferen Sinne, wie Götterhymnen und Gil-games - Epos, auch Stücke der historischen Traditionsliteratur übernommen." H. Güterbock, "Die historische Tradition und ihre literarische Gestaltung bei Babyloniern und Hethitern bis 1200," Zeitschrift für Assyriologie, XLIV (1938), P. 45.

14- L. Aubert, "Le Code hittite el l'Ancien Testament," Reoue d'histoire et de philosophie religieuses, IV (1924), 452 - 70.

15- Aprés les Hittites, commence L'empire assyrien, dont les mocurs temoignent par rapport a eux d'une oéritable régression." G. Contenau, :Ce que nous savons des Hittites," Reuue histirique, CLXXXVI (1939), 15.

مورسيلوس الحثي ونابولاسار الكلداني

1- Part of the tenth year of the annals is only the ninth year of Mursilis, as his

accession to the throne took place during a calendar year. See E. Forrer, Geschichtliche Texte aus Boghazkoi H (Leipzig, 1926), P. 35: "...das letzte Jahr der Zehniahr-Annalen also das ncunie uolle Jahr ist...."

2- "Da die Bruchstücke ihe gegenseitiges chronologisches Verhältnis in Kcinem falle ohne weiteres zu erkennen gebon, ist ihre Anoranung cin Problem für sich." A. Götze, "Die Annalen des Mursilis," Mitteilungen, Vorderasiatisch-äzyptisshe Gesellschaft, XXXVII (1932),2.

3- "Dazwischen Klafit eine Schmerzliche Lücke." lbid., P. 9. In his original publication Götze hypothesized that the fragments might have extended to the twenty-seventh year of military activities of Mursilis. But further research led to a diflerent conclusion: "The present parts of the annals of Mursilis justify the a umption that his reign covered... not much more than twenty-two years." A. Götze in the Cambridge Ancient History (3rd ed.; 1975). Vol. II, Pt. 2, PP. 126-27. The last entries date from the twenty-second year.

4- Ibid., XXXVIII, 248. While Assur-uballit is not mentioned in the annals, it turns out that Götze's conclusion was correct. But the enemy of Mursilis was Assur-uballit II.

5- Earlier publications: C. J. Gadd, The Fall Ninevch (London, 1923). Julius Leqy, "Forschungen zur alten Ceschishte Vordasiens," Die Neubabylonische Chronik G, Mitteilungen, vorderasiatisch-ägyptische cesellschaft, XXIX (1925), 2.

Newly Edited and trranslated texts; D. J. Wiseman, Chronicles of Chaldcan Kings (626-556 B. C.) in teh British Museum (london, 19560. I followed Gadd's translation, cheacking it in Wiseman's version.

6- Tablet B. M. 21901.

7- "i appointed Ashur-etil-shame irsitim--uballitsu, my younger brother, as high priest to the god SIn dwelling in harran," worte Assurbanipal. Dougherty, Nabonidus and Balshazzar, p. 24.

8- Luckenbill, Records of Assyria, Vol. II, Sec 1182.

9- Wiseman, differeing from Gadd, raeds "In the 18th year.

10- Tablet B. M. 22047, covering the end of Nabopolassar's reign and the accession of Nebuchadnezzar, is discussed in one of the following sections.

11- S. H. Langdon, Die neubabylonischen Königsinschriften, (Leipzig, 1912), "Naboind" p. 273; also L. Messerschmid, "Die Stele nabunaids," Mitteilungen, Vorderasidisch-ägyptische Cesellschaft, I (1896), I-83.

12- Herodotus, I, 103.

13- Ibid., I, 104.

14- See J. friedrich and H. Zimmern, Hethitische Cesctze, in Der Alte Orient (Leipzing, 1922), pi. I, sec. 55, p. B. Hrozny, Code Hittite (paris, 1922), p. 49. par. 54; S, Smith, Alalakh and Chronology, p. 35; ef. also S. Langdon, The Venus Tablets of Ammizaduga (London, 1928), pp. 9, 31- 32.

اسماء والقاب

1- The babylonian Talmud Tractate Sanhedrin 493; Jerme on Isaiah 20;1 and 36: 1. See Cinzberg, Legends, VI, 370. This custom survived till this century-in the ptinealury-in the prineely bouses of Cermany in the nimetecnth contury and the British royal hous still in The twentieth.

2- See R. Cauthier, Le :Liver des rois d'Egypte (Caior, 1916), Vol. II.

3- R. W. Rogers, A HIstory of Babylonia and Assyria (6th ed.; New York and Cincinnati, 1915), II, 423 note.

4- Delaporte, Les Hittites, p. 125 "Le nom de ce roi s'écrit tantal Mouttalli, tantot Mouattath, Mouuatalli dans les texts en langue akhadiennes dans les documents en landue hitittite, it se présente en allographi esous la jorme sumérienne Nir-gal, idéogramme de l'akkadien Moutellou (seigneur)".

5- Worlds in Collision, "Mars".

نابوبولاسار يصبح عاجزا

1- Berosus qouted in Josephus Against APion, trans H. Thackeray (Loeb Classical Library, 1965), I. 135.

2- A, Cötze and H. Pedersen, "Mursilis Sprachlähmung ein Hethitischer Text," Det Kangelige Danske Videnskaberncs Sclskab (Copenhagen), Historisk-Filogiske meddekeser, XXI, I (1934), p. 5.

نظام توارث العرش فى بابل

1- Josephus, Against Apion, I, 136-38.

2- Ibid., I, 146-49.

3- See Cinzberg. Legends, VI 427, in 114 According to the Scriptures (ef. II Kings 24: 12, 25: 27), Nebuchadnezzar reigned forty-four years as king of Babylon.

4- II Kings 25: 27; Jeremiah 52: 31.

5- Langdon, Die Neubabulonischer Königsinschriften, "Nabonid", Inscription IV.

6- R. P. Dougherty, Nabondus and Belshazzan (Yale Oriental Scries, 1929), p. 72.

7- Tablet B. M. 2194, D. J. Wiseman, Chronicles of Chaldcab Kings.

8- Langdon. Die Neubabylanischen Königsinschriften, "Neriglissar," Inscriptions I and II.

9- Rogers A History of Babylonischazzar, p. 61.

11- Diodorus, The Historical Library Trans. Oldfather, BK. II, 24.

12- Langdon, Die Neubabylonischen Königsinschriften, "Neriglissar," Inscription II.

13- Ibid., 23, 24, and in many other instances.

14- Ibid., "Nebuchadnezzar," Inscriptions 27a, 27b and many others.

15- R. Keldewey, das wiederestachende Babyylon (15t ed; Leipzig. 1913), pp. 205-6.

16- Ibid., "Neriglissar," Inscription I.

17- Rogers, History of Babyylonia and Assyrua, Ii. 547.

18- Langdon. Building Inscriptions of the Neo-Babylonian Empire, Inscription "Nebuchadnezzar" XXXI, also XXXVI.

19- Ibid., Inscription "Nebuchadnezzar" XV.

20- R. Koldewey, Babylon, p. 175.

21-= D. J. Wiseman, Chronicles of Chaldean Kings, p. 69.

22- James B. Pritchard, ed., Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament (Princelon University Press 1950), pp. 311- 12; James B. Prichard, ed., The Ancient Near easst supplementory Texts and Pictures Relating to the Old Testament (Princeton University Press, 1969), pp. 560-62.

23- Pritchard, ed., Ancient Near Eastern Texts, p. 309.

24- Flavius Josephus, Against Apion, I, 146-49.

25- R. Koldewey, Das widererstchende Babylon.

26- D. J. Wiseman. Chronicles, pp. 74-77, commentary on pp. 39 42 Wiseman's conteation that the "Ludu" of the Chronicile is not Lydia but Pamphylia under Lydiah contiol, does not follow from the text.

27- Ibid., p. 39; THE new Chronicle now gives us a very different picture of Neriglissar.

الفصل الخامس

السيـــرة الذاتيـــة لنبوخذ نصر

الصعود إلى العرش

أعد سجل السيرة الذاتية لهاتوسيليس ليحفظ فى معبد عشتار وهى اعتراف وتبرير لتصرفه فى طمعه فى التاج. وتغطى السيرة (١) فترة حياته منذ الطفولة حتى تسنمه عرش الامبراطورية. حين كان طفلا، وقع هاتوسيليس مريضا بمرض خطير، وبسبب صحته الضعيفة فلقد أعتبر مقضيا عليه. حلم أخوه حلما ظهرت فيه عشتار تنصح أباه «السنوات الباقية لهاتوسيليس قصيرة، صحته ضعيفة. هبه لى: ليكون كاهنى وتعود إليه صحته». واتبع أبوه النصيحة، وهب «الولد الصغير للالهة للخدمة المقدسة» «وشب الولد ككاهن فى معبد عشتار». وتلقى السيرة الذاتية الضوء على أربع أو خمس حقائق نعرفها بالفعل عن نبوخذ نصر. وخلال حياته كلها كان تكوينه الجسمانى ضعيفا، وله مظهر القزم. وفى التراث التلمودى دعي نبوخذ نصر بالقزم (٢). ان قضاء طفولته فى معبد، لابد إنها المسئولة عن شخصيته الدينية المتوهجة، التى تظهر بشكل واضح فى نقوشه على بناياته، وطوال حياته كان يدعو نفسه كاهنا. هذا التلميذ المترهبن في معبد عشتار، ظل يعبدها وهو ملك، وحين بنى بابل أعاد بناء وأقام البوابة العظيمة لمعبد عشتار المغمورة فى موقع بابل القديم (٣).

«بنيت بوابة عشتتار من طوب مطلى بطبقة زرقاء مزججة» (٤). وكذلك بنى وأصلح معابد كثيرة لعشتار، واهدى ذكرى أعماله للأجيال القادمة «أعدت بناء ... إينا معبد عشتار فى أريخ» (٥) وسمى نفسه: «الساهر على الاماكن المقدسة لتيب وعشتار» (٦).

فى ديانات أخري كانت عشتار تسمى «نانا» و «نن كاراك» و «جولا» و«زار بانيث»، وكان كوكب الزهرة هو المؤله عند كل الشرق، بل عند كل العالم القديم فى الواقع. فى نقوشه ابتهل نبوخذ نصر للالهة العظيمة باسمائها المختلفة، وبنى لها معابد، شاكرا لها استعادته لصحته: «إلى جولا، الالهة التي جعلت جسمى سليما».

فى سيرته الذاتية يعزى شفاءه لعناية الالهة، وقد ظل الولد فى المعبد حتي نهاية حياة والده. حين مات والده «وأصبح الها» أصبح أخوه «نيرجل» الملك العظيم، الذى جعل «حاتوسيليس» قائدا للجيش، ووضعه أيضا على رأس جزء من الامبراطورية.

فى الفصل الرابع من السيرة الذاتية «جلس أخى نرجل على عرش والده، وأصبحت أمامه قائد الجيش.. وجعلنى اترأس على الارض العليا ووضعها تحت حكمى» ومن الواضح ان الارض العليا إما اشور أو جزء من الاناضول، لأن الارض السفلى كانت بابل.

وقد قاد الجيوش ضد الاعداء الذين غزوا البلاد وهو مازال صبيا ففى الفصل الخامس من السيرة الذاتية «اعتاد أخى نيرجل ان يرسلنى الى الحرب، ومهما كان العدو الذى اواجهه كنت انتصر.. سأقيم لوحا تذكاريا حقيقيا عن البلاد التي تغلبت عليها وأنا شاب». وكانت مناطق مختلفة قد تمردت ضد ظلم الكلدانيين «كل أراضى جاسجاس وبيشيكوس واشوتياس تمردت واستولت على الحصون.. وعبر العدو نهر ماسنداس وتقدم فى البلاد» كما جاء فى الفصل السادس من السيرة الذاتية. فى هذا الفصل من السيرة، يمكن ان نجد ثانية، ثلاث أو أربع تلميحات إلي أحداث ومواقف وصفت فى نصوص تخص «نبوخذ نصر». فقد كتب «بيروسوس» فى كتابه المفقود «تاريخ كلديا» فقرة حفظها ونقلها حرفيا جوزيفوس فلافيوس، بأن ملك بابل حين سمع عن ارتداد الولايات «اعطى جزءا من جيشه لقيادة نبوخذ نصر الذى مازال فى أول حياته وأرسله ضد المتمردين، فتقدم وهزمهم فى معركة حاسمة ووضع المنطقة تحت الحكم البابلى» (٧).

فى السلسلة الأولى من الحروب ترأس نبوخذ نصر الجيوش على الرغم من إنه لم يكن ملكا، وفى هذا كان بيروسوس محقا، وحين ترأس الجيش

كان صغيرا في السن، وهذه التفصيلة أيضا حقيقية. وأخضع الولايات المتمردة وهنا كان بيروسوس على حق ثانية. ولكن فى تفصيلة واحدة، كان بيروسوس والمصادر الأخرى اللاحقة على خطأ، ومن الممكن ان نصححها الآن بعد أكثر من ٢٠٠٠ سنة، وهى تتعلق بمن أرسل نبوخذ نصر ضد المتمردين: ابوه أم أخوه؟ قضية التتابع على العرش كان لها أهمية خاصة فى الفصل السابق. الحادثة نفسها - تمرد الولايات واخضاعها - اوردها بيروسوس بدقة، وتكررت بتفصيل مطول فى السيرة الذاتية.. تمردت أرض جاجاس.. أرسلنى أخى نيرجال.. أعطانى عددا قليلا من القوات والعربات.. قابلت العدو وحاربته.. وعشتار سيدتى ساعدتنى.. فضربته بقوة.. وكان هذا أول عمل فى صدر الشباب».

كل من السيرة الذاتية لحاتوسيليس، وكتابة بيروسوس عن نبوخذ نصر تؤكدان على السن الصغير لقائد الجيش، وبمجرد ان عين الشاب حاكما للأرض العلوية، وقبل ان يتلقى أكاليل الغار لانتصاره الأول على المتمردين، لقى معارضة من حاكم هذه الولاية. فى الفصل الرابع من السيرة الذاتية «حكمها قبلى سن - إياس بن زيداس الذى تمنى لى الشر، وأصبح الاتهام عاليا ضدى.. وعمل أخى فيرجال ضدى.. وظهرت لى سيدتى عشتار فى حلم: ساستودع حالتك عند الاله فلا تخف.. وشكرا للألوهية.. لقد بررت نفسى».

ان اتهام «حاتوسيليس» بوضوح بالتآمر للاستيلاء على العرش، تشكل فترة مؤلمة فى حياة الشاب، لكن لم تقدم دلائل كافية، وتجاهل الملك تحذيرات مستشار والده، ففى الفصل الخامس من السيرة الذاتية «حين أمعن أخى فيرجال نظره فى الأمر، لم يعاقبنى ادنى عقاب، واحتضننى ثانية فى حمايته، ووضع جيش وعربات الارض الحثية فى يدى».

من نقوش نبوخذ نصر (نقش ١٧) نعلم إنه استخدم هذا التعبير «الارض الحثية» للأرض التى تحت حكمه غرب الفرات «امراء الارض الحثية فيما وراء نهر الفرات والذين مارست عليهم سلطتى..»

ثم جاء وقت معاركه المنتصرة الكبيرة، ولقد رفع من حاكم على الأرض العلوية (أشور وجزء من الاناضول» إلى ملك. ملك الاراضى العلوية التابع إلى ملك الحثيين العظيم، وهو المركز الثانى الاكثر أهمية فى

الامبراطورية، فى الفصل الثامن من السيرة «وجعلنى ملكا فى هاكبساس» وأعطاه نيرجل أيضا عدة ولايات ليحكمها.

ولدينا هنا حل اللغز: لماذا قيل فى سفر الملوك الثانى «الفرعون نيخو ملك مصر اتجه صعودا ضد ملك الاشوريين إلى نهر الفرات» بينما فى الفصول الموازية فى سفر أخبار الايام الثانى تشير إلي ملك بابل أو ملك الكلدانيين. ففى ذلك الوقت كان نبوخذ نصر ملك أشور. تأتى هذه الفقرة فى السيرة الذاتية فصل ٧٩ حدث أن قام أخى بحرب ضد مصر.. وأنا الذى قدت لأخى الجيش والعربات ضد أرض مصر».

تتحدث السيرة الذاتية فى سطور قليلة فقط عن عن هذه الحملة. وقد وعد حاتوسيليس ان يصف حروبه على لوحة خاصة لم توجد بعد، عدا كسرة مشوهة عرفت (٨) بأنها سرد لمعركة حاتوسيليس التى حاربها لأخيه فيرجل ضد رمسيس الثانى فى قادش - قرقميش. لكن هذه الاشارة القصيرة للحملة تكفى بالغرض هنا. فالقصة الكاملة وردت فى الفصول التى تتناول سجلات رمسيس الثانى المتعلقة بحروبه مع خيتا، كما قورنت بيانات الكتاب المقدس فى حرب نبوخذ نصر مع مصر. لقد قيل مرارا بأن نبوخذ نصر حارب المعركة على أرض قرقميش بينما هو أمير، وإنه عاد عن الحدود المصرية بسبب أمر ملح يتعلق بالخلافة على العرش (١٠)، وظهرت الحقيقة وهى إنه عاد لاتهامه بالطمع فى عرش الامبراطورية، ومن الواضح إنه استدعى ليقدم تفسيرا، ويبدو إنه فعل ذلك بالفعل. إن سلوكه اثناء عبوره سوريا وفلسطين أعطى خصومه مبررا لاتهامه بأنه يتحرق شوقا لامتلاك قوة كبرى، فقد كان القائد المنتصر فى معركة قادش - قرقميش، ومخضع الولايات فى سوريا وفلسطين التي كانت مصر قد استولت عليها منذ سنوات قليلة، وبدا إنه حصل على قوة وتأييد كبيرين. لكن عودته كانت ضرورية لسبب آخر أيضا، كان عليه ان يدافع عن الارض العليا ضد غزو وقع عليها بينما قواته تتحرك فى سوريا.

«حين رأى سن - اياس بن زيداس حماية عشتار وأخي لى، حاول هو وأبناؤه ان يضعوا الاتهامات لى.. وثار هاكبياس ولكن طردت شعب الجاسجاز وأخضعته ثانية» السيرة الذاتية - الفصل التاسع.

بعد عودته مباشرة، استدعى للاجابة على التهم، وأحضر أمام أخيه الامبراطور، فعكس في المحاكمة الادوار واتهم متهميه، فى السيرة فصل ١٠ «وقامت عشتار ثانية بوضع القضية موضع التنفيذ» واستطاع ان يثبت على خصمه الاستهتار الدينى، وأخيرا وقف أخوه إلى جانبه، وسلم «سن اياس» بين يدى حاتوسيليس في السيرة فصل ١٠ «ولأنه كان أميرا ملكيا، ورجلا عجوزا أيضا.. فلم أفعل له شيئا.. وأرسلت أولاده إلى الاسيا (قبرص).

فى نص مختلف، يحتوى على المقطع نفسه من السيرة الذاتية، جاء «وبسبب أن إرما كان قريبا ورجلا عجوزا ومريضا فقد عفوت عنه» (١١).

ومن الواضح ان سن-اياس ، وإرما كانا اسمين لشخص واحد. وسنرى بعد قليل اذا ما كان هذا القريب العجوز مخطئا أم مصيبا حين حذر الامبراطور ضد أخيه الصغير. وفى الوقت نفسه استغل حاتوسيليس وقته، وسيأتي الوقت الذى يكتب فيه حياته إلي الوقت الحاضر.

فى الفصل ١٣ من سيرته «أصبحت الملك الكبير، وقدمت لى عشتار كل من تمنى لى الشر لمحاكمته، الحساد والمعارضين، بعضهم مات بالسلاح، والآخرون ماتوا فى اليوم الذى حدد لهم» (١٢).

ولكننا نقرأ فى أول القصة، أن أحد ابناء إرما قد مات بالسلاح فى الميدان، ومن الواضح ان إرما نفسه قد قتل.

طموح حاتوسيليس، المعارضة التى لقيها، محاكمته ودفاعه، نصره النهائى على معارضيه، كل ذلك يحتل مكانا فى السيرة الذاتية التي تغطى الفترة إلى نهاية صراعه فى الوصول إلى العرش.

كان نبوخذ نصر قلقا نحو التاج، وكان معروفا تاريخيا، كما كتب عبر القرون، بأنه كان يسعى ألا يدع تاج والده يستقر على رأس أخيه.

ومن الطريف ان نلاحظ ان التراث التلمودى ، كما أن الاباء الدينيين احتفظوا ببعض الذكريات عن شخصية إرما، أمير عظيم وخصم نبوخذ نصر وقريبه والذى فقد حياته على يد نبوخذ نصر بعد سنوات من الجدل والصراع. اسمه الذى وصل إلينا إنه «حيرام» ملك صور وصيدا، وهم اسم متوارث بين ملوك صور وصيدا.

«حيرام كان معاصرا لنبوخذ نصر، ويشبهه فى عدة نواح.. نهاية هذا

الملك الفخور كانت بهزيمته على يد نبوخذ نصر، فأزيح عن عرشه وعانى ميتة قاسية» (١٣)، وحسب ماجاء فى المدراشا «حيرام كان رجلا عجوزا جداً» (١٤) وإنه «قتل على يد نبوخذ نصر الذى كان قريبه» (١٥). والفقرات التالية فى السيرة الذاتية فى حالة سيئة جداً، ثم تأتى الكلمات التالية: السيرة الذاتية فصل ١٠ «أخى الميت لم يكن له أولاد كبار، فأخذت «ارحى تيسوبا» ووضعته على عرش أبيه فى حياتى». وهذا يعنى ان فيرجل «فيرجلسار» مات وإن ابنه الصغير وضع على عرش الامبراطورية. وهذا هو الوضع الذى وصفه «بيروسوس» «ابنه .. مجرد صبى.. احتل العرش» (١٦). فى نص السيرة الذاتية لحاتوسيليس يسمى الصبى، أيضا لاباش. (١٧).

وقد كتب نابونيدوس «حين استكملت الايام، وقابل نيرجلسار قدره، جلس «لاباش مردوخ» ابنه الصغير الذى لم يفهم كيف يحكم، على العرش ضد رغبة الالهة» (١٨).

قال «حاتوسيليس» فى سيرته الذاتية، إنه بسبب احترام ذكرى أخيه فإنه توج ابنه الصغير. وربما جعل «نيرجل» أخاه يقسم على الوفاء لابنه، وبيمين كهذا مصحوب بلعنات عدة فى حالة مخالفته، أمر يتوافق فى الغالب مع تلك العصور. فالمعاهدة مع رمسيس الثانى كان فيها جملة خاصة تتعلق بالوفاء واللعنة. كما نجد فى وثائق أخرى فى «بوغاز كوى» إن «ملك الحثيين العظيم» كان يطلب غالبا من الملوك التابعين له عهدا للولاء وحماية وريثه على العرش مع صب لعنة آلاف الآلهة على المخالف. وقد كتب بيروسوس «بعد تسعة أشهر وصل حكم الصبى إلى نهاية عنيفة». وتبعا لنص السيرة الذاتية، فربما لم تمر سوى عدة أشهر فقط قبل أن يرفض حاتوسيليس طاعة ابن أخيه. ويقال ان الفترة التى كان فيها وفيا لأخيه وابن أخيه لاتتجاوز سبع سنوات، القسم الاكبر منها كان تحت حكم أخيه. وخطأ حاتوسيليس ابن أخيه واتهمه بالحد من السلطة المخولة له، وكتب خطابا يتحدي فيه الامبراطور الصبى.

هناك خطاب موجه إلى ملك كاردانياش (بابل) محفوظ فى ارشيف بوغازكوى «الأخير كان قاصرا ويبدوا إنه واقع تحت سيطرة وزير كبير عجوز لايكن مودة تجاه حاتوسيليس» (١٩).

الاشارة بأن القاصر كان فى بابل مهم جدا بالطبع. فى هذا الخطاب كتب هاتوسيليس: «حين ذهب والدك إلى قدره، أقمت الحداد على وفاته كأخ» (٢٠). ووعد بالولاء فى ذلك الوقت بسبب حبه لأخيه، وبرعاية ابنه. ألم يكونا أخوين بينهما ثقة؟ ولقد كتب إلى مخاطبه «حين كنت وملك مصر غاضبين حاربنى ملك مصر، وأجابنى والدك سأذهب معك». وفى جزء آخر من الخطاب يسمى أخاه «مواتالى» نيرجل» (٢١). ويؤكد الخطاب الحقيقة: ان نيرجل (نيرجلسار) شقيق هاتوسيليس كان ملكا لبابل. ويواصل هاتوسيليس «ولكن إتي – مردوخ- بالاتو (الوزير) الذى سمحت له الالهة ان يكبر إلى وراء الحد.. والذى لاتنتهى الكلمات الشريرة من فمه، قد قال «انت لاتخاطبنا كاخوة ولكن كعبيد تخضعنا».

كان الخطاب تحديا إلي الامبراطور الصبى فى بابل، هذا الخطاب الذى جاء ذكره فى السيرة الذاتية يدل على انقسام علني مع الامبراطور الصبى.

كتب هاتوسيليس، شاعرا بضرورة التبرير «اذا حاول أحد أن يتساءل: لماذا جعلته ملكا؟ ولماذا تكتب الآن بأنه عنك يتخلى؟ فهكذا يمكن أن أجيب: كان ينبغى ألا يبدأ صراعا معى».

وفى الجملة الثانية، يكشف هاتوسيليس ان الأمير العجوز إرما كان محقا فى اتهاماته «لأنه فعلا أمام عشتار سيدتى وعدتنى قوة الملك. ظهرت سيدتى فى ذلك الوقت لزوجتى فى الحلم» سأساعد زوجك لأنى أقدره. ولم اسبب له فى أى محاكمة شريرة، ولا اسلمته لأى إله شرير.. والآن ثانية سأرفع مقامه، عشتار سيدتى تعتنى بى، وما قالته حدث، وعشتار سيدتى تظهر رعايتها لى بكل المقاييس» السيرة الذاتية فصل ١٢.

اثناء سنوات قيادته للجيش، وحين انتصر على رمسيس الثانى، كسب تأييد الجيش لأيام النزاع القادمة، فتبعه الجيش والارض.

فى الفصل ١٢ من السيرة وثانية فى حلم «قالت عشتار» أنا عشتار احول أراضى الحثيين بكليتها إلى هاتوسيليس»، ليمسك بالصبى الذي علي عرش بابل (كاردونياش) واحتراما لذكرى أخيه لم يؤذه وصحبه معه كسجين»، وهنا يشير هاتوسيليس إلي نيرجل والد لاباش بأنه أخوه. ثم

وضع الولد فى «نوهاسى» ربما بعلبك، لكنه ليس الرجل الذى ينام هادئا بينما الوريث الشرعى للعرش قريبا منه، وكان عليه ان يكبت مشاعر الوفاء تجاه أخيه الذى أظهر له الحب ووثق به، كان عليه ان يجد خطأ للصبى. كانت «نوهاسى» قريبة جدا، وانقلاب ما قد يحرر الصبى. «وحين اكتشفت الوضع، أمسكت به وأرسلته إلى شاطئ البحر» السيرة الذاتية فصل ١٢. قد يكون أرسله إلى جزيرة فى الخليج الفارسى أو إلى اقليم ساحلى فى البحر الاسود. وأما تخمين العلماء بأن الولد الملك قد لجأ إلى مصر فلا يقوم على اساس سليم.

والآن، يمكن لحاتوسيليس ان يجد نفسه «كنت امير وأصبحت «ميسيديا» عظيما، وكنت ميسديا عظيما فأصبحت ملك «هاكبيساس»، كنت ملك هاكبيساس فأصبحت الملك الكبير» السيرة الذاتية فصل ١٣. وحكم على كل معارضيه بالموت ولم يوضح اذا كان قد قتل الملك الصبى أيضا «من دخل السجن فى عصر نبوخذ نصر لم يغادره حيا فى حياته» هكذا يخبرنا التراث العربى» (٢٢).

فى نقش لنبوخذ نصر «ملوك المناطق البعيدة الذين عند البحر الاعلى.. والمناطق قرب البحر السفلى.. وأمراء أراضى حاتى فيما وراء الفرات إلى الغرب مارست عليهم سلطتى» (٢٣). الامبراطورية التى تحت تحكم حكم والده وأخيه وصلت تحت حكمه إلى قوة لم تسبق لها، ويقول فى سيرته «تلقيت الجزية أكثر من أبى وخلفائه. كل الملوك دانو بالاحترام له «ومن يتصرف منهم كعدو أحاربه، وأضفت إلى بلاد حاتى، اقليما وراء اقليم» الاشارة إلى بلاد «حاتى» هى نفسها الاشارة فى النصوص الاصلية من بوغازكوى وبابل.

هذه الجمل فى السيرة الذاتية ليست تفاخرا عبثيا، فنبوخذ نصر قد أوصل الامبراطورية الكلدانية إلى اتساع لم يحدث من قبل فى أية مرحلة تاريخية. الجزية تدفع، والاعداء قد هزموا، وتشهد القدس على ذلك.

الحرب بين حاتوسيليس ورمسيس الثانى روتها المصادر المصرية بالتفصيل وكل ما ساعدنا فى الفصول السابقة لتحديد تطابق شخصية رمسيس الثانى مع الفرعون نيخو يساعدنا فى تحديد تطابق شخصية نبوخذ نصر مع حاتوسيليس، هذا بالاضافة إلى ما جاء فى هذا الفصل.

مجرى المعركة في قادش قرقميش، الأحداث العديدة لحرب التسعة عشر عاما فى تتابعها الدقيق، المعاهدة فى نصوصها المتشابهة التى تحمل كل التماثل. فى فصل لاحق سنتحدث عن العلاقات السلمية بين نبوخذ نصر ورمسيس الثانى.

شخصية نبوخذ نصر

الروح التى كتبت بها السيرة الذاتية لحاتوسيليس تبين رجلا متكبرا، بلا ضمير ولايؤتمن ومتعطش للقوة، لكنه ضعيف أمام الهه، مملوء بالخوف، متدين، يبحث عن الفأل والنذر، يقدم العطايا المقدسة مع التراتيل لسيدته السماوية لترشده وتحميه، ولديه إحساس بإنه أختير ليكون ملكا على ملوك عدة. وفى صلوات نشوانة يستحضر الرؤى ويهتم بأحلامه. لم يدعو نفسه الشمس كما فعل والده وجده «أنت أيها الملك التابع.. كذا وكذا ستحرس الشمس.. والشمس ستحرسك»، ولاتبنى اسلوب الملوك المصريين الذين ألهوا أنفسهم فى مصطلحات طنانة فى أول وآخر حولياتهم وقراراتهم، ويمكن القول ان السيرة الذاتية لحاتوسيليس ليس لها مثيل فى الكتابات المسمارية او الهيروغليفية لأى ملك آخر عدا النقوش البابلية لنبوخذ نصر. هنا فى السيرة وهناك فى النقوش يجد المرء روح الغطرسة نفسها، والموقف المتواضع نفسه تجاه الالهة العامية، استحواذ غامض، وخوف من التعاويذ السحرية، الانشغال بالاحلام وتراتيل منتشية، واذا لم يكن هناك دليل على أن حاتوسيليس هو نبوخذ نصر، فان التشابه فى بنائهما الروحى يبدو بأنه فريد جدا.

جاء فى السيرة الذاتية ان الملكة السماوية ظهرت فى حلم لتحذر بأن الصبى كان يقترب من الموت وطلبت ان يكرس لها و «سيكون بصحة جيدة»، وشكر نبوخذ نصر المكلة السماوية «التى جعلت جسده سليما» (١) وكتب «السيدة المحبوبة التي تحمينى وتقدم لى رؤى جديدة كعلامة تبعد المرض» (٢) «سيدتى تأخذ بيدى، وكانت حاميتى» كتب حاتوسيليس مرارا (٣) «السيدة المحبوبة حامية روحى» كتب نبوخذ نصر (٤)، «سيدتى تظل تحمينى وتحرسنى دائما» وكتب حاتوسيليس «سيدتى أنقذتنى فى

كل مناسبة » (٥) « الالهة سيدتى فى كل مناسبة تمسك بيدى، وظهرت الالهة له لتشجعه أيام المحاكمة قائلة هاتوسيليس « لاتخف »، وظهرت له مرة ثانية فى حلم لتتنبأ بنجاحه فى صراع التاج.

وكتب نبوخذ نصر « سيدتى المحبوبة التى تحرس حياتى وتهبنى رؤى جيدة » و « تجعل رؤيتى واضحة » (٧)، « فى خوف وبلا توقف » (٨) « أرتجف مطيعا » (٩). وهنا نجد نبوخذ نصر يكتب بالروح نفسها التي كتب بها السيرة الذاتية.

أظهر نبوخذ نصر فى سنواته الأخيرة تكريسا عميقا للاله الاب ميردوخ، وفى سنواته الوسطى للاله « نينو » (١٠)، وكما نرى فى سيرته، ففى سنوات عمره الاولى إلى « الام الرحيمة » (١١) لكنه لم يخلص إلى الهته، فقد مرض مرضا تعتبر قصة شفائه منه عجيبة، قاده هذا المرض للبحث عن اله آخر. قصة دانيال وتلك التي رواها الكهنة المصريون كما سيتضح فيما بعد، توضح الأمر. قد يكون الاله ذاته أو الالهة العاجز عن الشفاء فى معبد، اكثر قوة وعطفا فى مكان مقدس آخر، ولذا استجديت كرامة عشتار أجادى، وعشتار أربيلا، وعشتار أروك، وكرامات جولا فى نان، وقدمت لها التضحيات والوعود باصلاح معابدها والاحتفالات الدينية بتقديم النقود والصلوات والمراسيم الدينية والسجود والسحر.

الشعور بأنك تشكل العصر وتثير الرعب، وظهور الشخصية البارونية شديدة الارتياب فى الآخرين، كل ذلك يبدو متشابها فى السيرة الذاتية، وفى النقوش على المبانى وفى الكتاب المقدس.

الصلوات لطرد الارواح الشريرة من القصر الملكى، وجدت وسط نصوص بوغازكوى « وهى تبين ان الحثيين مثل البابليين، كانوا يستخدمون تماثيل من الشمع او الصلصال على شكل كلاب للحماية من شياطين الشر » (١٢).

حين مرضت البنت الكبرى لهاتوسيليس بمرض عقلى، كتب هذه الصلاة « اذا أنت يا الهى وسيدى ترغب ان تفعل شيئا شريرا لابنتى الكبرى، فافعله بهذا الشكل المزين لسيدة، وادر وجهك فى عطف لابنتى الكبرى واشفها من مرضها » (١٣) وقدم حيوانات سمينة للروح الشريرة التى دخلت ابنته وتقول مصادر التلمود ان ابنة لنبوخذ نصر كانت مريضة

عقليا، واستشارت عرافين مزيفين قدما لها نصيحة خاطئة واقترحا ممارسة جنسية معها، ولقد أعدمهما نبوخذ نصر (١٤). فى الادبيات المصرية القديمة، هناك قصة محفوظة عن مرض عقلى لابنة أحد الملوك الاجانب (ربما حاتوسيليس) لوحة «بنتريش» تحمل نقشا يعود للحكم الفارسى على مصر (بعد رمسيس الثانى بثمان او تسع قرون) (١٥) تسجل معجزة شفاء الاميرة «بنتريش» المريضة عقليا، البنت الكبرى لملك «باختان». ويعزو كهان مصر «خونسو» هذا الشفاء إلى إلههم. وقد حدثت القصة حين كان رمسيس الثانى (أسيرمير ستينيبير) يسعى إلى علاقات سلمية مع «رئيس الحثيين» بعد نهاية الحرب الطويلة. وليس هناك تفسير: لماذا كهنة «خونسو»، الماهرين فى الكتابة، يروون القصة شفويا لعدة قرون قبل ان يكتبوها، ولكن لاتوجد صعوبة حقيقية هنا، فبين نهاية حكم رمسيس والغزو الفارسى لمصر هناك عقود قليلة وليس قرون. وحقيقة ان «حاتوسيليس» كتب تعويذة لتهدئة الارواح الشريرة التى دخلت ابنته تعطى مصداقية للقصة التى كتبها الكهنة المصريون. وحسب ماجاء في لوحة كهنة خونسو فإن ابنة ملك «بختان» حين «استحوذت عليها الارواح» أرسل لها طبيب من مصر، وحين وجد نفسه لايستطيع ان يتعامل معها، فأحضر لها تمثال الاله خنسو من مصر «حتى يمكن ان تشفى فورا» وغادرتها الروح، وأقام الملك احتفالية كبيرة لوداع خروج الروح الشريرة، وقرر ان يحتفظ بتمثال الاله وأخر اعادته إلى مصر لثلاث سنوات. ثم تقص لوحة بنتريش «بينما كان الملك نائما فى سريره. رأى هذا الاله متجها نحوه، خارج مزاره الذهبى وطار إلى السماء متجها إلى مصر، واستيقظ الملك مذعورا» (١٦) وقد أرعبه الحلم، أمر كهنة خونسو بالرحيل مع الههم. حادثة استيقاظ الملك فى ذعر وردت مرتين فى عمل أدبى أخر، مكتوب أيضا فى العصر الفارسى أو اليونانى المبكر فى بابل - كتاب دانيال، وفى كلتا المرتين كانت الاشارة إلى ملك الكلدانيين نبوخذ نصر «حلم نبوخذ نصر أحلاما، انزعجت معها روحه وهرب نومه منه» دانيال ٢: ١. كان نبوخذ نصر يولى احلامه اهتماما كبيرا، والفصلان الثانى والرابع من كتاب دانيال شاهدان على ذلك (١٧) وحتى فى مرسوم رسمى حسب كتاب دانيال ٤: ٥ كتب «رأيت حلما جعلنى خائفا وأزعجتني

الأفكار حول سريرى والرؤى في رأسى. واعتاد ان يستشير، حين تعذبه الاحلام «السحرة والمنجمين والمشعوذين» و «يكون قلقا لمعرفة معنى الحلم» دانيال ٢: ٢، ٣. ومع إنه كان يخاف الاحلام، فان هاتوسيليس كان يستحضر الرؤى فى سنوات الصغر، ورؤى عشتار التى كانت تظهر له ولزوجته فى الاحلام كانت تتنبأ له بالحظ الحسن.

هناك نقش فى معبد الشمس الذى بناه نبوخذ نصر فى سبار Sippar يقول «انت ايتها الشماش فى الرؤية فى الحلم أجيبنى بالحق» (١٨)، خرافة أكثر منها تدينا. يبذل المديح ويقدم العبادة إلى أكثر الالهة خصومة، وهو بهذا ينكرهم جميعا. صنع «تمثالا من ذهب وأقامه فى سهل دورا » دانيال: ٣: ١ وتحول المديح إله دانيال الكبير (دانيال ٤: ٢)، واحتفظ فى بلاده بتمثال الاله خنسو.

الرجل الذى لم يجرؤ أحد ان يبتسم أمامه (١٩)، كان هو نفسه فريسة عاجزة للكوابيس. الروح الشريرة كانت تزحف نحوه. طبيب نفسى خبير وماهر يمكنه ان يتبين من السيرة الذاتية لهاتوسيليس الشخصية الفصامية التي يمكن ان تتطور بسهولة إلي انفصام الشعور بالاضطهاد. مرض نبوخذ نصر فترة طويلة بسبب شخصيته المنقسمة، حتى حدث الانكسار أخيرا، ولم يعد قادرا على اخفاء مشاعر الاغتراب وتساءل «اليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها» دانيال ٤: ٣٠ «وبعد عني الرجال، أكل الحشائش كالثيران، وكان جسده مبتلا بندى السماء حتى نما شعره مثل ريش النسور وأظافره كمخالب الطيور» دانيال ٤: ٣٣. ولمدة حوالى سبعة أعوام، عانى نبوخذ نصر هذا الاضطراب العقلى ولم يستطع حكم البلاد او الاعتناء بنفسه. وهذا السرد في الكتاب المقدس حول المرض العقلى لنبوخذ نصر يحمل كل الاشارات التى تجعله دقيقا وصحيحا.

كان نبوخذ نصر بلا جدال رجلا ذا قدرة كبيرة، وقائدا عسكريا موهوبا، ابتدع أسلحة جديدة، وتكتيكات جديدة لحركات سريعة وهجومات صاعقة، وكان سياسيا سليطا عرف كيف يضعف روح الامم التى يحاربها، مدمرا وحدتها كى يحطم مقاومتها (سفر إرميا) وكان يولى اهتماما كبيرا للقدرة الانتاجية لصناعاته الحربية، وكان كل قطر يسقط تحت سيطرته، ينقل، فى خطوة أولي، كل العمال المهرة والحدادين والحرفيين إلى بابل، ولقد رحل

سكان بلاد بالكامل من مواطنهم إلى أراض بعيدة، بسرعة ودون اهتمام قط بالمعاناة الانسانية. كان قاسيا تماما نحو ضحاياه، احتفظ بالكثيرين فى السجون، وشوه الكثيرين، وكان بارعا فى وحشيته وأعماله الشريرة. ناصر العلم خاصة تعليم الشباب (دانيال ١: ٤) وكان يؤمن بالخرافة ويتشاور مع المنجمين، وانغمس فى أعمال جنسية منحرفة (٢٠).

عانى من شخصية منفصمة، وأزعجته الكوابيس وأخيرا راح فى الجنون. وبعد عدة سنوات استعاد توازنه العقلى، ليرى ابنته يغلبها الابتلاء ذاته. حين كان يبنى عاصمته «بابل العظيمة» ابتهل للاله مردوخ بأن تحكم ذريته الجنس البشرى من بابل إلى الأبد

بعد جيل واحد، فى ليلة احتفال ورؤى، اختفت امبراطورية نبوخذ نصر.

تغيير التاريخ

منذ البداية الاولى لحكم نيرجل (نيرجلسار) فإنه كان يشك بأن أخاه الاصغر حاتوسيليس (نبوخذ نصر) كان يسعى لعرش الامبراطورية. قطعت حملة قرقميش.لأن حاتوسيليس قد استدعى ليبرأ نفسه. حين مات نيرجل بعد حكم عدة سنوات، خلفه ابنه الطفل (لاباش) على ملك بابل، لكن حاتوسيليس تمرد على ابن أخيه، الامبراطور الصبى، وأقصاه. ويبدو ان الولد قد قتل بعد ذلك بفترة قصيرة. واستمر حكم نيرجل وابنه الصغير معا سبع سنوات.

ويبدو ان نبوخذ نصر، بعد ان اعتلى العرش، انزعج لفكرة ان انجازاته قد تتأثر بالخيانة وانتهاك عهد مقدس بأن يكون وافيا لابن أخيه الصغير، خاصة، وإنه كالعادة فى ذلك العصر، كان انتهاك العهد والحنث به مقيدا بسلسلة من اللعنات تصيب الحانث، كما كان يتضرع إلى الالهة واحدا واحدا بأن تصب غضبها على حامل العهد اذا نقضه، بالاضافة إلى عقوبات اكثر رعبا تمنع المقسم على العهد من الخيانة، خاصة لميت الذى يشارك الالهة الآن ويمكن ان يحثها على انزال العقوبة به وهى الضامنة ضد هذا العمل.

ولكي يبرر نفسه أمام حاشيته، ويتمكن ان يتوافق مع ضميره، فقد اتهم نبوخذ نصر ابن أخيه بالشيء الذى كان هو مذنبا فيه: الخيانة.

يمكن للملك ان يخدع حاشيته أو أعضاء البيت الملكى أو حتى المؤرخين، لكن لايمكن ان يخدع نفسه، حتى لو استطاع ان يحدثها بصدق اتهامه لابن أخيه، فان الشعور بالذنب الذى يرشح من العقل اللاواعى الخائف ساهم فى مرضه العقلى. لم يحافظ على يمين ولائه، وهكذا أقيم العرش على اساسات مهزوزة بقدر ما يتعلق الأمر بالسلامة الداخلية للملك.

وبمرور السنين، وتحت رغبة نبوخذ نصر (حاتوسيليس) بطمس الماضى ورغبته فى ان يظهر منذ البداية كأنه الوريث الشرعى لعرش أبيه نابوبولاسار، وأن نيرجيلسار الأخ الاكبر الذى ورث ابيه ثم مات وخلفه ابنه لاباش مردوخ، بأنهما كليهما لم يكونا ملكين شرعيين.

وزعم نبوخذ نصر، مزيفا التاريخ، بأن حكمه يلى موت أبيه مباشرة، وإنه توج بمجرد وفاة والده. ان تاريخ الاسرات يعرف القليل عن مثل هذه التغيرات، فالملوك حين يفقدون العرش، يفقدون أيضا مكانهم فى تاريخ شعوبهم.

ففى التاريخ المصرى، اخناتون والاسرة الثامنة عشرة (بما فيها توت عنخ أمون) حذفوا من قائمة الاسرات.

نبوخذ نصر غير نظام التتابع الأسرى وتاريخ السنوات التالية لموت والده، لقد حذف أخاه وابن أخيه كملكين سابقين عليه كما لو أنهما محتلان غير شرعيان للعرش. وألفت الوثائق التي أعلن فيها مرات ومرات بأنه الابن الأول، مع إنه لم يكن، بعمله ذاك أمكنه ان يجد التبرير لنفسه، هناك عادة شرقية تقول « للأب حق التغاضى عن قانون البكورة ويختار الابن الذى يحدده كبكر » (١). هذا العمل معروف من الشواهد الادبية فى ارشيف اوغاريت ونوزى، وهو أيضا مألوف من عصر آباء اسرائيل، فابراهيم ألغى بكورة اسماعيل بمولد اسحق، ويعقوب اختار يوسف بدل روبين، وافرايم بدلا من الابن الكبر ليوسف ماناس (٢). ولكن نابوبولاسار لم يختر نبوخذ نصر على نيرجلسار. كذلك فان سنخريب لم يدعى انه الابن الاكبر لسارجون، ولا اسرهادون بانه الابن البكر لسنخريب وهو لم يكن كذلك، وقد قتل اخوته الذين كانوا قتلة أبيهم، ولم يحتج لتبرير او اخفاء

للحقائق، كذلك اشور بانيبال لم يحتج ان يؤكد إنه الابن البكر لاسارهادون، مع إنه قام بحرب ضد أخيه شاماش - شم - اكين ملك بابل، ولم يُصرِّ، في هذه الحرب، أحد منهما على حقوق الابن الاكبر، فقد قسم والدهما المملكة بينهما في وصيته. لكن نبوخذ نصر يؤكد باستمرار على إنه البكر وبالتالي الوريث الشرعي لعرش الامبراطورية البابلية. وكان عليه ان يزيف التاريخ ليجعل من زعمه لخلافة العرش شرعية (٣).

ادعى نبوخذ بأنه الابن البكر والخلف المباشر لنابو بولاسار، وقد نجحت هذه الخدعة وأخذ المؤرخون هذه القضية كحقيقة مسلمة. ولكن تأكيد نبوخذ نصر علي ذلك ينبغى ان يثير الشكوك، ثم روايته عن تسلم العرش بعد عودته من تتبع الجيش المصرى وادعائه بأنه تسلم انباءً عن وفاة والده، بينما رجع إلى بابل لأن أخاه استدعاه لأن أنباء وصلته بأنه يتصرف كامبراطور في سيره عبر سوريا وفلسطين. لقد ضلل المؤرخون من اجيال لاحقة من مؤلفى تاريخ بابل ممن عاشوا في العصر الفارسي (٥٣٨-٣٣٢ ق. م) وبيروسوس الذى عاش في بداية العصر الهيلنيستى، فقد وثقوا في المصادر الحكومية الرسمية المؤرخة في الفترة الطويلة لحكم نبوخذ نصر، لقد تقبلوا رواية التاريخ.

وهكذا فان نبوخذ نصر، ليس فقط ازاح ابن أخيه عن العرش ثم أعتقله وربما قتله ولكن أيضا مسحه وأباه من مكانهما في التاريخ. ان الاحداث في ترتيبها الصحيح تبدو مهمة، بحيث ان نظرة أخرى عليها تكون مبررة.

وصل حاتوسيليس إلي عرش الامبراطورية واحتفظ بالسلطة ثابتة في قبضته. في حياة أخيه الذى وثق فيه كثيرا، بل في حياة ابن أخيه ولنقل في السنوات بل الأشهر القليلة التى مكثها على العرش، لم يثر حاتوسيليس، ولاحتى في ذهنه، مسألة شرعية أخيه او ابن أخيه علي العرش كأباطرة. لقد عرف بطموحاته الخاصة وهو بعد صغيرا: أخرج من المعبد حيث شب ككاهن، وابدى قوته الحربية، وعرفت أماله من خلال سلوكه حين كان في سوريا وفلسطين، كذلك اتاحة الفرصة له ليقف أمام محكمة يواجه التهم ويدافع عن نفسه، لكنه لم يناقش قط شرعية كون أخيه الحاكم الأعلى، ثم بعد ذلك حين مات أخوه مبكرا (ولن تعرف قط إذا

كانت هناك مؤامرة ما (٤)) مدح حاتوسيليس نفسه. بأنه فى ولائه لأخيه نصب ابن أخيه القاصر على عرش الامبراطورية - ومازال لم يثر أى جدل حول شرعية حق تولى ابن أخيه العرش.

بعد ذلك، رغب ان يقدم قصه حروبه الماضية كما لو كان شريكا لأخيه الميت فى الحملة التى واجه فيها فرعون مصر، فقد كتب إلى ابن أخيه فى بابل:

«حين كنت فى غضب مع ملك مصر.. كتبت لأبيك: ملك مصر حاربنى، وأجاب والدك: اذهب ضد ملك مصر وسأذهب معك.. سأذهب» (٥) وكما عرفنا من سيرته الذاتية، لقد وضعه أخوه نيرجل على رأس الجيش الذى حارب فرعون، لكنه لم يكن شريكا أو حليفا، فهو يكذب على ابن أخيه.

وبعد ذلك بفترة، بدأ حملة تحقير للامبراطور الصغير، ومع أن هناك القليل من الرسائل التي بقيت، فلابد ان تكون هناك حقيقة ما فى كلمات الوزير الذى كتبها من بابل «انت لاتخاطبنا كاخوة ولكن كعبيد أخضعتنا إليك» (٦).

ثم تأتى الكلمات المشؤومة فى السيرة الذاتية فصل ١١ «لو سأل أحد ما: لماذا جعلت منه ملكا؟

ولماذا تكتب له الآن عن السقوط؟ يمكن الاجابة لم يكن ينبغى له أن يبدأ شجارا معى»

بالطبع، لم يبدأ الملك الصغير شجارا، فلم يكن فى موقع يسمح له بذلك، وفى الحال أبعد عن بابل إلى موقع حصين فى سوريا - قد يكون تل نبى ميند (ربلة القديمة) او بالميرا أو بعلبك - لكنه لم يبق هناك طويلا. كتب حاتوسيليس نفسه «قبضت عليه وأرسلته إلى شاطئ البحر».

ثم أثار سؤال شرعية ابن أخيه فى العرش المسمى لاباش مردوخ وأيضا أرحى - تيشوب لأن ليس له حقوقا شرعيه فلقد ولد لأبيه نيرجل من زوجة أخرى وليس من زوجته الرئيسية (٧).

لم يتهم ابن نيرجل بأنه ابن غير شرعى فقط وملكه غير قانونى، بل حبسه فى سجن أو سلب منه الحياة. بعد ذلك أثار مسألة شرعية تولي شقيقه العرش. فى معاهدة مع ملك سوريا «امورو» بعد سنوات من وفاة أخيه نريجل، كتب إنه بعد وفاة أبيه «استولى ميواتالى (نيرجل) أخى

على العرش الملكى» (٨)، بقوله هذا اعتزم بوضوح ان ينقل الانطباع بأن أخاه احتل العرش ليس بالحق ولكن بعمل غير شرعى وبالتالى فهو مغتصب للعرش، وكتب عن نفسه «حين أنتزع الملك الكبير إلى مصيره» (٩) «أنا حاتوسيليس جلست على عرش أبى» (١٠).

هنا يميز حاتوسيليس بوضوح بين اغتصاب أخيه للحكم وشرعيته هو بتسلم العرش، ولم يحذف فقط ذكر حكم ابن أخيه (١١) ولكنه يشير إلى نفسه كخلف لأبيه لا لأخيه أو ابن أخيه.

وليس لدينا أدلة إلا كسر من الفخار عاشت قرون عدة، يصل عددها إلى الالاف، لكنها تحمل معها القصة الكاملة تقريبا لجريمة أسرية، ولتغطية هذه الجريمة، زيف نبوخذ نصر التاريخ.

وأخيرا نحن نعرف من الادلة عن الذى اعتلى العرش بعد موت نابوبولاسار مايرجح كفة الميزان فيما اذا كان نبوخذ نصر أو أخوه.

فى بوغازكوى العاصمة القديمة للملكة الكلدانية وجدنا الاجابة فى اعتراف مكتوب من المجرم نفسه فى سيرته الذاتية وفى رسائله ومعاهداته. ومن الطبيعى اتهامه أخاه وابنه بأنهما مغتصبان للعرش، كان جزءاً من خطة ليس فقط لحرمان الملك الشرعى من عرشه وحريته ولكن أيضا ليشوه التاريخ ونجح فى الاثنين.

بعد معركة قرقميش، استدعى إلى بابل وهو يتتبع الفرعون نيخو (رمسيس الثانى) ليس بسبب وفاة والده، فنابو بولاسار كان ميتا منذ فترة، ولكن بسبب تصرفاته فى سوريا وفلسطين التى جعلته موضع شك بانه يسعى إلى السيطرة على الامبراطورية: تصرف كانه الامبراطور فعلا. وفى سنوات لاحقة ستصبح جريمة ذكر نيرجلسار او لاباش ميردوخ كسلفين له ولم يسمح بذكرهما حتى كملوك سابقين.

استمر حكمه سنوات تتراوح بين ٤٠، ٤٣، ٤٥ أو أكثر حتى ٤٨، فى المصادر الدينية كما فى المصادر العربية الوسيطة يترواح حكمه بين ٤٠ و٤٥ سنة (١٢).

اختلاف المصادر حول فترة حكمه يمكن توضيحه اذا فهم ان بعض الحسابات ابتدأت منذ ان تولى نبوخذ نصر عرش الامبراطورية، وبعضها منذ وفاة أخيه، والبعض الآخر منذ أحتلاله موقع نائب الملك فى أشور،

وبعضها بعد وفاة أبيه، والرقم الأخير هو الذى يفضله فى الوثائق فى الفترة الأخيرة من حكمه كما سنرى.

سلب شخصية نيرجلسار وابنه، التى استمرت عدة عقود من حكم نبوخذ نصر، لابد إنها أصبحت راسخة بحيث ان والدة نابونيدوس لم تشر اليها فى لوحة دفنها. ومن الممكن ان مغتصب العرش بعد «ايفل مردوخ» ابن نبوخذ نصر قد سمى نفسه عمدا نيرجلسار، على اسم الأخ الأكبر لنبوخذ نصر. ففى هذا الوقت كانت الصوفية واستحضار الارواح والاعتقاد بالتناسخ قوية جدا حتى ان كثيرا من المغتصبين للعرش زعموا انهم تناسخوا من نبوخذ نصر وطالبوا بعرشه، أحدهم بدأ حركة سنة ٥٢٢ ق.م بعد موت قمبيز (١٣). كما إنه من الممكن ان نيرجلسار الثانى سمى ابنه لاباش مردوخ مثل اسم ابن نيرجلسار الأول، لكن كما قلنا قبل ذلك فان والدة نابونيدوس لم تذكره، وان نابونيدوس كان يقصد فى حديثه نيرجلسار الأول - وهى شخصية اكثر احتراما من نيرجلسار الثانى - وابنه لاباش مردوخ.

فى ضوء هذا التشويه المتعمد فان لاباش مردوخ الذى ذكره «بيروسوس» لابد إنه شخصية غير موجودة، وسواء حكم لاباش مردوخ الثانى بابل مدة تسعة أشهر أم لا، فهى مشكلة صغيرة، فلم يكن نابونيدوس صديق مرح او رفيق شرب من العصر الوسيط الماضى.

المشكلة الرئيسية فى تتابع الملك لاتحلها الأدلة من بابل وحدها، بل حلت بمساعدة سجلات بوغازكوى، اللوحة المحفوظة فى المتحف البريطانى تحت رقم ٢١٩٤٦ من العصر الفارسى (وربما الهللينى) التى تصف قصة موت نابوبولاسار وصعود نبوخذ نصر، وهى تنتمى إلى المجموعة الأخرى القليلة من ممتلكات المتحف البريطانى مثل جمجمة بلتدون. لقد بدأ التزييف فى ايام حاتوسيليس الكلدانى المعروف لنا فى الكتاب المقدس باسم نبوخذ نصر.

هوامش الفصل الخامس

الصعود إلى العرش

1- Götze, Mitteilungen, Vorderasiatisch-ägyptische Ceasellschoft, XXIX (1925); and "Beue Bruchstücke zum grossen Textet des Hattusilis", ibid., XXXIV, Heft 2 (1930).

2- Sources in Cinzberg, Legends, VI, 422. Is his epithet "nanas" also an allusion to his being dedicated to Ishtar-Nana?

3- R. Koldewey, Das Ischtar-Tor in Babylon (Leipzig, 1918).

4- Langdon, Neubabylonischen Königsinschriften 22.

5- Langdon, Building Inscriptions of the Neo-Babylonian Empire.

6- Ibid., p. 191.

7- Josephus, Against Apion, 1. 135.

8- D. D. Luckenbill, "Hittite Treaties and Letters," American Journalof Scnitic Languages and Literatures, XXXVII (April 1921), Document No. 7, pp. 192-93.

9- Cf. Berosus in Jpsephus, Against Apion, I, 135 ff.

10- Cf. L. Delaporte, die babylonier, Assyrier, Persen und phiuiker, p. 288.

11- Cötze, Mutteilungen, vorderasiatisch-ägyptische Cesellschaft, XXXIV, Heft 2 (1930), 19.

12- Ibid.

13- Cinzberg, Legends, IV, 335-36.

14- S. C. Bernstein, K¨pneg Nebucadnezar von Babel in der jüdischen Tradi.

15- Cinzberg, Legends, VI, 424ff. Hiram was rebied to Nebuchadnezzar through his marriage to Nabopolassar's widow. Midrash Rabba on Levitieu. 18.

16- Josephus, Against Apion, I, 20.

17- Cötze, Mitteilungen, Vorderasiatisch-agyptisch Cesellschaft, XXXIV, Heft 2 (1930), 33, (IV, 62). The bebylonian language has the sounds m and by (v) expressed by the same character; thus Yaman can be read Yavan (Creece), or Amel-Mardul: (son of Nebuchadnezzar) as Awel (Evil)-Mar_duk.

18- Messerschmidt, Mitteilungen, Vorderasiatisch-agyptische Cesellschaft I (1856), 29; also Langdon, Die Neubabylonische Königsinschriften, p. 277.

19- Luckenbill, American Journal of Semitic Languages and Literatures, XXXVII (1921), Document No, 13.

20- Ibid. The translatorweote: "I fail to grasp the meaning of a number of sections of the corespondence." The addition" as (though we had been) brothers," in parentheses, seems unnecessaryi.

21- Ibid., p. 204.

22- Bernstein, König Nebucadnezar von Babel in der jüdischen Ttradition, p. 32.

23- Langdon Building, Inscriptions of the Beo-Babytonain Empire, Inseription "Nebuchadnezzar," XVII.

شخصية نبوخذ نصر

1- Langdon, Building inscriptions of the Neo-Babylonian Empire, p. 129.

2- Ibid., p. 67.

3- Cötze, Mitteilungen, Vorderasiatisch-ägyptische Cesellschaft, XXIX, 3 See, 3, p. 9.

4- Langdon op, cit., p. 107.

5- Cötze, op. cit., p. 11.

6- Langdon, op. cit., p. 67.

7- Ibid., p. 69.

8- Ibid., p. 67.

9- Ibid., p. 103.

10- Ibid., pp. 17, 22.

11- Ibid., p. 131; see p. 77.

12- J. Friedrich, "Aus dem hethitischen Schriftum," II, DerAlte Arient, XXV, 13.

13- Ibid., "Cebet der Caschulijawiasch."

14- Tractate Sanhedrin 93a; Origen, Epist. ad Africanum; Jerome on jeremiah 29.

15- A. Erman, "Die Bentresh Stele," Zeitschrift für Uagyptische Sprache und Altertumskunde XXI (1883), 54 ff., thought that the stele originated in the Altertumskunde XXI (1883), 54 ff., thought that the stele originated in the late pharsonie period. J. Wilson in Pritchard, ed., Ancient Near Eastern texts, p. 29, relates the stele to the Persian or Greek preiod The stele, Louvre C 284, actually speaks of the land of Bakhtan, and some scholars have presumed that Bakhtan is Bactria (e. g., Constant de Wit., "HAt Land Bachtan in de Bentresjstele," Handeligen van het XVIIIe Vlaamise Filolgencongres (ent, 1949), pp. 80-88_. It may be that Bablonia is meant. It is generally agreed that the king of Bakhtan was in fact the king of Hatti, Hattusilis. The name given to the daughter of the king of Bakhtan whom Ramses II took for his chief wife (Nefru-Re) is the same as that of the daughter of Hattusilis whom Ramses married in his thirtyfourth year (see behow, section "nebuchadnezzar Visits Ramses II").

16- J. Wilson, "The Legend of a possessed princess" inPrincess" in Pritchard, ed., Ancient Near Eastern Texts, pp. 29-31. Cf. G. Lefebvre, Romans et

contes de l'époque pharaonique (Paris, 1949), pp. 221-232.

17- Dougherty ascribes an early origin to the Book of Daniel, especially to the fifth chapter. "The view that the fifth chapter of Daniel originated in the Maccabaean age is discredited... a narrative characterized by such an accurate historical perspective as Daniel 5 ought to be entitled to a place much nearer in time to the reliable documents which, belong to the general epoch with which it deals." Dougherty, Nabonidw and Belshazzar, p. 200, note.

18- H. Winckler, Inschriften Nebukhadnezar's, Keilinschriftliche bibliothek, III, 2 (1890), p. 65. Langdon, Building Inscriptions, p. 99.

19- The Babylonian Talmud, Tractate Shabbat 149 b.

20- See Tractate Shabbbath 149 b and Jerome, Commentary on Habakkuk 2: 16, concerning Nebuchadnezzar's practice of pederasty.

تغيير التاريخ

1- D. Wiseman "Alalakh" in Archacology and Old Testoment Study (oxford 1967), p. 127,

2- Cenesis 21: 10 ff.; 48: 12, 22; 48: 13; 49: 3ff.; ef. I Chronicles 5: 1ff.

3- Even the one tablet inscribed in the name of Nabopolassar, in which he refers to Nebuchadnezzar as to his fisrt-born, may not be genuine; no other such references to a son as a "first-born" are known fron the royal inscriptions of Assyrian and Babylonian houses.

4- G. Bruno Meisser. "Die Beziehungen Ågyptens zum Hattireiche neach hattischen Quellen," Zeitschrift der Dutschen Morgenländischen Cesellschaft, 72 (1918) p. 42.

5- D. D. Luckenbill, "Hittite Treaties and Letters," American Journal of Scmitic Languages and Literatures, 37 (1921), p. 202.

6- Ibid., p. 201.

7- Autobiography, III: 41. The expression used by Hattusilis is "son of the

concubine,".

8- Luckenbill, op. cit., p. 198.

9- Of this expression Meissner (op. cit., p. 42) comments "Whghter a violent death can be assumed from this fact alone is clear to me".

10- Lucknbill, op. eit., p. 198.

11- That Hattusilis counted the years of his nephew as his own has already been concluded by H. G. Güterbock. Cf. ph. J Houwink Ten Cate, "The Early and Late phases of Urhi-Teshub's Career," in Anatolian Studies Prescnted to Hans Custav Cüterbock (Islanbul, 1974), p. 137, note 49. J. D. Schmidt draws attention to the fact that in the treaty that Hattusilis concluded with Egypt the reign of his nephew "is completely ignored." Ramesses II (Balimore, 1973), p. 125.

12- S. Bernstein, König Ncbucadnegar von Babel, pp. 69-79. The figure of forty-five years is also found in Maqoudi, les prairies d' or (Paris, 1961-77). from statements in II Kings 23: 29; 23: 36; 24: 8 and 25: 27 a reign of at least forty-eight years may be inferred.

13- Hermann Bengston, The Crecks and the Persians from the Sixth to the Fourth Centuries (NEy York, 1965), pp. 357-58.

الفصل السادس

الامبراطورية المنسية
شهادة من الفن

يازيليكايا
الصخرة المنقوشة

كشف التاريخ الحثى عن نفسه بانه تاريخ الاسرة الكلدانية، خاصة فى فترة المملكة البابلية الجديدة. ووثائق بوغازكوى وحاتوسيليس القديمة تعكس الحياة السياسية للقرن السابع ق. م والقسم الأول من القرن السادس. ولقد توصلنا إلى هذه النتيجة بإعادة بناء التاريخ المصرى القديم. الوثائق المكتوبة من اسيا الصغرى لاتتناقض مع اعادة البناء هذه بل على العكس تضاف كأدلة للتأثير نفسه.

والسؤال هل تقدم مجموعة الفن الحثى شهادة مناقضة؟ للفن طريقته الخاصة فى التطور، ومن الممكن تتبع التأثير فى الموضوعات وطريقة تنفيذها. فى الاجنحة المخصصة للفن الحثى فى المتاحف، هل يرتفع منها صوت قوى معارض فى هذه القاعات؟ من المهم تتبع السؤال لفترة تزيد على ١٤٠ سنة من البحث منذ سنة ١٨٣٠م حين وصفت لأول مرة خرائب بوغازكوى وحتى الوقت الحاضر. يمكن ان نميز خلال هذه الفترة ثلاث مراحل:

- المرحلة قبل ان تعلن فيها نظرية «الامبراطورية الحيثية» سنة ١٨٧٠.
- السنوات منذ ١٨٧٠ وحتى اكتشاف السجلات الحيثية في بوغازكوى سنة ١٩٠٦
- منذ سنة ١٩٠٦ وحتى الآن.

خرائب بوغازكوى والنقوش الفائرة على صخرة «يازيليكايا»

(الصخرة المنقوشة) على بعد ميلين من الخرائب، عرفها العلماء لأول مرة سنة ١٩٣٤م (١). بعد سنوات قليلة، أحد الباحثين المستكشفين فى اسيا الصغرى، أدهشه احد النقوش على الصخر فكتب «أحد الآثار الغريبة الرائعة، يبدو ان النقش يقدم لقاء ملكين كل منما يحمل شعارات الملك فى يده ويتبعه طابور طويل من الجنود أو المرافقين، ملابسهم متشابهة، الشخصية الرئيسية على الجانب الايسر ترتدى لباسا ضيقا وغطاء رأس مخروطى ولحية، بينما الشخصية الرئيسية الثانية تلبس روبا واسعا فضفاضا بغطاء رأس مربع كالبرج ودون لحية» ثم أضاف الباحث «أظن أن ذلك يقدم لقاء ملكين على حدود بلديهما وان هناك نية للاحتفال بذكرى معاهدة وقعت بينهما. وهناك نهر هاليس الذى يبعد عدة أميال يمتد على طول الحدود بين مملكتى ليديا وفارس، ومن المحتمل ان يكون الملك ذو العباءة الفضفاضة هو ملك الفرس، والثانى ملك ليديا مع اتباعه من الليديين والفرجيين لأن غطاء رأسهم يشبه قبعة الفرجيين المشهورة، وربما اختيرت هذه البقعة للاحتفال بالسلام. وفى النقش نفسه هناك شخص آخر منحوت على الصخر لكنه بعيد عن الموكب السابق ذكره وبين يديه شعارات غريبة» (٢) ظن الباحث من مظهر الشكلين الملكين واقترابهما من بعضهما ومن اتباعهما ان النقش يصور هدنة بعد معركة كبيرة حاربها «كروسوس» و «قورش» حوالى ٥٥٠ ق. م فى مكان ما قريب (٣) لأن احدى الجماعات ترتدى قبعات فرجينية، والأخرى تلبس العمامات الفارسية.

باحث آخر من الباحثين الأوائل (٤) كان يبحث فى خرائب بوغازكوى فسر المجموعتين على صخرة يازيليكايا بأنهم الليديون والميديسيون. فملك ميديا «كياكساريس» الذى هزم مع نابوبولاسار نينوى، انغمس أخيرا فى حرب لمدة خمس سنوات مع الياتيس ملك الليديين والد كروسيوس، واثناء المعركة قرب هاليس كسفت الشمس كما تنبأ طاليس من ميليتوس (٥)، فأوقف الجيشان القتال، ومن خلال جهود ملك بابل وملك سيليسيا تم التفاوض وتوقيع معاهدة سلام (٦) وهم «جاءوا إلي هناك لتكون اتفاقية حلف يمين، وتبادل الزواج» وقضى بأن يعطى الياتيس ابنته أرنيس إلى استياجيس بن كياكساريس» (٧).

هناك على النقش الصخرى ليازيليكايا هلال او شمس مكسوفة

يحملها شخصان: ويبدو ان هذا يساعد فى تفسير مشاهد الصخرة كتذكار لمعاهدة السلام بين كياكساريس ملك ميديا والياتيس ملك ليديا. وأما الملك البابلى الذى قام بدور الوسيط فيعتقد إما نابوبولاسار أو نبوخذ نصر اعتمادا على تاريخ الكسوف: كسوف ٣٠ سبتمبر ٦١٠ ق. م، وكسوف ٢٥ مايو ٥٨٥ ق. م على أساس ان أحداهما هو الذى تنبأ به طاليس (٨). يسمى هيرودت الملك البابلى الذى ساعد فى ترتيب عملية السلام «لابينيتس» لكنى أميل إلى الاعتقاد بأنه نيرجلسار »، واذا كان الأمر كذلك فان الكسوف الأول هو الذى تنبأ به طاليس. فى نصوص بوغازكوى فان نيرجيل أو مواتاليس يحمل أيضا اسم لابارناس (٩).

تحمل نقوش الصخرة علامات قليلة بالكتابة التصويرية، ولكن ما دامت لم تحل فانها لن تهدى الباحثين إلى الزمن التي نقشت فيه. لكن الاسلوب، والثياب، والصفات وبعض التفاصيل مثل العصى وفؤوس الحرب تنبئ بنهاية القرن السابع ق. م أو النصف الأول من القرن السادس ق. م. فان الهراوات وفؤوس الحرب ظهرت لأول مرة فى النحت الاشورى فى صور الحرب لحفيد سنخريب الذى كان من المحتمل آخر ملوك نينوى، وبالتالى معاصر لكياكساريس (١٠). وكذلك اندهش هذا الباحث لتشابه أرضية القصر فى بوغازكوى «التشابه الكبير جدا لأرضية القصر الشمالى الغربى فى نينوى الذى بناه سنخريب فى ٧٧٠ ق. م» (١١).

حين سارت نظرية الامبراطورية الحيثية قدما منذ عام ١٨٧٠ م، قيل ان الكتابة التصويرية التى وجدت فى حماة وقرقميش وعلى الصخر فى بوغازكوى بإنها كتابة تصويرية حيثية معاصرة لرمسيس الثانى، مما يعنى زيادة من ٦ إلى ٧ قرون فى عمر النقوش. ومع ان هناك أصواتا حذرت من التسرع بوضع هذه النقوش فى فترة قبل اسارهادون بن سنخريب (١٢)، لكن التحذير مضى دون اهتمام: فالمؤرخون، وقد تأثروا بوجود كتابة تصويرية فى نقش محفور بأسلوب يعود إلى عصر الدولة الحثية أو عصر سيتى ورمسيس الثانى فى القرنين ١٤، ١٣ ق. م. فأصبح الاصرار على ان النقوش لم تنحت فى الالف الثانية قبل الميلاد يعادل انكارك لنظرية الامبراطورية الحيثية نفسها. وحيث ان اسلوب الآثار الفنى حقيقة مرئية، والنظرية مجرد نظرية، فإن خبيرا فنيا شهيرا (و.

بشتاين) أتخذ موقفا وعبر عنه برأى واضح (١٣) «موضوعات هذه النقوش وكثير من التفاصيل الموجودة تنبىء ان هذا الفن ينتمى إلى عصر بين القرن العاشر ق. م والسادس ق. م وليس إلى القرنين ١٤، ١٣ ق. م. «تبين هذه النقوش بعلامات واضحة بأنها من وقت متأخر بكثير عما حدثوا به، والقول بأنها من ابتداع الملك المصرى خيتا أمر مستبعد» و«على كل حال لاتوجد شواهد هنا (آسيا الصغرى) أو فى شمال سوريا بأن ما يسمى بالنقش الحثى وجد بالفعل فى القرن العاشر قبل الميلاد» هذه الحقيقة تبدو لى متضاربة مع وجهات نظر «سايس»، فبالنسبة له فان اكبر توسع للقوة الامبراطورية الحثية، ومعها قمة ماوصل إليه الفن الحثى، تقع متقدمة ٥٠٠ سنة قبل العصر الذى وجدت فيه الآثار فى اسيا الصغرى أو كومونى القديمة. «وبالتالى فان الفن الذى أنتج هذه الاشياء وأخر مشابهة لايجب ان يعزى إلى الحثيين الغامضيين فى الالفية الثانية قبل الميلاد، ولكن يجب اعتباره علامة مميزة لثقافة عالية التطور آنذاك لسكان اسيا الصغرى وكومونى فى الوقت من ١٠٠٠-٦٠٠ ق. م. فإن أفضل الموضوعات المتطورة في الفن الحثى لآسيا الصغرى وسوريا الشمالية يشير إلى القرنين ٧-٦ ق. م، وتقييم هذا الانتاج بأنه من القرن الثامن يعتبر انتهاك للحقيقة السليمة، فالتأثر الاشورى المتأخر واضح لايمكن الخطأ فيه. وقد اعتبرت «الآثار الحثية» أبكر مما هى عليه بخمسة قرون على الأقل وبالتالى لايمكن ان تكون من عصر الابمراطورية المنسية. أما بالنسبة لنقوش يازيليكايا فان الشخصيات المبجلة المشتركة فى الموكب أخذت اشكالها فى فترة ليست قبل القرن السابع ق. م وبتأثير التصورات الأشورية.

« آنذاك فقط، فى القرن السابع ق. م كان اسلوب الحياة الاشورية فى كادبادوسيا قد استقر وأثر فى فنانى نقوش بوغازكوى. ومن ذلك يمكن ان نخرج بنتيجة أننا فى بوغازكوى نتعامل مع آلهة محلية، لم توجد تماثيلها قبل القرن السابع ق.م، أقيمت تحت تأثير التصورات الاشورية كما نراها، ويمكن أن تكون على توافق مع الالهة التى كانت تبجل فى كابادوسيا فى عصر متأخر، حسب المصادر اليونانية الرومانية" (١٥).

وأصر الخبير الفنى على أن العينات الفنية من آسيا الصغرى وشمال

سوريا التى تحمل لغة تصويرية لم تحل رموزها، لا يمكن ان تعزى الى "خيتا" عدو رمسيس الثانى. ولم لا؟ لأن خيتا أو الحيثيين وسيتى ورمسيس الثانى ينتمون الى القرن ١٤، ١٣ ق.م، بينما تنتمى العينات الى القرن السابع ق.م.

تتابع التاريخ لم يشك فيه، وعصر سيتى ورمسيس لم يعد النظر فيه؟ لكن سنة ١٩٠٦م حين أعطتنا تربة بوغازكوى سجلات الملك خيتا، ومن بينها النسخة المسمارية للمعاهدة بين حاتوسيسليس (خيتاسار) مع رمسيس الثانى، صمتت كل الاعتراضات. والخبير الفنى نفسه الذى قدم تحليله الرائع. كتب عملا كبيرا عن الآثار الحثية فى "بوغازكوى" مؤكدا على اكتشاف النسخة المسمارية لمعاهدة الملك خيتا مع رمسيس الثانى، اضطر ان يسحب اعتراضاته السابقة.. الكسب الأثرى الرئيسى لهذا الحفر الاول ما توصلنا اليه – عن طريق وينكلر – من الالواح الطينية بأن المدينة القديمة التى كانت فى موقع بوغازكوى، كانت ذات يوم عاصمة الامبراطورية الحيثية، ولكن الى أى عصر فى التاريخ تعود؟ يحدد ذلك كسر الخطابات المتبادلة بين رمسيس الثانى والملك الحيثى حاتوسل حوالى ١٣٠٠ ق. م" (١٦).

الحقيقة التى كانت أمام الأعين بدت أكثر ضغطا من الاسلوب أو الموضوع. ولا يوجد خبير فنى يستطيع أن يقف ضد مثل هذا الدليل. الآثار الصامتة لا يمكنها منافسة الالواح البليغة، واستبعد الرأى الذى جاء نتيجة لدراسة الاشياء الفنية ويقى الرأى القائل ان ثقافة بوغازكوى كانت معاصرة لنهاية الاسرة ١٨ وبداية الاسرة ١٩، وإنها نتاج الالف الثانية قبل الميلاد.

فى بعض المعاهدات المكتوبة بالمسمارية، وحوليات ملوك "حاتى" هناك أختام مطبوعة باللغة التصويرية، ورموز مطابقة للأختام فى جزء من نقوش يازيليكايا، وكما سنرى فان هذه الحقيقة اضطرت علماء الآثار الذين استمروا فى الحفر فى بوغازكوى لمدة نصف القرن الأخير، ودراسة نقوش يازيليكايا أن يصلوا إلى رأى ان هذه النتاجات هي للامبراطورية الحيثية التى وجدت قبل ١٢٠٠ ق. م.!

وجدت آثار حيثية فى بابل، واعظم ما اكتشف منها كان فى قصر نبوخذ نصر، وهو عبارة عن عمود عليه نقش غائر لاله يحمل شعلة فى يده، وفى اسفل العمود – وهو من الصخر النارى – نقش بالهيروغليفية الحثية وبحالة جيدة (١)، من الواضح أن العمود قادم من حلب ومؤرخ من النصف الاول من القرن التاسع ق.م (٢) وقد تمت ترجمته الآن (٣).

وخلال التنقيب فى الاناضول وشمال سوريا، ظهرت حقائق محيرة، فكل قطعة حيثية وجدت، كان يمكن تفسيرها بانتمائها الى عصرين مختلفين.

فى "جورديون" وجدت آثار فيرجية قديمة فى مقابر على رابية، حدد المكتشفون (٤) تاريخها بالقرنين السابع والسادس ق.م بناء على مقارنتها بعمر ما وجدوه من الآثار اليونانية المعروفة جيدا. "منذ اكتشاف الكثير من الفازات اليونانية فى مدينة الموتى مع فخارهيللينى محروق. تأكد اعتماد الثقافة الفيرجية phyygian على الهللينية فى القرن السادس ق.م دون شك" (٥) وذلك فى الفترة بعد طرد السيميريين cimmerians وقبل كروسوس أى بين ٦٣٠ – ٥٤٦ ق.م (٦).

ومع ذلك، فقد اعترض أحد الباحثين الذين درسوا الموجودات فى جورديون بقوله "يبدو احتمالا كبيرا أن دفن (تومولوس الثالث) ينتمى إلى القرون الأخيرة فى الالف الثانية ق.م أو فى الفترة الأخيرة للامبراطورية الحثية" (٧).

الفرق فى التقدير يتجاوز ٦٠٠ سنة.

ويبدو وكان الرأى الأخير هذا، قد تأكد من الحفريات فى اليسار Alisar (٨) "على بعد خمسين ميلا جنوب شرق بوغازكوى، حيث حدد الاثريون طبقة أثرية مشابهة لما فى القرنين ١٤، ١٣ ق.م بناء على الاختام التى تحمل كتابة تصويرية حيثية مع سيراميك مرسوم بأشكال هندسية وجد فى جورديون" ولكن تقدير عصر الموجودات فى Alisar تعرض بدوره للنقد "فالمشابك والحلى المعدنية من شكل معين والتى وجدت هناك، من المستحيل أن يكون التفسير الوحيد لوجودها هناك بأنها وجدت فقط

بالمصادفة فى طبقة تاريخية أكثر قدما" (٩) أقدم مشبك تم اكتشافه يعود الى القرن ١٣ ق. م، واستنتج أن مشبكا متطورا بشكل أفضل يمكن ان ينتمى لطبقة أرضية بعد ٤٠٠ سنة على الاقل".

هذا الرأى الأخير، والنقد الذى وجه الى الاستنتاجات الأثرية من "اليسار" جاءت من الحفريات الجديدة فى بوغازكوى (١٠). لكن هذه الحفريات كانت محيرة بدورها بسبب الطبقات التى بدت معكوسه فى بوغازكوى. حتى أنهم كتبوا «العمق الذى توجد به الموجودات لاقيمة له» وحاولوا ان يجدوا تبريرا من خبرة المنقبين فى أريحا (١١). وبالمصادفة فان أحد المنقبين اضطر ان ينشر دحضا لتقييمه لعمر إريحا، وهو ما سأناقشه فى مكان مناسب.

حدد المنقبون فى بوغازكوى عمر الطبقة التى وجدوا فيها المبانى بأنها من الطور الثانى وتعود إلى عصر الامبراطورية الحثية فى الالف الثانية ق. م، لكنهم اضطروا إلي الاعتراف بأن هذه المبانى لابد أنها كانت مسكونة فى القرن السابع ق.م، فقد ظهر هناك سيراميك بكميات كبيرة باشكال هندسية ورسوم لطراز شرق اليونان و«من الصعب ان نؤرخها فى عصر مبكر» (١٢).

هذا يعنى ان المبانى ظلت مسكونة لمدة ستة أو سبعة قرون، وأن القاطنين المتأخرين كان عليهم ان يحتفظوا فى غرفهم، بالاضافة إلي سيراميك عصرهم -ق ٧ ق. م- باشياء تنتمى إلى السكان الأول لهذه المبانى، من بينها أختام حثية تنتمى للامبراطورية الحيثية التى من المفترض انها من الالف الثانى ق. م. هل من المعقول أن نفترض ان كل من يسكن بيتا عليه ان يحتفظ به باشياء تركها فيه السكان الأوائل منذ ستمائة سنة سابقة؟

ووجد المنقبون فى بوغازكوى إنه من الضرورى ان يعاد تقدير عصر الصخرة المنقوشة فى يازيليكايا فى ضوء الشك العلمى الذى بدأ يقلل من عمرها الاصلى. بينما قال أحد الباحثين انه يمكن تحديد عمر الصخرة المنقوشة «بالامبراطورية الحثية القديمة» فى القرنين ١٩-١٨ ق. م (١٣)، بينما يعزوها آخرون إلى ق ١٣ ق.م (١٤). وأحيانا يحدد النقش على الصخرة بزفاف حاتوسيليس أخذا فى الاعتبار التوازى مع اثار قديمة

وجدت هناك أثناء التنقيب، وعزا البعض نقوش الصخرة إلى الفترة التي تلت سقوط الابمراطورية الحثية (١٥)، وبعضهم وصل بتاريخ النقوش إلى القرنين العاشر أو التاسع ق.م (١٦). حتى ان البعض قدم نظرية ترجع بأحد اجزاء النقش إلى القرنين ١٤، ١٣ ق.م، واجزاء أخرى إلى القرنين ١٠، ٩ ق، م (١٧).

هذه الفوضى فى الآراء، دفعت أحد الباحثين لأن يكتب «كل من يقارن التقديرات التى قدمها الباحثون، يعرف حجم الاختلاف فى هذه التقديرات، ليس بالعقود ولابالقرون بل بآلاف السنين (١٨). وقرر المنقبون ان يضعوا حدا لهذا السؤال القديم، فكتبوا «منذ حل وينكلر» - مكتشف السجلات - لغز اسم ومعنى بوغازكوى، لم يشك أحد جديا فى عصر صخرة يازيليكايا الذى هو ١٢٠٠ ق.م، واكثر من ذلك فان الملامح المعمارية ليازيليكايا تشير أيضا إلى عصر المملكة الحثية الجديدة (١٩)، او إلى الامبراطورية الجديدة لسوبليوماس ومورسيليس وحاتوسيليس، أكده وجود الاختام الهيروغليفية التي كشف عنها فى بوغازكوى، وخرطوشات مماثلة على النقش الصخرى ليازيليكايا فى مكان قريب.

لكن المنقبين، بيتيل وجوتربوك وجدوا فى بوغازكوى «اختاما هيروغليفية فى طبقة أرضية أعلى من السابقة أيضا» (٢٠)، ولم يستطيعا تفسير ذلك، كما وجدا أيضا نقوشا يونانية تماما وان كانت قليلة من العصر الفيرجى وماقبله (٢١) ولكن قررا منذ البداية «إن كتابة تقرير عن العمق الذى وجدت فيه الآثار غير مجد» وعزوا الآثار الفيرجية إلي تاريخ أحدث بأربعة أو خمسة قرون من نهاية الامبراطورية الحثية، وذلك فى توافق مع التاريخ الذى سبق تصوره.

فى أعماق الظلام

النقد الذى وجهه المنقبون فى بوغازكوى لحفريات اليسار Alisar بخصوص «المشابك» ترك انطباعا اكثر مما قصد به، فأعلن العلماء المنقبون في اليسار الغاء كل تقديراتهم التى نشرت بالفعل فى المجلدات الأثرية.

« لابد من عمل تغيير محدد » بالنسبة لمستوى الطبقة الاثرية « التى سبق أن أسميناها الفترة الرابعة، وعزيناها، بناء على تكرر الاختام بالهيروغليفية الحثية، إلى زمن الامبراطورية الحثية الجديدة (حوالى ١٥٠٠-١٢٠٠ ق. م)، والاكثر من ذلك قامت دراسات بناء على مادة اثرية كبيرة خاصة تلك التى استخرجت في موسم ١٩٣١ فى alisar كشفت عن توافق تام بين فخار وخزف الفترة الرابعة مع المرحلة الفيرجية Phrygian المتأخرة فى « جورديون ».

ان شكل مايسمى بالهيروغليفية الحثية (التصويرية) على المستوي الارضى التي وجدت فيه الابنية يتطلب تفسيرا.. بداية الكتابة التصويرية فى أسيا الصغرى كانت مبكرة جدا، وعلاقتها بالحثيين فى امبراطوريتيهم الاثنتين تبدو موضع تساؤل » (١) ان التقرير بأن الاختام الحيثية التصويرية التي وجدت فى طبقة أرضية تنتمى للمرحلة الفريجية المتأخرة، وفى هذه الطبقة فقط، يعني ان الكتابة التصويرية الحثية قد لاتنتمى إلى الحثيين، وذلك مساو للتوقيع على اعلان بالافلاس، فهذه العلامات التصويرية الخاصة كانت الف باء التى قامت عليها نظرية الامبراطورية الحثية. فالمبشر الذى كان فى دمشق «و. رايت» جعل من الحجر المكتوب بلغة تصورية والذى وجده فى أحد المبانى العربية فى حماة حجر الزاوية لبناء نظرية « الامبراطورية المنسية » (٢). وتأكدت هذه النظرية بالعثور عل سجلات «بوغازكوى»، سجلات الامبراطورية الحيثية. والآن بعد كل هذا النصر.. يأتى الاستسلام؟

« يبدو أكثر احتمالا ان أصحاب هذه الكتابة لعبوا دورا نشطا فى تدمير الامبراطورية الحيثية بالتعاون مع الفريجيين » (٣). المستوى الذى وجدت به النقوش التصويرية سمى (بالمستوى الأول بعد الحثى » (٤)، متوافقا مع المستوى الرابع، وقلصت كل المستويات فى العمر بعدد من القرون. وهذا يضئ النور فى الظلام « على الرغم من كل التقدم الذى حدث فى ربع القرن الأخير فى علم « الحيثيات »، فنحن من وجهة النظر الأثرية فى ظلام عميق بالنسبة لهذه المسألة » (٥).

هذا الافتقار إلي دليل نتج بسبب بعض الورطات الاساسية. فقد أعلن ان مقبرة الموتى فى « جورديون » تنتمى إلى القرنين ٧ أو ٦ ق. م. بسبب

التصميمات الهندسية للفازات اليونانية التى على الطراز الشرقى. وفى «اليسار» فى الطبقة الأرضية الرابعة نجد الخزف نفسه، ولكن هذه الطبقة تحتوى أيضا على أختام هيروغليفية معاصرة لأختام بوغازكوى، ولخرطوش ونقش يازيليكايا، وأيضا مع أرشيف بوغازكوى. فعلى بعض الالواح المسمارية من هذه السجلات هناك آثار لأختام تصويرية صنعت والصلصال لدن قبل ان يحرق. وفى تاريخ لاحق، قدم المنقب فى «اليسار» قطعة خشب وجدت تحت جدار فى مدينة اكروبولس فى المستوى الثالث، كانت قد صنفت فى العصر البرونزى القديم، اختبار الكربون المشع، فوجد، أن الخشب أكثر حداثة بسبعمئة سنة حسب التسلسل التاريخى التقليدى.

المؤلف نفسه الذى سبق وان راجع تقديراته، الغى تقديره لعمر أليسار الطبقة الرابعة، وعزاها إلى العصر ما بعد الفريجى، وكتب قبل سنوات قليلة: «لاتوجد ظروف تاريخية معروفه يمكن ان تفسر على نحو واف الاستخدام العام للغة التصويرية فى قلب الامبراطورية الحيثية الكبيرة خلال وجودها» (٧). وبدا كل شىء مشوشا.

«الآن، وكما حدث من قبل، لابد ان نبنى التتابع التاريخى الحثى بناء على التسلسل التاريخى المصرى، حيث إن التاريخ الحثى ليس له تسلسل معروف لنفسه» ذلك ماكتبه أحد الباحثين الرواد فى الامور الحثية (٨)، وكم كان قاتلا هذا الاعتماد على التاريخ المصرى كما سنرى.

جورديون

كان نهر سانجاريوس (سكاريا الآن) يقطع المملكة الفرجانية Phrygian، التى تمتد حدودها الشرقية بطول نهر هاليس (كيزل أرماك الآن)، وتقع خرائب جورديون على بعد خمسين ميلا جنوب غرب أنقرة، وتبعد ٨٥ ميلا أخرى عن بوغازكوى (حاتوساس). وكانت مقرا للملك «جوردياس» مؤسس الاسرة، وللملك ميداس صاحب الشهرة الاسطورية – كل ما يلمسه يتحول إلى ذهب.

ويرى التراث اليونانى ان الفريجيين جاءوا من تريس Thrace عبر البسفور، ووقت وصولهم غير معروف، ولايوجد شىء، ذو طبيعة أثرية

يؤيد وجهة النظر التى تقال احيانا بأنهم قد وصلوا الاناضول بالفعل فى القرن ١٣ ق. م. وسبب القول بذلك التاريخ المبكر يرجع إلى ان «هومر» اشار إلى الفريجيين كحلفاء للملك «بريام» ملك طروادة، وقيل أيضا ان هذا التاريخ المبكر يجب ان يلفظ، فاشارة هومر إلى الفريجيين هو نوع من المفارقة، فلم تكتشف أية آثار قديمة فريجية تقع قبل النصف الاول من القرن الثامن ق. م. (١)

نهاية المملكة الفريجية معروف لدينا، فقد سقطت قبل غزو السيميريين Cimmerians فى سنة ٦٨٧ ق. م أو بعد ذلك بسنة أو سنتين. جاء السيميريون من الشمال باجتياز الطرق الساحلية للقوقاز، ويظن ان موطنهم الاصلى كريميا Crimea، ومع ان التراث الادبى لغزو السيميريين وسقوط جورديون يشكل تاريخا متواصلا، إلا ان الاثريين لم يجدوا شيئا يمكن ان يعزى إلى وجودهم فى تلك المدينة أو فى فرجيا عموما، ويبدو انهم لم يبقوا لأى مدة فى فريجيا، مثلهم مثل السكيثيان Scythians الذين تبعوهم بعد فترة قصيرة على الطرق الساحلية القوقازية، لم يكونوا إلا غزاة عابرين.

التاريخ الذى اتوا فيه من موطنهم الاصلى (٦٨٧ ق.م تقريبا) يجعل من المؤكد انهم بدأوا هجرتهم بسبب الكوارث الطبيعية لذلك العام والتى وصفت ببعض التطويل فى كتابى «عوالم فى تصادم». وهي السنة التى واجه فيها سنخريب هزيمته الشهيرة الكاملة كما وصفها هيرودت واسفار اشعيا والملوك الثانى وأخبار الايام الثانى أثناء تهديده القدس بالاحتلال وسكانها بالطرد والنفى. بعد عبور السيمريون، تعرضت «فريجيا» للاحتلال من الدول المجاورة شرقا وغربا، ففى الغرب كانت ليديا وعاصمتها «ساردس»، وإلى الشرق كانت المملكة الكلدانية، ولقد عرفنا «الامبراطورية الحيثية» بعاصمتها «حاتوساس» باسم المملكة الكلدانية وعصرها كان القرن السابع ق. م. والنصف الأول من القرن السادس ق. م، كذلك يؤرخ النقش الصخرى للموكب السلمى فى يازيليكايا فى الفترة نفسها.

بعد حفريات الأخوين «كورتى Korte» فى جورديون فى بداية هذا القرن، لم تجر تنقيبات خلال الحربين العالميتين وما بينهما، ولكن فى سنة

١٩٥٠م قاد «رودنى يونج» بمنحة من جامعة بنسلفانيا فريق بحث إلي هناك، وعاد بعد عدة مواسم من الحفر.

لو كان مسار التاريخ التقليدى حقيقيا فان المستوى الارضى للامبراطورية الحثية لابد ان يوجد فى جورديون تحت مستوى المرحلة الفريجية، ولكن لو كانت خطة اعادة كتابة التاريخ التى نقوم بها هى الصحيحة، فان ما سمى بالامبراطورية الحثية لابد انها تركت بعض آثارها فوق الطبقات الفريجية.

وهاهنا ما كشفه د. يونج وفريقه فى جورديون:

«الطبقة الارضية الفريجينية مغطاة بطبقة من الفخار ولا فائدة من تحديد تاريخ كسر هذا الفخار فهو جميعا من المرحلة الحيثية».

هذا الوجود الكثيف للآثار الحثية فى طبقة أرضية غير طبقتها كما بدا له، جعله يقول «واضح ان هذه الطبقة الفخارية قد أحضرت من مكان ما لتوضع على سطح التل الذى أقيمت عليه المدينة الفريجية» (٢). ويواصل يونج قول اذا كانت هذه الطبقة من الفخار قد نشرت فوق الرابية خلال العصر الفارسى فهو مضطر للقول «لابد من ضرورةحملها عبر البوابة الفارسية لحائط المدينة قبل ان تكوم على الرابية فى الغرب» (٣) وسمى ذلك «عمل مسرف جدا». ولابد ان يكون كذلك اذا كان حقيقيا، لكن هل حقيقة ان الفرس ازالوا التربة الفخارية من مكان ما فى الشرق، ثم حملوا هذه الطبقات من التربة بالفخار الحثى الذى فيها، فوق أرض جبلية ثم نشروها بالتساوى فوق عاصمة«فيرجيا» ليبنوا فوقها؟ سمك الطبقة فى المتوسط أربعة أمتار، وبحساب اتساع جورديون العاصمة، فان المشروع لوحدث، فلابد من نقل ملايين الاطنان من التربة وفخارها لمسافة طويلة.

حتي لو كان هذا هو الحل لتتابع الطبقات الارضية، فلابد ان تكون بين الطبقتين الفرجينية والفارسية بعض الطبقات التى تملأ الفجوة بين نهاية المملكة الفريجية حوالى ٦٨٧ ق. م وبين ٥٤٨ ق. م السنة التي غزا فيها قورش آسيا الصغرى واستولى على المملكة الكلدانية، وجورديون الفريجية وساردس عاصمة ليديا، وأخذ «كروسيوس» أسيرة، لكن لايفصل الطبقة الفريجية عن الفارسية سوى الطبقة الحثية.

«المدينة الجديدة التي بنيت فوق الطبقة الفخارية تؤرخ فى النصف

الثانى من القرن السادس ق. م، وهكذا فهناك فجوة تقدر بحوالى قرن ونصف فى تراكم الطبقات وتاريخ الموقع. لم تكن الطبقة الفخارية تراكمية ولكن كانت مكومة فى فترة واحدة كما هو واضح، والفخار الذى أحضر من مكان آخر يحتوى فقط على فخار من الفترة الحثية» (٤).

دعنا نساير قليلا هذا الاتجاه بشكل منطقي: الطبقة التى تحتوى على اشياء من «الامبراطورية الحثية» كلها أجنبية عن جورديون وحملت إليها من مسافة بعيدة لتنشر فوق ارض المدينة الفريجية. ثم سقطت المدينة الفريجية بعد أن تآمر عليها «السيميريون» في ٦٨٧ ق. م ولم يمكثوا هناك. بدأ الحكم الفارسى للمدينة سنة ٥٤٨ ق. م. بفارق ١٤٠ سنة بين الحدثين. لابد ان حدث بعض التكوم للمهملات من الفخار وغيره لمن احتلوا المكان فى هذه الفترة، ولكن بإسقاط الطبقة الحثية على اساس انها لاتنتمى إلى المكان، فاننا نقع فى فجوة تاريخية.

يظن «يونج» ان الفرس غطوا العاصمة الفريجية بطبقة تحوى آثار حثية كقاعدة لبناء جديد، فهل ازالوا طبقة مساوية تراكمت خلال قرن ونصف تقريبا كى يعملوا فجوة فى طبقات الرابية؟

كتب يونج «جورديون عاصمة الليديين ترجع إلى ٦٩٠-٥٥٠ ق. م وحتى هذه اللحظة هى تروغ منا، ومن غير المرجح ان يكون موقعها الاساسى مهجورا طوال هذه الفترة» (٥)

بعد مرور السيميريين، قسمت المملكة الفريجية بين الليديين والكلدانيين، ووجودالطبقة الحثية فوق الفرجينية وتحت الفارسية هو وضع صحيح تماما ولم تنقل التربة من مكان آخر. كما وجد يونج أيضا ان بناء البوابة الفريجية فى جورديون له شبيه تماما فى حائط فى المدينة السادسة لطروادة. فهل يكون الفرق بينهما عدة قرون؟ ولو فرضنا ذلك «مع انها منفصلة فى الزمن بفترة خمسة قرون أو ما قارب، فالتحصينان يقدمان مثلا جيدا لتراث البناء العام فى شمال غرب الاناضول، وإذا كان الامر كذلك فلابد من مثل وسيط بينهما» (٦)، فالمدينة السادسة لطروادة لاتنتمى بالتأكيد إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ولكن تنتمى للقرن الثامن ق. م، وهو الوقت نفسه التى أقيمت فيه تحصينات مدينة جورديون.

العصر المظلم فى الاناضول

«بالرغم من الحفر والتنقيب المجدد فى العقود الأخيرة، فان الفترة من ١٢٠٠-٧٥٠ ق.م لمعظم أجزاء الاناضول مازالت فى ظلام كامل». (١).

كانت هذه كلمات «اكرم اكورجال» عالم الآثار التركى الذى مسح بعناية أقاليم كبيرة من آسيا الصغرى. المنطقة لاتحتوى أية آثار فنية أو صناعية، ولابقايا لثقافة انسانية أو حتى سكانية على امتداد فترة زمنية تصل إلى ٤٥٠ سنة «يتبع ذلك ان أى آثار لحضارة بين ١٢٠٠-٧٥٠ ق.م فى أواسط آسيا الصغرى خاصة الاراضى المرتفعة، مفقود بالنسبة لنا ولايمكن معرفته» (٢).

«ومن المثير انه حتى الآن لايوجد أى آثار فريجية فى أواسط الاناضول بل لايوجد آثار لأى أناس بين ١٢٠٠-٧٥٠ ق.م» (٣).

«وأيضا فإن فى الجزء الغربى من شبه الجزيرة فان العصر الحديدى المبكر أو الفترة بين ١٢٠٠-٧٥٠ مغلقة بالظلام» (٤)

الوصول إلى نتيجة كهذه، ثم الاستمرار بتأييد جدول التسلسل التاريخى التقليدى، يجب ان يكون الباحث مقتنعا تماما بأنه لاتوجد أية آثار لمدة أربعة أو خمسة قرون متعاقبة فى هذا المكان، لكن كيف لايوجد سكان فى هذه المنطقة فى عصر الامبراطورية الحيثية التي كانت تعج بأمم عدة تاجرت وأقامت علاقات دبلوماسية وتبادل ثقافى، وبضائع مصنعة بوفرة مع غيرها من الامم؟

فى مجلد مستقل ساتناول بالحديث عن الآثار وتسلسلها فى اليونان فيما يسمى بالعصر المظلم وهو شبيه بالعصر المظلم فى آسيا الصغرى، والذى يغطى الفترة نفسها من ١٢٠٠-٧٥٠ ق.م، وأثبت ان هذه القرون بين الفترتين المسينية Mycenaean والايونية Lonic اليونانيتين، ليست دقيقة أو حقيقية، فقد اعتمدت على التسلسل التاريخى المصرى وهو الموقف نفسه الذى وجدناه فى آسيا الصغرى حيث وجدنا المعاهدة مع رمسيس الثانى فى حاتوساس (بوغازكوى) جعلت المؤرخين يصلون إلي نتائج كتلك التي احدثها وجود جعارين ملوك وملكات الاسرة الثامنة عشر فى مقابر «مسينا».

يرى «فرانكفورت» وهو مؤرخ فنى ان العصور المظلمة للأناضول (آسيا الصغرى) هى امتداد لبلاد فى الشرق (٥)، وقد أشار «اكورجال» ناحية «قرقميش» على نهر الفرات كمكان يمكن تتبع إقامة سكان مستمرة فيه تصل القرون التى لاتجد صلة بينهما فى الأناضول إلى الغرب.

مقبرة قرقميش الذهبية

دعيت المقبرة الذهبية بهذا الاسم للأشياء الذهبية التى وجدت فيها خاصة التماثيل الصغيرة التى وجدت تحت أرضية الغرفة E فى القلعة الشمالية الغربية فى قرقميش وهى «أجمل الاشياء الصغيرة التى ظهرت خلال حملة التنقيب كلها» (١). كان دفن بالحرق. وعاء صغير به عظم متكلس بعد الحرق، من اللازورد، وأربعة أزرار ذهبية فى علبة داخل علبة أخرى صغيرة، وكانت مغلفة كلها بكمية من نشارة الخشب، ووسط هذه النشارة قاعدة بـ ٣٩ تمثالا صغيرا محفورة باللازورد يفصل بين الوانها شرائط ذهبية، وكانت هناك قطع من البرونز المسبوك أصبحت بلا شكل بسبب النار، وهناك قطع من الاثاث عاجية محروقة، وعدد كبير من خرز صغير من الذهب ورؤوس مسامير ذهبية وقرصين ذهبيين أحدهما تالف، عليها اشكال حيوانية وادمية، بعض الاشياء تأثرت بشدة من الحرق، والبعض بدا واضحا انها وضعت فى النشارة وهى مازالت ساخنة، صبت من المحرقة فى الحفرة التي وضع فيها الوعاء.

التماثيل الـ ٣٩ تجذب الانتباه، ولم تكن كلها سليمة. وقد كتب «وولى» «هذه التماثيل الصغيرة هى صورة طبق الاصل من نقش ضخم على قطعة من صخرة كبيرة فى «يازيليكايا». ليس فقط الموضوع هو نفسه – طابور من الالهة والملوك والجنود – ولكن الاشكال الفردية متماثلة فى الشكل والموقف والصفات والملابس، والتمثال الذى فى المنتصف يرتدى عباءة طويلة وقرص مجنح فوق رأسه ويمسك بيده بوق Lituus معكوس، ثم التمثال بغطاء الرأس المخروطي، والتنورة المفتوحة وكأنه على وشك السقوط، والجنود بغطاء الرأس المدبب والتنورات القصيرة، واحذية ببوز مرفوع، كلها مأخوذة من صخرة يازيليكايا».

لكن هذا يعنى مشكلة: «فالعلاقة الوثيقة بين النقشين على الصخر ومجوهرات قرقميش أمر لايمكن ان تخطئه العين. وتكمن الصعوبة فى المقام الأول فى التاريخ: الحفر على الصخر من القرن ١٣ ق. م، والقبر من السنوات الأخيرة من القرن السابع ق. م، فإما ان تكون المجوهرات من عصر سابق وأعطيت كميراث عبر آجيال عدة، أو أنها من تاريخ متأخر نسبيا من الصناعة السورية (فالحيثيون قد اختفوا من الاناضول منذ عدة مئات من السنين) حفظت التراث الحثى بدقة.

ويجب الاعتراف بأن نظرية الميراث تبدو بعيدة الاحتمال فى ضوء ان قرقميش بعيدة عن «حاتوسيس» وأى استمرارية لعائلة ما تعبر تلك الفجوة المكانية والزمانية يبدو أكثر استحالة». ومع ذلك لم يتفق مؤلفون آخرون مع وجهة النظر هذه.

كتب «جيتروبوك» (٢) الذى قام بحفريات لسنوات عديدة فى حاتوساس (بوغازكوى) ودرس النقوش على صخرة يازيليكايا القريبة «لايوجد شك فى ان التماثيل متشابهة فى الاسلوب والموضوع، وهى حيثية بمعنى الامبراطورية الحيثية فى بوغازكوى. ولكن كيف يمكن لنقش من القرن الثالث عشر ق.م ان يصل إلي مقبرة من القرن السابع ق. م؟».

ويواصل «جيتربوك» «هناك احتمالان إما ان التماثيل صنعت قبل ١٢٠٠ ق.م وتنوقلت كميراث حتى وضعت فى المقبرة، إما انها صنعت فى مرحلة حثية متأخرة ولكن على نمط ظل متداولا فى الامبراطورية». ويبدو ان «سيرليونارد» يميل لترجيح الرأى الثانى، لكن نقاشات تعتمد فى جزء منها على تواريخ نقوش ووترجيت وهيرالد وول التى لايمكن ان اوافقه عليها، ولذا أفضل نظرية الميراث. والاعتراض بأنه لايوجد تواصل عائلى بين ملوك الامبراطورية، والحكام الحيثيين المتأخرين لقرقميش، أمر حقيقى» وقد حاول التغلب على هذا الاعتراض بهذه الفرضية «ربما أخذ الحيثيون المتأخرون الذين أقاموا على نهر الفرات بعد ١٢٠٠ سنة ق. م، التماثيل الذهبية كغنائم حرب حين نهبوا الامبراطورية» أو إنها ميراث من أيام «سوبليليوماس وخلفاؤه الذين أحضروا هذه الزينة إلى قرقمش حيث حفظت فى الخزانة وظلت هناك على الرغم من تغير السيطرة».

«الامكانية أو الاحتمال الثالث الوحيد هو أن نشك فى عصر المقبرة

نفسها ولكن هذا ليس ممكنا فى ضوء الوصف الواضح لظروف العصور على الموجودات» (٣).

هل هذا هو الاحتمال الأخير؟

ان نقوش يازيليكايا ليست من القرن ١٣ ق. م، ولكنها من عصر لاحق بستة أو سبعة قرون، وهذه هى إجابة المشكلة التى تعرضنا لها بكيفية وصول نقش من القرن ١٣ ق. م، إلى مقبرة من القرن السابع ق. م،

جدار هيرالد

لم يستطع «اكرم اكورجال» فى مسحه الأثرى لآسيا الصغري ان يشير إلى أية قطعة أثرية من العصور المظلمة (١٢٠٠-٧٥٠ ق. م)، فى قرقميش فقط، المدينة الحصن على الحافة الشرقية لآسيا الصغرى، اعتقد أنه قادر على تتبع تاريخ متواصل يغطى أواخر الالف الثانية واوائل الالف الأولى قبل الميلاد. وكلما اقتربنا من ادراك إنه لايوجد قرون غفل فى الاناضول - الهضبة الوسطى من آسيا الصغرى - ندرك بوضوح أكثر أن تاريخ قرقميش فى التاريخ التقليدى قد كتب بطريقة مشوشة غير منظمة. معركة قرقميش (قادش) التي وقعت بين رمسيس الثانى ونبوخذ نصر حدثت سنة ٦٠٥ ق. م، ويتبع ذلك ان وضع هذه المعركة فى القرن ١٤ اوائل ١٣ ق. م. لايمكن ان يستدعى إلا اضطراب فى التتابع التاريخى.

بوابة بالوات Balwat لشالما نصر الثالث من منتصف القرن السابع ق. م، مع نقش برونزى لابراج قلعة قرقميش ودفاعاتها الخارجية تسبق تصميمات رمسيس الثانى ولاتتبعها، لم يتم اكتشاف ما يحتوية التل بالكلية، بل مساحات معينة منه هى التى كشف عنها الضوء، مبنى معبد واجزاء من الدفاعات الداخلية للقلعة من بينها بوابة وحائط مجاور يسمى بجدار هيرالد Herald's wall مزين بنقوش غائرة، ويتصل بهذا الجدار، حائط آخر ينتهى عند بوابة تسمى بوابة الماء لأنها مغمورة جزئيا بمياه الفرات. أحد الاشكال على اللوح المنقوش لحائط هيرالد، يصور أنثى «بغطاء رأس متقن، مكون من ثلاثة شرائط عند القاعدة يصعد منها تاج عال مقسم بأخاديد أفقية، ثلاثة منها عمودية تبدو متصلة عند منتصف

المسافة بخطوط على شكل صليب، إنه غطاء الرأس الجدارى للالهة فى المختلى الكبير فى يازيليكايا، الذى يحمل التمثال ككل تشابها مذهلا معها » (١). من هذه اللوحة - الجزء من الحائط - كما من عدد آخر من اللوحات، بل من معظم الأحجار، يمكن للمرء ان يقول أن نموذج النقش قديم، وهذا شيء محير اذا كان العصر مؤرخا «بالمرحلة الأخيرة من الفن فى قرقميش». النتيجة متناقضة، ولابد من حل وبحث عن بدائل «إما ان الحائط كله باق منذ فترة مبكرة احتواها القصر بعد ذلك أو ان النقوش كانت لبداية قديمة وأعيد استخدامها » هذا مايقوله عالم الآثار «وولى » Wooley الذى يستطرد «فى بوابة الملك، على العكس، هناك دليل لاتخطئه العين تبين ان المجموعة من تاريخ قديم، مع ان جدار هارولد وبوابة الملك متصلتان وتشكلان جزءا من المبنى نفسه » (٢).

وقد كتب «وولى» عن نقش على حجر «للتمثال مظهر قديم بلاشك، وانطباعنا الاول حين وجدناه إنه من عصر قديم، أعيدت إقامته حين أعيد تصليح المبنى، وهذا القدم يرجع إلي المحافظة الدينية عليه» إما إنه قديم وإما إنه من وقت متأخر.

بعد عشرين سنة من «وولى» كتب م. اى. ال. مالووان مستنتجا ان حائط هيرالد قد بنى فى أوائل القرن السابع ق. م بعد فترة قصيرة من السور الطويل الذى يحمل النقوش (٣). وقد أخذ بوجهة النظر هذه «هوكنز» أحد رواد حل الرموز الهيروغليفية التصويرية. والذى أقام تاريخه اساسا على شواهد من دراسة النقوش.

المدن الدول فى سوريا

نمت المدن - الدول فى شمال سوريا وشرق الاناضول - قرقميش، مالاتيا، كاراتيب، ماراش- حوالى بداية الالف الاولى قبل الميلاد، وانتعشت حتى نهاية القرن الثامن ق. م، حين فقدت آخرها استقلالها على يد الاشوريين. ولم تتطور المدن - الدول قط بدرجة من التماسك لتصبح امبراطورية متحدة، ومع ذلك فقد كانت تتحد فى حالة الطوارئ ضد عدو مشترك. وحين سار شالمانصر الثالث بجيوشه حتى البحر العالى

(المتوسط) وشق طريقه داخل شمال غرب اقليم انتيتاروس فى الاناضول، انضمت المدن الدول فى تحالف ضم «اهاب الاسرائيلى تحت قيادة القائد المصرى «بيريدرى» ونجحوا فى ايقاف تقدم الاشوريين.

تاريخ المدن - الدول غامض نوعا ما، وماهو معروف منه لابد من اعادة تنظيمه بالاعتماد على مراجع فى حوليات الملوك الاشوريين تقريبا، وكذلك تزودنا بالمعلومات حول الموضوع نقوش الامراء المحليين المكتوبة بالخط التصويرى، ولكنها معلومات متفرقة عن تاريخها السياسى، وبتزايد الادلة الاثرية تزودنا بوجهة نظر عن الحياة اليومية والدينية والانجازات الثقافية للمدن - الدول. وهناك اشارات فى ان ثقافة هذه المدن - الدول، وطنية أهلية، نمت من جذورها الخاصة ونضجت من خلال عملية بطيئة. الكتابة مرتبكة غير عملية، شكل التنظيم السياسى فيها يدل على نمو اقليمى بطئ. ومع ذلك فان أنصار التسلسل التاريخى التقليدى يؤكدون ان هذه الدول كانت خلفا للامبراطورية الحيثية الكبيرة التى كانت فى الالف الثانية قبل الميلاد. وذلك بأنه بعد سقوط هذه الامبراطورية بسبب موجة الحشود المهاجرة، لجأ الباقون من عظمتها السابقة إلى جبال سوريا المعزولة، حيث واصلوا التلكؤ لقرون، ليصبحوا فى النهاية تابعين لأشور قبل ان يقضى عليهم الكلدانيون أيام نبوخذ نصر.

حين درست بقايا الشعوب السورية - الحثية، ثارت شكوك قوية تخص تتابع هذه الاحداث. فى ارشيف بوغازكوى فى اواسط شرق الاناضول كانت اللغة المستخدمة بكثرة مع البابليين، والكتابة المستخدمة بشكل مطلق هى المسمارية، واستخدمت اللغة التصويرية فقط فى النقوش الاثرية والاشارات الملكية. ومع ذلك فإن الحيثيين - السوريين الذين كانوا على قرب شديد من ثقافة مابين النهرين (أشور)، من المفترض ألا يرجعوا إلى استخدام الكتابة التصويرية التي سقطت بالفعل من الاستخدام العادى. لكن الواقع ان الكتابة التصويرية كانت الملمح المميز للحيثيين السوريين.

كذلك فان فنهم كما هو موضح فى النقوش البدائية الغائرة لايتحدث من الآثار السابقة ليازيليكايا، بالرغم من تشابه بعض الموضوعات، ومن

الصعب ان ندرك من النقوش فى كاراتيب ومالاتيا انها مجرد تقليد متدن للأعمال الاثرية فى فترة الامبراطورية. ففن كل مدينة - دولة له نكهته الخاصة، إنه ليس بأى شكل فن منمط او متكلف، إنه فن بدائى حيوى منغرس فى التربة المحلية. كذلك فإن التنظيم السياسى للحيثيين - السوريين (السريان) Syro-Hiitties دليل قوى أخر للتطور المحلى الذى لايدين بشىء إلى «الامبراطورية الحيثية» فى الالف السابقة عليهم. وكما فى اليونان القديمة فإن فترة المدينة - الدولة تسبق تطور الدولة الموحدة.

هذه الانواع من الادلة الثلاثة: الكتابة، الفن، التنظيم السياسى تؤكد النتيجة المذكورة ضمنا فى خطة مراجعة التاريخ، فان الامبراطورية الحيثية، أى الكلدانية تتبع تاريخيا نظام المدن- الدول، وسقط استخدام الكتابة التصويرية القديمة فى اواخر القرن السابع واوائل السادس ق. م، وانتعش الفن في اسلوب موحد، وكان التنظيم السياسى للدول- المدن، هو الذى مهد الطريق إلي قيام امبراطورية راسخة.

بوابة الاسود فى مالاتيا

تقع مالاتيا فى المنتصف من المنطقة الجبلية فى شرق الاناضول حيث انتعشت الدولة الكلدانية «الحثية» الاولى فى أوائل الالف الاولى ق. م.

منذ نقبت هناك أول مرة بعثة فرنسية قادها «لويس ديلابورت» بين سنتى ١٩٢٨-١٩٣٠، ومقالات الباحثين تفيض بنقاشات مستمرة حول التاريخ الصحيح لأثارها الاساسية. وقد تسببت نقوش «بوابة الأسود» خاصة فى نقاشات كثيرة، فقد بدا واضحا صلتها الوثيقة بالفن الحثى من فترة الامبراطورية. وقد كرس «ديلابورت» عدة صفحات فى تقريره إلى مقارنة تفصيلية لملامح كثيرة من نقوش «بوابة الاسود» مع تلك التى فى يازيليكايا وألاكاهيوك، الموقعان الاسياسيان للفترة الامبراطورية (١).

نموذج الشعر المخروطى المميز للاله الرئيسى، وجد فقط فى مالاتيا ويازيليكايا وألاكا هويوك، شكل روب الاله وتفاصيل أخرى متشابهة بشكل كبير. بدا واضحا «لديلابورت» ان مثل هذا التشابه فى التفاصيل الفنية يشير إلى تتابع قريب فى الزمن، ونتيجته الاولى ان مالاتيا مدينة

تنتمى إلى عصر الامبراطورية «فى الوقت الذى اكتشفت فيه بوابة الاسود، جعلتنا العلاقة الواضحة بين نقوشها ونقوش يازيليكايا نقدر إنها بنيت بعد قليل من المعبد الحيثى القريب فى «حاتوساس»، وحيث ان سقوط الامبراطورية الحيثية قد حدث فى بداية القرن الثانى عشر ق. م، فلقد عزونا مالاتيا إلي اواخر القرن الثالث عشر ق. م» (٢).

ولكن بتواصل التنقيب، أمكن إرساء تراصف الطبقات الارضية، وبدا واضحا ان مستوى قلعة الاسد يقع فى الحقيقة فى الطبقة الأخيرة للحيثيين الأوائل مباشرة تحت الطبقة الأرضية الاشورية.

وأدرك «ديلابورت» بدقة. ان الاحتلال الاشورى للموقع لابد إنه تم اثناء حملة «سرجون» سنة ٧١٢ ق. م، فى سياق ادعاء الملك الاشورى إنه احتل مالاتيا وأخذ حاكمها اسيرا. وهكذا فالدليل الاثرى يشير ان بوابة الاسود قد بنيت فى منتصف القرن الثامن ق. م، قبل قليل من الاحتلال الاشورى للمدينة، بينما الدليل من الفن يشير إلي إنها معاصرة للآثار الاخرى من الامبراطورية الحيثية التى أرخت بدورها فى القرن الثالث عشر ق. م، هؤلاء الباحثون الذين يصدرون احكامهم أساسا بناء على الدليل الفنى يفضلون عادة التاريخ المبكر، وهكذا كتب هنرى فرانكفورت «الاسود التى تحرس البوابة توضح عددا من المميزات تربطها بفن بوغازكوى. فالفروة حول العنق والمصدرة بلولبيات متصلة، والعلامات المدورة الصغيرة بين أعينها توجد فى اسود بوغازكوى» (٣). وقد سجل فى قائمة عدة تشابهات مثيرة، واستنتج ان بوابة الاسود لايمكن ان تكون قد بنيت فى وقت بعد أول القرن الثاني عشر ق. م.

وقد عبر عن رأى مشابه «جيه. هانفمان» الذى يتفق على أن نقوش بوابة الاسود «مازال قريبا تماما من صناعة الايقونات واسلوب النحت المتأخر للامبراطورية الحيثية» (٤)، واقترح أيضا تاريخا مبكرا ١٠٥٠-٩٠٠ ق. م. لكن المؤرخين الذين وضعوا فى اعتبارهم الدليل الاثرى لم يستطيعوا قبول هذا التاريخ، خاصة هـ ث. بوسيرت الذى كان مصرا بأن تاريخا مبكرا هو ضد ما كان معروفا من تراصف الطبقات فى مالاتيا (٥). وحتى «هانفمان» الذى دافع عن تاريخ مبكر، ادرك المصاعب الاثرية التى أثارها هذا الرأى، لأنه يدل على أن الطبقة الارضية التى وجدت فيها

«بوابة الاسود» «لابد إنها بقيت ٢٥٠ سنة على الأقل، مساوية فى المدة كل المستويات الخمس المبكرة للامبراطورية الحيثية» (٦)، هذه الطبقات الخمس التى استمرت لأقل من ٢٠٠ سنة. وقد وجد «بوسيرت» ان هذا غير مقبول ووضع البناء بأمانة فى منتصف القرن الثامن ق. م.

كذلك عمل وليم ف. البرايت مقارنة مع قرقميش القريبة، واستنتج ان نقوش «مالاتيا» لايمكن ان تكون متأخرة عن القرن العاشر ق. م، لأن نقوش قرقميش من الفترة نفسها كانت قد فقدت بالفعل تأثرها بفن الامبراطورية الحيثية. وخمنّ تاريخا بين ١١٥٠-١٠٥٠ ق. م. (٧). ونحن لانتوقع ان تكون نقوش القرن العاشر فى قرقميش ان تظهر تأثرا بصخرة يازيليكايا المنقوشة التى كان فنها بدائيا قام فى القرن الثامن وانتعش فى السابع واوائل القرن السادس قبل الميلاد.

رفض «او. و. موسكاريلا» رأى البرايت وطرح قصة بديلة «مالاتيا كانت موقعا حيثيا مع اعادة استخدام متأخر للنقوش، مع نقوش من اواخر القرن التاسع والعاشر، ولايوجد دليل من القرن الحادى عشر، وبدا ذلك مقنعا» (٨). وقد ظن «موسكاريلا» بأنه يحل المشكلة بجعل مالاتيا مبكرة ومتأخرة ولكن ليست بين بين، وقد بحث «البرايت» عن حل قبله بوضع البناء وسط الرأيين المتعارضين لبوسيرت «القرن الثامن ق. م» وديلابورت وهانجمان وفرانكفورت (القرن ١٣، أو ١٢ ق. م).

والآن الحل فى اليد: قلعة الاسود بنيت فى فترة ما فى الجزء الثاني من القرن الثامن ق. م قبل احتلال الاشوريين للمدينة كما يشير موقع تراصف الطبقات بوضوح. النقوش فى يازيليكايا، التى سبقتها بعدة عقود، من الممكن ان تكون من التراث الفنى ذاته وقد نحى بالضغط الاشورى من مالاتيا إلى موقع اكثر غربا فى السنوات الاولى من حكم اشور بانيبال، فالضغط جاء من اتجاه آخر: كان الحيثيون يتحركون تجاه الشرق، ويحتلون قرقميش فى عهد سوبليليوماس، ثم بابل بعد عدة عقود. ،وبعد ذلك بوقت ليس بطويل تسقط نينوى نفسها، وتصبح الامبراطورية الكلدانية العظيمة مسيطرة على معظم الشرق القديم.

موطنهم الاصلى

لابد أن «أرض الحيثيين» مصطلح جغرافى لمساحة كبيرة جدا، وقد كتب هاتوسيليس (نبوخذ نصر) حين حقق قوة عظمى من خلال الامبراطورية البابلية الحديثة «عشتار حولت إلى «حاتوسيليس» أرض الحيثيين فى مجموعها»، وبشكل مشابه، يشير فى نقوشه على المبانى التى وجدت في بابل، إلى الاقليم الكلى غرب الفرات الذى أصبح تحت سيطرته بأرض الحيثيين Hetti Land وهى تضم شرق الاناضول وسوريا وبلاد أخرى. إنه مصطلح جغرافى بالطريقة نفسها التى نستخدم فيها مصطلحات مثل آسيا الصغرى، الهلال الخصيب، الشرق الادنى أو الشرق الاوسط.

حتي وقت قريب، كانت «اور الكلدية» على المجرى الجنوبى للفرات تعتبر مكان مولد النبى ابراهيم (١). علماء الآثار الذين نقبوا فى «تل المقاوير» وجدوا هناك نقشا يؤكد رأيهم بأن المكان هو أور القديمة. ولابد ان اضطربات عظيمة حدثت فى الالف الثانية ق. م، ورواسب ضخمة من الطمى غطت المدينة فى كارثة مفاجئة (٢) اضطرت الاحياء لمغادرة وطنهم.

وقد شكك «سايروس هـ. جورديون» في ان تكون «اور» مكان مولد ابراهيم، ووصف الكتاب المقدس لرحلته قبل ان يذهب إلي أرض كنعان ليتخذ سكنا هناك، يشير إلي «اور» أخرى شمال غرب بابل، ولكى نفرق «اور» هذه عن المدينة الجنوبية سميت «أور الكلدية» (٣).

لقد غير الكلدانيون موطنهم أكثر من مرة، فى مجال واسع من الهجرات التى اضطروا إليها.

حوالى ٧٢٨ ق. م، رحلهم «تجلاث بيلبسير» الثالث بعد حرب طويلة مع الكلدايين (كالدو) إلى اقليم شمالى. وفى نهاية القرن الثامن ق. م، كان هناك كلدانيون مبعثرين في اروك، نيبور، كيش، كوتا وسيبار (٤) كان «ميرداخ بالادان» خصم سرجون الثانى يسمى «ملك الكلدانيين» موطنه الاصلى كان فى «بيت ياخين» ربما قرب الخليج الفارسى، وقد احتل لفترة ما بابل، ولقد أفنى «أشور بانيبال» الكلدايين فى بيت ياخين.

فى أقليم «ارارات» شرق اور الكلدية على الفرات الاعلى وحول بحيرة

قان، عاش أناس هناك عبدوا الاله كالدي Chaldi، وقد أطلق عليهم دارسون معاصرون، ابتداءً من «ليمان هاويت» اسم الكلدانيين على افتراض ان اسمهم القبلى يعكس اسم الههم الرئيسى (بشكل مشابه للاشوريين الذين أخذوا اسمهم من اسم الههم الرئيسى أشور)، وتم اختيار هذا الاسم لتمييزهم عن كلدانيين بابل، وقد دخلت هذه الاسر من الكلدانيين فى حروب دفاعية ضد الاشوريين (٥)، وكانوا يدعون أيضا «اورارتو Urarto» وهو اسم بقى فى الكتاب المقدس باسم «أرارات».

ولاحظ الدارسون تشابها مثيرا بين «اورارتو» (الكلدانيون) والثقافة الحثية (٦). فى ضوء الضغط المتواصل من اسارهادون وابنه أشور بانيبال على السكان حول بحيرة إرميا وقان. نتج عنه اعادة توطين اجبارية لهؤلاء السكان نحو الغرب. وهناك ما يجعلنا نفترض ان عباد كالدى اكتسبوا اسم الكلدانيين لأنهم كانوا أحد فروع الشعب الكلدانى القديم.

واحتل الكلدانيون تحت قيادة «نابوبولاسار» بابيليونيا التي لم تكن موطنهم الاصلى، لقد جاءوا من كالديا ونقلوا عاصمتهم إلى بابل. ولقد اسماهم حزقيال «بنى بابل الكلدانيين أرض ميلادهم» (٢٣ك ١٥).

فأين كانت أرض ميلادهم؟ ومن أين جاء نابو بولاسار؟

بالحكم من بقايا الثقافة القريبه التى عزيت إلى الحيثيين والتى اعتبرها كلدانية، فإن أرض ميلادهم فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد كانت فى كابادوكيا وسيليسيا بين البحر الاسود فى الشمال، واقليم أرارات والفرات الاعلى فى الشرق، والانحناء الكبير للبحر المتوسط فى الجنوب، ونهر هاليس فى الغرب. وتقع فى هذه المنطقة : بوغازكوى، اليسار، سنجريل، وقرقنيش.

اكسنوفون (٧) الجندى الاثينى (٤٣٥-٣٣٥ ق. م) الذى حارب فى جيش قورش الاصغر الفارسى، وجاب، مع المرتزقة العشرة آلاف، آسيا الصغرى، كتب ان الكلدانيين قبيلة تعيش فى ارمينيا التى تمتد من أرارات حتي جنوب البحر الميت. وقبل ١٤٠ سنة كان قورش الكبير حين كان فى حرب مع كرسيوس، يشير إلي الكلدانيين بأنهم جيران من أرمينيا، وقال عن الأرض التي يحددها الدارسون المحدثون بأنها حيثية «هذه الجبال التى نراها ملك لكالديا» (٨).

كذلك فان «سترابو» المواطن من امازيا فى يونتس، والذى يعرف آسيا الصغرى كراحة يده يضع الكلدانيين بجوار «ترابيزوس» على ساحل البحر الاسود.

«فوق اقليم بارناسيا ترابيزوس توجد تيبارانى وكالديا الذين تمتد بلادهم إلي أرمينيا الصغرى» (٩). وقد ثبت ان هؤلاء الكلدانيين على البحر الاسود الذين تحدث عنهم سترابو واكسنوفون ليسوا هم الكلدانيين الحقيقيين، أو أن اكسنوفون يستخدم الاسم الخطأ للقبيلة العدوانية فى ذلك الاقليم. لكن اكسنوفون وسترابو لم يكونا على خطأ. ومع ان الكلدانيين تحت قيادة نابو بولاسار ونبوخذ نصر انصهروا فى بوتقة الامبراطورية البابلية الجديدة، فان كثيرا منهم عاش فى كابادوكيا وقد قابلهم اكسنوفون هناك فى نهاية القرن الخامس ق. م، وسجل سترابو وجودهم فى المنطقة فى القرن الاول ق. م، وبعد قليل سنبين بالدليل الاثرى علي هذه المسألة، ونبين ان اللغة التصويرية الكلدانية (الحيثية) كانت مستخدمة فى هذا الاقليم بالذات وقت سترابوا وحتي فيما بعدذلك.

الكتابة السرية الكلدانية

بتحقيقهم قوة كبرى فى الاقليم الممتد من شواطئ الخليج الفارسى حتى البحر الاسود والمتوسط والاحمر، فان الامبراطورية الكلدانية ضمت شعوبا وديانات ولغات كثيرة. وقد احترمت اللغات المحلية فى الولايات الخاضعة لها.

وقد نادى نبوخذ نصر كما جاء فى كتاب دانيال «ياشعوب. يا أمم. يالغات» كانت اللغة المستخدمة في الحياة اليومية فى بابل هى الاكادية البابلية. وفى الولايات كانت هذه هى اللغة الرسمية فى الوثائق والديبلوماسية، وكانت هذه الوثائق تترجم غالبا إلى اللغات المحلية. لم يكن النظام ثنائى اللغة، بل ثلاثى. فبالاضافة إلى البابلية اللغة الرسمية للدولة، واللغة الوطنية فى مختلف الاقطار، كانت الكلدانية تستخدم فى الشعائر والمراسيم الدينية والصلوات والاحتفالات المقدسة للقصر. وقد جاء فى سفر دانيال ان نبوخذ نصر أمر بتدريب بعض الشباب اليهودى

من أصول ارستقراطية ممن كانوا «حاذقين فى كل حكمة، وعارفين معرفة وذوى فهم بالعلم والذين فيهم قوة على الوقوف فى قصر الملك، فيعلموهم كتابة الكلدانيين ولسانهم» (دانيال ١: ٤) (١).

ولعدة قرون، وحتى العصور الحديثة ظن الدارسون ان الكلدانية هى اللغة التى كتب بها جزء من سفر دانيال وكذلك التلمود. ولهذا السبب كانت هناك قواميس كلدانية، ولقد تبين بعد ذلك ان لغة هذه الاسفار لم تكن كلدانية بل أرامية او سريانية. فى سفر دانيال نفسه (٤: ٢) قيل إنه بالاضافة الى لسان الكلدانيين والبابليين كانت السريانية تستخدم فى القصر «ثم تحدث الكلدانيون إلى الملك بالسريانية».

عدم وجود نقوش باللغة الكلدانية، يتعارض مع القول فى سفر دانيال عن لغة يستخدمها الكلدانيون فى تعاليمهم السرية ولأغراض دينية. ولقد تبين أخيرا أن «لغة هؤلاء الكلدانيين لاتختلف بأى شكل عن اللغة البابلية العادية السامية» (٢) وكانت عمليا مشابهة للغة الاكادية لبابل وأشور.

اختلط السكان الاكاديون لبابل مع الكتلة الكلدانية، لكن الموطن الاصلى للكلدانيين لم يكن بابل، واحتفظ الكلدانيون لأنفسهم بطبقة الكهان والمنجمين (٣)، ومن الطبيعى ان يستخدموا فى ابتهالاتهم المقدسة وأحاجيهم لغة تراثهم القديمة غير المعروفة إلى العامة. وسجلوا معارفهم السرية فى كتابة غير مفهومة للأبجدية الدنيوية حتى لاتفشى أسرارها. وغالب ما أكد إنه لم تكتشف كتابة سرية فى البلدان على طول الفرات، حتى الكتب الحديثة حول التاريخ القديم تؤكد هذا في الفصول التي تعالج الكلدانيين والتى تتحدث عن اكتشاف كتابة تصويرية غريبة فى قرقميش علي الفرات، وفى بابل وأشور على دجلة، وفى حماة وبوغازكوى وأماكن أخرى، ويقول التقرير الجديد ان هذه الكتابة لابد ان تركها شعب «امبراطورية منسية» في من يسمون بالحيثيون السريان.

وقد حددت بعض الآثار التى عليها هذه الكتابة التصويرية بالاجماع فى القرن السادس ق. م. (٤)، فالحيثيون الذين من المفترض انهم كتبوا هذه الهيروغليفية التصويرية حين كانوا تحت حكم ملوك الاسرة الكلدانية فى بابل، لابد إنه فاتهم ليس فقط ذاكرة الاجيال التالية ولكن أيضا بلاغة معاصريهم.

خنجر و قطعة نقود

مع ان الامبراطورية الكلدانية أنتهت باستيلاء قورش Cyrus على بابل سنة ٥٣٩ ق. م، أو ٥٣٨ ق. م، وتوقفت اللغة الكلدانية عن أن تكون لغة الدولة، فإن الكلدانيين كقبيلة فى كابا دوكيا الجبلية وسيليسيا، وكطبقة من الكهان لم تتوقف عن الوجود. وعلى المرء ان يتوقع آنذاك، ان الكتابة التصويرية الكلدانية لابد إنها استخدمت فى القرون التالية لسقوط بابل. وقد وجد ان الشرائح الرصاصية المكتوبة بالتصويرية من أشور، مشابهة للشرائح المكتوبة بالتعاويذ اليونانية فى القرن الثانى والثالث ق. م، ويتوقع المرء أيضا ان التصويرية الكلدانية استخدمت طوال ما استخدمت اللغة المسمارية. لقد عاشت المسمارية أساسا لأن الفرس تبنوها فى لغتهم كأشكال مقطعية، وآخر نص مسمارى موجود يرجع إلى ٧٥ سنة ميلادية فى حكم الامبراطور فسبسيان.

مباشرة، بعد الاعلان عن اكتشاف «الامبراطورية الحيثية»، لفت انتباه العلماء نقشا بلغتين المسمارية والتصويرية. كتب أ. هـ سايس فى كتبه «الحيثيون: قصة امبراطورية منسية» سنة ١٨٨٨ «خلال شهر من قراءتى بحثى أمام الجمعية الاثرية للكتاب المقدس الذى أعلنت فيه اكتشاف الامبراطورية الحيثية، وعلاقة الفن العجيب لآسيا الصغرى مع قرقميش، وقعت على نقش بلغتين: الحثية والمسمارية، وكان ذلك على النتوء الفضى للملك كاركون ديموس». هذا النتوء كان قرصا منقوشا ملصقا بمقبض خنجر. ويواصل سايس «قراءة الاسطورة المسمارية لم نجد فيها إلا صعوبة قليلة، اعطتنا اسم ولقب الملك الذى كان محفورا عليها تاركو -ديم ملك إرم»، وبالمصادفة اسم تاركو ديم يشبه اسم أمير سيليسيان (قيليقيا) «تاركو نديموس» أو «تاركون ديموس» الذى عاش أيام أغسطس فى السنة الأولى من المسيحية، وقد صادفنا الاسم في اجزاء أخرى من اسيا الصغرى تحت أشكال «تاركونداس» وتاركونديماتوس، ويمكن اعتباره بوضوح نموذج حيثى. ويمكننا ان نخمن ان المنطقة تتكون من سلسلة الجبال المسماة من الكتاب القدماء بأريما التى تقع تحت الآثار الحثية لبلفارداغ، وفى هذه الحالة يكون «تاركونديموس» ملكا لقيليقيا Ciliciau.

منذ بدايات الدراسات الحيثية كان أثر تاركوديم مغريا بالدراسة، لأنه ومنذ وقت طويل كان النقش الوحيد ثنائى اللغة بالتصويرية ولغة أخرى. ولم يحل النقش التصويرى على الاثر، اذ يبدو انه ليس مواز دقيق للنص المسماري، ولكن المؤلف الذى اقتبسنا عنه (سايس) اعتبر ان الخنجر قد يكون ملكا لأمير من قيليقيا اسمه تاكون ديموس، وبعد ذلك ظهر ان هناك أمير بالاسم نفسه عاش فى قيليقيا فى عصر القيصر أغسطس. والسؤال: هل كانت هناك أمة حيثية فى عهد أغسطس؟ سؤال تجنبه الجميع تماما. لايوجد مؤلف رومانى أو مؤرخ أو جغرافى قال شيئا عن الحيثيين مع أن آسيا الصغري كانت تحت السيطرة الرومانية.

فى القرن الاول قبل الميلاد، كان السحرة الكلدانيون والفرس يعتبرون مالكين للمعرفة القديمة السرية. سحر الحروف الكلدانية على مقبض الخنجر ربما صممت لحماية مالكه ضد اعدائه. أحد مبتدعى فكرة الامبراطورية الحيثية، عن غير قصد، قدم دليلا ان الاشكال التصويرية استخدمت حتي بداية العصر المسيحى علي الأقل. المؤلفون اللاحقون الذين تعاملوا مع الكتابة التصويرية للحيثيين، لم يكن هناك إجماع فى آرائهم، بأن هذه الكتابة التي استمرت فى الاستعمال حتي القرن السادس ق.م فى المدن السورية وسط ماسمى «بالحيثيين السوريين» أصبحت غير مستعملة تماما فى اسيا الصغرى حوالى ١٢٠٠ ق.م بسقوط الامبراطورية الحيثية. واذا كانت الكتابة بالكلدانية وليس بالحيثية، فمن المعقول آنذاك ان نتوقع استمرارها فى العصر اليونانى الرومانى فى الشرق الادنى.

نشر جامع عملات سويسرى سنة ١٩٥٠ فى مجلة خاصة بالعملات مقالا يتحدث فيه عن قطعة نقدية عليها كتابة تصويرية وترجمة يونانية بجانبها. لم يتنبه عالم المستشرقين إلى هذه اللقيا حتى سنة ١٩٥٢ حين كتب «هـ ت. يوسيرت» بحثا يلفت الانتباه إلى هذه العملة النقدية ١٠). وفى وقت لاحق، اشترت «تيريسا جويل» المنقبة في «نمرود-داج» فى منطقة كومونى شرق الفرات، قطعة نقدية مشابهة فى «ساموساتا» العاصمة القديمة لمملكة كوموتى (٢) كلتا القطعتان عليها الكتابة التصويرية الحيثية ذاتها وقراءتها جال - لوجال (الحاكم العظيم) وبجانبها باليونانية باسيليوس ميجوس (الحاكم العظيم)، وقد ضرب العملتين

انتيوخ الرابع ملك المملكة الكدمونية، حكم أيام الامبراطور فسبسيان الذى عزله سنة ٧٢ م.

افترض «بوسيرت» ان التصويرية الحيثية قد اختيرت لتزين العملة الكدمونية فى القرن الاول دون معرفة ماذا تعنى هذه العلامات، لأن اللغة والثقافة الحيثية اشياء تنتمى للماضى البعيد. ولايبدو ذلك مقنعا. لماذا اختيرت كلمة حاكم او ملك فى عدد كبير جدا من التصويرية الحيثية التى وجدت على آثار قديمة؟ وهي ترجمة للمصطلح اليونانى «الحاكم العظيم» المطبوعة على العملة نفسها. كانت الحيثية من ماضى سحيق، لكن الكلدانية كانت معروفة للرومان ويعجبون بها بسبب معارفها السرية، كان العالم متشوقا لمعرفة اسرار الماضى. والسحر الفارسى والكلدانى، ولقد ظن ان الكهنة المصريين كانوا حملة مثل هذا التراث.

كان الكلدانيون مجموعة عرقية عاشت خلال العصرين الفارسى والهيللينى فى منطقة بجوار كدمونى، قرب مالاتيا (ملطية) ومواقع أخرى، حيث تخبرنا الآثار عن أيام حكم فيها الكلدانيون الاقليم، وفعليا معظم الشرق القديم.

ومازال الكلدانيون كمجموعة اثنية يحتلون المنطقة أيام سترابو فى العقود الأخيرة قبل المسيحية، والعقدين الأولين من العصر المسيحى. واذن ليس من الضروورى ان ملوك كدمونى، المنحدرين من القادة المقدونيين، يقدرون الاشياء القديمة فقط ويزينون عملاتهم بعلامات كلدانية بجانب الحروف الرومانية.

ان مملكة كدمونى فى اسلوب آثارها نجدها تحتفظ بسمات تبدو إنها تعود إلى عصر الامبراطورية الحيثية، المفترض بأنها انتهت منذ ١٢ قرنا.

وقد كتبت «ثيريساجويل» المنقبة فى نمرود-داج عاصمة الملوك الهيللنيين لكدمونى» باهتمام خاص بالتاريخ الفنى والثقافى للبقايا القديمة لحيثيين، ومقارنة التفاصيل بملامح معروفة من يازيليكايا، وتل هاليف وقرقميش.. مثل التماثيل العملاقة والاسود الحارسة.. وهى تفاصيل تعرض تأثيرا حيثيا لايمكن الخطأ فيه» (٣).

لو كان التأثير الحثى هو فى الواقع كلدانيا، فذلك يفسر بسهولة وجود القبائل الكلدانية فى هذا الاقليم فى وقت متأخر كالقرن الأول قبل الميلاد.

ميتانى

مازالت هناك مملكة أخري، ستتلاشى حين توضع القرون فى ترتيبها الصحيح. شعب من الجنس الهند - اوروبى عاش داخل الاقليم الحثى - شعب ميتانى، وملوك ميتانى كانوا من انشط المراسلين لفترة العمارنة.

بعد كثير من المغازلة من جانب البيت الملكى المصرى فان ملوك ميتانى وافقوا ان يعطوا بناتهم كزوجات إلي الفراعنة (١)، وهناك خطاب كتبه توشراتا (دوشراتا) جزءا منه بالبابلية وجزءا باللغة الميتانية حول الموضوع. هذه الحقيقة تشير إلى الموقع المهم الذى يحتله ملوك ميتانى وبلدهم.

ليس سهلا ان تجد مساحة جغرافية فى شمال سوريا وفى بلاد الرافدين لايشغلها أناس أخرون، ولذا فان اقليم قرقميش كان فيه الحيثيون والاشوريون، وحدد كمكان لشعب ميتانى أيضا. فى القوائم التاريخية فان أسماء هذه الشعوب الثلاثة تكتب فى اتجاهات مختلفة عبر المنطقة نفسها.

مترا، فارونا، اندرا تشمل مدافن عظماء، شعب ميتانى من اصول هند-ايرانية. الميتانيون «لديهم مصطلحات هند-ايرانية فنية فى مفرادتهم» (٢) ولو افترض المرء ان هذا الشعب عاش في اعالى الفرات فعليه ان يعترف بهجرتهم من ايران منذ زمن بعيد. فمن هم شعب ميتانى؟

لقد تاكد ان مملكة ميتانى وشعبها اختفيا فى القرن الثالث عشر او الثانى عشر ق. م. حيث لم يعرف عنهم شىء فى القرون اللاحقة.

وحين أشار الفرعون الليبى سوسنيك مرة أخرى إلى ميتانى ظن ان ذلك مفارقة ٣٠).

فى القرنين ١٥، ١٣ ق. م. لم يكن أحد قد سمع بالميدسيين الهند-ايرانيين، ولكن فى القرنين ٩، ٨ ق. م. ينبغى ان يتوقع ذلك. دور الميدسيين Medes فى التحالف ضد أشور كما صورته حوليات «نابو بولاسار»، ودور ميتانى أيضا فى التحالف ضد أشور كما وصفه مورسيليس ووالده، يبدوان متوافقين.

هناك أمير قتل أباه فى ميتانى، وهرب عاريا تقريبا من بلده. وجاء إلى والد مورسيليس وأصبح زوج شقيقته، ونتج عن الزواج حلف للحرب الوشيكة ضد أشور (٤)، من الوصف المختصر لسقوط أشور فى حوليات نابونيدوس يمكن الاستنتاج أن أمير الميديسيين، حليف الكلدانيين ، كان قاتل ابيه.

الهدف السياسى للملف ضد أشور من خلال زواج أمير ميتانى مروية مطولا فى نصوص بوغازكوى (٥). عند المؤلفين اليونان اتخذت هذه الحقيقة شكل الاسطورة عن نابو بولاسار الذى قبل أميرة ميديانية كعروس لابنه نبوخذ نصر (٦). ولكن لاشىء موجود فى النصوص المسمارية عن زوجة مديانية لنبوخذ نصر (٧).

يسمى هيرودت الجزء الشمالى الغربى لميديا تحت حكم ملوك الفرس بأرض ماتيين Matiene، وكانت هذه الولاية الفارسية قرب جبل أرارات (٨).

نحن نربط الاسم «ماتيين» بالاسم ميتانى - العمارنة وبوغازكوى، ونفترض ان ميتانى هو الاسم الاصلى لميدس Medes وان منطقتهم لم تكن فى اواسط الفرات ولكن جنوب بحر قزوين. غزو ميديا على يد السكيثيين Scythians (اومان -ماندا) (٩)، جاء معه بتدفق دم جديد، وبعد ذلك أطلق اسم ماندا على ميتانى (١٠)، الامة الهجينة أطلق عليها الاسم الهجين لميديا.

ان التحركات الحقيقية لمجموعة الاجناس المختلفة من الشرق إلي الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب للشرق والشمال، حين عبرت المجموعات الهند -اوروبية مصفاة الشعوب السامية لتكون ثقافة مشتركة وصلت أسيا الصغرى، تختلف تماما عما صورها التاريخ عموما.

هوامش الفصل السادس

يازيليكايا: الصخرة المنقوشة

1- By C. Texier, Description de l'Asie-Mineure (paris, 1839), I. 214 ff.

2- W. J. Hamilton, Rescarhes in Asia Minor, pontus and Armenia (London, 1842), I, 393-95.

3- Herodotus, I. 762.

4- H. Barth, "Versuch einer eingehendon Erldärung der Felsscuptuern von Boghaskoei in alten Kappadocien", Monatsbererichte der Könighichen Preussischen Akademic der Wissenschaften)Berlin, 1859), 128-57.

5- See Herdodotus, I, 47. Thales lived perhaps from -640 to -550. The famous eelipse is aseribed to Ma 28,-585 by F. K. Cinzel, Specieller kanon der Sonne unde Mond Finsternisse (Berlin 1800). He quotes ten other suggested dates, from February 3,-626, to March 16, -581.

6- Herodotus, 1I, 74.

7- Ibid.

8- In The the days of Mursilis an eclipes of the sun occurred, which he deseribed in the following words: "While I marched towards the land Azzi, the sun became obscured." See. E> Forrer. "Die astronomische Festlegung" in Forschingen, II (Berlin, 1926), p. 2.

9- J. Fridrich, Vordersiatisch-ägyptische Cesellschaft, XXXIV (1936).

10- Barth, Op. cit., p. 139. Assurbanipal Grandson of Serancherib, was the next to last king of Ninevech.

11- Ibid., p. 129.

12- G. Hirschophisch-historesche Abhanflungen der Königlichen Prcussischen Akademie der Wissenschaften, 1886 (Berlin, 1887), II, 23 ff.

13- O. Puchstein, Pscudohethitische Kunst (Berlin, 1890).

14- Weisen alle jene Bildwerke deutliche kennzeichen ciner vol späteren Entstehungszeit ouf; es its daher ausgeschlesoen, dass sie Schöpfungen der Uagyptischen Cheta Seing könnten.".

"Jedenfalls gibt es weder hier (Asia Minor) noch in Nordsyricn ein Zeugnis dafür, dass die sagenannte hethitische plastik schon in dem 10. Jahrhundert v. chr. exhricitte. Diesc Tatsache scheint mir mit don Ansichten von Sayce unvereinbar zu scin. Für ihn liegt die grösste Machtenfalting des Hethitischen-Reiches und auch die Blüte der Hethitischen kunst fast um cin halbes ??? vol der Zeit, in der die crhaltenon altkommagenischen und kleinastiatischen Denkmäler entsanden sind."

"Es brauch daher die kunst, die diese und Uahnliche Werke hervorgebracht hat, nicht den räsiatischen Hethitern des 2. Jahrtausends v. Chr. zugeschrieben werden, sondern sie ist aks ein merkwurdiges Zeichen der chcmals hochentwickelten kultur der kleinasiatischen und knomager ischen Bevölkerung in der Zeit von 1000-600 v. Chr. zu betrachten", Ibid., pp. 13, 14, 22.

15- Erst damals, d. h. im 7. Jahrhundert v. Chr., assyrisches Wesen in Kappadokien sich eingebürgert und die künstler der Reliefs von Bolghazköi beeibflusst hoben.

Aus derartigen Abweichungen dütfen wir den Scgluss zichen, dass es sich in Boghazköj um einhcimische Cötter hanfelt, deren Bilder erst im 7. Jahrhundert v. Chr. unter dem Einfluss assyrischer Vorstellungen so wie wir

es schen ausgrprägt wordn sind Sie Lassen sich Tatsächlich mit den Cöttern in Ùbereinstimmuung bringen die nach griechisch-römischen Qaellan in spaterer Ziet in Kappadokien verehrt wurden." Ibid., pp. 13, 21.

16- Der archaologischr Hauptgewinn dieser ersten Carbungskampagne war ober die von w?? den Tontafeln entnommene Erkenntnis, dass die alte Stadtlanlage bei Boghaskoi cinst die Haupstade des Hatti-Rciches gewesen ist. Bis in welche zeit sie suruckreichte bestimmte sich durch stuke des Briefwechechsels, den um 1300 v. Chr. Ramses II mit dem Hethsterkönig Hattusil gerhalt hat" O. Puchsteim, Boghaskoi Die Bauwerke (Leipzig, 1912), p. 2 See also Hall, The Ancient History of the Near East, p. 329: It may evantually appear that some of the actual remains at Poghas kyoi are of aften thae thim the archives found by winckler but it is improbable that they can be much later Before the discovery of the archives Hall had been one of the principal opponents of the theory of the Hittite Empire In 1901 he advocated an eighth-century date for the monuments of Bogha kyoi of what he recognized as Assyrian influence on the sculpt?? Five years later he completely reversed his stand See his The Oldest ?? of Creov?? studes of the Mycenean Age (philadephia, 1901), pp. 115, 124, 273.

علم الآثار والآثار الحثيثة

1- R. koldewey Die Hettitische Inschrift Gefunden in der konigsbrug von Babylon am 22 August 1899 (Lipzig, 1900).

2- Written communication from J. D. Hawkins, dated March 18, 1977.

3- P. Meriggi, Monuale di Etco Ceroglifico, II/1 (Rome, 1967), no 13. p. 37 ff.

4- G. and A. Korte Cordion (Berlin, 1904)>

5- Ibid.,. p. 218.

6- Ibid.

7- H. Frankfurtstudies in Early Pottery in the Near East (London 1927), p. 158

see Bittel and II. Cuterbock Bogazkoy" Abhandlungen der prcuaaiadsischez Academic der Wissenschaften philosophische-historische Klasse, 1935?/ 1936).

8- H. H. von 'den Osten and E. Schmidt, The Ahlishar Hauyuk, 7 vols. (Vhicago, 19???

9- Bittel and Guter bock op. cit., 1935. p. 22.

11- C. Watzinger/ Die Denkmäler palastinas, 2 vols. (Leipzig, 1933-35). 1, 5.

12- Bittel and Cuterbock op. cit., p. 26.

13- Herzfeld, "hettitica" in Archaologische Mitteilungen aus Iran, 2 (1930), 132-203 See Bittel Die Eelsbidler von Yazilikaya (Bambrg, 1934).

14- Sayce, J. Garstang, V. Müller.

15- H. H. von der Osten Alberight.

16- V. Christain Archiv fur Orientiforschung, IX (1933), 25ff.

17- F. W. von Bissing, Untersuchungen uber Ziat und Stil der chetitischen reliefs Archiv fur Orientforschung VI (1930-31), 159-201.

18- H. T. Bossert, das hethitische pantheon Archin fur Orintforschung, VII (1932-33), 297.

19- Bittel and Cuterbock Ablhandlyngen der preussischen Akademic der Wissenschaften, 1935, p. 46.

20- Ibid.., p. 58.

21- Ibid., pp. 84 ff.

فى أعماق الظلام

1- H. H. von der Osten Discoveries in Anatolie 1930-31 publieations of the Oriental Institute f the University of Chieago (1933) pp. 9-10.

2- Wright, The Empire of the Hittiles.

3- Von der Osten Discoveries in Antalolia, p. 10.

4- Ibid.

5- H. H. Von der Osten Four Sculptures from Marash, Metropoltian Museum Studies, II, 1929-30 (New York., 1930), 115.

6- W. F. Libby, Radiocarban Deting (Chicago, 1952), p. 71.

7- Von der Osteb Four Sculptures from Marashe p. 1'15.

8- Nach wie vor mussen wir die hethitische Chronologie out die aygptishe oufbaucn Cotze Mittcilungen Vorderasiafisch-agyptische Cesellschaft, XXXVIII (1933), 9.

جورديون

1- E. Akurgal, phrygisch. kunst (ankara, 1955) p. 112. Die phrygishe kunst erst am Begin des 8 Jahrhunderts ???

2- R. S. Young "Cordion Preliminary Reprt 1953". American Journal of Archacology Vol 59 (1955), p. 12.]

3- Ibid.

4- Young The campaign of 1955 at Cordion Preliminary Report American Journal of Archaeology Vol 60 (1956), p. 264.

5- Ibid.

6- R. S. Young Cordion preliminary report 1952 Ancrican Journal of Archacology 59 (1955), p. 13.

العصر المظلم فى الاناضول

1- E. Akurgal Die Kunst Anatoliens (Berlin, 1961), Trotz der eifrigen Spatenforschung der letzten Jahrzchnte die Zeitspanne von 1200-750 fur die meisten Teile des anatolischen raumes noch in volliger dubkelhiet liegt.

2- Demnach scheinen die Kulturraste der Ziet zwischen 1200-750 im unittleren kleinasien Ibid.

3- Auffallend ist fermer dass bis heute on Zentralanctolien nicht nur Keine

Kulturreste irgendeines Volkes zunge gettetn sind, in die Zeit 1200- 750 datiert werden konnen Ibid.

4- Doch ist auch hier Im Suden der Halbinsel) die fruhe eisenzeit d. h. die Periode swischen 1200 und 750 in Dunkelheit genullt Ibid., p. 7.

5- H. Frankfort The Art and Architecture of the Anient (Baltimore 1954), pp. 164-66.

مقبرة قرقميش الذهبية

1- sir Leonard Woolley Carchemish III (london 1952), pp. 25 ff.

2- H. G. Cuterbocke Cardemish Journal of Near Eastern Studies 1954, pp. 113 ff.

3- Ibid.

جدار هيرالد

1- Sir Leonard Woolley Carchemish II (1952), p. 187.

2- Ibid., pp. 190-91.

3- Carchemish Anatolian Studies 22 (1972), pp. 63-86.

4- Building Inscriptions of Carchemish Ibid., p. 106.

بوابة الاسود فى مالاتيا

1- L. Depaporte Malatya Fouilles de la Mission Archéologique Française fascicuule I, La Porte des Lions (Paris 1040), pp. 31-32 et seq.

2- Delaporte Malatya p. 39.

3- H. Frankfort The Art nd Architecture of teh Ancient Orient (Baltimore 1954), p. 129.

4- C. Hanfmann, Remarques stylistiques sure les Reliefs teh Malatyai Ankara Universitesi Dil ve Trih-Cografya No 53 Arkcoloji Engtstitusu mo S. by

Ekrem Akrugal American Journal ofArchacology 51 (1947), p. 329.

5- H. T. Bossert Altaatlien (Berlin, 1942), p. 69.

6- Hanfmann, op. cit., p. 329.

7- W. F. Albright Commant on Recently reviewed publications Bullėtin of the American Schools of Oriental Rescarch 195 (1947), p. 14.

8- O. W. Muscarella "Hasanlu in the Ninth Century B. C., apd Its Relations with Other Cuktyral Centers of the Near Last, American Journal of Archcology 75 (1971), p. 263.

موطنهم الأصلي

1- cenesis 11: 31.

2- C. L. Woolley Ur of the Chaldces (London, 1929).

3- Abraham of Ur Journal of near Eastern Studies 17 (1958), pp. 77-89.

4- Sennacherib's prism, I 37 f.

5- Boris B. Piotrovsky, The Ancient Cwilization of Urartu (New York 1969).

6- M. N. van Loon, Urartion Art: its Distinctuive Trits in the Light of New Excavations (IStanbul 1966), p. 170.

7- Xenophon Anabasis IV ii, 4: V, v, 17, Cyropacdie III, i, 34 Ff. See also Strabi, XII iii, 18-19; Plutarch. Lucullus.

8- Xenophom, Cyrepaedia III, ii.

9- Dursbo, 12: 3, 18-20, 28, 29.

الكتابة السرية الكلدانية

1- DANIEL 1: 4 The view that Daniel is a product of the second centry before this era is shaken, and dougherty (nabovidus and Belshazzar pp. 196-200) demonstrates that of all non-Babylonian records dealing with the situation at the close of the Neo-Babylonian Empire the fifth chapter of Daniel ranks next to cuneform literature in accuracy" and that the total information found in all

available chronologically fixed documents later than the cunciform texts of the sixthe century B. C.... could not have provided the necessary material material for the historical framework of the fifth chapter of Daniel.

2- J. D. Prince Chaldaea" encyclopacdia Britannico (14th ed.), V, 195- It is sometimes supposed that the language of the wise men was non-Semitric Sumerian Compare E. Renan, Histoire geberale et systeme compare des langues semitiquea (7th ed,), p. 65.

3- The Chaldeans as thay do to the most ancient inhabitants of Babylonia Have about the smae positopn among the divisions of the state as that ocupied by the priests of Egypt "Diodorus of Sicily, trans Oldfather, 11, 29.

4- The royal stele of Marash, the stele of Bor The statuse of Palanga all of them with pictographic inscriptions See Von der Osten Four Sculptures, pp. 112-32.

خنجر وقطعة نقود

1- Bossert Wie lange wurden Hethitische Hieroglyphen geschrichen Die Welt des Orientes (1952), pp. 48084. See also C. Kuthman, Schweizer munzblatter, I (1950), pp. 62 f.

2- Private communication.

3- Summary of Archaacological work in Torkey i 1954 Anatolian Studies (1955), P. 14.

ميتاني

1- See Ages in Chaos, Vol. I, P. 313.

2- Albright From the Stone Age to Christianity p. 153.

3- J. A. Wilson Egyptian Histarical texts in Ancient Near Eastern Texts ed. prichard pp. 263-64. Mitanni as a nation had oeased to exist at least four

conturies carlier

4- E. Weidnez ed., Die Staatevertrage in akkadischer Sprache aus dem Archiv von Boghazkoi Stadier Boghazkoi studien, VIII-IX (1923).

5- Kuckenbill, Amercican Journal of Senitic Languages XXXVII (April 1921), Treaty Between Shubbliuliuma of Hatti and Mattiuaza of Mitann 1610211.

6- Alexander Polyhisto in Eusebius Chronclcs I, 29.

7- Dougherty, Nabonidus and Belshazar, p. 55.

8- Kiepert Vortrag uber die geographische Stellung der nordlichen Lander in der phonikisch hebraischen Erdkunde, Monatsberichte der Akademic der Wissenschaften zu berline, 1859 (1860), pp. 191-219.

9- Cadd The Fall of Nineveh; E Meyer (Ceschichte des Alterlums, Vol II, p. 74) regrads Ummen-Manda as a designation for Cimmerians who simultaneously with the Seythians invaded western Asia (Asia Minor).

10- In the royal inscriptions of the Neo-babylonian Empire the Umman-Manda are certainly identical with the Madai Medes< Langdon The Verus Tablets of Ammizaduga, p. 9, note.

الفصل السابع

خـــروج أم منفـــى

نبوخذ نصر
يزور رمسيس الثانى

حين كان إرميا فى المنفى بمصر، وفى عمل رمزى، أخذ حجارة وطمرها " فى الملاط فى اللبن الذى عند بيت فرعون فى تحفنحيس" وتنبأ باسم الله "هانذا ارسل وآخذ نبوخذ نصر ملك بابل... وأضع كرسيه فوق هذه الحجارة التى طمرتها فيبسط ديباجه عليها ويأتى ويضرب أرض مصر" ٤٧: ٧ وما تلاها. وأيضا تنبأ حزقيال فى منفاه ببابل بأن نبوخذ نصر يهزم مصر (٢٩: ٩١٩ فهل تحققت هذه النبوءات؟

"لا نعرف حتى الآن اذا ما كان نبوخذ نصر قد غزا مصر كما تنبأ حزقيال" (١). هذه الكلمات التى كتبت فى أوائل القرن مازالت سارية المفعول وسط دراسى التاريخ.

لقد وجدت آلاف من قطع الطوب الفخارى منقوشة بصلوات نبوخذ نصر، ولكن نقش مفرد منها، ذا محتوى تاريخى، يعزوه الدارسون المعاصرون إلى نبوخذ نصر، على كسرة مشوهة يتحدث عن حملته إلى مصر. هذا النقش فتح مجالا كبيرا للتخمين: "الملوك والحلفاء لقوته.. قادته وجنوده المستأجرين.. تكلم اليهم.. الى جنوده.. الذين كانوا أمام... فى طريقهم إلى... فى السنة ٣٧ من حكم نبوخذ نصر، ملك بابل... ملك مصر جاء ليعارك؟ وس.. ملك مصر... و... فى مدينة بوتوجامان... الاقاليم البعيدة التى فى البحر... الكثيرون ممن كانوا فى مصر... اسلحة وخيل... نادى على... وثق... " (٢).

منذ نشر هذا النقش (٣) فسره الدارسون كاشارة الى غزو نبوخذ

نصـر مـصـر في السنة ٣٧ من حكمـه، وأضـيـفت الى النص المشـوه بـعض التلميحات الى عمل عسكرى. اسم الفرعون بقى الجزء الأخير منه es أو as فأعـيد بناء الجملة هكذا "الاسم الوحـيـد لملك مـصـر فى هذه الفـتـرة الذى ينتهى بـ es أو as إما أحمس أو أماسيس" (٤) وأمـاسيـس حكم مصر من ٥٦٨ - ٥٢٦ ق.م "هذه الكسرة مهمة لأنها القطعة التاريخية الوحيدة التى نملكها من هذه الفترة واختيار الملك قطعة فخار صغيرة ليسجل عليها غزوه لمصر والحلف المتوسطى شئ يبعث على الدهشة ويتطلب تفسيرا" (٥).

وكاتب هذه الكلمات ظن أن الوثيقة كانت خطابا ملكيا.

لكن لا يوجد مرجع يذكر أن نبوخذ نصر قد غزا مصر بالفعل لا فى المصادر المصرية ولا اليونانية، كما أن المصادر العبرية لا تتحدث عن غزو لمصر قام به نبوخذ نصر أو عن تحقيق نبوءات حزقيال وإرميا، مع أنهم ذكروا حقيقة نقل نبوخذ نصر لليهود الذين لجأوا الى مصر، الى بابل.

هناك قـراءة نقدية أكـثـر دقـة للنقش تقول "هذا النقش أسئ فـهـمـه كمرجع لغزو مصر على يد نبوخذ نصر" (٦). ويظهر التفسير أنها رحلة سلمية على الرغم من اصطحاب الملك للمشاة والخيالة.

ما هو معنى الجملة المكسورة الناقصة من النقش؟

الملك اتجه إلى مصر بعد استشارة رجال البلاط وألقى خطابا أمام الجيش، واصطحبه مشاة وخيالة. فرعون ينتهى اسمه بحرف س، ومدينة الجنود اليونان المرتزقة (٧)، ذكرت بأن لها علاقة بهذه الحملة.

مشروعى لإعادة كتابة التاريخ جعلنى أعتقد أن الفرعون خصم نبوخذ نصر هو رمسيس الثانى. فى السنة الرابعة والثلاثين من حكم رمسيس الثانى، جاء حاتوسيليس إلى مصر ليزور الفرعون ويقدم له ابنته كزوجة وأيضا أراد أن يرى عجائب البلاد. هناك لوحة فى مصر تسمى "لوحة الزواج" (٨)، تسجل أن ملك خيتا Kheta جمع جيشه ونبلاءه ثم تكلم لهم شارحا فوائد تقديم ابنته إلى رمسيس ليتزوجها "تلقى جلالته (رمسيس) الكلمة فى القصر بفرح فى قلبه حين سمع مثل هذه الامور الغريبة وغير المتوقعة... فى ذلك الوقت حكام وأمراء البلدان الاجنبية تجمعوا فى حضرة الفرعون، ولكن حين سمعوا أن ملك خاتو العظيم كان قادما تملكتهم الرهبة" "رؤساء البلاد العظام جاءوا وانحنوا متراجعين فى خوف حين

رأوا جلالته ملك خيتا يأتى وسطهم طلبا لود الفرعون".

إنه نبوخذ نصر الذى يقول التلمود إنه يثير الرعب فى قلوب كل الملوك، وإنه طوال حياته كان فى حالة قلق ولم يجرؤ أحد على الابتسام (٩). "لوحة الزواج" المكتوبة بالهيروغليفية مشوهة قليلا، وتقص وصول حاشية الملك العظيمة "جاء جيشه، ابدانهم سليمة وخطواتهم واسعة... ابنة الرئيس الكبير لخيتا تسير أمام الجيش... لجلالته يتبعها خليط من المشاة والخيالة من خيتا، كانوا محاربين ومنظمين... يأكلون ويشربون لايتحاربون... وجها لوجه... فيما بينهم" (١٠).

بمقارنة النص المصرى على "لوحة الزواج" باللوحة المسمارية لنبوخذ نصر، نجد عدة متوازيات، تبدأ بخطاب الملك الحيثى أو نبوخذ نصر لجيشه ونبلاء بلاده، تبع ذلك التوجه إلى مصر مشاة وخيالة، وانتهاء بمقابلة الفرعون وجنوده، ووصف الثقة التى قدمها كل منهما للآخر.

بلاضافة إلى "لوحة الزواج" فى السنة ٣٤ من حكم رمسيس الثانى، هناك بلاطة وجدت فى قبطوس Coptos تشتمل على قائمة لأمراء العائلة الملكية لخاتى الذين اصطحبوا ابنة الملك الأخرى وقدموا إلى مصر للمرة الثانية (١١). فأيهما نظير لنقش نبوخذ نصر: لوحة الزواج أو بلاطة قبطوس؟

نحن نعرف من السيرة الذاتية لحاتوسيليس إنه ظل تابعا لأخيه وابن أخيه مدة سبع سنوات، واثناء هذه الفترة كان ملكا على الأرض العليا (إما أشور أو بعض اجزاء الاناضول"، كما كان قائدا للجيش الغربى (جيش خاتى).

وكما رأينا، كان نبوخذ نصر يحسب سنوات حكمه بطرق مختلفة، فاذا عدت سنوات حكمه من السنة التى أصبح فيها ملكا على بابل، فان السنة ٣٤ من حكم رمسيس الثانى تكون السنة ٢٩ أو ٣٠ من حكم نبوخذ نصر، فيكون النقش الذى كتب فى سنته ٣٧ يعود إلى زيارته الثانية إلى مصر. إما إذا عد سنوات حكمه من يوم وفاة والده - وهو ما فعله فى سنواته الأخيرة - فان السنة ٣٤ من حكم رمسيس الثانى تكون هى السنة ٣٧ من حكم نبوخذ نصر، وفى هذه الحالة فالنقش الذى كتب فى سنته ٣٧ يكون معاصر للوحة الزواج في السنة ٣٤ من حكم رمسيس الثانى.

هناك نقش على المعبد الصخرى فى أبى سمبل فى النوبة، يبين ملك خاتى وهو يحضر ابنته إلى رمسيس الثانى. كانت تقف أمام والدها الذى يرفع ذراعيه بيدين مفتوحتين تعبيرا عن تحية محترمة، كان وجهه حليقا، وخصلة كبيرة من الشعر تتدلى من تحت غطاء رأسه المخروطى الشكل الذى يشبه تاج الاسقف، وهو قبعة فرجنيية.

فى وادى "بريسا" فى لبنان، هناك نحتان لصورة نبوخذ نصر على الصخر، من المفترض أنهما الصورتان الوحيدتان لهذا الملك، عوامل التعرية أثرت على الشكلين لكن من الممكن تبينه بوضوح: ففى أحد النقشين يمسك بحيوان، ربما يقتل أسدا، وفي الثانية يقطع شجرة، ربما شجرة أرز. وهناك نقوش طويلة مقدسة كرست لأفعالة التقية تصاحب الصورتين (١٢). بالنسبة لما يلبسه نبوخذ نصر هنا، فاكثر ما بقى بشكل أفضل والأكثر تميزا قبعته، ومن تحت هذه القبعة الفرجنيية يظهر شعره فى خصلة غزيرة تسقط علي عنقه "غطاء رأسه يشبه تاج الاسقف" (١٣). ومع أن الصورة فى لبنان مشوهة، فان الاجزاء الباقية تقدم تشابها مذهلا بصورة "ملك الحيثيين" فى أبى سمبل، خاصة وأن الصورتين تبينان الملك من بروفيل واحد، طريقة قص الشعر تتطابق فى الصورتين بشكل غير عادى.

قارنا الحوليات التاريخية، وقارنا أيضا الطبيعة العقلية للشخصيتين، والآن نقارن الصورتين الطبيعيتين لملك الكلدانيين وملك الحيثيين اللذين كانا شخصا واحدا.

قمينة الطوب فى تلبانحيث

بمناسبة زيارته لمصر، أتى نبوخذ نصر على ذكر "بوتويامان" مستعمرة اليونانيين. كان الاسم العبرى لمدينة الجنود اليونانيين فى مصر أيام نبوخذ نصر "تل بنحيت". ولكى نتتبعه في زيارته إلى رمسيس الثانى يجب أن نتقدم إلى تل بنحيت. كانت مدينة حدودية شرق الدلتا (١)، وكان فيها قصر ملكى (إرميا ٤٣: ٩) وكانت محصنة، واسمها اليونانى "دافناي" وهي اليوم تل دفينة (٢). وقد اختير المكان ليحمى

الحدود بين مصر وفلسطين (هيرودت)، وقد كشفت الحفريات هناك عن كميات كبيرة من الاسلحة اليونانية والادوات والآنية الخزفية (٣)٩. كذلك كشف عن اساسات معبد بناه رمسيس الثانى، كما وجد فى الخرائب تمثال لرمسيس الثانى عليه خرطوشه (٤). والمفروض أن "دافناي" بنيت فى عصر الاسرة السادسة والعشرين حوالى ٦٦٤ ق.م وظلت قائمة حتى ٥٩٥ ق.م، وقد فوجئ المنقبون بالمعبد الذي بناه رمسيس الثانى (٥).

ولقد دهش "فلندربترى" المنقب هناك، من وجود الطوب الاحمر المحروق فى المكان وفى قرية "نبيشة" المجاورة، فقد كانت مواد البناء فى مصر من الحجر أوالطوب اللبن النيء المجفف في الشمس، وهو عمل مازال يستخدم في مصر حتى اليوم. لذا كان أمر غير عادى وجود الطوب المحروق في تلك الفترة، كما وجد "بترى" فى المقابر القليلة التى فتحها تمثالا يحمل خرطوش رمسيس الثانى، "وجدت بعض الكسر من الجرانيت المنقوش تتفق مع فترة الرعامسة، ولاستخدام الطوب الأحمر فى هذه المقبرة وفى مقبرة تالية أهمية كبيرة حيث لم أر طوبا أحمر يستخدم في مصر فى فترة مبكرة أقدم من عصر قسطنطين، والآن نراه في دلتا مصر فى عصر رمسيس" (٦). كما كشف علماء الآثار فى تل بنحيت (دفناى) عن أساسات مبنى بنى بالطوب المحروق "البقايا القديمة التي وجدت هنا جزء من اساسات مبنى من الطوب الأحمر المحروق" (٧). وحيث أن هذا الطوب يتطابق مع طوب المقابر، فالنتيجة التى نخرج بها أن بعض المبانى قد انشئت بالطوب المحروق فى عهد الرعامسة.

لكن هناك حقيقة: أن الطوب المحروق لم يكتشف في مصر في عصر ما قبل الرعامسة ولا بعده حتى عصر الامبراطور المسيحى قسطنطين.

فمن أين جاء إلى مصر هذا الابتكار في ذلك العهد المبكر؟

كتب "ر. كولديوى" المنقب فى قصر نبوخذ نصر فى بابل، في الصفحة الاولي من تقريره "أعاد نبوخذ نصر بناء قصر والده مستبدلا طوب الجدران النيء بالطوب المحروق" (٨). وفى وصفه للملامح المميزة لبناية نبوخذ نصر، أكد ثانية: "الطوب الأحمر المحروق جيدا لنبوخذ نصر". صناعة الطوب المحروق من الواضح أنها صناعة انتقلت من بابل إلى مصر فى زمن نبوخذ نصر.

ولدينا أيضا شهادة إرميا، إنه في زمنه كانت هناك قمائن طوب في دفناى - تل بنحيت "أخذ حجارة وطمرها في الملاط في اللبن عند بيت فرعون في تخفنحيس" (٤٣: ٩). وحيث إنه لم يكتشف طوب محروق في مصر قبل عصر المسيحية، ماعدا ذلك الذي في عهد الرعامسة، فعلى أولئك الذين يتقيدون بالتاريخ التقليدي أن يفترضوا أن القمائن ظلت سبعة قرون بعد عصر رمسيس وحتى عصر إرميا لم تستخدم، في الوقت نفسه الذي اختفى فيه الطوب الذي صنع في عصر إرميا!.

زواج رمسيس

زيارة نبوخذ نصر إلى مصر لم تسجلها فقط الصور واللوحات التي ذكرناها، ولكن أيضا تشهد عليها اختامه الملكية في مصر. فهناك "ثلاث اسطوانات من التراكوتا - الطين النضيج - تحمل نقشا لنبوخذ نصر - نص عادي يتحدث عن انشاءاته في بابل. ولقد قيل أنها جاءت من برزخ السويس وأنها تنتمي إلى مكان ما حيث أقام نبوخذ نصر عرشه ونصب خيمته الملكية" فقد سار على طول الطريق السوري وكانت "دفناى" هي المكان الوحيد الذي توقف فيه في اقليم برزخ السويس "وكل النتائج تقول أنها جاءت من دفينة (دفناى) وهي ذكرى لبناء هناك" (١).، بكلمات أخرى هذه الاختام اشارة إلى زيارة نبوخذ نصر إلى دفناى. كذلك قدم رمسيس الثاني (نيخو) بدوره تحيته لنبوخذ نصر بزيارته في بابل. لوحة "بنتريش" لرمسيس الثاني تخبرنا "لو.. جلالته كان في نهارين (أو بلاد بين النهرين) حسب عادته الملكية"، ومن الممتع تتبع آثار زياراته إلى بابل.

هناك نقش على مبنى لنبوخذ نصر يذكر بيت نيكي أو نيخو خارج أسوار بابل (٢) من المحتمل إنه كان البيت الذي ينزل فيه العدو السابق وزوج البنت الآن، ويمكث فيه طوال زيارته لبابل، والمكان ينتظر من ينقب فيه.

حين ولدت ابنة "رئيس الحيثيين الكبير" بنتا، أرسل نبوخذ نصر خطابا إلى رمسيس الثاني يطلب ارسال البنت إليه ليضفي عليها الصفة

الملكية (٢). فقد كان نبوخذ نصر مهتما ألا تعيش حفيدته حياة الأميرة الصغيرة فى مصر، فقد تزوج رمسيس الثانى ابنة نبوخذ نصر حين كان رجلا فى منتصف العمر، ومع أنها أصبحت الزوجة الرئيسية فقد كانت له زوجة رئيسية سابقة ولدت له أطفالا، وهذه الزوجة الرئيسية السابقة تراسلت مع "أختها زوجة رئيس الحيثيين"، وهناك نسخ من هذه الرسائل محفوظة في سجلات بوغازكوى (٤).

نبوءة إرميا بأن ملك بابل سينشر جناحه الملكى على مدخل بيت فرعون، تحقق فى تحبنحيث، وإذا كانت النبوءة حدثت فى عهد رمسيس الثانى وليس خلفه، فان إرميا تنبأ بالمكان الذى سيقيم فيه نبوخذ نصر عرشه بدقة. ولكن لو كانت نبوءته قد تمت فى عهد مرنبتاح خليفة رمسيس الثانى، فان إرميا يكون قد عرف بالفعل المكان الذى نصب فيه نبوخذ نصر عرشه مرتين من قبل.

الجزء الثانى من النبوءة يقول "وعندما يأتى سيضرب أرض مصر" لم تتحقق قط كما نعرف من الوثائق التاريخية، ولكنها تحققت بقدر ما يخص اليهود فى مصر فيما يتعلق بنص تسليم اللاجئين الذى جاء بالمعاهدة.

وسنتتبع الآن قليلا بقايا هذا الشعب الذى سحق فيما بن نبوخذ نصر ورمسيس الثانى، حين كانا فى الحرب ثم حين أصبحا صديقين.

لوحة اسرائيل زمن مرنبتاح وأحزان إرميا

القرون الثمانية من الحياة المستقرة التى عاشتها يهوذا فى أرضها، أتت على نهايتها، والناس الذين فروا من عبودية مصر فى فجر هذه الفترة يسحبون الآن إلى المنفى فى بابل. "إرميا" الذى ربط بالسلاسل مع الآخرين وسيق من القدس إلى ربلة حيث حرروه هناك، رفض أن يقبل دعوة بالذهاب إلى بابل كرجل حر، ولكنه رجع إلى يهوذا حيث ترك العدو البابلى بعض الفلاحين المعوزين. (١). وعين جداليا بن أحيكام حاكما على اليهود الباقين في فلسطين، وبدأ اليهود الذين سيقوا إلى موآب وآمون وأدوم بالعودة إلى "جداليا" الذى كان فى بلدة "مصفاة". لم يهتم جداليا

بتحذيرات أصدقائه، وفاجأهم المتمردون الذين حركهم ملك عامون «بعاليس» وقتلوه مع أتباعه ومع الكلدانيين الموجودين هناك. وخوفا من انتقام رهيب على يد نبوخذ نصر، قرر اخر اليهود فى فلسطين الرحيل إلى مصر. "إلى أرض مصر نذهب، حيث لا نرى حربا ولا نسمع صوت بوق ولا نجوع للخبز وهناك نسكن" (إرميا ٤٢: ١٤).

اليهود المهاجرون الذين كانوا "فى موآب وبين العمونيين وفي أدوم" والذين "عادوا من كل الاماكن التى طوحوا اليها" (إرميا ٤٠: ١١، ١٢) وجاءوا إلى "مصفاة" ليهربوا ثانية إلى مصر، حيث نظر اليهم كمهاجرين.

وجدت اجزاء من خطاب من مسؤول على الحدود المصرية تقول "انتهينا من السماح لقبائل "شوسو من أدوم" من عبور حصن "منبتاح هو تيفيم" التى فى "تجيكوتوم" كى نثبتهم ونثبت قطعانهم في المرعى الجيد المزدهر فى حياة الفرعون حيث الصحة والشمس المفيدة لكل أرض" (٢).

"فجاءوا إلى مصر لأنهم لم يستمعوا لصوت الرب، وأتو إلى تحفنحيس" إرميا ٤٣: ٧ "وفى تحفنحيس كان هناك بيت الفرعون" (إرميا ٤٣: ٩). كانت المدينة قلعة حدودية شرق الدلتا، وقد وجد "بترى" هناك قصرا ملكيا. "تجيكو" هذه البلدة الحدودية علي الطريق الرئيسى من سوريا وفلسطين، حددها الكتاب المقدس ببلدة "تحفنحيس" وتعرف عند المؤلفين اليونان باسم "دافناى".

الفرعون الذى يقرأ اسمه "عمون مرنبتاح هو تفى (ر) مع" الذى تبع رمسيس الثانى فى الحكم، هو الفرعون حوفرا عند إرميا، قراءة "هوتفى (ر) مع" ربما أصبحت حوفرا مع، ومن الواضح أن الحرف "ت" لا ينطق (امينوحتب هي امينونس فى اليونانية) وهكذا «هوتفير» تكتب بالعبرية «حوفرع» وفى اليونانية أبرى.

قال إرميا وهو في المنفى بمصر عن هذا الفرعون "هكذا قال الرب. هأنذا ادفع "حفرع" ملك مصر ليد أعدائه كما دفعت "صدقيا" ملك يهوذا ليد ملك بابل عدوه" (٤٤: ٣٠).

الشكل اليونانى لاسم حفرع هو ابرى، وحسب إرميا وهيرودت فان حفرع (ابرى) تبع نيخو (نيكوس) مباشرة (٤).

أحد الباحثين (٥) خمن أن رسالة الموظف في القلعة فى "تاخ" المتعلقة

بدخول المهاجرين إلى مصر، كانت وصفا لقدوم يعقوب وابناءه إلى أرض فرعون. هذا بالطبع، اذا لم يكن مرنبتاح هو فرعون الخروج كما هو مقبول من كل الدارسين الان. لكن كم كانت المسافة شاسعة.

فلم يكن مرنبتاح فرعون يوسف أو فرعون الخروج ولكنه فرعون المنفى. تاريخ اسرائيل الطويل، المكوث في مصر، التوهان في الصحراء، وعصر القضاة والملوك وما تبعها حتى المنفى.

لكن لماذا يعزى إلى مرنبتاح دور فرعون الخروج؟

ذلك أساسا بسبب ما يسمى بلوحة اسرائيل وجدها بترى سنة ١٨٩٦. هذه اللوحة يجب أن تسمى "اللوحة الليبية" لأنها تحتوى على وصف للحملة الليبية، ولكن يوجد عليها ١٢ سطرا اشتق منهم اسمها "لوحة اسرائيل" (٦).

ولفهم أفضل للمقاطع الأخيرة من هذه اللوحة من الضرورى تحديد الروح التى كتبت بها. يسمى الملك في هذا النقش" الشمس، طارد العاصفة التى كانت فوق مصر، فسمح لها برؤية الشمس، وأزال جبال النحاس عن عنق الناس...".

والاسطر التى تسبق ذكر اسرائيل هى: "يروح المرء ويجئ بالغناء، ولا يوجد حزن للناس الذين فى الحداد، واستقرت المدن جديدة ثانية، ومن يحرث الحصاد سياكل، والتفت "رع" إلى مصر، وقد ولد مرنبتاح ليكون حاميها". أما الاسطر الأخيرة فهى "كل الملوك أسقطوا، قائلين "سلاما"، ولم يرفع أحد رأسه وسط الأقواس التسعة. تلفت "تيحينو"، وهدأت خيتا، ونُهبت بيكانان، وأخذت عسقلان بكارثه، واستولى على "جيزر"، ويانوعام أضحت كأنها لم توجد، اسرائيل خربت ونسلها لا يوجد. وأصبحت فلسطين أرملة مصر. واتحدت كل البلاد وهدأت، وكل متمرد ارتبط بالملك مرنبتاح، أعطى الحياة كل يوم مثل رع" السطر الأخير "اسرائيل خربت، ونسلها لا يوجد" أوحى بأدبيات شاسعة، فلأول مرة يذكر اسم اسرائيل كتابة من قبل أن توضع الكتابة العبرية التراثية فى حروف مكتوبة (٧). وتأكد أنها ليست الاقدم فقط بل إنها الذكر الوحيد لا سرائيل فى السجلات المصرية الموجودة. وفسرت "ونسلها لا يوجد" أكثر من مرة كاشارة إلى ذبح الاطفال الذكور من الاسرائيليين على يد المصريين، واعتبر هذا التفسير جهدا

للدارسين الذين تمسكوا بالرأى القائل أن هذا السطر في النقش يصف هزيمة شعب اسرائيل الفار من مصر إلى فلسطين على يد الفرعون. لقد تأكد أن كلمة "اسرائيل" كتبت دون أية علامة مصاحبة لأناس مستقرين أو لمكان ما. مجلدات من الجدل والنقاش تكدست لتشد الانتباه لهذا السطر الوحيد (٨). كلمات قليلة بدأت التاريخ المكتوب "للناس الخالدين" وهى أيضا بالنسبة لدارسين كثيرين تؤلف بداية حساب زمن الخروج.

وما السبب الذى جعل البعض يؤكد أن لوحة مرنبتاح وثيقة تتعلق بخروج الاسرائيلين من مصر؟ الأنه الفرعون الذى نهب فلسطين؟

تاريخ الخروج لا يعرف نهبا لفلسطين على يد فرعون الخروج. هل لأنه هزم الاسرائيليين؟ تاريخ الخروج لا يعرف هزيمة للاسرائيليين على يد الفرعون؟ بل يعرف فقط كارثة أخذت العدو المصرى. واذا كان السطر الغامض يعنى أن مرنبتاح تغلب على الاسرائيليين فذلك دليل ضد وليس مع تطابق مرنبتاح مع فرعون الخروج (٩).

وتاريخ الخروج لا يعرف أن مصر كانت مهددة من الحيثيين ولا إنها استرضتهم، مدينة "بكانون" التى وجدت فى النقش، ليست موجودة في القائمة المفصلة من سفر يشوع التى تعدد المدن الفلسطينية التى وجدها الاسرائيليون فى كنعان بعد تركهم مصر (١٠).

كذلك فان الحقيقة التى كشفتها الوثيقة المصرية التى كتبها مسؤول الحدود لمرنبتاح لسماحه للساميين دخول مصر في أيامه، لا تتوافق مع حقيقة الخروج.

"وجود اسم شعب اسرائيل هنا (فى النقش) مدهش بأية طريقة. وهو الاسم الوحيد لاسرائيل علي أية وثيقة قبل أربعة قرون لأى ذكر لهم فى المسمارية. وقد قاد إلي معلومات، كانت خارج حدود معرفتنا، التى تحددت بأنه لم يكن هناك اسرائيليون فى فلسطين بين الذهاب إلى مصر ودخول أريحا، بينما هنا ذكر لاسرائيليين فى نيوامو (نيوعام) فى شمال فلسطين، فى وقت كان يجب أن تكون اسرائيل التاريخية خارج فلسطين. لكن مسألة الخروج صعبت الأمر بالهدوء الواضح للحدود الذى اظهرته يوميات الحدود.. الذى يبدو منه أن المصريين كانوا يرحبون بقباءل سامية.. فقط قبل سنوات قليلة من الخروج" (١١).

"لوحة اسرائيل" لا تحتوى شيئا يطابق مرنبتاح بفرعون الخروج، ما هو أذن المعنى الحقيقى للأسطر التى جاءت فى "لوحة اسرائيل" أو اللوحة الليبية؟

وقد أكدت السطور على وضع مصر الآمن بالمقارنة بخراب فلسطين، وهي الفكرة نفسها التى عبرعنها سفر إرميا (٤٢: ١٤) على لسان من قرروا الهروب إلى مصر "فى مصر لن نرى حربا أو نجوع للخبز". وتحدث إرميا فى منفاه فى مصر إلى شعبه عن أرض يهوذا واسرائيل بتعبيرات مشابهة كتلك التى لمرنبتاح: "مدن يهودا - وشوارع أورشليم صارت خربة مقفرة" (٤٤: ٦)

"صارت أرضكم خربة ودهشا ولعنة بلا ساكن كهذا اليوم" (٤٤: ٢٢)

قال إرميا أن شوارع القدس كانت خربة، واستعمل مرنبتاح التعبير نفسه. بل أن إرميا استعمل الاستعارة نفسها كمرنبتاح الذى تحدث عن فلسطين "كأرملة"، فأحزان إرميا تفتتح بالكلمات التالية "كيف تجلس المدينة وحيدة. والتى كانت مملوءة بالناس! كيف أصبحت كالأرملة!"

وتحدث "إرميا" عن مصير الشاطئ الفلسطينى "أتى الصلع على غزة، أهلكت أشكلون مع بقية وطاتهم" (٤٧: ٧)، هذه الكلمات تذكرنا "بأخذت عسقلان" فى اللوحة، ولم يقل إرميا اذا ما كانت كلماته الخاصة بعسقلان تعود إلى الخراب الذى تسبب من مسيرة نيخو (رمسيس الثانى) كما فهمنا من النقش الغائر لرمسيس الثانى، أو يعود لا فساد بعض جنود حفرع (مرنبتاح).؟

والسؤال هو اذا ما كانت اسطر اللوحة الليبية تعود إلى حملة قام بها مرنبتاح فى سوريا وفلسطين؟ بعض الدراسين أجاب بالايجاب والبعض بالنفى (١٢). الفئة الأخيرة تزعم أن حملة على سوريا وانتصار هناك لا يمكن أن يذكر فى كلمات قليلة غامضة، ولكن يخلد بطريقة مناسبة لمرنبتاح كما صور تخليده لذكرى انتصاراته الاولى فى حملته الليبية.

فى وسط هذا الجدل، تقدم ما كتبه "هيرودت" عن حملة منتصرة قام بها "ابرى" ضد الساحل السورى الفلسطينى قبل حملته الليبية (١٣). كذلك يعود "ديودورس" الصقلى الى "ابرى" الذى أرعب الساحل الفينيقى قائلا "إنه استولى على صيدا.. وهكذا أرعب المدن الفينيقية الأخرى التى

ضمن خضوعها" (١٤).

لوكانت هذه حملة عادية، لاحتاجت الى موافقة نبوخذ نصر، فالاخير لا يهتم كثيرا ببلد قد خربت وفرغت من سكانها، فالوقت الوحيد الذى كان فيه مرنبتاح – ابرى يستطيع أن يتصرف على مسؤوليته فى فلسطين كان أثناء الفترة التى كان فيها نبوخذ نصر مشوش عقليا. فبعض قوات ابرى (مرنبتاح) استغلت الفوضى فى الأرض الخربة، وأغارت على جزير وعسقلان والمدن الأخرى فى جنوب فلسطين.

العمونيون (١٥) والادوميون (١٦) وقد كانوا جوعى وطامعين، نزلوا القرى غير المحصنة والمدن التى بلا أسوار أو بوابات، وافترسوا بقاياها، وربما كانت معهم عصابات مصرية. ولقد أرضيت الامبراطورية الكلدانية - البابلية (خيتا) بالمعاهدة وربط النسب، وهذا هوالسبب بأن شعرت مصر بأن جبال النحاس أزيحت عن كتفها. تنبأ إرميا عبثا أن ملك بابل سيأتى ويضرب أرض مصر، لعنة مصر لم يحن وقتها بعد ولكن أيضا لم تتحقق اللعنة على اسرائيل فى نبوءة مرنبتاح "يا اسرائيل لأنى هأنذا أخلصك من بعيد ونسلك من أرض أسرهم..." إرميا (٤٦: ٢٧). وقال إرميا حين مر الشر الذى تنبأ به، وتوجه نحو مباركة الشعب "نسل اسرائيل يكف أيضا من أن يكون أمة أمامى كل الايام" (إرميا ٣١: ٣٦).

الفترة نفسها، الاحداث نفسها، حركت مرنبتاح وإرميا إلى قول تعبيرات مشابهة عن "أرض خربة" ومدن أصبحت "كأنها لم تكن"، مدن على ساحل فلسطين "أخذت بقوة" وأرض أصبحت "أرملة" "ونسل اسرائيل"، اوراق إرميا ولوحة مرنبتاح يلقيان الضوء على الوضع السياسى فى سبعينات القرن السادس ق.م للبلدان التى على الساحل الشرقى للبحر المتوسط.

الحملة الليبية

بعد تحليل الفقرة الموجودة فى لوحة مرنبتاح (حوفرع) الذى يشير إرميا اليه بالفرعون "حفرع"، من المهم أن نقارن نقش مرنبتاح الأثرى عن حربه الليبية بما يقوله هيرودت عن ابرى (حفرع).

أعلمتنا المصادر المصرية أن مرنبتاح كان "يواجه أوضاعا صعبة على حدوده الليبية. كان الليبيون ولمدة أربع سنوات يندفعون ويحتلون الدلتا الغربية... ووصل ضغطهم حتى بوابات ممفيس. لقد أقاموا تحالفا مع شعوب البحر فى البحر المتوسط و يصبون الآن فى الدلتا قادمين من سردينيا فى الغرب إلى آسيا الصغرى فى الشرق.

والاشارة إلى هذه الشعوب فى هذه الوثائق هى أبكر ظهور للأوربيين، وكان ذلك دائما محور اهتمام ودراسات كثيرة (١). وقد اكتشف نقش حديث لمرنبتاح فى هليوبولس يقول "السنة الخامسة للحكم، الشهر الثانى من الصيف، جاء من يقول للملك" رئيس الليبين الخسيس.. وكل أرض أجنبية معه يخترقون وينتهكون أرض مصر، فأمر جلالته بأن يقوم جيشه ضدهم" (٢). وقد عدد نقش الكرنك العظيم أعداء مرنبتاح "١ كويش، يتريش، لوكا، شيردين، شيكيليش، شماليون أتون من كل البلاد".

كانت الشعوب الاوربية من سردينيافى الجزء الغربى من المتوسط إلى آسيا الصغرى فى الشرق تعرف بالاسماء التالية: الاتروسكيين (تيريش) (٣) السردنيين (شيردين، ساردان) وفسرت أخيرا بشعب ساردیس، لوكياتر (لوكا)، الصقليين (شيكليش) وقد تجمعوا فى سيرنيايكا (شرق ليبيا) واشتركوا فى الغزو عبر الحدود الغربية لمصر.

وكان نبأ مثيرا حين ترجمت نقوش مرنبتاح سنة ١٨٦٠م وفسرت بالشكل الذى ذكرناه وسمى تدفق هذه الشعوب بغزو مصر بواسطة الأوروبيين فى القرن ١٣ ق.م لكن اشتراك شعوب شمال المتوسط في الحروب فى ليبيا ومصر فى ق ١٣ ق.م قبل حصار طروادة وقبل عصر هومر بحوالى ٥٠٠ سنة، اعتبر في الحقيقة الاكثر غرابة واستثنائية، وأصبح مسألة فى غاية الاهمية لكل ميادين الدراسات الهللينية.

المصادر اليونانية لا تعرف شيئا عن غزو الهللينين لمصر أو لأى شعب آخر فى القرن ١٣ ق.م. ومن المسلم به الآن أن ما خفى عن أعين المؤرخين والشعراء كان محفوظا فى النقوش المصرية، وكان لابد من اخراجه من بئر علم المصريات. لكن كيف يمكن تفسير الجيوش الاوروبية فى مصر فى القرن ١٣ ق.م؟

أو كيف يمكن فهم هيرودت الذى كتب أن الملك "ابرى" (فى القرن

السادس ق.م) كان أول مصرى يحارب اليونان، وأن بسماتيك (من جيلين أوثلاثة ابكر فى القرن ٧ ق.م) كان الاول الذى يسمح لقطاع الطرق اليونانيين بالمجئ إلى الاراضى المصرية، وادخلهم فى خدمته، وإنه قبل بسماتيك لم يعرف المصريون اليونانيين؟

الاشارة إلى غزاة أتين من الساحل الشمالى للمتوسط وجزره فى نقوش مرنبتاح، والاشارات إلى المحاربين الساردين فى وثائق مبكرة - لسيتى ورمسيس الثانى - احبط كل محاولة للتفسير وشوش الدراسات الهللينية.

الباحثون في هذه الدراسات رفضوا فى البداية تصديق أن تفسيرا كهذا للنصوص المصرية يمكن أن يكون صحيحا (٤)، ولكن رويدا رويدا رأوا ضرورة مراجعة أفكارهم. وتنوسى الشك القديم، ومن التكرار نما الأقتناع، وهكذا فان الكتب التى تتعامل مع العصور الهيللينية تحتوى تسجيلات "لأول ظهور للشعوب الاوروبية" فى وثائق التاريخ العالمى. ويُعتبر، الآن، أن التاريخ المبكر لليونان قد ألقى الضوء عليه بمادة مكتوبة من مصريين معاصريين لتلك الفترة والذى لم يعرفه هيرودت أو تيوكيديدس أصبح كتابا مفتوحا.

كانت ليبيا شوكة في جنب مرنبتاح، فذهب مع جيشه "ليتغلب على أرض ليبيا" "دبر الليبيون أشياء شريرة ليفعلوها بمصر" نقوش الكرنك.

رئيس ليبيا جاء ليغزو اسوار ممفيس ذات السيادة (لوحة اسرائيل) ثم نقش الكرنك، لوحة القاهرة ولوحة اتريبس ونقش من هليوبولس.

تصف لوحة اسرائيل هذه الحرب مع الليبيين ولكن في مرحلتها الاولى فقط. وكتب مرنبتاح "التفاخر الذى تلفظ به رئيس ليبيا أصبح لاشئ". لكن الحرب لم تكن قد انتهت حين نقشت هذه الذكريات. كل نقش احتوى أية مادة تاريخية من زمن مرنبتاح اهتم بالحملة الليبية. حين استطاع اقفال طريق الليبيين الذين عبروا الحدود وحتى هزيمة الليبيين المتقدمين كانت مازال حربا دفاعية. تتحدث لوحة القاهرة باسم الاله "تسبب فى قطع رؤساء ليبيا، وأرجعت غزوهم (٥). فى الاسلوب العادى المنمق، فان "لوحة اتريبس" (٦)، تسجل أن "تبعثرت العائلات الليبية على الحواجز مثل الفئران". قبل هذه المعركة نجح الليبيون بالفعل فى احتلال أرض

مصرية والحصول على غنائم، وهذا ماعناه التعبير المجازى "سلمه (رئيس الليبيين) إلى يد مرنبتاح حتي يجعله يتقيأ ما ابتلعه مثل التمساح". وحتى تلك اللحظة، كانت امكانية تحقيق نصر مصرى حاسم جيدة، حصر الفرعون عددا من الغزاة، وحملوا على الحمير وأحضروا من ميدان المعركة إلى العاصمة "كل رجل كبير السن يقول لابنه: الخسارة على ليبيا". ومع ذلك فان رئيس الليبين نجح في التراجع دون أذى "رئيس الليبين البائس المهزوم هرب بفضل الليل فقط". ولم ينته الصراع، غزو الليبيين ومحاولات ردهم تطور إلى حرب طويلة بنجاحات متذبذبة. في السنوات اللاحقة كانت لديه اسباب قليلة ليخلد نصره العسكرى، ولم يكشف ماذا كانت نتيجة هذه الحملات التى طالت، وكتب الفرعون عن نفسه: إنه وجد ليكون قدر موت الليبين، ولكن مايهم هو النتيجة، ولم يذكر أويكشف ماذا حدث لقوات البحر المتوسط الشمالية التى القى ذكرها التشوش على التاريخ.

سأقارن محتويات النقوش التى اقتبستها من مرنبتاح، بما كتبه هيرودت فى معالجته التاريخية لأبريس.

فى كتابة الثانى عن التاريخ جاءت الفقرة التالية للمؤرخ اليونانى "ارسل ابريس جيشا كبيرا ضد سرين Cyrene ولقى هزيمة كبيرة"، فى كتابة الرابع قدم هيرودت تفصيلا كاملا للحرب، وبأنها وقعت في القرن السادس ق.م والذى عجل بحدوثها هجرة اليونانيين الى سيرين فى شرق ليبيا. "الكاهنة البيثينية Pythian نصحت كل اليونانيين نتيجة هاتف الهى بأن السيرنيين دعوهم واعدين بتقسيم جديد للأرض وكان الهاتف: "من يتأخر فى الذهاب حتي يتم تقسيم كل الحقول تماما فى الأرض الليبية فإنه سيندم" وهكذا تجمع حشد كبير فى "سيرين" واقتطعوا اجزاءاً كبيرة من الأرض من أراضى الليبين المجاورين" (٧). ووقع المستوطنون الجدد فى صراع مع السكان الجيران وتورطت مصر في الصراع "حشد أبرى" جمهرة كبيرة من المصريين وأرسلها ضد سيرين، وخرج السيرينيون إلى أراسا ونبع تيستس، وهناك تعاركوا مع المصريين وتغلبوا عليهم، لأن المصريين لم تكن لهم معرفة بعد باليونانيين واحتقروا عددهم، وقد دمروا تماما بينما بعض منهم رجع إلى مصر" (٨).

بعد هذه الهزيمة، تمرد جيش "ابرى". ولقد خلد مرنبتاح - ابرى انتصارته فى المرحلة الاولى من الحملة الليبية في عدد من النقوش يوجد منها خمسة. ولكن عن نهاية البائسة لم يستطع أن يكتب شيئا، ومع ذلك فان هيرودت وصف ذلك. فقد تمرد الجيش المصرى على الجبهة الليبية، وارسل أماسيس (أحمس) القائد ليتغلب على المتمردين. وبدلا من ذلك أقنع الجيش أحمس بأن يكون ملكا. فأرسل الفرعون وزيره ليقتل أحمس، فأجابه أحمس بأنه سيعود برجاله، فقطع الفرعون أنف وأذنى وزيره لاحضاره هذه الرسالة. وبسبب هذا العمل أصبح سكان العاصمة فى وضع عداء تجاه الملك. وكان على "ابرى" أن يحارب جيشه. ولم يعد يستطع الاعتماد على حراسه الشخصيين من الكاريين والايونيين المنحدرين من المرتزقة المقيمين في مصر من عصر سيتى (بسماتيك) ورمسيس الثانى (نيخو). "فسلح حرسه وسار ضد المصريين وكان معه حراسه من الكاريين والايونيين.. ثلاثين ألف مهم" (٩). وحدثت المعركة عند مونيفيس (ممفيس) (١٠) وهزم "ابرى" وكانت هذه نهاية الحرب، وقد كانت الحملة الليبية ذات مصير سيئ لأبرى.

وأسر أماسيس (أحمس) ابرى واحتفظ به فى قصره، ولكن الجماهير طالبت بصخب بحياته، وشنقه الرعاع (١١). وتحققت نبوءة إرميا بأن الفرعون حفرع سيسلم لأيدى أعدائه (٤٤: ٣٠) كما وقع صدقيا، ملك يهوذا، بأيدى أعدائه. ولم يجرد "أماسيس" أسيره من ملابسه الملكية وتاجه، وقدم له احترامات ملكية بعد وفاته وحنط جسده ووسده ضريح الدفن.

فى جمجة مومياء مرنبتاح هناك ثقب بآلة حادة (١٢) ولتفسير هذا الجرح، خُمِّن أن عملية جراحية أجريت له أثناء حياته، وأن الثقب حدث بعد وفاته، لكن من الواضح أن هذا الثقب نتيجة جرح مميت على أيدى القتلة. وقد وضح سوء الفهم الذى حدث عن وجود مهاجرين من شمال البحر المتوسط إلى سيرين، لقد كانوا المستوطنين الجدد الذين جاءوا من كل انحاء اليونان بناء على هاتف مقدس لكل اليونانيين ليهاجروا ويستقروا فى سيرين، والعدد الاكبر الذى عبر البحر كانوا من "اللاكويش والمنيريش واللوكا والشيريدين، والشيكلوش، وشماليون قادمون من كل البلاد".

فكرة أن الاريانز Arians كانوا موجودين في ليبيا ومصر فى القرن

الثالث عشر ق.م نوع من الوهم، لقد كان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد.

اخضاع الفرس لكالديا ومصر

منذ معركة قرقميش، التى بدأت بها هذا الكتاب، وحتى خلع مرنبتاح حوفرع (بالعبرى حفرع، باليونانى ابرى) مرت أقل من خمسين سنة.

ورجعنا بسرعة إلي حكم والد هاتوسيليس، وتتبعنا جيلين من المملكة الكلدانية، ثم عدنا لنقص باختصار دور ستى بتاح ماعت (الذى يسميه اليونانيون بسماتيك) في الصراع الطويل الذى حارب فيه الاشوريون بمساعدة المصريين وحلف الكلدانيين والميديسيين وفي النهاية السكيثين. ولكى نصل بهذا الكتاب إلى نهاية الامبراطورية البابلية (الكلدانية) ولنهاية الخلط بين الاسرتين التاسعة عشرة والسادسة والعشرين عند مانيتون، ولاضافة عقود عدة إلى السرد، لن نستخدم حبرا كثيرا.

الضغط الغربى للكلدانيين، والذى وصل ذروته بالاحتلال المؤقت لجورديون عاصمة الفرجانيين، كان لايزال مستمرا فى ايام نيرجل (نيرجلسار) الذى حارب على حدود ليديا، وأصيب بالشلل فى أواخر سنى حكمه، قابل نبوخذ نصر هذا الضغط بضغط مضاد حاسم. فخرب "كروسيوس" ابن "جايجز" ملك ليديا التى عاصمتها ساردس، بوغازكوى فى ٥٤٦ ق.م. فلم تدمر شعوب البحر بوغازكوى فى ١٢٠٠ ق.م، لقد حرقها كروسيوس بعد ستة قرون ونصف "بدأ كروسيوس الحرب حين عبر الجسر على نهر هاليس ووصل المنطقة المسماة بتريا فى كايودكيا (وهى أقوى المناطق هناك وتقع تقريبا على خط واحد مع سينوبى على البحر الاسود)"، عسكر كروسيوس هناك وبدأ يخرب المحاصيل السورية (١)، ثم استولى على المدينة وأسر السكان واستعبدهم وأخذ كل المستوطنات المجاورة (٢).

وهكذا يحدثنا هيرودت عن تخريب كروسيوس لبتريا، واجماع الدارسين المحدثين أن بتريا التى يعنيها هيرودت تحتل مكان العاصمة القديمة - بوغازكوى هاتوسيليس (٣) وهى العاصمة نفسها التى خطط

ونفذ فيها مورسيليس بن سوبليوليا موس قبل ثمانين سنة اخضاع بابل، وأسس الامبراطورية البابلية الجديدة. تدمير بوغازكوى على يد كروسيوس يمكن قراءته فى هذا التقرير الأثرى "علامات واضحة للكارثة وجدت فى كل مكان فى القلعة الملكية،لم توفر بناية واحدة ووجد سطح الشوارع والميادين المفتوحة مغطاة بطبقة سميكة من خشب متفحم وطوب أحمر من النار".(٤).

بعد هذا الاخضاع، حكم كروسيوس في الاناضول عدة اشهر فقط. فقد غزا "قورش" الذى جاء من "اتشام" فى ميديا، أسيا الصغرى، وفي العام نفسه ٥٤٦ ق.م استولى على ساردیس وأخذ معه كروسيوس كسجين ليرافقه فى حربه المدمرة. وفى سنة ٥٣٩ ق.م سقطت بابل بعد ليلة احتفالية فى القصر الذى بناه نبوخذ نصر لخلفائه من بعده إلى الابد!

وفى مصر، سلم "أماسيس" سجينه الفرعون السابق مرنبتاح بن رمسيس الثاني إلى الرعاع ليقتلوه، وقد حفظ هيرودت قصة نهاية "ابرى" والتى تأكدت بفحص مومياء مرنبتاح على يد فريق من الخبراء فى القاهرة (٥). ثقب فى الجمجمة بسبب ضربة بآلة حادة وأضرار أخرى كشفت عنها أشعة x، وكلها تشهد بميتة عنيفة قاسية (٦).

وكما هومعروف فان فترة الحكم المفترض لأماسيس ٤٣ سنة، ولدينا القليل الذى نضيفه هنا. كان معجبا باليونانيين وفتح أمامهم ساحل المتوسط ليحتلوه، وكان هذا الساحل الملئ بالمستنقعات، خلال ألف سنة، اقليما مهملا. وبنى تجار وبحارة وكهنة يونانيون على الساحل كثيرا من المعابد التى تمثل مختلف المدن – الدول الهيللينية، وحصل الساحل على اسم: الساحل الهيلليني.

ولم يكن اليونانيين أقل إعجابا بالمصريين، وانهمر سيل من رجال الدولة والفلاسفة الذين بدأوا الحج لمعابد مصر وكهنتها بحثا عن الحكمة القديمة ومعرفة ماحدث للعالم فى عصور ماضية.

ولكن بعد سقوط بابل بأربعةعشر سنة فقط، وبعد أشهر قليلة من وفاة أماسيس، سقطت أرض مصر بعواصمها العديدة ومعابدها أمام قمبيز ابن قورش، وأحدث قمبيز دمارا هائلا فى طول البلاد وعرضها، وقد رويت قصتة فى كتاب "شعوب البحر" بتفصيل أكثر.

وقد كشف حديثا فقط، عن اسلحة وبقايا حملة قمبيز الكبيرة التى ارسلها لتعبر الصحراء لمهاجمة قرطاجة، التى وجدت ليس بعيدا عن واحة سيوة، فكل جيشه البالغ عدده ٥٠,٠٠٠ ألفا دفن فى عاصفة رملية كما يخبرنا هيرودت (٧).

قليلة هي الاشياء التى عثر عليها وترجع إلى حكم أماسيس الطويل، ولا أية بقايا آثرية، ومع ذلك نعلم من هيرودت عن مبان كبيرة أقامها (٨)، وسبب ذلك عرفناه من قمبيز نفسه، ادعى قمبيز أن أمه كانت ابنة مرنبتاح (ابرى) التى تزوجها قورش. ولذا فقد اعتبر نفسه الفرعون الشرعى بالمولد والوراثة، ورأى فى أماسيس محتل غير شرعى للعرش أو مجرم مغتصب للعرش، فأمر بتدمير كل ما يحمل اسم "أماسيس"، والتى لم تدمر أمر بأن تمحى كل خراطيش أماسيس عنها.

بعض الباحثين النابهين عزوا كثيرا من الفن الباقى الآن إلى أماسيس الذى مات تاركا بؤس الاحتلال والاذلال لابنه ووريثه.

هوامش الفصل السابع

نبوخذ نصر يزور رمسيس الثانى

1- H. Winckler, The History of Babylonia and Assyria (New York, 1907), P. 318.

2- Cf. Langdon, Builaing Inseripuons of the Neo-Babylonian Empire, P. 182.

3- T. G. Pinches, "A New Fragment of the History of Nebuchadnezzar," Transactions of the Socicty of Biblieatl Archacology, Vol. 7, 188D (1882), PP. 210-25.

4- Ibid., P. 216.

5- Langdon, Building Inscriptions of the Neo-Babylonian Empire, P. 183.

6- Hall, The Ancient History of the Near East, P. 547.

7- Outu Yaman (Yaman means Greek in Babylkonian).

8- Breasted, Rccords, Vol. III, Secs. 415FF. The steles at kamak, Elephantine, and Abu Simbel contion the text. See Ch. kucntz in Annales du seruice des Antiquués de Egypie, XXV (1925), and J. Wilson's transhation in pritchard, Ancient Near Eastern Texts, PP. 256ff. a good sammary of the texts from Boghazkoi referring to the journey of Hattusilis to Egypt is found in the article of Elmar Edel, "Der geplante Besuch Hattusilis III in Egypten," Mitteilangen der Decutschen Orient-Gesellschaft, 92 (1960), PP. 16-20.

9- Bernstein, könig Ncbucadnezar uon Babcl in der jüdischen Tradition, P. 32.

10- Breasted, Records, Vol. III, See. 424.

11- Ibid., Sees. 427f.

12- The inseriptions are translated into english by Langdon, Building Inscriptions of the Neo-Babylonian Empire, PP. 153-75.

13- F. H. Weissbach, Die Inschrigten Nebukhadnezars II im Wadi Brissa und am Nahr el-kelb (Leipzig, 1906), P. 3.

قمينة الطوب فى تلبانحيث

1- Sir W. M.Flinders Petrie, A. S. Murray and F. LL Griffth, panis, Pt. II, Nebesheh (am) and Defenneh (Tahpanhes) (London, 1888).

2- Ibid., P. 52. Hrrodotus, II, 30, 107.

3- Petrie, Tanis, Pt. H, Nebessheh and Defenneh, P. 30.

4- Ibid., P. 30.

5- Ibid.

6- Ibid., P. 19.

7- Ibid., P. 47.

8- R. Koldewey, Die Königsburgen uon Babylan (Leipzig, 1931), 1.

زواج رمسيس

1- Petrie, Tanis, Pt. II, Neoesheh and Defenneh, P. 51.

2- Koldewey, Die königsburgen uon Babylon, I, 63-64. Niki is generally understood to signify "The Houes of Expenditure."

3- Luckenbill, American Journat of Semitie Languages and Literaures, XXXVII (April 1921), 195.

4- Ibid.

1- Jereniah 40: 4-6.

2- R. Caminos, Late-Egyption Miscellanies (Oxford, 1954), P. 293.

3- Petrie, Tanis, Pt. II, Nebesheh and Defenneh.

4- Herodotus (II, 161) interposed the six-year reign of Psammis between Necos (Necho) II and Apries.

5- B. D. Eerdmans, Alttestamentliche Studien, II (Giessen, 1968), 67.

6- J. Wilson in pritchard, Ancient Near Eastern Texts, PP. 376-78. See Ages in chaos, Chapter I, Section, "What Is the Historical Time of the Exodus?"

7- "The monument has artracted wide attention, because of the reference to Israel in the Last section. This is the earliest mention of Israel known to us in literature, not excluding the Hebrew Seriptures themselves." Breasted, Records, Vol. III, See. 603.

8- Some of the controversiat material previous to 1925 is found in J. W. Jack, The Date of Exodus in the Light of External Euidence (Edinburgh, 1925).

9- S. A. B. Mercer, Tutankhamen and Egyptology (Milwaukee, 1923), PP. 48f.

10- In the volume covering the period of the Assyrian domination I show that Pekanon was a name for Samaria enlarged by one of the last kings of Israel, Peka. Since the days of Sargon II and Sennacherib Settlers from the northern provinces of Assyria lived there.

The city Yenoam mentioned on the stele was probably the name of Dan and of Jerusalem alike, because of the templar oraoles speaking in the name of Yahweh (Yenoam means "Yahweh speaks"); in the passage from the stele Jerusalem is meant.

11- Petrie, A History of Egypt, III, 114-15.

12- See E. Naville, "Did Menephtah Invade Syria?" Journal of Egyptian Archaeology, II (1915), PP. 195-201.

13- Herodotus, II, 161.

14- The Historical Library, I, 68.

15- Jeremiah 41:10; 49:1.

16- Ezekiel 25:12.

الحملة الليبية

1- Breasted, Records, Vol. III, See. 570.

2- H. Bakry, "The Biscovery of a Temple of Merneptah at On," Aegyptus, LIII (1973), P. 7.

3- Another identification makes Teresh signify the people of Tarsus in eastern Asia Minor. But E. Sehorr Suggests that Teresh signifies the people of the Aegean island of Thera who established a colony in Cyrenaica (Herodotus, IV, 159).

4- See Hall, The oldest Ciuilization of Greece (London and Philadelphia, 1901), PP. xxvii, 96, 173, 220.

5- Breasted, Records, Vol. III, See. 594.

6- Ibid., Sees. 598ff.

7- Herodotus (trans. Godley), IV, 159.

8- Ibid.

9- Ibid., II, 163.

10- Petrie interprets Momemphis as a place called Menouf west of Benha.

11- Herodotus, II, 169, and Diodorus, I, 68.

12- G. Elliot Smith, The Royal Mummies, Catalogue général des Antiquités Egyptiennes du Musée de Caire (Cairo, 1912), P. 68; James Harris and Kent Weeks, X-rauing the pharaohs (New York, 1973), P. 157.

اخضاع الفرس لكالديا ومصر

1- The so-called White Syrians of cappadocia. The Egyptian name for them,

Hatti, also means "Syrians," the land of Hatti being Syria.

2- Herodotus, I, 76.

3- W. M. Ramsey, Historical Geography of Asia Minor (1890), PP. 33f.; J. Garstang, The Land of the Hittites (1901), PP. 32f. and 197. Cf. Kurt Bittel, Hattusha, Capital of the Hittites (1970), PP. 155-56. The identifieation had already been made by Texier in 1834.

4- Bittel, Hattusha, P. 90.

5- The examination of the mummies in the Cairo Museum was undertaken Ly a team of experts between the years 1966 and 1971.

6- Harris and Weeks, X-raying the pharaohs, P. 157.

7- Report from Cairo by the Agence France-Presse news agency, February 1977.

8- Herodotus, II, 177.

خاتمة

أسئلة وإجابات

بازيليكايا
اسئلة واجابات

وصلت القصة إلى نقطة يشتبك فيها السرد مع ذلك الذى احتواه كتابى «شعوب البحر» - السيطرة الفارسية على الشرق القديم. اعادة التأكيد على الدليل وصحته، الجدل وقوته، واسأل نفسى مانوع المعارضة التى قد القاها من النقاد الآن؟ فهناك العديد منهم، وكل منهم جاء ذكره هنا. وها هى الاسئلة التى اتوقعها:

١- تطابق بسماتيك، ونيخو، وابرى فى الكتابات اليونانية مع سيتى، ورمسيس ومرنبتاح المعروفين بآثارهم... يثير تساؤلا: لقد عرف الأول كفراعنة يعيشون فى الجانب الشرقى من الدلتا وعاصمتهم تانيس، بينما عرف الأخر بأنهم عاشوا على الجانب الآخر من الدلتا وعاصمتهم سايس Sais.. كيف اذن يمكن ان نوفق بين هذا الاختلاف؟

٢- الفن، العمارة، النحت، الرسم، الاعمال الادبية، الكتابات النقشية والدين، اليس كلها فى الاسرة التاسعة عشر تظهر قربا وألفة إلى فن ولغة ودين الاسرة الثامنة عشرة: ماهو الوضع الحقيقى اذن؟ سأناقش بالتفصيل عددا من الامثلة من كل الميادين السابقة، لاعادة كتابة التاريخ التى تتناول الفترة التى تتبع نهاية بيت أخناتون. هل يكفى أن أقول هنا ان الاسرة الثامنة عشرة والاسرة التاسعة عشرة غير متشابهتين فى اسلوب الفن أو اللغة أو الدين، بينما ملامح كثيرة من الاسلوب الليبى والاثيوبى تحاكى بدقة استخدامات الاسرتين ١٨، ١٩ على التعاقب، كأنه يحيى هذا التراث، لكنه أمر

غير مفسر بعد فجوة تبلغ مئات السنين.

٣- عرف منذ القدم ان رمسيس الثانى حكم ٦٦ سنة، لكن الفرعون نيخو حكم أقل منه بالتأكيد، كما ان والد رمسيس الثانى الفرعون سيتى تعزى إليه فترة حكم أقل بحوالى ١١ سنة، لكن اعادة كتابة التاريخ تعزو إليه فترة أطول لأكثر من ٥٠ سنة، فما هو الدليل الحقيقى؟

٤- الملك الحيثى سبيليليوماس Suppiluliumas كان أحد من تبادلوا الرسائل مع العمارنة، وقد وجدت فى أرشيف هذه الدولة قصيرة العمر للملك المهرطق أخناتون، كيف يمكن ان يطول به العمر ليكون معاصرا لأشور بانيبال الاشورى؟ او ترهاقا الاثيوبى؟ فى مراجعة التاريخ فان التزامن بين كتابة رسائل تل العمارنة وسبيليليامس المعاصر لاشور بانيبال وترهاقا.. اكثر من ١٥٠ سنة، فما هى الاجابة؟

٥- عصر سيتى ورمسيس هو عصر البرونز، بينما عاش بسماتيك ونيخو فى عصر الحديد. وهذا الموضوع يحتاج إلى تمحيص أكثر دقة.

الفصل الذى كتبته بعنوان «البرونز والحديد» منذ اكثر من ربع قرن، حين ظننت أنى استطيع معالجة اعادة كتابة التاريخ فى مجلدين، سمحت لنفسى أن أبقيه كما هو، ولم أجد دافعا لاعادة كتابته حيث مانشر من أعمال لاحقة لم يغيرمن المشكلة كما كانت سنة ١٩٥٢، وبما ان الأمر كذلك، فهو يتجاوز فى طوله الرد على الاسئلة الأخرى التى نناقشها هنا.

٦- علم تراصف الطبقات يحكم كل أحكام علماء الآثار المحترفين، الآثار الادبية تعتبر تحديدا ذات قيمة ثانوية وحين توجد فى طبقات غير طبقاتها تعتبر دخيلة، الفخار (خاصة المسينى وما بعد) يحدد وجوده بالوضع التاريخى (الكرونولوجى) للطبقة الارضية، والجعارين التى تحمل فى الغالب اسماءً ملكية مصرية تلى الفخار (عادة كسر) كفيصل للعصر.

ماهو اذن الحكم الذى نستنتجه من الفخار والجعارين اذا وقف التاريخ التقليدى وإعادة كتابة التاريخ فى المحكمة وراء القضبان؟

٧- وما هو الحكم الذى نستنتجه من معامل الكربون المشع؟ لقد كتبت القصة باختصار فى مقدمة كتابى «شعوب البحر».

فى التصور السادس شتاء ٧٣ / ١٩٧٤ ص٥، نشرت مجموعة من البحوث تغطى فترة عقدين، توضح بالتفصيل مجهوداتى للحصول على اختبارات الكربون المشع لمواد ترجع بتاريخها إلى المملكة المصرية الجديدة. الاختبار الوحيد الذى نجحت فى تحقيقه سنة ١٩٦٤ جاء بنتيجة أثبتت نص اعادة كتابة التاريخ التى أقوم بها. فى التصور الرابع سنة ١٩٧٣ ص ١٢ ف ف، التى خصصتها لنتائج الكربون المشع بالنسبة لمراجعة التاريخ، نشرت ورقة حول «اخطاء التاريخ بناءً على اختبارات الكربون المشع»، ناقشت فيها ملاءمة هذه الطريقة لبيئات ماضية حدثت فيها كوارث كونية وتداخلت مواد كربونية من أصل خارجي ومن حرائق عالمية وقعت على نطاق واسع، ولابد انها غيرت توازن ك ١٤ وك ١٢ فى المحيط الجوى.

٨- أخيرا هناك الجدل حول «التأريخ الفلكى» الذى كان ينظر إليه حتى وقت قريب كشىء مخيف. وبمساعدة الحساب الشعرانى (نسبة إلى الشعرى اليمانية) (والتقويم المصرى القديم الذى يعتبر السنة ٣٦٥¼) وبحركة الارض (اليوم) الاهليلية بالنسبة إلى الشمس والناشئة من حركة النجوم (ب ٣٦٥ يوم) نشأ التأريخ، فكلمة «ثبت فلكيا» لها وقع مشؤوم على كل رأى لتتابع التاريخ، ولها أيضا منزلة محترمة عند دارسى التاريخ. هناك فترة شعرانية جديدة، تسمى «منطقة منوفرا Menophres» بدأت فى سنة ١٣٢١ ق. م، وأقرتها الطبعة الحديثة من «التاريخ القديم لكمبردج» تحدد طول السنة الواحدة من حكم رمسيس الاول والد سيتى الكبير، ومع ذلك فان قلة من علماء المصريات مثل «رادتون» و«ورونورد» اعتبروا مثلى ان مينوفرا هو اسم لمكان مثل ممفيس، مين-فور، وليس اسما لشخص.

وبما أننى ناقشت بتوسع مشكلة الرزنامة الشعرانية والتتابع التاريخى الفلكى عموما فى ملحق كتابى «شعوب البحر»، ولايوجد ما يمكن ان أضيفه سوى أن أعتى النقاد لشعوب البحر لم يجرؤ ان يزعم صلاحية التأريخ الفلكى السابق، ومن بينهم عمالقة مثل ادوار ماير ولودينج بوشارت. جهودهما قدرت بدرجة كبيرة لكنها تحولت إلى لاشىء سوى تمرين فى العبث. ولذلك لن اناقش هذا الموضوع ثانية.

وساناقش الاسئلة ١، ٣، ٤، ٥، ٦ فقط.

تانيس وسايس Tanisand Sais

اعادة كتابة التاريخ الحالية، تقدم دليلا وافرا بأن الاسرة التاسعة عشرة هي نفسها الاسرة السادسة والعشرين، وان سيتي الاول، ورمسيس الاول، وسيتي الثاني، ورمسيس الثاني، ومرنبتاح، هم أنفسهم بسماتيك (سيتوس)، نيخو الأول، بسماتيك الثاني، نيخو الثاني وابرى حوفرع) عند المؤرخين اليونان.

ويمكننا الآن ان نجد تفسيرا لماذا عرفت الاسرة ٢٦ بالاسرة السايتيكية أو من مدينة «سايس» بينما اسرة سيتي ورمسيس كانت عاصمتها تانيس.

تنتشر خرائب «تانيس» على مساحة واسعة من الجزء الشرقي من الدلتا، وقد اكتشف «بترى» في القرن الماضي، و «مونتيه» في هذا القرن. المدينة القديمة، ووجدا آثار عديدة وتمنية لمن كانوا فيها: قصور ومعابد ومقابر - مدينة موتى، وتحتل اليوم قرية للصيادين هي «صان الحجر» جزءا من مدينة تانيس، وليس بعيدا عنها تقع «تل نبيشة» حيث كشف، أيضا، عن انشاءات ومقابر للرعامسة. أما «سايس» فقد أختار موقعها ليبسيوس على الجزء الغربي من الدلتا على فرع رشيد في مكان يسمى «صالحجر» مشابه لاسم القرية التي تحتل مكان تانيس. تحديد المكان لم تتم مناقشته، فلايوجد هناك أية آثار، ونعلم من هيرودت ومن مصادر أخرى ان «سايس» كان فيها مبان باذخة كبيرة وأضرحة ملكية، عانت المدينة الخراب على أيدي قمبيز الذي دمر مقبرة «أماسيس»، ولكنها أصبحت ثانية مركزا مهما في عصر البطالمة، فأين الآثار ؟ كانت «سايس» واحدة من اقدم وأهم المدن في مصر، بها آثار من كل العصور وبالتأكيد من المملكة المتوسطة، والمملكة الجديدة، وبالطبع الاسرة ٢٦، ومن العصر الهيللني والاسرة السايتكية.. فأين هي هذه الخرائب؟

مصدرنا الرئيسي عن «سايس» هو هيرودت، لكنه (٢، ١٧) لم يذكر وهو يعدد انهار الدلتا، فرع «تانيتك»، وذكر بدلا منه فرع ساتيك، بينما كان المفروض ذكر الفرع الآخر. بل وصف هيرودت الفرع بأنه ينقسم من عند «سبينيتك» وهو ماينطبق على فرع دمياط وليس رشيد حيث ظن

عادة ان «سايس» تقع عليه.

الجغرافي «سترابو» (١٧، ١، ٢٠) يفرق بين سايس وتانيس، ولكنه يكتب ان فرع ساتيك مثل فرع ثانيتك، هذه المماثلة من مؤرخ وجغرافي قديم تجعل من وجهة النظر الحديثة التي تفصل بين الفرعين، أحدهما في الشرق والآخر في الغرب موضعا للتساؤل:

حسب ما جاء في الكتاب المقدس (سفر العدد ١٣: ٢٢) فان تانيس تأسست بعد مدينة الخليل بسبع سنوات، واسمها العبري زؤان، والغريب ان اسمها في عهد الرعامسة، والتي كانت عاصمتهم، غير معروف (١). وحين ظهرت «زين» لأول مرة على ورقة بردي «ويتامون» وهي من تاريخ متأخر، فان اشعيا (١٩: ١١، ١٣، ٣٠: ٤) حوالي ٧٠٠ ق. م، وحزقيال (٣٠: ١٤) بعد مائة سنة من ذلك التاريخ تحدثا عن «زوان» كعاصمة لمصر، ودعاها اشور بانيبال «سانو» Saanu.

والسؤال: اليست سايس هي اسم آخر لتانيس؟ ومع ذلك اذا لم تكن المدينتان متطابقتين فان سايس لابد ان تكون قريبة من تانيس وعلى الفرع نفسه في الدلتا، ومن الممكن ان تكون في «تل نبيشة» على بعد أميال قليلة حيث وجدت الكثير من الخرائب من عصر تانيس نفسه (٣).

ونعلم من «سترابو» ان سايس عاصمة مصر السفلى كانت مكان عبادة «أزيس-أثينا» الليبية، ونيث التي كانت تدعى أيضا سايس.

من الواضح إنه بسبب هذه العبادة الليبية، فقد ظن ان المدينة تقع على الجانب الليبي من الدلتا، مع إنها اكثر قدما بكثير من الاسرة الليبية في مصر. ويقال ان «سايس» تحتوي داخل حدودها مقبرة اوزيريس (هيردوت ٢، ١٧، وسترابو ١٧، أ، ٢٠) وطقوس اوزوريس كانت تؤدي هناك على بحيرة مقدسة، وكانت مركز الثقافة المصرية حين زار سولون مصر في القرن السادس ق. م، بينما كانت تانيس منطقة العبادة لإيزيس - اثينا، واشتق اسمها من تانيث اسم أثينا القرطاجي (٤).

تانيس وسايس اسمان للالهة نفسها الليبية القرطاجية، وكان اوزيريس مقدسا في تانيس، ويقول «بلوتارخ» ان حقيبة ازوريس طفت عند مصب فرع التانيتك في البحر (٥).

لدينا كل مايجعلنا نراجع وجهة النظر الحديثة التي اسسها ليبسيوس

حين وضع «سايس» على الجانب الليبى من الدلتا، ونضعها على فرع التانيتك على الدلتا متتبعين هيرودت وسترابو. وهذا يوضح لماذا لم توجد آثار فى الموضع المزعوم لسايس غرب الدلتا. الآثار الوفيرة فى حقول «زوان» على فرع تانيتك-ساتيك منٰ النهر هى الآثار الملكية للاسرة ١٩ كما هى للاسرة ٢٦، وهذا يوضح لماذا اعتبر اشعيا وحزقيال فى القرنين ٧، ٦ ق.م فى عصر الاسرة السيتيكة، تانيس عاصمة لمصر.

كم حكم سيتى ورمسيس الثانى

اعادة كتابة التاريخ الحالية تبين طول فترة حكم سيتى ورمسيس الثانى ومرنبتاح، ان لم يكن بالسنة فبأقرب نسبة تقديرية.

سيتى بتاح ماعت (بسماتيك عند هيرودت) حكم من ٦٣٣ ق.م (وهى السنة التى رجع فيها مع حاشية اشور بانيبال إلى مصر) حتى ٦٠٩ ق.م (بعد ثلاث سنوات من سقوط نينوى ٦١٢ ق.م) لمدة ٥٤ سنة.

رمسيس الثانى جعل حاكما مشاركا بينما مايزال طفلا وبنص كلماته: «حين ظهر والدى كرجل دولة أمام الناس، كنت طفلا فى حجره، فقال مشيرا الىَّ: توجوه ملكا حتى أرى ميزاته وأنا مازلت حيا. وأمر الياوران بأن يضع التاج المزدوج على جبينى: دعه يدير البلاد.. دعه يظهر نفسه للجماهير. هكذا تكلم من خلال حبه الكبير لى» (١).

كذلك ظهر رمسيس الثانى على نقش غائر كشاب يعلمه والده سيتى استخدام القوس والسهم (٢).

حملة رمسيس الثانى الاولى تجاه قرقميش فى السنة الثانية من حكمه، من الواضح إنها من بداية حكمه مستقلا. فى حملته الثانية كان فى سنته الخامسة من الحكم، وأخذ غزة وعسقلان فى سنة حكمه التاسعة، ووقع معاهدة السلام مع نبوخذ نصر فى سنة حكمه الحادية والعشرين، وتزوج ابنة نبوخذ نصر فى سنة حكمه الرابعة والثلاثين، ودائما العد بعد وفاة والده سيتى.

اشار "إرميا" حين كان فى المنفى بمصر وقبل أن ينقل إلى بابل (٣)، إلى الفرعون حفرع الذى نطابقه مع مرنبتاح بأنه كان حاكم مصر.

لقد حكم مرنبتاح، مما جاء على نقوشه ١٠ أو ١١ سنة، وإذا كان الرقم الذى حكمه أماسيس (٤) حقيقيا أى ٤٣ سنة، اذن فقد بدأ حكمه سنة ٥٦٨ ق.م أو بعد ١٩ سنة من تدمير القدس. فى سنة ٥٢٥ غزا قمبيز الفارسى مصر بعد أشهر قليلة من وفاة أماسيس.

القسم الاكبر من هذه السنوات التسع عشرة تخص رمسيس، وقد يكون مرنبتاح حاكما مشاركا لرمسيس فى سنواته الأخيرة. ونعلم من هيرودت (٢: ١٦٩) أن أماسيس بعد أن أمسك بالعرش سمح لمرنبتاح أن يلبس التاج وأن يشاركه الحكم.

يتبع ذلك أن رمسيس الثانى حكم أكثر من ثلاثين سنة منفردا، ولابد أن سنوات مشاركته الحكم مع أبيه سيتى قد أضيفت لتشمل حياته كلها التى امتدت لأكثر من ستين عاما.

فى النصوص التاريخية المعاصرة يقال أن رمسيس الثانى حكم ٦٦ سنة ثابتة، وهذا لا يوافق عليه بعض المختصين الذين اندمجوا فى نقاش طويل فيما إذا حكم رمسيس من ١٣٠٤ - ١٢٣٨ ق.م أو من ١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م. وكما يعى القارئ الآن فان هناك مشكلة ذات أبعاد مختلفة تواجه التاريخ الرسمى، ومع ذلك فالسؤال كم حكم رمسيس الثانى؟ وهل من المناسب أن نتعامل مع ذلك فى ضوء الاحداث التاريخية فى القرن ٦٢٧ ق.م.

الرقم ٦٦ جاء فى نص "ايوسيبوس" عن تاريخ الاسرات نقلا عن مانيثون. وحسب هذا النص، فان الاسرة التاسعة عشرة حكم فيها سيتوس ٥٥ سنة، ورمسيس الثانى ٦٦ سنة فتكون مدة حكم الاب والابن ١٢٠ سنة. أما "افريكانوس" المؤرخ الآخر الذى جمع قائمة مانيثون يعطى هذه الأرقام: حكم سيتوس ٥١ سنة، ربساسيس الذى تبعه حكم ٦١، فيكون جمعهما ١١٢ سنة وهى فترة طويلة لأب وابن إلا اذا عدت السنوات التى تشاركا فيها بالحكم. "جوزيفوس" المؤرخ الثالث الجامع لمانيثون، فقد جاء عنده أن الملك سيتوس من الاسرة ١٩ "بعد طرد هرمايوس حكم ٥٩ سنة وابنه الاكبر رمسيس ٦٦ سنة".

ولنحسب المسألة: عند "ايوسيبوس"، الملك رمسيس الثانى من الاسرة الثامنة عشرة حكم ٦٨ عاما. عند جوسيفوس، الملك ميامون Miamun (الاسم

الملكى لرمسيس الثانى) حكم ٦٦ سنة وشهرين. ومع ذلك فان "أفريكانوس حذف هذا الملك (رمسيس عند ايوسيبوس وميامون عند جوسيفوس) من سجل ملوك الاسرة ١٨. فأى حل وصل اليه المؤرخون المحدثون؟

رمسيس الثانى هو بالطبع لا يوجد فى الاسرة الثامنة عشرة. وانما فى الاسرة ١٩ وحكم ٦٦ سنة كما عند ايوسيبوس، بينما والده، عند المؤرخ نفسه، حكم ١١ سنة وليس ٥٥، وعلى الرغم من الوصف الحى الذى قدم رمسيس لمشاركته الحكم مع ابيه وهو مازال طفلا، إلا إنه سجل حملته الاولى على سوريا بأنها تمت فى السنة الثانية من حكمه، وحملته الثانية فى "سنته الخامسة" مما جعل المؤرخون المحدثون يعتقدون أن سنوات حكمه الملكية بدأ عدها حين أصبح حاكما مفردا، فهو لا يستطيع أن يقود الجيش وهو طفل.

الاسرة الثامنة عشرة تنتهى تقريبا فى الجزء الأخير من القرن الرابع عشر ق.م، وبالتالى فان الاسرة ١٩ لم تبدأ قبل ١٣٠٠ ق.م. بالحساب الفلكى للتاريخ القائم على التقويم السوتكى Sothic الذى استبعدناه فى نقاشنا فى كتاب "شعوب البحر" يحدد حكما طويلا لرمسيس ولا يترك لسيتى إلا القليل، وهناك عدة مناقشات يعتد بها حول هذا الحكم الطويل.

هناك آثار كثيرة جدا مؤرخة من فترة حكم رمسيس الثانى، وتوجد وثيقة مؤرخة بالسنة ٦٧ من حكمه، كما يوجد دعاء كتبه أحد الزعامسة المتأخرين يدعو الله أن يمنحه حياة ضعف حياة رمسيس الثانى - مما يؤكد أن حياة رمسيس الثانى وحكمه كان يعتبر فى الاجيال التالية ذا طول مهول.

هذا الدليل لم يظل بدون تحد. الآثار القديمة الكثيرة لرمسيس الثانى، معظمها يرجع تاريخه إلى العقود الثلاثة أو الاربعة الاولى من حكمه، ومن الصعب والغريب أن تجد دليلا يعود تاريخه الى العقدين أو الثلاثة الأخيرة من حكمه.

فى أوائل حكمه، عد رمسيس الثانى سنوات حكمه منذ توليه العرش منفردا، ومثل ذلك الأثر الذى يخلد ذكرى حملته تجاه الفرات (فى السنة الثانية، والخامسة من حكمه) لكنه فى أواخر حكمه، بدأ يعد تاريخ حكمه منذ بداية مشاركته الملك، ومع ذلك فسواء هذا أو ذاك، فإن رمسيس

الثانى لم يكن رجلا كبيرا فى السن حين مات، وبالتالى لم يحكم ٦٦ سنة، ومن الضرورى أن نؤكد ذلك.

لوحكم لمدة ٦٦ سنة كحاكم مفرد بعد موت والده، فلابد إنه وصل فى عمره إلى أواخر الثمانينات أو التسعينات حتى وفاته.

عالم الآثار والتشريح الشهير "رودلف فرشوف" فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فحص جمجمة مومياء رمسيس الثانى، وتعجب من تكوين عظمة الفك، فلا يمكن أن تكون لرجل عجوز جدا.

ج. اليوت سميث، عالم التشريح فى جامعة القاهرة، الذى فحص كل المتاح من المومياوات الملكية المصرية، كتب عن مومياء رمسيس الثانى: "الاسنان نظيفة وفى حالة جيدة مع قليل من التلف. وهى مسألة عجيبة - ولم نستطع أن تحدد لماذا هذا الرجل العجوز لديه اسنان ممتازة بتلف بسيط؟" (٥).

هذا الفاحص للمومياوات الملكية حار حين وجد أن أسنان رمسيس الثانى ليست لرجل فى التسعين أو الثمانين أو السبعين، حتى فى سن الستين فهى محافظ عليها بدرجة غير معتادة.

وحديثا جدا هناك من تحدى وجهة النظر هذه، فقد قام ف. جيه. هاريس و ك. ح. ويكس (٦) بفحص جسد رمسيس الثانى بأشعة إكس بما فيها التجويف الفمى "وقد وجدا فيه "خراجا سبخيا" لابد أنه كان مؤلما" لكنهما لم يفندا تقدير سميث لعمر رمسيس الثانى عند وفاته.

د. ويلتون كروجمان المشارك مع فريق جامعة متيشجان التى قامت بعمل أشعة إكس فسر النتائج بأنها تشير أن عمر رمسيس الثانى عند وفاته كان على الارجح بين ٥٥ - ٦٠ سنة.

وقدجاء هذا الرقم نتيجة لدراسة دقيقة لفقد التجويف الحوضى للاملاح المعدنية. كذلك فان عظمة الصدر تعتبر مؤشرا جيدا لتحديد عمر الانسان.ولقد فحص سميث عظمة الصدر وكتب "جزء من القص مكسور عند الجزء العلوى من الحنجرة، وحين رفعت ذلك دهشت جدا حين وجدت - على الرغم من العمر الطويل الذى قيل أن رمسيس الثانى قد عاشه - أن قبضة القص لم تكن ملتصقة بالقطعة الوسطى منه، وأن تحجر الغضروف الضلعى الثانى مازال متصلا بمفصل مع عظمة الصدر." (٨).

وهذا يشير إلى عمر أصغر لرمسيس الثانى عند وفاته مما افترض، وبين رقم فى وثيقة وتجربة تشريحية فدائما ترجح كفة الأخيرة.

وهل يشهد رجل التشريح فى سكوتلانديارد على عمر رجل ميت – أوحى – على اساس التحجر أو على اساس تاريخ فى عقد زواج؟

عند وفاته، لم يكن عمر رمسيس الثانى أكثر من الستينات، والبيانات التى عرفناها من الكتاب المقدس تتوافق مع نتائج أثنين من علماء التشريح الكبار. إلا اذا كانت مومياء رمسيس الثانى ليست له، فان حكمه لمدة ٦٦ سنة منفردا مستحيل. واذا كانت الوثيقة التى تقول أن فنترة حكمه تمتد لـ ٦٦ سنة وتشير إلى رمسيس الثانى وليس إلى غيره، فانها تكون قد حسبت سنوات حكمه منذ توج فى طفولته.

وأما دعاء ملك بعد ذلك (فى الواقع كان الملك الأخير قبل اعادة غزو مصر على يد ارثاكسيركس الثالث) يمكن أن تكون اشارة إلى حكم الرعامسة ككل.

ولقد اعطى ميناثون حكم بسماتيك من الاسرة ٢٦ فترة حكم ٥٣ سنة، وهى تشبه فترة حكم سيتى كما بينت سابقا، ولكنه يعطى نيكوس (نيخو) ٦ سنوات فقط، وهيرودت يقول ١٦، وهذا الرقم الأخير بعيد عن التقديرات التاريخية.

بعد حكم سيتى لمدة ٥٣ سنة، حكم رمسيس الثانى كحاكم مفرد مدة ثلاثين سنة أو نحوها ولكن ليس ٦ سنوات أو ١٦ و ٦٦ كما قيل.

ملكان باسم سبيليليوماس

يعتقد ان سبليليوماس هو كاتب لخطابين من مجموعة تل العمارنة، ولكن من الصعب ان يكون هو الملك نفسه بالاسم نفسه لوالد مورسيليس.

فى التاريخ التقليدى، فان بين وفاة امنحوتب الثالث ١٣٧٥ ق.م والسنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى ١٢٧٩ ق.م حين وقعت معاهدة السلام مع حاتوسيليس، فترة ١٠٥ سنوات وهى فترة طويلة لحكم ثلاث ملوك متتالين خاصة حين يؤخذ فى الاعتبار ان جزءا فقط من حكم سبيليوليوموس وحاتوسيليس متضمن فى هذة الفترة (١).

حسب اعادة كتابة التاريخ التى قمت بها، فان بين فترة رسائل العمارنة وزمن سبيليليوماس جد حاتوسيليس هناك فترة تزيد عن ١٦٠ سنة، (منذ زمن يهوشابط حتى زمن باناسية) ومن المستحيل بذلك ان يكون كاتب رسائل العمارنة هو والد حاتوسيليس.

رسائل تل العمارنة كما حاولت ان أبين فى (عصور فى فوضى- رسائل العمارنة) كتبت فى القرن التاسع قبل الميلاد أيام الملك الاشورى شالمانستر الثالث (٨٥٩-٨٢٤ ق.م) وبالفعل يشير شالمانستر إلى علاقته شبه الحربية مع سبيليليوماس ملك الحيثيين (٢).

فى صفحات من هذا المجلد بعض من النشاطات السياسية والعسكرية ج سيليليوماس، نوقشت باختصار، تاركا الموضوع لمعالجة اكثر تفصيلا فى مجلد «الغزو الاشورى». لكن هناك فكرة فى سيرة سيليليوماس التى كتبها ابنه مورسيليس تستحق الاشارة إليها. هناك ملكة مصرية تسمى «دخامون» عند وفاة زوجها الملك ولم يكن لها ولد ذكر ارسلت مبعوثين إلى سبيليليوماس بخطاب تطلب فيه ان يرسل إليها احد ابنائه لتتزوجه وتضعه على عرش مصر حيث انها كارهة للزواج من احد اتباعها. ويفترض وهذا موجود فى كثير من النصوص ان الملكة التى كتبت هذا الخطاب إلى الملك الحيثى كانت أرملة توت عنخ آمون، انخسينباتن ابنة أخناتون (٤). ولكن هذا الحدس مبنى على اسباب ضعيفة بالاضافة إلى ان هذه الملكة ٨٠٠ ق.م وسبيليليوماس الثانى (القرن السابع ق.م) لم يكونا متعاصرين ويفصلهما اكثر من ١٦٠ سنة.

المشهد التاريخى فى طيبة المصرية لايدع فرصة لتصديق فكرة ان انخسبنياتن الملكة الارملة تطلب من ملك اجنبى ولدا لتتزوجه. عند وفاة توت عنخ آمون فى سن ١٨ أو ١٧ سنة، من المحتمل ان زوجته كانت فى السادسة عشرة أو أقل، وكانت المملكة تحت اليد القوية «لآى» الذى أعلن نفسه فرعونا، وبدون تأخير وحتى قبل أن يلبس التاج ويعتلى العرش تزوج انخسنباتن التى أسمت انخسبنايم، فقد كان لايمكن وراثة العرش دون تزوج أميرة من دم ملكى (٥). ومن المحتمل ان الملكة الطفلة لم تسأل اذا كانت توافق على قريبها من ناحية الام كزوج (كان آى شقيق الملكة تى أم أخناتون) وبعد الزفاف لم يسمع عنها ثانية. لقد كانت دمية فى اللعبة

السياسية لآى الماهر. وقد ألقيت الضوء بالتفصيل على المشهد فى طيبة والدور الذى قام به الاشخاص المختلفين للبيت الملكى فى كتابى «اوديب واخناتون».

كان سبليليوماس معاصر للملك الاثيوبى «ترهاقا» الذى حكم مصر أيضا ومات سنة ٦٦٣ ق. م دون ان يترك وريثا، وربما زوجته هى التى كتبت الرسالة إلى سبليليوماس. والآن تمحيص هذه النتيجة ملك اليد.

القصة كما رواها مورسيليس بن سبيليليوماس تقول بأن اسم الفرعون بب خوروريا (اونب خوروريا) (٦)، والاسم الملكى لترحاقا ينتهى بـ (خورا) (٧) واسم زوجته الملكة دوك-حات-أمون (٨) وهو اسم فريد بين ملكات مصر.

فى اطار التاريخ التقليدى، لم يتمكن، فى نص من بوغازكوى، من تفسير اسم «دخامون» «ما يبدو إنه اسمها ناله التشويه من خلال خطأ ما» (٩) وقدمت فرضية أخرى كبديل، إن دخامون ليس اسما على الاطلاق ولكنه منزلة او مرتبة (١٠)، وجهة النظر الملتوية هذه تشير إلى تعقد التاريخ التقليدى الذى وضع سبيليليوماس والد مورسيليس قريبا من فترة العمارنة.

الأمير الذى أرسل إلى مصر بعد طلبات متكررة من دخامون (بالمصرية دوك - حات - أمون)، اغتيل فى سوريا وهو فى الطريق. كان من غير الحكمة ارسال الأمير بالطريق البرى خاصة وأن أشور بانيبال كان مسيطرا على سوريا. فى سنة ٦٦٧ ق. م توغل اشور بانيبال عميقا فى مصر بعد حرب طويلة مع ترحاقا الذى تراجع إلى السودان ومات هناك من الجروح، وفى هذه الظروف أرسلت دخامون طلبها إلى سبيليليوماس وهو منخرط فى حرب فى شمال سوريا جوار قرقميش.

وجاء الاندفاع الاثيوبى الأخير والقصير فى مصر، بعد أربع سنوات، فى ٦٦٣ ق. م تحت حكم «تانوتامين» ابن شقيق ترحاقا. لكن رد الفعل الاشورى كان سريعا، طرد اشوربانيبال تانوتامين خارج مصر، واحتل وخرب طيبة وهكذا وضع نهاية للمرحلة الاثيوبية فى التاريخ المصرى.

البرونز والحديد

فى ثلاثينات القرن التاسع عشر، اقترح أحد الباحثين (١)، ممن تتبعوا خطوات هسيود ولوكريشيوس، انه يمكن تقسيم ماضى الجنس البشرى تبعا إلى المادة التى صنع منها الانسان أدواته وأوعيته فى تتابع تاريخى، مقسما العصور إلى حجرى وعظمى وبرونزى وحديدى. وكان هذا الاقتراح ناجحا، وقدمت تقسيمات أخرى ميزت كتب التاريخ وعلم الآثار باشارات مميزة لكل عصر بالمبكر والوسيط والمتأخر، مع تقسيمات فرعية ١، ٢ وأحيانا ٣ لكل عصر.

والاكثر دقة ان يسمى عصر البرونز المبكر، بعصر النحاس. وعلم الآثار يشرح عصوره عموما، إما حسب صفات الفخار أو حسب المعدن المستخدم فى عمل الادوات. والأخير اكثر تحديدا، ولذا فان فخار من انواع مختلفة يحدد بالنسبة للعصور المعدنية، مثال: سيراميك من العصر البرونزى المتأخر ١أ، أو الحديد المبكر ط١١ وهكذا. وسنرى فى هذا الفصل الفوضى التى تشكل اساس تقسيمات عصور الخزف، وسندرس باختصار العصور المعدنية واثرها على مسار التاريخ.

لكن اليس بتقريبنا التاريخ المصرى ستمائة أو سبعمائة سنة إلى عصرنا، نتسبب فى تغيير موضوع العصور المعدنية؟

يستغرق قارب بحرى يومين أو ثلاثة للوصول من مصر إلى فلسطين، وحين سار تحتمس الثالث مع جيشه عبر الطريق الصحراوى قطع المسافة فى تسعة أيام. ويتوقع المرء ان يأخذ التاريخ التقليدى فى اعتباره قرب البلدان من بعضها مثل فلسطين ومصر، فاذا كانت بداية عصر الحديد فى فلسطين، كما يظن، إنها بدأت ١٢٠٠ ق. م فى زمن قضاة بنى اسرائيل، فالتفكير التقليدى يفترض ان بداية العصر الحديدى فى مصر حوالى ١٢٠٠ أيضا. ليست هذه هى القضية، «فهناك موضوعات قليلة تثير جدلا اكبر من تاريخ بداية عصر الحديد فى مصر» (٢) وبالتالى ليس هناك سبب للخوف من ان مراجعة التسلسل التاريخى ستسبب التشوش لفكرة البرونز والحديد، فالتشوش موجود بالفعل.

بداية عصر الحديد فى مصر، لايمكن الاعتماد فيها على التسلسل

التاريخى التقليدى، والسبب واضح.

عصر الاسرة ١٩ ليس سابقا على عصر الاسرة ٢٦ بسبعمائة سنة، فهما اسرة واحدة. والاسرة العشرون لرمسيس الثالث لاتسبق عصر نيخو الثانى بستمائة سنة بل تتلوها بمائتين من السنين، بمثل هذه المقدمات المنطقية، فمن العبث بالطبع ان نحاول التثبت متى بدأ عصر الحديد فى مصر.

بأخذ هذا الامر فى الاعتبار، ولكى نعيد بناء تتابع العصور، لابد ان نسأل: متى بدأ استخدام الحديد أول مرة؟ ومتى بدأت عملية استخلاص الحديد من معدنه الخام (الركاز)؟ ومتى بدأ الحديد يحل مكان البرونز فى معظم الاشياء.؟

ينتشر ركاز الحديد بشكل واسع على الارض اكثر من النحاس والقصدير، وعلم تعدين الحديد اسهل من علم تعدين البرونز (٣). كذلك يوجد الحديد فى شكله الخام فى النيازك التى تصل الارض دون ان تتبدد بشكل كامل، مما يجعل عملية الاستخراج غير ضرورية، فينقى بالتسخين لدرجة ٥٠٠° م حتى يحمر ويطرق وهو ساخن ليشكل بالشكل المرغوب.

اضافة الكربون (بصهر الفحم النباتى) ثم تبريد سريع ينتج الصلب. ولكى يصهر الحديد بحيث يمكن صبه فى قوالب يحتاج إلى درجة حرارة تزيد عن ١٥٠٠° م.

كانت الطبيعة أقل كرما فى منح النحاس للانسان، وهو يوجد فى حالته الخام ويستخرج من الملكيت والركاز بالتسخين، واستخراجه يحتاج إلى درجة حرارة حوالى ١٠٨٥° م، ويمكن اذابته وصبه فى قوالب، وعلى عكس الحديد فانه قابل للطرق وهو بارد. وهذه نقيصة كما هى ميزة، وتعنى ان المعدن طرى، يقوى بالطرق، لكن الطرق الشديد يجعله سهل الكسر، البرونز الذى هو خليط من النحاس والقصدير أقوى بكثير من النحاس. وصناعة الخلائط تبين تقدما معينا فى فن علم التعدين، فهى مرحلة متقدمة عن مرحلة استخراج المعدن من الركاز وطرقه. خليط النحاس والزنك يسمى بالنحاس الاصفر، وهذا الخليط معروف، بالمقارنة، من عصور قديمة، فى الكتاب المقدس يسمى النحاس الاصفر «نيخوشيت» وهى تعنى نحاس أحمر أيضا وبرونز دون التفريق بينهما.

ركاز الحديد يوجد فى مصر بكميات كبيرة، لكنه من نوعية رديئة (٤)، أما النحاس فكان يحضر من الخارج. مناجم «الملكيت» فى مصر اكتشفت فى جنوب غرب سيناء، وقد استغلت، وتعلمنا النقوش الاثرية ان ذلك قد تم فى عهد المملكة القديمة. واكوام من الخبث قرب المناجم تشير إلى ان استخراجه كان يتم فى الموقع. وقبل نهاية المملكة القديمة كانت مناجم النحاس فى قبرص تزود مصر بالمعدن، فالجزيرة (قبرص) إما أنها اعطت اسمها للنحاس أو سميت على اسمه (٥).

درجة الحرارة العالية الضرورية لاستخراج وصهر النحاس (١٠٨٥°م) كان يحصل عليها بواسطة المنافيخ كما يرى فى الرسومات المصرية القديمة، وأيضا عن طريق انشاء أفران بمدخنة تسمح بتيار هواء. وبهذه الوسيلة كان الحديد يستخرج بسهولة من ركازه ويطرق بالشكل المطلوب.

ولم يكن القصدير قد وجد فى حضارة البرونز فى قبرص أو مصر أو اليونان، كان يستورد من الخارج لصنع البرنز (٦)، يقول حزقيال (٢٧: ١٢): ان سكان البحر من صور تاجروا فى القصدير الذى كانوا يحضرونه من ترشيش، كما ذكر اشعياء (٧) القصدير مبكرا، كما كان يشير إليه هومر بشكل متكرر (٨). ويقول هيرودت ان اليونان كانت تستورده وأن «جزر القصدير» ربما كان يقصد بها الجزر البريطانية (٩). وقد أشار «بوزيدنيوس» فى القرن الثانى قبل الميلاد إلى جزيرة ايبريا كمكان لمناجم تصدير القصدير (١١). وفى القرن الأول الميلادى كان القصدير ينقل إلى الهند عن طريق مصر (١٢).

انسان العصر الحجرى، يفترض عموما، إنه عبر البحر بالمصادفة وليس فى رحلات منتظمة، ولابد ان فترة النحاس من العصر البرونزى كانت عصر اخضاع البحر، ورجل العصر البرونزى لابد إنه طور تجارة بحرية فى القصدير.

عصر النحاس فى مصر بدأ فى فترة ما قبل الاسرات، كما تعتبر المملكة القديمة تنتمى إلى عصر النحاس، لكن هناك اشياء قليلة بقيت من نهاية المملكة القديمة (الاسرة السادسة)، اما العصر البرونزى فيشمل المملكة الوسطى ويستمر الى وقت غير محدد، وأختلاف الاراء بالنسبة لبداية عصر الحديد فى مصر كبيرة بدرجة مفرطة «تاريخ ابتداء عصر

الحديد فى مصر يثير جدلا دائما ولسوء الحظ لم يوجد دليل صغير حى على ذلك مع تقدم الوقت» (١٣). وقد يثبت ان عصر الحديد فى مصر قد سبق عصر البرونز (١٤) كما يرى بعض المؤلفين (١٥).

عصر الحديد بدأ حوالى ١٨٠٠ ق. م مع نهاية الاسرة الوسيطة، وهو رأى فريق آخر، فيما يرى فريق ثالث إنه بدأ زمن رمسيس الثانى.

عصر الحديد المتطور بدأ فى مصر، كما يؤكد بعض الدارسين، ١٢٠٠ ق. م أم فى أيام رمسيس الثالث، بينما يحبذ الكثيرون ١٠٠٠ ق. م تحت حكم الاسرة الليبية (١٦).

ولكن يقال أيضا، ان عصر الحديد المبكر لم يبدأ فى مصر حتى ٨٠٠ ق. م (بين الاسرة ٢٢ والاسرة ٢٥) (١٧)، بل يمكن اعتبار سنة ٧٠٠ ق.م كبداية لعصر الحديد فى مصر (١٨). وتأكد أيضا أن أقدم عملية صهر فى مصر (فى ناوقراطيس) تعود الى القرن السادس ق.م كل هذه الآراء المختلفة التى تغطى التاريخ المصرى القديم لها المدافعون عنها. «كان الحديد اكثر المجالات تناقضا فى الآراء حوله» (١٩). لابد ان يحدد معيارا لبداية عصر الحديد، ولابد ان نقسم المشكلة إلى جزءين:

متى استطاع الانسان ان يصنع الحديد؟ ومتى بدأ الاستخدام العام للحديد وقل استخدام البرونز والنحاس؟

أسبقية استخدام الحديد أمر مسلم به ليس بسبب العملية التكنولوجية الابسط لتصنيعه بالمقارنة بالبرونز فقط، او بسبب انتشار ركاز الحديد، ولكن بسبب الدليل الذى يقدمه بالادوات المنجزة بالفعل.

حجارة الاهرام قطعت فى كتل مربعة خلال الاسرة القديمة، النحاس او البرونز لايقطع الحجر الصخرى الجيرى. التابوت من الجرانيت بزواياه المنحوتة بشكل متقن وحوافه الحادة بخطوط عمودية مستقيمة، والنحت بخطوط جميلة للرموش والشفتين، والمؤرخة من الاسرة الرابعة، والخطوط الحادة للغة الهيروغليفية المنحوتة فى الجرانيت والبازلت وهما من الحجارة الصلبة ومن حجر الديوريت أصلبهم جميعا، كل ذلك يشير إلى ان ما استخدم فى ذلك صلب كالصلب نفسه. وقد يسخر نحات معاصر من فكرة ان شيئا أقل صلابة من الصلب يمكن أن يخدش هذه الحجارة التى تثلم الازميل الصلب بعد عدة ضربات ولقد اكتشفت اشياء مختلفة من

الحديد فى مصر قبل عصر الاسرات. فى «جيزرة» على بعد حوالى ٥٠ ميلا من القاهرة وجد خرز من الحديد ينتمى إلى عصر ما قبل الاسرات (٢٠). ازميل حديدى وجد بين حجارة الهرم الاكبر يرجع إلى الاسرة الرابعة (٢١). عدد من الازاميل وأدوات أخرى وجدت فى سقارة يرجع تاريخها إلى الاسرة الخامسة. (٢٢) عدة قطع من معول يرجع الى الاسرة السادسة كشف عنه فى ابوصير (٢٣)، كومة من تراب الحديد، وبما اسفين متحلل، اكتشفت فى أبيدوس (٢٥).

معظم هذه الاشياء، يظهر فيها احتواءها على النيكل، مما يدل على انها مصنوعة من حديد نيزكى. ازميل الهرم الاكبر وقطع ابيدوس وجد انها تحتوى آثار من النيكل وان لم يكن التحليل حاسما. لايتطلب الحديد النيزكى عملية استخراج بصهر الركاز، واستخدام الحديد النيزكى دون ان يستخرج الحديد من الركاز، فعملية التصنيع لاتعتبر كاملة، وأن عصر الحديد لم يبدأ بعد.

ومن ناحية أخرى فان الحديد النيزكى اكثر صعوبة فى طرقه من الحديد المستخرج من الركاز.. يؤكد بعض الدارسين ان الجيولوجيين قد جمعوا مائة طن من الحديد النيزكى فقط أغلبها من نصف الكرة الغربى، ولذا مادام المصدر نادرا فان العصر الحديدى الحقيقى لم يبدأ بعد. ويعتقد آخرون ان الانسان الذى استخرج المعادن لمدة خمسة أو ستة آلاف سنة، كان تحت يده فى الوقت الذى تعلم فيه استخدام الحديد النيزكى، النيازك التى سقطت على الارض لمئات الملايين من السنين.

ومع ذلك، فقد وجدت أداة أو أداتين من الاسرة السادسة لاتحتويان على نيكل ولذا فهى ليست من حديد نيزكى، وهذا يعنى ان عملية صهر الحديد كانت معروفة بالفعل فى المملكة القديمة، واذا اعتبرنا ان اول عملية صهر للركاز هى بداية العصر الحديدى، اذن فقد بدأ ذلك العصر فى وقت مبكر. ولكن يظل السؤال: لماذا لم يصل الحديد المستخرج من الركاز إلى الاستخدام العام اذا كانت عملية الصهر معروفة؟ وعموما لماذا أتى عصر البرونز أولا ثم عصر الحديد ثانيا؟ ولكننا نعلم، على الأقل، ان الحديد لم يشع استخدامه فى المملكتين القديمة والوسطى، ليس بسبب نقص فى المهارة وأنما لسبب آخر.

البرونز والحديد
بعد سقوط المملكة الوسطى

تقدم الاجزاء التاريخية من الكتاب المقدس التى تغطى الفترة من الخروج حتى العودة من المنفى، فلسطين فى حضارة حديدية ،وبرونزية متزامنة.. كان النحاس والبرونز يستخدمان فى أغراض كثيرة لايستخدمان فيها اليوم، لكن الحديد كان معدنا مألوفا وعملية تصنيعه مألوفه، وقد ذكر بالتساوى فى الكتاب المقدس مع المعادن الأخرى.

حين وصل الاسرئيليون إلى فلسطين بعد تيه الصحراء، وجدوا ان سكان البلاد الاصليين يستخدمون الحديد (السرير الحديد لعوج ملك باشان، والاوعية الحديدية فى أريحا) ولأن الفلسطينيين أو قفوا عملية الغزو (العمالقة) لم يستطع الاسرائيليون انتاج الادوات فلم يكن لهم سبيل إلى المناطق التى تحوى المناجم (١)، واذا احتاجوا الحدادة فى عمل ما يذهبون إلى اسفل الوادى إلى الفلسطينيين. وكان الفلسطينيون يستخدمون البرونز لصناعة السلاح، والحديد لصناعة رؤوس الرماح (٩٢ وكان لدى الكنعانيين عربات حديدية، ولم يكن لدى الاسرائيليين شيئا منها (٣).

بسبب هذه الظروف، كانت الاشياء المعدنية نادرة فى التلال التى احتلتها القبائل الاسرائيلية، ولايوجد الكثير منها ليعثر عليه علماء الآثار.

فى «شيفيلا» (على الساحل) ترك الحديد الفلسطينى بلا عناية ليصدأ فى عدة سنوات، ولكن تحت ظروف معينة يمكن ان يبقى لآلاف السنين، ومثل هذه الظروف توافرت فى جيزير «استنثناء غريب للغياب التام للحديد فى الفترات السامية المبكرة، لابد من الاشارة إليه. وجدت فى القاع تماما للجزء المنحدر من مجرى مائى، كتلتين من الحديد بشكل الاسفين، من الواضح انها جزء من شفرات فأس أو معزقة. كيف وصلت إلى مكانها فى عصر قبل إنتشار استخدام الحديد بأربعمائة أو خمسمائة سنة؟ لايمكن تفسير ذلك بسهولة» (٤).

وكما قيل من قبل، فان المنقب فى «جيزير» غير فى عصور الفترات السامية التى أقرها المنقبون السابقون، بحوالى خمسمائة سنة، ولذا فان

الشفرات الحديدية يعود تاريخها فى الغالب إلى عصر القضاة حين كانت «جيزير» مدينة فلسطينية -عمالقية.

فى الايام التى حكم فيها عامو-هكسوس مصر من «اواريس» فان استخداماتهم بخصوص تصنيع المعادن، لابد إنها كانت مشابهة لتلك المستخدمة فى فلسطين. فقد وجدت مثلا اداة حديدية فى مصر تتاشبه مع الشفرات الحديدية من جيزير، كذلك وجد اسفين مع حلقة معدنية ليد معزقة قرب اسنا، هذه القطع يرجع تاريخها إلى الاسرة ١٧ فى نهاية فترة حكم الهكسوس (٥).

فى الجزء الأخير من القرن الحادى عشر قبل الميلاد، حين حقق الاسرائيليون الاستقلال تحت حكم شاؤول وداود، دخلوا عصر الحديد والبرونز من جديد، وجلب داود نحاسا كثيرا جدا من دمشق (٦)، وأصبحت الوبات والاسهم المعدات الحربية الجديدة للاسرائيليين (صمويل الثانى ١: ١٨)، وحين فقد «شعب السهام» (٧) أى العمالقة مركزهم، صنعت السيوف والدروع من البرونز (أو النحاس) ولكن المعدات الزراعية (المسحاة مثلا) والفؤوس صنعت من الحديد المعدن الرمادى (٨). ولبناء الهيكل جهز داود «الحديد بوفرة لمسامير الابواب والبوابات وللربط، والنحاس بوفرة دون وزن » ولكل معدن استخدامه الصحيح (النحاس لاشياء من نحاس والحديد لأشياء من حديد)، وشارك أمراء اسرائيل بنصيب فى بناء الهيكل: ١٨ ألف شاقل من النحاس والبرونز ومائة شاقل من الحديد، مما يدل على ان الحديد كان اكثر شيوعا من النحاس والبرونز (٩).

التغيرات على المسرح السياسى، صاحبت امتلاك الاسرائيليين للصناعة المعدنية، وبنهاية سيطرة العمالقة تملك الاسرائيليون مصادر النحاس والحديد فى اقليم «ادوميت» وفى عربة وأماكن أخرى، وتعلموا الاشغال الفنية للمعادن من الفينقيين ومن مواطنيهم الذين يعيشون بجوار المدن الفينيقية (١٠).

مناجم منطقة عربة، بين البحر الميت وخليج العقبة، وسيلا وبترافى منتصفها، كانت تستغل بنشاط فى أيام داود وسليمان. وقد حملت المنطقة اسم «وادى الحدادين»، وكان الفينيقيون الذين يعيشون هناك هم الحدادين الذين زودوا ترسانة العمالقة بالاسلحة، قبل سقوطهم واخضاع داود

للوادى. والمنطقة غنية بخام النحاس وركاز الحديد. وقد استكشفها فى السنوات الحديثة ن. جلويك (١١) ووجد هناك أفران صهر مبعثرة على طول الوادى.

كان الحديد والنحاس يصنع هناك أيام سليمان، فقد كشف عن مسامير حديدية كبيرة عزيت إلى عصره.

وكان ميناء سليمان «ازيون جيبير» على خليج العقبة مجتمعا صناعيا حيث الافران مزودة بنظام السحب الذى كان يستخدم «فى صهر وتنقية النحاس والحديد وصناعة الادوات المعدنية للوطن والاسواق الاجنبية» (١٢).

وأحضرت الفضة أيام سليمان بكميات كبيرة فى سفن أتت من أماكن بعيدة، صانعة ثورة أخرى، كما نقرأ فى الكتاب المقدس وفى نقوش وزراء حتشبسوت. وأقيمت فى مصر وفلسطين مبان جديدة مرفهة، وفى بعض الحالات استخدمت الفضة للأرضيات (١٣).

اكتساب الاسرائيليين السريع لمهارة التعدين تبعتها عملية مشابهة فى مصر. وكان لدى تحتمس الثالث (شيشاك) ١٢ ألف عربة لعبت دورا كبيرا فى اخضاع سوريا وفلسطين. وقد استخدم السجناء من رزينو (فلسطين) فى ورش المعادن فى مصر، وتعلم المصريون الصنعة منهم، كما هو واضح فى الصور على مقبرة «ريخيمر وزير تحتمس الثالث (١٤)

كان النحاس يجئ كجزية من سوريا وقبرص، كما استؤنف العمل فى مناجم سيناء، وفى قائمة الجزية فى احدى حملات تحتمس الثالث فى سوريا، ذكرت أوعية مصنوعة من الحديد النيزكى (١٥)، وقائمة بثروة المعبد فى «قطنة» كتبت قبل فترة من خضوعها لتحتمس الثالث، تحتوى على ادوات مصنوعة من الحديد ست منها مطلية بالذهب (١٦).

هذا لايعنى ان الحديد كان نادرا على وجه الخصوص، فالحديد المحفوظ فى المعابد كان من أصل نيزكى (معدن السماء) وكانت النيازك التى تهبط على الارض، يحفظ ماتبقى منها فى المعابد بتبجيل سواء فى معبد عشتار فى صور، أو فى معبد أمون فى طيبة، وفى دلفى وفى المكسيك وفى الوقت الحاضر فى مكة (١٧)، ولأنه حديد نيزكى، فقد كان يطلى بالذهب ويحفظ فى المعابد كما فى قطنة وغيرها.

وكان للشعوب المختلفة حول حوض البحر المتوسط تفضيلهم لمعدن على آخر، لكن فى معظم الحالات كان التوزيع الطبيعى للمعدن الخام يشير إلى تفضيل النحاس أو الحديد.

وقد وجدت فى قصر اشوربانيبال وشالمانسر الثالث فى القرن التاسع ق. م فى نمرود والذى سكن فيه أيضا تجلات-بليس فى النصف الثانى من القرن ٨ ق. م، رؤوس حراب وسهام وفؤوس ومناجل من الحديد. وكان هذا الحديد قد استخرج من مناجم «تيارا» شمال شرق نينوى، ومن اقليم شالبيس جنوب شرق البحر الاسود فى حوالى ٨٨١ ق. م من حمل خصب من الحديد أرسل من المكان الأخير إلى أشور بانيبال فى نينوى.

وقد كان هذا الاقليم تحت سيطرة الكلدانيين، فلابد ان نتوقع ذكرا للحديد فى الجزء الأول من سجلات بوغازكوى، وفى الواقع هناك قائمة طويلة من ذكر الحديد فى هذه الوثائق التى تصل إلى اواخر الامبراطورية الحيثية حوالى ١٢٠٠ ق. م.

هنا كان الحديد معدن شائع وليس البرونز الذى اعتاد عليه الناس فى بلاد أخرى من الشرق الادنى (١٨). فلم يكن الفينيقيون على الساحل السورى، بسبب قربهم من قبرص بمناجمها من النحاس، مغرمين بمشغولات الحديد، مع إنه كان يصنع هناك بكميات صغيرة. وليس غريبا ان معظم المعدن الذى وجد فى رأس شمرا هو النحاس القادم من قبرص، ومع ذلك فقد وجدت أدوات من حديد صدأ هناك أيضا (١٩).

أحد أهم النقاشات المؤيده لنظرية ان العصر المسينى Mycenaean يسبق ملاحم هومر، تعتمد على افتراض ان المقابر المسينية تنتمى إلى عصر البرونز، بينما الالياذة والاوديسة تعكسان عصر الحديد. كانت اسلحة أبطال هومر من البرونز، ولكن الحديد ذكر ٤٤ مرة فى الملحمتين، مع ان بعض المراجع ذكرت ان الحديد كان نادرا فى تلك الاوقات (٢٠). لقد نسخ العصر الحديدى عصر البرونز حين عرفت صناعة الصلب، واذا كان البرونز كثيرا فى المقابر المسينية، فان الحديد لم يكن غائبا أيضا (٢١). وكما فى أيام سليمان وكذلك فى أيام هومر (تقريبا القرن الثامن ق. م) كانت صيدا بها برونز بوفرة (تعج بالبرونز)، واذا كانت قبور المسينيين تخص الكاريين الذين هاجروا من اوغاريت او أمراء «أرجيف» الذين

تزودوا بالاسلحة عن طريق التجار الفينيقيين، فليس من المدهش ان نجد ان البرونز وفير بالمقابر والحديد نادر.

وكانت منطقة مناجم النحاس فى قبرص (تيميسا)، تصدر النحاس ليس لمصر فقط، ولكن إلى منطقة البحر الايجى أيضا، وكانت السفن التى تبحر محملة بالنحاس تعود محملة بالحديد (٢٢).

بسبب هذا التوزيع للمعادن، كميات كبيرة من النحاس فى قبرص وسيناء، وفقر فى ركاز الحديد فى مصر، فقد كان البرونز هو المعدن الرئيسى لفينيقيا ومصر، ولكن الحديد كان أكثر استخداما فى أشور وكلديا.

توشراتا فى ميتانى - المتزامن مع فترة العمارنة - كتب إلى زوج ابنة امنحتب الثالث، إنه سيرسل له سكينا مقدسة من الحديد، وخواتم حديدية مطلية بالذهب. كما ارسل إلى اخناتون خواتم مطلية بالذهب وخنجر نصله من الحديد ومقبضه من ذهب مزين بأحجار كريمة، وحقيقة أن خنجرا من الحديد له مقبض من ذهب وبرونز لايعنى بالضرورة ان الحديد كان أندر من الذهب أو البرونز. وذلك كما نفترض بأن عالم آثار من المستقبل وجد طقما من سكاكين المائدة بمقابض فضية.. هل سيظن ان الفضة فى أيامنا أقل ثمنا من الصلب؟

كانت خواتم الحديد تطلى بالذهب للاقتصاد فى استخدام الذهب، كما يحدث فى ايامنا حين تطلى المعادن الأقل قيمة بالذهب. وفى «مجدو» وجدت أدوات حديدية بجانب مسبوكات حديدية، كما وجدت خواتم حديدية مطلية بالذهب أيضا (٢٤).

فى مقبرة توت عنخ آمون كان النحاس موجودا أكثر من الذهب مع ان عصر النحاس انتهى قبل الاسرة الوسيطة، كما وجد هناك خنجر من الصلب بمقبض من ذهب مع اشياء صغيرة من الحديد (٢٥). فى هذا الوقت كانت عملية السيطرة على محتويات الكربون فى الحديد قد أحكمت على الأقل فى الشمال، ولذا فإن نصل خنجر من الصلب المعالج أحد من نصل من البرونز يمكن ان يوازيه فى المتانة وطول العمر.

فى جميع العصور، فان معالجة الصلب اشتهرت فى مكان واحد، ثم انتقلت إلى الاماكن الأخرى، ونصول دمشق وكاستليان كانت الأكثر شهرة

من أى مكان أخر.

وعندما حل الاثيوبيون محل الليبيين فى مصر. فان مصدرا جديدا للحديد انفتح للبلاد فى الجنوب (٢٦)، فقد وجد خبث الحديد فى اكوام فى موريو فى نيبيا ويعزى إلى هذه الفترة بداية العصر الحقيقى للحديد فى مصر. وقد اكتشفت ادوات واشياء حديدية صغيرة فى مصر فى عصر الاسرة الاثيوبية. غزو الاشوريين لمصر تم بأسلحة حديدية، وقد وجدت أدوات اشورية مصنوعة من الحديد فى مصر (٢٧). ولم يكن الحديد من الغنائم التى أخذها اشور بانيبال من مصر ٦٦٣ ق. م، ولكن الملك نفسه عدد الاشياء الحديدية التى أخذها من سوريا (٢٨). الانطباع العام ان الامم التى كانت تستخدم الحديد، خاصة لتصنيع السلاح، كانت قادرة على اخضاع الامم التى تستخدم البرونز: الغزو الاشورى للمدن الفينيقية، الغزو الاثيوبى لمصر، والصراع الطويل بين أشور واثيوبيا على مصر أحد الامثلة.

مع بداية الاسرة ١٩، أى الاسرة ٢٦ بانتهاء سيطرة الاسرة الاثيوبية، المصدر الاثيوبى للحديد قد انتهى. اليونانيون فى «دافناى» وبعد ذلك فى ناوكرابيش قللوا من استخدام ركاز الحديد واعتمدوا على السبائك فى صناعة الادوات التى كانت مقصورة على المستوطنين اليونان، وهى حالة مميزة فى مصر (٢٩)، فلم نجد بقايا من الحديد كتلك التى خلفها المستوطنون اليونان من عصر السياتيك (٣٠) ولا حتى من العصور المتأخرة من الفرس أو البطالمة أو الرومان. وحيث ان خام الحديد فى مصر من نوعية رديئة فقد كان يستخدم فى الادوات المنزلية التى لاتتطلب معدنا جيدا مثل الاسلاك والمشابك والسلاسل وما شابه، وقد استورد رمسيس الثانى الحديد الجيد من الشمال.

فى خطاب وجد فى أرشيف بوغازكوى، وبما كتبه حاتوسيليس (نبوخذ نصر) إلى رمسيس الثانى، يقول «بالنسبة للحديد النقى الذى كتبت لى عنه، فلا يوجد حديد نقى فى منجم كسوادبا الذى أغلق، فالوقت غير مناسب لصنع الحديد، لكنى أمرت بتجهيز الحديد الذى طلبته» (٣١).

وهكذا فان حاتوسيليس ورمسيس الثانى عاشا فى عصر حديدى متطور تماما. والسبب فى طلب الحديد من الشمال فى الوقت الذى كان

يصهر فيه الحديد على أيدى المستوطنين المرتزقة فى مصر كان بسبب الفرق فى النوعية.

وقد سأل إرميا فى الوقت نفسه «هل يكسر الحديد الحديد الذى من الشمال والنحاس» (١٥: ١٢).

فى تلك المرحلة كان الحديد يستورد من غرب المتوسط: كانت ترشيش تتاجر بالفضة مع صور، والحديد والرصاص (حزقيال ٢٧: ١٢) والحديد اللامع من اليابان (ايونا) (٣٢).

وقد أغنى الحديد والبرونز اللغة بالاستعارات: جعلتك عمود حديد.. واسوار نحاس (إرميا ١: ١٨) وحزقيال (٤: ٣) مبنى رمزى (حائط من الحديد) ورمسيس الثانى يقول عن نفسه «أنا حائطك الحديدى» (٣٣).

ومن المعروف أيضا (إنه فى عصر الاسرة ١٩ (١٣٠٠-١٢٠٠ ق.م) اصبح الحديد هو المعدن الشائع فى جيزر جنوب فلسطين حيث كانت تصنع منه السكاكين والخناجر ورؤوس الحراب والرماح والمثاقب والخطافات والمناجل» (٣٤) فى الواقع ان الاسرة التاسعة عشرة حكمت فى القرنين السابع والسادس ق.م.

ولأن المصريين كان لديهم مخزونهم من النحاس، والفينيقيين تحت تصرفهم مايوجد فى قبرص، فقد كانوا مهرة فى صناعة الادوات النحاسية والبرنزية (٣٥) وظل هذا قائما فى مصر حتى الغزو الاسلامى (٣٦) ومع ان مناجم سيناء توقفت عن الانتاج منذ فترة طويلة فان حب الاوعية النحاسية واضح حتى الآن.

الذهب والفضة والالكتروم (خليط من الذهب والفضة) معادن ثمينة لاتصدأ. وقد عرف المصريون ان الحديد يصدأ، فلم يصنعوا أدوات حديدية وسط الأثاث الجنائزى وأوعية الميت الخاصة اذا كان شخصا نبيلا أقل من الفرعون بالطبع. فندرة وجود الحديد المستخرج من الركاز المنصهر يمكن تفسيره بالاختيار المتعمد لاشياء غرف الدفن.

بالاضافة إلى محبة النحاس اللامع والبرونز وتفضيلهما على الحديد، فان تابو دينى قد يكون لعب دورا فى التطور البطئ للحديد. فلقد وجد تابو ضد استعمال الحديد فى بعض الاشياء فى فلسطين - حجارة المذبح فى المعبد الاسرائيلى لابد ان تشكل دون استخدام الحديد (٣٧) كذلك لوحظ

تابو مشابه فى اليونان وفى الديانة الرومانية (٣٨)، وهى عادة مازالت شائعة الانتشار. كان الحديد يسمى فى مصر «عظام ست» ولعب دورا فى المعتقدات الدينية والخرافات. وقد وجدت، ولكن بندرة، آلات دقيقة تستخدم فى فتح فم الميت مصنوعة من البيا (المعدن السماوى - حديد سقط من السماء مع نيزك) فى المقابر، ولقد ذكر ذلك فى كتاب الموتى المصرى (٤٠).

المعتقدات الدينية، التوزيع الطبيعى للحديد والنحاس، نوعية ركاز الحديد، طبيعة التربة الزراعية (طينية فى مصر، صخرية فى أشور وفلسطين) كانت العوامل الرئيسية فى المنافسة بين الحديد والنحاس. وبالتالى من الخطأ مثلا ان نرجع تاريخ القاهرة الوسطى إلى فترة أبكر من نمرود آو نينوى أو خور ساباد من القرنين ٩، ٧ ق. م بسبب ان الحديد قد وجد فيها بكميات أكبر منها فى مصر.

حين غزا الاثيوبيون أو الاشوريون مصر أحضروا معهم الحديد، وكذلك المرتزقة اليونان، فالمستوطنات اليونانية فى مصر تبين ان اليونانيين فضلوا الحديد بينما فضل المصريون النحاس. وان فرض التتابع التاريخى بناء على كميات الحديد أو البرونز المكتشفة خطوة خاطئة، مايهم فى الفترة التى نبحثها فى هذا الكتاب ان مصر، مثل كل البلدان، قد عرفت واستخدمت الحديد، وأشير إلى ذلك فى المصادر، ووجد فى الحفريات. وهناك حقيقة بالاهمية نفسها انها بعلاقاتها بالبلدان الاجنبية، كان يأتيها الحديد من سوريا كجزية أيام تحتمس الثالث، أو كطلب من ملك آخر كما فعل رمسيس الثانى. وقد كانت المملكة المصرية الجديدة وسط عصر الحديد فى الشرق الاوسط والادنى.

ومن ناحية أخرى فان الكتاب المقدس، والمؤلفون الكلاسيكيون من هومر ومابعد، اشاروا فى عشرات المراجع ان الحديد لم يحل محل البرونز فى استخدامات كثيرة، خاصة فى الاسلحة، حتى نهاية الفترة التى نسميها العصر الهلينى فى التاريخ القديم، وكان التقدم فى مصر هو الشىء، نفسه وان كان ابطأ» (٤١).

يمكن اجمال القول ان تقسيم الفترات التاريخية إلى عصور من البرونز أو الحديد مع تقسيم هذه العصور الى مبكر ووسيط ومتأخر، مع

تقسيم فرعى آخر الى ١، ٢، ٣ ثم تمييز هذه الاقسام الأخيرة إلى أ. ب. جـ يمكن ان يدافع عنها كطريقة لوصف تتابع العصور لبلد معين، ولكنها لايمكن ان تلقى وضوحا على علم الآثار المقارن، حيث ان الحديد لم يتطور بالدرجة نفسها فى كل بلدان البحر المتوسط، ولايزعم التاريخ التقليدى هذا التوازى، ولكن التسلسل التقليدى للتاريخ يوقع نفسه فى حالات كثيرة متصارعة باستخدام العصور المعدنية وتقسيماتها لفترات تاريخية متزامنة لبلدان العالم القديم.

الجعارين وعلم تراصف الطبقات

غالبا ماتوجد أسماء منقوشة على الجعارين أو الخنافس المصنوعة من الخزف أو الزجاج أو الاحجار الكريمة أو المعدن، أو خرطوش الملك وأحيانا اسماء اشخاص مميزين، ومن الواضح انها كانت تستخدم كأختام، ومن المشكوك فيه إنها استخدمت كنقود، فلايوجد مرجع واحد ولاحتى صورة تشير إلى استخدامها كنقود أو فى أى عملية دفع. استخدم بعضها لتخليد ذكرى مناسبة هامة، مثل تلك الجعارين الكبيرة التى تخلد ذكرى زواج امينحتب الثالث وتيه Tiy. وقليل منها يحمل امنيات طيبة مثل «رأس سنة سعيدة»، مثل الكروت التى ترسل اليوم، ويمكن اعتبارها كتعاويذ وتمائم ولكن ليست كلها، فتلك التى تحمل خراطيش بأسماء ملكية لابد انها كانت تخدم اشياء تاريخية.

«ليس كل الجعارين المصرية تستخدم كأختام، وقلة منها، تقارن بتلك التى كانت تستخدم كأختام، تستخدم كتعاويذ» (١).

«الأختام التى على شكل جعارين، تقّيم كدليل اضافى لبيانات تاريخية أخرى، ولايجب تجاهلها، ولايمكن لبعضها ان يلقى بخفة كأنه تحفة زينة على يد عالم آثار ربط نفسه بالعمل على التساؤل او حل المشاكل الكثيرة التى ثارت اخيرا وتتعلق بالشعوب المبكرة لاقليم البحر المتوسط» (٢).

وهذه المشاكل نشأت بسبب العثور على جعارين فى مناسبات عديدة فى أماكن من المفترض انها من فترة أبكر بعدة قرون من تاريخها.

ولقد ابتدعت كل انواع التفاسير لهذه المشكلة.

قيل ان بعض الجعارين قد لاتكون أصلية، ربما من انتاج مزيفين معاصرين لأشياء قديمة، ولكن لو وجدت فى الموقع مثلا، كمقبرة غير مفتوحة، فلابد من النظر إليها بثقة اكبر.

لقد زيفت النقود والاختام فى كل العصور، لكن حين توجد نقود يونانية أو رومانية اثناء عملية التنقيب فان اصالتها نادرا ما ينظر إليها بعين الشك. كذلك فان المزيفين فى العصور القديمة لابد انهم قلدوا العملات والاختام المتداولة.

فى حالات أخرى، حين لايمكن الشك فى اصالة الجعارين، يقال إنها ميراث تناقلته الايدى من جيل لآخر عبر القرون لتوضع أخيرا فى محيط ليس من عصرها، وهذ هى الطريقة الثانية التى تقلل من قيمتها كدليل على العصر الذى وجدت فيه.

وأحيانا نجد مجموعة كبيرة من الجعارين توجد فى مقبرة، لسبب ما، وتشير إلى فترة واحدة وتنسب لعصر أخر متأخر عنها بستمائة سنة (٣)، آنذاك يقال ان المجموعة قد نقلت من قبر قديم إلى «القبر الجديد» الذى لابد ان يكون بناته من سارقى القبور.

وفى ضوء حقيقة ان تاريخ مصر وفلسطين يموج بالفوضى بالنسبة لتوازى المعاصرة، فاننا نتوقع ان الجعارين الموجودة فى فلسطين لابد انها متساوقة مع تاريخ أكثر قدما من المحيط الذى وجدت فيه.

فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى، اشترك «ماكللستر» مع «بليس» فى عمل أثرى فى فلسطين، واتبعوا تاريخهم بتقييم تراصف الطبقات، وعند الحفر فى «جيزير» غيرا تقييمهم السابق بعدة قرون. «حاول ان يرتب مسار التاريخ بحيث يغطى فجوة فى تاريخ المدينة تقدر بعدة قرون (٩-٦)، فنقل تواريخه بين ١٢٠٠-١٣٠٠ ق. م، بعدة قرون.

هذا الخطأ فى رؤية التسلسل أو التتابع التاريخى سار به الالمان إلى مدى أبعد، وقد ضللتهم فجوات مشابهة فى أريحا، بسبب تفسيرهم التاريخى المتسرع لمكتشفاتهم، مما جعل الخطأ يصل بهم فى نقطة واحدة إلى حوالى ٨٠٠ سنة (٤) «والحقيقة ان تحول «ماكالستر» إلى تاريخ أقل لما وجده من فخار (عصر الحديد المبكر الثانى أو عصر الحديد المتوسط) من السهل تفسيره، ففى «جيزير» هناك فجوة تاريخية كاملة تقريبا بعد

القرن العاشر ق. م» (٥).

السبب الحقيقي لهذه التغيرات في الادلة المتصارعة لعلم الآثار في فلسطين، هو اعتماده على تسلسل التاريخ المصري التقليدي.

في بعض الحالات فان هذه التبعية للجدول المصري تكون متعذرة، بسبب دليل آخر في طبقة تحت الفحص، آنذاك يعلن ان الاشياء المصرية متوارثة.

وبعد ذلك، عند اعادة التقييم فان الموجودات التي أعلن انها موروثة توضع معاصرة للمستوى الذي وجدت فيه (وهي الحالة التي تتعلق بصفة خاصة بجعارين عليها علامات مصرية). أينما حفر علماء الآثار في فلسطين فانهم يجدون جعارين بعلامات مصرية، وغالبا بأسماء ملوك مصريين، ولكن هذه الاسماء عادة تشير إلى ملوك من قرون مغرقة في القدم، فكيف يمكن تفسير هذه الموجودات؟

حين كان «بليس Bliss وماكالستر Macalister» ينقبون في «تل الصافي» وأماكن أخرى من فلسطين، وجدا ثلاثين جعرانا تحمل اسم تحتمس الثالث وأمينحتب الثالث وفراعنة أخر، في طبقة أرضية معروفة انها تنمتي إلى عصر المستعمرات الاسرائيلية، فكتبا «من الواضح ان بعضها ان لم يكن كلها، مجرد تقليد فلسطيني لعينات مستوردة ولذا فهي عديمة القيمة في تحديد تاريخ الاشياء المرافقة لها. إنه قانون أثري أولى لايمكن للجعارين أن تعطي تحديدا كبيرا للتاريخ تحت أفضل الظروف، وحين يتدخل عنصر النسخ فان أهميتها الأثرية تتلاشى» (٦).

كانت الجعارين هدايا من الفراعنة، وكانت الاختام الرسمية للأسر الملكية الحاكمة تستخدم في مصر وفي البلاد التابعة لها، فهذه الاختام وجدت في فلسطين على ايدي الجرار التي تحتوي الزيت والنبيذ، وعلى الاحجار المستخدمة كاوزان، فلماذا تكون هذا الاختام التي تحدد الشرعية وأغراض رسمية أخرى تقليدا لأختام الفراعنة القدماء؟

وجدت جعارين كثيرة في فلسطين في سنوات تالية، علامات الاصالة عليها واضحة فهي لاتختلف في أية ناحية عن الجعارين التي وجدت في مقابر الموظفين الرسميين للملوك الذين توجد اسماؤهم على الجعارين.

هناك تفسير آخر لوجودها واستخدامها في فلسطين بعد ستمائة سنة

من صنع الجعارين المطابقة لها واستخدامها فى مصر.

المنقبة فى أريحا «سيلين» والعالم «واتزنجر» كتبا «بلا أدنى شك فان كل الجعارين التى وجدت صناعة مصرية أصيلة فى عصرها ولايوجد واحد منها أجنبى أو من عضر متأخر» (٧).

ومرة ثانية «لقد ثبت مرارا عند التنقيب فى فلسطين بأن الجعارين القديمة التى تحمل سمات قرون ماضية تعاويذ غير دقيقة، ولذا حين نجدها نحصل على طريق لايؤدى إلى نتيجة، والاكثر من ذلك، ان المقابض المختومة بالجعارين تشبه بالضبط تلك التى فى أريحا ولم توجد قط فى طبقة الحفر لمقابض كنعانية خزفية» (٨).

حسب الملاحظة الأخيرة، فان الجعارين الاصلية استعملت فى فلسطين بعد قرون من عدم الاستعمال وأيضا لم توجد فى طبقة الموجودات الكنعانية المعاصرة لزمن الفراعنة الذين صنعوا هذه الجعارين. هذا هو الأقل غرابة، ولايقل عنه غرابة ان الاسرائليين لم يستعملوا جعارين عصرهم تعاويذ ولكن استعملوا جعارين قديمة.

«ونحن مضطرون للافتراض بأنها كانت عادة فى فلسطين استخدام الجعارين القديمة.. فى وقت لم يعد يفهم فيه معناها الاصلى» (٩). استخدم الاسرائيليون هذا الاختام ليس كتعاويذ بالدرجة الأولى، ولكن لختم الجرار وأحجار الوزن، ولايوجد سبب لاستخدام اختام أصيلة لفراعنة قدامى لذلك الغرض أو حتى تقليد لأختام قديمة. الاختام العبرية على مقابض الجرار اعتبرت معاصرة للفترة التى وجدت فيها، فقط فى حالة المقابض التى عليها علامات مصرية (احيانا توجد فى الموقع نفسه) يفترض ان الاسرائيليين فضلوا الاختام القديمة، ولكن الاسرئليين لم يستخدموا الاشياء القديمة للفترة الكنعانية على اوانيهم أو فخارهم.

هل اذن، النظرية التى تقول «ان الجعارين إما إنها إرث أو اكتشفت ثم استخدمت كختم فى غير القرن الذى صنعت فيه، يمكن الدفاع عنها؟» (١١).

نبتعد قليلا عن جيزير، ونأتى إلى بيت شميش (عين شمس اليوم) هذه المدينة كانت كلها موجودة فى عصر القضاة وازدهرت فى عصر الملوك (١٢) وحيث ان عصر الملوك يشمل الفترة من ١٠٠٠-٦٠٠ ق.م، فبناء على

الجدول المبنى على التسلسل التاريخى المصرى، فان أوج ازدهار «بيت شميش» سيبدو أبكر بخمسمائة سنة. «اكثر القرون ازدهارا ومجدا فى بيت شميش بين ١٥٠٠-١١٠٠، وخلال هذه السنوات الاربعمائة كانت مكانا ثقافيا مهما» (١٣) لابد ان يكون لدينا دليل آخر غير مرتبط بعصر ليحسم الأمر.

وإليكم المثال التالى «غرفة اثرية رقم ٣٨٠. فى حائطها الجنوبى أعمدة حجرية تدعم الاساسات، وفى قاعدة أحدها جعران لتخليد ذكرى زواج أمينوفيس (أمينحتب) الثالث أقدم بـ ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة حين استخدم لآخر مرة فى اساسات الجدار. وربما قد وضع هناك سنة ١٠٠٠ ق. م، ليعطى سحره الفعال أمانا للبيت أو ليحمى الجانب الشمالى من المدينة» (١٤!).

هذا الجعران من الحجر الجيرى بالاسطر العشرة المكتوبة عليه، لايختلف عن أى جعران آخر فى المقابر الايجية أو فى انكومى فى قبرص، ولقد اعتبر الدليل الرئيسى لعصر تراصف الطبقات وللحضارة المسينية عموما «إنه يرجع إلى ١٤٠٠ ق. م ويعتبر ثروة قديمة وأودع لقيمته السحرية (أى وضع فى مكانه). وهو فى الحقيقة قدوضع فى مكانه سنة ٨٧٠ ق. م اثناء الفترة الأولى من حكم «يهوشابات» قبل قليل من مراسلات تل العمارنة. ولم يكن آنذاك ثروة قديمة، ووضعه فى اساسات الحائط ليكون شهادة على عصرها فى الايام التالية ينفى ان يكون قديما بالفعل زمن وضعه.

مثل هذا الوضع له موازيات كثيرة فى العمارة الاثرية للشرق، بل ان هذا الاستخدام يعيش إلى الوقت الحالى فى كل العالم المتحضر.

حددت «مجدو» فى الكتاب المقدس، بانها «تل المتسلم» الآن، التى تطل على وادى جزريل على المدخل الشمالى للطريق الذى يقود عبر الكرمل إلى سهل شارون. كشفت حفريات «شوماخر» هناك فى فترة مبكرة من هذا القرن عن مواد بدت عند الفحص تنتمى إلى فترات تاريخية متباعدة بشكل شاسع. وحين نشرت الموجودات فى «مجدو» بعد أكثر من عقدين، افترض المحرر «واتزنجر» التالى: «أصبح واضحا إنه اثناء عملية الحفر بحرية ان الطبقات الارضية الاعمق قد انتهكت، والاشياء الموجودة فى هذه الطبقات الاكثر قدما، أشير بأنها تنتمى إلى الطبقة نفسها التى وجدت

فى الطبقة الارضية العليا» (١٥)

الحفر الاخير الامريكى فى مجدو والذى نفذ فى مجال واسع، أنتج أيضا مادة ملتبسة. بقايا مبان ومقابر وجدت هناك فى مرحلة ماتشير إلى جنس جديد جاء إلى البلاد واستقر هناك. «شعب جديد ذو مشاعر فنية قوية نحو ديانته غزا البلاد فى نهاية عصر البرونز الوسيط، ومن الجعارين نستنتج إنه قريب من عصر الهكسوس المبكر» (١٦).

لكن ماعرف عن الهكسوس بأنهم بعيدون عن أى شعور فنى سواء لدينهم أو لأى شىء آخر، فهم لم يبدوا أى نشاط فنى فى مصر. اذن من هم الغزاة الذين حملوا ثقافة جديدة إلى فلسطين فى الايام الأولى لامبراطورية الهكسوس وهيمنتهم على شاطئ المتوسط؟

حسب خطة المراجعة التى نقدمها فى هذا الكتاب، فالاسرائيليون وصلوا فلسطين عمليا فى بداية فترة الهكسوس - العمالقة، الثقافة الجديدة فى فلسطين منذ القرن الخامس عشر فصاعدا، تفسر بحضور الشعبين هناك.

فى منتصف القرن العاشر، حصن سليمان مجدو، فى السنة الخامسة بعد وفاة سليمان غزا تحتمس الثالث فلسطين، وكما تعرف الآن فقد ضرب حصارا على مجدو واحتلها. فى الطبقة الارضية لقصر مجدو التى عزيت لعصر الحديد الأول، وجدت أختام باسم تحتمس الثالث «وجد الاسم الاول لتحتمس الثالث.. ليس مدهشا فى ضوء معرفة نزوع المصريين المتأخرين Later للجعارين التى تحمل اسم ذلك الملك» (١٧)

وبهذا التفسير العارض، استبعدت شهادة الاختام!

منذ كتبت هذه الاسطر، والمنقبون فى مجدو، وفى كل فلسطين، وجدوا مرة ومرة جعارين باسم تحتمس الثالث بتشكيل يسبق العصر بخمسمائة أو ستمائة سنة، مما يترك المنقبين فى حالة دائمة من الدهشة حين يوجد احتمال ولو بعيد بأن الجعران يسانده التاريخ التقليدى المقبول، فان اصالته أو طبقته الارضية التى وجد فيها لايُسأل عنها، والعكس صحيح.

فى التسلسل التاريخى التقليدى، الملك «سوسنك» من الاسرة الليبية، هو الفرعون «شيشاك» فى الكتاب المقدس، غزا فلسطين فى السنة الخامسة من حكم «ريحوبوعام» بن سليمان، وجدت كسرة فخار باسم

سوسنك فى «مجدو» كسرة من بلاطة وجدت هنا تثبت إنه احتل المدينة لفترة من الوقت على الأقل (١٨). وكما بينت سابقا فان تحتمس الثالث هو شيشاك فى الكتاب المقدس والفرعون «سو» فى التوراة، وهو الذى أرسل إليه يوشع بالجزية وهوالفرعون سوسنك (١٩). فبلاطة لسوسنك فى مجدو تكون أنذاك غير خارجة عن مكانها. لكن دمرت قيمتها الدلالية بالقول: «الكسرة من بلاطة لسوسنك جاءت من أحد الاكوام القديمة أو احدى بقايا حفر مبكر» (٢٠)، وشيء وجدناه فى كوم قديم لايجوز ان نخرج منه بنتيجة كهذه «من دليل شيشنك (سوسنك) من كسرة بلاطة، نستنتج ان الطبقة الرابعة (١٠٠٠-٨٠٠ ق.م) بنيت فى عصر «عمرى واهاب» (٢١).

كانت مجدو هى القلعة التى حاول اهازيا ملك يهوذا الهروب إليها اثناء ثورة ييهو Jehu بعد قليل من انتهاء حكم «اهاب»، كانت مدينة محصنة ومهمة، وقد حصنها سليمان (٢٢)، واستعيدت بعد حصار تحتمس الثالث لها، وزاد تحصيناتها امنحتب الثالث، فلاعجب ان البناء القوى لقصر مجدو «يوازى بالضبط بناء قصرى إهاب وعمرى اللذين وجدا فى السامرة» (٢٣).

حالة ثانية كهذه، نستدعيها لنؤكد التزامن المقبول بين عصر «عمرى» والاسرة الليبية فى مصر. وقد ناقشناه بتفصيل اكبر فى مكان آخر. ولكننا نثبته هنا لنبين أثر الختم الليبى الذى وجد فى السامرة فى بناء صرح التسلسل التاريخى.

فى أرضية قصر عمرى Omri وجدت أعداد من الاشياء المصرية الصغيرة. كانت الكتابة على الجعارين فى معظمها تصميمات زخرفية. لكن على أحد الجعارين كان هناك خرطوش لملك منقوشا عليه اسمه، وكان لتحتمس الثالث وحيث إنه لا يوجد تفسير معقول لوجود خرطوش باسم تحتمس الثالث فى قصر بالسامرة بنى بعد ستمائة سنة من وفاة هذا الفرعون، فقد اقترح المنقب رأيا بأنه «قد يكون هذا تقليدا محليا لجعران مصرى» (٢٤).

ولكن فى سياق اعادة كتابة التاريخ الحالية، فان تحتمس الثالث حكم قبل عقود قليلة من حكم عمرى Omri ومن الواضح ان الخرطوش أصلى.

وحسب التاريخ التقليدى، فان إهاب Ahab كان معاصرا للفرعون او

سوركون الثانى Osorkon II من الاسرة الليبية، ولقد وجدت جرة عليها خرطوش باسم اسوركون قرب قصر سامراء بالفعل (٢٥).

هذا الفرعون من الاسرة الليبية اعتبره المؤرخون هو الفرعون زيرا Zerah فى الكتاب المقدس، خصم أسا Asa فى أيام عمرى واهاب (٢٦)، ولكننا بالفعل حددنا الفرعون زيرا Zerah كأحد ملوك الاسرة ١٨ بأمنحتب الثانى او خبيروورى خليفة تحتمس الثالث ٢٧٠).

كيف يمكن، من موقفنا هذا، تفسير وجود جرة اسوركون فى السامرة؟ وحدث ان اكتشف تحت طبقة جرة اسوركون نقوش مكتوبة دمرت معناها كدليل تاريخي. كسر الفخار المنقوشة وجدت قرب القصر، ظن في بادئ الامر إنها من عصر «إهاب» ولكن عند اعادة الفحص نسبت إلى عهد «يروبوام الثاني» والآن، بناءً على رأى المنقبين فان اساسات بيت اوستراكا (التى تحتوى على الكسر المنقوشة) «لابد إنها دمرت قبل إنشاء بيت اسوركون «سمى هكذا بسبب الجرة التى وجدت فى خرائبه» (٢٩). يتبع ذلك ان كسر الفخار كانت من عصر يسبق عصر جرة اوسوركون او زمن وضعها هناك، الشيء الوحيد الذى يمكن للجرة ان تثبته ان اسوركون عاش بعد يروبوام الثانى وليس أيام إهاب ومع ذلك نقرأ ثانية وثانية ان الجرة التى تحمل ختم اسوركون الثانى تثبت ان «اهاب» واسوركون كانا متعاصرين (٣٠).

وهكذا نرى ان الجعارين التى وجدت فى فلسطين وأماكن أخرى عادة ماتنكر قيمتها التاريخية بأدلة مختلفة، ولكن أعدادا قليلة بالتأكيد وهى حالات غير مقبولة هى التى يعتمد عليها من يؤكدون النظام التقليدى للأمور.

ان قيمة الجعارين بالنسبة للأغراض التاريخية قيمة فريدة تقريبا فهى لاتختلف عن القيمة التاريخية للعملات التى عليها اسماء الملوك التى صُكت فى عصرهم، تكدس وتخفى ليجدها المنقبون بعد قرون عديدة.

نظرة ثانية على الاحداث

فى بداية هذا الكتاب، ارتفع الستار عن أرض صغيرة وشعب عريق استرشد بأنبيائه وقاده ملوك بعد ان استجمع دفاعاته وجهز جيشه ليصد

تقدم أحد أقوى الفراعنة المصريين واكثرهم افتخارا والذى كان هدفه المشاركة فى تقسيم الامبراطوية الاشورية، قبل قليل فقط من سقوط نينوى عاصمة اشوريا تحت جحافل القوات المتحالفة للكلدانيين والميديسيين والسكينيثين.

من المشهد المرسوم على قصر رمسيس الثانى تعرف ان الملك اليهودى يوشع قد قتل برمية رمح. بعد ثلاث سنوات وعلى شاطئ الفرات وقعت معركة بين الجيشين المصرى والكلدانى. وقد قورن وصف هذه المعركة بالهيروغليفيةوالرسوم على الجداريات بالسرد الوارد فى اسفار إرميا الثانى وأخبار الايام الثانى فتساوى تكوين الجيش المصرى، ومجرى المعركة ونتائجها وأثرها على شعوب الشرق الاوسط فى المصادر المصرية والعبرية.

وفى عملية اعادة ترتيب الاحداث. استطعنا ان نحدد موقع قادش من المصادر المصرية بأنها فى قرقميش شمال «أريما» و«باب» حيث تلكأت فرقتان مصريتان ثم تراجعتا بسرعة إلى مصر. وبينا ان «تل بنى ميند» ليست قادش، وأنها عرفت باسم «ربلة» القلعة التى بناها سيتى الكبير والد رمسيس الثانى. ثم استعرضنا مشهد بعض الاحداث المأساوية فى حياة ملوك اليهود كما جاءت فى الكتاب المقدس.

ولاعجب ان عدم اتفاق التاريخ المصرى مع اليهودى الكلدانى تسبب فى خطأ لايحسب مداه فى كتابة التاريخ، وخلق مشاكل محيرة بلا نهاية.

هل مقبرة «احيرام» بنيت فى القرن ١٣ ق. م، العصر المفترض لرمسيس الثانى أو فى نهاية القرن ٧ ق. م، وهل الاشياء المصرية او الاثار من بلدان أخرى تقدم مؤشرات على الوقت الذى بنيت به المقبرة؟ عشرات السنين من الجدل الطويل ولم تحل المشكلة.

ألا تقدم المقبرة الذهبية لقرقميش المشكلة نفسها؟ وهذه المرة بسبب تنافس الادلة من الطبقات الارضية ومن الجواهر المنقولة عن نقوش صخرة بوغازكوى فى ضواحى الامبراطورية الحيثية؟

ومع ذلك فقد قيل ان نقوش بوغازكوى من القرن ٧ ق. م، ثم قيل انها من القرن ١٣ حين اكتشف فى ارشيفها ترجمة بابلية للمعاهدة التى وقعها رمسيس الثانى.

ثم اخترع وجود «الامبراطورية الحيثية» نتيجة للآثار التى وجدت فى آسيا الصغرى وشمال سوريا فى المنطقة المعروفة من المؤلفين اليونان بأنها احتلت من الكلدانين، وقد وجد عليها كتابة تصويرية، وأكدت ذلك ظهور السجلات المكتشفة فى بوغازكوى.

ونمت الصعوبات الأثرية مع كل سنة تمر، حتى أنى اعترف، مع تأنيب النفس تقريبا، بأن المسألة الحيثية غير قابلة للحل، ولاجدوى من إية ترميمات حاذقة أو غير حاذقة.

أرخّت الآثار الحيثية فى سوريا بأقل مما هى عليه حقيقة بخمسمائة إلى سبعمائة سنة عن الآثار فى الاناضول، والممالك الحثية السورية هى ممالك مفترضة، بسبب ان آثارها وجدت فوق آثار من ملوك أشور (ماراش) المتأخرون، والآن نقوشهم التصويرية توازت مع نصوص مؤرخة من زمن ملوك اشور المتأخرين أيضا (كاراتيب).

وفى الاناضول، بدت للعيان أغرب طريقة فى تراصف الطبقات، وقرر مكتشفو بوغازكوى الا يلقوا انتباها إلى تراصف الطبقات التى وجدوا فيها الآثار هناك، ولكن أحد المنقبين فى «اليسار» وجد ان اثار الامبراطورية الحيثية توجد فقط فى الطبقات الخاصة بالمملكة الفرجينية أو ما بعد الفرجينية وليس قبلها ابدا.

وأن المنقب فى جوردون - العاصمةالفرجينية التى عاشت قليلا - حل صعوباته بأن افترض بأن الفرس الذين احتلوا البلاد سنة ٥٤٦ ق. م، حملوا رمل وفخار وآثار الامبراطورية الحيثية - التى لم تكن موجودة أصلا - على طول الطريق من موقع انقرة الحالى، عبر الجبال والانهار ونثروه بالتساوى فوق العاصمة الفرجينية، وهكذا تظهر الآثار الفرجينية بدقة تحت الآثار الكثيرة للامبراطورية الحيثية بدل ان تكون فى طبقة أرضية فوقها. الآثار القديمة من القرنين ١٥-١٣ ق. م، جاءت لتستلقى فوق آثار مملكة كانت نهايتها ٦٨٧ ق. م. ولكن من ٦٨٧ ق. م، إلى ٥٤٦ ق. م، ألم تشهد المنطقة أى سكان؟

وقد حذر «اكرم اكورجال» عالم الآثار التركى، دون ان يلتفت أحد إلى تحذيره، بأنه بحث عبثا على اتساع آسيا الصغرى عن أية آثار لسكان بين ١٢٠٠ ق. م وهو التاريخ المفترض لنهاية الدولة الحثية، و٧٥٠ ق. م وأعلن

إنه لم يجد أية آثار. اليس هذا التنبيه المكرر يستحق الانتباه؟

ثم هناك المؤلفون اليونان من هومر حتى هيرودت إلى سترابو وجميعهم من مواطنى اسيا الصغرى، وكلهم وصف الاجناس المختلفة التى قطنت آسيا الصغرى، لم يسمعوا قط عن الحيثيين.

ثم هناك «اكسنوفون» الذى تنقل فى الاقليم مثل هيرودت ولم يقابل الحيثيين، ولكنه وصف الارض حيث وجدت آثارهم بأنها آثار الكلدانيين. وكيف كانت عادة الكتابة على شرائط رصاصية تحفظ على شكل لفات قام بها التجار اليونانيون والحيثيون فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد.

ثم لماذا وجد فى «ارسلان تاش» نحت يونانى بموضوعات فارسية وعليه علامات حيثية؟ ولماذا ضربت النقود الخاصة بملوك كومونى على الشاطئ الغربى للفرات بكلمات ملكة حثية أيام الامبراطور الرومانى فسبسيان حيث يفترض ان الامبراطورية الحيثية قد انتهت منذ ١٣ قرنا ولايوجد يونانى او رومانى سمع عنها؟ ولكن الكلدانيين - كما يشهد المؤلفون اليونان والرومان - كانوا مازالوا موجودين فى كومونى وفى آسيا الصغرى حتى القرن الاول الميلادى على الاقل.

هناك حقائق أخرى مماثلة ومذهلة تجعلنا نقرأ الحوليات الخاصة بالامبراطورية الحيثية بحذر شديد وبعض الحدس حول هوية مؤلفيها.

والسؤال: أين سجلات الحرب لملوك الكلدانيين من الامبراطورية البابلية الجديدة؟ وعلى رأسهم نبوخذ نصر؟ سؤال مازال يسأل منذ قرأت حوليات الحرب التى كتبها ملوك اشوريون للبحث عن حل. لقد قدمت مقارنة بين حوليات عدة ملوك حيثيين متتابعين بما نعرفه عن حياة وحروب ثلاثة من الاباطرة الكلدانيين، وأعمال الحرب والسجل الدقيق للملك الذى حددته بأنه الشخصية البديلة لنابوبولاسار، ومُحّص ماهو معروف عنه من المصادر اليونانية ومن التاريخ المسمارى الذى أُلّف تحت حكم الفرس. وقارنت السيرة الذاتية لخصم رمسيس الثانى بما نعرفه عن «نبوخذ نصر» من النقوش على بناياته ومن الكتاب المقدس ومن كتابات المؤلفين اليونان. التشابه بل تطابق الشخصيات والحقائق والاحداث جعلنى أتجرأ فى التعامل مع هذه الوثائق من السجلات الملكية للامبراطورية المنسية قبل أن أعرض أمام القارئ بانوراما للكثير من

المآزق الأثرية التى ذكرت القارئ ببعضها فى هذا الفصل.

فى الفصل الاخير استأنفت سرد الاحداث التى جرت على مسرح الشرق الاوسط متتبعا نتائج معاهدة السلام بين المملكتين المصرية والكلدانية، وزيارة الملك الحثى إلى مصر حيث أحضر ابنته الكبرى لتكون زوجة لخصمه السابق، وذلك أتاح الفرصة لمقارنة صورة الملك الحثى التى رسمها فنان مصرى، مع صورة نبوخذ نصر المنقوشة على صخرة فى شمال سوريا.

فى دفناى (تاهبانهيت) نصب نبوخذ نصر سرادقة كما تنبأ «إرميا»، لكن العراف أخطأ- فقد جاء الكلدانيون هذه المرة ليس للغزو ولكن لكى يتزوج رمسيس الثانى إبنة الملك الكلدانى.

الطوب المحروق الذى كشف عنه الاثريون فى دفناى والذى تحدث عنه إرميا، وأرجعوا تاريخه إلى عصر رمسيس الثانى، وجد طوب مشابه له فى بابل، استخدم فى بناء قصر نبوخذ نصر.

الفرعون مرنبتاح (حفرامع) هو الفرعون (حفرع) فى الكتاب المقدس وفى لوحة اسرائيل وهى اللوحة التى جاء ذكر اسرائيل لأول مرة فيها، ليسمى مرنبتاح بفرعون الخروج، وهى صدى لأحزان إرميا بل صيغت بتعبيرات متطابقة وبالجمل ذاتها، وكان زمن هذا الفرعون هو زمن النفى لا الخروج.

الحملة الليبية «لمرنبتاح» نتجت عن تدخل فى شؤون كيرنايقا Cyrenaica التى تدفق عليها اليونان وشعوب شمالية أخرى بسبب هاتف الهى، وانتهت بشكل مأساوى للفرعون، ووصل العقاب - اذا كان هناك شيء كهذا فى التاريخ - إلى بيت رمسيس على يد الليبيين وليس الكلدانيين. أماسيس الذى تولى العرش، لم يكن يفصله عن الملك مرنبتاح الذى خلعه، سبعمائة سنة، بل كان معاصرا له وسجنه فى قصره حتى اليوم الذى سلمه فيه إلى الرعاع.

من المدهش، ان «سولون» الذى زار مصر، قال إنه زارها ورمسيس الثانى على العرش.!

ولكن التاريخ مدهش، وهذه احدى نواحى سحره.

هوامش الخاتمة

تانيس وسايس

1- Cf. A. H. Cardiner, Hournal of Egyptien Archacology, V (1918), 248.

2- The time of Wenamon's travels is discussed in the volume Peoples of the Sca.

3- The runis of this plain are so numerous that Ch. Hayyes suggested that tanis should be looked for some distance to the south from Sa el Hagar.

4- Even today Tunis, near the ruins of Carthage, carries the name of teh goddess Tanit as Athens the name of Athene.

كم حكم سيتى ورمسيس الثانى

1- Trans, by C. Aldred in Akhcnaten (1968), p. 102. Cf. A. Kitehen, . Ramcsside Inscriptions (1969), Vol. II, PP. 323-26. For a discussion of the question of a coregeney between Ramses II and Seti see Sehmidt, Ramses II, Ch. V, "The Coregeney," pp. 154-64.

2- North wall of the great Hypostyle Hall at Karnak.

3- Jeremiah 44: 30.

4- Herodotus, III, 103, and Africanus' version of Manetho give forty-four years as the length of Amasis' region, but Eusebius and the Armenian version

of Euseblus allot only forty-tow years to Amasis.

5- G. E. Smith, The Royal Mummics (Cairo, 1912), p. 63.

6- X-raying the pharaohs, p. 155.

7- Philadelphia Inquirer, Junes 5, 1975. p. 14.

8- Snith op. cit., p. 64.

ملكان باسم سبليليا مـوس

1- Breasted, Records, Vol, III Noter "As (Max) Müller has suggested (Vordersiatisch-ägyptiche Cesellschaft, Mitteilinger, VII) the Amatna letter may be from an earlier Sepiel (Suppiluliumas).

2- Realtexikon der Assyriologie, IV S. v. Hattina. Cf. J. D. Hawkins, "Assyrians and Hittiles," Iraq 36 (1974), pp. 81-83. The name of the country is sometimes read Pattina.

3- H. G. Güterhock, THe Deeds of Suppiluliuma as Told by His Son Mursili II," Journal of Cunciformm Studies, Vol. X (1956), pp. 41-50, 59-68, 75-130.

4- For instance, A. Coetze, "The Struggh for the Domination of Syria" Cambridge Ancient History (3rd ed; 1975), Vol. II, pt. 2, pp. 17-18; Cüterbock, "TheDeeds of Suppilaliuma," p. 94; Alan Cardiner, Egypt of the pharaohs, p. 241.

5- In the absence of a legitimate heir-the eldest son of the chief queen (W. Stevenson Smith, "The Old Kingdom in Egypt," Canbridge Ancient History (3rd ed.; 1975), Vol. I't. 2, P. 166) -the pretender sought to legitimize himself by marrying a member of the royal house: cither the chief queen berself, or a princess in the direct line of the last legitimate pharaoh.

6- Güterbock, "Deeds of Suppiluliumas," P. 94, note e.

7- R. Gauthier, Le Livre des rois (Mémoires, l'Institut fransais d'archéologie orientale du Caire, t. 20, 1916), PP. 31-42. One of Tirhaka's names, engraved on a scarab found at Tanis (Louver N.632) begins with nebkhu. See J. Leclant

and J. Yoyotte, "Scarabée Commémoratil de la crue du Nil," Kémi 10 (1949), P. 39.

8- Petrie's reading. Maspero reads "Dlkahitamanou."

9- Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 241; H. R. Hall, "The Hittites and Egypt," Anatolian Studies, presented to Sir W. M. Ramsey (London, 1923), P. 179: "We do not know this queen from Egyptian sourees. She can hardly be the same person as Tutankhamen's consort, the well-known Ankhsenamen."

10- Walter Federn, "Dahamunzu (KBo V 6 iii 8)," Journal of cuneiform Studies, Vol. XIV, No. 1 (April 1968), P. 33.

البرونز والحديد

1- Christian Thomsen. Cf. Hesiod Works and Days.

2- A. Lueas, Aneient Egyptian Materials and Industries, P. 193.

3- Lucretius differed on this point. He wrote: "The use of bronze was known before iron, because it is more easily warked and there is greater store. With bronze men tilled the soil of the earth, with bronze they stirred up the waves of war... Then by small degrees the sword of iron gained ground... then with iron they began to break the soil of the earth." De Rerum Natura (trans. W. H. D. Rouse; London, 1924), 1281 ff.

4- W. F. Hume, The Distribution of Iron Ores in Egypt (Cairo, 1909). See also his Geology of Egypt (1925-37), 2 vols.

5- Hill, A History of Cyprus, I, 82.

6- In recent years it has been conjectured that alluvial frogments of tin were brought down by winter streams from the Syrian bills to the neighborhood of Byblos and were gathered in the dry beds during the summer.

7- Isaiah 1: 25. Compare Numbers 31: 22.

8- Hiad, XI, 25 34; XVIII, 474, 565, XX, 271, ete.

9- Herodotus, III, 115.

10- Quoted by Strabo.

11- Pliny, III, 2, 9; Diodorus, V, 2.

12- Lucas, op. cit., P. 211.

13- H. Garland and C. O. Bannister, Ancient Egyptian Metallurgy (London, 1927), PP. 85-76.

14- Ibid., P. 5.

15- This view already had its proponents in the last century. Cf. St. Jogn V. Day, The Prehistoric Use of Iron and Steel (London, 1877).

16- Cf. H. C. Richardson, "Iron, Prehistoeic and Ancient," Amcrican Journal of Archaeology, XXXVIII (1934), 555.

17- R. A. Smith, "Archaeology, Iron Age," Eneyelopaedia Britannica (14th ed.), II, 252.

18- Lucas, Ancient Egyptian Materials, P. 406.

19- Sir W. M. Flinders Petrie, "The Metals in Egypt," Ancient Egypt (1915), II, 18.

20- C. A. Wainwrigth, "The Coming of Iron," Antiquity, X (1936), 7.

21- R. W. H. Vyse, Operations Carricd on at the Pyramids of Gizeh in 1837 (London, 1840), I, 275-76.

22- Olshausen, Zeitschrift für Ethnologie, 1907, P. 373.

23- Found by G. Maspero in 1882.

24- See Olshausen, op. cit., P. 374.

25- Sir W. M. Flinders Petrie, Abydos, II (Egyptian Exlloration Fund, Memoirs, Vol. 241 London, 1903), 33.

البرونز والحديد بعد سقوط المملكة الوسطى

1- I Samuel 13: 19.

2- I Samuel 17: 5-7.

ɔshua 17: 16-18; Judges 1: 19.

Iacalister, The Excauation of Gezer (1902-09), II, 269.

Vainwright, Antiquity, X (1936), 8.

. Samuel 8: 8.

Gardiner, Admonitions, 2: 2.

: Samuel 12: 31.

Chronicles 22: 3; 22: 14; 29: 7.

II Chronicles 2: 7.

N. Glueek, The Other Side of the Jordan (New Haven, 1940), PP. 51ff.

Ibid., P. 94.

See Ages in Chaos, I, 123.

N. de Garis Davies, The Tomb of Rekh-mi-re at Thebes (New York, 3), Vols. I and II.

Breasted, Records, Vol. II, See. 537.

C. Virolleaud, Syria, Revue d'art oriental et d'archéologie, IX (1928), 92.

ıa (el-Mishrife) was exeavated by Du Mesnil du Buisson.

Wainwright, Antiquiy, X (1936), 6.

Ibid., 14.

Schaeffer, Syria, Reuue d'art oriental at d'arch´cologie, X (1929), 292.

Iliad, XXIII, 826ff.

Also iron of Late Minoan I was found in Greece: Forsdyke in Annual of British School at Athens, XXVIII (1926-27), 296.

Odyssey, I, 182ff. The copper mines of Cyprus, worked since the days of Old Kingdom in Egypt and in the time of Homer, are still in operation.

Letters 22 and 25.

"One iron object, a ring, has been attributed to the Late Bronze II period. not later in any event. Four iron objects came from Early Iron I burial, a ger blade, a ring overlaid with gold, a fragment of a knife blade, and a elet." Guy, Megiddo Tombs, P. 162. On the iron foundry of Megiddo and

iron implements, see Schumacher, Tell el-Mutesellim, I, 130-32, and Watzinger, ed., Tell el-Mutesellim, II, 80-81. The date of this foundry is "uncertain, but in any case is probably before 926 c." Wainwirght, Antiquity, X (1936), 20.

25- Carter, The Tomb of Tut-ankh. Amen, Vol. II, Plates 77B, 82A, 87B; ibid., Vol. III, Plate 27.

26- Petrir, Ancient egypt. II (1915), 22.

27- Ibid., P. 22; also Petrie, Six Temples at Thebes, 1896 (London, 1897), P. 18f.

28- "The absence of iron from the list is in notieeable contrast to the harvests that had been genered by the Assyrians for two hundred years from the cities of Syria and Palestine." wainwright, Antiquity, X (1936), 22.

29- "Rather later iron tools are common in the Greek settlement of Naukratis, but they do not appear in purely Egyptian sites." Pertrie, Anck at Egypt. II (1915), 22.

30- Garland and Bannister, Ancient Egyptian Metallurgy. P. 17.

13- B. Meissnner, Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschft, LXXII (1918), 61.

32- Ezekiel 27: 19.

33- A. Ennan and A. M. Blackman, The Literature of the Ancient Egyptians (London, 1927), P. 268. Cf. A. Alt, Zeitschrift der Deutschen Morger. ländischen Gesellschaft, LXXXVI (1933),40.

34- Wainwright, Anitquity, X (1936), 19.

35- T. A. Rickard, Man and Metals (New York, 1932), I, 240.

36- "Copper and bronze were used in Egypt for arrow tips up to Arab times." Garland and Bannister, Ancient Egyptian Metallurgy. P. 104.

37- Deuteronomy 27: 5.

38- See literature in H. B. walters, Catologue of the Bronzes, Greek, Roman and Etrusean, in the British Museum (London, 1899), P. xviii.

39- J. G. Frazer, The Golden Bough (1911-35), I, :72.
40- Wainwright, Antiquity, x (1936), II.
41- Ibid., X (1936), 21.

الجعارين وعلم تراصف الطبقات

1- P. E. Newberry, Scarabs (London, 1906), P. I, note (1).
2- Ibid., P. 3.
3- For instance, ef. Petrie, IIlahun, kahan and Gurob (London, 1891), P. 24.
4- Albright, From the Stone Age to Christianity, P. 26.
5- W. F. Albright, The Excaation of Tell Beit Mirsim (New Haven, 1932), Vol. I, 76.
6- F. J. Bliss and R. A. S. Macalister, Excauations in pulestine (1898-1909) (London, 1902), P. II, 2.
7- Sellin and watzinger, Jericho, P. 157.
8- Ibid.
9- Ibid.
10- Bliss and Macalister, Excauations in Palestine, Plate 56, No. 315.
11- Macalister, The Excauation of Gezer, vol. 2, P. 329. See also PP. 314 and 323. "... found in Third Semitie debris, but no doubt properly of See and," is a recurrent phrase referring to the scarabs discovered.
12- I Samuel 6: 9-20: I kings 4: 9; II Kings 14: 11-13; II Chronicles 28: 18.
13- E. Grant, Ain Sheras Excauations (1298: 31), Pt. III (Haverford, 1934), P. 19.
14- Ibid., P. 66. It is worth noting that room 380, where the scarab was found, belongs, according to the excavator's report, to the level labeled by him Early Iron II (ibid., map 1). The Early iron II level is dated (p. 4) to between - 900 and -600. Also A. Rowe, A. Catalogue of Egyptian Scarabs... Pulestine Archacological Museam (Cario, 1936), P. 129, No. 538, agrees that the scarab

was found in the Early Iron II level.

15- "E. stellt sieh dabrt freilich uielfach heraue, dass bricer Grabung gm in die Tiefe gygangen wurde und dann Funde ans grössere Tiefe aldo ous ülteren Sahtchten zusammen mit den über dem Fussboden gemachten fun den unter derselben Schichtnummer verzeichnet werden. Tell el-Mate?? limzed. G. Watzmger (Leipzig, 929), Vol. 2, P. v.

16- H. G. May, Maierial Remains of the Megiddo Cult (Chieago, 1935), P. 35.

17- P. L. O. Guy, Megiddo Tombs (Chieago, 1938), P. 185.

18- Fisher, The Excauation of Armageddon, P. 16.

19- Ages in Chaos, Vol. 1, PP. 143-77.

20- Ibid., P. 60.

21- R. S. Lamon and G. M. Shipton, Megiddo I (Strata I-V) (Chicago, 1939), P. 61.

22- I Kings 9: 15.

23- Fisher, The Excauation of Armegeddon, P. 73.

24- Reisner, Fisher, and Lyon, Haruard Excauations at Samaria, Vol. 1, P. 377.

25- Ibid, P. 247.

26- Doubts as to this identification were expressed, for the Bible refers to Zerah as an Ethiopian and Osorkon was a Libyan. G. Maspero (The Struggle of the Nations, P. 774, note) remarks: "Champollin identified Osorkon 1 with Zerah, who according to 2 Chronicles 14: 9-15; 16: 8, invaded Judah. But this has no historical value, for it is clear that Osorkon never crossed the Isthmus {of Suez}."

27- Ages in Chaos, Vol. a, Chap. V.

28- Albright, Archauology and the Religion of Isracl, P. 41; idem., in Ancient Near Eastern Texts. ed. pritchard, P. 321.

29- Reisner, Fisher, and Lyon, Haruard Excauations at Sammia. P. 131.

30- "La date des ostraca de Samarie est fixée par les cheowbnaes de la

trovaille et cette date est confirméparb la présence dans les memes débris de fragments d'une uase au nom d'Osorkon II (874-884).contc mporain d'Achad." R. Dussaud, "Samarie au temps d'Achab," Syria 1925. This statement, compared with the record of the exeavator., isnot precïse Jack, Samaria in Ahab's Time, P. 41, also says that Osorkon's jarwas found "in the same debris" as the ostraca

قــوائــم متزامنــة

السنة ق.م	مصر	يهودا	كلديا	ليديا-فريجيا	ميديا-الفرس	اليونان
٦١٥				الياتسى أصبح ملكا لليديا سنة ٦١٧ وشن حربا ضد ميليتوس	حكم سياكسارس ٦٣٤-٥٩٧ وحارب نينوى سنة ٦١٢ ق.م	سولون-أثينا
٦١٠	رمسيس الثاني حاكما مفردا ٦٠٩ ق.م	يوشع مات فى معركة ٦٠٨ ق.م وأصبح يهوياقيم ملكا	وفاة نابوبولاسار مورسيليس ٦٠٧ ق.م			
٦٠٥	معركة قرقميش		حكم نبرجل (نيرجلسار) ولاماش ماردوخ			طاليس (مليتوس)
٦٠٠			نبوخذ نصر يستولى على العرش ٦٠٠ ق.م			
٥٩٥					استاجيس أصبح ملكا على ميديا ٥٩٤ ق.م	
٥٩٠	معاهدة مع نبوخذ نصر ٥٨٨ ق.م	سبل عينى صدقيا وسقوط القدس ٥٨٧ والنفى إلى بابل	معاهدة مع رمسيس الثاني ٥٨٨ ق.م			

٥٨٥		النفى إلى بابل ومقتل جيداليا				
٥٨٠	زواج رمسيس الثانى من ابنة نبوخذ نصر ٥٧٧ ق.م					
٥٧٥		إرميا فى مصر				
٥٧٠	تبوأ مرنبتاح العرش ٥٦٩ ق.م		نبوخذ نصر يزور رمسيس الثانى			
٥٦٥	حرب ليبيا ضد مرنبتاح	حزقيال				بستراتوس
٥٦٠	وفاة نبوخذ نصر وتولى إفل ماردوخ	وفاة الياتيس وكروسيوس ملكا	قورش ملكا على فارس			
٥٥٥		حكم نيرجيلسار II				
٥٥٠			حكم لاباش ماردوخ الاول	كروسيوس يغزو بوغازكوى ٥٤٦ نهاية ليديا	قورش يغزو ليديا ٥٤٦ ق.م	

٥٤٥ ٥٤٠			نابو نيدس وبالشا زار ٥٥٦-٥٣٨		قورش يغزو بابل ٥٣٨ ق.م	
٥٣٥		مرسوم قورش أول المنفيون يعودون				بوليقرطيس ساموس
٥٢٥	قمبيز يغزو مصر					

عصور فى فوضى
فهرس السفر السادس

عصور فى فوضى
فهرس المجلد الرابع

